رحلة الخلافة العباسية (٣)

آخر أيام العباسيين

الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد

محمد شعبان أيوب



بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب

أيوب ، محمد شعبان

آخر أيام العباسيين: الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد

تأليف/محمد شعبان أيوب

ط١. - القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٣

(٦٦٤ص)، ٢٤ سم تدمك: ٣-٨٩٥-٤٤١ - ٩٧٧ -٩٧٨

١ - العباسيون

أ. العنوان ٩٥٣,٠٨٦

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢١٦٩٣م

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

الإدارة: ١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط

ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١١٢١٢٠٢٤٧٢

مكتبة اقرأ — الأزهر: ش ابن البيطار خلف الجامع الأزهر

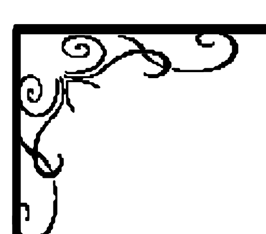
ت: ٢٥١٤٢١٦٧ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٧

مكتبة اقرأ — جامعة القاهرة: ٤ ش حلمى بين السرايات مطلع كوبرى ثروت

ت: ٣٧٦٠٤٨٩٦ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٨

www.Iqraakotob.com

E-mail:iqraakotob@yahoo.com



رحلة الخلافة العباسية

(١)

العباسيون الأقوياء

رحلة العباسيين منذ بداية الثورة حتى نهاية عصرهم الذهبي

(٢)

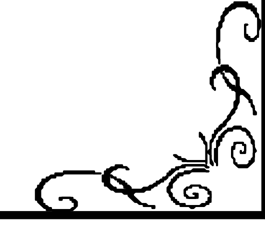
العباسيون الضعفاء

الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية

(٣)

آخر أيام العباسيين

الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد

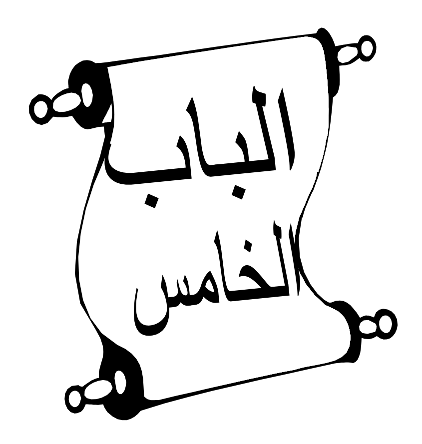


لمحـــة

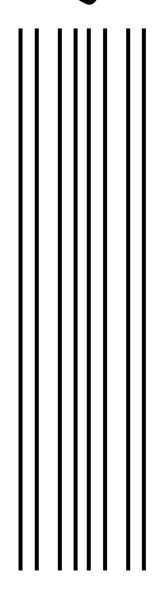
إنَّ نظـرةً ثاقبـةً في مؤلَّفـات التَّـاريخ والطَّبقـات والتّـراجم والسِّـير، واسـتجلاءها بـل ومحاولـة استنطاقها لتؤكّـد لنـا أنّ الإنسـان هـو الإنسـان عبر مسيرة الـزَّمن في العواطـف والمشاعر وطرائـق التّعبير وتحقيق الآمال والأهداف والغايات، ثـمّ إنَّ هـؤلاء الـذين سـدّوا ثغـرات الحيـاة في أزمنـتهم مـا لبثوا أن رحلوا، وأضحوا تاريخًا يقرأ، وسيرةً يعتبر بها، فالموت قدر على استحصاد أرواحهم، وتفريق شملهم، وإذهاب ريحهم وقوّتهم، والنّتيجة أنَّ الموت باقٍ، والإنسان فانٍ، ومع ذلك يجب أن يكون..

الموت وقودَ العمل!

محمد شعبان أيوب



عصر سيطرة السلاجقة





عصر سيطرة السلاجقة

قال نظام الملك الطوسي وزير السلاجقة الشهير: «إن اتِّخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الأخطار والتخريب والفساد وعدم الجدية والبلاء في الحرب، ينبغي أن يؤسس الجيش من كل جنس وملة»[1].

* * *

كانت الفلسفة العسكرية هي الفلسفة الطاغية على فكر الأتراك عمومًا والسلاجقة بطبيعة الحال، وكان لطغيان هذه الأفكار العسكرية حيث الصرامة والتزام الفكر الأحادي ونضوب الثقافة وجدب الإبداع أكبر الأثر في تشويه نظام الدولة الإسلامية السياسي، حتى أصبحت السيطرة العسكرية مقابلًا للطغيان السياسي، الذي يُشوّه بدوره من الفكر الاجتماعي الإسلامي الذي قدّم الأمة على الدولة!

وإننا في هذا الباب نتناول مرحلة جديدة من الانبطاح العباسي، من التبعية السياسية والعسكرية للدولة البويهية، إلى ذات التبعية للدولة السلجوقية؛ صحيح أن هؤلاء السلاجقة تمثّلوا بدور المخلِّص الذي خلَّص العباسيين من القهر التركي والبويهي؛ لكنها في نهاية المطاف استطاعت بكل جدارة أن تبدّل قهرًا بقهرٍ!

وخلفاء هذا العصر هم:

- أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله
- أبو القاسم عبد الله المقتدي بأمر الله
- أبو العباس أحمد المستظهر بالله
- أبو منصور الفضل المسترشد بالله
- أبو جعفر المنصور الراشد بالله

---

(١) نظام الملك الطوسي: سياست نامة، تحقيق يوسف حسين بكار ص١٤٠.

القائم بأمر الله

(من ذي الحجة ٤٢٢هـ إلى شعبان ٤٦٧هـ)

كنا قد تناولنا سابقًا الخليفة القائم بأمر الله من حيث ولايته للعهد وخلافته وهو شاب في الحادية والثلاثين من عمره، وهو كدأب من سبقوه من خلفاء العباسيين في المرحلة البويهية لم يكن له من الأمر سوى الرسوم والبرتوكولات وبعض المخصصات المالية للإنفاق على نفسه وأقربائه وحاشيته وليس له من الحكم شيء بسبب سطوة الأمراء الأتراك وقد قيل: «إن الأمراء الأعاجم كانوا متولّين البلاد كلها حتى بغداد عينها، ولم يدعوا للخليفة سوى أرزاقه لا غير»(١).

عشرون عامًا خاملة!

على أننا قبل أن نتحدث عن سياسة القائم بأمر الله في الأعوام العشرين الأخيرة من خلافته يجب أن نقرر أن تفكك عرى الدولة ومحاولات التحكم فيها من أطراف شتى، من البويهيين تارة، والبساسيري أخرى، ومن بعض الأمراء الأتراك، ثم من الخليفة ووزيره، ثم اضطراب أحوال العراق بالكلية نتيجة لعسف السلاجقة وإن أنقذوا الخلافة من الضياع قد أتبعه نتيجة طبيعية تمثّلت في الاندفاع العاطفي لعامة أهل بغداد وهم من السنة في مجملهم الذين ضاقوا ذرعًا بسوء الخدمات والصراعات السياسية، نقول: قد اندفعوا مؤيدين للبساسيري عند دخوله بغداد في غفلة من طغرلبك وضعف الخليفة عن الدفاع عنها سنة ٤٥٠هـ، وهذه اللفتة قد تفسّر لنا إلى أي درجة كان القائم بأمر الله وإن طالت خلافته لمدة ٤٥ عامًا متصلة ضعيف الرأي، محجورًا على أمره سواء مع البويهيين أو البساسيري أو السلاجقة!

وعلى كل كان الوضع منذ عام ٤٥١هـ قد بدأ في الاستقرار بعد سيطرة السلاجقة على كامل إقليم العراق من الموصل شمالًا حتى البصرة جنوبًا كما سنرى، ولم يكن يتخلل هذا

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٨٤.

الهدوء إلا بعض المشاحنات والمفاسد من العيّارين[١] واللصوص وقطاع الطرق وبعض القبائل العربية، ومثلما كان للبويهيين دار للملكة وعميد للعراق، اتبع السلاجقة سنة البويهيين في السيطرة وظل الخليفة القائم على الهامش من الحكم أو السيطرة، برغم إجباره على زواج ابنته من السلطان طغرلبك وكان شيخًا هرمًا على أعتاب الموت، فضلا عن زواج الخليفة نفسه من ابنة طغرلبك وقيل من ابنة أخيه، وكان لهذا الزواج على كل حال أسباب سياسية، وإن لاقى القائم فيها صنوف الإجبار والقهر، قال الذهبي: «زوَّج الخليفةُ بنته بطغرلبك بعد أن دافع بكل ممكنة وانزعج واستعفى، ثم لان لذلك برغمٍ منه، وهذا أمرٌ لم ينله أحد من ملوك بني بُوَيْه، مع قهرهم للخلفاء وتحكّمهم فيهم»[٢]. بل إنه أراد أن تبقى ابنته في بغداد إذا غادرها طغرلبك لكن طلبه قوبل بالرفض، وقد كان غرض زواج طغرلبك «التبجّح والتفاخر على أبناء جنسه»[٣].

وحتى بعد وفاة السلطان طغرلبك وارتقاء ابن أخيه ألب أرسلان بن داود لسدة السلطنة السلجوقية لم يتغير الوضع على الإطلاق، فمثلًا كما جرت العادة بين السنة والشيعة في بغداد من فتن فإن من كان يتكفل بوأدها إذا استفحش أمرها نواب وموظفو ألب أرسلان مثلما حدث سنة ٤٥٨هـ[٤].

على أن جل اهتمام القائم بأمر الله في هذه السنين لم يكن سوى الإشراف والسعي لحل بعض مشكلات أهل بغداد وتجديد العمائر العامة وتحسين الخدمات إن استطاع إلى ذلك سبيلًا، فضلًا عن تعيين الموظفين العمومين وعلى رأسهم الوزير ورؤساء الدواوين والحجاب وقاضي القضاة وغيرهم.

وقد وقع غرق بغداد قبل وفاته بعام راح فيه ألوف من الضحايا، ثم وافته المنية في ١٣ شعبان سنة ٤٦٧هـ، وقد كان القائم بأمر الله «ذا حظ من تعبد وصيام وتهجد، لما أن أعيد إلى خلافته قيل: إنه لم يسترد شيئا مما نهب من قصره، ولا عاقب من آذاه، واحتسب وصبر، وكان

---

(١) العيارون: المفسدون.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ١٦/ ٨٧.

(٣) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص١٩٨.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٩٤. طبعة دار الكتب.

تاركا للملاهي - رحمه الله-»[١]. وقد عهد بالخلافة لحفيده عدة الدين عبيد الله بن محمد الملقب بالمقتدي بأمر الله[٢]؛ وقد كان ولده ذخيرة الدين محمد قد توفي سنة ٤٤٧هـ[٣].

من هم السلاجقة؟

يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين يُقيمون في الصحراء الشاسعة التي تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وقد عُرفوا باسم الغُزّ، ولاحقًا باسم التركمان[٤] وهم جزء منهم بطبيعة الحال، و«الترك أصحاب عُمد وسكان فيافٍ[٥] وأرباب مواشٍ، وهم أعراب العجم فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات، والطب والفلاحة والهندسة؛ ولا غرسٌ ولا بيانٌ، ولا شقّ أنهار، ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال، وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرةً ومقصورةً عليها، وموصولة بها أحكموا ذلك الأمر بأسره، وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم، ولذتهم وفخرهم، وحديثهم وسمرهم. فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة، وأهل الصين في الصناعات..»[٦].

وقال ابن الفقيه الهمداني (ت٣٦٥هـ): «منهم بادية يحلون ويرتحلون وينتجعون[٧] الغيث ويتبعون الكلأ كما تفعل البوادي في بلد الإسلام. وهم لا يدينون لملك ولا يعطون طاعة لأحد. يغير بعضهم على بعض فيسبون الحرم والذراري، وربما فارق القوم منهم الحيّ الذي كانوا فيه وصاروا إلى حي آخر..»[٨].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٠٨.
(٢) انظر ملحق تولية القائم ولاية العهد لحفيده المقتدي.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٠/ ٢٢.
(٤) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص١٨٨.
(٥) صحاري.
(٦) الجاحظ: الرسائل ١/ ٧٠، ٧١.
(٧) ينتجعون: يطلبون. ابن منظور: لسان العرب، مادة نجع ٨/ ٣٤٧.
(٨) ابن الفقيه: البلدان ص٦٤٣.

ولقد كثرت هجرات الغُزّ إلى شواطئ نهر جيحون في وسط آسيا بعد ضعف الدولة السامانية بحثًا عن المراعي الوفيرة، وبسبب القهر وعدم الصمود أمام أعدائهم، وتمت هذه الهجرات في القرون الثاني والثالث والرابع من الهجرة من أقصى تركستان.

غير أنه يكتنف أصل السلاجقة بالتحديد بعض الغموض ويبدو أن سلجوق جدهم كان ابنًا لقائد جيش يُدعى دقاق ليوغو أو بيغو ملك الخزر – جنوب روسيا – ولقد حدثت خلافات بين يوغو ودقاق اضطر على إثرها سلجوق بن يوغو وأسرته إلى هجر ديارهم سنة ٣٧٥هـ والهجرة ناحية «جَند» بالقرب من نهر سيحون في بلاد ما وراء النهر ومعه ألف فارس وألف بعير وخمسون رأسًا من الماشية، وكان أفراد القبيلة وثنيين وهداهم الله إلى الإسلام بفضل توطد العلاقات بينهم وبين أهل «جَند» المسلمين[1].

(١) عصام الدين عبد الرؤوف: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ص١٣٨.

يقول بارتولد: «أما عن نشاط سلجوق هذا فإنا نعلم أنه أسلم وخلّص سكان الوادي الأدنى لنهر سيحون من الجزية التي كانوا يدفعونها للغُزّ، وكان يمكن أن نستنتج من هذا أن العلاقات كانت وثيقة بين المسلمين الذين يسكنون حوض سيحون وبين ذرية سلجوق .. وقد قامت بعض بطون الغز بفتوحات واسعة وبهجرات إلى بلاد بعيدة»[١].

والحق أن إسلام هذه القبائل التركية وهم بدو العجم قد أتاح لهم فرصة الاستقرار الحضاري الذي يغرسه الإسلام في طبائع البشر، حيث استقرت هذه الجموع في نواحي سمرقند وبخارى في أواخر القرن الرابع الهجري، وقد تعاونوا مع السامانيين في حماية الثغور الشرقية للخلافة العباسية فضلا عن نشر الإسلام فيما وراء هذه الحدود بين القبائل الوثنية، ثم بدأ السلاجقة في الظهور بعد سقوط السامانيين سنة ٣٩٥هـ.

وقد أدّت هجرتهم وازدياد قوتهم العسكرية إلى الصدام المتوالي مع القوة الكبرى التي كانت تمتد من شمال الهند في الشرق إلى العراق في الغرب، ومن خراسان[٢] وطخارستان[٣] وجزء من بلاد ما وراء النهر في الشمال إلى سجستان[٤] في الجنوب وقتئذٍ وهي الدولة الغزنوية، «وكانت قوة السلاجقة في بلاد ما وراء النهر قد تعاظمت في بداية القرن الخامس الهجري مما أثار حفيظة السلطان محمود الغزنوي فقام في سنة ٤١٥هـ بعبور نهر جيحون لمقاتلتهم، فنجح في القبض على زعيمهم أرسلان وولده قتلمش وعدد من كبار أصحابه وبعث بأرسلان إلى الهند حيث مات في السجن بعد أن قضى فيه سبع سنوات، وبعد أربع سنوات ٤١٩هـ خرج السلطان محمود لقتال السلاجقة مرة أخرى بناء على التماس سكان مدينتي نسا و باورد فأنزل بهم هزيمة ساحقة»[٥].

ومن ثم «ظل السلاجقة بعد الهزيمة يتحينون الفرص للثأر من الغزنويين فكان لهم ذلك بعد وفاة السلطان محمود وقيام ابنه مسعود بمهام السلطنة عام ٤٢١هـ، حيث تمكنوا من

---

(١) و.بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان ص١١٩.
(٢) إقليم قديم يشمل أجزاء من شرق إيران وأفغانستان وبعض مناطق آسيا الوسطى حاليًا.
(٣) طخارستان، تقع على ضفتى نهر جيحون، وعاصمتها بلخ. ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٢٣. وهذا الإقليم موضعه شرق وشمال شرق أفغانستان وجزء من الوسط الغربي لباكستان الآن.
(٤) سجستان أو سستان إقليم يقع في شرقي إيران، جنوبي خراسان وشمالي بلوجستان.
(٥) الصلابي: دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامى لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ص٢٨.

الانتصار على جيوشه لكنهم اتصلوا به وعرضوا عليه الصلح والدخول في طاعته فاستجاب لهم ومنح زعماءهم الولايات وأسبغ عليهم الألقاب وأغدق عليهم الخلع، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الغزنويون يدركون مدى الخطر الذي كان يشكله السلاجقة عليهم؛ لذلك فقد أمر السلطان مسعود عامله على خراسان سنة ٤٢٩هـ بقتال السلاجقة فدارت الحرب بين الطرفين قرب مدينة سَرخس وقد انتهت دولتهم حيث اندفعوا بعدها بقيادة زعيمهم ظفر بك نحو نيسابور التي دخلها وأعلن نفسه سلطانًا على السلاجقة وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي في السنة نفسها ٤٢٩هـ»[١].

ولقد أدت هزائم الغزنويين إلى توسع الدولة السلجوقية في كل من خراسان ومرو ونيسابور وبلخ وطبرستان في عام ٤٢٩هـ، ثم الجبال وهمذان ودينور والري وأصفهان ما بين عامي ٤٣٣هـ و ٤٣٧هـ، ثم في الفترة ما بين عامي ٤٣٧هـ و٤٤٢هـ واستولوا على خوارزم وأصفهان وأذربيجان ثم استولوا على كامل إقليم إيران.

وأما السلاجقة فهم على ثلاث شعب:

الأولى حكمت إيران (عراق العجم) والعراق (العربي) وعدد أفرادها سبعة عشر فردًا، تولت مقاليد الحكم من سنة ٤٢٩هـ حتى سنة ٥٩٠هـ، وكانت عاصمة دولتهم في أصفهان في بادئ الأمر ثم انتقلت إلى همذان حتى سقوط الدولة على يد الخوارزميين[٢].

والثانية؛ حكمت كرمان وعدد أفرادها اثنا عشر شخصًا منذ عام ٤٣١هـ حتى سنة ٥٨٣هـ.

والثالثة؛ حكمت آسيا الصغرى ويطلق عليهم سلاجقة الروم منذ عام ٤٨٠هـ حتى عام ٧٠٠هـ.

---

(١) الصلابي: دولة السلاجقة، نقلا عن سميرة الجبوري، الدولة السلجوقية منذ قيامها ص٢٨.

(٢) سنقف مع هذه الدولة بالتفصيل لعلاقتها المباشرة بالخلافة العباسية، حتى وسم هذا العصر بعصر سيطرة السلاجقة.



الدولة البيزنطية
قونية
أضنة
طرابزون
خلاط
ديار بكر
الموصل
بغداد
بلاد الكرج
أذربيجان
بحر الروم
مصر والشام
القدس
بادية الشام
الجزيرة العربية
المدينة
مكة
البصرة
الأهواز
كرمنشاه
همذان
قزوين
الري
كاشان
أصفهان
اصطخر
شيراز
بحر قزوين
الخليج العربي
السلاجقة
جرجان
كرمان
مكران
خليج عمان
بحر العرب
خراسان
نسا
نيسابور
أبيورد
مرو
سرخس
هراة
مرو الروذ
باذغيس
الطالقان
بلخ
ترمذ
ما وراء النهر
الدولة الغزنوية
قندهار
غزنة
كابول
قلات
قصدار
أرمائيل
الديبل
البيرون
المنصورة
بيشاور
ملتان
أجمير
دهلي
أجرا
قنوج
بلاد الصين
الهند

بحر الروم
مصر والشام
القدس
الدولة البيزنطية
قونية
أضنة
طرابزون
أذربيجان
مكة
المدينة
الجزيرة العربية
بادية الشام
ديار بكر
خلاط
الموصل
بغداد
البصرة
الأهواز
كرمنشاه
همذان
قزوين
الري
كاشان
أصفهان
اصطخر
شيراز
دولة السلاجقة
جرجان
كرمان
نسا
نيسابور
أبيورد
مرو
سرخس
خراسان
هراة
باذغيس
مرو الروذ
الطالقان
نسف
بخارى
سمرقند
ترمذ
بلخ
قندهار
غزنة
كابول
ما وراء النهر
طشقند
إيلاق
بيشاور
ملتان
بنة
راور
المنصورة
البيرون
الديبل
أرمائيل
خليج عمان

الجائزة الكبرى .. العراق!

إن الدولة التي استطاعت عبر سنين قليلة في السيطرة على رقعة جغرافية وبشرية وثقافية بطبيعة الحال تمتد من حدود الصين شرقًا إلى حدود السند جنوبًا إلى شمال إيران شمالًا بل إلى التّماسِّ مع الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية شرقًا لهي دولة جديرة بالمكانة التي ستحتلها عبر السنين التالية، لا سيما في ظل جبهة داخلية متماسكة، وجهوزية عسكرية وقتالية على درجة عالية من التقدم مقارنة بمعايير القرن الخامس الهجري، لذا لم يكن أمام الخليفة الضعيف القائم العباسي في ظل المشتركات الكثيرة وعلى رأسها العقدية والسياسية إلا أن يتجه إلى الشرق، إلى السلاجقة الأقوياء ليخلصوه من نير الاستبداد البويهي المركّب!

الطريق إلى بغداد

من اللافت أن السلاجقة حرصوا منذ بدايات توسعهم وانتشارهم على التمسك بالمذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي بكل ما أوتوا من قوة، وطبقا لما أوردناه سابقًا من تحكم البويهيين بالخلافة العباسية واستهزائهم بها، فضلًا عن المشاكل السياسية والاجتماعية التي أحدثها هؤلاء البويهيون فلم يكن من مفر سوى الالتجاء إلى السلاجقة الفاتحين الذين استولوا على معظم إيران ووسط آسيا، ومن ثم دعا الخليفة العباسي القائمُ زعيمَ السلاجقة طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق لدخول بغداد وللقضاء على هذا الوضع الشاذ الذي استمر ما يزيد على قرن من الزمان، وكان القائم قد اعترف بالدولة السلجوقية سنة ٤٣٣هـ، ما يعني أن العلاقات بينه وبينهم كانت على أكمل وجه منذ ذلك التاريخ.

ويذكر الأصفهاني في تاريخه لآل سلجوق أن رسول الخليفة هبة الله بن محمد بن الحسن ابن المأمون قد أقنع طغرلبك لدخول بغداد لإخراج البويهيين منها؛ فقد «حرّك عزمه فعزم على الحركة واندفع كالسيل، ولم يترك الترك وردًا إلا شفهوه، ولا نارًا إلا أرّشوها، ولا دارًا إلا شعثوها، ولا عصمة إلا رفعوها، ولا وصمة إلا وضعوها، وأجفل الملوك من خوف أقدامهم، وتنحوا من طريق ضرامهم، فما جاءوا إلى بلدة إلا ملكوا مالكها، وملأوا مسالكها، وأرعبوا ساكنيها وأسكنوها الرعب، وغلبوا لولاتها وولوها الرعب، وأشاعوا مد اليد بالغارة الشعواء»[1].

---

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٨، ٩. مطبعة الموسوعات – مصر، ١٩٠٠م.

ولعل هذه الأوصاف التي أضفاها عليهم الأصفهاني هي من التكتيكات الحربية التي كانت شائعة في عصرهم بغية إرهاب عدوهم الرابض في بغداد، وهي تشبه ما قام به التتار من بث الرعب، والفوضى، ونشر الشائعات التي تهدم القوى المعنوية لأي جيش.

وبحلول العام ٤٤٧هـ أصبح السلاجقة - كما رأينا - أكبر قوة في العالم الإسلامي خاصة بعد أن تغلبوا على الغزنويين وتوغلوا داخل أراضي الدولة البيزنطية واصطدموا بجيش الروم وبذلك أعطوا دفعة قوية للجهاد ضد الروم الذين عاثوا فسادًا أيام البويهيين في أراضي الخلافة العباسية لعدم قدرة الخلافة ولعدم اكتراث أمراء البويهيين بالجهاد، وقد أكسب هذا العمل وبهذه الصورة السلاجقة شعبية كبيرة وسمعة حسنة بين جماهير الناس التي كانت في الماضي القريب ترى وتسمع عن تغطرس الروم وتنادي السلطة بضرورة مجابهتهم دون جدوى.

وكانت السلطة البويهية في بغداد تتداعى بسبب الخلافات بين الأمراء البويهيين من جهة ورجال الدولة من جهة أخرى، والانشقاق في صفوف الجيش البويهي خاصة بين فرعيه الرئيسين التركي والديلمي، ويبدو أن الدعوة وجهت السلاجقة لدخول بغداد ليس من قبل الخليفة العباسي فقط بل من قبل الوزير رئيس الرؤساء ابن المسلمة والذي كان على خلاف شديد مع قائد الجيش التركي أبو الحارث البساسيري الذي اعتنق مذهب الفاطميين العبيديين وخطب لهم؛ فلقد «أطلق رئيس الرؤساء لسانه في البساسيري وذمه، ونسبه إلى مكاتبة المستنصر صاحب مصر[1]، وأفسد الحال مع الخليفة إلى حد لا يرجى صلاحه، وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري، فأبعده»[2].

في ظل هذا التشرذم السياسي، والمشاحنات الكبرى بين كبار القوم في العراق كان الطريق مفتوحًا أمام طغرلبك السلجوقي لدخول بغداد، وهذا ما قام به فعلًا في شهر المحرم من سنة ٤٤٧هـ وكان طغرلبك قد أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر والقضاء على حكم المستنصر بالله الفاطمي هناك، فسار إلى همذان وأمر أتباعه بإعداد

(١) المستنصر العبيدي خليفة الفاطميين في مصر في الفترة ما بين ٤٢٧ إلى ٤٨٧هـ ويعد بذلك أطول الخلفاء حكمًا على الإطلاق. محمد بن علي الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ص١٠٤، ١٠٥، والزركلي: الأعلام ٧/ ٢٦٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٢٥. تحقيق عمر عبد السلام تدمري.

الأقوات والمؤن، وأرسل إلى الخليفة العباسي يخبره بأنه يدين له بالطاعة ويستأذنه في دخول بغداد - وهو في طريقه إلى مكة - فأذن له، ودخل العراق عن طريق حلوان من السنة نفسها(١).

في هذه الأثناء هرب أبو الحارث البساسيري بمن معه من الجند إلى الشام، وخلا الطريق من حلوان(٢) إلى النهروان(٣) ومن ثم بغداد أمام ركن الدولة طغرلبك سالكًا، وكان من الطبيعي أن يخرج الملك الرحيم أبو نصر البويهي الضعيف الحيلة، القليل الخبرة، آخر البويهيين في العراق، ورئيس الرؤساء ابن المسلمة وكان «صدرا يملأ العين منظرا وفضلا وبراعة وسياسة وعقلا وتدبيرًا»(٤) لمقابلة ملك السلاجقة ووزيره عميد الملك أبو نصر الكندري.

قابل رئيس الرؤساء طغرلبك على مشارف بغداد بموكب هائل جعل الكندري يتهيبه، وقد واجه طغرلبك بجملة يستوضح فيها سبب مجيئه بقوله: «يا ركن الدولة إن الله- تعالى- أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها»(٥). وكان على طغرلبك أن يؤكد ما أخبر به سالفًا بقوله: « إنما قصدت هذا الجانب لثلاثة أمور: أحدها: لأقبّل العتبة الشريفة النبويّة وأنتمي إلى خدمتها. والثاني: لأحجّ إلى بيت الله تعالى وأفتح طريق الحج من صوب العراق. والثالث: لأقصد مصر وأنتزعها من يد الخارج الّذي بها وأقيم الدعوة على منابرها لبني العباس. ثم عاد رئيس الرؤساء وأخبر الخليفة بذلك»(٦).

على أن طغرلبك حرص على استرضاء كبار قادة الترك في بغداد عن طريق المراسلات، وكانوا قد ساعدوا الخليفة القائم في إقصاء كبيرهم وقائدهم أبو الحارث البساسيري، شريطة ألا يأتي السلاجقة إلى بغداد بموافقة مؤسسة الخلافة، ولذلك فإنهم رفضوا هذه المراسلات

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٢٥، تحقيق تدمري.
(٢) اسم لمدينة قديمة في منطقة جبال زاغروس وهي اليوم بغرب إيران قريبا من كرمنشاه ونهر ديالى. ويُطلق عليها «سريول الذهب».
(٣) النهروان تقع جنوب شرق بغداد العاصمة والجزء الشمالي منها يقع قرب ملتقى نهر ديالى مع نهر دجلة والنهروان منطقة زراعية أصلا تحولت مؤخرًا إلى مدينة في الضواحي.
(٤) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص١٨٨.
(٥) ابن العمراني: الإنباء ص١٨٩.
(٦) ابن العمراني: الإنباء ص١٨٩.

و«راسلوا الخليفة في المعنى، وقالوا: إننا فعلنا بالبساسيري ما فعلنا، وهو كبيرنا، ومقدمنا، بتقدم أمير المؤمنين، ووعدنا أمير المؤمنين بإبعاد هذا الخصم عنا، ونراه قد قرب منا، ولم يمنع من المجيء. وسألوا التقدم عليه (في العود) ، فغولطوا في الجواب، وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه، ويختار انقراض الدولة الديلمية (البويهية)»[1].

على كل حال، قَبل الخليفةُ هذه المسوغات التي جاء بها طغرلبك، وكانت جملة مكرورة بطبيعة الحال؛ إذ إن المراسلات بين الجانبين والعلاقات الوطيدة بينهما منذ الاعتراف بسلطان السلاجقة على كامل إقليم إيران منذ عام ٤٣٣هـ قد سهّلت وقوّت الروابط بين الجانبين، فضلًا عن زواج القائم بإحدى أميرات السلاجقة الأميرة خديجة أرسلان خاتون ابنة الأمير جغري بيك وهو أخو السلطان طغرلبك ووالي إقليم خراسان.

مقدمات انقلاب البساسيري!

استقر طغرلبك بقواته في بغداد، وقد قرّبه الخليفة القائم، واستقبله استقبالًا حافلًا، في ظل وجود الملك الرحيم البويهي وكثير من قادة الأتراك وجنودهم، وكان من الطبيعي في ظل انعدام وجود معسكرات ثابتة للعسكر السلجوقي أن يختلطوا بسكان بغداد، ويتعاملوا معهم، ويشتروا منهم، وكان طغرلبك قد أمرهم بمعاملة الأهالي معاملة كريمة، وألا يتعدوا على أملاكهم وحقوقهم، لكن في ظل اللغة المختلفة فهِم أحد عامة بغداد أن جنديًا سلجوقيًا يريد أن يأخذ منه تبنًا لدابته غصبًا، الأمر الذي جعله يطلب الغوث والمدد من الناس، وظن الناس في تعقيد الوضع وعدم وجود منشور عام يوضح أنه لا توجد مشكلة على السطح بين الأتراك والسلاجقة؛ فقد فهموا خطأ أن العساكر السلجوقية تتقاتل مع الأتراك والديالمة من أتباع البويهيين الباقين، ما جعل الفتنة تطال كافة بغداد حتى وصل الأمر إلى مقابر الخلفاء أنفسهم، وحدثت مقتلة كبيرة بين العامة والسلاجقة راح ضحيتها المئات من الناس.

ظن السلطان طغرل أن الملك الرحيم قد سلّط قادته وجنده لإحداث هذه الفتنة بالفعل وأرسل «إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأجناده، ويقول: إن حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور أيقنتُ أن ما جرى إنما كان بوضع منهم. وأرسل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٢٦ تحقيق تدمري.

للملك الرحيم وأعيان أصحابه أمانا لهم، فتقدم إليهم الخليفة بقصده، فركبوا إليه، وأرسل الخليفة معهم رسولا يبرئهم مما خامر خاطر السلطان، فلما وصلوا إلى خيامه نهبهم الغُز (السلاجقة)، ونهبوا رسل الخليفة معهم، وأخذوا دوابهم وثيابهم. ولما دخل الملك الرحيم إلى خيمة السلطان أمر بالقبض عليه وعلى من معه، فقبضوا كلهم آخر شهر رمضان، وحبسوا، ثم حمل الرحيم إلى قلعة السيروان[١]»[٢].

لكن هذا الغدر من طغرلبك وهو شيخ على أعتاب السبعين من عمره، جعل الخليفة يغضب غضبًا شديدًا؛ إذ من مصلحته أن تكون القوى متوازنة في بغداد، فلا يتمايز فريق على آخر لتظل الكلمة العليا للقائم، ومن ثم أرسل القائم بلهجة حادة للسلطان طغرلبك يقول: «إنهم إنما خرجوا إليك بأمري وأماني، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أفارق بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقادا مني أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد، وحرمة الحريم تعظم، وأرى الأمر بالضد»[٣].

وكان في ظل هذه الحالة من غضب القائم العارم، وتهديده بترك بغداد، أن يتراجع طغرلبك عن هذه القرارات أو بعضها، والحق أن تهديد القائم بترك بغداد يُعد في الأعراف السياسية يومئذ أمرًا عظيمًا وليس مجرد انسحاب؛ لما للخليفة من مكانة كبيرة في نفوس كل الناس في كل الأقاليم الإسلامية وإن لم تكن تابعة له، الأمر الذي يظهر طغرلبك بمظهر الغادر المتعدي على ابن عم رسول الله ﷺ!

لكن تراجع طغرلبك عن هذه القرارات كان بطريقة تفتقد إلى الحكمة والروية؛ ذلك أنه أطلق سراح بعض المعتقلين، وأمر بسحب كل إقطاعاتهم[٤]، ثم أمرهم أن يُحصّلوا أرزاقهم

---

(١) قلعة السيروان أو شيروانة: قلعه أثرية واقعة في مدينة كلار في جنوب كردستان العراق، تقع في محافظة السليمانية العراقية اليوم.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٢٨. تدمري.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٢٨. تدمري.

(٤) الإقطاع: نظام اقتصادي اجتماعي عرفته البشرية منذ العصور القديمة، يقوم على العلاقة بين السادة ونوابهم، وبموجبه يستطيع المالك أن يتحكم في الأرض ومن فيها من الناس، لكن الإقطاع في الدولة الإسلامية كان أمرًا شخصيًا بحتًا لا دخل فيه لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة، فكان المُقطَع يحل في الإقطاع محل السلطان أو الملك ليتمتّع بغلاته وإيراداته ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء المدة المحددة للعقد أو الإخلال بشرط من شروطه أو حين وفاة المقطع. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٣٧.



بعيدًا عن الخلافة والديوان[1] وهذه الإقطاعات، والجندي الذي يُعامل بهذه الطريقة لا يُنتظر منه الانصياع التام، وهذا ما حدث بالفعل «فتوجّه كثير منهم إلى البساسيري ولزموه، فكثر جمعه ونفق سوقه»[2].

وكان طغرلبك قد استولى على مدن العراق الكبرى لا سيما البصرة جنوبًا التي أقطعها لأحد كبار مماليكه، والموصل شمالًا وكانت لقريش بن بدران العُقيلي بما معه من مدن في بلاد شمال العراق وجنوب الجزيرة الفراتية.

من هو البساسيري؟!

كنا قد ذكرنا في المجلد الثاني أن أول ما ظهر اسم البساسيري كان في عهد جلال الدولة البويهي، ذلك أنه كان أحد الأجناد الأتراك الذين تولوا بعض المهمات لا سيما في الفتن، لكنه لم يعد كونه واحدا من الأجناد الأتراك وإن كان متميزا..

ثم لمع نجمه في عهد أبي نصر بن أبي كاليجار، لا سيما وهذا الأخير كان يواجه العديد من التمردات من إخوته في جنوب العراق «البصرة» وفي فارس والخوارج في عمان، بالإضافة إلى الفتن المشتعلة في بغداد ذاتها، هذا إلى جانب اضطرابات الأمراء المستقلين في أطراف العراق كقرواش في الشمال وبني مزيد وبني أسد وبني خفاجة وغيرهم.

ولم يعد البساسيري مجرد قائد تركي، بل صار القائد والمقدم على الجيش التركي، وكان من القوة والمهابة والذكاء بحيث لم يكن له منافس.. وقد كان أول ظهور قوي للبساسيري في عام (٤٤١ هـ)، فحينذاك حقق نجاحيْن قوييْن:

الأول: انتصاره على بني عقيل -حُكَّام الموصل- إذ هاجموا بعض البلاد في شمال العراق وكانت تابعة لأملاك البساسيري، فما إن عاد من فارس - إذ كان مرافقا لأبي نصر- حتى خرج بقوات الجيش ووقعت بين الطرفين معركة شديدة تزعم بني عقيل فيها أبو كامل بن المقلد -أخو قرواش بن المقلد زعيم الموصل- وكانت هذه المعركة بحد ذاتها تطورا في الموقف بين بغداد الضعيفة وحكام الموصل الأقوياء، ولهذا كان البساسيري هو ملجأ المتظلمين من

---

(١) الديوان: كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر، ثم تطور استعمال الكلمة فأطلق من باب المجاز على المكان الذي تُحفظ فيه السجلات الخاصة بأمور الدولة المختلفة. حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص٢١٥- ٢٢٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٢٩. تدمري.

حكم بني عقيل في الأنبار، فأرسل جيشا استطاع بتسهيلات أهل الأنبار أن ينتزعها من حكم بني عقيل في سابقة تمثل انقلاب الموازين بين بغداد والموصل، وسار البساسيري بنفسه إلى الأنبار فأقام فيها العدل وأصلح أحوالها وأقر أمورها.

الثاني: إنهاؤه حكم سعدي بن أبي الشوك الذي تحصن في بلدة «الدزدار» على طريق خراسان[1]، فحطم قلعته التي يتحصن بها وأخذ كل غنائمه وتخلص من إزعاجه (شعبان ٤٤١ هـ)[2].

واتسع نفوذ البساسيري حتى أمسى مركز قوة في العراق، لجأ إليه الأجناد الأتراك في واسط في صراعهم مع نور الدولة دبيس بن مزيد (٤٤١ هـ) ، بينما سعى نور الدولة في مد الجسور مع البساسيري حتى لقد زوج ابنه من بنت البساسيري (٤٤٤ هـ)[3].

وتصدى البساسيري لعصابات من الأعراب نهبت وعاثت فسادا عند البوازيج[4] (شوال ٤٤٥ هـ) وطاردهم واضطرهم إلى الهرب وعبور النهر، ولولا زيادة النهر آنذاك لقبض عليهم، وكان هذا أيضا تطورا جديدا طرأ على السلطة الضعيفة في بغداد[5].

وصار البساسيري أقوى رجال الدولة حتى قال الخطيب البغدادي: «لم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع أمرا دونه ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه»[6].

وفي ظل هذه القوة المتنامية وتاريخه العريق، فضلًا عن مكانته، بل وما تصنعه السلطة للرجال من السعي الدائم لها، خاصة ممن احتل منزلة كبيرة كالبساسيري؛ ثم تخلي الخليفة عنه، ومشاحناته مع الوزير ابن المسلمة، ثم هروبه في نهاية المطاف من أمام السلاجقة القادمين من الشرق، كل ذلك أوغر صدره، وجعله مصممًا على إرجاع ما ظن أنه ملك له، على السلطة والقوة والجند والمكانة، وكان لابد للأمر من عدة وخطة ورجال!

---

(١) طريق خراسان: طريق كان يخترق القسم الوسطي الضيق من بغداد العباسية الشرقية شمال محلة المخرّم، وهو يبتدئ من باب خراسان أحد أبواب بغداد القديمة، ويعبر الجسر الكبير إلى باب خراسان الثاني في بغداد الشرقية ومنه يتابع الراحل سيره شرقًا حتى يبلغ أقصى ديار الإسلام. كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٩، ٣١١.

(٤) البوازيج: بلدة قريبة من تكريت، عند نهر دجلة، إلى الشمال الغربي من بغداد.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٤.

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٩/ ٤٠٠.



القضاء على انقلاب البساسيري

كانت فتنة البساسيري خليطًا من المؤامرة والسياسة مدبّجة بعقيدة، كانت تحالفًا كبيرًا بين قائد الأتراك في العراق أبي الحارث البساسيري وكثير من جنده، وأمير الموصل قريش بن بدران العقيلي، وأمير الحلة دبيس بن مزيد الأسدي، وأمير قبائل خفاجة العربية في العراق محمود بن الأخرم، وأمير واسط علاء الدين أبو الغنائم بن المحلبان وأمير حلب ثمال بن صالح المرداسي، وأمير ديار بكر وميافارقين[١] نصر الدولة بن مروان، وداعي الفاطميين مؤيد الدولة الشيرازي الوسيط بين هؤلاء الأمراء والخليفة الفاطمي المستنصر في القاهرة.

كان هذا التحالف انقلابًا شديد الخطورة بكل ما تحمله الكلمة من معنى ضد الخليفة العباسي الضعيف بل والخلافة العباسية ودولة السلاجقة الفتية، وكان من الطبيعي أن تكون الأحداث أشد تعقيدًا وتركيبًا من مجرد انتصار هذا الفريق أو ذاك؛ ذلك أنها كانت حرب بين نظام قديم يخشى على مصالحه وأملاكه ومكتسباته، ونظام جديد يسعى بكل ما أوتي من قوة لإحلال نفسه بديلًا ومن ثم تطهير الساحة السياسية من هؤلاء المناوئين.

إن الحديث عن فتنة البساسيري لا يجب أن ينحصر في أحداث عام ٤٤٧هـ وما تلاها حتى انجلاء الفتنة والقضاء عليها سنة ٤٥٠هـ، وإنما يجب أن نعرف أن ثمة أحداثًا ماضية تسببت في تفاقم الأزمة لتصل إلى ذروتها في أعوام ٤٤٨هـ، ٤٤٩هـ، ٤٥٠هـ.

لقد كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعوة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق بسبب النزاع بين أمراء بني بويه على السلطة وثورات الجند، وتدخل قادتهم في تولية الأمراء وعزلهم، فأرسل الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي الدعاة إلى بغداد سنة ٤٢٥هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس، كما سير المستنصر بالله الفاطمي إلى قرواش بن المقلد - أمير الموصل - أعلامًا وخلعًا في عام ٤٣٦هـ، فأرسل إليه الخليفة القائم يعاتبه فاعتذر إليه، ولبس السواد- شعار العباسيين - مرة أخرى ورجع عن دعوة المستنصر[٢].

---

(١) من أشهر مدن ديار بكر. عبد المؤمن البغدادي: مراصد الإطلاع ٣/ ١٣٤١. تقع حاليًا في جنوب شرقي تركيا، واسمها سيلفان Silvan.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ٢/ ١٩٣.

وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر وقد أشار المقريزي إلى ذلك بقوله: «وكان المستنصر قد بثّ دعاته سرًا إلى الآفاق يدعون إليه ويستميلون من تصل القدرة إلى استمالته. فدفع بجماعة من دعاته في خراسان إلى ما وراء النهر فلقيت الدعوة الفاطمية في بلاد الفرس تأييدًا كبيرًا فاستجاب لهم كثير من الناس، ولما وصل الخبر إلى بغراخان محمود صاحب بلاد ما وراء النهر احتال على الدعاة حتى أوقع بهم وأنفذ برسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله بالأمر، فأجيب بالشكر والثناء»[(١)].

ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الإسماعيلي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعرف أحيانًا بالمؤيد فقط، ولكن اللقب الذي غلب عليه هو المؤيد في الدين يدل على ذلك أن الملك كاليجار البويهي أرسل إليه يقول: لشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد في الدين عصمة أمير المؤمنين أبي النصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده. وكان هذا الرجل داعيًا للمذهب الفاطمي بشيراز[(٢)].

اتصل المؤيد بالسلطان أبي كاليجار البويهي، واستطاع بدهائه أن يكسب عطفه، وأن يظل في شيراز يتابع نشر المذهب الإسماعيلي ثم لم يلبث أن توثقت صلته بالسلطان البويهي حتى طمع في إدخاله في الدعوة الفاطمية، واستطاع المؤيد أن يؤثر فيه، فكتب إليه يقول: إني أسلمت نفسي وديني إليك، وإني راض بجملة ما أنت عليه، ودخل أبو كاليجار في الدعوة الفاطمية وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلي، ولم يكتف المؤيد بنشر الدعوة في شيراز، بل سافر إلى الأهواز وأدخل في الأذان عبارة «حى على خير العمل» وأمر الناس بإقامة الخطبة للمستنصر الفاطمي[(٣)].

لكن لم تدم الخطبة على منابر الأهواز طويلًا للخليفة الفاطمي إذ أرسل قاضيها أبو الحسن عبد الوهاب بن منصور بن المشتري برسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله يخبره بالأمر وينعي خلافة العباسيين بها، وأشار عليه أن يعمل على إيقاف الدعوة الفاطمية في بلاد فارس فأنفذ الخليفة وزيره أبا القاسم بن المسلمة إلى شيراز حيث التقى بالأمير كاليجار وسلمه

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/ ١٩١.

(٢) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص٤٣، ٤٤.

(٣) سيرة المؤيد في الدين ص٥٥.

رسالة الخليفة التي تضمنت التهديد بالاستعانة بالسلاجقة إن لم يقبض على المؤيد في الدين وإنفاذه مكبلًا بصحبة رئيس الرؤساء، إلى بغداد ووقف النشاط الفاطمي في بلاده[١].

ولما علم المؤيد في الدين بما تضمنته الاتصالات بين الخليفة العباسي والأمير البويهي الذي كان يؤازره في نشر دعوته في بلاده؛ رأى أن يترك بلاد فارس بعد انصراف أبي كاليجار عن تأييده؛ وسار إلى الحلة ونزل بدار الأمير منصور بن الحسن وظل مقيمًا هناك حتى أُجبر على الرحيل، فتنقل في بلدان العراق إلى الكوفة جنوبًا ثم إلى بني عقيل أمراء الموصل ثم سرعان ما لفظه أمراء العراق لخطورته وتتبع العباسيين له، ورجع أخيرًا إلى مصر سنة ٤٣٨هـ[٢].

وعلى الرغم من رحيل المؤيد في الدين إلى مصر، فإن جهوده في نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق تركت آثارًا خطيرة على الخلافة العباسية في عهد القائم بأمر الله، إذ انضم إليها كثير من قادة الترك والديلم وهم الذين يمثلون عماد القوة التي تعتمد عليها البلاد في التصدي لأعداء الخلافة فظلوا يشجعون الدعوة الفاطمية ويقربون إليهم أتباعها.

وكان الوزير ابن المسلمة الذي كان بينه وبين البساسيري عداوة قديمة قد انتهز الفرصة وأخذ يوغر صدر الخليفة القائم بأمر الله على البساسيري وأخبره بأنه يكاتب أعداء الخلافة ويعمل على خلعه منها، وفي الوقت نفسه حرّض الأتراك والعامة على الاعتداء على أملاك البساسيري في بغداد بعدما ضبطت دنان خمر كان أحد تجار النصارى قد أرسلها إليه في مقره بمدينة واسط، فقام العامة من منطلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنهب داره والاستيلاء على ممتلكاته سنة ٤٤٧هـ، وكانت هذه الحادثة أيضًا أحد الأسباب القوية لهروبه من العراق[٣].

وكان ممن تأثر بهذه الدعوة الفاطمية الفاشلة في العراق، وفهم أبعادها السياسية وما يمكن أن يستفيد به منها القائد التركي أبو الحارث البساسيري الذي طُرد من العراق إلى منطقة الرحبة بين بغداد والرقة خوفًا من بطش الخليفة والسلاجقة به.

اتخذ البساسيري من الرحبة مركزًا للاتصالات مع الفاطميين، ذلك أن المؤيد في الدين

(١) سيرة المؤيد في الدين ص٦٤ - ٧٠، والصلابي: دولة السلاجقة ص٥٣.
(٢) سيرة المؤيد في الدين ص٧٥.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٧ عطا، وابن الأثير: الكامل ٨/ ١٢٤ تدمرى.



كان يتابع أحداث العراق، وبخاصة أنه وقف على المكاتبات التي تبودلت بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي وأدرك مدى خطورتها على الخلافة الفاطمية[١]، فعوّل على الاستفادة من الموقف المتدهور بين الخلافة والبساسيري وأصحابه، فأنفذ إليهم كتبًا تضمنت تأييد الخليفة الفاطمي وحكومته لهم واستعدادهم لمدهم بالسلاح والمال، فوصلت إليهم هذه الكتب قبيل رحيلهم إلى واسط، فزادت من ثقتهم بأنفسهم وقويت شوكتهم ورد البساسيري على مكاتبات الفاطميين برسالة بعث بها إلى المؤيد في الدين شكره فيها على اهتمامه بحركتهم وتأييدهم له ولأتباعه والتمس منه الإمداد السريع بالمال والخيل والسلاح لإظهار الدعوة الفاطمية ببلاد العراق: «فإن أخذتم بأيدينا، أخذنا لكم البلاد وإن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد»[٢].

وأظهر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي اهتمامًا كبيرًا برسالة البساسيري وعمل على تدبير الإمدادات اللازمة لإنجاح حركته على الرغم مما كانت تعانيه مصر من غلاء وأزمة اقتصادية، فلما أتم إعداد الأموال والخلع والسلاح، عهد إلى المؤيد في الدين بحملها إلى البساسيري، فسار على رأس عدد من الرجال ومعهم خمسمائة ألف دينار وقيل أكثر، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس ومن الرماح والنشاب شيء كبير[٣].

لما وصل المؤيد في الدين إلى دمشق وهو في طريقه إلى الرحبة، رأى أن يستعين بثمال بن صالح بن مرداس - صاحب حلب - لإمداده بالرجال ولتأمين وصول الإمدادات الفاطمية إلى البساسيري وأصحابه فكتب إليه بالمهمة التي عهد إليه بها، ثم ما لبث أن التقى المؤيد بثمال بن صالح في الروستان فسلم المؤيد في الدين الأحمال إلى الأمير ثمال ليكون في حمايته، ثم سار إلى معرة النعمان حيث وفد إليهما فريق من أصحاب البساسيري لاصطحابهم إلى الرحبة

---

(١) كانت إستراتيجية السلاجقة في فتح العراق تقوم على غايتين: الأول فتح طريق الحج من خراسان إلى مكة وتذليله وخضوعه لدولة السلاجقة. الثاني انتزاع مصر. وكان المؤيد في الدين قد فطن إلى هذا الخطر السلجوقي الداهم وعلم أن أول ما ستقع أيديهم عليه هو إقليم الشام، حيث قال: «وورد من حيز الروم نسخة كتابها إليه (أي لطغرلبك) بحملها على التجرّد معها لأخذ المملكة العلوية (الدولة الفاطمية) لأولئك الأنجاس الأقذار (يقصد السلاجقة)؛ فيجعلون الشام من جملتها». سيرة المؤيد في الدين ص٩٤، ٩٥.

(٢) سيرة المؤيد في الدين ص٩٦، وابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٨.

(٣) سيرة المؤيد في الدين ص٩٩، ١٠٠، والذهبي: العبر في خبر من غبر ٢/ ٢٩٥.

وخلال ذلك تلقى المؤيد في الدين خطابًا من نصر الدولة بن مروان - صاحب ديار بكر وميافارقين- يعلن فيه خلع طاعة السلاجقة والدخول في طاعة الفاطميين معتذرًا عن عدم إقامة الخطبة للسلاجقة على منابر بلاده خوفًا من بطشهم(١).

وسار المؤيد هبة الله الشيرازي بصحبته الأمير ثمال بن مرداس على رأس جنده قاصدًا الرحبة، فلما اقترب منها خرج لاستقباله البساسيري على رأس جيشه فالتقى بهم على بعد مرحلتين من المدينة وأظهر أسمى آيات الشكر والترحيب بمبعوث الخليفة الفاطمي، وقام المؤيد من جانبه بتوزيع الخلع الفاطمية على البساسيري وأصحابه ومنحهم الأموال وأخذ البيعة منهم بالطاعة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ثم قام المؤيد وتقدم إلى أبي الحارث البساسيري وخلع عليه الخلعة الخاصة التي أرسلها الخليفة الفاطمي إليه وقرأ عهده(٢).

ولم يكتف المؤيد هبة الله الشيرازي بما حققته الدعوة الفاطمية من انتصارات كبيرة في بلاد العراق تجلت في انضمام كل من البساسيري ونصر الدولة بن مروان، وعدد كبير من القادة والجند والديلم والأتراك، بل أخذ في العمل على جذب أمراء العراق إلى دعوته، فكتب إلى دبيس بن صدقة بن مزيد- أمير الحلة - يطلب منه اللقاء في الرحبة، فلما التقى به هناك، استطاع أن يستميله للدعوة الفاطمية، وطلب منه الانضمام إلى البساسيري في مسيره إلى العراق، وذلك بعد أن قلده رئاسة غرب العراق وجعل له حكم ما يفتحه من البلاد بعهد من الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ولقبه «الأمير سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة، صفي أمير المؤمنين»(٣).

كان لنجاح المؤيد في الدين في ضم أمراء الأطراف إلى جانب القائد التركي أبي الحارث البساسيري أثر كبير في انتصاره على قوات السلاجقة بقيادة قتلمش ابن عم طغرلبك ومن انضم إليهم من أصحاب قريش بن بدران - صاحب الموصل - في موقعه سنجار سنة ٤٤٨هـ، والتي كان من نتائجها انحياز قريش بن بدران إلى جانب البساسيري وإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابر الموصل، كما انضم محمود بن الأخرم - أمير خفاجة

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص١٠٩ - ١٢١.
(٢) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص١٢٢.
(٣) سيرة المؤيد في الدين ص١٢٨.

- إلى الدعوة الفاطمية وأقام الخطبة على منابر الكوفة للخليفة الفاطمي(١)، أما أمير واسط(٢) علاء الدين أبو الغنائم بن المحلبان فقد خلع طاعة الخليفة القائم بأمر الله وخطب للمستنصر بالله الفاطمي، وأمر أن تصبغ مساجد واسط باللون الأبيض - شعار الفاطميين- وفضلًا عن ذلك ضرب النقود باسم الخليفة الفاطمي في واسط(٣)، مما ترتب عليه إصدار الخليفة القائم بأمر الله محضرًا آخر بالطعن في نسب الفاطميين سنة ٤٤٨هـ، محاولًا بذلك التصدي للدعوة الفاطمية(٤).

وعلى الجانب الآخر كانت أخبار انتصارات البساسيري على العباسيين والسلاجقة تترى إلى القاهرة، خاصة الانتصار الكبير في سنجار سنة ٤٤٨هـ، فلقد أنفذ «البساسيري الفيوج(٥) والرسل إلى مصر يخبر بالفتح، ونفذ أسلاب الأتراك وخيلهم وأعلامهم إلى المستنصر فوقع ذلك منه أوفى موقع، وسحبوا الأعلام السود (أعلام العباسيين) على التراب منكوسة في أسواق القاهرة وزيّنوا البلد أياما. وفي ذلك يقول ابن حيّوس(٦):

عجبت لمدّعى الآفاق ملكا وغايته ببغداد الركود

يصول على رعاياها اعتداء ويحجم كلما صلّ الحديد

يدبّره ابن مسلمة سفاهًا برأي غيره الرأى السديد

---

(١) سيرة المؤيد في الدين ص١٣٥، ١٣٦.

(٢) يذكر داعي الدعاة في سيرته أن أمير واسط يُدعى ابن قائد بن رحمة، وقد ذكر ابن الأثير أن الذي خلف ابن المحلبان على واسط بعد هزيمته من القوات السلجوقية سنة ٤٤٨هـ رجل آخر يُدعى ابن فسانجس وقد دعا للفاطميين أيضًا ثم سرعان ما استعان السلاجقة والعباسيون بأمير قبائل بني أسد في جنوب شرق العراق الحسين ابن منصور الذي استطاع القبض على ابن فسانجس وإرساله إلى بغداد حيث قُتل فيها بعدما شُهر به في صفر سنة ٤٤٩هـ وأضحت واسط من جديد إمارة عباسية بسيادة سلجوقية. سيرة المؤيد في الدين ص١٣٦، وابن الأثير: الكامل ٨/ ١٣٩ تدمرى.

(٣) سيرة المؤيد في الدين ص١٣٦، ١٣٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٣٨، ١٣٩ تدمرى.

(٥) أي الأفواج والمراسيل.

(٦) محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الغنوي: شاعر الشام في عصره. وكان أبوه من أمراء العرب. ولد ونشأ بدمشق. وتقرب من بعض الولاة والوزراء بمدائحه لهم. توفي في حلب سنة ٤٧١هـ. الزركلي: الأعلام ٦/ ١٤٧.

وأعجب منها سيف بمصر ... تقام له بسنجار الحدود»[١]

وعلى الرغم من الانتصارات التي حققتها الدعوة الفاطمية في مدن العراق فإن جهود عميد الملك الكندري - وزير السلاجقة- في العمل على تفريق شمل أمراء العرب، أدت إلى اختلاف كلمة هؤلاء الأمراء وعدولهم عن معاونة البساسيري، بل واضطر البساسيري وأتباعه إلى العودة إلى الرحبة، ثم ما لبث أن سار نحو حلب حيث التقى بالمؤيد في بالس - على مقربة من حلب-، وعهد المؤيد هبة الله الشيرازي إلى البساسيري وقريش بن بدران بمواصلة نشر النفوذ الفاطمي في بلاد العراق، فطلب إليهما العودة إلى الرحبة على أن يتجه قريش إلى الموصل لاستعادتها بعد أن علم بخروج إبراهيم ينال عنها، ثم سار إلى مصر حتى يتسنى له إرسال الإمدادات إليهما، فقام البساسيري وقريش بن بدران بالمسير إلى الموصل، وتمكنا من دخولها والاستيلاء عليها سنة ٤٥٠هـ، ولما علم السلطان طغرلبك بانتزاع الموصل منه سار إليها بصحبة أخيه إبراهيم ينال[٢].

لكنَّ البساسيريّ وبعض دعاة الإسماعيلية مثل هبة الله الشيرازي تمكَّنوا من شقِّ صف السلاجقة والإيقاع بين طغرلبك وأخيه من أمه إبراهيم ينال، عن طريق مراسلة الأخير، وأشار عليه «بالعصيان لأخيه، ويطمعه بالتفرد بالملك ويعِدُه معاضدته»[٣].

واضطر طغرلبك إزاء تمرد أخيه إبراهيم ينال إلى أن يغادر بغداداً ويعود إلى همذان عاصمة الدولة السلجوقية لمحاربة أخيه والقضاء على ثورته، وحدث انقسام بين من بقي من السلاجقة في بغداد؛ ذلك أن زوجة طغرلبك خاتون طلبت من الوزير عميد الملك الكندري وربيب طغرلبك وابن خاتون أنوشروان أن يجمعا الجنود السلجوقية لإمداد زوجها في حربه ضد أخيه، لكن هذين الأخيرين رفضا إطاعة هذه الأوامر، ما أدى إلى تضعضع الوضع الأمني في العاصمة، ثم قررت خاتون أن تسير إلى زوجها بمن أطاعها من السلاجقة، وقرر أنوشروان والكندري أن يهربا إلى الأهواز بعدما سمعوا عن اقتراب مجيء البساسيري الذي

---

(١) سيرة المؤيد في الدين ص١٣١- ١٣٣، وابن الصيرفي: الإشارة فيمن نال الوزارة ص٨١، وابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص١٩١.

(٢) سيرة المؤيد في الدين ص١٣٤، ١٣٥، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٧٤، وابن الأثير: الكامل ٨/ ١٤٣، ١٤٤ تدمرى.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٣١ عطا.

كان قد استولى على الأنبار غربي العراق.

في ظل هذا الوضع الأمني والعسكري المضطرب، واقتراب البساسيري كان الخليفة القائم بأمر الله قليل الحيلة لا يدري ما يصنع، فتارة ينصحه البعض بمغادرة بغداد، وتارة ينصحه آخرون بالبقاء، والعامة في هم وضيم عظيم لا يدرون ما يصنع سوى الهرب أو انتظار الكارثة(١).

واستغل البساسيري هذا الوضع، وزحف على بغداد على رأس قوة عسكرية تقدر بأربعمائة شخص، حاملًا الرايات المستنصرية الفاطمية البيضاء(٢)، وقد كتب عليها «الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين»(٣)، كما سار معه أمير الموصل قريش بن بدران العقيلي، وكان حليفًا للبساسيري(٤)، في مائتي فارس، وقد ذكر ابن الصيرفي الكاتب خطة البساسيري في اقتحام بغداد؛ إذ «واصل القتال، وقسّم عسكره فئتين: فواحدة لقتال النهار من الفجر إلى المغرب، وأخرى لقتال الليل من المغرب إلى الفجر»(٥).

وتمكن البساسيري ومهارش العقيلي من دخول بغداد في ٨ ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ، ومما ذكره ابن الجوزي في هذا الاقتحام، أن أهل الكرخ وهو الحي الشيعي في بغداد الغربية «وقفوا في وجه فرسه(٦) وتضرعوا إليه أن يجتاز عندهم، فدخل الكرخ وخرج إلى مُشْرَعة الروايا(٧)»(٨). في موقف لن ينساه التاريخ مع من يتواطأون مع العدو ضد أبناء الوطن الواحد، بل إن «أكثر باب البصرة(٩) نهب بأيدي أهل الكرخ تشفيًّا لأجل المذهب، وانصرف

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٣٢ عطا.

(٢) كان شعار العباسيين السواد، بينما كان شعار الفاطميين البياض!

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٩٦.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٩/ ٦١٦ بشار.

(٥) ابن الصيرفي: الإشارة فيمن نال الوزارة ص٨١.

(٦) أي فرس البساسيري.

(٧) موضع بالقرب من حي الكرخ غربي بغداد. و المَشْرَعةُ: المواضعُ التي يُنْحَدر إِلى الماء منها. ابن منظور: لسان العرب، مادة شرع ٨/ ١٧٥. وقال الخليل: «المشرعة: موضع على شاطئ البحر أو في البحر يهيأ لشرب الدواب». الخليل بن أحمد: العين ١/ ٢٥٢. ويبدو من هذه التعريفات أن مشرعة الروايا كانت بالقرب من نهر دجلة على شاطئه الغربي.

(٨) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٣٢ عطا.

(٩) باب البصرة: أحد أبواب مدينة بغداد المدورة التي ابتناها أبو جعفر المنصور، ويقع في الجنوب الشرقي منها، وهو يُفضي إلى الأرباض والقرى الممتدة على ضفة نهر دجلة حيث تصب فروع نهر عيسى المختلفة. كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٨.

الباقون عراة، فجاءوا إلى سوق المارستان، وقعدوا على الطريق ومعهم النساء والأطفال، وكان البرد حينئذ شديدًا، وعاود أهل الكرخ الأذان «بحي على خير العمل» وظهر فيهم السرور الكثير، وعملوا راية بيضاء ونصبوها وسط الكرخ وكتبوا عليها اسم المستنصر بالله». ومثل هذه الحادثة سنراها من نفس الطائفة عند اقتحام المغول لبغداد!!

بينما يذكر بعض المؤرخين الآخرين أن المعركة انقسمت إلى مرحلتين بعد انضمام أهل الكرخ ومعظم الشيعة في بغداد الغربية إلى القوات الغازية:

المرحلة الأولى: في نهر دجلة من خلال السفن والقوارب قبل الدخول إلى بغداد الشرقية واستمرت أربعة أيام بين القوات العباسية والمتطوعين في شرقي بغداد وبين قوات البساسيري وقريش بن بدران العقيلي وأهل الكرخ الشيعة من سكان غرب بغداد(١).

المرحلة الثانية: استمرت يومين على بغداد الشرقية خاصة منطقة نهر مُعلّى وعلى أسوار دار الخلافة قبل نهبها وإحراق كثير من قصورها ومنازلها وبساتينها، كل هذا بمساعدة أهل الكرخ حتى قال الخطيب البغدادي: «لم يكن بقي بالجانب الغربي إلا نفرٌ ذو عدد، وعبر الخلق للانتهاب وأحاطوا بدار الخلافة فنُهب ما لا يُقدر قدره»(٢).

واضطر الخليفة القائم إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأجابه إلى طلبه، وأرسله إلى حديثة عانة على نهر الفرات وكانت لابن عمه مهارش العقيلي تحت الإقامة الجبرية، وكان البساسيري يرغب في إرساله إلى مصر عند المستنصر العبيدي(٣).

وأرغم البغاة الخليفة العباسي قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس، ولا له هو في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء ثم بعثوا بهذا العهد إلى القاهرة. كما أرسلوا ثوب الخليفة وعمامته و«شبّاكه»(٤) الذي كان يجلس فيه، مع الهدايا والتحف، وقد أثار وصولها إلى القاهرة موجة عارمة من الفرَح لدى المستنصر العبيدي وأنصاره(٥).

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٩/ ٦١٦ بشار.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٩/ ٤٠٢.
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٩/ ٤٠٢، ٤٠٣.
(٤) الشباك: هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٣/ ٢٢٥.

وفي يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ أقيمت الخطبة للفاطميين في أحياء بغداد الغربية، وفي الجمعة التي تليها وهي العشرون من ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ دعا البساسيري للمستنصر العبيدي في جامع المنصور ببغداد، وقطع الخطبة للعباسيين، وزيد في الأذان «حي على خير العمل»(١)، ثم أقيمت الخطبة للعبيديين في جميع مساجد بغداد، وسمع الخطيب البغدادي الخطبة للمصريين الفاطميين بنفسه(٢).

ونُهبت دار الخلافة، وقَتَلَ البساسيريُّ بعضَ رجال الدولة، ومنهم رئيس الرؤساء وقاضي القضاة، وكان رئيس الرؤساء العدو الأكبر للبساسيري ولذلك لما قبض عليه قال له على سبيل الاستهزاء: «مرحبا بمدفع الدول، ومهلك الأمم، ومخرب البلاد، ومبيد العباد. فقال له: أيها الأمير العفو عند المقدرة. فقال: قد قدرت فما عفوت وأنت تاجر وصاحب طيلسان، ولم تستبق من الحرم والأطفال والأجناد، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف، وقد أخذت أموالي، وعاقبت حرمي، ونفيتهم في البلاد، وشتتني ودرست دوري، ولكن هذا أيضا من قصورك الفاسد، وعقلك الناقص»(٣).

وملكَ البساسيريُّ بغداد والبصرة والكوفة وواسطًا والموصل وخوزستان وغيرَها. وشمخت أنوف الرافضة، واستأسدوا به على أهل السنَّة، ورُفعت رايات المستنصرية العبيديين.

وعلى الجانب الآخر، وفيما يتعلق بصراع طغرلبك مع أخيه شرقًا، بدأت الكفة تميل إلى طغرلبك بعد أن جاءته الإمدادات من الشرق بقيادة ابن أخيه ألب أرسلان، ومن الغرب من زوجته خاتون ووزيره عميد الملك الذي كان قد أذعن لأمرها، فتمكن طغرلبك في العام ٤٥١هـ من التغلب على أخيه وقتله، وكان قد هرب من همذان إلى قزوين فحصره فيها ثم قتله(٤).

وبعد الانتهاء من هذا التحدي الكبير زحف طغرلبك نحو العراق لإعادة الأمور إلى نصابها فطلب من البساسيري وقريش بن بدران إعادة الخطبة للخليفة القائم، مقابل عدم

(١) سيرة المؤيد في الدين ص١٨٤، ١٨٥.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٩/ ٤٠٢.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٣٣ عطا.
(٤) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص١٩١، ١٩٢ دار الكتب العلمية.

دخوله بغداد، فرفض البساسيري إجابة طلبه، كما أن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيي الدين مهارش العقيلي، حاكم حديثة عانة ليحول دون عودة الخليفة إلى بغداد.

وبالرغم من النجاحات التي حققها البساسيري، والمناطق التي استولى عليها، إلاّ أنه لم يتمكن من مواجهة الجيش السلجوقي القادم، لذلك خرج البساسيري من بغداد مع جنده، وقصد الكوفة في السادس من ذي القعدة سنة ٤٥١هـ.

لكن لماذا لم يقدم المستنصر العبيدي الدعم الكافي للبساسيري رغم إخلاصه له؟

إن المؤرخ المصري الكبير تقي الدين المقريزي يقدم لنا الإجابة في «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» وهو أن أحد وزراء المستنصر وهو أبا الفرج محمد بن جعفر المغربي هو الذي حال دون تقديم العون، قال: «كان من جملة أسباب فوات هذا أن البساسيري لما بعث الكتب إلى المستنصر يعرفه بإقامة الخطبة له ببغداد كان الوزير حينئذ أبو الفرج محمد بن المغربي، وهو ممن فر من البساسيري وصار إلى القاهرة، فحذر المستنصر من البساسيري وخوفه عاقبته؛ فتركت أجوبته مدة، ثم عادت الأجوبة بخلاف ما أمله البساسيري؛ ثم قدم طغرلبك فانتصر عليه»[١].

وأيًّا كان الباعثُ فإنَ المستنصر لم يثق تمامًا بالبساسيريّ فاكتفى بتقديم الدعم المادّي، ولعلَّ هذا من حُسن صنيع الله تعالى للمسلمين.

وقد علّق ابن تغري بردي في كتابه «النجوم الزاهرة» على موقف المستنصر العبيدي من البساسيري بعد خروجه من بغداد، بقوله: «ولولا تخوف المستنصر من البساسيري، وترك تحريضه على ما هو بصدده ، لكانت دعوته تتم بالعراق زمنًا طويلا»[٢].

وكتب القائم من إقامته الجبريَّة في عانة تظلُّمًا إلى الله عزَّ وجلَّ في رقعةٍ جاء فيها: «إلى الله العظيم من عبده المسكين، اللهمّ إنك العالم بالسرائر، والمحيط بمكنونات السرائر، اللهمّ إنك غني بعلمك واطلاعك على أمور خلقك عن إعلامي بما أنا فيه ...»[٣] وبعث بها إلى الكعبة، وهو أمر لا يخلو من غرابة أن ينفذ الإنسان رسالة إلى رب العالمين! سيما وهو سبحانه قريب

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ٢/ ٢٥٥.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١١.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٣٦ عطا.

يجيب دعوة المضطر إذا دعاه. أما هذه القصاصة فقال الحافظ الذهبي فيها: «نفعت وأخذ الله بيده»[1].

ولقد «سار السلطان طغرل متوجهًا إلى بغداد وكتب إلى علم الدين قريش بن بدران وكلّفه ردّ أمير المؤمنين القائم بأمر الله إلى دار الخلافة، فوصل القائم بأمر الله إلى مدينة السلام يوم الاثنين الحادي عشر من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربع مائة، فاستقبله السلطان طغرل بعساكره»[2]. واستقبله عند وصوله إلى النهروان، وبالغ في الاحتفاء به، وأبدى سروره لعودته، واعتذر له عن تأخره في نجدته لانشغاله في إخماد ثورة أخيه، وأبدى نيته في المضي خلف البساسيري الذي التجأ إلى الكوفة، وعزم طغرلبك على المسير إلى الشام، ثم إلى مصر ليعامل المستنصر العبيدي معاملة تتلاءم مع أفعاله، وأعيدت الدعوة للعباسيين في بغداد بعد انقطاع دام سنة.

ولم يكد الخليفة يستقر في بغداد حتى عهد السلطان طغرلبك إلى القائد خمارتكين الطغرائي بالمسير على رأس ألفي فارس إلى الكوفة حيث يقيم البساسيري، وضمّ إليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخفاجي، وسار بنفسه في إثرهم.

ودارت بين الطرفين معركة ضارية عند الكوفة منتصف شهر ذي الحجة سنة ٤٥١هـ، وقد «وافت العساكر (السلجوقية) البساسيريَّ ودبيسَ بن مزيد، فكانت بينهم حروب آلت إلى انهزام دبيس ووقوع ضَرْبة في وجه البساسيري سقط منها عن فرسه، فأخذ، وقتل، وحملت رأسه إلى طغرلبك فبعث بها إلى الخليفة القائم، فطيف بها على قناة في بغداد للنصف من ذي الحجة»[3].

وبذلك تمكن طغرلبك من القضاء على فتنة البساسيري التي أقضّت مضاجع الخلافة العباسية، وطوي فصل من فصول التآمر اختلط فيها التعصب الطائفي للشيعة مع مصالح أمراء العراق الخائفين على أملاكهم، المائلين مع القوي أيًا كانت عقيدته، ولذلك لما انتصر طغرلبك جاء إليه «جميع أمراء العرب طائعين»[4].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٠٧.
(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٢١، ٢٢.
(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/ ٢٥٧.
(٤) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٢١.



تسليم الراية!

تكلل نجاح السلاجقة بالقضاء على فتنة البساسيري بزواج الأمير طغرلبك من ابنة الخليفة القائم في سنة ٤٥٤هـ، غير أن الأمير ذا الأعوام السبعين لم يعمر في زواجه طويلًا وتوفي في رمضان في العام التالي ٤٥٥هـ، وكان قد عهد لابن أخيه محمد بن داود بن ميكائيل الملقب بألب أرسلان بعد مساعدته في القضاء على فتنة أخيه إبراهيم ينال سنة ٤٥١هـ.

على أن ألب أرسلان لم تكن الأمور مهيأة له؛ فالبرغم من أن عمه طغرلبك مات دون عقب إلا أن زواجه من أرملة أخيه جغري بيك داود الأخ الأكبر في عام ٤٥١هـ، كانت العائق الأكبر، وسببًا من أسباب النزاع؛ ذلك لأن هذه الزوجة قد أقنعت طغرلبك أن يعهد بالولاية من بعده لابنها الصغير ذي الأعوام الأربعة سليمان وهو ابنها من زوجها الأول، وقد وافق بالفعل، وكتب وصية بذلك؛ وبعد وفاة طغرلبك، نفذ وزيره أبو نصر الكندري وصيته، بأن جعل سليمان سلطانًا على السلاجقة، وأجلسه بالفعل على عرش السلطنة في مدينة الري متجاهلًا أخاه الأكبر ألب أرسلان الذي أبلى بلاءً حسنًا مع عمه طغرلبك[١].

ولم يكن من بد من القتال ضمانًا في ظل هذه الظروف، وبالفعل «حارب ألب أرسلان وعمه قتلمش، فتلاشى أمر سليمان، وتسلطن ألب أرسلان. وقيل: نازعه في الملك أيضا قتلمش، وأقبل في تسعين ألفا، وكان ألب آرسلان في اثني عشر ألفا، فهزم قتلمش»[٢]. وقصة قتل قتلمش يرويها الأصفهاني بأسلوب بلاغي حيث يقول: «وأقبل عضد الدولة ألب أرسلان من نيسابور، يطوي السهول والوعور، وأقبل إقبال الضيغم الضاري، وكان ابن عم أبيه قتلمش بن إسرائيل في كردكوه[٣] وقد طمع في الملك، ولم يعلم أن ذلك يورطه في الهلك، فعارضه في جموعه، فتقابلا وتقاتلا وانجلت المعركة عن قتل قتلمش وكانت منيته في عثور الفرس به»[٤].

---

(١) محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة؛ تاريخهم السياسي والعسكري ص٧٨.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٤.

(٣) من معاقل الإسماعيلية، وهو جبل قوهستان الذي بين خراسان وفارس وكرمان. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٤٣٣.

(٤) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٧.

ألب أرسلان سلطان السلاجقة

إننا إذا ذكرنا السلاجقة كان من أوائل من تبحث الذاكرة عنهم وتنفض عن سيرتهم الجهادية العظيمة غبار النسيان السلطان السلجوقي الكبير ألب أرسلان، ولا يكاد القارئ للمصادر التاريخية، ومؤلفات التراجم يبحث عن سيرة هذا المجاهد الذي لم يستمر في حكمه سوى عشرة أعوام فقط، شهدت الخلافة العباسية فيها ما لم تشهده في قرن مضى؛ ذلك أنه استطاع أن يقوم بحركة إصلاحية شاملة، عاونه فيها من أول يوم وزيره المحنك الشهير نظام الملك الطوسي.

لكن استقرار نظام الملك الطوسي في الوزارة لم يكن سهلا، فكما عانى سيده ألب أرسلان في الوصول إلى سدة الحكم، يعاني نظام الملك في ظل وزير محنك آخر، قوي الشخصية هو أبو نصر الكندري الذي وصفه الأصفهاني آنفًا بكل وصف بليغ، على أن تنافس الوزيرين قد انتهى باعتقال ومن ثم مقتل الكندري في نهاية المطاف(١).

ولم يكد الأمر يستتب لألب أرسلان حتى فوجئ بفتنة أخرى قادها هذه المرة عمه بيغو أكبر السلاجقة سنًا والي هراة، الذي عز عليه أن يكون تابعًا لابن أخيه، فرفع عليه العصيان، ولكن ألب أرسلان سار إليه بجيش، وقاتله قرب هراة، وقيل حاصره في عام ٤٥٧هـ، وانتصر عليه انتصارًا حاسمًا، ليعود عمه إلى طاعته مرة أخرى(٢).

ومن هنا نرى أن ألب أرسلان استطاع القضاء على كافة الحركات المسلحة والمتمردة من أقربائه وغيرهم، فاستتب له الأمر، وتوطد سلطانه، وذكر اسمه في الخطبة في جميع البلاد التي خضعت لسلطانه، وأقطع البلاد للأمراء، وبدأ يعمل على التمكين لدولته المترامية الأطراف، بل والعمل على زيادة رقعتها(٣).

ولم يكن ألب أرسلان قد تحصّل على تفويض بالسلطنة من الخليفة العباسي القائم بأمر الله، ولم يرد أن يتحصل عليه بالقهر كما فعل عمه طغرلبك الذي تزوج ابنة الخليفة العباسي دون رضا من أبيها، ومن ثم فإننا نراه يأمر ابنة الخليفة «بالعود من الرّيّ إلى بغداد، وأعلمها

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٤٢.

(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ١/ ٣٥٨.

(٣) محمد عبد العظيم: السلاجقة ص٨٠.

أنّه لم يقبض على عميد الملك إلاّ لما اعتمده من نقلها إلى الرّيّ بغير رضا الخليفة، وبعث في خدمتها أميرًا ورئيسًا»[1]، وهذه سياسة جديدة ينتهجها ألب أرسلان، وهي سياسة المهادنة مع الخليفة العباسي.

وقد كانت ردة فعل الخليفة تجاه هذه السياسة الجديدة التي تتسم بالاحترام أن «لقب (أرسلان) ضياء الدين عضد الدولة، وجلس الخليفة جلوسًا عامًا سابع جمادى الأولى، وشافه الرُّسل بتقليد ألب أرسلان للسلطنة، وسُلمت الخلع بمشهد من الخلق، وأرسل إليه من الديوان لأخذ البيعة النقيب طراد الزينبي فوصلوا وهم بنقجوان من أذربيجان فلبس الخلع وبايع للخليفة»[2] وكان هذا التقليد أثناء حرب ألب أرسلان لعمه سليمان السلجوقي.

ويذكر الدكتور محمد عبد العظيم أن ألب أرسلان قد حدد مع وزيره نظام الملك الطوسي، سياسة الدولة السلجوقية التي كانت تتلخص في بسط نفوذ السلاجقة على مساحات أوسع، وتأمين ما بأيديهم من أراض، ونشر الإسلام في الممالك النصرانية المجاورة، كبلاد الأرمن والروم؛ الأمر الذي أكسب السلاجقة وحروبهم صبغة وطابع الجهاد الديني[3].

والحق أن ألب أرسلان بمعاونة وزيره العالم قد أعادا روح الجهاد الإسلامية لجسد الخلافة العباسية؛ إننا نرى السلطان يتسلم التقليد من الخليفة العباسي في نزاع عائلي مع عمه في أذربيجان، ثم ما يلبث هذا الصراع في الانتهاء حتى يُيمم وجهته مباشرة تجاه الشمال النصراني للجهاد والغزو في سبيل الله، ولم يعط نفسه مهلة أو راحة قصيرة ليذهب إلى مقر الخلافة العباسية بغداد؛ وذلك دليل فيما يبدو على حب الرجل للجهاد.

وهذا ما يعنون له ابن الأثير في تاريخه بقوله: «ذكر فتح ألب أرسلان مدينة آني وغيرها من البلاد النصرانية» ويسرد مجموعة من المشاهد والقصص التي تدلل على شجاعة وإخلاص ألب أرسلان وحبه للجهاد، بل ونجد اسم ملكشاه لأول مرة في ساحات الحرب والقتال والجهاد، وهذه الحروب والغزوات والفتوحات كانت في العام الأول من سلطنته، ما

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٠/ ٢٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٦٧.

(٣) محمد عبد العظيم: السلاجقة ص٨١.

يؤكد لنا سياسة ألب أرسلان التي تمثلت في الفتوحات الخارجية من أول يوم.

يقول ابن الأثير: «ثم سار السلطان من الرّي أول ربيع الأول، وسار إلى أذربيجان فوصل إلى مرند عازمًا على قتال الروم وغزوهم، فلما كان بمرند أتاه أمير من أمراء التركمان كان يكثر غزو الروم اسمه طغدكين ومعه من عشيرته خلق كثير قد ألفوا الجهاد، وعرفوا تلك البلاد، وحثّه على قصد بلادهم، وضمن له سلوك الطريق المستقيم إليها، فسلك بالعساكر في مضايق تلك الأرض ومخارمها فوصل إلى نقجُوان فأمر بعمل السفن لعبور نهر رأس، فقيل له إن سكان خوي وسلماس من أذربيجان لم يقوموا بواجب الطاعة، وإنهم قد امتنعوا ببلادهم، فسيّر إليهم عميد خراسان، ودعاهم إلى الطاعة، وتهددهم إن امتنعوا، فأطاعوا وصاروا من جملة حزبه، واجتمع عليه هناك من الملوك والعساكر ما لا يحصى. فلما فرغ من جمع العساكر والسفن سار إلى بلاد الكرج، وجعل مكانته في عسكره ولده ملكشاه ونظام الملك وزيره، فسار ملكشاه ونظام الملك إلى قلعة فيها جمع كثير من الروم فنزل أهلها منها وتخطفوا من العسكر وقتلوا منه فئة كثيرة، فنزل نظام الملك وملكشاه، وقاتلوا من بالقلعة، وزحفوا إليهم فقتل أمير القلعة وملكها المسلمون، وساروا منها إلى قلعة سرماري، وهي قلعة فيها المياه الجارية والبساتين، فقاتلوها وملكوها وأنزلوا منها أهلها، وكان بالقرب منها قلعة أخرى، ففتحها ملكشاه، وأراد تخريبها فنهاه نظام الملك عند ذلك وقال: هي ثغر للمسلمين وشحنها بالرجال والذخائر والأموال والسلاح، وسلم هذه القلاع إلى أمير نقجُوان. وسار ملكشاه ونظام الملك إلى مدينة مريم نشين، وفيها كثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى وعامتهم يتقربون إلى أهل هذه البلدة، وهي مدينة حصينة سورها من الأحجار الكبار الصلبة المشدودة بالرصاص والحديد وعندها نهر كبير، فأعد نظام الملك لقتالها ما يحتاج إليه من السفن وغيرها، وقاتلها وواصل قتالها ليلا ونهارًا وجعل العساكر عليها يقاتلون بالنوبة فضجر الكفار وأخذهم الإعياء والكلال، فوصل المسلمون إلى سورها ونصبوا عليه السلالم وصعدوا إلى أعلاه؛ لأن المعاول كلت عن نقبه لقوة حجره، فلما رأى أهلها المسلمين على السور فتّ ذلك في أعضادهم، وسقط في أيديهم ودخل ملكشاه البلد ونظام الملك وأحرقوا البيع وخربوها، وقتلوا كثيرًا من أهلها، وأسلم كثير فنجوا من القتل، واستدعى ألب أرسلان إليه ابنه نظام الملك، وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده، وفتح

لملكشاه في طريقه عدة من القلاع والحصون، وأسر من النصارى ما لا يحصون كثرة وساروا إلى سبيذشهر..»[١]، ويتناول ابن الأثير فتوحات أخرى غير التي نقلناها عنه هنا، وهي فتوحات وغزوات أربكت حسابات البيزنطيين والروسيين والفرنج، وقد كانت لها نتائجها الإيجابية على الدولة السلجوقية.

وفي العام التالي ٤٥٧هـ سار ألب أرسلان إلى مدينة «جنَد» معقل الأسرة السلجوقية وهي بالقرب من بخارى، وقد استقبله أميرها وهاداه، وفرض إليه حكمها، وكانت هذه المدينة ذات أهمية خاصة عند السلاجقة قبيل قيام دولتهم لأن الجد الأكبر للسلاجقة مدفون بها[٢].

وفي الأعوام الخمسة التالية من عام ٤٥٨هـ إلى عام ٤٦٣هـ يستمر السلطان ألب أرسلان في تنفيذ مخططه وتوسعاته الخارجية وتحصين الجبهة الداخلية، ويتضح بكل جلاء الدور الهامشي للخليفة القائم الذي لم يكن له من أمر الخلافة شيئًا اللهم إلا سيطرته على بغداد، وهي سيطرة منقوصة في نهاية الأمر.

وقد بدأ السلطان هذه الأعوام بتقليد ابنه ملكشاه ولاية العهد، ونراه يقسم ولايات المملكة السلجوقية على أقاربه وأنصاره بما في ذلك العراق! فنراه يُقطع مدينة مازندران للأمير إينانج بيغو، وبلخ لأخيه سليمان بن داود، وخوارزم لأخيه أرسلان أرغو، ومرو لابنه الآخر أرسلان شاه، وصغانيان وطخارستان لأخيه إلياس، وولاية بغشور ونواحيها لمسعود بن أرناش وهو من أقارب السلطان، بل ويقطع شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران أمير الموصل الأنبارَ وهيت وحربى والسنّ والبوازيج، ونرى الخليفة يستقبل مسلم بن قريش هذا وينعم عليه بالهدايا والخُلع وما ذلك إلا لأن السلطان قد أقطعه بعض المدن العراقية التي لا تبتعد كثيرًا عن بغداد[٣].

وفي ظل هذه الأحداث وفي عام ٤٥٧هـ يبدأ الوزير نظام الملك في بناء مجموعة المدارس النظامية الشهيرة التي كانت أولها في بغداد والتي تفتتح رسميًا بعد ذلك بعامين، وفي قصة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٦٨، ٣٦٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٧٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٧٦، ٣٧٧.

افتتاحها ما يُدلل على العدل وإعلاء القيم ومحاولة إرجاع الحقوق لأصحابها حتى لو كانت هذه الحقوق مغتصبة لأجل مصلحة عامة من مصالح المسلمين، يقول ابن الجوزي: «وفي يوم السبت عاشر ذي القعدة (من عام ٤٥٩هـ) جمع العميد أبوسعد القاشي الناس على طبقاتهم إلى المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك ببغداد للشافعية، فلما كان يوم اجتماع الناس فيها وتوقعوا مجيء أبي إسحاق (الشيرازي) فلم يحضر، فطلب فلم يظهر، وكان السبب أن شابًا لقيه فقال: يا سيدنا تريد تدرس في المدرسة؟ فقال: نعم. فقال: وكيف تدرس في مكان مغصوب. فغير نيته فلم يحضر، فوقع العدول إلى أبي نصر بن الصباغ فجعل مكانه، وضمن له أبو منصور بن يوسف أن لا يعدل عنه، ولا يمكن أبو إسحاق من الإفساد عليه فركن إلى قوله، فجلس وجرت مناظرة وتفرقوا وأجرى للمتفقهة لكل واحد أربعة أرطال خبز كل يوم، وبلغ نظام الملك فأقام القيمة على العميد، وظهر أبو إسحاق في مسجد بباب المراتب، فدرس على عادته، فاجتمع الناس فدعوا وأثنوا عليه، وكان قد بلغ إليهم أنه قال: إني لم أطب نفسًا بالجلوس في هذه المدرسة لما بلغني أن أبا سعد القاشي غصب أكثر آلاتها ونقض قطعة من البلد لأجلها، ولحق أصحابُه غم وراسلوه لما عرضوا فيه بالانصراف عنه، والمضي إلى ابن الصباغ إن لم يُجب إلى الجلوس في المدرسة، ويرجع عن هذه الأخلاق الشرسة، فأرضاهم بالاستجابة تطييبا لقلوبهم، وسعوا وهو أيضًا في ذلك إلى أن استقر الأمر في ذلك له، وصرف ابن الصباغ فكانت مدة مقامه بها عشرين يومًا، وجلس أبو إسحاق فيها في عشر ذي الحجة، وكان إذا حضر وقت الصلاة خرج منها وقصد بعض المساجد فأداها»[١]

وفي عام ٤٥٩هـ تحدث فتنة بخروج والي كرمان قرا أرسلان، ولكن ألب أرسلان استطاع أن يخمد هذه الفتنة، كما استطاع أن يُدخل في طاعته والي حلب المناوئ له وللخلافة العباسية واسمه محمود بن صالح بن مرداس وكان مواليًا للفاطميين[٢].

وقصة دخول محمود بن مرداس والي حلب تحت طاعة الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية تكشف لنا البعد السياسي الاضطراري الذي جعل هذا الوالي الشيعي ومعه أشياخ الشيعة في حلب يقبلون بالسيادة العباسية السلجوقية؛ ذلك أنه رأى أن موازين القوى

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٤٧.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٢٤.



قد تبدلت وتغيرت، وأن قوة الفاطميين باتت غير قادرة على بسط سيطرتها ونفوذها في بلاد الشام حتى تجرأ إمبراطور الروم البيزنطيين رومانوس على الدخول حتى منبج بالقرب من حلب واحتلالها في شمال بلاد الشام والاستيلاء عليها ونهبها وإعمال القتل فيها، وهذا ما يذكره ابن الأثير بقوله: «في هذه السنة (٤٦٣هـ) خطب محمود بن صالح بن مرداس بحلب لأمير المؤمنين القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان؛ وسبب ذلك أنه رأى إقبال دولة السلطان وقوتها وانتشار دعوتها، فجمع أهل حلب وقال: هذه دولة جديدة ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم، وأرى أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل، فأجاب المشايخ ذلك، ولبس المؤذنون السواد، وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان، فأخذت العامة حصر الجامع، وقالوا هذه حصر علي بن أبي طالب فليأت أبو بكر بحصر يصلي عليها بالناس، وأرسل الخليفة إلى محمود الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي، فلبسها ومدحه ابن سنان الخفاجي وأبو الفتيان بن حيوس»[١].

ويبدو أن حادثة تجرؤ البيزنطيين على اقتحام بلاد الشام في سنة٤٦٢هـ كان لها أثرها الكبير في السياسة السلجوقية، فلقد أحس ألب أرسلان أن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية معرضتان للخطر إن اتحد البيزنطيون والفاطميون خاصة وأن دخول البيزنطيين لمنبج لم يجد سوى مقاومة ضعيفة من المرداسيين والكلابيين المسيطرين على هذه البلاد، يقول ابن الأثير: «في هذه السنة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف إلى الشام، ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها، وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهما من جموع العرب، ثم إن ملك الروم ارتحل وعاد إلى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع»[٢].

لقد كان من المحتوم أن يحسم ألب أرسلان أمر شمال الشام لاسيما مدينة حلب، وقد أيقن محمود المرداسي هذه الحقيقة فسارع في إعلان الطاعة، لكن لم يكتف ألب أرسلان بالاستيلاء على حلب، بل أرسل في عام ٤٦٣هـ أميرًا تركيًا يُدعى أتسز بن أوق الخوارزمي

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٨٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٨٤.

إلى فلسطين وكانت تحت حكم الفاطميين، ففتح مدينة الرملة وبيت المقدس وما جاورها من بلاد ما عدا عسقلان مفتاح الطرق المؤدية إلى مصر، ثم قصد مدينة دمشق وحاصرها وخرّب أعمالها وقطع الميرة والمؤن عنها ولكنه لم يستطع دخولها[1].

ويتضح من تحركات الجيوش السلجوقية في بلاد الشام أنها كانت تهدف إلى ضرب القوى المناوئة لها وعلى رأسها الشيعية منها في تلك البلاد قبل التوجه شمالًا صوب البيزنطيين، وهذا ما يؤكده هذا الحوار الذي ينقله ابن الأثير، والذي يكشف أن ألب أرسلان علم أن دخول المرداسي في طاعته لم يكن إلا لعبة سياسية يحفظ فيها دمه[2].

لقد خرج نقيب النقباء ورسول الخليفة القائم طراد الزينبي لملاقاة ألب أرسلان قبل أن يهاجم حلب، ويخبره بأن المرداسي قد دخل في طاعة الدولة العباسية والسلطنة السلجوقية، فما كان من ألب أرسلان إلا أن قال له: «أي شيء يساوي خطبتهم وهم يؤذنون حي على خير العمل؟! ولا بد من الحضور ودوس بساطي. فامتنع محمود من ذلك واشتدّ الحصار على البلد وغلت الأسعار وعظم القتال وزحف السلطان يوما وقرب من البلد فوقع حجر منجنيق في فرسه فلما عظم الأمر على محمود خرج ليلا ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري فدخلا على السلطان وقالت له: هذا ولدي فافعل به ما تحب. فتلقاهما بالجميل وخلع على محمود وأعاده إلى بلده فأنفذ إلى السلطان مالًا جزيلًا»[3].

ويبدو أن ضعف المقاومة التي وجدها الإمبراطور البيزنطي قد أغرته لمعاودة الكرة في العام التالي، بيد أن معاودته لم تكن على شاكلة المرة الأولى؛ فقد أعد الرجل عدته جيدًا تحسبًا لأي مقاومة عنيفة قد يجدها من السلاجقة الأقوياء.

ملاذكرد .. اليرموك الثانية!

لقد قرر الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس أن يخرج لمهاجمة الديار الإسلامية في جيش جرار قوامه مائتا ألف مقاتل، جمعهم من بلاد شتى، فهم من الروم والروس والفرنج والأرمن وغيرهم، أي أن الحرب كانت حربًا أوربية بامتياز؛ إذ «جاءوا في تجمل كثير، وزي

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٦٦، وابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص١٩٠.

(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٠٦، ٢٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٨٨.

عظيم، وقصد بلاد الإسلام فوصل إلى ملاذكرد من أعمال خِلاط فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خوى من أذربيجان وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو»(١).

ومدينة ملاذكرد تقع عند الفرات الأعلى شمال بحيرة فان عند أرمينيا، ويبدو أنه كان يريد اختراق ثغور المسلمين من ناحية الجزيرة والتوغل في الأراضي الإيرانية، وفطن ألب أرسلان لخطة العدو، وكان في ذلك الوقت قد بلغ أذربيجان في خمسة عشر ألف مقاتل فقط، فتقدم من فوره لوقف زحف العدو، ويقال إنه انزعج عندما شاهد ضخامة جيش العدو لدرجة أنه أرسل إلى الإمبراطور رومانوس يطلب المهادنة، وكان هدفه من ذلك كسب الوقت ريثما تصله الإمدادات، غير أن الإمبراطور قد أصر على الحرب ومواصلة الزحف، وقال: «إني قد أنفقت الأموال الكثيرة، وجمعت العساكر الكثيرة، للوصول إلى مثل هذه الحالة، فإذا ظفرت بها، فكيف أتركها؟! هيهات لا هدنة إلا بالرّى ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الإسلام مثل ما فعل ببلاد الروم»(٢).

وهذه الرواية التي يذكرها ابن الجوزي في «المنتظم» توضح الدافع الذي أخرج رومانوس بهذه الجيوش الجرارة؛ فقد كانت في نظره ردة فعل طبيعية لجهاد السلاجقة في منطقة القوقاز الجنوبي، واستيلائهم على أجزاء وحصون كبيرة منها، مما هدد الروسيين في الشمال والبيزنطيين في الشرق ومن ورائهم الفرنجة في الغرب الأوربي، ومن ثم لا نستغرب من هذا الجيش المختلط من أمم شتى!

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٨٨.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٦١.



ملاذ كرد
بردعة
بيلقان
وان
تبريز
أذربيجان
أردبيل
بحر الخزر
ماردين
المراغة
الجزيرة الفراتية
رشت
قزوين
زنجان
بلاد الديلم
الري
جرجان
طبرستان
آمل
الموصل
اربل
قومس
كركوك
تكريت
قرميسين
همذان
حلوان
نهاوند
قم
دنباوند
سامراء
كرمانشاه
كاشان
براز الروز
الأنبار (الفلوجة)
بغداد
أصفهان
كربلاء
الحلة
النجف
الكوفة
واسط
يزد
الأهواز
فارس
البصرة
كرمان
خليج البصرة
شيراز
فسا
تستر
جيرفت
نسا
مرو
خراسان
طوس
نيسابور
باخرز
سرخس
باذغيس
بوشنج
هراة
طبس
قوهستان
سجستان

وأيقن السلطان ألب أرسلان أن انتظاره لقوات معاونة تأتي من العراق أو الري سيستغرق وقتًا طويلًا وسيتسبب حتمًا في احتلال البلاد الإسلامية إن تقاعس عن الدفاع، ومن ثم نراه يتخذ قرارًا شجاعًا لأقصى درجة يقرر فيه بإيمان المؤمن بالله، المستمد قوته منه وحده، مواجهة القوة البيزنطية التي تقدر بمائتي ألف بجيشه الصغير الذي لا يتعدى الخمسة عشر ألف مقاتل، وهذا ما ينقله الأصفهاني بقوله: «ورأى السلطان أنه إن تمهل لحشد الجموع ذهب الوقت وعظم البلاء وثقلت أعباء العباد، فركب في نخبته، وتوجه في عصبته وقال: أنا أحتسب عند الله وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل(١) الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي(٢)، وإن نُصرتُ فما أسعدني، وأنا أمسى ويومي خير من أمسي»(٣).

على أن ابن الأثير ينقل لنا رواية أخرى يظهر فيها دور العلماء في تحفيز القادة والجند، فإن ألب أرسلان لما قوبل طلبه للهدنة بالرفض انزعج انزعاجًا شديدًا حتى بدا عليه ذلك، فما كان من إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي أن قال له: « إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال بالساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة»(٤).

وبالفعل ارتضى ألب أرسلان هذا القول من فقيهه، وهو موقف يشبه إلى حد كبير ما كان من آق شمس الدين مؤدب محمد الفاتح فاتح القسطنطينية بعد ذلك بأربعة قرون كاملة، «فلما كان تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما ههنا سلطان يأمر وينهى وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفني، وزحف إلى الروم وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء، ثم ركب وحمل وحملت إليه العساكر معه، فحصل المسلمون

---

(١) الحواصل: جمع الحوصل: وهو انتفاخ في المريء يختزن فيه الغذاء قبل وصوله للمعدة.

(٢) الرمس: هو القبر المستوى مع وجه الأرض.

(٣) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٣٧، ٣٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٨٨.

في وسطهم، وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاءوا، وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم، وقُتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى وأسر ملك الروم»[١].

على أن المؤرخين ينقلون لنا حوارًا رائعًا بين ملك مسلم له قاعدة واضحة يتكئ عليها في كل معاملاته بما في ذلك أوقات حروبه وجهاده، وبين إمبراطور الروم الذي وقع في الأسر، يقول ابن الأثير: «وأخبره بأسر الملك فأمر بإحضاره، فلما أحضر ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده، وقال له: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيتَ. فقال: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد. فقال السلطان: ما عزمت ما تفعل بي إن أسرتني. فقال: أفعلُ القبيح. قال له: فما تظن أنني أفعل بك. قال: إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبا عنك. قال: ما عزمتُ على غير هذا. ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم، واستقر الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها فأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة فدل عليه، فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة، وهادنه السلطان خمسين سنة وسيّره إلى بلاده، وسير معه عسكرًا أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا»[٢].

والحق أن هذه الموقعة الحربية التي تبهر كل من يقرأ عنها، هي بوضوح اليرموك الثانية؛ فإذا كانت اليرموك الأولى بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه قد أجلت الروم من بلاد الشام إلى آسيا الصغرى شمالًا، فإن معركة ملاذكرد تشبه الأولى إلى حد كبير في النتائج؛ فقد مهدت الطريق أمام جيوش المسلمين للتوغل في بلاد آسيا الصغرى، واقتطاع هذه الأقاليم الآسيوية المهمة من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية لأول مرة منذ قيامها؛ فقد وجه إليها ألب أرسلان ابن عمه سليمان قتلمش الذي استوطنها برجاله، وأقام هناك دولة سلاجقة الروم، وستكون هذه الدولة أطول الدويلات السلجوقية عمرًا حيث سقطت في بداية القرن الثامن الهجري، ويتم دحر الروم البيزنطيين إلى القسطنطينية على الجانب الأوربي من خليج البوسفور!

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٨٩.



والنتيجة الأخرى المهمة التي ترتبت على هذه المعركة الحاسمة قيام الحروب الصليبية، وعلى ما يذكر الدكتور أحمد العبادي بقوله: «وذلك لأن أخبار هزيمة الروم وعدم تمكنهم من حشد جيش آخر لرد الخطر التركي أثار مخاوف الدول الأوربية، صحيح أن العلاقات بين روما والقسطنطينية كانت عدائية بسبب ما قام بين الكنيسة الرومانية من خلاف مذهبي انتهى بانفصال الكنيسة الشرقية في القسطنطينية عن الكنيسة الغربية في روما سنة ١٠٥٤م أي قبل موقعة ملاذكرد بنحو ثمانية عشر عامًا، إلا أنه على الرغم من ذلك كان الغرب اللاتيني ينظر إلى الدولة البيزنطية على أنها الحصن الأمامي الذي يحمي المسيحية ضد الإسلام في الشرق، ومن ثم يجب على الغرب المسيحي أن يمد لها يد المساعدة، وقد اهتم البابوات في روما بأمر هذه المساعدة، نذكر منهم البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥م)، والبابا أوربان الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩م) فأخذوا يحرضون ملوك أوربا على مساعدة بيزنطة واتخذوا من هذه المسألة عاملًا مهمًا لتحقيق أهدافهم الصليبية»[١].

وهاتان نتيجتان في غاية الأهمية، مع التنويه بأن الغرب الأوربي كان قد ساعد البيزنطيين في موقعة ملاذكرد بغية القضاء على القوة السلجوقية الناشئة، والعجيب أن هذه الجيوش الجرارة لم تكن موجهة للدولة الشيعية العبيدية التي كانت متماسة مع البيزنطيين في شمال بلاد الشام اللهم إلا مناوشة سريعة للإمبراطور البيزنطي على منبج في العام الذي سبق موقعة ملاذكرد!

نهاية ألب أرسلان

بعد عامين فقط من موقعة ملاذكرد، وفي العاشر من ربيع الأول لعام ٤٦٥هـ كانت نهاية البطل الهمام ألب أرسلان على يد أحد الثائرين الخونة، ففي أوائل عام ٤٦٥هـ سار ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر، فوصل إلى نهر جيحون على رأس جيش تعداده مائتا ألف مقاتل، يريد محاربة الخارجين عليه على أثر فتنة ظهرت في بلاد ما وراء النهر حيث أصهاره الخانيون؛ فقد ساءت العلاقات بينه وبينهم بعد وفاة «طمغاج خان» والد زوجة ابنه ملكشاه سنة ٤٦٠هـ، فقد حاول ابنه شمس الدين نصر أن يستقل عن السلاجقة، مما اضطر السلطان إلى التوجه إليه واستطاع فعلا حصار الكثير من القلاع وفتحها.

هاجم ألب أرسلان إحدى القلاع المتمردة وهي قلعة خوارزم واستولى عليها، وقبض

(١) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص١٨٧، ١٨٨.

على قائدها المسمى «يوسف الخوارزمي» فأراد قتله على هذه الجريرة «فأمر أن تُضرب له أوتاد أربعة وتشد أطرافه إليها، فقال له يوسف: يا مخنث! هكذا تقتل الرجال؟! فاحتد السلطان وأخذ القوس والنشّاب وقال للموكّلين به: خلياه. ورماه فأخطأه، ولم يخطئ له سهم غيرها فعدا يوسف إليه وكان السلطان على سدّة، فنهض ونزل فعثر ووقع على وجهه وقد وصله يوسف، فنزل عليه، وضربه بسكين في خاصرته، وكان سعد الدولة كوهرائين[1] واقفًا، فجرحه يوسف عدّة جراحات ولم يفتر، ولحق يوسف فرّاش أرمنيّ ضربه بالمرزبة على رأسه فقتله وتلاحقت الأتراك فقطعوه بالسيوف. قال السلطان: ما من وجه قصدته، ولا عدوّ أردته إلا استعنت بالله عليه، فلما كان أمسنا صعدتُ تلا فارتجّت الأرض تحتي من عظمة الجيش، فقلتُ في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحد عليّ فخانني قدره، وأنا أستعين بالله وأستغفر من ذلك الخاطر، وعاش السلطان بعد ذلك ثلاثة أيام وتوفّي يوم السبت سلخ ربيع الأول سنة خمس وستين وأربع مائة، وكانت مدة ملكه عشر سنين»[2].

وتتلقى بغداد نبأ الوفاة بصدمة بالغة، وحزن عميق؛ فقد جلس «الوزير فخر الدولة (وزير الخليفة العباسي) للعزاء بالسلطان في صحن السلام يوم الأحد الثامن من جمادي الأولى، وخرج في يوم الثلاثاء توقيع من الخليفة يتضمن الجزع علي السلطان، ويذكر سعيه في مصالح المسلمين، وقتله بالروم، وغلقت الأسواق أيام العزاء، وأقامت خاتون زوجة الخليفة العزاء والمناحة وجلست على التراب»[3].

وبهذا تنتهي قصة هذا البطل الذي قدر الله أن يأتي في لحظة تاريخية حاسمة كانت الدولة العباسية فيها على شفا الانهيار التام، وقد تولى زمام السلطنة من بعده ولده ملكشاه الذي سار على درب أبيه في جهاده وقوته ورؤيته الثاقبة، وهي رؤية طغى عليها الجانب العسكري بطبيعة الحال.

***

(١) كان سعد الدولة كوهرائين من كبار الخدم ومماليك الدولة البويهية في بداية الأمر، ثم آل به الأمر إلى خدمة طغرلبك ومن جاء بعده، وقد ترقى في مناصب عدة حتى وصل إلى شحنة بغداد وأقطعه ملكشاه واسط. قتل في إحدى المعارك التي دارت بين الأخوين بركياروق ومحمد ابني ملك شاه سنة ٤٩٣هـ. ابن الجوزي: المنتظم ١٧/ ٥٧ عطا، والذهبي: تاريخ الإسلام ٣٤/ ٢٣.

(٢) صدر الدين الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٥٣، ٥٤.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٧٧.





المقتدي بأمر الله

(من شعبان ٤٦٧ هـ حتى محرم ٤٨٧ هـ)

تربيته ونشأته:

هو المقتدى بأمر الله عبد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر العباسي[١].

ولد في الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ٤٤٨هـ «وأمه أم ولد أرمنية تسمى أرجوان وتدعى قرة العين أدركت خلافته وخلافة ابنه وابن ابنه»[٢].

كان المقتدي «أبيض تمام الطول، دقيق المحاسن»[٣].

تُوفي والده قبل ولادته بأشهر، وتكفّل به جده الخليفة القائم بأمر الله، وقد هُرّب المقتدي صغيرًا في فتنة البساسيري التي تكلمنا عنها سالفًا، قال ابن الجوزي عن مراحل نشأته واستخلافه: «كان الذخيرة محمد قد بقي من أولاد القائم ولم يبق له ذكر سواه فاستشعر الناس انتقاض الدولة وانقضام الأمر لعدم ولد[٤] للبيت القادري وإن من سواهم من الأسرة مخالط للعوام في البلد وجارى مجارى السوقة وذلك تنفر قلوب العوام عن المتولى، فحفظ الله هذا البيت بأن كان الذخيرة قد ألم بجاريته أرجوان فتشوقت النفوس إلى ما يكون من ذلك فجاءت بالمقتدى بعد موت الذخيرة بخمسة أشهر وكسر فوقعت البشائر ولم يزل جده ضنينا به ح ذرا عليه، فلما كانت نوبة[٥] البساسيرى كان للمقتدى دون الأربع سنين فستره أهله

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣١٨.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٩٢.
(٣) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص١٩٦.
(٤) عدم ولد للبيت القادري: أي الخليفة القادر بالله لن يكون له حفيد يرث الخلافة لأن ابن ابنه محمد بن القائم بالله، توفي ولم يعلم الناس أن جاريته أرجوان كانت حاملاً في المقتدي إلا بعد وفاته.
(٥) فتنة البساسيري.

وحملوه إلى أبي الغنائم محمد بن علي بن المحلبان[١] فسار به إلى حرّان، فلما عاد القائم إلى منزله أُعيد المقتدى فبلغ والقائم حي فأشهد القائم على نفسه بولاية العهد فظهرت ألطاف الله سبحانه في أمر المقتدى من حيث ولادته وأنها كانت سببا لحفظ هذا البيت من جهة حراسة الفتنة ومن جهة بلوغه مرتبة الخلافة في حياة جده»[٢].

ويُؤكد ابن الأثير هذه التنشئة والرعاية من القائم لحفيده المقتدي بقوله: «لم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فإن الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفي أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانتقال الخلافة من البيت القادري إلى غيره ولم يشكوا في اختلال الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادري كانوا يخالطون العامة في البلد ويجرون مجرى السوقة فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة»[٣].

وقد كان أشهر مؤدبي المقتدي هبة الله بن أحمد بن السيبي وقد سمع المقتدي منه الحديث وعلومًا أخرى[٤].

سياسته وإصلاحاته:

تولى المقتدي الخلافة وعمره عشرون عامًا، وقد نشأ في رعاية جده القائم بأمر الله يربيه بما يليق بأمثاله، وقد خُطِب له بالحرمين وبيت المقدس والشام كلها والعراق، وعمرت بغداد وغيرها من البلاد في عصره، وكان وزراؤه وقضاته من خيار الناس كما يقول ابن الجوزي..

وقد كان المقتدي يهتم بتوطيد دعائم خلافته على محورين أساسيين:

فأما **المحور الأول**، فيتمثّل في إقرار الأوضاع الاجتماعية والأمنية في بغداد والعراق؛ لأنها معقل خلافته وإن لم يكن فيها سوى الاسم بجانب السلطان القوي ملكشاه بن ألب أرسلان (ت٤٨٥هـ)، فنراه يعمل على توسيعها العمراني في أول خلافته حيث «عمّر الجانب الشرقي من بغداد، فعُمرت البصلية والقطعية والحلبة والأجمة ودرب القيار وخرابة ابن جردة

---

(١) من رجال دولة الخليفة القائم العباسي وحفيده المقتدي، علا شأنه في دولة القائم استنقذ حفيده عدة الدين بن ذخيرة الدين وحمله سرا إلى حران عند منيع بن وثاب النميري، وذلك في فتنة البساسيري، وقد أرسله الخليفة القائم مرارًا إلى طغرلبك السلجوقي في المراسلات بينهما.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٩٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٤٠٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٦٠.

الهراس والخاتونيتان والمقتدية وبني الدار الشاطئية على دجلة والأبنية العجيبة في داخل الدار»[١]. وهي أحياء جديدة في بغداد الشرقية التي كانت مقسّمة إلى أقسام ثلاثة بطبيعة الحال هي الرّصافة في الشمال الشرقي والشمّاسية في الوسط الشرقي والمخرّم في الجنوب الشرقي.

ويبدو أن اهتمامه بالعمران وتنظيف الشوارع[٢] ومد شبكات من المرافق الأساسية والمياه إلى الناس من جملة ما كان يشغله في مدة خلافته، ففي عام ٤٧٥هـ نرى الوزير عميد الدولة بن جُهير يوسّع جامع القصر[٣] ويمد «الماء من داره في قنى تحت الأرض وجعل لها فوارات فانتفع الناس بذلك منفعة عظيمة»[٤].

كما حرص المقتدي على إسقاط الضرائب والمكوس الباهظة كما حدث في عامي ٤٧٩هـ[٥] و ٤٨٠هـ وكانت تُكتب المناشير العامة وتُعلّق على مداخل الجوامع بهذا[٦].

في إطار المحور الأول أيضًا عمل المقتدي على تطهير العاصمة ماديًا ومعنويًا باتخاذ إجراءات عاجلة وذلك بـ«نفي المفسدات وبيع دورهن ومنع الناس من دخول الحمامات بغير ميازر[٧] وقلع الهوادى والأبراج ومنع اللعب بالطيور لأجل الاطلاع على سطوح الناس ومنع الحماميين من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة وألزمهم أن حفروا لها آبارا تجتمع المياه فيها وصار من يغسل السمك والمالح يعير إلى النجمي فيغسل هناك ومنع الملاحين[٨] أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين»[٩]. وحرص على مراقبة هذه القرارات طوال فترة خلافته وهذا ما يحدث مرة أخرى في سنة ٤٧٨هـ[١٠] و ٤٧٩هـ[١].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٩٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٨.
(٣) جامع القصر: أحد أهم جوامع بغداد، وهو مصلى خلفاء بني العباس، كان موضعه داخل أسوار دار الخلافة. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢٥١.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٣.
(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢/ ٣٣.
(٦) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٣٥.
(٧) ميازر جمع مئزر، ويسمى المريول، هو رداء خارجي لحماية الملابس ويغطي في المقام الأول الجزء الأمامي من الجسم.
(٨) أصحاب المراكب.
(٩) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٩٣، ٢٩٤.
(١٠) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٧.

وكان إصراره على تطهير العاصمة والعراق عمومًا من كل ما بها من مظاهر السوء والمظالم وما يتنافى مع الأخلاق العامة يتخذ أشكالًا أكثر عملية من مجرد المناشير العامة، ففي سنة ٤٧٩هـ أصدر مرسومًا بتعيين «زعيم الكُفاة[٢] أبي منصور محمد بن محمد بن الحسين بن المعوج إلى الديوان[٣] فخلع عليه فحضره أرباب الدولة وخرج التوقيع بتقليده المظالم وكان فيه (أي المرسوم): ولما رأى أمير المؤمنين في محمد بن محمد بن الحسين من العفاف والديانة والثقة والصيانة قلّده المظالم وقد أخذ عليه تقوى الله وطاعته والسعي في كل ما كان يزلفه عنده ويقربه من أمير المؤمنين»[٤].

بالإضافة إلى هذا؛ فإنه كان يسمع بنفسه مظالم ذوي المظالم والحاجات ويسعى في إقامة العدل بين الناس طبقًا لما كان يملكه من صلاحيات تخول له هذا الأمر، ففي شهر صفر من عام ٤٧٩هـ «دخل عرّيف[٥] الصّناع والفعَلة، والصناع معه على العادة إلى دار الخلافة فخرج المقتدى يمشي في الدار فخرج إليه ثلاثة من الرجال فقبلوا الأرض وقالوا: نحن رجال من رؤساء نهر الفضل[٦] صودرنا وعوقبنا ولنا أربعة أشهر على الباب لم يُنجز لنا حال فتوصلنا إلى أن دخلنا في حد الروزجارية[٧]. فقال: فمن فعل بكم هذا؟ قالوا: ابن زُريق الناظر بواسط. فوعدهم الجميل. فخرجوا وتقدّم من ساعته بإيضاح الحال، فإن كان كما ذكروا فليُعزل ابن زريق عن أعمال واسط وليُصعد به مُنكّلا. ثم تقدم إلى صاحب المظالم: أن لا يطوى حال أحد من الرعية ثم وصل أولئك وأحدرهم[٨] وأصحبهم من يستوفى من ابن زريق ما لهم ويُنفذ فيه ما تقدم به»[٩].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٦.

(٢) قال ابن منظور: الكُفاةُ: الخَدَمُ الذين يَقومون بالخِدْمة. ابن منظور: لسان العرب ١٥/ ٢٢٦.

(٣) ديوان الخلافة وهو المختص بكل ما يتعلق بالخليفة.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٦.

(٥) العرّيف: العارف العالم بالشيء والقيم بأمر القوم وسيدهم. المعجم الوسيط ٢/ ٥٩٥.

(٦) نهر الفضل: نهر من نواحى مدينة واسط، عليه قرى. عبد المؤمن البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ٣/ ١٤٠٤.

(٧) مساعدو الفنيين من العمال العاديين والأُجراء. والمقصد أن الحال وصل بهم إلى أن صاروا عمالًا عاديين بعدما كانوا رؤساء.

(٨) أنزلهم.

(٩) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٧.

كما حرص على عدم التدخل في شئون الرعية وإتاحة الحرية كاملة لهم ما لم تمس الأمن العام، فقد نقل ابن النجار البغدادي حكاية عن أبي الحسن البسطامى وكان مدعيًا عليه يقول: «كُتب في حقى قُصّة ورفعت إلى الخليفة المقتدى بأمر الله يذكر فيها أن البسطامى تزهد ولبس الصوف وترك أكل الطيبات، فإذا خلا في بيته لبس الكتان الرومي وأكل الدجاج المسمن وحلوى السكر ويتمتع بجوارٍ له حِسان، فكتب المقتدى على ظهر القصة: يجوز جميع ذلك في الشرع»(١).

كما حرص على درء الفتن والمناوشات التي كانت تقوم بين العلماء وتتعصّب لهم فيها العامة، كالخلافات التي كانت تحدث بين الأشاعرة والحنابلة وغيرهم، وذلك من خلال منع الوعظ الذي يخلط فيه الوعّاظ بين الرقائق وتهذيب الأخلاق وعلوم السنة وبين الحديث عن الخلافات الأصولية(٢).

ومثله درء الفتن ومظاهر الاضطراب التي كانت تحدث بين الشيعة والسنة وأقواها ما حدثت في عام ٤٨٢هـ وقد وقع فيها ٢٠٠ قتيل بين الجانبين، وكانت بين أهل الكرخ الشيعة وأهل باب البصرة السنة، ولم يستطع الخليفة ورئيس شرطته وكبار العلماء أن يوقفوها في بداية أمرها، وكان أحد الوسطاء الذين سعوا إلى إنهاء هذه الفتنة العلامة أبو الوفا بن عقيل الحنبلي، ونقل ابن الجوزي من مذكرات ابن عقيل حول هذه الواقعة ما يجلي لنا طبيعة الأوضاع الاجتماعية بين الجانبين في العاصمة(٣)، كما استعان المقتدي بقوة صدقة بن مزيد العسكرية أمير عرب العراق واستطاع أن يئد الفتنة، ويقضي على المفسدين بالفعل(٤).

كما حرص المقتدي أيضًا على وأد الفتن التي كان يقوم بها أهل الذمة بين الحين والآخر وخاصة اليهود، وكان الخليفة في بعض الأوقات يجمع كبار رجال دولته في مجلس يُسمى بـ«مجلس العرض» ويبتُّ في أمرهم، مثل ما حدث في سنة ٤٧٨هـ، فقد خرج مرسوم من الخليفة المقتدي جاء فيه: «قد رُفع إلى مجلس العرض الأشرف حالُ بني اليهود وتظاهرهم بما حظر على أهل الذمة المظاهرة به فمتى تعدوا شرطا مما أخذ منهم نقضوا العهد وبرئت منهم

(١) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ٣/ ١٣١.
(٢) راجع فتنة سنة ٤٦٨هـ. ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣٠٧، ٣٠٨.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٤٨، ٤٩.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٦١.

الذمة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] »(١).

وفي عام ٤٨٤هـ استطال أهل الذمة على المسلمين وظهر فسادهم؛ وهذا ما لاحظه الوزير ظهير الدين أبو شجاع فأرسل إلى المقتدي يستخبره عن هذه النازلة ويعرض عليه حلها، فقال: «إن الواجب تمييزهم عنهم، فأمره الخليفة أن يفعل ما يراه؛ فألزمهم لبس الغيار والزنانير، وتعليق الدراهم الرصاص في أعناقهم، مكتوب على الدرهم ذميّ، وتجعل هذه الدراهم في حلوق نسائهم في الحمامات ليُعرفن بها»(٢)، وهذا الإجراء كان طبيعيًا في حكم أناس كثر فسادهم في البلاد، وهو بمثابة التعريف أو بطاقة الهوية، لكن هذا لا يمنع رفضنا لتعميم مثل هذا الإجراء على الكافة منهم.

وأيضًا العمل على درء الفتن بين الأتراك المماليك وعامة أهل بغداد، فقد أمر بإبعادهم عن ثكنات منطقة الحريم بدار الخلافة إلى دار المملكة السلجوقية في شرق العاصمة، وكانوا مماليك زوجته خاتون ابنة السلطان ملكشاه؛ لأنهم تجبروا على العامة(٣).

وكان على عاتق الدولة مسئولية إعانة الناس في الأزمات والكوارث، مثل حادث الطاعون الكبير الذي أصاب العراق وشرق العالم الإسلامي سنة ٤٧٨هـ؛ فقد أدت هذه المصيبة إلى مقتل آلاف من البشر، وكان المقتدي يمد المصابين بالأدوية والأطباء والمال بل والأراضي التي يدفنون فيها موتاهم(٤).

وفي إطار المسئولية ذاتها أمر الخليفة المقتدي ببناء مساكن للفقراء الذين كانوا قد بدأوا يتخذون بيوتًا في هيئة أكواخ على مشارف العاصمة للعوز الذي ألم بهم «فتقدم أمير المؤمنين بأن يشتري لكل واحد دارًا بالمقتدية وبالمسعودة والمختارة(٥) وملكوها ونُقضت كويخاتهم»(٦).

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٤.
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، تحقيق مسفر ص١٤٥.
(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، تحقيق مسفر ص١١٨.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٥.
(٥) أحياء في بغداد الشرقية. راجع ياقوت: معجم البلدان ٥/ ٧١، ١٢٦. وقد أكد ياقوت على أن محلة المقتدية إحدى المحلات أو الأحياء التي بُنيت في عصر الخليفة المقتدي. ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٣١٥.
(٦) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٣٠.



أما **المحور الثاني** فيتمثل في التقرب من السلاجقة ووزيرهم الكبير نظام الملك الطوسي، ففي عام ٤٧٤هـ وسّط المقتدي كبيرَ آل جُهير ووزيره السابق فخر الدولة ابن جهير والعلامة أبا إسحاق الشيرازي الشافعي وغيرهم ليذهبوا إلى نيسابور لكي يطلبوا ابنة السلطان جلال الدولة ملكشاه السلجوقي زوجة له، وقد تمت هذه الزيجة في عام ٤٧٩هـ، وهي بلاشك تُعد من عوامل استقرار خلافته ورضاء للسلطان ملكشاه؛ حتى إن المقتدي قد أذعن لمطالب أم العروس القاسية التي منها تطليق زوجاته الأخريات ودفع مهر لم يُسمع بمثله من قبل[١]، وعن هذا الجهاز يقول المؤرخون: «فنقل جهازها إلى دار الخليفة، فيما نقل ابن الأثير، على مائةٍ وثلاثين جملًا مجلَّلة بالدّيباج الروميّ، وعلى أربعة وسبعين بغلًا مجلَّلة بألوان الدّيباج، وأجراسها وقلائدها الذَّهب، فكان على ستّة بغال اثنا عشر صندوقًا فيها الحليّ والمصاغ، وثلاثة وثلاثون فرسًا عليها مراكب الذَّهب مرصّعة بأنواع الجوهر والحليّ، ومهد كبير كثير الذّهب، وبين يدي الجهاز الأميران كوهرائين وبرسق. فأرسل الخليفة وزيره أبا شجاع إلى تركان خاتون، وبين يديه ثلاثمائة مركبيّة، ومثلها مشاعل، ولم يبق في الحريم دكّان إلاّ وقد أشعل فيها الشّمع. وأرسل الخليفة محفّة لم ير مثلها. وقال الوزير لتركان: يقول أمير المؤمنين: إنّ الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها، وقد أذن في نقل الوديعة إليه. فأجابت، وحضر نظام الملك فمن دونه، وكلٌّ معهم الشّمع والمشاعل. وكان نساء الأمراء بين أيديهن الشّمع والمشاعل. ثمّ أقبلت الخاتون في محفّةٍ مجلَّلة بألوان الذَّهب والجواهر الكوشيّ، قد أحاط بالمحفّة مائتا جارية من الأتراك بالمراكب العجيبة، فسارت إلى دار الخلافة. وكانت ليلة مشهودة لم يُر ببغداد مثلها»[٢].

وبرغم حرص المقتدي على التقرب من السلطان ملكشاه بزواجه من ابنته، إلا أن ذلك لم يكن ينفعه بشيء في بعض الأوقات، وكثيرًا ما تدخل السلاجقة ونوابهم في شئون الخلافة؛ لدرجة أنهم أصروا على عزل الوزير عميد الدولة ابن جهير في عام ٤٧١هـ وقد أُجبر الخليفة المقتدي على هذا[٣]، ثم سُرعان ما رجع مرة أخرى بوصية من نظام الملك الطوسي، وقد كان لبني جُهير دورهم الملموس، ومكانتهم في وزارة العباسيين منذ الخليفة السابق القائم بأمر الله

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٢٥.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٤/ ٣٢.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣١٧.

وحتى حفيده الخليفة المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بالله[١]. كما تدخلوا في عزل الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراوري سنة ٤٨٤هـ وأذعن المقتدي لرغبتهم كدأبه[٢]!

ومع ذلك كان السلاجقة وعلى رأسهم ملكشاه يُظهرون احترامهم للخليفة في المناسبات العامة وأثناء زيارتهم لبغداد؛ فإن ذلك وإن كان من المظاهر الشكلية المتبادلة بين الجانبين إلا أنها كانت مما تعاهده الناس والرعية، وصار من مظاهر الشرعية التي يتحصل عليها السلاجقة مادامت الأمور هادئة بين الجانبين.

وإننا نجد هذا الأمر في زيارة ملكشاه الأولى لبغداد في سنة ٤٧٩هـ أثناء حضوره لمراسم زواج ابنته من الخليفة المقتدي، قال ابن الأثير: «في هذه السنة دخل السلطان ملكشاه بغداد في ذي الحجة بعد أن فتح حلب وغيرها من بلاد الشام والجزيرة وهي أول قدمة قدمها ونزل بدار المملكة[٣] وركب من الغد إلى الحلبة ... وأرسل إلى الخليفة هدايا كثيرة فقبلها الخليفة ومن الغد أرسل نظام الملك إلى الخليفة خدمة كثيرة فقبلها»[٤]. وأكد ابن الجوزي على هذه المراسم التي يتجلى فيها احترام ملكشاه ووزيره نظام الملك للخليفة بقوله: «وصل النظام إلى الخليفة من التاج[٥] ومشى وحده إلى أن وصل إليه وهو جالس من وراء الشباك فخدم فقرّبه وأدناه وأخرج يده من الشباك إليه فقبّلها ووضعها على عينه وخاطبه بما جمّله به»[٦].

أما عن المقابلة الأولى بين السلطان ملكشاه والخليفة المقتدي في بدايات سنة ٤٨٠هـ فينقل لنا ابن الجوزي هذا المشهد الذي يؤكد على مقدار الاحترام البرتوكولي بين السلطان

---

(١) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٨.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٥٦.

(٣) دار المملكة: بأعلى المخرِّم، والمخرّم: محلّة كانت ببغداد بين الرّصافة ونهر معلّى في الجانب الشرقي من بغداد، كانت هذه الدار قديمًا لسبكتكين الحاجب غلام معز الدولة البويهي. نقض أكثرها عضد الدولة وأعاد بناءها، ثم نهبت وأحرقت. وفي سنة اثنتين وخمسمائة فوض بهروز الخادم رئيس الشرطة في بغداد بإعادة بنائها، فأتمها، ثم وقع فيها الحريق الثاني سنة خمس عشرة وخمسمائة، فأتت النيران عليها ولم يسلم منها شيء. وكانت منزل أمراء البويهيين وسلاطين السلاجقة من بعدهم، وقد نقضها الخليفة الناصر سنة ٥٨٤هـ.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٤٧.

(٥) التاج هو المقر الرسمي للخلفاء العباسيين في بغداد.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٣٠.



والخليفة بقوله: «مثُل (جلال الدولة ملكشاه) بين يدي السُّدّة[١] وقبّل الأرض دفعات فقلّده سيفين، فقال الوزير أبو شجاع: ياجلال الدولة! هذا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين الذي اصطفاه الله بعز الإمامة واسترعاه الأمة، فقد أوقع الوديعة عندك موقعها، وقلّدك سيفين لتكون قويا على أعداء الله. فسأل تقبيل يد الخليفة فلم يجبه، فسأل تقبيل خاتمه فأعطاه إياه فقبّله ووضعه على عينه وحضر الناس بأجمعهم فشاهدوا الخليفة والسلطان ثم انكفأ»[٢].

وفي سنة ٤٨٢هـ تضررت بنت ملكشاه من ابتعاد الخليفة عنها، وإهماله لها، فأذن لها في الذهاب إلى أصبهان مع ابنها جعفر[٣]، ويُصور لنا سبط ابن الجوزي مدى ضعف الخليفة المقتدي أمام زوجته بنت السلطان ملكشاه، فقد أراد أن يبقي ابنه الصغير جعفر معه، لكن ابنة السلطان أصرت على أخذ ولدها وقد نجحت[٤]، ثم ما لبثت أن توفيت في أصفهان سنة ٤٨٣هـ بسبب مرض الجدري الذي أصابها!

وبعد ابتعاد ابنة ملكشاه عن بغداد نلاحظ أن العلاقة بين السلطان والخليفة بدأت تأخذ منحى الفتور والكراهية خاصة من جانب ملكشاه، ولعل الذي منعه من إيقاع الضرر بالخليفة منذ عام ٤٨٢هـ إلى الصدام الحقيقي بينهما سنة ٤٨٥هـ أمور منها وجود نظام الملك الطوسي هذا الوزير الخبير الذي كان يعرف للخلفاء العباسيين حقهم ومكانتهم، ثم علاقة النسب بين ملكشاه والمقتدي نفسه؛ فقد أنجب المقتدي ابنه جعفر من ابنة ملكشاه، لكن ورغم ذلك أصرّ ملكشاه على إقصاء المقتدي من بغداد سنة ٤٨٥هـ.

وقد قدم ملكشاه إلى بغداد للمرة الثانية في سنة ٤٨٤هـ واحتفل فيها بيوم «الصدق» أو «السّدق» وهو أحد أعياد الفرس القديمة، ثم خرج منها في ربيع الأول من عام ٤٨٥هـ، ولم تخبرنا المصادر التاريخية بأنه التقى بالخليفة المقتدي في هذه الزيارة التي صحب فيها ابن ابنته الصغير جعفر بن المقتدي.

---

(١) السُّدة لغة: باب الدار والبيت، وقيل هي السقيفة وفناء الدار. واصطلاحًا: شيء كالدّكة أو المنبر يوضع في إيوان الدرس يجلس عليه المدرس لإلقاء دروسه. والمقصود هنا: كرسي الخليفة وعرشه.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٣٦.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٢١، ٣٢٢.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، تحقيق مسفر الغامدي ص١٢٥.

وفي نفس العام قرر ملكشاه أن يرجع إلى بغداد بنية إخراج المقتدي منها[١]، وفي سفره هذا قُتل نظام الملك الطوسي على ما سنذكره بعد قليل بالتفصيل، ولما دخل ملكشاه إلى بغداد أرسل يقول للمقتدي: «لابد أن تترك لي بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت. فانزعج الخليفة من هذا انزعاجا شديدا، ثم قال: أمهلني شهرا. فعاد الجواب: لا يمكن أن تؤخر ساعة. فقال الخليفة لوزير السلطان: سله أن يؤخرنا عشرة أيام. فجاء إليه فقال: لو أن رجلا من العوام أراد أن ينتقل من دار إلى دار تكلف للخروج فكيف بمن يريد أن ينقل أهله ومن يتعلق به فيحسن أن تمهله عشرة أيام. فقال: يجوز»[٢].

وتسوق لنا هذه المصادر كم العبادة والتضرع الذي أظهره المقتدي في هذه الأيام العشرة التي مرت عليه كأنها الدهر، ثم ما لبث أن جاءه الخبر بوفاة ملكشاه السلجوقي، فعدّ الناس ذلك من كرامات الخليفة المقتدي!!

لكن ثمة أسئلة تتوارد إلى الذهن وهي: ما السبب الذي جعل ملكشاه يُصرّ على إخراج المقتدي من بغداد؟ ولماذا هذه المفاجأة في اتخاذ القرار؟ ولماذا تمّ اتخاذ هذا القرار بعد بضعة أشهر فقط من خروج ملكشاه من بغداد وعوده إليها؟!

الحق أنني بحثت في المصادر المعاصرة والقريبة من الناحية الزمنية لهذه الواقعة، ولم أجد تفسيرًا واضحًا ومباشرًا يكشف لنا سرّ هذا القرار المفاجئ؛ لكن ثمة مجموعة من الأسباب التي إن وضعناها بجوار بعضها أخذتنا إلى نتيجة قد تكون مقنعة. **الأول:** الوحشة وسوء العلاقة التي كانت بين المقتدي وملكشاه خاصة بعد إهمال المقتدي لابنة ملكشاه وخروجها من بغداد مُغضبة من تجاهله لها، ثم وفاتها بعد ذلك بأشهر قليلة، الأمر الذي أساء العلاقة بين الجانبين على ما يبدو. **الأمر الثاني:** العلاقة الودية بين نظام الملك وبين الخليفة المقتدي، وقد كان ملكشاه قد تضرر من سطوة نظام الملك وسيطرته هو وأولاده على أرجاء سلطنته، فلعله خاف من اتفاقهما عليه، وقد قيل في إحدى الروايات إن لملكشاه دخلا في مقتل نظام الملك أثناء قدومه معه من أصفهان إلى بغداد، وهو ما دفعه للذهاب إلى بغداد واتخاذها عاصمة له. **الأمر الثالث:** فشل الحملة الثنائية لآقسنقر والد عماد الدين زنكي ومؤسس دولتهم ووالي

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٢٨.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٦٢.



حلب، وأخو السلطان تتش بن ألب أرسلان في حملتهما لفتح بلاد الشام وتطهير البلاد الساحلية وإجهاض الخطة الكاملة التي كانت تهدف لفتح مصر وذلك في النصف الأول من سنة ٤٨٥هـ. **الأمر الرابع:** نجاح أمراء السلطان ملكشاه في السيطرة على اليمن. **الأمر الخامس** وهي ملاحظة مهمة يذكرها ابن العمراني في «الإنباء في تاريخ الخلفاء» وهي أن ملكشاه كان قد بنى مدينة بغداد الجديدة جنوب دار المملكة السلجوقية سنة ٥٨٣هـ «ونقل أهل البلد كلهم إليها وحوّط عليها سورًا محكمًا، وجعل بغداد سرير الملك، وسام الخليفة أن يتحول عنها إلى مكة أو المدينة فلم يمكنه الوزير نظام المُلك»[١]. وهذه الإشارة تبين أن ملكشاه كان عازمًا على نقل الخليفة المقتدي منذ سنة ٥٨٣هـ عقب وفاة ابنته مباشرة؛ فضلًا عن بناء مدينة بغداد الجديدة التي كانت ملائمة كقاعدة جديدة لسلاطين بني سلجوق.

فلعل هذه الأسباب مجتمعة أجبرت ملكشاه على الإسراع لدخول بغداد واتخاذها عاصمة بديلة – لا منازع له فيها كالمقتدي – عن أصفهان ليكون بالقرب من هذه الأحداث الجسام؛ غير أن القدر لم يمهله، وتوفي في بداية شهر شوال سنة ٤٨٥هـ[٢].

وفي المحرم من عام ٤٨٧هـ توفي المقتدي بأمر الله فجأة وعُمره ٣٩ عامًا[٣]، وعن موته يقول الذهبي: «وفي أول سنة سبع وثمانين خطب ببغداد للسلطان بركياروق ركن الدولة، وعلَّم المقتدي على تقليده، ثم مات فجأة من الغد، تغدى وغسل يديه، وعنده فتاته شمس النهار، فقال: ما هذه الأشخاص دخلوا بلا إذن؟ فارتابت، وتغير، وارتخت يداه، وسقط، فظنوه غشي عليه، فطلبت الجارية وزيره، ومات، فأخذوا في البيعة لابنه أحمد المستظهر بالله في ثامن عشر المحرم، وكانت خلافته عشرين سنة، وأخروا دفنه ثلاث ليال لكونه مات فجأة»[٤].

لقد كان المقتدي محبا للعلوم، مكرما لأهلها، وتقرب إليه كثير من علماء بغداد كابن أبي عمامة البغدادي الواعظ الذي «كان يؤم الإمام المقتدي بأمر الله في التراويح وينادمه»[٥]

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٠٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٨٢.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٠٣.
(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٢٣.
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٥٢.

والعلامة الحنبلي الهاشمي أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى الذي «بلغ من قدره ومحله عند الإمام المقتدي بأمر الله: أنه لما فرغ من غسل الإمام القائم بأمر الله لم يأذن له بالمسير إلى منزله حتى بايع الناس الإمام المقتدي بأمر الله على الإجماع واستدعاه لبيعته مفردًا مخليًا به فبايعه ثم قال له شيخنا الشريف في جملة كلامه له:

إذا سيد منا مضى قام سيد ... قؤول بما قال الكرام فعول

ثم أذن له بالمضي إلى منزله بعد بيعته[1].

وتوثقت العلاقة بين المقتدي بالله والعلامة الشافعي أبو إسحاق الشيرازي[2] فقد كان «المقتدي بأمر الله كبير الإجلال للشيخ أبي إسحاق، وكان الشيخ أبو إسحاق سببا في جعله خليفة»[3] ولكن السبكي لا يوضح كيف كان لأبي إسحاق دخل ليكون خليفة، كما قرّب الطبيب والفيلسوف يحيى بن جزلة الذي كان نصرانيًا وأسلم، وجعل باسم المقتدي كثيرا من الكتب التي صنفها[4].

وقد كان المقتدي بليغ النثر، فمما أُثُر عنه: وعد الكرماء ألزم من ديون الغرماء. الألسن الفصيحة أنفع من الوجوه الصبيحة، والضمائر الصحيحة أبلغ من الألسن الفصيحة. حق الرعية لازم للرعاة، ويقبح بالولاة الإقبال على السعاة[5].

وللمقتدي بعض الأشعار التي ساقها بعض المؤرخين، منها قوله:

أردتُ صفاء العيش مع من أحبه ... فحاولني عما أروم مريد

وما اخترت بت الشمل بعد اجتماعه ... ولكنه مهما يريد أريد

وكان كما يقول الذهبي: هو خليفة الإسلام في زمانه، لكن يزاحمه صاحب مصر

---

(١) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٣٩.

(٢) إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي، كان نابغة في علوم الشريعة الإسلامية، فكان مرجع الطلاب ومفتي الأمة في عصره، واشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة. وبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية على شاطئ دجلة، فكان يدرّس فيها ويديرها. توفي في بغداد وصلى عليه الخليفة المقتدي العباسي سنة ٤٧٦هـ. الزركلي: الأعلام ١/ ٥١.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢٢٣.

(٤) عمر كحالة: معجم المؤلفين ١٣/ ٢١٨.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٢٤.



المستنصر وابنه، فكان العبيدي والعباسي مقهورين من وجوه[١].

والحق أن المقتدي بأمر الله لم يكن له من أمر الخلافة والملك شيئًا، وهذا ما يؤكده المقريزي بقوله: «لم يكن له سوى الاسم، لا يتعدى حكمه بابه، والتدبير إلى ملكشاه، وأقام على ذلك تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين، وقيل إلا خمسة أيام، وأقيم بعده ابنه»[٢].

جلال الدولة ملكشاه:

تولى السلطان ملكشاه عقب وفاة أبيه ألب أرسلان في ربيع الثاني من عام ٤٦٥هـ وهو ابن ثمانية عشر عامًا فهو مولود في العام الذي دخل فيه السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ، وقد استمر حكمه عشرين عامًا متصلة.

وهذا العام ٤٦٥هـ هو العام قبل الأخير لخلافة القائم بأمر الله العباسي، ولذلك أدرجنا الحديث عن ملكشاه في ظل خلافة المقتدي بأمر الله حفيد القائم الذي بدأ خلافته في العام ٤٦٧ هـ وانتهت في العام ٤٨٧هـ.

وقد آلت السلطنة فعليًا إلى ملكشاه بناء على وصية أبيه، وقد كان وزير أبيه نظام الملك وزيرًا له أيضًا يعاونه ويسانده ويؤيده، وقد كتب إلى حكام الأقاليم والأطراف بذلك ليعلنوا الطاعة له، وفي هذه الأثناء أشار أحد مساعدي السلطان واسمه أبو سعد المستوفي على نظام الملك أن ينتقل السلطان من مرو إلى نيسابور؛ «فإنها واسطة عقد خراسان، ومعسكر الملوك الماضيين وآل سامان»[٣].

وما أن اعتلى ملكشاه سدّة الحكم حتى لاحت في الأفق نذر فتنة محققة داخل البيت السلجوقي؛ فقد أعلن عم السلطان ملكشاه العصيان والتمرد بحجة أنه الأحق بالملك من ابن أخيه؛ فقد كتب إلى ابن أخيه بقوله: «أنا الأخ الكبير وأنت الولد الصغير، وأنا أولى بميراث أخي السلطان ألب أرسلان منك، فأجاب السلطان ملكشاه فقال: الأخ لا يرث مع وجود الابن»[٤].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٢٤.
(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ١٢٦.
(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٥٦.
(٤) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٥٦.

ومن ثم سار العم واسمه قاورت بك «طالبا للري[١] يريد الاستيلاء على الممالك فسبقه إليها السلطان ملكشاه ونظام الملك، وسارا منها إليه فالتقوا بالقرب من همذان في شعبان سنة ٤٦٥هـ[٢]، وكان العسكر يميلون إلى قاورت بك فحملت ميسرة قاورت على ميمنة ملكشاه فهزموها، وحمل شرف الدولة مسلم بن قريش وبهاء الدولة منصور بن دبيس بن مزيد وهما مع ملكشاه ومن معهما من العرب والأكراد على ميمنة قاورت بك فهزموها، وتمت الهزيمة على أصحاب قاورت بك ومضى المنهزمون من أصحاب السلطان ملكشاه إلى مناطق شرف الدولة وبهاء الدولة فنهبوها؛ غيظا منهم حيث هزموا عسكر قاورت بك، ونهبوا أيضا ما كان لنقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي رسول الخليفة، وجاء رجل سوادي إلى السلطان ملكشاه فأخبره أن عمه قاورت بك في بعض القرى، فأرسل من أخذه وأحضره، فأمر سعد الدولة كوهرائين فخنقه وأقر كرمان بيد أولاده، وسير إليهم الخلع، وأقطع العرب والأكراد إقطاعات كثيرة لما فعلوه في الوقعة»[٣] وقد ذكر ابن الأثير وغيره السبب الذي جاء بشرف الدولة وبهاء الدولة إلى ملكشاه واشتراكهما في هذه المعركة.

ونلحظ أن إقليم كرمان هو الإقليم الذي يثور دائمًا على سلاطين السلاجقة، فمن قبل ثار قرا أرسلان على ألب أرسلان في العام ٤٥٩هـ، والآن وبعد ستة أعوام فقط في بداية سلطنة ملكشاه يثور ذات الإقليم بقيادة عمه قاورت بك مرة أخرى، وقد يرجع السبب في ذلك إلى طبيعة هذا الإقليم في ظل الدولة السلجوقية، فقد «كانت في أيام السلجوقية والملوك القارونية من أعمر البلدان وأطيبها ينتابها الركبان ويقصدها كل بكر وعوان»[٤] على ما يذكر ياقوت في معجمه، وهذا الوصف يدلل على القوة السياسية والاقتصادية التي تمتع بها هذا الإقليم، مما كان مصدر قوة ومنعة بل وطموح لمن يتولاه من العمال والولاة.

ويبدو أن صغر سن ملكشاه كان سببًا قويًا في طمع الآخرين في ولايات الدولة السلجوقية؛ فقد استولى ألتكين والي سمرقند على ترمذ وشتت جيوش أياز أخي ملكشاه،

---

(١) الري وهي مدينة بالقرب من طهران حاليا في إيران ولها مكانة إستراتيجية كبرى فهى أحد المراكز الأساسية التي حكم من خلالها السلاجقة سلطنتهم المترامية الأطراف، وكانت عاصمتهم زمن ألب أرسلان.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨٩، والذهبي: العبر في خبر من غبر ٢/ ٣١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٩٦.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٤٥٤.



وأسر إبراهيم الغزنوي عمه عثمان ونقله مع خزائنه إلى غزنة، غير أن جُمُوشْتِكِين وكان من أكبر أمراء الدولة السلجوقية ومعه أنوشتكين جد ملوك الخوارزمية تتبع آثارهم(١)، غير أن الذهبي يقرر أن ملكشاه هو الذي أخرج ألتكين من ترمذ بالقوة فقد «كان صاحب سمرقند خاقان ألتكين قد أخذ ترمذ بعد قتل السلطان ألب أرسلان، فلما تمكن ابنه ملكشاه سار إلى ترمذ وحصرها وطمّ خندقها ورماها بالمنجنيق، فسلموها بالأمان. فأقام فيها نائبًا وحصنها وأصلحها وسار يريد سمرقند ففارقها ملكها وتركها وأرسل يطلب الصلح ويضرع إلى نظام الملك ويعتذر فصالحوه»(٢).

وبعد الانتصار الساحق على والي كرمان وقتله استولت عساكر ملكشاه على كثير من أموال الرعية سرقةً، وكان سبب هذه الحادثة تذمر العساكر من قلة المال المأخوذ(٣)، وهذا ما جعل الوزير المحنك نظام الملك يحذّر السلطان من آثار هذا التذمر، فما كان من ملكشاه إلا أن قال: «افعل في هذا ما تراه مصلحة. فقال نظام الملك: ما يمكنني أن أفعل إلا بأمرك. فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك فأنت الوالد. وحلف له وأقطعه إقطاعًا زائدًا على ما كان من جملته طوس، وخلع عليه ولقبه ألقابًا من جملتها أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما هو مشهور»(٤)، وبهذا يصبح نظام الملك مفوضًا رسميًا للتصرف في شئون البلاد والعباد، وهو ما كان له أثره الإيجابي على سلطنة ملكشاه طيلة ثلاثين عامًا لاحقة.

وقد سار ملكشاه على سياسة والده التوسعية؛ فقد جعل أهم أهدافه فتح الولايات غير الإسلامية الواقعة في شمال غربي إيران وفي آسيا الصغرى والشام ومصر وبلاد ما وراء النهر، وقد أعطى لوزيره تفويضًا كما ذكرنا آنفًا.

ويتضح بجلاء المكانة الكبرى التي كانت لنظام الملك وأولاده، سواء عند ملكشاه أم عند الخلافة العباسية، لدرجة أنه في عام ٤٦٦هـ غرقت بغداد، وهي حادثة شهيرة فاض فيها نهر دجلة عن الحد فيضانًا هدم كثيرًا من الدور، وقتل آلافًا من البشر، وقد تصادف في أثناء

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي ٤/ ٣٢.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣١/ ٢٥.
(٣) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٤٦، ٤٧.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٩٧.

هذه الكارثة أن جاء مؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك مبعوثًا للخليفة من قبل أبيه لكن كانت «أفواه الطرق قد انسدت، فتُرك استقباله للضرورة العائقة، ودخل على غير الصورة اللائقة، فإنه ركب في سفينة وانحدر إلى باب المراتب، ولما حاذى التاج قام أداءً للواجب، ولما قرّ في منزله ظنّ أن الخليفة ما نبأ باستقباله إلا وقد نبا عن تقبله، ومضى إليه النقيبان وقاضي القضاة ولم يوصلهم بل ردهم، وصرفهم وصدهم، وقال: جرى بي تهاون وعلي تعاون. فأنفذ الخليفة إليه من أوضح له العذر، واستخلص منه بإنفاذ الخلع إليه الحمد والشكر، واستأذن الخليفة في الركوب بباب المراتب، فأذن له وأملى له في كل نجح أمله»[1]، وليس أدل على حقيقة العلاقة بين الخليفة ونظام الملك وأولاده من هذا الوصف الذي يذكره الأصفهاني، وهذا التودد الزائد عن الحد الذي كان الخليفة القائم يحرص على أدائه تجاه نظام الملك وأولاده!

في العام التالي وتحديدًا في شهر شعبان من عام ٤٦٧هـ توفي الخليفة القائم بأمر الله وقد عهد للخلافة من بعده لحفيده المقتدي بالله عبد الله بن محمد الذخيرة، وقد تولى له الوزارة وزير جده الشهير فخر الدولة بن جهير، وقد حرص المقتدي في بداية خلافته أن يرسل للسلطان ملكشاه ليأخذ منه البيعة، وكان ذلك بعد شهر واحد فقط من تسلمه لزمام الخلافة[2].

وفي أثناء هذا العام لاقى السلطان ملكشاه مجموعة من الاضطرابات الجديدة التي استطاع أن يقضي عليها، كانت إحداها من أخيه تكش بن ألب أرسلان والي بلخ الذي استولى على أموال ضخمة فقد «ورد رسول ملك الروم مع أموال ناء بثقلها الخزّان، واغتصّ بحسابها الدّيوان، فعاد السلطان إلى كورة حلب فأدرك الملك شهاب الدولة تكش الخذلان، وزيّن له الشيطان حتى امتطى مركب العصيان»[3] على ما يذكر الحسيني، وانتهت هذه الفتنة بمقتل تكش الذي كان قد تحصّن في قلعة ترمذ، واللافت أن قصة قتال السلطان ملكشاه لأخيه شهاب الدولة تكش الذي استولى على الأموال وأعلن العصيان لم يذكرها ابن الأثير في

---

(١) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٤٧، ٤٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٠٨.

(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٣٦، ٦٤.



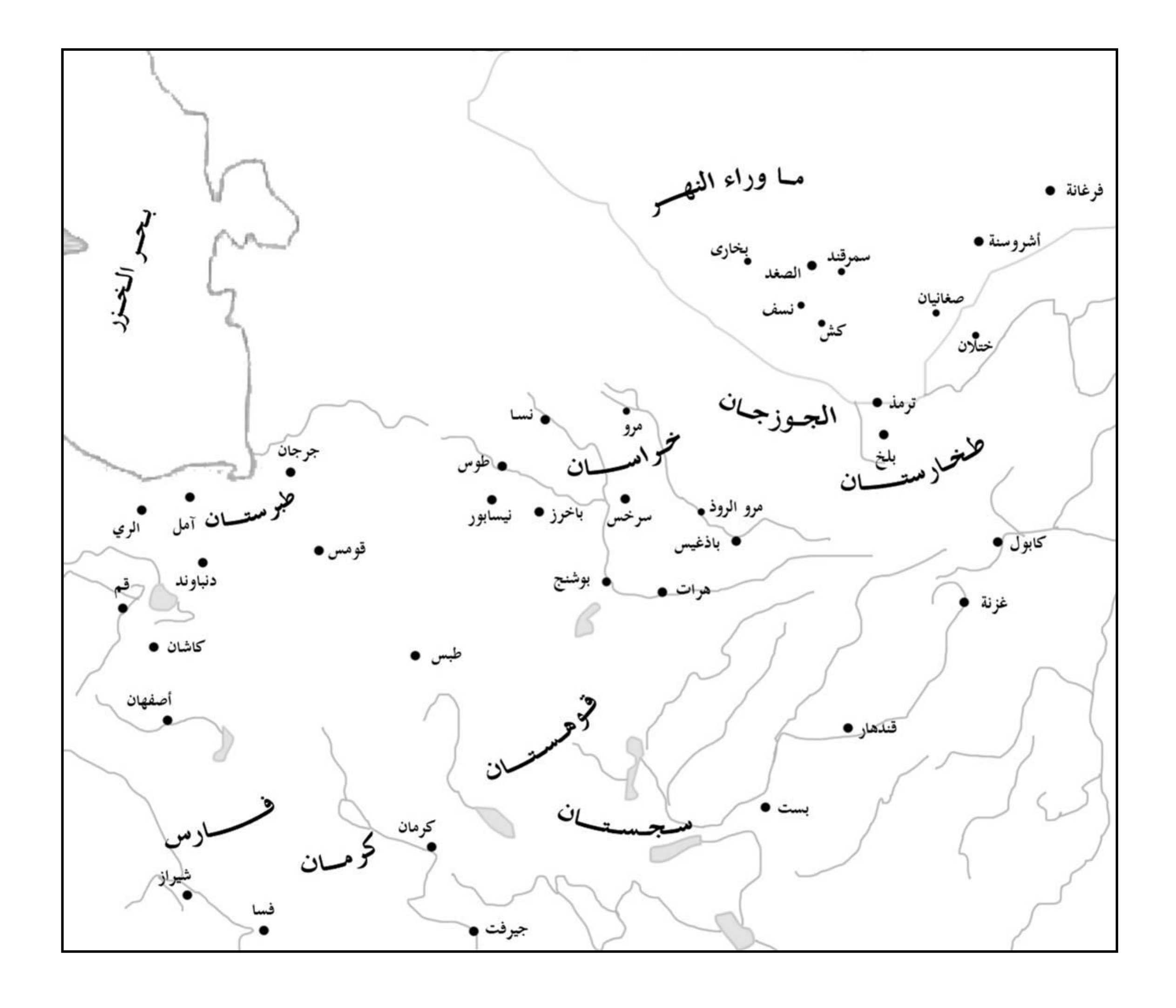
تاريخه، ونجد إشارة لهذه الحادثة عند ابن خلكان في نقله لها من تاريخ ابن عبد الملك الهمذاني وهو مفقود، يقول: «إن السلطان ملكشاه المذكور توجه لحرب أخيه تكش فاجتاز بمشهد على ابن موسى الرضا رضي الله عنهما بطوس ودخل مع نظام الملك الوزير وصليا فيه وأطالا الدعاء، ثم قال لنظام الملك: بأي شيء دعوت؟ قال: دعوت الله تعالى أن ينصرك ويظفرك بأخيك، فقال: أما أنا فلم أدع بهذا بل قلت: اللهم انصر أصلحنا للمسلمين وأنفعنا للرعية»[1]، وفي هذا إشارة واضحة إلى تقوى هذا السلطان وإيمانه، وهذا ما يؤكده ابن خلكان وغيره في ترجمته له.

وأما الاضطراب الثاني الذي واجهه ملكشاه في وسط آسيا فكان تصديه للمحاولة الثانية لشمس الملك ألتكين والي سمرقند الذي حاول أن يحتل ترمذ مرة أخرى ولكنه فشل[2]، فقد سلّم السلطان ملكشاه «قلعة ترمذ إلى الأمير ساوتكين (أحد قادة السلاجقة) وأمره بعمارتها وتحصينها وعمارة سورها بالحجر المحكم، وحفر خندقها وتعميقه، ففعل ذلك وسار السلطان ملكشاه يريد سمرقند، ففارقها صاحبها، وأنفذ يطلب المصالحة، ويضرع إلى نظام الملك في إجابته إلى ذلك، ويعتذر من تعرضه إلى ترمذ، فأجيب إلى ذلك واصطلحوا وعاد ملكشاه عنه إلى خراسان»[3].

وبناء على ذلك قرر ملكشاه أن يقضي على كل الفتن والثورات والاضطرابات في إيران ووسط آسيا وما وراء النهر؛ ذلك أنها منطلق الدولة السلجوقية، وبها عاصمتهم، فكما استطاع ملكشاه أن يقضي على تمرد كل من تكش وألتكين، واستطاع في عام ٤٧٠ هـ أن يرجع والي خوارزم الذي استقل بها إلى طاعته، كما أتم فتح سمرقند وبخارى سنة ٤٨٢هـ بعد أن كانتا شوكة صعبة المراس تقض مضجعه، ثم سار إلى كاشغر على حدود الصين وأجبر حاكمها على إقامة الخطبة وضرب السكة باسمه، فأقرّه ملكشاه على ملكه.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٥.
(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٦٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٠٤.


بحر الخزر
ما وراء النهر
فرغانة
أشروسنة
بخارى
سمرقند
الصغد
صغانيان
نسف
كش
ختلان
الجوزجان
ترمذ
بلخ
طخارستان
نسا
مرو
خراسان
جرجان
طوس
طبرستان
آمل
الري
نيسابور
باخرز
سرخس
مرو الروذ
باذغيس
كابول
قومس
دنباوند
قم
بوشنج
هراة
غزنة
كاشان
طبس
أصفهان
قوهستان
قندهار
بست
سجستان
فارس
كرمان
كرمان
شيراز
فسا
جيرفت

وقد تمردت بعض القبائل التركية بالقرب من سمرقند بحجة أن مرتباتهم لم تصل إليهم وانضم لهم والي فرغانة، فاستطاع ملكشاه ووزيره نظام الملك أن يخمدا هذه الثورة وبذلك استقرت أوضاع ما وراء النهر ووسط آسيا(١).

وقد صدق وصف الذهبي على ملكشاه بقوله: «وكان ملكشاه كثير الجيوش، خفيف الركاب، عبر في سنة ٤٨٢هـ إلى ما وراء النهر، فسار إلى بخارى، وسمرقند، فتملكها، ثم سار في بلاد الترك إلى كاشغر، فأذعن صاحبها بطاعته، ونزل إلى خدمته»(٢).

ومع انشغال ملكشاه بإقرار النظام والتماسك بين أجزاء الدولة السلجوقية فقد قام بأعمال أخرى منها أنه شجع العلم وبنى بمشورة وزيره نظام الملك – كما سنرى بعد قليل – المدرستين المعروفتين باسم النظامية في بغداد ونيسابور والمدرسة الحنفية ببغداد وقام ببعض المشاريع الإروائية، ولكنه لم يقم في بغداد شأنه شأن سلاطين السلاجقة على أنه زارها مرتين كانت ثانيتهما قبل وفاته بأشهر وهي التي أراد أن يجبر فيها المقتدي على الخروج من بغداد مذلولًا مدحورًا رغبة في التشفي منه لأجل ابنته التي طلقها، فقد «كان المقتدي قد جعل ولده المستظهر بالله ولي العهد، فألزم ملكشاه الخليفة أن يعزله، ويجعل ابن ابنته، جعفرًا وليّ العهد، وكان طفلًا، وأن يسلم بغداد إلى السّلطان ويخرج إلى البصرة، فشقّ ذلك على الخليفة، وبالغ في استنزال السّلطان ملكشاه عن الرأي، فأبى فاستمهله عشرة أيّام ليتجهّز، فقيل إنّه جعل يصوم ويطوي، فإذا أفطر جلس على الرّماد يدعو على ملكشاه، فقوي به مرضه، ومات في شوّال ودفن في أصفهان»(٣).

توفي ملكشاه سنة ٤٨٥هـ وبوفاته انتهى عصر القوة أو ما يسمى عصر نظام الملك، وبدأ عصر الفرقة بين الأمراء السلاجقة وبداية تدهور الكيان السلجوقي ثم ظهور الأتابكيات(٤).

الوزير الحكيم نظام الملك الطوسي

هو أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي، المشهور بنظام الملك، ولد بطوس قرب

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٦٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٧.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٣/ ١٦٤.

(٤) فاروق عمر: الخلافة العباسية، السقوط والانهيار ٢/ ١٧٠، ١٧١.

نيسابور غربي إيران سنة ٤٠٨هـ، كان الطوسي أشهر الوزراء في الدولة السلجوقية، ومن عظماء الرجال في التاريخ الإسلامي، ارتبط اسمه بالمدارس التي أنشأها، وعُرفت بالمدارس النظامية.

بعد وفاة طغرلبك في سنة ٤٥٥ هـ تولى ألب أرسلان ابن أخيه حكم السلاجقة، وكان قبل أن يتولى السلطنة يحكم خراسان وما وراء النهر، ويعاونه وزيره أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي، المشهور بنظام الملك.

وقد استغل وزير طغرلبك «عميد الملك الكندري» هذا الفراغ فأجلس على عرش السلطنة سليمان بن داود ابن أخي السلطان، وولي عهده، وكان طفلا صغيرًا لا يتجاوز أربعة أعوام، ولم يرض الناس بذلك فالتفوا حول ألب أرسلان، وكان قائدًا شابًا وسياسيًا بارعًا، توفرت فيه صفات القيادة وتولي جسام الأمور، فنجح في دخول «الري» عاصمة الدولة ومعه وزيره نظام الملك وذلك في ذي الحجة ٤٥٥ هـ واستقبله الكندري وهنأه على السلطنة، وقد كان الكندري حكيما عاقلا، يتمتع بنفاذ البصيرة في الأمور، وبعد النظر، وحسن السياسة، مع رسوخ القدم في العلم والأدب، وكان من أسباب اتساع الدولة وازدهارها[١].

وعقب تولي ألب أرسلان السلطنة أقر «الكندري» على الوزارة وحاول هذا الوزير من جانبه أن يكسب رضا السلطان؛ أملا في الاحتفاظ بمنصبه، لكن ذلك لم يدم طويلا، فسرعان ما تغير عليه السلطان وأوجس منه خيفة، وكان لنظام الملك الطوسي يد في هذا التغير والتحريض على عزله من الوزارة، فأقدم السلطان على خلعه في المحرم ٤٥٦ هـ وسجنه، ثم لم يلبث أن قتله بعد نحو عام[٢].

لقد رأى نظام الملك من الكندري سطوة وشعبية متزايدة قد تنال من السلطان نفسه، ولهذا حذّر منه، وبرغم أنه سُجن مدة عام كامل إلا أننا لم نفهم لماذا أصرّ السلطان على قتله بعد عام كامل، واللائمة على كل حال لا يُستثنى منها نظام الملك، فقد كانت آخر كلمات الكندري لقاتله: «قل لنظام الملك: بئس ما عودت الأتراك قتل الوزراء، وأصحاب الديوان،

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٨٥، ١٨٦ تدمرى.
(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨٤.

ومن حفر قليبا وقع فيه»[١]. وهي على كل حال مثلبة كبيرة في سجل نظام الملك.

وبعد عزل الكندري تولى نظام الملك الوزارة، ولم يكن وزيرًا لامعًا ومدبرًا للأمور فحسب، بل كان راعيًا للعلم والأدب، يحفل مجلسه بالعلماء والفقهاء والأدباء.

وظل نظام الملك يعمل مع ألب أرسلان تسعة أعوام ونصف عام وزيرًا ومساعدًا له، ازدهرت الدولة في أثنائها، وتوطدت دعائمها، وارتفع شأنها، واتسعت حدودها، وتوجت جهودها بالانتصار على الروم البيزنطيين في معركة ملاذكرد في ٤٦٣هـ كما مرّ بنا.

ظهرت قوة نظام الملك واتساع نفوذه بعد وفاة ألب أرسلان، فوقف إلى جوار ابنه الأكبر ملكشاه، وكان الصراع قد دبّ بين أفراد البيت السلجوقي، لكن ملكشاه كان أرجحهم كفة، وأقواهم نفوذًا، فضلا عن مؤازرة الوزير نظام الملك وتأييده له، فتولى السلطنة، وأسند الوزارة إلى نظام الملك حتى تستقر الأوضاع في الدولة.

كان السلطان الجديد في سن العشرين عندما تولى الحكم، في حين كان الوزير نظام الملك في الخامسة والخمسين من عمره، عالمًا ناضجًا، صهرته التجارب والأيام، وخبر الحكام والسلاطين، وهو ما جعل السلطان الجديد يجلّه ويحترمه، ويخاطبه بكل تبجيل ويناديه بالعم، ويلقي إليه بمقاليد الأمور، ويضع فيه ثقته، قائلًا له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد»[٢].

وأدت هذه العلاقة الوثيقة بين السلطان ووزيره النابه إلى ازدهار الدولة وبلوغها ذروة المجد فاتسعت حدودها حتى شمل سلطانها بلاد الشام وجزءًا كبيرًا من بلاد الروم، ومدت نفوذها إلى كرمان ومنطقة آسيا الصغرى، فأصبحت دولة مترامية الأطراف تمتد من حدود الهند والصين شرقًا إلى البحر المتوسط غربًا، ومن البحر الأسود شمالا إلى الخليج الفارسي جنوبًا، وصارت أكبر قوة في العالم آنذاك.

بلغت الوزارة أعلى درجاتها في الفترة التي تولاها نظام الملك في الدولة السلجوقية؛ فقد كان نافذ الكلمة في كل الأمور، يسيطر على الجيش والولاة، وكان عالمًا أريبًا له كتاب عظيم في

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٩٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٩٦.



سياسة الملك، اسمه: «سياست نامه» أي كتاب السياسة، ضمنه أفضل النظم لحكم الولايات التي تتكون فيها الدولة، وتصريف الأمور، وسجل فيه أصول الحكم التي تؤدي إلى استقرار البلاد، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية.

وتظهر من خلال كتاب «سياست نامه» أهم الطرق الإدارية التي اتبعها الوزير نظام الملك في إدارته للدولة السلجوقية، ويأتي في مقدمتها وقوفه بشدة ضد تدخل أصدقاء السلطان المقربين في شئون الدولة، حتى لا يتسبب ذلك في اضطراب إدارتها. كذلك كان يهتم بشكل خاص بالبريد الذي كان رجاله يوافون الحكومة بكل أخبار البلاد الخاضعة لها، هذا فضلًا عن حرصه الشديد على إرسال المخبرين إلى جميع الأطراف في هيئة التجار والسياح والمتصوفة والدراويش والعقارين، يتنسمون الأخبار، ويرسلونها للسلطان أولًا بأول حتى لا يخفى عليه شيء من أمور مملكته، وقد نجح نظام الملك في إحباط عدد من المؤامرات ضد الحكومة المركزية بفضل ما كان يصل إليه عن طريق أولئك المخبرين، كما عمل نظام الملك على الحد من استغلال الموظفين والعمال لسلطاتهم حتى لا يرهقوا الرعية بالرسوم والضرائب الباهظة، وكان يغير الولاة والعمال مرة كل سنتين أو ثلاث ضمانًا لعدم تلاعبهم في أعمالهم[1].

ولما ألغى السلطان ألب أرسلان وظيفة «صاحب البريد» ووظيفة «صاحب الخبر»، رتب وزيره نظام الملك في كل مدينة رجلًا نزيهًا لمراقبة الوالي والقاضي والمحتسب ومن يجري مجراهم من الموظفين وموافاتهم بأخبارهم أولًا بأول، كذلك كان نظام الملك يدقق في اختيار الموظفين، فيختار من كان منهم أغزر علمًا وأزهد نفسًا وأعف يدًا وأقل طمعًا. وكان يختار لوظيفتي «صاحب البريد» و«صاحب الخبر» أناسًا لا يرقى الشك إليهم لحساسية هذا العمل، ويتم تعيينهم من قِبل السلطان نفسه، وكان نظام الملك يصرف مرتبات مجزية لموظفي الدولة، خشية أن يضطر الموظف إلى الاختلاس من مال الدولة، أو يستغل منصبه ويتسلط على أموال الرعية. كما كان حريصًا على مراجعة حسابات الدولة في نهاية كل عام لمعرفة الداخل والمنصرف والموازنة بينهما، ولكي يضمن هذا لنظام الملك تنفيذ خطته الإدارية بدقة استعان بعدد من كبار موظفي الدولة المخلصين والأكفاء، وكون منهم ما يشبه المجلس الاستشاري، مهمته - فيما يبدو- دراسة ما يعرض عليه من أمور مهمة ووضع الحلول

(١) الطوسي: سياست نامه ص١٠٧.

الملائمة لها، ومن ثم متابعة تنفيذها بدقة، وكانت شئون دولة السلاجقة قبل تولي نظام الملك الوزارة غير منظمة، فتطرق الخلل إلى إدارة الولايات التابعة لها، وساءت الحالة المالية فيها نتيجة لخراب أراضيها، ولعدم قيام المشرفين عليها بما تحتاج إليه من عمارة وإصلاح، فلما جاء نظام الملك إلى الوزارة نظم شئون تلك الولايات، وعمر أراضيها، وأقر سلطة الدولة في النواحي التي كادت تخرج من حظيرتها(١).

وأسدى الوزير للحضارة الإسلامية ما خلّد ذكره، وفاق كل أعماله في دنيا الحكم والسياسة، بإنشائه عددًا من المدارس في أنحاء الدولة نسبت إليه، فسميت بـ«المدارس النظامية»، وهي تعد أول نوع من المؤسسات العلمية والمدارس التعليمية النظامية ظهر في تاريخ الإسلام، وقد هيأ لطلابها أسباب العيش والتعليم. وقد خصصت المدارس النظامية لتعليم الفقه والحديث، وكان الطلاب يتناولون فيها الطعام، وتجري على كثير منهم رواتب شهرية(٢).

ومن أهم المدارس التي أنشأها نظام الملك: المدرسة النظامية ببغداد التي بُدئ في بنائها سنة ٤٥٧هـ وبلغ من اهتمام الخليفة العباسي بها أنه كان يعين الأساتذة فيها بنفسه، وكان يدرّس فيها الفقه والحديث، وما يتصل بهما من علوم، وقد درّس فيها مشاهير الفكر والثقافة مثل حجة الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين، في الوقت الذي كان يدرّس في نظامية نيسابور إمام الحرمين «أبو المعالي الجويني».

وقد أسهمت هذه المدارس التي انتشرت في بغداد وأصفهان ونيسابور ومرو في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في ذلك الوقت. وقد بلغ ما ينفقه نظام الملك في كل سنة على أصحاب المدارس والفقهاء والعلماء ثلاثمائة ألف دينار، فلما راجعه ملكشاه في هذا الأمر؛ قال له الوزير العالم: «قد أعطاك الله تعالى وأعطاني بك ما لم يعطه أحدًا من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك في حملة دينه وحَفَظة كتابه ثلاثمائة ألف دينار».

كان نظام الملك بعد ما كبرت سنه يستعين بأبنائه وأقاربه في إدارة أقاليم الدولة، وكان

---

(١) الصلابي: دولة السلاجقة ص١١٨، ١١٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٩٤.

لهؤلاء نفوذ كبير في الدولة؛ استمدادًا من نفوذ نظام الملك نفسه، وكان بعضهم يسيء استخدام السلطة ويستغل نفوذه في مآربه الخاصة، وهو ما أعطى الفرصة لحسّاد نظام الملك أن يفسدوا العلاقة بينه وبين السلطان ملكشاه، ونجحت مساعيهم في ذلك، حتى همّ السلطان بعزله، لكنه لم يجرؤ على تنفيذ هذا الأمر، فبعث إليه برسالة تحمل تهديده ووعيده، فما كان من نظام الملك إلا أن قال لمن حملوا له رسالة السلطان: «قولوا للسلطان: إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي، أما يذكر حينما قُتل أبوه، فقمت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم...»[(١)].

ثم لم يلبث أن قُتل الوزير نظام الملك في أصبهان في ١٠ رمضان ٤٨٥ هـ على يد أحد غلمان فرقة الباطنية المعروفة بالحشاشين، حيث تقدم إليه وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو زاهد، فلما اقترب منه أخرج سكينًا كان يخفيها وطعنه طعنات قاتلة، فسقط صريعًا. وكان نظام الملك شديد الحرب على المذاهب الهدّامة وبخاصة مذهب الباطنية فأرادوا التخلص منه بالقتل[(٢)].

وبعد وفاة نظام الملك بخمسة وثلاثين يومًا توفي السلطان ملكشاه، في ١٥ شوال ٤٨٥هـ فانطوت صفحة من أكثر صفحات التاريخ السلجوقي تألقًا وازدهارًا[(٣)].

وطوال الثلاثين عامًا التي قضاها نظام الملك في خدمة الدولة السلجوقية وزيرًا منذ عام ٤٥٥ هـ حتى وفاته ٤٨٥هـ كان رحمه الله من أحرص الناس على هدوء الحال في بغداد ومعاملة خلفاء بني العباس بما يليق بهم، لذلك كان خلفاء بني العباس خاصة المقتدي بالله يحبه ويُجله فقد «دخل على الإمام المقتدى بالله، فأذن له في الجلوس بين يديه، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك برضاء أمير المؤمنين عنك»[(٤)].

وفي فتنة عام ٤٦٨هـ التي قامت بين الحنابلة وبين الأشاعرة الذين كان بعضهم يُدرّس في المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك، نرى هذا الوزير يتدخل بنفسه ليحل هذه المشكلة وقد

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٧٩.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٣٠٦.
(٣) شمس الدين الغزّي: ديوان الإسلام ٤/ ٣٠٧.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٢٨.

كانت بين أبي إسحاق الشيرازي وأبي نصر بن القشيري والأشاعرة من جهة وبين الشريف عبد الخالق بن عيسى الحنبلي ومن معه من الحنابلة وعامة أهل بغداد من جهة، وقد اصطلحا ظاهريًا، واحتكم الشيرازي الشافعي إلى نظام الملك، وقد جاءه جواب منه يُدلل على مدى حنكة هذا الوزير، ففيه: «ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة إلا لصيانة أهل العلم والمصلحة لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمور على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب فليس إلا التقدم بسد الباب وليس في المكنة[1] إلا بيانٌ[2] على بغداد ونواحيها ونقلهم عما جرت عليه عادتهم فيها فان فان الغالب هناك وهو مذهب الإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه ومحله معروف بين الأئمة وقدره معلوم في السنة وكان ما انتهى إلينا أن السبب في تجديد ما تجدد مسألة سئل عنها أبو نصر القشيرى من الأصول فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه في معتقداتهم والشيخ الإمام أبو إسحاق وفقه الله رجل سليم الصدر سلس الانقياد ويصغي إلى كل من ينقل إليه وعندنا من تصادر كتبه ما يدل على ما وصفناه من سهوله يجتذبه والسلام»[3].

ولذلك كانت خلافة القائم بأمر الله منذ تولية النظام وزارة السلاجقة وحفيده المقتدي هادئة لا تقارن مشاكلها بما كان من فتن واضطرابات وانفراط عقد العباسيين في سني البويهيين الأخيرة، ولذلك لقّبه القائم بـ«قوام الدين نظام الملك صدر الإسلام شمس الكفاة سيد الوزراء رضيّ أمير المؤمنين»[4].

أما مناقبه فكثيرة نذكر منها أنه «كان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن، ودخل الوقت يأمره بالأذان، وهذا غاية حال المنقطعين إلى العبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات. وأسقط المكوس، والضرائب، وأزال لعن الأشعرية من المنابر.. وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري، والإمام أبو المعالي الجويني، يقوم لهما، ويجلس في مسنده، كما هو، وإذا دخل

---

(١) المكنة: الإمكان والاستطاعة.

(٢) يقصد أنه من السهولة إذاعة بيان أو منشور عام لإغلاق هذه المدرسة والرجوع إلى ما كانوا عليه من قبل.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣١٢.

(٤) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص١٩٩.

أبو علي الفارمذي يقوم (إليه، ويجلسه في مكانه) ، ويجلس هو بين يديه، فقيل له في ذلك، فقال: إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا عليّ يقولون لي: أنت كذا وكذا، يثنون عليّ بما (ليس فيّ)، فيزيدني كلامهم عجبا وتيها، وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي.، وما أنا فيه من الظلم، فتنكسر نفسي لذلك، وأرجع عن كثير مما أنا فيه، وأما الآن فأنا أتمنى أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه. وقال نظام الملك: كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أنفرد فيه لعبادة ربي، ثم بعد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة أرض أتقوت بريعها، (ومسجد) وقيل: كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك، فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه فأكل معه. وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه، ويقربهم إليه، ويدنيهم. وأخباره مشهورة كثيرة، قد جمعت لها المجاميع السائرة في البلاد»[١].

قال السبكي عنه: «وزير غالى الملوك في سمعتها وغالب الضراغم وكانت له النُّصرة مع شدَّة منعتها وضاهى الخلفاء في عطائها وباهى الفراقد فكان فوق سمائها ملك طائفة الفقهاء بإحسانه وسلك في سبيل البر معهم سبيلا لم يعهد قبل زمانه، هو أشهر من بنى لهم المدارس وشيد أركانهم، ولولاه خيف أن يكون كالطلال الدارس. كان جوادا يخجل لديه كل ذي جبين وضاح ويتنافس على أريج ثنائه مسك الليل وكافور الصَّباح طمس ذكر من كنَّا نسمع في المكارم من الملوك خبره وغرس في القلوب شجرات إحسانه المثمرة دولته كلها فضل وأيامه جميعها عدل ووقته وابل بالسماح مغدق ومجلسه بجماعة العلماء صباح مشرق»[٢].

الصراع على التّركة السلجوقية

بعد وفاة السلطان ملكشاه في شوال من عام ٤٨٥هـ بدأت عوامل الضعف والانهيار تدب في أوصال الدولة السلجوقية من خلال الصراع بين أبنائه وإخوته وأحفاده، فضعفت بالتالي سيطرة الدولة على مختلف أقاليمها ومن الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف تنافس الأمراء على عرش السلطنة، الأمر الذي أحدث انقسامًا كبيرًا وبصفة خاصة بين بركيارق

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٥٨، ٣٥٩ تدمرى.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٣٠٩.

الابن الأكبر لملكشاه وأخيه الأصغر محمود، وكان لكل منهم مؤيدون حين كان يؤيد بركيارق نظام الملك قبل وفاته ومن بعده أبناؤه وأتباعه وأفراد أسرته، في حين أن محمود كانت أمه تركان خاتون تقف إلى جانبه والوزير تاج الملك الشيرازي الذي خلف نظام الملك، وانقسم السلاجقة إلى فريقين متنازعين كل منهما يجاهر بالعداء للآخر وصولًا إلى عرش السلطنة وقد استطاعت تركان خاتون بالاتفاق والتدبير مع تاج الملك إخفاء نبأ وفاة السلطان ملكشاه حتى يتسنى لها أن ترتب أمورها وحتى تتم البيعة لابنها محمود الذي كان يبلغ من العمر وقتئذ أربع سنين وشهورًا، وكان عند وفاة أبيه في بغداد، أما بركيارق فكان في الثالثة عشرة من عمره عندما مات أبوه وكان حينئذ في أصفهان[١].

ولقد كانت الظروف في صالح محمود في أول الأمر، وقد بايعه العسكر لأمور أحدها: أن أمه تركان خاتون كانت مستولية ومسيطرة على الأمور في أيام السلطان ملكشاه، وكانت محسنة للأجناد ومن ثم قدموا ولدها وبايعوه. والثاني: أنها كانت من نسل الملوك الترك. والثالث: أن الأموال كانت بيدها ففرقتها فيهم فبايعوه وأخذوه معهم وعادوا به إلى أصفهان، وقد بعثت تركان خاتون إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله في بغداد تطلب منه أن يعهد بالسلطنة لابنها محمود بن ملكشاه وأن تكون الخطبة باسمه، ولكن الخليفة لم يجبها إلى ما طلبت ورد عليها قائلًا: لا يجوز ذلك لأنه لم يبلغ الحلم[٢].

غير أن الخليفة العباسي ما لبث أن اضطر إلى الاعتراف به سلطانًا عقب وفاة أبيه، ومما قيل في هذا الصدد أن الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله اضطر إلى الاعتراف بسلطنة محمود، لأن ملكشاه كان يحتفظ بابنه الأمير جعفر عنده ليهدد به الخليفة وقد كان برفقة جده السلطان ملكشاه بعد وفاة والدته خاتون وكان السلطان ملكشاه عازمًا على توليته الخلافة بدلًا من أخيه المسترشد الذي ولي عهد الخليفة المقتدي بأمر الله، ولكن وفاة السلطان ملكشاه غيرت مجرى الأمور وعاد أبو الفضل جعفر إلى والده المقتدي بعد وفاة جده السلطان ملكشاه، فخشي الخليفة من تكرار التجربة مع سلاطين السلاجقة ولذلك وافق على ما رأته خاتون من إنفاذ الأمير جعفر إلى بغداد لقاء اعتراف الخليفة بسلطنة ولدها محمود، ومهما يكن من أمر،

---

(١) الصلابي: السلاجقة ص١٣١.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ص١٩٣ مسفر.

فإن الخليفة العباسي كان منزوع النفوذ والسلطان ولا يملك القدرة على الاعتراض[1].

وفي ٢٢ من شوال سنة ٤٨٥هـ، أقيمت الخطبة لمحمود في مساجد بغداد ومنحه الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله الخلع السلطانية واشترط على تركان خاتون أن تكون السلطنة لولدها محمود، والخطبة له، بينما يختصّ الأمير أنر بتدبير الجيوش ورعاية البلاد، ويختص تاج الملك بجباية الأموال، وترتيب العمال، إلا أن تركان خاتون في بداية الأمر كانت غير موافقة على هذه الشروط، وكان أبو حامد الغزالي يقوم بدور الوساطة بين الخليفة العباسي وأم محمود، وبعد ذلك أقنع العلامة أبو حامد الغزالي تركان خاتون بالموافقة على شروط الخليفة، ومن ثم وافقت على تلك الشروط، ثم أرسلت تركان خاتون أحد أتباعها ليقبض على بركيارق، وبالفعل تم القبض على بركيارق ليصبح محمود في مأمن منه، غير أن الأمر لم ينته عند هذا الحد الذي تخيلته تركان خاتون إذ إن أتباع نظام الملك ومؤيدي بركيارق في أصفهان تمكنوا من إخراجه من سجن أصفهان ونصّبوه سلطانًا في أصفهان وذلك نكاية في تركان خاتون[2].

وهكذا وجد سلطانان في وقت واحد: محمود في بغداد وبركيارق في أصفهان، ومن ثم أصبحت المنازعة بينهما على عرش السلطنة أمرًا حتميًا.

كانت تركان خاتون هي البادئة بالنزاع والهجوم فسارت من بغداد إلى أصفهان مع الجيش ومعها ابنها السلطان محمود والوزير تاج الملك الشيرازي، ولما قاربت تركان خاتون أصفهان خرج منها بركيارق ومن يؤيده من النظامية متجهين نحو الري فأرسلت تركان خاتون الجيش إلى قتال بركيارق، والتقى الجيشان في بروجرد[3]، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة ٤٨٥هـ وجرت الحرب بينهم، واشتد القتال وانحاز جماعة من عسكر تركان خاتون إلى بركيارق، فلحقت الهزيمة بتركان خاتون وابنها وعادوا إلى أصفهان وتبعهم بركيارق وحاصرهم فيها، واتفق الطرفان على الصلح بشرط أن تدفع تركان خاتون خمسمائة ألف دينار

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٥٩ تدمرى.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٠٣.

(٣) هي إحدى مدن إيران في محافظة لُرستان سكانها من الأكراد اللور. كانت في العصر العباسي «بلدة بين همذان وبين الكرخ، كانت تعدّ في القرى، ثم كبرت وصارت مدينة حصينة كثيرة الخيرات». عبد المؤمن البغدادي: مراصد الاطلاع ١/ ١٨٩.

لبركيارق، وأن تكون بلاده أصفهان، وبلاد فارس لتركان خاتون وابنها، أما باقي البلاد فتكون لبركيارق وهو السلطان[١].

وفي شهر المحرم من سنة ٤٨٦هـ نشبت معركة عنيفة بين المعسكرين: المعسكر الأول لبركيارق والمعسكر الثاني لمحمود وأمه تركان خاتون، وكانت الغلبة والكفة الراجحة للمعسكر الأول بسبب مساعدة أتباع نظام الملك وبسبب انحياز جماعة من الأمراء الذين يتبعون المعسكر الثاني لتركان خاتون وابنها محمود ورجّحت كفّة بركيارق وقوي أمره والتقى العسكران مرة أخرى وانهزم عسكر تركان خاتون وابنها، ومن ثم هربت إلى مدينة أصفهان وتحصنت بها، وفر الوزير تاج الملك الشيرازي هاربًا إلا أن النظامية قبضوا عليه وأخذوه وانتهى الأمر بقتله في المحرم سنة ٤٨٦هـ، وبعد أن لاذت تركان خاتون بالفرار إلى أصفهان، وقوى بركيارق بمساعدة النظامية تتبع تركان خاتون وحاصرها في أصفهان، ولكن سرعان ما عدل عن ذلك حتى يجد الفرصة سانحة للاستيلاء على أصفهان، فتوجه إلى همذان وسعى جاهدًا في تكوين جيش قوي العتاد كبير العدد حتى يستطيع به الاستيلاء على أصفهان، وقد تم له ما أراد حيث توجه بجيشه الذي أعده كما يريد إلى أصفهان وتم فتحها وقضى على تركان خاتون وأنصارها[٢].

واعترافا من بركيارق بجميل النظامية عليه اتخذ عز الملك الحسين بن نظام الملك وزيرًا له[٣]، وكان مقيمًا في أصفهان عند وقوع هذه الأحداث ولقد اتفقت تركان خاتون مع خال بركيارق إسماعيل ياقوتي، ووعدته بالزواج على أن يتقدم لمحاربة بركيارق، وبالفعل توجه إسماعيل ياقوتي على رأس جيشه لمحاربة ابن أخته والتقى الجيشان في رمضان ٤٨٦هـ، حيث كان النصر حليف بركيارق، أما إسماعيل ياقوتي فقد أسر وقتل في نفس السنة المذكورة، وفي سنة ٤٨٧هـ سار بركيارق إلى أصفهان وفي بداية الأمر لم يسمح له بالدخول إليها، وبعد ذلك سمحوا له بالدخول خديعة كي يتم القبض عليه وعندما قارب أصفهان خرج إليه محمود

(١) الصلابي: السلاجقة ص١٣٣، والذهبي: تاريخ الإسلام ٣٣/ ٢٦.
(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٣٥، ٢٣٦، وابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص١٩٤.
(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٠٣.

فلقيه ودخل البلد وأحاطوا به[1].

ولقد حُمّ وجُدر محمود ومات في شوال من العام نفسه، وكان ذلك بمثابة انفراجة في الأزمة وجلس بركيارق للعزاء في أخيه محمود، ثم إن بركيارق جدر بعد أخيه ولكنه شفى، ولما تم شفاؤه كاتب وزيره مؤيد الملك أمراء العراق وخراسان ومن ثم عادوا إلى بركيارق، فكثر جنده وأصبح شأنه عظيمًا.

توجه بركيارق إلى بغداد في السابع عشر من ذي القعدة عام ٤٨٦هـ، وكان برفقته وزيره الجديد عز الملك الحسين بن نظام الملك، حيث طالب الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله بأن يعترف به سلطانًا على السلاجقة، فما كان منه إلا أن أجابه إلى طلبه واعترف به سلطانًا على السلاجقة في ١٤ محرم سنة ٤٨٧هـ، ولقبه بركن الدين، ونودي بركيارق سلطانًا ببغداد في ١٤ محرم سنة ٤٨٧هـ وخطب له على المنابر وشاء القدر أن يتوفى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله في ١٥ محرم سنة ٤٨٧هـ، وخلفه ابنه وولي عهده أبو العباس أحمد الذي لقب بالمستظهر بالله الذي اعترف أيضًا ببركيارق سلطانًا للسلاجقة، كما بايعه بركيارق بالخلافة، وظل بركيارق في بغداد حتى ربيع الأول من سنة ٤٨٧هـ ثم سار عنها متجهًا إلى الموصل[2].

وبرغم استقرار الأوضاع بصورة مؤقتة منذ أواخر عام ٤٨٦هـ إلا أن نتيجة هذه الصراعات منذ وفاة السلطان ملكشاه قد ترتب عليها انقسام السلطنة السلجوقية إلى خمس إمارات هي إمارة خراسان، وإمارة العراق، وإمارة كرمان وإمارة بلاد الشام وإمارة الروم بالأناضول كما سنرى.

سلاجقة الشام .. وصراع تُتش!

كانت بلاد الشام قبل وصول السلاجقة إليها موزعة بين قوى متعددة، فقد حكم المرداسيون حلب وما يحيط بها، وخلفهم في حكمها العقيليون بقيادة مسلم بن قريش (٤٧٧-٤٧٩هـ)، وكان بنو عمار في طرابلس، وقضاة بني عقيل في صيدا، والفاطميون يحكمون جنوبي بلاد الشام وساحله.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٧١ تدمرى.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٧٦ تدمرى.

وضع السلطان ألب أرسلان نصب عينيه تحقيق هدفي السلاجقة وهما التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية وطرد الفاطميين من بلاد الشام والحلول مكانهم ثم استخلاص مصر منهم، وقد أثاره احتمال التقارب والتحالف بين البيزنطيين والفاطميين فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطة بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها، قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني وهو مهاجمة الفاطميين.

والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي، من الناحية العسكرية والسياسية، أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام ثم مصر دون تقدير الموقف البيزنطي من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ إن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيدًا عن قواعده الخلفية، واشتدت في هذه الأثناء غارات الأتراك على أراضي الدولة البيزنطية، وتوغلوا فيها، ففتح هارون بن خان أرتاح عام ٤٦٠هـ بعد أن حاصرها خمسة أشهر، ونهض الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس ليوقف تقدم المغيرين، ومنعهم من التوغل أكثر في عمق الأراضي البيزنطية، وقاد حملتين عسكريتين ضد الأجزاء الشمالية لبلاد الشام بين عامي ٤٦١ و٤٦٢هـ فهاجم منطقة حلب كما مرّ بنا، ولذلك كان من المهم جدًا أن يحفظ السلاجقة ظهورهم بتملك حلب وهذا بصورة نهائية في شعبان سنة ٤٦٣هـ بعدما أذعن أميرها محمود بن نصر المرداسي بعد حصار ألب أرسلان لها[١].

غادر السلطان ألب أرسلان المنطقة بعد ذلك، وعاد إلى بلاد ما وراء النهر للقتال هناك، وترك بعض عسكره وأتباعه بقيادة أتسز بن أوق الخوارزمي وكان معه إخوته، جاولي والمأمون وفزلو وشكلي، وأذن لهم بالاصطدام بالفاطميين وإخراجهم من بلاد الشام.

وتوجه الأتراك بزعامة أتسز، بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن المنطقة إلى دمشق بهدف ضمها، فضربوا عليها حصارًا مركزًا، وأغاروا على أعمالها، وقطعوا الميرة عنها، ورعوا زرعها، ومع ذلك فقد فشلوا في اقتحامها، فغادروها إلى فلسطين، فضموا الرملة، وبيت المقدس، بعد حصار، وطردوا منها الحامية الفاطمية وانتزعوا طبرية من أيدي الفاطميين، وحاصروا يافا، فهرب حاكمها رزين الدولة الفاطمي، وألغى أتسز الدعوة للمستنصر

(١) الصلابي: دولة السلاجقة ص٧٣.

الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وأرسل إلى بغداد يخبر بما حقَّقه في بلاد الشام[1].

بذل السلاجقة جهودًا كبيرة للسيطرة على بلاد الشام، وبعد أن ثبَّت ملكشاه أقدامه في الحكم واطمأن على سلطنته التفت إلى بلاد الشام، وأحيا مشروع أبيه السلطان ألب أرسلان بغزو هذه البلاد وضم مصر إليها والقضاء على الدولة الفاطمية، فاختار أن يولي على هذه الجبهة البعيدة أميرًا سلجوقيًا ويشغله في نفس الوقت عن التفكير بالشغب عليه أو منافسته، ويؤمن الإقطاع لقسم كبير من الجيش السلجوقي المتزايد، وكان تتش قد اختص بمجموعة من المماليك الذين يتولون تربيته وتدريبه وشنّ الحملات باسمه والدفاع عنه، على عادة السلاجقة، لأنه كان لا يزال فتى، وسرعان ما انتشرت الأخبار بما عزم السلطان عليه وبلغت مسامع أتسز الخوارزمي صاحب بلاد الشام، فكتب للسلطان يشرح له ما بذله من جهد في خدمة الدولة السلجوقية، وأنه ما يزال الخادم المطيع، ووعده بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار في السنة مقابل إبقائه حاكمًا على بلاد الشام، وأصرّ ملكشاه على تنفيذ مشروعه فولى أخاه تاج الدولة تتش حكم بلاد الشام وما يفتحه في تلك النواحي، كما أشرنا، وأمره بالمسير إليها، وكتب إلى القوى المتمركزة في إقليم الجزيرة وبلاد الشام بالانضمام إليه ومساعدته كان من بينهم مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل ووثاب بن محمود أمير حلب، وزعماء القوى التركية.

غير أن هذه النجدة لم تصل إلى حلب وتشتت قبل ذلك، حيث قضى عليها سابق حاكم حلب بالتعاون مع مسلم بن قريش في وادي بزاعة، فتحرّج موقف تُتُش نتيجة ذلك، وما إن ابتعدت قواته عن أسوار حلب، وهي تطارد البدو حتى خرجت القوات الحلبية من وراء الأسوار وهاجمت معسكراته وغنمت ما كان فيها، ويبدو أنه لم يحقق أي نجاح في مطاردته للعرب، عندما علم بنهب معسكراته، قرّر عبور الفرات للانتقام من مسلم بن قريش، ولكن هذا الأخير كان يقظًا، فاضطر مكرها إلى التخلي عن خطته وذهب إلى ديار بكر حيث أمضى فصل الشتاء في مضارب بني مروان، وهكذا تفرق التحالف الذي أنشأه السلطان ملكشاه، وأخفق أمام أسوار حلب، وكتب تُتُش من مشتاه إلى أخيه يشرح له ما آلت إليه الأوضاع في

(١) مجير الدين العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١/ ٣٠٥.

شمالي بلاد الشام ويطلب منه نجدة أخرى، ثم غادر مع قواته الجديدة التي وصلت إليه متوجها إلى حلب للاستيلاء عليها إلا أنه فشل وغادر وقواته المنهكة مدينة حلب بعد أن أدرك عدم جدوى الاستمرار في الحصار والاستيلاء على حلب، فيمم وجهه نحو دمشق نجدة للقائد التركي أتسز(١).

كان أتسز الخوارزمي قد تمكن من الاستيلاء على الرملة وبيت المقدس من الفاطميين سنة ٤٦٣هـ وعلى دمشق سنة ٤٦٨هـ كما ذكرنا، ولكنه أخفق في محاولته غزو مصر سنة ٤٧٠هـ، فشجّع هذا الإخفاق الفاطميين، فحاولوا استعادة دمشق وبيت المقدس، مما دفع بأتسز إلى الاستنجاد بتتش، الذي كان يحاصر حلب، ويعمل على الاستيلاء عليها. فترك وتوجه إلى دمشق، فلما علم قائد الجيش الفاطمي بأنباء اقتراب تتش انسحب عنها، فدخلها تتش دخول الظافرين سنة ٤٧١هـ، واتخذها مقرًا له، ثم ما لبث أن تخلص من أتسز فقتله. وبدأ بذلك تأسيس دولة السلاجقة في بلاد الشام(٢).

لقد كان تُتش هذا الشاب القوي «شجاعا مهيبا جبارا، ذا سطوة، وله فتوحات ومصافات، وتملك عدة مدائن، وخطب له ببغداد، وصار من كبار ملوك الزمان .. وكان عسوفًا للرعية»(٣).

أحسن تتش السيرة في دمشق في بداية حكمه، وعمل على التوسع في المناطق المحيطة بها، فاستولى في السنة نفسها على صيدا، وحصن ابن عكار، وطبرية والرملة ويافا، وبيت المقدس، وحاول الاستيلاء على حلب، فحاصرها من دون جدوى، ثم ارتدّ عنها، وأخذ يستولي على ما جاورها من المدن، مثل بُزاعَة، والبيرة(٤).

أدت محاولات تتش المتكررة للاستيلاء على حلب، إلى استنجاد أهلها بمسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل للدفاع عن مدينتهم، فتمكن مسلم من القضاء على الدولة المرداسية، ودخل حلب، وحصل على اعتراف السلطان ملك شاه بحكمه لمدينة حلب.

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص١٩٩، وابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ٩/ ٤٠٧٩.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ٢/ ٣٢٠.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٨٥.
(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٨١، وابن عساكر: تاريخ دمشق ١١/ ٣٥.

أغضب هذا التصرف تاج الدولة تتش، فقرر إرسال الجيوش لقتال مسلم بن قريش ولكن مسلمًا بادره بإرسال الجيوش لمحاصرة مدينة دمشق نفسها سنة ٤٧٦هـ وما لبث أن اضطر لترك الحصار، بعد أن علم باسترداد سليمان بن قتلمش، أمير سلاجقة الروم، لمدينة أنطاكية من البيزنطيين، والنفوذ الواسع الذي صار له في الشام، ومطامعه في حلب.

دارت بين سليمان بن قتلمش ومسلم بن قريش معركة قرب أنطاكية سنة ٤٧٨هـ انتهت بهزيمة مسلم ومقتله، ومع ذلك فقد أخفق سليمان في دخول حلب بعد حصارها(١).

أدّت مطامع كل من سليمان بن قتلمش وتتش بن ألب أرسلان في الاستيلاء على حلب إلى وقوع خلاف بينهما، نتج منه وقوع معركة طاحنة بالقرب من حلب، انتهت بانتصار تتش، ومقتل سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٩هـ، ودخل تتش حلب، وضمها إلى حوزته وصار سيد الموقف في بلاد الشام(٢).

استاء ملكشاه من هذا الصراع بين أفراد أسرة السلاجقة، ومن اتساع نفوذ أخيه تتش، فآثر أن يتوجه بنفسه إلى المنطقة، فوصل إلى الجزيرة الفراتية في جمادى الآخرة من العام نفسه، وأخضع في طريقه ما صادفه من قلاع، ثم توجه إلى حلب، فلما اقترب منها، أخلاها تتش ورحل إلى دمشق، فدخل ملكشاه المدينة، وطمأن أهلها، وخلف عليها آق سنقر قسيم الدولة، والد عماد الدين زنكي، واليًا عليها. وبذلك تقلص نفوذ تتش ثانية.

توفي السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ، فكان ذلك إيذانًا بتفكيك امبراطورية السلاجقة، فطمع تتش بالوصول إلى السلطنة، منافسًا في ذلك ابن أخيه بركيارق الابن الأكبر لملكشاه الذي لم يتعد الثانية عشرة من عمره وقتئذ.

وقد تمكن تتش في بداية الأمر، من أن يضم إليه كلًا من بوزان صاحب الرها وحرَّان، وآق سنقر صاحب حلب وياغي سيان صاحب أنطاكية، فاستولى بمساعدتهم على نصيبين، وكان قاسيًا في معاملته لأهلها(٣).

أما علاقته بالعباسيين فكانت كعلاقته مع الجميع، حيث القهر والغصب والاستعلاء، قال

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص٢١٥.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ص٢١٨، ٢١٩.
(٣) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص٢٢٤.

ابن الجوزي: «لما استفحل أمر تُتش بعد وفاة أخيه ملك شاه واشتدت شوكته وكثُرت عساكره واستولى على ديار بكر وبلاد العرب كاتب المقتدى يسأله أن يُقيم له الخطبة وخلط السؤال بنوع تهديد فأمر المقتدى أن يكتب له كتاب فيه خشونة وكان فيه: صلح أن يكون خطابك في الخطبة إذا حصلت الدنيا بحكمك وخزائن الأموال بأصفهان وولايتها تحت يدك والبلاد بأسرها في قبضتك ولم يبق من أولاد أخيك من يخالفك ثم تسأل حينئذ تشريفك بالخطبة وتأهيلك للخدمة فأما في هذه الحال فلا سبيل إلى ما التمسته ولا طريق إلى ما تحاوله فلا تعد حد العبيد فيما تنهيه وتسطره والاتباع فيما تورده وتصدره وليكن خطابك ضراعة لا تحكما وسؤال تخير فإن أطعت فنفسك نفعت وإن خالفت وقصدتنا رددناك ومنعنا طلبتك واعتمدنا معك ما يقتضيه حكم الإمام والسلطان وأتاك من الله تعالى ما لا قبل لك به ولا يدان»[1].

على أية حال لم يتوقف تتش عن ضم كل ما وصلت إليه يداه وقواته من المدن والأقاليم؛ فقد استولى على آمد وميافارقين والموصل وكان معه في هذه الحملة كل من القائدين آق سنقر والي حلب وبوزان والي الرها.

وكان تتش في إطار سعيه للسيطرة على السلطنة قد راسل تركان خاتون أرملة أخيه قبل وفاتها واتفق معها على الزواج وتواعدا على اللقاء والتعاون، فقدمت إليه فماتت في الطريق فتفرق عساكرها وانضم أكثرهم إلى بركيارق، ومضى تتش في مشروعه، فاستطاع أن يغتصب حلب من آق سنقر ويمد نفوذه إلى أنطاكية ويخطب لنفسه بالسلطنة فيها سنة ٤٨٦هـ، كما استطاع أن يستولى على نصيبين ويقتل من أهلها عددًا كبيرًا ثم يمد نفوذه على الموصل وميافارقين وديار بكر ويتوجه إلى أذربيجان، وكان نفوذ بركيارق في ذلك الوقت قد قوى، فسار لملاقاة عمه الثائر المغتصب، فلما التقى الجمعان، انضم آق سنقر بجيوشه إلى بركيارق كما تفرقت جيوش تتش فانهارت قوته ولم يستطع مواجهة جيوش بركيارق فقفل راجعًا إلى بلاد الشام، وقد أقام آق سنقر عند بركيارق فترة عاد بعدها إلى بلاده ليكون عينًا على تتش، ولم تهدأ نفس تتش بعد هذه الهزيمة، إذ صمم على الانتقام من آق سنقر، وقد قتله بالفعل في موقعة قرب حلب[2].

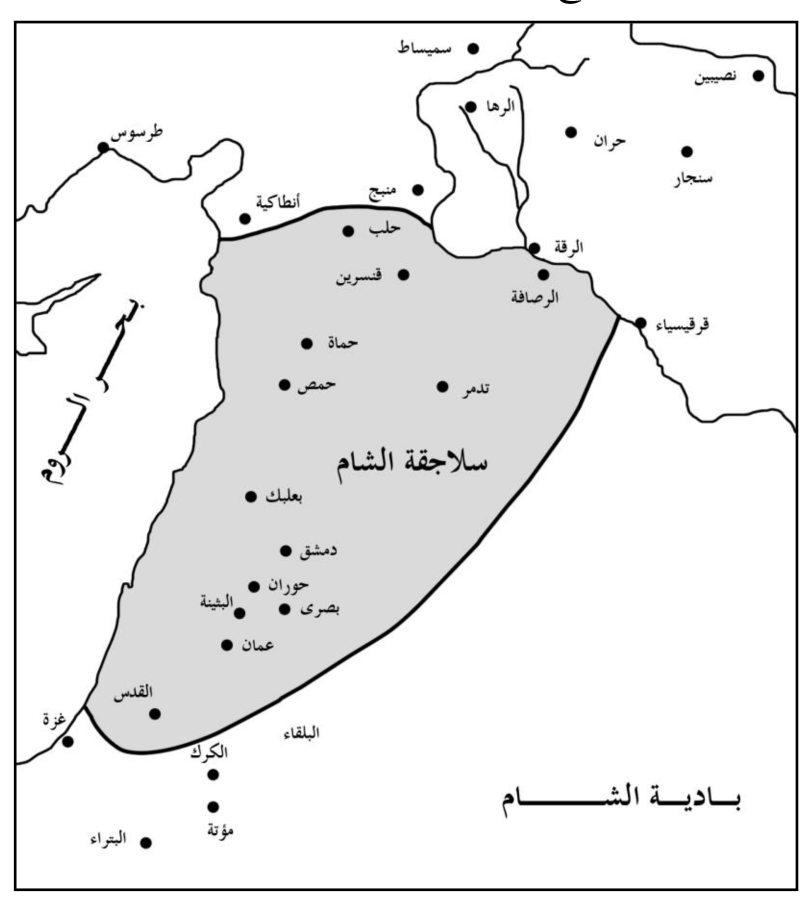
واستمر النزاع بين بركيارق وعمه تتش إلى أن تمكن بركيارق من إلحاق الهزيمة به وقتله

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٩٣

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ص٢٢٦، والأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٣٧ دار الكتب.

في النهاية سنة ٤٨٨هـ في معركة داشلو بالقرب من الرّي[١].

انقسمت أملاك تتش في بلاد الشام بين ولديه رضوان الذي حكم حلب، ودُقاق الذي حكم دمشق. وبذلك عادت بلاد الشام إلى التمزق السياسي. ونشب صراع بين الأخوين، كان من العوامل المساعدة لنجاح الحملة الصليبية الأولى[٢].



إرهاصات الدولة الزنكية

كان آق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه الأول وأترابه، وقيل إنه كان لصيقه، ومن أخصّ أصدقائه، فقد نشأ الرجلان وترعرعا معًا، ولما تسلم ملكشاه الحكم عينه حاجبًا له، وحظي عنده فكان من المقرّبين ووثق به حتى أفضى إليه بأسراره، واعتمد عليه في مهماته، فكان أبرز قادته.

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٣٨ .
(٢) أمينة بيطار: تتش بن ألب أرسلان، المجلد السادس الموسوعة العربية.

ومن أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سُنقُر عند السلطان، منحه لقب «قسيم الدولة»، وهذا يعني الشريك، وكانت الألقاب في تلك الآونة مصونة لا تُعطى إلا لمستحقيها، ويبدو أنه قاسم ملكشاه شؤون الحكم والإدارة، بالإضافة إلى ذلك، فإن آق سُنْقُر كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد، وصار ذلك أيضًا لعقبه من بعده.

اشترك آق سنقر إلى جانب السلاجقة في معارك عديدة، فقد سيره ملكشاه عام ٤٧٧هـ مع عميد الدولة بن فخر الدولة في محاولة للاستيلاء على الموصل وطرد العقيليين منها، وقد تمكنا من إنجاز هذه المهمة، وبعد مرور سنتين اشترك مع السلطان ملكشاه في انتزاع حلب من نواب العقيليين فولاه إياها تقديرًا لجهوده قد تسلم آق سنقر منصبه في حلب وأعمالها، والجدير بالذكر أن تولية قسيم الدولة لحلب كانت بإشارة الوزير المحنك نظام الملك الطوسي الذي خبره وعلم إمكانياته وإخلاصة للدولة السلجوقية(١).

استطاع آق سنقر في نطاق ولايته بالاستيلاء على حمص عام ٤٨٣هـ، وحصن أفاميه عام ٤٨٤هـ. كما فرض طاعته على صاحب شيرز عام ٤٨١هـ، وفي عام ٤٨٥هـ اشترك مع ملكشاه في مهاجمة العقيليين والانتصار عليهم قرب الموصل وظلت علاقة آق سنقر بالسلطان ملكشاه قائمة على الطاعة والتفاهم المشترك، ولم يسع يومًا إلى الخروج على أوامره ورفض السلطان بدوره الاستجابة لشكاوى معارضي آق سنقر أو إقرار مساعيهم للتخلص منه.

انضم آق سنقر وبوزان إلى تُتش في حملة ٤٨٤هـ للقضاء على الفاطميين وأعوانهم في بلاد الشام خاصة المدن الساحلية على البحر المتوسط، وأثناء محاولة اقتحامه لمدينة طرابلس أخرج واليها ابن عمار وثيقة تبين الأمان الذي أعطاه إياه السلطان ملكشاه، لكن تُتش رفض ذلك وأصر على اقتحام المدينة الأمر الذي عجّل بدب الخلاف بينه وبين آق سنقر وأدى لانسحاب هذا الأخير إلى مدينته حلب(٢).

وبعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ أراد تُتش أن يكون سلطان السلاجقة منازعًا ابن أخيه بركيارق، وقد انضم له آق سنقر مبدئيًا في حملته التي أراد منها أن يستأصل شأفة ابن أخيه

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٠٥ تدمرى.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٥٣ تدمرى.

ويقضي عليه في بلاد فارس، لكن لم يلبث آق سنقر أن تركه عند تبريز وانضم للسلطان الشرعي بركيارق الذي كان قد قوي أمره، ولم يبق مع تتش إلا ياغي سيان أمير أنطاكية، فآثر تتش الارتداد على بلاد الشام لجمع الأنصار، فلاحقه أنصار بركيارق، فالتقى بهم في معركة عند تل السلطان على مسافة ستة فراسخ جنوبي حلب، فانتصر تُتش، وقتل آق سنقر سنة ٤٨٧هـ، وتمكن بذلك من الدخول إلى حلب، كما قتل بوزان[١].

خلّف قسيم الدولة آق سنقر ولدًا سيكون له شأن عظيم في منطقة بلاد الشام والجزيرة الفراتية بل والعراق والشام ذلك هو عماد الدين زنكي.

وقد عدد المؤرخون مناقب جمة لآق سنقر نظرًا لما قام به في إصلاح شأن حلب وأهلها؛ فقد «كان من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة، وكانت الرعية معه في أمن ورخص وعدل، ثم كان موته على يد السلطان تاج الدولة تتش صاحب دمشق، وذلك أنه استعان به وبصاحب حران والرها على قتال ابن أخيه بركيارق بن ملكشاه، ففرا عنه وتركاه، فهرب إلى دمشق، فلما تمكن ورجع قاتلهما بباب حلب فقتلهما وأخذ بلادهما إلا حلب فإنها استقرت لولد آقسنقر وزنكي فيها بعد، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة»[٢].

***

(١) الصلابي: عصر الدولة الزنكية ص٢٢- ٣٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٨١.



المستظهر بالله

(من محرم ٤٨٧ هـ حتى ربيع الثاني ٥١٢هـ)

هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر الهاشمي العباسي البغدادي، ولد في بغداد سنة ٤٧٠هـ[١]، وتقلد الخلافة عند وفاة أبيه المقتدي وعمره «ست عشرة سنة وثلاثة أشهر» وذلك في ١٩ من المحرم سنة ٤٨٧هـ[٢].

كان المستظهر «جميلًا أبيض مشرّبًا حُمرة، تام الطول، لطيف المحاسن»[٣].

ويبدو من حديث المؤرخين عن هذا الخليفة أنه ممن تربوا تربية تليق بأمثاله من أبناء الخلفاء؛ حتى وصف وهو في هذا السن الحدث بـ«كريم الأخلاق لين الجانب سخي النفس مؤثرا للإحسان حافظا للقرآن محبا للعلم منكرا للظلم فصيح اللسان له شعر مستحسن»[٤].

سياسته الداخلية

أول من بايعه الوزير المحنك أبو منصور بن جهير، ثم أخذ البيعة له من الملك ركن الدولة بركيارق بن ملكشاه سلطان السلاجقة آنئذ ثم من بقية الأمراء والرؤساء، وتمت البيعة تؤخذ له إلى ثلاثة أيام[٥].

بدأ خلافته بتفويض وزيره أبي منصور بكل أمور خلافته التي كانت شكلية بالأساس مقارنة بسلطان السلاجقة وموظفيهم ودار مملكتهم في بغداد؛ فأول ما قام به بعض التحسينات التي أدخلها على دار الخلافة وقسم الحريم بها، وهذه الدار أشبه ما تكون بحي

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٠٣.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٦.
(٣) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص١٩٩.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٨١.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٨٠.

مستقل داخل العاصمة في جانبها الشرقي يحوط بها سور نصف دائري فيه عدة أبواب[١].

وقد تزامن بناء سور على قسم الحريم بالإذن في مشاركة العامة به وما صاحب ذلك من «مهرجان» بكل ما تحمله الكلمة من معنى وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٤٨٨هـ. قال ابن الجوزي عن هذا المشهد الغريب: «فخطّ السور على الحريم وقدره ومعه المسّاح، وتقدم بجبايات المال الذي يحتاج إليه عقارات الناس ودورهم وأُذن للعوام في الفرجة والعمل، وحمل أهل المحال السلاح والأعلام والبوقات والطبول، ومعهم المعاول والسبسلات وأنواع الملاهي من الزمور والحكايات والخيالات؛ فعمل أهل باب المراتب من البواري المقيّرة على صورة الفيل وتحته قوم يسيرون به، وعملوا زرافة كذلك وأتى أهل قصر عيسى بسُميرة كبيرة فيها الملاحون يجدفون وهي تجري على هاذور، وأتى أهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الأسواق، وعمل أهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسى البندق والنشاب، وأخرج قوم بئرا على عجل وفيها حائك ينسج وكذلك السقلاطونيون، وكذلك الخبازون جاءوا بتنور وتحته ما يسير به والخباز يخبز ويرمي الخبز إلى الناس»[٢]. ولم يعجب هذا المهرجان بعض الفقهاء الذين وجهوا رسالة قوية إلى الوزير ابن جهير الذي سمح بهذه «المفاسد» التي قام بها العامة في هذا المهرجان، وعلى رأسهم العلامة الحنبلي أبو الوفا بن عقيل؛ الذي نقل ابن الجوزي رسالته إلى ابن جهير في تاريخه المنتظم[٣].

على أن الأعوام الستة الأولى من بداية خلافة المستظهر لا نكاد نجد له فيها فعلًا لافتًا للنظر اللهم إلا رسالة خرج بها من ديوان الزمام[٤] أحد أكبر وأهم المؤسسات الإدارية في الخلافة العباسية إلى السلطان بركياروق السلجوقي يطلب منه الخروج لملاقاة الصليبيين سنة ٤٩١هـ لما بدأوا هجومهم على بلاد الشام وبيت المقدس وهزيمتهم لسلاجقة الشام وأعوانهم

---

(١) ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٥١.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٨٥.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٨٥، ٨٦.

(٤) ديوان الزمام: يبدو أن هذا الديوان كان ذا مهام مالية محددة؛ إذ يُشبه ما تقوم به اليوم بعض دوائر وزارة الإسكان خاصة مديرية الأملاك والأراضي الحكومية؛ حيث إن المُقطَعين أرضًا كانوا يُعاهدون الدولة على أن يدفعوا مبلغًا من المال إلى ديوان الزمام، ويعتقد الأستاذ الدكتور مصطفى جواد رحمه الله بأن ديوان الزمام هو مجلس الوزير أو نائب الوزارة والمتصل بينه وبين الرعية وبين الخليفة. الوظائف الإدارية في دولة الناصر لدين الله العباسي صـ١٠٠. مجلة المورد العراقية – بغداد، المجلد الثالث، العدد الثاني، ١٩٧٤م.



والفاطميين، وأخرى في العام التالي لم تصل، ولم يستجب بركياروق لأي من هذه الرسائل لأنه كان في صراع بينه وبين أحد مماليكه، ثم رجع المستظهر لخموله، وفي هذا يقول ابن العمراني: «كان (المستظهر) مشغولًا بشأنه، محبًا للترفّه والتنعّم، آخذًا من لذات الدنيا بأوفر الأنصباء .. وكانت العراق في أيامه هادئة والعين نائمة وأمور دولته مستقيمة»(١).

وظلَّ المستظهر في خموله وابتعاده الفعلي عن مباشرة أمور خلافته وتجلى ضعفه في الصراع الذي دار بين الأخوين محمد وبركياروق ابني ملكشاه بدءًا من عام ٤٩٢هـ(٢)، فتارة يجعل الخطبة للأول وتارة للثاني من غير حول منه ولا قوة في حسم موقفه لأي من الأخوين(٣).

وبسبب الحروب التي دارت بين الأخوين محمد وبركياروق فقد طلب بركياروق أن يؤدي وزير الخليفة ابن جهير أموالًا مستحقة عليه لينتفع بها بركياروق في حربه ضد محمد، وقد كان ابن جهير ووالده من قبله ممن استولوا على الإمارة المروانية في ديار بكر وشمال الجزيرة الفراتية وكانا تابعين للسلطان ملكشاه السلجوقي واغتنوا بفضل هذه الفتوحات حتى قيل إن ثروة العميد محمد بن محمد بلغت ٦٠٠ ألف دينار وهو مبلغ مهول.

لكن الوزير المحنك لجأ إلى الخليفة وينقل لنا ابن الجوزي أن الخليفة غضب غضبًا شديدًا من وزيره ووعد بركياروق قائلاً: «لا يغرك إمساكنا عن مقابلة الفلتات فوحق السالف من الآباء المتقدمين بحكم رب السماء لئن قصر في أن يعاد شاكرا وبالحباء موفورا لنفعلن»(٤)، وبالفعل ردّ ابن جهير مبلغ ١٦٠ ألف دينار إلى السلطان بركياروق، وقد كانت هذه بداية النهاية لهذا الوزير العظيم الذي وزر لخليفتين وخدم ثلاثة!

ولقد عزله المستظهر في هذا العام ٤٩٣هـ وأمر بالقبض عليه وعلى أخوين له، وقد كان سبب القبض عليه راجعًا إلى أنه «احتقد على عميد الدولة بن جهير أشياء كان يعامله بها أيام أبيه، فحين أفضت الخلافة إليه أقرّه على الوزارة ثم قبض عليه بعد ذلك وأدخله حمّامًا وسمّر عليه حتى مات فيه»(٥).

---

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٠٦.
(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٤١.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٩٧.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١١٢.
(٥) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٠٦.

غير أن هذه الرواية تتهاوى مع الواقع وطول الفترة الزمنية التي ظل فيها ابن جهير مع الخليفة المستظهر ومن قبله المقتدي وهي تسع سنوات كاملة كان له فيها الأمر والنهي، والحق أن رواية ابن الأثير توضح لنا سبب القبض عليه ثم قتله، وهي أن وزير السلطان محمد بن ملكشاه واسمه مؤيد الدولة بن نظام الملك أمر بإطلاق سراح وزير السلطان بركياروق وكان مأسورًا عنده واسمه أبو المحاسن الأعز عبد الجليل بن محمد الدهستاني وأن يتقلد عمادة بغداد ووزارة الخليفة المستظهر شريطة أن يتخلص من الوزير عميد الدولة ابن جهير ويعزله، فلما عرف ابن جهير ذلك أمر أحد أمراء بغداد بتتبعه وقتله قبل دخول بغداد لكنه فر منه ثم التقيا وعرفه هذا القائد من الذي أرسله إليه ليقتله ثم جاء الأعز إلى بغداد «وخاطب في عزل عميد الدولة فعزل في رمضان وأُخذ من ماله خمسة وعشرون ألف دينار وقبض عليه وعلى إخوته وبقي معزولا إلى سادس عشر شوال فتوفي محبوسا في دار الخلافة»[1]، وهذا الذي فعله الخليفة في هذه الأعوام الستة الأولى من خلافته تدلل على الولاء الكامل للسلاجقة، والطاعة العمياء لهم!

ونتيجة لضعف هذا الخليفة وموقفه المتذبذب بين الأخوين تبعًا لغلبة أي منهما؛ فقد حاصر سيف الدولة صدقة بن مزيد الأسدي - وكان حليفًا للسلطان محمد - بغدادَ؛ ولم يستطع الخليفة أن يفعل معه أي شيء، بل لم يكن يملك من المقاومة أي شيء حتى لجأ أهل بغداد إلى دار الخلافة الأمر الذي سبَّب ضررًا كبيرًا وفسادًا على المستوى الأمني والاقتصادي، ولم تُحل هذه المشكلة إلا عن طريق وساطة قاضي قضاة بغداد ووزير الخليفة[2]، ثم آل ولاء المستظهر فيما بعد إلى السلطان محمد منذ عام ٤٩٥هـ وحتى وفاته سنة ٥١١هـ ومن بعده أخوه سنجر!

وظل الخليفة على حاله كل ما كان بيده تغيير وزيره وقاضي قضاته ورؤساء دواوينه وشرطته من حين لآخر وهي كلها وظائف لا يتعدى سلطانها بغداد في أحسن الأحوال مع وجود وزير السلطان السلجوقي في بغداد ودار المملكة المتحكمة في مقاليد الأمر بها، والحدث الأبرز أنه تزوج ابنة ملكشاه في سنة ٥٠٢هـ كعادة أبيه وجده وهو زواج سياسي في المقام الأول[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٨.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٣٤.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٥٩.

وفي ظل استيلاء الصليبيين على معظم بلاد الشام بحلول سنة ٥٠٤هـ لم نجد عزم السلاجقة ولا الخليفة على جهادهم رغم كون محمد بن ملكشاه قد خلا له الحال بعد وفاة أخيه بركياروق، لكن الجماهير والشعوب المسلمة كانت ولا تزال سباقة في المساعدة والعون لإخوانهم مهما كانوا، يقول الذهبي: «وسار طائفة من الشام إلى بغداد يستنفرون الناس، واجتمع عليهم خلق من الفقهاء والمطوعة، واستغاثوا وكسروا منبر جامع السلطان، فوعدهم السلطان بالجهاد. ثم كثروا وفعلوا أبلغ من ذلك بكثير من جامع القصر، وكثر الضجيج، وبطلت الجمعة، فأخذ السلطان في أهبة الجهاد»[1].

ويذكر ابن الجوزي أن بعض فقهاء بغداد خرجوا إلى الجهاد فعلًا، لكنهم رجعوا عنه ولم يستطيعوا المواصلة، وانشغل الجميع في هذا العام بعُرس الخليفة وزواجه من أخت السلطان محمد[2].

وأما أحوال العراق فكانت منقسمة بين القبائل العربية فيها فأشهرها بنو أسد في الحلة شمال بغداد وأمراؤهم بنو مزيد وبنو خفاجة في الكوفة في الجنوب الشرقي وعبّادة في الشمال، وكانت تحدث مناوشات بين هذه القبائل وغيرها من حين لآخر، لكن الغلبة كانت لبني مزيد الأسديين بحكم ارتباطهم بالسلاجقة وقوة عددهم وعدتهم وسيطرتهم على رقعة كبيرة من العراق، وهؤلاء كانوا يهددون كل مناطق العراق حتى بغداد نفسها كما مرّ بنا، واستولوا على واسط والبصرة وتكريت والبطيحة في كثير من الأوقات[3]، بل كان لبني مزيد بيت مشهور في بغداد نفسها كان كما يقول ابن الأثير: «ملجأ لكل ملهوف» حتى إن الوزير أبا القاسم بن جهير قد لجأ لهذا البيت بعد عزله من وزارة الخليفة المستظهر سنة ٥٠٠هـ[4]، وهذا دليل عظيم على مدى ضعف الخليفة أمام البيت المزيدي الأسدي في العراق فما بالنا بالسلاجقة أنفسهم أصحاب دار المملكة بها!!

على أن مكانة صدقة الأسدي كانت قد بلغت منزلة خشي معها السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي على مملكته؛ فقد «كان سيف الدولة صدقة قد صار ملك العرب في زمانه،

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٥/ ٢١.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٦٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٩٠، ٩١، ١٠٠، ١٠١، ١١٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١١١.

وبنى مدينة الحلة وغيرها. وقبل ذلك كان صاحب عمود وسيف، فعظُم شأنه، وارتفع قدره، وصار ملجًا لمن يستجير. وكان معينًا للسلطان محمد على حروبه مع أخيه، وناصرًا له، فزاد في إقطاعه مدينة واسط، وأذن له في أخذ البصرة. ثم افتنّ[1] ما بينهما العميد أبو جعفر محمد بن الحسين البلخي[2] مع ما كان يفعله صدقة من إجارة من يلتجئ إليه من أعداء السلطان محمد. وشغب العميد السلطان عليه، ثم زاد عليه بأن صبغه بأنه من الباطنية، ولم يكن كذلك، كان شيعيًا. وسخط السلطان على سرخاب بن دلف صاحب ساوة[3]، فهرب منه، فأجاره صدقة، فطلبه السلطان منه، فامتنع. إلى أمور أخر، فتوجه السلطان إلى العراق»[4].

ووقعت الحرب بينهما وقتل صدقة وأسر ابنه وأمير جيشه سعيد بن حميد في المعركة، وكان المستظهر قد أرسل إليه يستحثّه على طاعة السلطان محمد إلا أنه لم يأبه لذلك، وظل دبيس بن صدقة قيد الإقامة الجبرية عشر سنوات حتى أطلقه محمود بن محمد بن ملكشاه في أول سلطنته سنة ٥١١هـ[5].

علاقته بالمرابطين

كانت الدولة الفاطمية في مصر والسلطنة السلجوقية في إيران والعراق في تنافس مستمر من أجل السيطرة على البلاد الإسلامية، ونفوذ المستظهر الديني مرتبط بامتداد حكم السلاجقة السنيين، أما في الشمال الإفريقي، فقد سيطر المرابطون على مراكش وسواحل الأطلسي ثم على بلاد الأندلس بعد معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ، وتمكن يوسف بن تاشفين من إقامة دولة قوية متشعبة الأطراف، هذه الدولة رفضت أن تعطي ولاءها للخليفة الفاطمي بالقاهرة بسبب اعتناقه المذهب الشيعي، لذلك أراد يوسف بن تاشفين أن يتقرب من الخليفة العباسي، ويأخذ منه البيعة كي يتصف حكمه بالصفة الشرعية، وحتى تصبح طاعته على الكافة واجبة، وهذا الرأي أشار به فقهاء المغرب[6].

---

(١) افتنّ في الخصومة: توسع فيها. المعجم الوسيط ٢/ ٧٠٣.

(٢) كان عميد ديار بكر، والعميد: السيد المعتمد عليه، وهي وظيفة إدارية من وظائف الدولة السلجوقية تشبه المحافظ الآن. راجع هرم السلطة عند السلاجقة في ملاحق هذا المجلد.

(٣) إقليم في إيران.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٥/ ٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٤/ ٤١٤، ٤١٥ تدمرى.

(٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/ ٣١٤ مكتبة الخانجى.

وقبل أن يبادر أمير المرابطين إلى الاتصال بالمستظهر نفذ في بلاده عدة خطوات؛ فقد نقش المرابطون اسم الخليفة العباسي على السكة وكانت نقودهم تحمل «عبد الله» ويقصد به الخليفة العباسي حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين ويدل على ذلك الرسالة التي بعث بها علي بن يوسف بن تاشفين إلى المستظهر ذاكرًا لفظة «عبد الله» مع أن اسم الخليفة «أحمد»، وبعد أن اتسعت دولة المرابطين رأى زعماؤها أن يتخذ أميرهم يوسف بن تاشفين لقب «أمير المؤمنين»، ولكنه رفض هذا الاقتراح تقربًا إلى خلفاء بني العباس، واحترامًا لهم وقال: «حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم، وإنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم»(١).

ثم اتخذ المرابطون السواد -شعار العباسيين- شعارًا لهم في ملابسهم وراياتهم، وخطبوا للخليفة العباسي على منابر بلادهم، وبعد ذلك أرسل يوسف بن تاشفين بعثة إلى المستظهر سنة ٤٩٨هـ تحمل إليه البيعة والهدايا وكتابًا يذكر فيه البلاد التي فتحها وحروبه مع الفرنج، ثم طلبت البعثة من الخليفة أن يعضد ليوسف بن تاشفين على المغرب والأندلس وما يفتحه بالمستقبل بسيف أمير المؤمنين، فأجابه المستظهر لما أراد ولقبه «بأمير المسلمين وناصر الدين» وسير معه الخلع واللواء، وكتب له عهدًا بذلك، كما أن الإمام الغزالي والقاضي الطرطوشي، أرسلا إليه خطابًا يحثانه على خدمة الإسلام ويفتيانه في ملوك الطوائف.

وبعد وفاة يوسف بن تاشقين سنة ٥٠٠هـ، ملك ابنه علي بن يوسف بن تاشفين الذي واصل سياسة والده في موالاة الخليفة العباسي وفي سنة ٥١٢هـ أرسل إليه المستظهر مرسومًا، جوابًا عن رسالة سابقة يطلب فيها عهدًا منه(٢).

ورغم أن المستظهر كان ضعيفًا لا يملك من أمره شيئًا سوى النفوذ الديني الذي يعلم

---

(١) مجهول: الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشية ص٢٩.

(٢) وقد ذكر صاحب الحلل الموشية نص خطاب الخليفة المستظهر الذي جاء فيه: «من عبد الله أبي العباس المستظهر بالله أمير المؤمنين، إلى معزّ الدولة العباسية، وزعيم جيوشها المغربية، علي بن يوسف بن تاشفين أحسن الله توفيقه، أما بعد: فالحمد لله مقدم على كل مقال، وهو ذو المن والإفضال، الكبير المتعال، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المؤيد بالتنزيل ... عُرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك؛ الموضّح لإخلاص السريرة ... المعربة عن تمسكك بطاعته بحبل الله المتين ... فإنك وطائفك من حزب الله و ﴿**حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [المائدة: ٥٦]، فاتخذ التقوى عمادك، والحق منارك، وكتاب الله وسنة رسوله شعارك، وتجرّد للدّفاع عن الإسلام والمسلمين». مجهول: الحلل الموشيّة ص٨٨.

أهميته كل الأمراء المسلمين في كل الأصقاع، فقد كانت العلاقة بين يوسف بن تاشفين وابنه من بعده والمستظهر بالله علاقة سياسية بامتياز يستمد منها المرابطون شرعيتهم في المغرب ثم في بلاد الأندلس التي كانت مشرذمة آنئذ بين ملوك الطوائف، وقد كان أهل الأندلس منذ الأمويين متعلقين بصورة وجدانية ودينية بالخلفاء المنتمين لقريش، مما سهل توحيد جزيرة الأندلس بصورة شرعية وفرت على المرابطين كثيرًا من العناء والوقت(١).

هواياته وأخلاقه وتقريبه للعلماء

إننا نجد المستظهر متصلاً بالمنجمين(٢)، شغوفًا بما يقولون متبعًا في ذلك عادات العباسيين في هذا المضمار، فقد «حكى أنه اجتمع في زمانه في برج الحوت ستة أنجم من السبعة السيارة ما عدا زحل، فحكم المنجمون أنه سيظهر طوفان كطوفان نوح عليه الصلاة والسلام، فتألم من ذلك المستظهر بالله، وأحضر من المنجمين ابن الفيلسوف وسأله عن ذلك فقال: في زمان نوح عليه الصلاة والسلام اجتمع في برج الحوت السبعة الأنجم بكمالها، والآن اجتمع ستة، ولا يعلم الغيب إلا الله، لكن الذي تدل عليه الدلائل وليس بقطعي أنه سيجتمع الماء من العالم من طرقٍ شتى في مكان واحد، فيغرقون في ذلك المحل. فخافوا على بغداد لاجتماع العالم فيها وهي في جنب شط النهر، فوصل الخبر أن الحجاج حين نزلوا في وادي المناقب هجم عليهم سيل جحاف فغرقوا أجمعين في ذلك السيل، فتعجب من قرب التحقيق من قوله والأمر بيد الله تعالى سبحانه ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] »(٣).

لكن رواية ابن كثير تؤكد أن المستظهر بالله قد صدق هذا التنجيم واضطر إلى إصلاح السدود وأماكن حفظ المياه مخافة غرق بغداد قال: «فتقدم الخليفة إلى وزيره بإصلاح

---

(١) يذكر ابن خلدون أن يوسف بن تاشفين قد كتب في شأن تقليده إلى الخليفة المستظهر بالله، وأنه بعث إليه في ذلك الغرض سفارة على رأسها عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبو بكر وهو الحافظ الشهير فيها بعد «فتلطفا في القول، وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا إلى الخليفة أن يعقد ليوسف على المغرب والأندلس». فصدر له عهده بذلك، وعاد السفيران يحملان التقليد بولاية يوسف على ما تحت نظره من الأقطار والأقاليم، وأذيعت محتويات هذا التقليد بين الناس. تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٠، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٤١.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٠٠.

(٣) العصامي: سمط النجوم العوالي ٢/ ٢٤٢.



المسيلات والمواضع التي يخشى انفجار الماء منها..»[١]!

أما عن أخلاقه فأبرزها الكرم؛ فقد حكى خازن من المخزن أي موظف في وزارة المالية والأمانات العباسية قوله: «أخرج إلينا من الدار[٢] أربع عشرة جبة[٣] طلساء[٤] قد تدنّست أزياقها تزيد قيمتها على خمسمائة دينار، فسلمها إلى مطري[٥]، وظننتُ أن كُتَّاب المخزن قد أثبتوها، ولم تطلب مني ولا ذُكِّرتُ بها، واتصلت أشغالي ومضى على هذا حدود من ثلاث سنين، فخرج إلينا من طلَب الجِباب، فأنكرتُ الحال، وقلت: متى كان هذا وفي أي وقت؟ فذكَّروني الوقت ومن جاء بها، فتذكرتُ وما علمتُ إلى من سلمتها، فاستدعيتُ كل مطري جرت عادته بخدمة المخزن فحضروا وفيهم الذي سلَّمتها إليه، فتأملته وقد استحال لونه[٦]، فقلت له: أين الجباب؟ فلم ينطق، فعاودته فسكت، فأمرت بضربه فقال: أصدُقك، لما أصلحتُ الجباب لم تُلتَمس مني، وبقيتُ سنة وعملتُ بعدها أعمالًا كثيرة للمخزن، وما ذكرت لي فعلمت أنها قد نسيت، وكان علي دين، فبعت واحدة، ثم مضى زمان فلم تطلب فبعت أخرى، ثم أخرى، إلى أن بقي عندي منها ست جباب فبعتها جملة وجهزت ابنة لي، والله ما في يدي منها خيط، ولا من ثمنها حبة، وما لي سوى ثمن دويرة البنت والرحل الذي جهزتها به، فقلت: ويلك، خاطرتَ بدمي، وعرضتني للتُّهمة، ودخلت على أبي القاسم بن الحصين صاحب المخزن، فعرفته فتقدم بتقييده وحمله إلى الحبس، ثم طولع المستظهر بالحال، وترقب أن يتقدم بقطع يده إظهارا للسياسة، فوقع أن أمر بالجواب: كانت المقابلة لمن فرضه الحفظ إذ فرط، فالذنب للراعي إذ نعس لا للذئب إذ اختلس، والذي انصرف فيه ثمن الثياب أنفع لأربابها منها، فليخل سبيل هذا، ولا يعرض لدار بنته ورحلها، والله المعين»[٧].

وأما علاقته بالعلماء والصالحين فقد ورد عنه حبه لهم واقترابه منهم، وطلب من يؤم به في الصلوات ويلقن أولاده القرآن، وقصد أن يكون من أرباب البيوت الصالحين وأن يكون

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٨٧.
(٢) من دار الخلافة فيما يبدو.
(٣) الجبة: ثوب سابغ واسع الكمين مشقوق المقدم يلبس فوق الثياب. المعجم الوسيط ١/ ١٠٤.
(٤) الطّلس من الثياب الوسخ. المعجم الوسيط ٢/ ٥٦١، ٥٦٢.
(٥) لم أقف على معنى مطري في المعاجم، لكن يبدو من السياق أنه بمثابة الخيّاط أو الترزي هذه الأيام.
(٦) استحال لونه: تغيّر لونه، وهي دلالة على الخوف.
(٧) ابن الجوزي: المنتظم ١٧/ ١٤عطا.

مكفوف البصر، فوقع الاختيار على المبارك ابن دواس المقرئ، فوقع منه موقعًا حسنًا. ولما صلى به أول ليلة التراويح قرأ في كل ركعة آية، فلما سلم قال له: زدنا من التلاوة، فصلى في كل ركعة بآيتين، فلما سلم قال له زدنا، فأقام يزيده إلى أن صلى في كل ركعة بجزء كامل، فلما كان ليلة الجمعة أحضر له كاغد طيب وعود ند وكافور وما أشبه ذلك، وكاغد فيه ذهب ووضعه على مصلاه، فلما فرغ من الصلاة وضع يده عليهما فدفعهما بظاهر كفه وانصرف، فلما وصل إلى المكان الذي أفرد له جاء إليه خادم بالكاغدين وقال: إن أمير المؤمنين استحسن ذلك منك وقال: ما قصر معكم، قال لكم: ما أنا حمال، ومنزلي فتعرفونه إن أردتم أن تعطوني شيئًا فاحملوه إلى منزلي[1].

ومما يُذكر عن علاقة المستظهر بالقرآن والعلماء ما قاله «أبو الخطاب بن الجرَّاح: صليت بالمستظهر في رمضان، فقرأت ﴿**إن ابنكَ سُرِّق**﴾ [يوسف: ٨١]، رواية رويناها عن الكسائي، فلما سلمت قال: هذه قراءة حسنة فيه تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب. قال الذهبي: قلت: كيف بقولهم ﴿**فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**﴾ [يوسف: ١٧] ﴿**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾ [يوسف: ١٨]»[2] وهذه لفتة جميلة من الذهبي تدل على سعة علمه وقدرته العقلية الكبيرة على النقد واستقامة موازينه العلمية.

ولم يكن المستظهر يتوانى عن الاتصال بأهل المعرفة والعلم حتى في أوقات الهجوع فقد ذكر أبو سعد بن أبي عمامة[3] قال: كنت ليلة جالسا في بيتي، وقد نام الناس، فدق الباب، فإذا بفراش وخادم معه شمعة، فقال: بسم الله، فأدخلت على المستظهر، وعليه أثر غم، فأخذت في الحكايات والمواعظ وتصغير الدنيا، وهو لا يتغير، وأخذت في حكايات الكرام وغير ذلك، فقلت: هذا لا ينام، ولا يدعني أنام، فقلت: يا أمير المؤمنين، لي مسألة، قال: قل، قلت: ولا تكتمني؟ قال: لا، قلت: بالله حل عليك نقدة للبائع، أو انكسر زورقك، أو وقعوا على قافلة لك، وضاق وقتك؟ عندي طبق خلاف أنا أقرضه لك، وتبقى بارزيا في الدروب وما يخلي الله

(١) الكتبي: الوافي بالوفيات ١/ ٩٠.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٧.

(٣) هو المعمّر بن علي بن المعمر أبو سعد بن أبي عمامة، من مشاهير وعّاظ بغداد في زمانه، صاحب الخليفة المقتدي وكان نديمه، وكان له قبول عند الخاص والعام. ولد سنة ٤٢٩هـ وتوفي في بغداد سنة ٥٠٦هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٥٢.



من رزق، فهذا هم عظيم، وقد مرستني الليلة. فضحك حتى استلقى، وقال: قم، فعل الله بك وصنع، فقمت، وتبعني الخادم بدنانير وتخت ثياب(١).

كما كان قريبا من حجة الإسلام أبو حامد الغزالي وكانت العلاقة بينهما قد ابتدأت عندما بايعه أبو حامد أميرًا للمؤمنين سنة ٤٨٧هـ وقد «صنف للمستظهر كتابا في الرد على الباطنية»(٢).

واللافت أن كتاب الغزالي «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية» يعطي لنا صورة واضحة لموقف الغزالي من الخليفة المستظهر، والباب التاسع من الكتاب خصصه الغزالي بأكمله لإقامة البراهين الشرعية على أن الإمام الحق، القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته هو الإمام المستظهر، كما بين أنه يجب على علماء الدهر الفتوى على البت والقطع بوجوب طاعته على الخلق ونفوذ أقضيته بمنهج الحق وصحة توليته للولاة وتقليده للقضاة وأنه خليفة الله على الخلق وأن طاعته على جميع الخلق فرض(٣).

وهذا الباب يمتد لأكثر من خمسين صفحة، وهو من أوله إلى آخره دعوة لطاعة المستظهر وللالتفاف حول منصب الخلافة، وقد أورد صفات الإمام وواجباته السياسية والدينية، ونلاحظ أن الإمام الغزالي رمى بثقله الفكري والثقافي والعقائدي لدعم مشروعية الخلافة العباسية والخليفة المستظهر وذلك ليقينه من الخطر الباطني الذي يريد إسقاط المرجعية العباسية وتثبيت الشرعية الفاطمية الباطنية تحت شعار الانتساب زورًا لأهل البيت فكرًا ونسبًا. وعلم الغزالي أنه إذا تمّ هذا الأمر فإن في ذلك ضياع الدولة السنية، لذلك رمى بثقله للحفاظ على الشرعية السنية العباسية أمام المد الباطني(٤).

وكان الفقيه الشافعي الشهير أبو بكر الشاشي كذلك من جملة العلماء المقربين من المستظهر وقد ألّف له كتابه المستظهري «صنفه لأمير المؤمنين المستظهر بالله وهو المسمى حلية العلماء»(٥).

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٨.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٧٠.
(٣) أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ص١٦٩- ١٩٤.
(٤) الصلابي: السلاجقة ص١٥٠.
(٥) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٧٢.

ولم تخلُ حضرة الخليفة المستظهر بالله كذلك من شعراء مفلقين مادحين له، رغم سيطرة السلاجقة على مقاليد بغداد، وضعف حضرته مقارنة بهم، ثم ظهور سلاجقة العراق في أخريات عمره الذين جعلوا بغداد مقرًا لهم، كل هذا لم يمنعه من حذو السيرة التي اعتاد عليها البلاط العباسي، من هؤلاء نجد علي بن محمد المدائني ومحمد بن محمود القرقوبي وعلي ابن محمد السنبسي الذي مدح المستظهر بأشعار كثيرة منها:

نادى الرحيل منادي الحي فابتكروا ... كادت لذاك حصاة القلب تنفطر

ثم استقلوا فلم أملك غداة نأوا ... نطقا لديهم فكان المخبر النظر

أبدى الذي كانت الأسرار تضمره ... يوم الرحيل بدمع فيضه درر

وأضحت الدار قفرى لا أنيس بها ... كأنها صحف عادية نكر

ما أن تحير جوابا أن دعوت بها ... وكيف ينطق رسم دارس دثر

أبدت معالمها الأيام واختلفت ... فيها العواصف حتى ما بها أثر

وكم عهدت بها والدار جامعة ... حورا من الإنس في ألحاظها حور[1]

وكان للمستظهر نفسه أشعار كما كان له نثر مشهور، من نظمه:

أذاب حرّ الهوى في القلب ما جمدا ... يوم مددت إلى رسم الوداع يدا

فكيف أسلك نهج الاصطبار وقد ... أرى طرائق في مهوى الهوى قددا

قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به ... من بعد ما قد وفى دهري بما وعدا[2]

وأما من نثره وأقواله فقد «قال أبو طالب بن عبد السميع: كان من ألفاظ المستظهر:

- خير ذخائر المرء لدنياه ذكر جميل، ولآخرته ثواب جزيل.
- شُحُّ المرء بفلسه من دناءة نفسه.
- الصبر على الشدائد ينتج الفوائد.
- أدب السائل أنفع من الوسائل.

(١) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ٤/ ٩٦.
(٢) الكتبي: الوافي بالوفيات ١/ ٨٩.

- بضاعة العاقل لا تخسر وربحها يظهر في المحشر»[١].

وفاته

توفي المستظهر بالله يوم الخميس ٢٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢هـ، وكان قبل وفاته قد مرِض ثلاثة عشر يومًا من تراقي[٢] ظهر به، وبلغ إحدى وأربعين سنة وستة أيام، وكان ليّن الجانب، كريم الخلائق، مشكور المساعي، إذا سئل مكرمة أجاب إليها، وإذا ذكر بمثوبة تشوف نحوها[٣]. وقد توفي عن سبعة بنين[٤].

قال ابن كثير عنه: «كان خيرا فاضلا ذكيا بارعا، كتب الخط المنسوب، وكانت أيامه ببغداد كأنها الاعياد، وكان راغبا في البر والخير، مسارعا إلى ذلك، لا يرد سائلا، وكان جميل العشرة لا يصغي إلى أقوال الوشاة من الناس، ولا يثق بالمباشرين، وقد ضبط أمور الخلافة جيدا، وأحكمها وعلمها، وكان لديه علم كثير، وله شعر حسن»[٥].

وقال الإربلي: « (كان المستظهر) إذا دُعي إلى فعل الخير أجاب، وإذا طُلب منه الإنعام جاد، لا يتعمّد مساءة أحد»[٦].

ولي غسله العلامة ابن عقيل الحنبلي، وصلى عليه ابنه المسترشد أبو منصور الفضل، ودفن في حجرة كان يسكنها، ثم نقل إلى مقابر الرصافة في شرقي بغداد[٧].

وأما كبار رجال دولته فقد أجملهم ابن الأثير بقوله: «وزرَ له عميد الدولة أبو منصور بن جهير وسديد الملك أبو المعالي المفضل بن عبد الرزاق الأصبهاني وزعيم الرؤساء أبو القاسم ابن جهير ومجد الدين أبو المعالي هبة الله بن المطلب ونظام الدين أبو منصور الحسين بن محمد، وناب عن الوزارة أمين الدولة أبو سعيد بن الموصلايا وقاضي القضاة أبو الحسن علي بن الدامغاني. ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٨.
(٢) دمّل يظهر في الحلق.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٩.
(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤١١.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٥.
(٦) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص١٩٩.
(٧) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص١٩٩.

أرسلان والسلطان بركيارق ومحمد ابنا ملكشاه. ومن غريب الاتفاق أنه لما توفي السلطان ألب أرسلان توفي بعده القائم بأمر الله ولما توفي السلطان ملكشاه توفي المقتدي بأمر الله ولما توفي السلطان محمد توفي بعده المستظهر بالله»(١).

ويمكن أن يستزيد القارئ ويتعرف على كثير من موظفي الدواوين العباسية وطبيعة العلاقة بينهم وبين دار الخلافة، ومراتب الوظائف في كتاب «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار البغدادي (ت٦٤٣هـ) فقد ترجم لطائفة ممن عملوا في دولة المستظهر بالله، رغم أن الكتاب لم يصلنا كاملًا للأسف الشديد.

السلاجقة زمن المستظهر

صادف بداية حكم المستظهر بالله نزاع داخل البيت السلجوقي على السلطة والدولة «في أول خلافته، جهز السلطان بركياروق بن ملكشاه جيشا مع قسيم الدولة جد نور الدين وبوزبان، فالتقاهم تاج الدولة تتش بظاهر حلب، فأسر قسيم الدولة، وذبحه تتش، وأخذ حلب بعد حصار، وذبح وسجن كربوقا، وسار، فتملك الجزيرة، ثم خلاط، ثم أذربيجان كلها، واستفحل أمره، وكبس عسكره بركياروق، فانهزم، وراحت خزائنه، وذهب إلى أصبهان، ففتحوا له خديعة، فأمسكوه، فمات أخوه صاحب أصبهان محمود، وله سبع سنين بالجدري، فملكوا بركياروق، ووزر له المؤيد بن نظام الملك، وجمع وحشد»(٢).

لم يقتصر النزاع بين بركيارق وأخيه الأصغر محمود فحسب بل ظهر منافس آخر له ينازعه على عرش السلطنة وهو عمه تاج الدولة تتش وقد تم القضاء عليه في معركة الري أواخر عام ٤٨٨هـ كما مرّ بنا.

ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا التفكك الذي حدث في قلب الدولة السلجوقية كان من أكبر عوامل نجاح الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، إذ لم تكن هناك القوة الإسلامية التي تستطيع أن تقف في وجهها، ففضلًا عن المنازعات التي قامت بين رضوان ودقاق ابني تتش فإن هذه البلاد كانت مسرحًا لنشاط الفاطميين في مصر. وهكذا نجد أن النزاع الذي قام بين أفراد البيت السلجوقي في هذا الجزء من الشرق الإسلامي قد أدى إلى انتزاع

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٧٣.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٠٠.



الصليبيين معظم بلاد الشام من المسلمين.

لكن ظهر منافس آخر للسلطان بركيارق ينازعه في أمور السلطنة وهو عمه أرسلان أرغون، الذي كان مقيمًا في بغداد عند أخيه ملكشاه، ولما توفي ملكشاه وحدث نزاع بين بركيارق وأخيه الأصغر محمود على عرش السلطنة توجه أرسلان أرغون إلى نيسابور، وأراد أن يفرض نفوذه عليها ولكن امتنع أهلها عن تسليمها له فسار منها إلى مرو حيث قام شِحنتها (مدير أمنها) بتسليمها له وبذلك قوى نفوذ أرسلان أرغون بمساعدته وتوسعت مملكته وامتد سلطانه على بلخ وترمذ ونيسابور وسائر خراسان، وكاتب أرسلان أرغون ابن أخيه السلطان بركيارق يخبره بأنه تم بسط نفوذه وسلطانه على الأقاليم التي كانت لجده داود، وأنه راض كل الرضا بما سيطر عليه من هذه الأقاليم ولن يتعداها، أو يطمع في غيرها من أقاليم أخرى، إضافةً إلى أنه لن يخرج عن طوعه وأنه منفذ لما يأمره به[1].

وكان السلطان بركيارق آنذاك مشغولًا بخلافات أخيه محمود، فأظهر موافقته على ما كاتبه به عمه أرسلان أرغون، بينما لم يكن في حقيقة الأمر موافقًا على ذلك، وما لبث أن سير عمه الآخر بوربرس بن ألب أرسلان لقتال أرسلان أرغون إلى حدود خراسان، والتقى العسكران فانهزم أرسلان أرغون وعاد إلى بلخ، حيث جمع الكثير من الأجناد وانضمت إليه حشود كبيرة من التركمان، وحينما شعر بقوته سار إلى مرو وفتحها عنوة بعدما خرب أسوارها وقتل الكثير من أهلها، وسار إليه بوربرس لقتاله، واجتمع إليه العسكران عند مرو فانهزم بوربرس وأسره واعتقله أخوه أرسلان أرغون في ترمذ، وهناك تم قتله، وبعد ذلك استبد أرسلان أرغون في حكم خراسان فهدم كل حصن فيها وخرب البلاد وظلم العباد، وكان أرسلان أرغون شديد الهيبة والظلم لغلمانه، فكانوا يخافونه خوفًا شديدًا، مما دفع إلى قتله سنة ٤٩٠هـ[2].

وقد أرسل السلطان بركيارق جيشًا إلى خراسان لمحاربة عمه أرسلان أرغون ولم يكن قد علم بوفاة عمه على يد أحد غلمانه، وجعل أخاه معز الدين أبا الحارث سنجر بن ملكشاه على خراسان –الذي ولد بمدينة سنجر عام ٤٧٩هـ وهي إحدى مدن الجزيرة والتي سمى

---

(١) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٢/ ٣٦٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٠٦- ٤٠٩ تدمرى، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ١٧، والصلابي: الدولة السلجوقية ص١٣٦.

على اسمها على عادة الأتراك- على رأس الجيش وأرسل معه الأمير قماج ليعاونه حتى يقضيا على فتنة عمه. وكان بركيارق قد أصدر أمرًا بتولية سنجر حاكمًا على خراسان حينما علم باستيلاء عمه عليها، وبعد أن حاربه عمه سار بركيارق على رأس جيش آخر إلى خراسان، وقبل أن يصل إلى خراسان علم بمقتل عمه، ومن ثم دانت له بلاد خراسان، ثم أجلس أخاه سنجر على عرش خراسان سنة ٤٩٠هـ ثم رجع إلى بغداد، وقد تولى سنجر الحكم على بلاد خراسان في عهد أخيه السلطان بركيارق لمدة عشرين عامًا وكان واليًا على بلاد ما وراء النهر ومن ثم فقد سمى ملك المشرق(١).

غير أنه سرعان ما عاد النزاع على عرش السلطنة من جديد داخل البيت السلجوقي مرة أخرى بين بركيارق وأخويه محمد وسنجر، وقد استمر هذا النزاع خمس سنوات من عام ٤٩٢هـ حتى ٤٩٧هـ، ومن المهم أن نذكر أن محمدًا استطاع أن يدخل بغداد وأن يقيم الخطبة لنفسه فيها سنة ٤٩٢هـ بموافقة الخليفة المستظهر العباسي الذي خلع عليه الخلع والهدايا، وكان بركيارق في هذه الأثناء مريضًا، ثم استمرت الحرب مع محمد طوال عهد بركيارق الذي تمكن من إعادة الخطبة لنفسه في بغداد(٢).

ومن اللافت أن الخليفة هو الذي كان يسمح بإعادة الخطبة لكل من دخل بغداد من هذين السلطانين المتنازعين! وهذا يدلنا على مقدار ما وصلت إليه الخلافة من ضعف! ويلاحظ أن سنجر بن ملكشاه كان قد انضم إلى أخيه محمد في صراعه مع بركيارق، ويرجع السبب في ذلك لكونهما كانا ولدين لأم واحدة، وقد انتهت الحرب بين محمد وبركيارق سنة ٤٩٧هـ، إذ عُقد الصلح بين الطرفين في هذه السنة، يقول السيوطي: «إن الحروب لما تطاولت بينهما وعم الفساد وصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والسلطنة مطموعًا فيها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قادرين.. دخل العقلاء بينهما في الصلح وكتبت العهود والأيمان والمواثيق»(٣).

ولقد تقرر أن يكون للصلح شروط تتمثّل في:

---

(١) الصلابي: دولة السلاجقة ص١٣٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٢٨ تدمرى.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٠٥.



- ألا يعترض بركيارق أخاه محمد في الطبل.
- ألا يذكر اسم بركيارق بجانب اسم محمد في البلاد التي صارت له.
- أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء.
- ألا يعترض أحد العسكرين الآخر في داخل حدود كل منهما.
- أن يمتد نصيب محمد من نهر اسبيندروذ[(١)]، إلى باب الأبواب[(٢)]، وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، ويكون له في العراق البلاد التي كانت تحت حكم سيف الدولة صدقة بن مزيد، وأرسل بركيارق إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله الرسل حاملة شروط وقواعد الصلح بينه وبين أخيه محمد، فما كان من الخليفة إلا أن أجابه وأمر بإقامة الخطبة لبركيارق سنة ٤٩٧هـ[(٣)].

وقد عين بركيارق سنجرَ واليًا على خراسان، لما يتمتع به من هيبة كبيرة وخبرة بقواعد وقوانين السلطنة والحكم في البلاد مما جعل حكمه يستمر واحدًا وستين عامًا، منها عشرون عامًا ملكًا على خراسان من قِبل أخيه بركيارق، وواحد وأربعون عامًا سلطانًا للسلاجقة، ومن هنا يتبين أنه بعدما طالت الحروب والنزاعات من أبناء السلطان ملكشاه، وما ترتب على ذلك من ويلات لتلك الحروب من سفك الدماء، والدمار والخراب الذي عم البلاد وانتشر بسبب النزاع على عرش السلطنة، مما أدى إلى ضعف وتفكك السلاجقة –أدرك الإخوة المتصارعون ما عم البلاد من خراب فتداعوا إلى الصلح[(٤)].

لكن سرعان ما تُوفى السلطان بركيارق في سنة ٤٩٨هـ ببروجرد[(٥)] على أثر مرض أصابه، وقد عين السلطان بركيارق قبيل وفاته ابنه ملكشاه وليًا لعهده، وكان طفلًا صغيرًا لم يبلغ الخامسة من عمره آنذاك ولذلك عين الأمير أياز أتابكًا له، وسار الأمير أياز وبرفقته

---

(١) يطلق عليه النهر الأبيض وهو على بعد عدة فراسخ من همذان.

(٢) دربند شروين هو باب الأبواب. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٤٤٩. وهي الآن ثاني أكبر مدينة في جمهورية داغستان الإسلامية الواقعة على الجهة الغربية من بحر قزوين.

(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٧٨.

(٤) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٧٨.

(٥) بروجرد: بلدة بين همذان وبين الكرخ، كانت تعدّ فى القرى، ثم كبرت وصارت مدينة حصينة كثيرة الخيرات. البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ١٨٩. وهي الآن مركز محافظة لورستان في شرق إيران ومعظم أهلها من الأكراد.

ملكشاه بن بركيارق إلى بغداد ونال موافقة الخليفة العباسي المستظهر بالله بإقامة الخطبة له في بغداد ولقبه بلقب جلال الدولة.

وكان السلطان محمد وقتذاك قد توجّه إلى الموصل باعتبارها من الأقاليم التي دانت له بعد الصلح بينه وبين أخيه السلطان بركيارق، وما كان من واليها جكرمش إلا أنه رفض تسليمها إياه مدعيًا بأن ما وصل إليه من كتب السلطان بركيارق بعد الصلح تأمره ألا يسلمها إلى غيره، مما اضطر السلطان محمد إلى محاصرتها، ولما وصل الخبر بوفاة السلطان بركيارق إلى جكرمش لم يكن أمامه مفر من أن يبذل الطاعة للسلطان محمد، وأن يسلم الموصل له[١].

وبعد تسلم الموصل أسرع السلطان محمد إلى بغداد بعدما أقيمت الخطبة بها لملكشاه بن بركيارق ودخلها من الجانب الغربي وخطب له في مساجد هذا الجانب، بينما كانت الخطبة قائمة باسم جلال الدولة ملكشاه بن بركيارق في الجانب الشرقي ومن ثم أصبح هناك سلطانان في وقت واحد، واستشار الأتابك أياز أتباع السلطان ملكشاه بن بركيارق فيما يفعله مع السلطان محمد، فاستقر بهم الرأي على قتاله ومنعه من السلطنة ولكن وزيره الصفي أبا المحاسن، أشار عليه بالصلح مع السلطان محمد وتسليمه السلطنة، فأرسل أياز وزيره الصفى أبا المحاسن إلى السلطان محمد طلبًا للصلح، وتسليمه السلطنة، واعتذاره عما بدر منه، وطلب العهد والأمان لملكشاه بن بركيارق ولنفسه وللأمراء الذين معه، وأجاب السلطان محمد الأمير أياز إلى ما التمسه منه[٢].

وقد أصبحت السلطنة لمحمد دون منازع وخطب له في سنة ٤٩٨هـ، وقد حكم أكثر من ثلاثة عشر عامًا عمّت الفوضى في أثنائها جميع أنحاء الدولة فضعف الشرق الإسلامي أمام الصليبيين في بلاد الشام وأمام القوات الأخرى المعادية في جوف الدولة الإسلامية وأهمها الطائفة الإسماعيلية.

وانقسمت الدولة السلجوقية بعد وفاة بركيارق وأصبح كل جزء من الدولة السلجوقية تابعًا لوالٍ مستقل، فالأجزاء الشرقية تخضع لحكم سنجر، والأجزاء الشمالية تخضع لحكم أخيه محمد، وبلاد الشام تحت سيطرة أبناء تتش، وآسيا الصغرى تحت حكم أبناء سليمان بن

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٥٠٤ تدمري.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٥٠٥، ٥٠٦ تدمري.

قتلمش وتفككت وحدة الدولة عما كانت عليه في عهد السلاجقة العظام.

ومع هذا التفكك حاول السلطان محمد أن يفرض سيطرته على العراق الذي كان خارجًا عن السيطرة العباسية والسلجوقية على السواء، وواقع تحت حكم القبائل العربية المنتشرة فيها من الشمال إلى الجنوب، وخاصة بني مزيد الأسديين، ففي عام ٥٠١ هـ عصاه صاحب مدينة الحلة وتكريت في تسليم أحد المطلوبين، فما كان من السلطان إلا أن «أرسل إليه جيشا فهزموا جيش صدقة، وقد كان جيشه عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل، وقتل صدقة في المعركة ، وأسر جماعة من رؤوس أصحابه وأخذوا من زوجته خمسمائة ألف دينار، وجواهر نفيسة»[١].

وقد كان محمد بن ملكشاه ممن يحبون الاستماع والإصغاء لنصائح العلامة أبي حامد الغزالي وأخذ ببعضها فقد حرص على العدل والإحسان وتقريب أهل الدين والمعرفة، كما كان له مجهوده الكبير في الجهاد ضد الباطنية الإسماعيلية والحد من خطرهم وتدمير بعض معاقلهم كقلعة شاه دُز وغيرها، كما حاصر قلعة الألموت أكبر معاقلهم مدة ست سنوات كاملة.

وفي سنة ٥١١ هـ توفي السلطان محمد بن ملكشاه، لقد كان هذا السلطان «فحل آل سلجوق، وله بر في الجملة، وحسن سيرة مشوبة، فمن عدله أنه أبطل ببغداد المكس والضرائب، ومنع من استخدام يهودي أو نصراني، وكسا في نهار أربع مئة فقير، وكان قد كف مماليكه عن الظلم، ودخل يوما إلى قبة أبي حنيفة، وأغلق على نفسه يصلي ويدعو»[٢].

لقد كان محمد بن ملكشاه «من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، عادلا رحيما، سهل الأخلاق، محمود العشرة، ولما حضرته الوفاة استدعى ولده محمودا وضمه إليه وبكى كل منهما، ثم أمره بالجلوس على سرير المملكة، وعمره إذ ذاك أربع عشرة سنة، فجلس وعليه التاج والسواران وحكم، ولما توفي أبوه صرف الخزائن إلى العساكر وكان فيها أحد عشر ألف ألف دينار، واستقر الملك له، وخطب له»[٣].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٠٦، ٥٠٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٣.

وقفة مع العلاقات العباسية السلجوقية

عاصر سلاطين السلاجقة العظام في الفترة ما بين سنة ٤٤٧هـ إلى سنة ٥١٢هـ ثلاثة خلفاء عباسيين هم على التوالي وفترة حكمهم، القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧هـ)، والمقتدي بأمر الله (٤٦٧ – ٤٨٧هـ)، والمستظهر بالله (٤٨٧ – ٥١٢هـ).

وقد بدأت العلاقة بين الطرفين ودية؛ فقد كان من مصلحة العباسيين أن ينهوا السلطة البويهية ويقضوا على تمرد البساسيري ويوقفوا تغلغل النفوذ الفاطمي في أقاليمهم، كما كان من مصلحة السلاجقة أن يحصلوا على تأييد الخلافة العباسية لشرعية نفوذهم في بلاد فارس والأناضول والعراق.

وقد امتدت العلاقة إلى أبعد من ذلك عندما عقدت مصاهرات بين طغرلبك والقائم بأمر الله، وبين ملكشاه والخليفة المقتدي، ولم يكن بوسع هذا الخليفة أن يرفض؛ فحين رفض هذا الأخير طلب ملكشاه هدده بقوله: «لابد أن تترك لي بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت».

وحين جاء المستظهر بالله للخلافة لم يكن قد تعدى العشرين من عمره بعد، ورغم الانقسامات والحروب بين أمراء السلاجقة في عهده خاصة بين بركيارق ومحمود ثم بركياروق ومحمد لم يكن للمستظهر من القدرة أو الرغبة في انتهاز الفرصة لضرب السلاجقة واستعادة سلطة الخلافة الدنيوية[١].

واللافت أن المستظهر استثمر فرصة الصفاء والاحترام القائمة بينه وبين السلطان محمد بن ملكشاه فأراد أن يوثق صلته أكثر فأكثر بالبيت السلجوقي، فأرسل سنة ٥٠٢هـ إلى السلطان يطلب أخته تركان خاتون الثانية بنت ملكشاه زوجةً له، فاستقبل طلبه بالترحاب[٢].

والحق أن عصر السيطرة السلجوقية منذ دخول طغرلبك بغداد وقضائه على الدولة البويهية وحتى وفاة حفيده محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ لم يختلف عصرهم عن عصر التسلط

(١) فاروق عمر: الخلافة العباسية، السقوط والانهيار ٢/ ١٧٩، ١٨٠.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٧/ ١١٢ عطا.

البويهي من ناحية الموقف إلا في بعض المظاهر الشكلية، أما من الناحية الفعلية؛ فقد بقي الخلفاء العباسيون مسلوبي السلطة، قليلي النفوذ في السياسة والإرادة، ورغم أن السلاطين السلاجقة لم يتخذوا منصب أمير الأمراء أو يستقروا في بغداد كما فعل البويهيون إلا أنهم لم يتنازلوا عن سلطتهم الواسعة بحيث ترك الخليفة لا عمل له إلا إدارة إقطاعاته والتهديد بتأثير نفوذه الديني كلما زادت ضغوط الترك عليه في العصر العباسي الثاني والبويهيين ثم السلاجقة الأقوياء، بل في ظل تشاكسهم وصراعهم على السلطة، لكن يبدو أن مرحلة الصحوة العباسية ومقاومتها للنفوذ السلجوقي ستبدأ في الظهور والنمو بل والسعي للقضاء على السلاجقة لاحقًا.

سلاجقة الشام .. بين رضوان ودقاق والانهيار!

أوصى تُتش بن ألب أرسلان ملك السلاجقة على الشام أن يئول الملك من بعده لابنه رضوان الذي استقر في مدينة حلب وكان عنده أخوه دقاق الذي أطمعه الأمير ساوتكين الناقم على رضوان لقوته وسطوته وكان واليًا لقلعة دمشق، كتب إليه سرًا يدعوه ليملكه مدينة دمشق فهرب من أخيه فأرسل رضوان في طلبه خيلًا فلم تدركه، فلما وصل إلى دمشق نصبه الأمير ساوتكين ملكًا في دمشق وساعده على ذلك كثير من خاصة أبيه.

أشعل ذلك الفوضى واقتربت الشام من الحرب الأهلية، وكان يساند دقاق ياغي سيان أمير أنطاكية، الذي لم يكن لديه مشاكل مع رضوان، إلا أنه كان يبغض أتابكه جناح الدولة حسين؛ وانضم إلى ياغي سيان ودقاق إلغازي حاكم القدس، وتحالف رضوان مع شقيق إلغازي سقمان.

وفي هذه الأثناء وصل معتمد الدولة طغتكين ومعه جمهور من خواص أبيه تتش الأول من خراسان فقد كان من جملة من قبض عليهم بركياروق سنة ٤٨٨هـ في حملة تُتش التي قتل فيها فمال إلى دقاق وثبت الأمر له(١).

وفي سنة ٤٩٠هـ وصل رضوان إلى دمشق لفتحها وانتزاعها من يد أخيه دقاق فلم ينجح فطمع دقاق في الاستيلاء على ملك رضوان واتجه بجيشه نحو مدينة حلب فاستنجد أخوه

(١) القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٣.

رضوان بقبائل التركمان على أخيه فقاتله فانهزم دقاق، وانتهى الأمر بالصلح بينهما على أن يُخطب لرضوان في مدينة دمشق وأنطاكية قبل دقاق[1].

وطيلة شتاء ٤٩٠ – ٤٩١هـ كانت أنطاكية محاصرة من قِبل الصليبيين، وطلب ياغي سيان وابنه شمس الدولة الغوث من دقاق أمير دمشق، لكن في ٢٢ محرم ٤٩١هـ، انهزم المدد الذي كان يرأسه دقاق نفسه، وانسحب دقاق إلى حمص، وقد ضم دقاق لاحقًا قواته مع قوات كربغا من الموصل ليهاجما الصليبيين بعد أن احتلوا أنطاكية في رجب ٤٩١هـ، ولكن أثناء المعركة، فرّ جنود دقاق وانهزم كربغا، وبينما كان دقّاق مشغولًا في الشام، فقد ممتلكاته في جزيرة الفرات حين استولى عليها بعض أتباعه المتمردين؛ غير أنه في سنة ٤٩٢هـ استرد ديار بكر[2].

وفي ذي الحجة سنة ٤٩٣هـ نصب دقاق كمينًا لبلدوين الأول من الرها عند نهر الكلب، خارج بيروت، حين كان بلدوين في طريقه إلى القدس ليخلف أخاه جودفري كملك. إلا أن رجال بلدوين أمَّنوا ممرًا ضيقًا لم تستطع قوات دقاق اختراقه؛ وانتصر بلدوين وواصل طريقه إلى القدس.

وفي سنة ٤٩٦هـ استولى دقاق على حمص عندما اغتيل جناح الدولة الأتابك السابق لرضوان. ثم سقط دقاق مريضًا في السنة التالية ٤٩٧هـ، وعملًا بنصيحة أمه عين الأتابك الخاص به طغتكين ليصبح أتابكًا أي أميرًا مربيًا وقائدًا عسكريًا لابنه الصغير تُتش الثاني.

وقد توفي دقاق في ١٢ رمضان من هذه السنة ٤٩٧هـ، وسرعان ما أطاح طغتكين بأسرة دقاق ليؤسس أسرة بوري، أو أتابكية دمشق التي ستحكم دمشق لنصف قرن.

أما رضوان فقد حكم إمارة حلب مدة عشرين عامًا منذ أن تسلم الحكم بعد مقتل أبيه تُتش في سنة ٤٨٨هـ حيث توفي في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٥٠٧هـ، والحق أنه كان قبيح السيرة، قاسي القلب على المسلمين، لا يخرج لمحاربة الصليبيين الذين يُغيرون على حلب ذاتها، والمعروف أن ما اتسم به حكم رضوان مع سائر المسلمين من التذبذب والفتور أسهم إلى حد كبير في توطيد ملك الصليبيين في بلاد الشام، وإن كانت الميزة التي تُحسب له أن

(١) القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٧، ومحمد كرد علي: خطط الشام ١/ ٢٤٦.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ص٢٣٩، وكامل الغزّي: نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/ ٧٠.

نعمت حلب بنوع من الاستقرار لم تعرفه من قبل كما لم تنعم به خلال السنوات القادمة في ظل حكم الأوصياء وحتى سقوط حلب بيد الزنكيين[١].

وقد كانت العلاقات بين الخلافة العباسية وبين ابني تُتش رضوان ودقاق ضعيفة؛ فقد حاول رضوان اتباع سياسة مستقلة عن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وبخاصة أن السلطان بركياروق التفت إلى التوسّع في المشرق ولم يحاول ضم بلاد الشام إلى أملاك السلاجقة العظام، ومن ثم اتصفت العلاقة بين الطرفين بالضعف وبأنها كانت في أضيق الحدود، غير أنها كانت تقوى أحيانًا في أوقات الشدة والأزمات من واقع الوفود التي كانت تصل إلى بغداد لطلب المساعدة ضد الصليبيين الذين كانوا يجوثون آنئذ في بلاد الشام دون مقاومة مؤثرة من الأخوين رضوان ودقاق[٢].

وفي المقابل كانت وفود العباسيين متصلة بسلاجقة الشام؛ فقد «وصل أبو القاسم عبد الواحد بن التميمي إلى دمشق في رسالة من الخليفة المستظهر بالله في يوم الاثنين الرابع وعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وأربعمائة وخرج الوزير والعسكر وأهل البلد فاستقبلوه وجاء في صحبته خلع للملك دقاق وللوزير ولطغتكين ولغسيان صاحب أنطاكية وأنزل في حارة الخاطب»[٣].

البوريون يحكمون الشام

ترك دقاق بن تتش صبيًا صغيرا لم يبلغ عامه الثاني وعين القائد المحنك طغتكين التركي وصيًا عليه أو أتابكًا كما كان يُسمى آنذاك، لكن سرعان ما أطاح طغتكين بحكم سلاجقة دمشق سنة ٤٩٧هـ، وبدأ حكمه وحكم أسرته الذي استمر لنصف قرن تقريبًا سقطت فيها دولتهم على يد الزنكيين سنة ٥٤٩هـ.

واجه طغتكين عدة تحديات أبرزها الصليبيين والحشّاشين الإسماعيلية في الشام، وقد كانت خطته هي الشدة واللين، الترغيب والترهيب مع الصليبيين، فإذا ما أحسّ منهم غدرًا

(١) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ٨/ ٣٦٥٩- ٣٦٦٧، وانظر: محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص١٥٩- ١٧٦.
(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص١٦٨.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٧/ ٢١٥.

وهجومًا وشيكًا على مملكته دمشق وهي من حماة في الشمال إلى دمشق وريفها في الجنوب سارع إلى محاربتهم والنيل منهم كما حدث في أعوام ٤٩٩هـ و ٥٠٢هـ و٥٠٥هـ، و٥١٢هـ، و٥١٤هـ[١].

وكانت حملته العسكرية ضد الصليبيين سنة ٥٢٠هـ هي الأكبر بين الجانبين، وكان طغتكين قد طلب من تركمان ديار بكر في الشمال أن يمدوه بمدد من عندهم فجاءت طائفة إليه، ولحقت به عند قرية يقال لها سقحبا بالقرب من دمشق، واللافت أن طغتكين ومن معه هُزموا في هذه المعركة وقد تركوا التركمان خلفهم، فلما رأى هؤلاء أن معسكر الصليبيين يغصُّ بالرجّالة[٢] قتلوهم ونهبوه وعندما «رجع الفرنج من أثر المنهزمين ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة تموا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها»[٣]!

لكن في المقابل لم يشعر طغتكين بحرج في مخالفته للصليبيين كما حدث سنة ٥٠٨هـ؛ ذلك أنه قد وقعت وحشة بينه وبين السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه الذي ظن أنه قتل عامله على الموصل مودود بن التونتكين أثناء تواجده في دمشق، وكان قد قتله باطني، ومن ثم سير السلطان حملة عسكرية لتأديبه في العام التالي سنة ٥٠٩هـ بقيادة صاحب مدينة همذان برسق بن برسق؛ بيد أن هذه الحملة قد باءت بالفشل، وسرعان ما عاد السلطان محمد من أصفهان إلى بغداد في ذي القعدة ليأتي إليه طغتكين نادمًا تائبًا على عصيانه، ويقبل منه السلطان ندمه وتوبته ليعيده معززًا مكرمًا إلى ولاية دمشق[٤].

قال سبط ابن الجوزي عن إكرام السلطان والخليفة له: «شُرّف بالخلع الخليفية والسّلطانية، وكُتب له المنشور بولاية الشام حربًا وخراجًا، وإطلاق يده في ارتفاعه على حسب اختياره، فكان منه بعد البسملة: هذا منشور أمر بإنشائه السلطان المعظّم غياث الدنيا والدين، أطال الله بقاءه، وأعزّ أولياءه، ونصر لواءه، وخذل أعداءه، وحمى حماه للأمير الأجل الأسفهسلار الكبير ظهير الدين أتابك أدام الله تأييده، لما كان من تمسّكه من الطاعة بأحكم

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢٤٣، ٢٦٠- ٢٦٤، ٢٨٤- ٢٨٩، ٣١٨، ٣١٩.
(٢) الفرق العسكرية من المشاة.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٤٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٦١.

علائقها، واعتصامه من الخدمة بأوكد وثائقها، ولما أجْلت التجارب منه عين الناصح الأريب، والمهذب اللبيب المندرج في مراقي الرتب السنية بالمساعي الرضية، والذب عن حوزة الإسلام، ومواقفه المشهورة العظام، ومقارعة الأعداء، والاستقلال بعظيم الأعباء، فرأيناه أحق بملابس الإنعام، وبما حُبي به من الكرامة بأوفر الإقسام، ففوضنا إليه أمور الشام، وذكر ما جرت به العادة في العهود»(١).

ومثل هذه الوثيقة التي نراها تدلل على مدى ولائه الكامل والتام للدولة السلجوقية التي كانت لا تزال – رغم ما عصف وما سيعصف بها – قوية ذات سيادة على فارس والعراق والشام.

بداية الحملات الصليبية

كانت الحروب الصليبية التي جردتها أوربا الغربية على المشرق الإسلامي وإفريقيا الشمالية في القرون الثلاثة الخامس والسادس والسابع انعطافًا خطيرًا في تاريخ أوربا العصور الوسطى، لأنها كانت في الظاهر مشروعًا لخلاص بيت المقدس وقبر المسيح من أيدي المسلمين، ولكنها استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأرض المقدسة وبلاد الشام وكل ما طالته أيديهم.

وبغض النظر عن سياقات وماهيات مصطلح «الحروب الصليبية» وكثرة الدراسات التاريخية التي تناولته بالدرس والفحص، إلا أن ما يهمنا في هذا الكتاب هو التعريف بهذه الحروب ومدى تأثيرها على العالم الإسلامي في ظل الخلافة العباسية وبرؤية عباسية كذلك.

لقد كان السبب المباشر لانطلاق الحملة الصليبية الأولى، المجمع الديني الذي عقده البابا أوربان الثاني Urban II في بياتشنزا Piacenza في إيطاليا في مارس ١٠٩٥م/ ٤٨٨هـ ودعا إليه الأساقفة من إيطاليا وبورغونية وفرنسا... وغيرها. ومَثُلَت سفارة من القسطنطينية أمام هذا المجمع، ومعهم طلب من الامبراطور البيزنطي إلى البابا، لكي يحث المحاربين الغربيين على مساعدة الامبراطورية الشرقية وإنقاذها من السلاجقة المسلمين الذين كانوا قد سيطروا على أقسام واسعة من آسيا الصغرى واسترجعوا أنطاكية من البيزنطيين. ووجدت

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص٦١١ مسفر.

البابوية في السفارة البيزنطية وطلب النجدة تحقيقًا للسمو البابوي على الملوك والإقطاع معًا والسيادة على العالم المسيحي، وفرصة لصرف خطر النورمانديين عن صقلية وجنوبي إيطاليا، وتوجيه نشاطهم للقتال في حرب مقدسة ضد العرب والإسلام، وفي نوفمبر ١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ، ألقى البابا أوربان الثاني خطبة في الحشود التي اجتمعت في حقل فسيح بعد انتهاء مجمع كليرمونت الديني، دعا فيها إلى شن حملة مقدسة مسلحة باسم الرب بوصفه نائبًا عنه في الأرض، وحث ملوك الغرب على نبذ خلافاتهم والانصياع إلى أوامره، ليتفرغ مسيحيو الغرب لما أسماه البابا حرب الله Guerre de Dieu أي الحرب المقدسة ضد العرب والمسلمين، وأشار البابا إلى منح الغفران لكل من سيشارك في هذه الحملة، سواء من مات في الطريق إلى الأرض المقدسة، أو قتل في الحرب ضد المسلمين(١).

انقسمت الحملة الصليبية الأولى إلى مرحلتين: الحملة الشعبية أو حملة الغوغاء والعامة، وحملة الأمراء، قاد الحملة الشعبية (٤٨٩-٤٩٠هـ/ ١٠٩٥-١٠٩٦) الراهب بطرس الناسك، وقد ضمت تشكيلة متنوعة من المشردين وقطاع الطرق والفلاحين وغيرهم، وانضمت إلى مجموعة أخرى بقيادة والتر المفلس Walter der Arme ومارسوا السلب والنهب، وحتى الكنائس لم تنج من إجرامهم، وهاجم سلاجقة الروم الحملة وأبادوها عن بكرة أبيها، وقتل والتر المفلس وهرب الناسك إلى أوربا ثم التحق بحملة الأمراء(٢).

لكن سرعان ما تغيّرت هذه الأوضاع في ظل الحشود الغفيرة من الفرسان والرجالة والآلات العسكرية القوية التي صاحبت حملة الأمراء (٤٩٠-٤٩٣هـ/ ١٠٩٦-١٠٩٩م) فقد كانت حملة منظمة قادها كثير من أمراء أوربا، منهم الدوق جود فري دي بويون Godfrey d'Bouillon وأخوه بلدوين من فرسان اللورين، وريموند أمير تولوز (طلوشة) وبصحبته المندوب البابوي، والكونت بوهمند من سادة ترنتو، وكان يحلم بإقطاع مملكة له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية في الشرق الأدنى، وكان معه ابن أخيه تانكريد الهوتفيلي Tancred of Hauteville.

---

(١) سهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٢٤٤- ٣٤٦.
(٢) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص٩٥- ٩٨.

لقد تم الاستيلاء على القدس، وشعر الصليبيون أنهم حققوا واجبهم الديني باستعادة المدينة المقدسة. وقد قسم الصليبيون هذا الإقليم إلى أربع إمارات:

- إمارة الرُّها ٤٩٢هـ، وتشمل أعالي نهري دجلة والفرات، وتقرب حدودها الجنوبية الغربية من حلب، وكانت عاصمتها الرها التي توجد في بعض الخرائط باسم إدريسّا.
- إمارة أنطاكية في السنة ذاتها ٤٩٢هـ، وتقع في الإقليم الشمالي جنوب غرب إمارة الرها .

- إمارة طرابلس وهي تقع في شريط ضيق على الساحل وهي أصغر هذه الإمارات وسقطت في أيديهم سنة ٥٠٣هـ .
- مملكة القدس في شعبان سنة ٤٩٣هـ، وتمتد حدودها الشرقية من قرب بيروت الحالية، ثم تتبع نهر الأردن حيث تتسع قليلا، وتتجه جنوبًا إلى خليج العقبة، وكانت عاصمتها القدس نفسها(١).

---

(١) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص٩٨- ١٠٨.



أما الذي مهد الطريق لهذا الاجتياح الصليبي، فهو التمزق السياسي الذي كانت تعاني منه بلاد الشام، ففي ظل الاجتياح الصليبي نرى أن «ملوك الشام مشتغلون بقتال بعضهم بعضًا»[1].

وتُؤكد رواية ابن كثير سبب دخول الإفرنج إنطاكية ومعرة النعمان في عام ٤٩١هـ، ما ذُكر سابقًا بل وتزيد على ذلك بعدم وجود قوة إسلامية منظمة تدافع عن هذه البلدان، قال: «في جمادى الأولى منها (أي سنة ٤٩١هـ) مَلك الإفرنج مدينة إنطاكية بعد حصار شديد، بمواطأة بعض المستحفظين[2] على بعض الأبراج، وهرب صاحبها باغيسيان في نفر يسير، وترك بها أهله وماله، ثم إنه ندم في أثناء الطريق ندما شديدا على ما فعل، بحيث إنه غشي عليه وسقط عن فرسه، فذهب أصحابه وتركوه، فجاء راعي غنم فقطع رأسه وذهب به إلى ملك الفرنج، ولما بلغ الخبر إلى الأمير كربوقا صاحب الموصل جمع عساكر كثيرة، واجتمع عليه دقاق صاحب دمشق، وجناح الدولة صاحب حمص، وغيرهما، وسار إلى الفرنج فالتقوا معهم بأرض إنطاكية فهزمهم الفرنج وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وأخذوا منهم أموالا جزيلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم صارت الفرنج إلى معرة النعمان فأخذوها بعد حصار فلا حول ولا قوة إلا بالله»[3].

وكان من اللافت عجز الخلافة العباسية عن القيام بدور فعال في حركة الجهاد والمقاومة أمام المد الصليبي، وخاصة المستظهر بالله؛ فجل ما فعله أنه في عام ٤٩٢هـ وبعد سقوط بيت المقدس أرسل كبار علماء بغداد إلى الأقاليم ليستحثوا الأمراء والجماهير للمشاركة في جهاد الصليبيين؛ فإنه لما «ورد المستنفرون[4] من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي فأوردوا في الديوان[5] كلاما أبكى وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا ما دهم المسلمين ... من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤.

(٢) المستحفظون: طائفة عسكرية مهمتها حماية القلاع والحصون والأبراج. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٣٩٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٩١.

(٤) من جاءوا من الشام إلى بغداد جزعين فزعين مستصرخين الخلافة العباسية ورعاياها، من هول ما رأوا من سقوط المدن الإسلامية في الشام في أيدي الصليبيين. راجع مادة استنفر: المعجم الوسيط ٢/ ٩٣٩.

(٥) الديوان: ديوان الخلافة ومقر استقبال السفراء.

ونهب الأموال فلشدة ما أصابهم أفطروا فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني وأبو الوفا بن عقيل وأبو سعيد الحلواني وأبو الحسين ابن سماك فساروا إلى حلوان فبلغهم قتل مجد الملك البلاساني فعادوا من غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة»[١].

والبلاساني هو وزير السلطان بركياروق، وقد كانت الخلافات الداخلية قد نشبت بين أمراء بركياروق بسبب تواطؤ البلاساني في قتل عدد منهم، فضلا عن الحرب التي كانت دائرة ضد محمد ابن ملكشاه الخارج على طاعة أخيه بركياروق.

إذن أدى هذا الاقتتال الداخلي في الوضع السلجوقي إلى جمود المساعي العباسية لمساعدة بلاد الشام في حربها ضد الصليبيين؛ ذلك أن المستظهر بالله كان كأبيه لا يملك من أمره شيئًا.

وأما الدولة الفاطمية في القاهرة فقد كانت تمر بمرحلة الضعف والشيخوخة، وتعاني أزمات سياسية نتيجة ضعف الخلفاء وتكالب الأعداء وتنافس الوزراء على الحكم، فسقطت المدن الشامية التي كانوا مستولين عليها تباعًا بداية من صور مرورًا ببيروت وصيدا وعكا وبالطبع بيت المقدس وفلسطين في أيدي الصليبيين رغم المقاومة التي كان عمالهم على هذه المدن يقومون بها أثناء محاصرة ومهاجمة الصليبيين لها، وإن كانت مقاومة يائسة ضعيفة في معظم الأوقات.

والحق أن تقدم السلاجقة في بلاد الشام أدّى إلى قطع الدعوة الفاطمية من أغلب مدنه، وكان ذلك بالتزامن الذي بدأت فيه مقدمات الحروب الصليبية، ولم يدرك الوزير الأفضل وهو صاحب السلطة الحقيقية في مصر الأخطار المحدقة به وبالدولة، ولا حقيقة أهداف الغزو الصليبي؛ حتى أنه ظن أن باستطاعته التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة[٢]!

وبحلول العام ٤٩٥هـ أضحى الصليبيون يحتلون «القدس وفلسطين إلا عسقلان؛ ولهم من بلاد الشام يافا، وأُرسوف، وقيسارية، وحيفا، وطبرية، والأردن، ولاذقية، وأنطاكية؛ ولهم من الجزيرة الرُّها، وسروج. ثم ملكوا جبيل، ومدينة عكا، وأفامية، وسرمين من أعمال حلب؛ وبيروت، وصيدا، وبانياس، وحصن الأثارب»[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٩، ٢٠.

(٢) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، تفسير جديد ص١٥٩.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/ ٢٨.



لكن من اللافت أننا نجد تعاونًا بين سلاجقة الشام والفاطميين في بعض الأوقات الحرجة أثناء مواجهة العدو الصليبي، ففي عام ٥٠٥هـ «حاصرت الفرنج مدينة صور، وكانت بأيدي المصريين، عليها عز الملك الأعز من جهتهم، فقاتلهم قتالا شديدا، ومنعها منعا جيدا، حتى فني ما عنده من النشاب والعدد، فأمده طغتكين صاحب دمشق، وأرسل إليه العدد والآلات فقوي جأشه وترحلت عنه الفرنج في شوال منها»(١).

أما السلاجقة الكبار وبرغم التصارع والتشرذم الذي كان قائمًا بين الأخوين بركياروق ومحمد ابني السلطان ملكشاه، فإن هذا لم يمنع من بثِّ الحملات العسكرية بالتعاون مع العباسيين وكبار القادة العرب في العراق لمواجهة الصليبيين في الشام؛ وهي حملات تراوحت نتائجها بين الفشل والنجاح، فقد بذل كل من بركياروق ومن بعده أخوه محمد ثم محمود بن محمد بن ملكشاه مجهودًا ملموسًا في تسيير الحملات العسكرية لمقاومة الصليبيين بانتظام، وقد كان بالطبع للرأي العام الإسلامي في العراق والشام على وجه الخصوص أكبر الأثر في تسيير هذه الحملات بانتظام، وكانت في الأغلب من أمراء المقاطعات والمدن الكبرى السلجوقية في إيران وشمال العراق والشام، وقد رأينا مجهود سلاجقة الشام ومن بعدهم أسرة بوري الملموس في جهاد الصليبيين وإن لم يحرر كثيرًا من المدن المحتلة فقد عمل على إيقاف التمدد الصليبي ناحية الشرق.

ففي سنة ٤٩١هـ «وردت كتب السلطان بركياروق إلى جميع الأمراء يأمرهم بالخروج مع الوزير ابن جهير لحربهم واجتمعوا في بيت النوبة وبرز سيف الدولة صدقة فنزل بقرب الأنبار وضرب سعد الدولة مضاربة بالجانب الغربي ثم انفسخت هذه العزيمة ووردت الأخبار بأن الإفرنج ملكوا أنطاكية ثم جاءوا إلى معرة النعمان فحاصروها ودخلوا وقتلوا ونهبوا وقيل إنهم قتلوا ببيت المقدس سبعين ألف نفس(٢).

وفي عام ٤٩٣هـ حدثت مناوشات بسيطة بين المسلمين والفرنج، قام بقيادة المعارك هذه السنة سلاجقة الشام واستطاعوا أن يحققوا عدة انتصارات كبيرة، لكنها لم تكن تؤثر على سير المعارك بين الجانبين، يقول ابن كثير: «وفيها أقبل ملك الفرنج في ثلاثمائة ألف مقاتل فالتقى

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢١٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٠٥.

معه ستكين بن أنشمند طايلو أتابك دمشق الذي يقال له أمين الدولة، فهزم الإفرنج وقتل منهم خلقا كثيرا، بحيث لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف، وأكثرهم جرحى – يعني الثلاثة آلاف – وذلك في ذي القعدة منها، ولحقهم إلى ملطية فملكها»(١).

ومع ذلك لم يتوان الفرنج/ الصليبيون عن محاصرة كل ما تمتد إليه أيديهم من حصون وقلاع، ففي عام ٤٩٤هـ أيضًا ملك الصليبيون «قيسارية وسروج، وسار ملك الفرنج كندر(٢) – وهو الذي أخذ بيت المقدس – إلى عكا فحاصرها فجاءه سهم في عنقه فمات من فوره لعنه الله»(٣).

وكما كان للسلاجقة مناوشاتهم شبه المستمرة مع الصليبيين كان للعبيديين مناوشتهم الأخرى التي أظهرت بالفعل مدى العجز الحقيقي الذي وصل إليه المصريون حينئذ، ففي عام ٤٩٨هـ «كانت حروب كثيرة ما بين المصريين والفرنج، فقتلوا من الفرنج خلقا كثيرا، ثم أديل عليهم الفرنج فقتلوا منهم خلقا»(٤).

ومع تشرذم البيت السلجوقي بصورة شبه نهائية، إلا أن ذلك لم يكن يمنع رجال الشام من الاستغاثة بسلاجقة العراق، وطلب العون منهم في جهاد الصليبيين، وكان السلطان يعينهم في أوقات كثيرة، ففي عام ٥٠١ هـ «قدم القاضي فخر الملك أبو عبيد على صاحب طرابلس إلى بغداد يستنفر المسلمين على الفرنج، فأكرمه السلطان غياث الدين محمد إكراما زائدا، وخلع عليه وبعث معه الجيوش الكثيرة لقتال الفرنج»(٥). وهو على كل حال جهد «لم يغن شيئًا»(٦).

وكان من المتوقع في ظل ضعف المقاومة الإسلامية أن تسقط طرابلس ففي عام ٥٠٣هـ زاد الصليبيون في توسعهم في الاستيلاء على المدن الشامية والساحلية فقد «أخذت الفرنج مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا الحريم والأطفال; وغنموا الأمتعة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٩٥.

(٢) كند فري.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٩٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٢.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٩.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٥/ ٧.

والأموال، ثم أخذوا مدينة جبلة بعدها بعشر ليال»[١].

واللافت أن الرأي العام في العراق وعلى رأسه ممثلوه الحقيقيون من الفقهاء والعلماء لم يكونوا راضين عن هذه القيادة السياسية والعسكرية المنبطحة والمتشرذمة أمام المد الصليبي في الشام، ومن ثم حاول بعض الفقهاء والعلماء بمجهود ذاتي متواضع منهم أن يجاهدوا هؤلاء، ففي العام التالي ٥٠٤هـ «تجهز جماعة من البغاددة من الفقهاء وغيرهم، للخروج إلى الشام لأجل الجهاد، وقتال الفرنج، وذلك حين بلغهم أنهم فتحوا مدائن عديدة، من ذلك مدينة صيدا في ربيع الأول، وكذا غيرها من المدائن، ثم رجع كثير منهم حين بلغهم كثرة الفرنج»[٢].

وإن المؤرخ ابن القلانسي (ت٥٥٥هـ) يذكر أن ثمة ثورة أحدثها الناس نصرة لأهل الشام؛ حيث عكّر صفو الخليفة للدرجة التي جعلته يطلب من السلطان محمد بن ملكشاه صراحة أن يأخذ على أيديهم، قال: «حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال ومنعوا الناس من الصلاة، والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان بما يسكنهم من إنفاذ العساكر والانتصار للإسلام من الإفرنج والكفار، وعاودوا في الجمعة الثانية المسير إلى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب، ووصلت عقيب ذلك الخاتون السيدة أخت السلطان زوجة الخليفة إلى بغداد من أصفهان ... واتفقت هذه الاستغاثة فتكدر ما كان صافيًا من الحال والسرور بمقدمها. وأنكر الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين ما جرى وعزم على طلب من كان الأصل والسبب ليوقع به المكروه فمنعه السلطان من ذلك وعذر الناس فيما فعلوه وأوعز إلى الأمراء والمقدمين بالعود إلى أعمالهم والتأهب للمسير إلى جهاد أعداء الله الكفار»[٣].

وبالفعل سير السلطان حملة مكونة من كبار أمرائه وهم «الأمير مودود صاحب الموصل

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢١١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢١٢.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢٧٦، ٢٧٧.

والأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر والأمير أيلبكي وزنكي ابنا برسق ولهما همذان وما جاورها والأمير أحمديل وله مراغة، وكوتب الأمير أبو الهيجا صاحب إربل والأمير أيلغازي صاحب ماردين والأمراء البيكجية باللحاق بالملك مسعود ومودود فاجتمعوا ما عدا الأمير أيلغازي فإنه سير ولده أياز وأقام هو فلما اجتمعوا وساروا إلى بلدة سنجار فتحوا عدة حصون للفرنج وقتل من بها منهم وحصروا مدينة الرها مدة ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها»(١) وبرغم العدة والعتاد إلا أن أمراء حلب ودمشق لم يأمنوا لهم فضلًا عن الخلاف الذي دب في أوصال هؤلاء القادة المذكورين، ولم تنجح هذه الحملة ورجعت على أعقابها في العام التالي ٥٠٥هـ(٢)!

وللأسف كان الخلفاء وسلاطين السلاجقة يحتفلون بالزفاف الملكي الذي هز بغداد من كثرة الترف الذي رآه الناس؛ فقد «قدمت خاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة إلى بغداد فنزلت في دار أخيها السلطان محمد، ثم حمل جهازها على مائة واثنين وستين جملا، وسبعة وعشرين بغلا، وزينت بغداد لقدومها، وكان دخولها على الخليفة في الليلة العاشرة من رمضان، وكانت ليلة مشهودة» (٣).

ويبدو أن تحركات بعض الفقهاء كان لها الوقع في نفوس أمراء الشام وشمال العراق، فقد اتحدوا أخيرا في مواجهة الصليبيين وكان لهم النصر في المعركة الإسلامية الصليبية الكبرى سنة ٥٠٧هـ «كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والفرنج في أرض طبرية، كان فيها ملك دمشق الأتابك طغتكين، ومعه صاحب سنجار وصاحب ماردين، وصاحب الموصل، فهزموا الفرنج هزيمة فاضحة، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وغنموا منهم أموالا جزيلة، وملكوا تلك النواحي كلها»(٤).

وبدءًا من عام ٥٠٧هـ يبدأ نجم عماد الدين زنكي في الصعود، وقد كان مقربًا من أمير الموصل البرسقي فقد «ولى السلطان محمد للأمير آقسنقر البرسقي الموصل وأعمالها، وأمره

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٤٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٤٣، ١٤٤، وسبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ص٥٣٨، ٥٣٩ وهي عنده في حوادث سنة ٥٠٤هـ.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢١٢.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢١٧.



بمقاتلة الفرنج، فقاتلهم في أواخر هذه السنة فأخذ منهم الرها وحريمها وبروج وسميساط[١].

وقد كانت أكبر حملة عسكرية سيّرها السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه إلى بلاد الشام تقدر بـ١٥ ألف مقاتل سنة ٥٠٩هـ بقيادة برسق بن برسق صاحب همذان وخوزستان، وهو أحد القادة المعروفين بمهاراتهم العسكرية؛ وذلك لتحقيق هدفين:

الأول: إعادة بسط سيطرة السلاجقة على كافة الإمارات الإسلامية في بلاد الشام وإقليم الجزيرة بعد أن تمكن حكامها من الاستقلال بإماراتهم عن الحكم السلجوقي أمثال طغتكين في دمشق، وإيلغازي الأرتقي في ديار بكر ولؤلؤ في حلب على أن يبدأ بمحاربة إيلغازي وطغتكين.

الثاني: محاربة الصليبيين في أنطاكية والرها[٢].

وظلت حملات السلاجقة العسكرية تترى بانتظام على بلاد الشام حتى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ قبل وفاة الخليفة المستظهر بعام واحد[٣].

* * *

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٠.

(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص١٧٩، ١٨٠.

(٣) قام بمقاومة الصليبيين بعد القضاء على سلاجقة الشام وانشغال سلاجقة العراق بأحوالهم وصراعاتهم كل من البوريين والأراتقة والزنكيين من بعدهم ثم الأيوبيين وسنعرض لموقف وجهاد كل هؤلاء في لمحات قادمة.



المسترشد بالله

(من ربيع الثاني ٥١٢ هـ إلى ذي القعدة ٥٢٩هـ)

في عصر المسترشد تبدأ تباشير الصحوة العباسية المؤقتة، صحوة لن تسمى كذلك إلا بالقضاء على السلاجقة الجاثمين على أنفاس العباسيين، لقد فشلت السياسة في تقوية وإرجاع النفوذ العباسي مرة أخرى، والحق أنه لا سياسة بين ضعيف وقوي، إنما السياسة للقوي، هذه المعادلة فهمها المسترشد وحاول من خلالها مناطحة السلاجقة، والذب عن نفسه، لكنه اصطدم بسلطان سلجوقي عنيد، وتلك كانت النهاية!

نشأته وتربيته

هو المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله ابن محمد بن القائم عبد الله بن القادر العباسي، ولد في بغداد في خلافة جده المقتدي عام ٤٨٦هـ، وخُطب له بولاية العهد وهو لا يزال صغيرًا.

وقد كان المسترشد بالله «أشقر الشعر أشهل العينين بوجهه نمش»(١). وقيل كان المسترشد «أسمر اللون رقيق البشرة تامّ الطول في مقدم لحيته طول»(٢). وكان نقش خاتمه «من توكّل على الله كفاه»(٣).

نشأ المسترشد بالله في كنف والده المستظهر وكان أحب أولاده إليه، وقد نال حظًا وافرًا من العلم على يد مؤدبه الخاص الشيخ أبو البركات أحمد بن عبد الوهاب السيبي وكان من كبار رجال الحديث في عصره ومثله الإمام علي بن أحمد الرزاز(٤).

وقد حفظ المسترشد القرآن وعلوم الحديث والكثير من أشعار العرب وآدابهم؛ حتى

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٩٧.
(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٠.
(٣) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٠.
(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٢٦٣.



كان له «خط بديع، ونثر صنيع، ونظم جيد»[1]، وقد «كان يتنسك في أول زمنه، ويلبس الصوف، ويتعبد، وختم القرآن، وتفقه، لم يكن في الخلفاء من كتب أحسن منه، وكان يستدرك على كُتّابه، ويصلح أغاليط في كتبهم»[2].

ومن ثم فإننا نفهم من هذه التنشئة مع رجاحة عقله وشجاعته وهذه الصفات العلمية والخلقية أنها ساعدته بلا شك في محاولاته الجادة للسيطرة على العراق، وعودة القوة للعباسيين والخلاص من الحكم السلجوقي؛ لتكون للخلافة في عصره قيمة ومعنى، وهذا ما سنراه في علاقاته الداخلية بالرعية في بغداد وما يجاورها والخارجية مع السلاجقة ودبيس بن صدقة في الحلة جنوب بغداد وعماد الدين زنكي في الموصل أبرز القوى في عصره.

في ربيع الآخر من عام ٥١٢هـ توفي الخليفة المستظهر بأمر الله الذي كان قد ولّى عهده من بعده لابنه الفضل الملقب بالمسترشد بالله، ولقد بايعه بالخلافة جل إخوته وأعمامه وأقاربه وكبار رجال دولته، فقد «كانت بيعته بكرة الخميس الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة فبايعه إخوته وعمومته والفقهاء والقضاة وأرباب الدولة وكان قاضى القضاة أبو الحسن على بن محمد الدامغانى هو المتولى لأخذ البيعة لانه كان ينوب فى الوزارة»[3].

ولقد خصّ المسترشد العلامة أبا الوفاء بن عقيل الحنبلي ببيعة خاصة، نظرًا لما تمتع به هذا الفقيه بمكانة كبيرة بين الرعية في بغداد، حتى كان أحد أبرز العلماء المشاهير في العاصمة والعالم الإسلامي في عصره، وقد نقل ابن الجوزي هذا المشهد من مذكرات ابن عقيل التي يمتدح فيها المسترشد بقوله: «نقلت من خط أبى الوفاء بن عقيل قال: لما ولى المسترشد بالله تلقانى ثلاثة من المستخدمين يقول كل واحد منهم: قد طلبك أمير المؤمنين فلما صرت بالحضرة قال لي قاضي القضاة وهو قائم بين يديه: طلبك مولانا أمير المؤمنين ثلاث مرات فقلت: ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ثم مددت يدى فبسط لى يده الشريفة فصافحت بعد السلام وبايعت فقلت: أبايع سيدنا ومولا نا أمير المؤمنين المسترشد بالله على كتاب الله

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦١.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦٢.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٩٧.

وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين ما أطاق واستطاع وعلى الطاعة منى وقبلت يدى وتركتها على عينى زيادة على ما فعلت فى بيعة المستظهر تعظيما له وحده من بين سائر الخلفاء فيما نشأ عليه من الخير ودحض أدوات اللهو وتميز بطريقة جده القادر»[١].

علاقته بالرعية

كانت علاقة المسترشد بالرعية في المجمل طيبة تسودها حالة من الود والوئام؛ لقد أحبته العامة حبًا شديدًا في حياته وتجلى ذلك عند مقتله الذي سبب مظاهر للحزن لم تعهدها العاصمة في خليفة من قبله كما يذكر المؤرخون.

بدأ المسترشد خلافته بإجراء بعض الإصلاحات وبسط الأمن في بغداد وما جاورها من المناطق التابعة لولايته، ففي عام ٥١٤هـ حدثت فتنة العيارين وهم فئة من اللصوص والصعاليك وقطاع الطرق التي سوف نتوقف معها بالتفصيل عند حديثنا عن الخليفة المقتفي بأمر الله، فأمر المسترشد بإخراج فرقة العساكر التركية في الجيش العباسي «لقتالهم فخرجوا وحاصروهم فى الأجمة[٢] خمسة عشر يوما ثم إن العيارين نزلوا فى سفن وانحدروا إلى شارع دار الدقيق دخلوا المحلة وأقبلوا منها إلى الصحارى وقصد أعيانهم دار الوزير ابن صدقة بباب العامة فى ربيع الأول وأظهروا التوبة وخرج فريق منهم لقطع الطريق فقتلهم أهل السواد بأوانا وبعثوا رؤوسهم إلى بغداد»[٣]، وفي نفس العام «تقدم المسترشد بإراقة الخمور التى بسوق السلطان ونقض بيوتهم»[٤].

وفي عام ٥١٧هـ أراد أن يرمم سور بغداد، ولم يكن في خزائن الدولة ما يكفي لذلك، فقرر فرض الضرائب والجباية على سكان بغداد على اعتبار أن ذلك أمر عمومي وكلف أحد الفقهاء بجمع هذه الأموال وهو أحمد بن سلامة الرطبي، لكن الناس تذمرت من هذا القرار وبدأت تدعو على الخليفة والدولة، وقد لاحظ الرطبي هذا الحال من العامة، فقرر مناصحة الخليفة، وهو أمر يبعث على الاحترام والتقدير، حتى إن الخليفة أذعن للأمر وأرجع أموال

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٩٧.
(٢) منطقة مليئة بالأشجار والأعشاب والقصب.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢١٦، ٢١٧.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢١٨.



الناس، فكان ذلك سببًا في دعاء الناس له، ولعل هذا يتفق مع وصف المؤرخين له بأنه بدأ خلافته بالعبادة والتنسك ولبس الخشن.

قال الرّطبي ناصحًا الخليفة: «يا مولانا إن الذي تتحدث به العوام فيما بينهم من أن أحدهم كان يعود من معيشته ويأوي إلى منزله فيدعو بالنصر. والحفظ للدولة قد صاروا يجتمعون في المساجد والأماكن شاكين مما قد التمس منهم ويقولون: كنا نسمع أن في البلد الفلاني مُصادرة فنعجب ونحن الآن في كنف الإمامة المعظمة نشاهد ونرى والناس بين محسن الظن ومسيء، والمحسن يقول ما يجوز أن يطلع أمير المؤمنين على ما يجري فيقر عليه، والمسيء الظن يقول الفاعل لهذا أقل أن يقدم عليه إلا عن علم ورضا وقد كاد كل ذي ولاء وشفقة يضل ويتبلد وفي يومنا هذا حضر عند الخادم[١] فقيه يعرف بإسماعيل الأرموي والخادم يذكر الدرس فقال: ليبك على الإسلام من كان باكيا. وحكي أن له دويرات بالجعفرية[٢] أُجرتها دينار قد طولب بسبعة دنانير فيا مولانا، الله الله في الدين والدولة للذين بهما الاعتصام، فما هذا الأمر مما يهمل وكيف يجوز أن يشاع عنا هذا الفعل الذي لا مساغ له في الشرع ويجعل الخلق شهودا وما يخلو في أعداء الدولة من يكون له مكاتب ومخبر يرفع هذا إليهم فما يبلغ الأعداء في القدح إلى مثل هذا وما المال ولماذا يراد إلا لإنجاد الأنصار والأولياء، وهل تنصرف الحقوق المشروعة إلا في مثل هذا وليس إلا عزمة من العزمات الشريفة يصلح بها ضمائر الناس ويؤمر بإعادة ما أخذ من الضعفاء وإن كان ما أخذ من الأغنياء باقيا أعيد وإن مست حاجة إليه عوملوا فيه وكتب قرضا على الخزائن المعمورة وجعل ذلك مضاهيا لما جرت به العوائد، الشريفة عند النهضات التي سبقت واقترن بها النظر في تقديم الصدقات وختم الختمات والخادم وإن أطال فإنه يعد ما ذكره ذمرا بالعرض لكثرة ما على قلبه منه والأمر أعلى»[٣]، وهذه الحادثة التي ذكرها الرطبي تُدلل على بقية الخير التي كانت تنتاب خلفاء بني العباس.

وثمة أحداث غير تلك تبين لنا المحاولات الجادة التي كان يقوم بها المسترشد ابتغاء

(١) يقصد الرطبي بالخادم نفسه تعظيمًا للخليفة.

(٢) مجموعة من البيوت الصغيرة في منطقة الجعفرية. والجعفرية: حي كبير من أحياء بغداد الشرقية في العصر العباسي.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٤٥.

تحقيق الاستقرار والأمن والوقوف بجوار أهل بغداد، منها الحسبة على الأموال، والتشديد على كل من يحاول اللعب بأسعار العملات ولو كان من الموظفين العموميين في الدولة، وهذا ما حدث في أواخر عام ٥٢٤هـ وأوائل العام التالي، حيث اكتشف أحد أهالي بغداد أن عمال الضّرب[١] الذين يشتكون من الخسارة، إنما هم يتلاعبون ويكذبون «وعرض هذا الكلام على صاحب المخزن[٢] ابن طلحة فمنعه من الكلام فيه فبلغ الخبر إلى المسترشد فأمر بحسابهم فإذا ربحهم كثير فظهر أن صاحب المخزن يعاونهم وذكر أنه كان يأخذ منهم كل شهر سبعين دينارا فثبت ذلك عليه فأمر المسترشد بنقل النظر في ذلك إلى الديوان فانكسر صاحب المخزن بذلك كسرة عظيمة»[٣].

ومن أهم الأمور التي جعلته قريبا من رعيته أنه كان يقودهم بنفسه – كما سنرى – ضد المتمردين الذين عاثوا فسادًا في بغداد وما حولها وبخاصة دبيس بن صدقة صاحب الحلة وقد دخلت أعداد كبيرة تحت راية الخليفة الذي قادهم ضد دبيس وانتصر عليه في مواضع عدة أشهرها ما كان سنة ٥٢٦هـ، وقد كان لهذا الانتصار أثر كبير في نفوس الناس فكسب الخليفة تأييد الرأي العام وولاءهم واستطاع أن يستعيد بعض نفوذه السياسي، وكذلك تصديه لبعض هجمات محمود بن محمد السلجوقي ومن بعده أخيه مسعود، وفي عهده بدأت حركة اليقظة الشعبية العامة في بغداد والتي كان من زعمائها الشيخ عبد القادر الجيلاني وقد سمح لها بالنمو والازدهار.

ومن وسائل اتصاله واحتكاكه بالرعية أنه كان من الخلفاء الذين يملكون زمام الخطابة، قال السيوطي عن إحدى خطبه: «خطب بالناس يوم عيد أضحى فقال: الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء وعلت على الأرض السماء، الله أكبر ما همى سحاب ولمع سراب وأنجح طلاب... و ذكر خطبة بليغة، ثم جلس ثم قام فخطب وقال : اللهم أصلحني في ذريتي وأعني على ما وليتني وأوزعني شكر نعمتك ووفقني وانصرني؛ فلما أنهاها وتهيأ للنزول بدَرَهُ أبو المظفر الهاشمي فأنشده:

---

(١) عمال الضرب هم العمّال المشتغلون في دار الضرب، ودار الضرب هي الدار المسؤولة عن سك العملة المتداولة في البلدان الإسلامية المختلفة. ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص١٦٣.

(٢) المخزن في العصر العباسي بمثابة وزارة المالية والاقتصاد في زماننا، وصاحب المخزن هو وزير المالية.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٥.



عليك سلام يا خير من علا	على منبر قد حف أعلامه النصر
وأفضل من أم الأنام وعمهم	بسيرته الحسنى جده من أجله نزل
وأفضل أهل الأرض شرقا ومغربا	ومن جده من أجله نزل القطر
لقد شنفت أسماعنا منك خطبة	وموعظة فصل يلين لها الصخر
ملأت بها كل القلوب مهابة	فقد رجفت من خوف تخويفها مصر
وزدت بها عدنان مجدا مؤثلا	فأضحى بها بين الأنام لك الفخر
وسدت بني العباس حتى لقد غدا	يباهي بك السجاد والعلم البحر
فلله عصر أنت فيه إمامنا	ولله دين أنت فيه لنا الصدر

ولعل اهتمام المسترشد بعلم الحديث والسماع والإسماع كان من الأشياء التي حببته وقرّبته للعامة؛ خاصة أن الثقافة العامة كان يسودها التعلق بالدين والشريعة والوعظ؛ فقد أسمع نقيب النقباء ووزيره ورووا عنه ذلك.

وقد قرّب المسترشد كثيرًا من العلماء، وألف أعظم علماء عصره كتبهم مثل الإمام أبو بكر الشاشي الذي ألف كتابه «العمدة» للإمام المسترشد بالله، ويُعد هذا الكتاب من أشهر مؤلفات الفقه الشافعي(١).

هذه العلاقة بين المسترشد والرعية والعلماء جعلت العلامة السمعاني يقول فيه: «كان ذا رأي وهيبة ومضاء وشجاعة أحيا رمائم الخلافة وشد أركان الشريعة وضبط أمور الخلافة وردها ورتبها أحسن الترتيب»(٢).

وأكد الإمام ابن كثير أنه كان «محببا إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رُئي خطيبًا»(٣).

نزاع البيت المستظهري

تبدأ قصة خلاف البيت المستظهري في ربيع الآخر من عام ٥١٢هـ والمستظهر بالله على

---

(١) ابن الصلاح: طبقات الفقهاء الشافعية ٢/ ٦٥٨.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٢٦٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٩.

فراش الموت يطلب من حاشيته أن يدعوا له ولي عهده أبو منصور الفضل لكنه يفاجأ أن الملأ من قومه قد جاءوا بابنه الآخر أبي الحسن علي لأنه كما يقول ابن العمراني «كان صاحب لهو وهزل»[1] في محاولة منهم لإثنائه عن عزمه بتأكيد استخلاف ولي عهده الفضل الذي عرف عنه طيب المنشأ، وصلاح الحال، والجدية في اتخاذ القرار.

وهذه الرواية التي يسوقها ابن العمراني عند كلامه عن المستظهر بالله وهو في فراش الموت قد تعارضها رواية الإربلي التي يصف فيها أبو الحسن علي بن المستظهر بالله بأنه «كان زاهدًا صالحًا»[2] ولكن لعل وصفه هذا كان بعد هدوء المحنة التي عصفت بين الأخوين كما سنرى، فبوادر الشقاق كانت كما يذكر ابن العمراني بقوله: «حين اشتدت العلة (بالمستظهر) في الليلة التي مات فيها، قال: ادعوا لي وليّ عهد المسلمين فجاءوا بأبي الحسن ففتح عينه فرآه، فقال: ما أريد هذا أريد أخاه الأكبر، وكان ميل الجماعة إليه لأنه كان صاحب لهو وهزل، وكان المسترشد رحمه الله صاحب جدّ، فخلوه ساعة ثم اقتضاهم فقالوا: قد ثقل وهو لا يعلم ما يقول ولا يُفرّق بين الأخوين فجاءوا بأبي الحسن ثانيًا. فقال: لست أريد هذا، أريد أبا منصور الفضل ابني الأكبر فلما رأوا الجد منه مضوا وجاءوا به فحين رآه استدناه وقبّل بين عينيه وقال له: يا عزيزي أنا ماض إلى جوار الله تعالى وسعة رحمته، فارفق بأهلك وأحسن السيرة في رعيّتك وانظر فيما وصل إليك، واعلم أنك مسئول عن القليل والكثير في آخرتك والله خليفتي عليك. ومات في تلك الساعة رحمه الله»[3].

لذلك لم تكن البيعة للمسترشد لتمر بسلام فقد رفض أخوه أبو الحسن أن يكون المسترشد أميرًا للمؤمنين ومن ثم لجأ لأمير الحلة دبيس بن مزيد بن صدقة الذي كان مثل أجداده مضرب المثل في الشجاعة والنجدة حتى كانت الحلة في عصرهم ملجأ كل محتاج ومهزوم.

وقد كان هرب أبي الحسن علي بسبب العدة التي أعدها أخوه المسترشد في يوم وفاة أبيهما؛ فقد «كان في منتصف ذلك اليوم قد ملأ الدار بالخيّالة والرجّالة بالأسلحة التامة

(1) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٠٨.
(2) الإربلي: خلاصة الذهب ص١٩٩.
(3) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٠٨، ٢٠٩.



واستظهر على الأبواب وأركب الغلمان الأتراك يدورون في البلد، وحين عرف أخوه أبو الحسن ذلك وتحقق موت أبيه خاف على نفسه واستوحش مما جرى في تلك الليلة»[١]، ثم لجأ لأمير الحلة وعرب العراق دبيس الأسدي.

ولما علم المسترشد بهروب أخيه خاف أن يتحد مع دبيس عليه فأرسل له على الفور «نقيب النقباء[٢] أبا القاسم على بن طراد ليأخذ البيعة على دبيس ويستعيد أخاه فأعطى دبيسًا البيعة وقال: هذا عندي ضيف ولا يمكنني إكراهه على الخروج فدخل النقيب على الأمير أبي الحسن وأدى رسالة الخليفة إليه ومعها خط الخليفة بالأمان على ما يجب وخاتمه ليعود فلم يجب»[٣].

لكن رواية ابن الأثير تؤكد أن الأمير أبا الحسن قَبل أن يرجع ويتم الصلح بينه وبين أخيه و«قال: إنني لم أفارق أخي لشر أريده وإنما الخوف حملني على مفارقته فإذا أمنني قصدته. وتكفل دبيس بإصلاح الحال بنفسه والمسير معه إلى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة الحال فأجاب إلى ما طلب منه»[٤].

ولما جاء دبيس بغداد عمل المسترشد على التقرب منه لكيلا يساعد أخاه على الانقلاب عليه، ويجازيه على وساطته في الصلح بينهما، ففي شهر رجب من نفس العام ٥١٢هـ نراه يهدي ويحتفي ويخلع على دبيس مجموعة من الهدايا والملابس منها «جبة وفرجية وعمامة وطوقًا وفرسا ومركبًا وسيفا ومنطقة ولواءً وحمل الخلع نقيب النقباء وابن السيبي ونجاح

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٠٩.

(٢) النقيب هو صاحب الفضل والمنقبة، الأمين على حفظ أنسابهم حتى لا يخرج منهم من كان منهم ولا يدخل فيهم من ليس منهم، والنقابة عبارة عن دائرة حكومية خاصة بالطالبيين أو العباسيين وظيفتها إحصاء النفوس وتأييد الانتساب، وينتخب النقيب من وجوه السادة ورؤسائهم وله سجل (ديوان) يحصي فيه أسماءهم كما عليه دوائر الأحوال المدنية اليوم، وقد كانت النقابة في بداية تشكيلها عامة للأشراف من بني هاشم تشمل العباسي والعلوي ثم بعد فترة أصبح لكل منهم نقيب خاص. وأول من سن النقابة وعين نقيبا ومقدما للطالبيين الخليفة المعتضد بالله الذي تولى الخلافة من سنة ٢٧٩ إلى سنة ٢٨٩هـ، وذكر أنه فعل ذلك بسبب رؤيا رآها، وقيل غير ذلك. وعلى كل حال فقد شكلت نقابات للطالبيين يشرف عليها في كل بلد نقيب ويشرف على كل النقباء نقيب يعينه الخليفة يسمى نقيب النقباء غالبًا ما كان من الأسرة العباسية مهمتهم جميعا جرد الطالبين والعباسيين كافة في سجلاتهم بحجة تمييزهم عن غيرهم.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٩٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٧٤.

الخادم وكان يومًا مشهودا»(١).

لكن جهود الوساطة التي أخبر عنها دبيس لم تفلح، ويذكر ابن الأثير أن السبب في ذلك إنما كان تباطؤًا غير متعمّد من دبيس لانشغاله بحرب ضد السلاجقة وعلى رأسهم مسعود بن محمد بن ملكشاه؛ الأمر الذي أخّر إتمام الصلح وحسّن للأمير علي بن المستظهر أن يبدأ بصورة جدية في تحقيق حلمه القديم ليكون أميرًا للمؤمنين، فانتقل إلى واسط في شهر صفر من عام ٥١٣هـ «وكثر جمعه وقوي الإرجاف بقوته وملك مدينة واسط وخيف جانبه فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولي عهده ولده أبي جعفر المنصور وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة فخطب له ثاني ربيع الآخر ببغداد وكتب إلى البلاد بالخطبة له»(٢).

ويذكر ابن العمراني أن دبيس بن صدقة قد «خيّره بين المقام عنده ليكون في خدمته أو الانتزاح ليزيح علّته في جميع ما يحتاج إليه من العُدة والسلاح والكُراع فاختار الرحيل وطلب منه العسكر؛ فأزاح علّته وضرب له سرادقًا(٣) من الديباج .. ونفذ معه ألفي فارس فانحدر إلى واسط وملكها وملك جميع البلاد السفلى واجتمعت عليه العساكر وقويت شوكته؛ وكان أول أمره يخطب لنفسه بعد أخيه فلما قوي خلع الطاعة وخطب لنفسه بالخلافة ولقّب نفسه «المستنجد بالله». واضطرب الناس ببغداد وقامت القيامة على المسترشد»(٤).

وكان أول ما قام به المسترشد إزاء هذا المصيبة كخطوة استباقية تعيين ابنه المنصور الملقب بالراشد بعد ذلك وليًا للعهد والبحث عمن ساعد أخاه أبا الحسن في إيقاظ هذه المؤامرة وحاولوا تغرير أبيه المستظهر وهو على فراش الموت؛ ففي جمادى الأولى من هذا العام استطاع المسترشد أن يصل لمدبري هذه المؤامرة ويقبض عليهم وهم «صاحب المخزن أبو طاهر بن الخرزي وعلى بن كمونة وابن غيلان القاضي وجماعة وأرجف بأن هؤلاء كتبوا إلى الأمير أبي الحسن يأمرونه بأن لا يطيع»(٥) وفي آخر العام عزل المسترشد الحاجب أبا جعفر بن الدمغاني،

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٩٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٧٥.

(٣) السرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب، والفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم. المعجم الوسيط ١/ ٤٢٦. وسنجد تكرار هذه الكلمة كثيرًا فيما يتعلق بالحرب، ومعناها ضرب الخيمة الكبيرة في المكان الفسيح لعرض الجيش وإعداده.

(٤) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢١٢.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٩٨.



وسنرى هذه السياسة الخاصة به في العزل والتولية والتي صبت في مجملها في صالح الخلافة.

وإزاء هذه التطورات أرسل الخليفة «ابن الأنباري كاتب الإنشاء إلى دبيس وعرّفه ذلك وقال أمير المؤمنين معول عليك في مبادرته فأجاب بالسمع والطاعة وأنفذ صاحب جيشه عنان في جمع كثير فلما سمع الأمير أبو الحسن ذلك رحل من واسط منهزما مع عسكره بالليل فضلوا الطريق وساروا ليلهم أجمع ثم رجعوا إلى ناحية واسط حتى وصلوا إلى عسكر دبيس فلما لاح لهم العسكر انحرف الأمير أبو الحسن عن الطريق فتاه في البرية في عدد من خواصه وذلك في شهر تموز ولم يكن معهم ماء وكان بينهم وبين الماء فراسخ فأشرف على الهلكة حتى أدركه نصر بن سعد الكردي فسقاه الماء وعادت نفسه إليه ونهب ما كان معه من المال وحمل إلى دبيس وكان نازلا بالنعمانية فأصعد به إلى بغداد وخيّم بالرّقة وبعث به إلى المسترشد بعد تسليم عشرين ألف دينار إليه قررت عنه وكانت مدة خروجه إلى أن أعيد أحد عشر شهرا وكان مديره ووزيره ابن زهمويه فشُهّر ببغداد على جمل وقد ألبس قميصا أحمر وترك في رقبته مخانق ووراءه غلام يضربه بالدِّرة[١] ثم قتل في الحبس»[٢].

وقد تلقّاه الخليفة بكل حفاوة لأنه «لما دخل على المسترشد بالله قبّل قدمه وقبله المسترشد وبكيا وأنزله دارًا حسنة كان هو يسكنها قبل أن يلي الخلافة وحمل إليه الخلع والتحف الكثيرة وطيب نفسه وأمنه»[٣]. ومع ذلك ذهب إلى «داره واحتاطوا عليه كجاري العادة مع أمثاله»[٤]. أي أنه كان قيد الإقامة الجبرية.

ولما علم دبيس أن الأمير أبا الحسن قيد الإقامة الجبرية ندم على تسليمه وأرسل إلى الخليفة قائلًا: «إنه كان من شرطي في إعادة الأمير أبي الحسن أنى أراه أي وقت أردت وقد ذكر أنه على حالة صعبة فقيل له إن أحببت أن تدخل إليه فافعل أو تنفذ من يختص بك فيراه أو يكتب إليك بخطه فإما أن يخرج هو فلا وكان قد ندم على تسليمه»[٥].

وقد «شدد التضييق على الأمير أبي الحسن وسد الباب وأبقى منه موضع تصل منه

---

(١) العصا.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٠٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٧٥.

(٤) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢١٢.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٠٦.

الحوائج ثم أحضره وقال له: قد وجد في قبة دارك تشعيث ولعله منك وأنك قد عزمت على الهرب مرة أخرى وجرى بينهما خطاب طويل وحلف أنه لم يفعل وتنصل ثم أعيد إلى موضعه على التضييق»[١].

وظل هذا الأمير صاحب الحظ العاثر على هذه الحالة من التضييق والكرب طوال خلافة أخيه المسترشد حتى توفي وهو لا يزال شابًا يافعًا في عام ٥٢٥هـ[٢].

وقد ترجم له الصفدي في وفياته وذكر أن اسمه عبد الله بن المستظهر وهذا خطأ وقع فيه، وقد أكد أنه ظل قيد الإقامة الجبرية منذ رجع إلى بغداد في العام ٥١٣هـ حتى وفاته عام ٥٢٥هـ، وذكر له شعرًا يندب فيه حظه العاثر بقوله[٣]:

أشـمَتُّ أعـدائي وأوهنـت جـانبي ... وهضت جناحا ريَّشْتهُ يد الفخر

فما أنت عندي بالملوم وإنما ... لي الذنب هذا سوء حظي من الدهر!

دبيس بن صدقة شوكة في حلق المسترشد!

لقد أدى التضييق على الأمير أبي الحسن إلى حنق دبيس بن صدقة للدرجة التي ألغى فيها أهم مظهر من مظاهر التبعية للخلافة العباسية في البلدان المسيطر عليها وعلى رأسها الحلة والكوفة وكربلاء تلك المدن ذات الدلالة الرمزية المهمة، ففي أواخر عام ٥١٣هـ «ورد الخبر بأن دبيس بن مزيد[٤] كسر المنبر الذي في مشهد علي عليه السلام والذي في مشهد الحسين وقال لا تقام ها هنا جمعة ولا يخطب لأحد»[٥].

بل إنه زاد على ذلك بأن نهب بعض أموال وحظائر الخليفة وكانت مائة ألف رأس في عام ٥١٦هـ، وقد فشلت وساطة الخليفة في إرجاع ما نهبه دبيس، حتى إنه أعلن في أخريات هذا العام الحرب على دبيس لتجرئه على نهب ممتلكات الخلافة[٦].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٠٧.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٥١.
(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧/ ٢١.
(٤) يقصد ابن الجوزي دبيس بن صدقة، وهو هنا ينسبهُ إلى قبيلته.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٠٧.
(٦) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٣٥.

لكن ما كان لدبيس أن يقوم بكل هذه الأفعال لأجل الأمير أبي الحسن وفقط؛ فقد ذكر ابن العمراني أن الاتفاق الذي أُبرم بين المسترشد ودبيس بشأن عودة الأمير أبي الحسن والذي نصّ على دفع الخليفة مبلغ عشرين ألف دينار طبقا لرواية ابن الأثير وثلاثين ألفًا في رواية ابن العمراني لم يلتزم بها الخليفة، ما دفع دبيسًا إلى الانتقام والنهب بل تعدى ذلك إلى أن قال للأمير علم الدين عفيف أحد كبار أمراء الجند العباسي: «والله لأنقضن الدار (دار الخلافة) حجرًا حجرًا وما أنا بدون البساسيري»[1]. متوعدًا الخليفة بفتنة كالتي قام بها البساسيري في زمن جده القائم بأمر الله.

ولقد كان دبيس طائشًا إلى الدرجة التي جعلته يدخل بغداد وهو يعلم أن الخليفة قد استدعى السلطان محمود لقتاله؛ فدخل دبيس بغداد «وضرب سرادقه بإزاء دار الخلافة، وأظهر الضغائن التي في نفسه، وكيف طيف برأس أبيه، وتهدد الخليفة، وقال: إنك أرسلت تستدعي السلطان، فإن أعدتموه، وإلا فعلت وصنعت. فأعيد جواب رسالته: أن عود السلطان وقد سار عن همذان غير ممكن، ولكنا نصلح حالك معه. وكان الرسول شيخ الشيوخ إسماعيل، فكفّ على أن تسير الرسل في الاتفاق بينه وبين السلطان، وعاد عن بغداد في رجب»[2].

غير أن الخليفة قد أصر على أن يخرج السلطان محمود إلى دبيس بعد أيام قليلة من وصوله؛ فتوجه إلى الحلة فهرب دبيس منها «طالبًا طريق ديار بكر وقصد إلى حميه الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق فوصل إليه وهو متوجّه إلى غزاة الكرج منجدًا للملك طغرل وكان المسلمون في قريب من مائة ألف فارس فلحقهم شؤم دبيس وقُتل بعضهم وأسر بعضهم ودخل بتلك الواقعة على الإسلام من الخلل ما صعب تلافيه»[3]. وقول ابن العمراني: إن شؤم دبيس قد لحق المسلمين دليل على الكره الشديد الذي يكنه هذا المؤرخ الذي ذكر أخبارًا أخرى عنه تعج بالفضائح والمصائب!

وبسبب انشغال السلطان محمود بهذه الكارثة التي أصابت المسلمين والسلطنة

---

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢١٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٩٣.
(٣) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢١٣.

السلجوقية في شطرها الشرقي استغل دبيس ابتعاده عن العراق ليرجع إلى الحلة مرة أخرى فيجتمع له من الأعراب والأكراد والبدو الآلاف المؤلفة ليعاود تهديده الخليفة مذكرًا إياه أنه سيكون عليه كما كان البساسيري على جده القائم وكانت هذه الأحداث في أواخر عام ٥١٦هـ وبدايات عام ٥١٧هـ.

وقد نصح الوزير ابن طراد الزينبي الخليفة بنقل إقامته وإقامة حريمه من دار الخلافة إلى مكان آخر بسبب تهديد دبيس فقال المسترشد له: كُف يا علي، والله لأضربن بسيفي حتى يكل ساعدى، ولألقين الشمس بوجهي حتى يشحب لوني وأنشد[١]:

وإذا لم يكـــن مـــن المـــوت بـــد　　فمـــن العجـــز أن تكـــون جبانـــا

وقد صمّم الخليفة على ملاقاة دبيس والفتك به، وطلب من أمير الموصل آق سنقر البرسقي أن يعينه في هذه الحرب ونجد ذكر الأمير عماد الدين زنكي لأول مرة في خلافة المسترشد – وكان معاونًا لآق سنقر وقائد جيوشه وكانا تابعين لسلطان السلاجقة محمود – هنا في معركة «حديثة»[٢] نسبة إلى القرية التي وقعت فيها المعركة بين الجانبين، وقد سرد لنا ابن الجوزي وابن الأثير وابن كثير وغيرهم تفاصيل هذه المعركة التي انقسمت إلى مرحلتين.

فأما المرحلة الأولى منها فهي مرحلة الاستعداد والتهيئة ووضع الخطة، ويتضح فيها دور آق سنقر البرسقي وقيادته العسكرية للجيش العباسي والموصلي الذي «نزل بقرية تعرف بحديثة من نهر ملك[٣]». وقد استقبل البرسقي في هذا المعسكر الخليفة المسترشد مع أمرائه وكبار قادته و«دخلوا عليه وحلفوا على المناصحة والمبالغة في الحرب ... وأمر (البرسقي) بأن تحمل الأعلام الخاصة وهي أربعة أربعة من الخدم وكذلك الشمسة ولا يدنو من المسترشد غير الخدم والمماليك وسار المسترشد وعسكره يوم الأحد رابع المحرم إلى النيل[٤] فلما تقاربوا رتب سنقر البرسقي بنفسه العسكر صفوفا وكانوا نحو الفرسخ عرضا وجعل بين كل صفين مجالا للخيل ووقف موكب الخليفة من ورائهم حيث يراهم ويرونه»[٥].

(١) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ٥/ ١٤٦.
(٢) المقصود بها حديثة النور وهي مدينة على نهر الفرات، تبعد نحو ٥كم من الأنبار. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢٣٠.
(٣) نهر ملك: نهر يحمل الماء من الفرات إلى دجلة أوله عند الفالوجة ومصبه أسفل مدينة المدائن.
(٤) قرية بالقرب من الكوفة، قُرب حلّة بنى مزيد يخترقها نهر يتخلّج من الفرات العظمى.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٤٢، ٢٤٣.

وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة المواجهة وانتصار الخليفة على دبيس، وهنا يتجلى موقف كل من عماد الدين زنكي والخليفة المسترشد بالله ووزيره نظام الدين، ونسوق وصف ابن الجوزي كاملًا لهذه الموقعة بقوله: «رتب دبيس عسكره صفًا واحدًا وجعل له ميمنة وميسرة وقلبا وجعل الرجّالة بين يدي الفرسان بالتراس الكبار ووقف في القلب من وراء الرجالة وقد منى عسكره ووعدهم نهب بغداد، فلما تراءى الجمعان بادرت رجاله دبيس فحملت وصاحوا يا أكلة الخبز الحوارى والكعك الأبيض اليوم نعلمكم الطعان والضرب بالسيف. وكان دبيس قد استصحب معه البغايا والمخانيث بالملاهي والزمور والدفوف يحرضون العسكر ولم يسمع في عسكر الخليفة إلا القرآن والتسبيح والتكبير والدعاء والبكاء. وفي هذه الليلة اجتمع أهل بغداد على الدعاء في المساجد وختم الختمات والابتهال في النصر فحمل عنتر بن أبي العسكر الكردي[١] على صف الخليفة فتراجعوا وتأخروا وكان الخليفة ووزيره من وراء الصف خلف نهر العتيق[٢]، فلما رأى هزيمة الرجَّالة قال الخليفة لوزيره أحمد: يا نظام الدين ما ترى؟ قال: نصعد العتيق يا أمير المؤمنين. فصعد الخليفة والمهد والأعلام وجرّد الخليفة سيفه. وقال جماعة من عسكر دبيس: إن عنترا غدر. فلم يصدق. قالوا: فلما رأوا المهد والعلم والموكب قد صعد على العتيق تيقن غدر عنتر فحمل زنكي مع جماعة كانوا قد كمنوا في عسكر دبيس فكسروهم وأسروا عنتر بن أبي العسكر ووقعت الهزيمة وهرب دبيس ومن معه من خواصه إلى الفرات فعبر بفرسه وسلاحه وقد أدركته الخيل ففاتهم، وقُتل الرجَّالة وأُسر خلق كثير من عسكر دبيس وكان الواحد منهم إذا قدم ليقتل قال: فداك يا دبيس ثم يمد عنقه ولم يقتل من عسكر الخليفة سوى عشرين فارسا وعاد الخليفة منصورا فدخل بغداد يوم عاشوراء وكانت غيبته من خروجه ستة عشر يوما»[٣].

لكن ابن العمراني يذكر أن الموقعة التي انتصر فيها الخليفة على دبيس لم تكن الأولى ولا بمعاونة أمير الموصل آق سنقر البرسقي وحده؛ فقد عاونه قادة واسط والبصرة وديار بكر والتركمانيين، وبلغ قوام هذا الجيش اثنا عشر ألف فارس، وكان الخليفة قد عزل وزيره جلال

---

(١) أحد أمراء الحرب في جيش دبيس بن صدقة المزْيدي.

(٢) نهر العتيق أحد الأنهار المتفرعة من الفرات، وبالقرب منه دارت معركة القادسية بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٤٢، ٢٤٣.

الدين بن صدقة واستوزر بدلا منه قوام الدين أحمد بن نظام الملك ولقبه بنظام الدين، واحتفى به بعد هذه المعركة ثم سرعان ما عزله؛ ولعله استوزره لمكانته من السلاجقة وكونه أحد وزرائهم السابقين، وبهذا أراد أن يشرعن لهجومه على دبيس الذي كان قريبا ومؤيدًا من السلطان طغرل بن محمد السلجوقي.

أما الموقعة الأولى فكانت دون عون من الخليفة ولا قيادته ولم يكن يشترك فيها أمراء تلكم المناطق، وقد انهزم فيها آق سنقر البرسقي أمام جيش دبيس هزيمة نكراء حتى «عادوا عُراة حُفاة إلى بغداد»[١].

ورغم فوز الخليفة على دبيس وتخريب دياره وإدباره، فإننا لا نزال مندهشين من موقف الخليفة من أحداث بلاد الشام، وعدم الدعوة إلى مواجهة الصليبيين الراتعين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية.

وبرغم فرار صدقة وانهزامه أمام الجيش العباسي غير أن ذلك لم يمنعه من الاعتداء على كل ما تمتد إليه يده، فقد نهب كلاً من مشهدي طلحة والزبير في البصرة في أخريات عام ٥١٧هـ، ثم لجأ في بداية عام ٥١٨هـ إلى طغرل بن محمد بن ملكشاه أمير بعض مقاطعات أذربيجان وشمال إيران، وقد اتفقا على الزحف ناحية بغداد ليطلب طغرل السلطنة لنفسه في ظل تصارع أخويه مسعود ومحمود، مما جعل الخليفة يتأهب طوال هذا العام لملاقتهما[٢].

لكنهما بالفعل في بدايات العام التالي ٥١٩هـ أصرّا على التحرك ناحية بغداد لنهبها والاستيلاء عليها، لعل طغرل بن محمد يستولي على مقاليد السلطنة السلجوقية باستيلائه على بغداد، ولما عرف الخليفة بهذه التحركات أصر على تحصين بغداد، ثم الخروج بنفسه لملاقتهما «ورحل الخليفة فنزل الدسكرة[٣] فدبر الملك ودبيس أن يعبرا ديالى وتامرا[٤] أو يكبسوا بغداد ليلا ويقطعوا الجسر بالنهر وأن يحفظ دبيس المعابر ويشتغل طغرل بنهب بغداد فعبرا تامرا

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢١٥.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٥/ ٣٠١.

(٣) قرية كبيرة بنواحي نهر مِلك كمدينة صغيرة، على ضفّة نهر الملك جنوب بغداد.عبد المؤمن البغدادي: مراصد الاطلاع ٣/ ١٤٠٦.

(٤) أنهار صغيرة تنبع من شهرزور شمال شرقي بغداد وتصب في جنوب بغداد بحوالي ٥كم. عبد المؤمن البغدادي: مراصد الاطلاع ١/ ٢٥٠.



فنزل طغرل بين ديالي وتامرا وعبر دبيس ديالي على أن يتبعه الملك فمرض الملك تلك الليلة وتوالى مجيء المطر وزاد الماء في ديالي والخليفة نازل الدسكرة لا يعلم بمكر دبيس فقصد دبيس مُشرّعة النهروان[١] في مائتي فارس جريدة[٢]، فنزل هناك وقد تعب وجاء المطر عليهم طول ليلتهم وليس معهم خيمة ولا زاد ولا عليف فوصلت جمال قد نفذت من بغداد إلى الخليفة علها الزاد والثياب فأخذها دبيس ففرقها على عسكره فاكتسوا وشبعوا وغنموا»[٣].

ولما علم الخليفة أن دبيسًا قد اقترب من بغداد «رحل مُجِدًّا إلى النهروان فلم يشعر دبيس إلا برايات الخليفة قد طلعت فلما رآها قبّل الأرض في مكانه وقال: أنا العبد المطرود ما أن يعفى عن العبد فلم يجبه أحد فعاود القول والتضرع فرق له الخليفة وهم بالعفو عنه أو مصالحته فصرفه الوزير ابن صدقة عن هذا الرأى»[٤].

وكان الذي يفصل بين دبيس وجريدته والخليفة وقواته نهر يقسم مدينة النهروان آنئذ وهو نهر ديالي، فلما رفض الخليفة العفو عنه وبدأ في أمر قواته بتهيئة الجسر للعبور «سار حينئذ دبيس عائدا إلى الملك طغرل وسير الخليفة عسكرا مع الوزير في أثره»[٥].

ثم إن الخليفة أمر مملوكه نَظَر الخادم بالتوجه إلى بغداد لتهدئة الناس وطمأنتهم «ومضى دبيس والملك طغرل إلى سنجر فاستجارا به هذا من أخيه وهذا من أمير المؤمنين فأجارهما ولبسا عليه فقالا: قد طردنا الخليفة وقال: هذه البلاد لي فقبض سنجر على دبيس واعتقله في قلعة يتقرب بذلك إلى المسترشد»[٦].

ويبدو أن الأمير سنجر كان من الطالبين لود الخليفة، مستميلًا إليه لأسباب سياسية، فقد أرسل له في العام الثاني من حكمه إقطاعًا كبيرًا؛ حيث «ورد كتب من سنجر فيها إقطاع

(١) تقع جنوب شرق بغداد العاصمة والجزء الشمالي منها يقع قرب من ملتقى نهر ديالى مع نهر دجلة. والمقصود بمشْرعة النهروان: المنطقة القريبة من ملتقى نهر يالي مع دجلة. عبد المؤمن البغدادي: مراصد الاطلاع ٣/ ١٤٠٧.

(٢) الجريدة: فرقة عسكرية من الخيّالة لا رجّالة فيها. ابن منظور: لسان العرب، مادة جرد ٣/ ١١٥.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٧/ ٢٢٨، ٢٢٩ عطا.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٥٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٣٣.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٥٣.

للخليفة بخمسين ألف دينار»[١].

على أن العلاقة التي توترت بين السلطان محمود وعمه السلطان سنجر قد تحسنت في عام ٥٢٣هـ، وقد أراد سنجر من ابن أخيه أن يأخذ دبيسًا الذي كان قد حبسه عنده ويرده إلى حكم بلاد الموصل والشام ويعزل زنكي، وقد «قدم السلطان محمود بغداد بعد عوده من عند عمه السلطان سنجر ومعه دبيس بن صدقة ليصلح حاله مع الخليفة المسترشد بالله، فتأخر دبيس عن السلطان ثم دخل بغداد ونزل بدار السلطان واسترضى عنه الخليفة فامتنع الخليفة من الإجابة إلى أن تولي دبيس شيئا من البلاد وبذل مائة ألف دينار لذلك»[٢]، لكن الأتابك عماد الدين زنكي والي الموصل كان قد لوّح باستطاعته أن يثني السلطان عن عزمه بإقطاع دبيس بتقديم الهدايا له، الأمر الذي جعل دبيس يدخل في منافسة مستعرة محاولا تقديم هدايا أعظم قيمة للسلطان، لكنها قوبلت بالرفض وهو ما جعله ينتقم من السلطان والخليفة عن طريق النهب مرة أخرى، فقد اتجه إلى «البصرة وأخذ منها أموالًا كثيرة للخليفة والسلطان هناك من الدخل، فسير السلطان في أثره عشرة آلاف فارس ففارق البصرة ودخل البرية»[٣].

لكن بحلول عام ٥٢٥هـ يقع دبيس أسيرًا في يد بوري بن طغتكين والي دمشق الذي يبيعه لخصمه عماد الدين زنكي، لكن زنكي يحسن وفادته، غير أن حظ دبيس العاثر يجعل الخليفة يُجد في طلبه، ما يجعل عماد الدين زنكي مضطرا لحبسه في قلعة الموصل مؤقتا[٤].

وفي أثناء ذلك توفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في شهر شوال من هذا العام، الأمر الذي شجع الخليفة على بسط سيطرته على البلاد التي كانت خاضعة للسلاجقة ولدبيس بن صدقة في العراق وأقطعها لكبار أمرائه وحاشيته، وأمر الخليفة مملوكه جمال الدولة إقبال أن يتجه جنوبًا ويستولي على «الحلة وأمّره على بلاد بابل»[٥]، وضم إليه عشرة آلاف فارس من العرب والترك والأكراد.. «وانضم إليه من التركمان والأعراب والأكراد

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٠٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٥٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٥٠.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٠.
(٥) بابل في العصر العباسي: اسم ناحية منها الكوفة والحلّة. ياقوت: معجم البلدان ١/ ٣٠٩. وهي الآن إحدى المحافظات الواقعة في وسط العراق جنوب العاصمة بغداد.

خلق لا يُحصى ووقعت الهيبة في قلوب الملوك»[١]. وبذلك استولى الخليفة على بلاد أهم مناوئين له دبيس بن صدقة والسلاجقة دفعة واحدة.

وكان السلطان سنجر بن ملكشاه وهو كبير السلاجقة بعد وفاة السلطان محمود وانضمام طغرل بن محمد إليه يريد أن يستمر ولاء بني أخيه في العراق لدولته في خراسان كما جرت العادة منذ تملك السلطان محمود[٢]، وكان داود بن محمود[٣] يطالب بإرث والده السلطان محمود وحقه الطبيعي في السلطنة؛ ثم دخل في الصراع على السلطنة الأمير مسعود بن محمد أخو السلطان محمود وأمير إقليم جرجان والأمير سلجوقشاه بن محمد أمير فارس.. كل هؤلاء يطالبون الخليفة بإقرار السلطنة لأحدهم وكان مسعود قد طلب من عماد الدين زنكي أمير الموصل ودبيس بن صدقة أن يتوجها إلى بغداد ويسيطرا عليها؛ لأن الخليفة قد مال إلى داود بن محمود السلجوقي إذا وافق على ذلك السلطان سنجر الكبير.

لقد كان عماد الدين زنكي من أقوى الأمراء حينئذ فهو مستولٍ على الموصل وحلب وحارم ونصيبين وغيرها، ولذلك التجأ إليه السلطان مسعود، ولما عرف الخليفة باقتراب عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة «خرج إليهما بنفسه ولقيهما بتل عقرقوف وكان يومًا مشهودًا؛ فإنه لم يبق في البلد صغير ولا كبير إلا خرج .. ووقعت الهزيمة على زنكي ودبيس وقُتل منهم نحو من ثلاثة آلاف من الأكراد وأُسر الباقون وعاد الخليفة إلى داره مظفرًا منصورًا»[٤]. وكانت هذه المعركة في شهر رجب من عام ٥٢٥هـ، وقد فرّ عماد الدين هاربًا متجها إلى الشمال حتى أمّنه قائد قلعة تكريت نجم الدين أيوب وهذه بداية العلاقة بينهم.

ورغم هذه الهزيمة القاسية إلا أن السلطان سنجر استعان مرة أخرى سنة ٥٢٦هـ بعماد

---

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢١٧.
(٢) سنُفصّل في خلافات البيت السلجوقي عقب وفاة السلطان محمد بن ملكشاه بعد قليل.
(٣) استقر الحال بداود بن محمود في ولاية تبريز وزواجه من ابنة عمه السلطان مسعود، وأراد الخروج عليه سنة ٥٣٣هـ، ثم سرعان ما هدأت الأحوال بينهما حتى قُتل غيلة على يد الباطنية «الملاحدة» سنة ٥٣٨هـ، وذكر الأصفهاني أن لعماد الدين زنكي يدًا في قتله؛ ذلك أنه عرف أن السلطان مسعود قد أمر بإخراج داود على رأس جيش إلى الشام ليحفظ ثغوره، مما دعا زنكي إلى ضرورة التخلص منه قبل مجيئه إلى الشام. لكن من المهم أن نُذكّر أن مسعود تصالح مع زنكي الذي أرسل إليه في نفس العام يستعطفه. الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣١١ دار الكتب العلمية.
(٤) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢١٧.

الدين زنكي ودبيس كما استعان بهما مسعود، لأن الخليفة المسترشد قد مال عن السلطان سنجر - الذي رأى فيه عودة للسيطرة السلجوقية الكاملة على الخلافة العباسية - إلى مسعود وسلجوقشاه في حربهما أمام سنجر وابن أخيه طغرل، فلما علم الخليفة باقتراب عماد الدين ودبيس من بغداد وكان متأخرًا في منطقة خانقين[١] غرب العراق رجع مسرعًا لحربهما «فنزل بالعباسية[٢] ونزل عماد الدين بالمنارية من دجيل[٣] والتقيا بحصن البرامكة[٤] سابع عشر رجب، فابتدأ زنكي فحمل على ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة إقبال فانهزموا منه، وحمل نظر الخادم من ميسرة الخليفة على ميمنة عماد الدين ودبيس، وحمل الخليفة بنفسه واشتد القتال فانهزم دبيس، وأراد عماد الدين الصبر فرأى الناس قد تفرقوا عنه فانهزم أيضا، وقتل من العسكر جماعة وأسر جماعة»[٥].

على أن دبيسًا برغم هاتين الهزيمتين القاسيتين لم يعترف بالفشل واتجه صوب بلاده الحلة وتجمع حوله بضع مئات من أنصاره السابقين، وكانت هذه المنطقة التي تسمى البلاد البابلية خاضعة لمملوك الخليفة إقبال الذي سرعان ما أمدته العاصمة بالرجال والعتاد والتقى بدبيس وهزمه، ثم هرب دبيس إلى مدينة واسط وانضم له أميرها وأعيانها وجندها وظل هناك حتى عام ٥٢٧هـ ليلتقي به إقبال المسترشدي مرة أخرى ويهزمه هزيمة قوية، يفر بعدها إلى السلطان مسعود[٦].

ورغم انضمام دبيس بن صدقة للسلطان مسعود في مواجهاته للخليفة المسترشد وهزيمة المسترشد أمام مسعود ومقتله بعد ذلك، إلا أن هذا لم يشفع له عنده، فقد «قتل السلطان مسعود دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى، أمر غلاما أرمنيا بقتله فوقف على رأسه وهو ينكت الأرض بأصبعه فضرب رقبته وهو لا يشعر»[٧]. وقد اتهمه السلطان

(١) مدينة تقع الآن ضمن محافظة ديالى في العراق بالقرب من الحدود مع إيران. قال ياقوت عن خانقين: «بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد». ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٣٤٠.

(٢) إحدى القرى الصغيرة أو الأحياء القريبة من باب البصرة جنوب شرقي بغداد، وقد ذكر ياقوت أنها خُربت في عصره. ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٧٥.

(٣) نهر يأخذ من دجلة شرقًا ويصب في دجلة أيضًا، بين شمال بغداد وتكريت. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٣٨٤.

(٤) لم أعثر على موضعه، لكن يبدو أنه ليس بالبعيد عن شرقي بغداد.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٦٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٨٥.

مسعود بتدبير قتل الخليفة، وحمل جثمانه إلى ماردين فدفن فيها(١).

لكن ثمة رواية أخرى تُبين أن قتل مسعود لدبيس بن صدقة كان نتيجة لتحذير هذا الأخير لعماد الدين زنكي من المجيء إلى أصفهان لمقابلة مسعود الذي كان يُدبر لقتله والتخلص منه باعتباره القوة العظمى في العراق بعد مقتل الخليفة المسترشد كما سنرى(٢).

ويعلق ابن الأثير على مقتل دبيس تعليقًا حكيمًا ينم عن فهمه لطبيعة الصراعات السياسية والعسكرية التي كانت تدور وقتئذٍ، ويدلل على أن دبيسًا لم يكن سوى أداة ضغط في يد السلاجقة على الخليفة المسترشد، فهو يقول: «ومثل هذه الحادثة تقع كثيرًا وهو قرب موت المتعاديين، فإن دبيسًا كان يعادي المسترشد بالله ويكره خلافته ولم يكن يعلم أن السلاطين إنما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدة لمقارنة المسترشد، فلما زال السبب زال المسبب والله أعلم»(٣).

المسترشد المستأسد!

كان سلطان السلاجقة في عهد المسترشد بالله محمود بن محمد بن ملكشاه قد بدأ عهده على غير رضا من عمه سنجر بن ملكشاه وكان سلطان خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر فلم يرضه أن يكون ابن أخيه الصغير المقدّم عليه وعلى السلاجقة كلهم، وقد توجه إلى العراق لمحاربة ابن أخيه وانتزاع الملك منه في منتصف عام ٥١٣هـ، فالتقيا بجيوشهما عند الري في وسط إيران، وانتصر سنجر وخطب على المنابر له، وكان يقيم بالأهواز ثم تصالح مع ابن أخيه على أن يخطب لمحمود من بعده، وردَّ عليه جميع ما أخذ منه سوى الري؛ وهنا تبدأ مرحلة مهمة من مراحل السلطنة السجلوقية وتفتتها إلى سلاجقة خراسان وأصفهان وسلاجقة أذربيجان وسلاجقة العراق فضلا عن سلاجقة الروم والشام من قبل(٤)!

وفي نفس العام تمرد الأمير مسعود بن محمد أخو السلطان محمود وكان أميرا على الموصل وأذربيجان وديار بكر وغيرها فتقاتلا فانهزم عسكر مسعود ثم تصالحا على ما سنذكره تفصيلًا بعد قليل، وقد أذعن لطاعة محمود(٥).

(١) الزركلي: الأعلام ٢/ ٣٣٦.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٨٥.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٥/ ٢٧٨.
(٥) الأصفهاني: أخبار الدولة السلجوقية ص٩٧.

هذا النزاع بين عظماء السلاجقة جعل الخليفة المسترشد طامعًا في إعادة هيبة الخلافة ورسومها الحقيقية، وكان أهم عامل سيعيد هذه الهيبة أن يتكئ عليه المسترشد على القوة العسكرية وقيادة الجيوش بنفسه لمحاربة المخالفين، ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل، ويمكن تلمس هيبة الخليفة المسترشد من خلال أمرين: الأول: رسوم الخلافة وتجملها وبروتوكولاتها التي زاد فيها إلى حد البذخ في بعض الأوقات. والثاني: العلاقة الجدلية بينه وبين السلاجقة ومحاولاته المستميتة للتفلت من ركابهم وقوتهم وسيطرتهم.

فأما التزيد والتجمل اللافت في رسوم الخلافة أمام سلاطين السلاجقة لا سيما محمود بن محمد بن ملكشاه وأخيه مسعود، فخير مثال على ذلك ما يرويه ابن الجوزي في أحداث شهر شعبان من عام ٥١٥هـ عند ذكره بالتفصيل للزيارة التي قام بها الأخوان للخليفة في بغداد؛ إذ قال: «فلما كان يوم الاثنين رابع عشرين شعبان جلس المسترشد فى الدار الشاطئية وهى من الدور البديعة التي أنشأها المقتدى وتمّمها المسترشد فجلس فى قُبة على سُدة وعليه الثوب المصمط الأسود والعمامة الرُّصافية وعلى كتفة بردة النبي ﷺ وبين يديه القضيب وحضر الدار وزيره أبو علي بن صدقة ورتّب الأمور وأقام في كل باب حاجبا بمنطقة[(١)] ومعه عشرون غلامًا من الدار .. واستدعى أرباب المناصب وحضر متقدمو العلماء ... ثم نقل السلطان محمود ويده في يد أخيه مسعود ... فلما قاربوا كُشفت الستارة لهما ووقف السلطان في الموضع الذي كان وزيره قائما فيه وأخوه مما يليه فخدما ثلاث دفعات ووقفا والوزير ابن صاعد يذكر له عن الخليفة أنسه وتقربه وحسن اعتقاده فيه ثم أمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه.. وأمر الخليفة بكرسي فجلس عليه السلطان ووعظه الخليفة وتلا عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] وأمره بالإحسان إلى الرعية ثم أذن للوزير أبي طالب في تفسير ذلك ففسره وأعاد عنه أنه قال: وفقني الله لقبول أوامر مولانا أمير المؤمنين وارتسامها، فالسعادات معها متيسرة وهي بالخيرات مبشرة، وسلم الخليفة إلى الوزيرين سيفين وأمرهما أن يقلدا بهما السلطان فلما فعلا قال له: اقمع بهما الكفار والملحدين»[(٢)].

ومن الدلائل التي قد نفهم من خلالها طبيعة الاستقلالية في خلافة المسترشد العلاقة بين

(١) المِنْطَقَة: كل ما شد به وسطه غيره. ابن منظور: لسان العرب، مادة نطق ١٠/ ٣٥٤.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٢٥، ٢٢٦.

الخليفة ووزرائه وطريقة اختيارهم وحقيقة صلاحياتهم، وكثيرًا لا تتضح الأسباب التي من أجلها يُختار الوزراء أو يُصرفون من أداء مهامهم، وقد تولى طوال فترة خلافة المسترشد أربعة وزراء أحصاهم زامباور في «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة» وهم جلال الدين أبو علي الحسن بن صدقة (من ٥١٢ إلى ٥١٦هـ) وعلي بن طراد الزينبي نقيب نقباء العباسيين ثم وزيرًا بدءًا من جمادى الأولى إلى شعبان من ٥١٦هـ، وأتى من بعده أبو نصر أحمد بن نظام الملك من شعبان ٥١٦هـ إلى بداية عام ٥١٧هـ ثم عودة جلال الدين الحسن بن صدقة مرة ثانية حتى وفاته في رجب عام ٥٢٢هـ، وأخيرًا يأتي الوزير أنوشروان بن خالد القاشاني من عام ٥٢٢هـ حتى مقتل المسترشد في عام ٥٢٩هـ[١].

وثمة وثيقة مهمة تبين لنا طريقة تقليد المسترشد لوزرائه، وهي نصيحة لوزيره الثاني ابن طراد الزينبي يتجلى فيها أسباب اختياره لهذا المنصب، وإلزام من يرأسهم بمتابعة أوامره والالتزام بما يقره عليهم، جاء فيها: «محلك يا نقيب النقباء من شريف الآباء، وموضعك الحالي بالاختصاص والاختيار ما يقتضيه إخلاصك المحمود اختياره الزاكية آثاره، توجب التعويل عليك في تنفيذ المهام والرجوع إلى استصوابك في النيابة التي يحسن بها القيام، وجماعة الأولياء والأتباع مأمورون بمتابعتك، وامتثال ما تصرفهم عليه من الخدم في إبدائك وإعادتك، فاحفظ نظام الدين، وتقدم إلى من جرت عادته بملازمة الخدمة وسائر الأعوان وتوفر على مراعاة الأحوال بانشراح صدر وفراغ بال، فإن الإنعام لك شامل وبنيل آمالك كافل إن شاء الله»[٢]، لكن سرعان ما استوزر الخليفة أحمد بن نظام الملك إثر توسط من أخيه عثمان بن نظام الملك وزير السلطان السلجوقي محمود فأتى إليه، و«ودخل إلى الخليفة وحده وخرج مسرورا وأفردت له دار ابن جهير بباب العامة وخلع عليه في شوال وخرج إلى الديوان وقرئ عهده وكان علي بن طراد بين يديه يأمر وينهى وأمر بملازمة مجلسه»[٣]!

وأما قيادة الخليفة للجيوش فإن ذلك قد دفع السلاجقة إلى الحذر من تحركات الخليفة، وقد كانوا يرون ذلك تقليصًا لدورهم وخطرًا على نفوذهم، ولقد رأينا من قبل خروج

(١) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص١٠.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٣٤.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٣٤، ٢٣٥.

الخليفة بنفسه لملاقاة دبيس بن صدقة مرتين ودحره في كليهما، كل ذلك جعل الوشاة يخربون العلاقة بين الخليفة والسلطان السلجوقي، فبعد هزيمة الخليفة لدبيس في المرة الثانية عام ٥١٩هـ، وبعد مشادات حدثت من قبل الخليفة ورجال دولته خرج رئيس شرطة بغداد سعد الدولة يرنقش الزكوي وكان معينا من قبل السلطان محمود السلجوقي في سرية قاصدًا إياه في همدان، ويبدو أنه كان جاسوسًا لتحركات الخليفة العباسي، وقد «اجتمع به خاليا وأكثر الشكوى من الخليفة وحقق في نفسه أن الخليفة يطلب الملك وأنه خرج من داره نوبتين وكسر من قصده وإن لم يدبر الأمر في حسم ذلك واتسع الخرق وصعب الأمر وسيتضح لك حقيقة ذلك إذا أردت دخول بغداد والذي يحمله على ذلك وزيره أبو علي بن صدقة وقد كاتب أمراء الأطراف وجميع العرب والأكراد فحصل في نفس السلطان من ذلك ما دعاه إلى دخول بغداد»(١).

ولذا عزم محمود بن محمد بن ملكشاه أن يدخل بغداد ولم يكن مقيمًا بها، ولكن الخليفة وقف له وحاول منعه بالقوة، وهذه هي اللحظة الفارقة في العلاقة بين الرجلين، فقد حسب الخليفة أنه بانتصاريه السابقين قادر على مواجهة السلطان السلجوقي الذي يملك المال والعتاد والرجال، وقادر على الحشد، ومع ما قام به الخليفة من إجراءات أمنية من إجبار كل سكان بغداد الغربية إلى الانتقال إلى شرقيها وعبور نهر دجلة، ثم انتقل هو إلى الغرب، وحصنها بالحواجز والمتاريس، وأقام سرادق التعبئة العامة من الجنود، وكان ذلك بالتزامن مع عيد الأضحى لعام ٥٢٠هـ.

لكن سببًا آخر دفع السلطان محمود للتصادم مع الخليفة المسترشد فقد رأى نفسه مضطرًا للتوجه إلى بغداد للحد من مطامح الخليفة وفرض سيطرته المباشرة على العراق. وكان الخليفة قد أرسل بعض جيوشه إلى جنوب بغداد بقيادة عفيف الخادم للاستيلاء على واسط إلا أن عماد الدين زنكي تمكن من صده والانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين عند مشارف واسط. وفي العشرين من ذي الحجة من عام ٥٢٠هـ وصل السلطان إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب منه إقرار الصلح فرفض الأخير طلبه(٢).

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٥٤.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٠٤.

إن المتتبع لشخصية المسترشد يجد فيه خليفة مغامرًا متسرعًا في بعض الأوقات، لقد نسي الرجل حجمه الحقيقي بين الأمراء العسكريين من حوله، وحاول جاهدًا أن يتخطى الحاجز الروحي الذي كُتب على بني العباس منذ جده المعتصم قبل قرون ثلاثة!

ونراه في خطبة العيد يخطب على المنبر وجميع وجهاء وفقهاء وخطباء بغداد تسمع له، وكان مما جاء في خطبته تلك تعريضًا بالسلطان محمود السلجوقي: «عباد الله قد وضح السبيل لطالبيه ونطق الدليل للراغب فيه واستظهر الحق لظهور معانيه، فما للنفوس راغبة عن رشادها مشمرة عن فسادها مفرطة في إصدارها وإيرادها جاهلة بمعادها أو هي عفية عن استعدادها؟! هيهات هيهات كم اخترمت المنية قبلكم وساقت إلى الأرماس من كان أشد منكم ومثلكم؟! سلبتهم أرواحهم وقطعتهم أفراحهم ولم تخف جيوشهم ولا سلاحهم طالما أفنت أمما واستزلت قدما وأمطرت عليهم من الفناء ديما ورمتهم من البلاء أسهما وحرمتهم من الآمال مغنما وحملتهم من الأثقال مغرما ولم تراع فيهم محرما، ذلوا بعد أن عزوا في دنياهم وسادوا وجروا الجيوش إلى الأعداء وقادوا فعاد مطلقهم مأسورًا وقائدهم بالشقاوة مشهورا، قد عدموا نورا وسرورا فيا أسفا لهم ضيعوا زمنا وما اكتسبوا حسنا كيف بهم إذا نشرت الأمم وأعيدت إلى الحياة الرمم ونزل بذي الذنوب الألم وظهر من أهل التقصير الأسف والندم، ذلك يوم لا يرحم فيه من شكا ولا يعذر من بكى ولا يجد الظالم لنفسه مسلكا، يوم يشتد فيه الفرق ويتزايد فيه القلق وتثقل على أهلها الأوزار وتلفح وجوه العصاة النار وتذهل المرضعات وتعظم التبعات وتظهر الآيات وتكاشف البليات ولا يقال فيه من ندم ولا ينجو من عذاب الله إلا من رحم»[١].

وقد أسرع السلطان السلجوقي بدخول بغداد الشرقية، وتلطف مع الخليفة وحاول أن يرجعه، وقد تخلل ذلك رمي بالسهام بين عامة بغداد وبعض جنودها وبين عساكر السلاجقة، ونهب لدور الخلافة، ونلحظ بداية من هذا العام ٥٢١هـ شاهدًا من أهم شواهد تاريخ هذه الحقبة حتى أواخر القرن السادس الهجري وهو العلامة ابن الجوزي الذي يقول عن نهب المقرات الخلافية، وفزع حريم الخليفة، ثم دفاع الخليفة عن حرمه وأمواله وعاصمته: «فرأيتُهن وأنا صبي يستشفعن وقد جئن صارخات وجِزْنَ على باب المخزن

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٥٧.

فدخلن دار خاتون وضجّ الناس كأن الدنيا تزلزلت، فأخبر الخليفة بالحال فخرج من السرادق وأبو علي بن صدقة بين يديه وقدموا السفن في دفعة واحدة ودخل العسكر في السلاح وترسوا في وجوههم وألبسوا الملاحين السلاح ورماة النشاب من ورائهم ورمى العيارون أنفسهم في الماء فعبروا وعسكر السلطان مشغولون بالنهب قد دخل منهم دار الخلافة نحو ألف في السلاح فلما رأوا عسكر الخليفة قد عبر وقع عليهم الذلة فانهزموا ووقع فيهم السيف واختفوا في السراديب فدخل عسكر الخليفة فأسروا جماعة وقتلوا جماعة من الأمراء ونهب العوام دور أصحاب السلطان ودخلوا دار وزيره»[١].

وقد حميت المعركة بين الجانبين، واستمرت عدة أيام حتى جاء يوم عاشوراء من عام ٥٢١هـ، وقد هدأت حدتها، وتُوسط في الصلح بين الخليفة والسلطان، وقَبل السلطان هذا الصلح، وارتضى كل ما اقترحه عليه الخليفة، حتى إن ابن الجوزي يتعجب من ضعف السلطان محمود يومئذ بقوله: «فما رئي سلطان قد حاصر بلدا فكان هو المحاصر إلا هذا»[٢]!

لكن في حقيقة الأمر الذي أذعن للصلح هو الخليفة لأنه برغم الهزيمة المباغتة التي تلقاها عسكر السلطان محمود إلا أنه طلب المدد من البصرة بمعاونة الأمير عماد الدين زنكي الذي غير من مجريات المواجهة وقد «اعتزم السلطان على قتال بغداد وأذعن المسترشد إلى الصلح فاصطلحوا وأقام السلطان ببغداد إلى ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ومرض فأشير عليه بمفارقة بغداد فارتحل إلى همذان»[٣].

وفي مرض السلطان محمود يقول الأصفهاني: «ولما قرب مسير السلطان من بغداد حدث به مرض ضعف منه جسمه وقلبه، فاعتقد أن ذلك من شؤم خلافه الخليفة؛ فجلس في محفة ووقف على باب الحرم للمواقف الشريفة، وأبدى الإعظام والإجلال وطلب العفو والاستحلال. فخرج إليه التوقيع الإمامي بأجمل جواب، وألطف خطاب، وطابت نفسه، وزاد بذلك أمله في البر وأنسه، ووصل همذان وقد أُبل وتوفرت له حصة الصحة»[٤].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٤.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٠٥.
(٤) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص١٣٨.

وفي عام ٥٢٥هـ توفي السلطان محمود مخلفًا وراءه ابنه الصغير داود، مما جعل العراق مطمعًا لسنجر بن ملكشاه كبير السلاجقة وآخر عظمائها على الحقيقة وإخوة محمود وفي مقدمتهم طغرل ومسعود وسلجوقشاه، ومن ثم كانت السيطرة على بغداد سيطرة على كل العراق، وقد تكون سببًا في إرجاع عظمة السلاجقة مرة أخرى تحت قيادة واحدة، وهذا ما نراه من استعداد سنجر للاستيلاء على بغداد، لكن الخليفة كعادته يستعد لمواجهة سنجر عسكريًا، ويرسل كثيرا من عسكر بغداد داعمين لمسعود، لكن تحالف عساكر الخليفة ومسعود قد انهزما أمام سنجر الذي والاه كل من عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة، وبعد الهزيمة اتجه كل من زنكي ودبيس إلى بغداد لفتحها وضمها لمملكة سنجر، وبعد معركة كبيرة مع الخليفة، يكلل المسترشد إنجازاته البطولية في السنوات الأخيرة من خلافته بهزيمتهما هزيمة ساحقة[١].

وكان من الطبيعي في ظل موازين القوى هذه، وتقاطع المصالح السياسية والسلطوية بين الأطراف المختلفة أن يميل الخليفة إلى مسعود بن محمد بن ملكشاه على حساب أخيه السلطان طغرل الذي كان قد انتصر عليه بمعاونة عمه السلطان سنجر في جمادى الآخرة سنة ٥٢٦هـ، ولعل سبب ميل الخليفة عن طغرل أن العلاقة بينهما لم تكن جيدة؛ وأن كلا منهما أراد أن يسيطر على الآخر، فبعد انتصار طغرل واستقرار سلطنته ومكوثه في همذان «جاءت رسل المسترشد بالله يشترطون على السلطان طغرل ليدخل إلى بغداد فلم يُجب ولم يستقر الحال بينه وبين الخليفة ألبتة»[٢].

ولذلك لما دخل «مسعود إلى بغداد وصادف من الخليفة المسترشد فساد الرأي في السلطان طغرل فعقد له السلطنة وشهدت الشهود عليهما وأنزله الخليفة في دار السلطنة وخطب له في آخر جمعة من المحرّم»[٣] من عام ٥٢٧هـ.

ويبدو أن جذوة الحماسة التي اصطلى بها المسترشد جعلته مندفعًا متحمسًا للقاء كل من يثير غضبه، ففي أواخر عام ٥٢٦هـ، تُرمى ابنة السلطان سنجر في خادم لها وكانت زوجة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٢.
(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٠١.
(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٠٢.

الخليفة المستظهر والد المسترشد، الأمر الذي يُغضب الخليفة، فيأمر بفض إقطاعها، وبيع عقارها ومنقولها، فترسل لوالدها بما يحدث لها، «فقيل إنه كتب إليها يعلمها بما يريد أن يفتك بالدولة، فبعث المسترشد فأخذ الكتاب منها وهيجه ذلك على الخروج إلى القتال»(١).

وبعد هزيمة دبيس والواسطيين من قبل الخليفة يُصر المسترشد على المسير باتجاه الموصل سنة ٥٢٧هـ لتأديب عماد الدين زنكي وانتزاع الموصل منه، وقد حاصرها «ثلاثة أشهر وكان زنكي قد خرج منها إلى سنجار»(٢) لكن المسترشد فشل في انتزاعها رغم حصاره لها، وقد قبل الصلح على دفع زنكي مالا مقابل ذلك، ولكن ما نلحظه أن المسترشد كان على استعداد لإطالة أمد الحصار لكنه علم بموت السلطان طغرل واستعداد عدوه اللدود دبيس بن صدقة للذهاب إلى بغداد ومحاصرتها(٣).

وتتصاعد وتيرة الأحداث مع المسترشد، ففي عام ٥٢٨هـ يطلب صراحة من مجاهد الدين بهروز الوالي السلجوقي المعيّن من قِبل السلطان مسعود على العراق ورئيس الأمن بها أن يرسل إليه مالًا لينفقه على جند الخلافة، ويقول له:«أنت مقيم ومعك الأموال فينبغي أن تعطينا منها شيئا نفرقه على العسكر فأبى»(٤)، لكن الخليفة الذي باتت قوته في تصاعد منذ أعوام أرسل إلى هذا القائد السلجوقي «عسكرا فحاصره ووقع القتال في أول شعبان ثم صانع بإنفاذ مال»(٥). وهكذا أمسى الخليفة أقوى من والي العراق السلجوقي وهي قوة لاشك أنها ستؤرق مسعود السلجوقي سلطان السلاجقة، وستجعله يسعى جاهدًا للتخلص من هذا الخليفة أو تحجيم قوته على الأقل ورده لما كان عليه أسلافه من قبل.

وتتجلى ذورة قوة المسترشد بالله في عيد فطر عام ٥٢٨هـ؛ إذ يسجل لنا المؤرخون مظهرًا قلما رآه في أحد من الخلفاء السابقين الذاعنين لحكم السلاجقة؛ فقد أصر الخليفة على الاحتفال بجنده وأهل دولته من خلال مراسم عامة تحدث عنها كل الناس فقد «خلع الخليفة على جميع الأمراء ثم عرض العسكر يوم عيد الفطر ونودي لا يختلط بالعساكر أحد من العوام

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٨.
(٢) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٧.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٣٠.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٣٥.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٣٥.

ومن ركب بغلا أو حمارا في هذا اليوم أبيح دمه فما تجاسر أحد أن يفعل ذلك. وخرج الوزير شرف الدين وصاحب المخزن وقاضي القضاة ونقيب النقباء وأرباب الدولة في زي لم ير مثله من الخيل المجفجفة[(١)] والعسكر اللابس والعدة الحسنة وكل أمير يقبل في أصحابه بخلعة الخليفة فكان العسكر خمسة عشر ألف فارس سوى من كان غائبا عن البلد ولم ير عيد خرج فيه أرباب المناصب إلا هذا»[(٢)].

مقتل المسترشد بالله

بعد سيطرة السلطان مسعود على معاقل أخيه طغرل في همذان والري والجبال وأذربيجان، واستئصاله للفتن التي قام بها بعض قادة ومماليك أخيه طغرل، خاف بعض هؤلاء الأمراء على أنفسهم ولجأوا إلى الخليفة يخوفونه من مسعود، ويؤكدون له أنه عازم على انتزاع بغداد وإخراجه منها، الأمر الذي جعل الخليفة يقطع الخطبة له، ويأمر بالنفير العام لملاقاة مسعود، وقد تزامن مع ذلك تأييد جموع الولايات العراقية بما فيها الموصل للخليفة في هذه الحرب.

لقد كان لهؤلاء الأمراء المنشقين على السلطان مسعود أكبر الأثر في نفس الخليفة المسترشد وتقوية عزمه على مواجهة مسعود حيث قللوا من قوة مسعود وجيشه، وكان أبرز هؤلاء الأمراء المناوئين للسلطان مسعود: الأمير يرنقش بازدار صاحب قزوين وسنقر الخمارتكين والي همذان والبقش السلاحي صاحب أصفهان وسنقر بن سنقر صاحب تستُر وغيرهم!

كل هذا أغرى المسترشد ليقضي على مسعود وتكون له العراق كاملة فضلا عن بلاد فارس والجبال لعله أن يستعيد رونق الخلافة بعدما ابتعدت عن البيت العباسي عقودًا طويلة، فضلا عن انحسار العداء في البيت السلجوقي بعد وفاة طغرل، وقد جهز المسترشد جيشه وخرج منشدًا[(٣)]:

لأكلفن العيس دامية إلا   خفاف من بلد إلى بلد

---

(١) الخيل المدرّعة بالحديد والمستعدة للحرب. ابن منظور: لسان العرب، مادة جفف ٩/ ٢٨.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٣٥.

(٣) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ٥/ ١٤٦.

إما يقال مضى فـأحرزها أو لا يقال مضى ولم يعد

على أنه «لما سمع السلطان مسعود خبرهم سار إليهم مجدا فواقعهم بدايمرج[١] عاشر رمضان وانحازت ميسرة الخليفة إلى السلطان مسعود فصارت معه واقتتلت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان قتالا ضعيفا، ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرك من مكانه، وانهزم عسكره وأُخذ هو أسيرا ومعه جمع كثير من أصحابه.. وأنزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيرا فحمل الوزير وقاضي القضاة وابن الأنباري وصاحب المخزن وغيرهم من الأكابر إلى قلعة سرجهان[٢] وباع الباقون نفوسهم بالثمن الطفيف ولم يقتل في هذه المعركة أحد وهذه أعجب ما يحكى»[٣].

ويذكر ابن كثير أنه حين بلغ الخبر إلى بغداد باعتقال الخليفة وهزيمته «انزعج الناس لذلك، وزلزلوا زلزالا شديدا، صورة ومعنى، وجاءت العامة إلى المنابر فكسروها وامتنعوا من حضور الجماعات، وخرج النساء في البلد حاسرات ينحن على الخليفة، وما جرى عليه من الأسر، وتأسى بأهل بغداد في ذلك خلق كثير من أهل البلاد، وتمت فتنة كبيرة وانتشرت في الأقاليم، واستمر الحال على ذلك شهر ذي القعدة والشناعة في الأقاليم منتشرة، فكتب الملك سنجر إلى ابن أخيه يحذره غِبَّ ذلك[٤]؛ عاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم، ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته، فامتثل الملك مسعود ذلك وضُرب للخليفة سرادق عظيم»[٥].

---

(١) قال الأصفهاني: «التقوا بمرج يقال له داي مرك». الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٩٩. دار الكتب العلمية. وداي مرك مرج قُرب همذان. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٢٤/ ٢٨٤.

(٢) قال ياقوت: « قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوين وزنجان وأبهر، والكائن فيه يرى زنجان، وهي من أحصن القلاع وأحكمها». ياقوت: معجم البلدان ٣/ ٢٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٨٢.

(٤) في نسخة البداية والنهاية تحقيق د عبد الله بن عبد المحسن التركي: «فكتب الملك سنجر إلى ابن أخيه يحذِّره غبَّ ذلك، ويبصِّره بما وقع من الأمر العظيم والخطب الجسيم، ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مستقرِّ عزِّه ودار خلافته..». ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ١٦/ ٣٠٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٨.

وذكر ابن النجار أن المسترشد لما أسره مسعود السلجوقي أنشد قائلًا[١]:

ولا عجبــا للأســـد إن ظفــرت بهـــا كلاب الأعادي من فصيح وأعجـم!

فحربــة وحشــى ســقت حمــزة الــردى ومـوت علـيٍّ مـن حسـام ابـن ملجـم

لقد كان السلطان سنجر حكيمًا لأبعد حد في تعامله مع الخليفة العباسي الذي يحترمه ويجله كل الناس في المشرق والمغرب، وعلم أن البلدان ستثور ضدهم، وهذا ما حدث بالفعل وقد بدأت تظهر في الأفق موجة من الكراهية ضد السلاجقة، ما دفع سنجر إلى مناصحة ابن أخيه والكتابة إليه، وإرسال رسالته على يد أكابر أمرائه، وزيادة في توقير الخليفة وهيبة الخلافة «جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه يستحثه على الإحسان إلى الخليفة، وأن يبادر إلى سرعة رده إلى وطنه، وأرسل مع الرسل جيشًا ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد»[٢].

وجاءت الرسالة من السلطان سنجر إلى ابن أخيه مسعود وفيها: «لقد خفت على نفسي من جانب الله وظهور آياته وامتناع الناس من الصلاة في الجوامع ومنع الخطباء ما لا طاقة لي بحمله، فالله الله تتلافى أمرك وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزه وتحمل الغاشية بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا»[٣]. وهي رسالة فيها من الوعيد ووصف العصيان المدني الذي قاده العلماء والفقهاء في البلدان، كل هذا جعل مسعود يمتثل أمر عمه ويقبل الصلح مع الخليفة المسترشد.

لكن هذا الصلح كان مقابل شروط هي «أن يحمل (الخليفة) مالا للسلطان ولا يجمع العساكر لحرب ولا فتنة ولا يخرج من داره فانعقد على ذلك بينهما»[٤]. وكان الشرط المتعلق بالمال سببًا من أسباب اندلاع الصراع بين الراشد بن المسترشد وبين السلطان مسعود بعد ذلك.

وينقل ابن العمراني مشهدًا مهمًا، وحديثًا مؤثرًا بين الغالب والمغلوب، بين منِّ الغالب وتذكيره بمآثره ومآثر أجداده والمغلوب المستكين الصابر غير القادر على إخراج الكلام من مرارة الهزيمة، وذل الأسر، قال مسعود السلجوقي للخليفة المسترشد لما وقع في الأسر: «يا

---

(١) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ٥/ ١٤٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٨.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٧٣.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥١٠.

مولانا أليس الله تعالى كان قد أغناك عن هذا؟ وهبْ أنك احتويت على مُلك الدنيا أكان يمكنك المقام بكل مكان تستولي عليه أو تُقيم بمدينة الملك وتولّي عليها غلمانك الذين ربما نصحوك وربما خانوك وقد تأدى إليك ما تمّ على الخلفاء قبلك من غلمانهم، ونحن كنا عبيدك وطوع أمرك وجدُّنا أعاد هذه الدولة بعدما ذهبت فما الذي حملك على ما فعلت؟ والآن أقم أيامًا عندي حتى أسير في ركابك إلى بغداد وأُدخلك دار الخلافة وآخذ الغاشية على رأسي بين يديك كما أخذها طغرلبك بين يدي جدّك القائم بأمر الله. ولم يتكلم الخليفة بشيء إلا أنه قال: كل ذلك في الكتاب مسطور. وبقي الخليفة معتقلًا»[(١)].

وفي أثناء انشغال الجميع بوصول «الأمير قزان خوان ووروده رسولا من السلطان سنجر فقد تأخر مسير المسترشد لذلك وخرج الناس مع السلطان مسعود إلى لقائه وفارق الخليفة بعض من كان موكلا به وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلا من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به»[(٢)].

وقد أشار بعض المؤرخين باتهام السلطان مسعود بقتل الخليفة المسترشد، وأنه هو الذي حرّض الباطنية على قتل الخليفة والتخلص منه؛ لكن هذه الإشارات التي ذكرها الذهبي والسيوطي وابن العماد الحنبلي لا تؤيدها أية شواهد قاطعة وإن كان اتهامهم غير مرفوض بالكلية نظرًا للعلاقة السيئة بين مسعود والمسترشد فضلًا عن القوة التي كان المسترشد قد تمتع بها، وثمة دليل آخر قد يؤيد هذه الاتهامات هي أن السلطان مسعود قتل دبيس بن صدقة بعد مقتل المسترشد مباشرة؛ فكأنه أراد أن يتخلص من كل مناوئيه وقد خطط لقتل عماد الدين زنكي أيضًا لكنه فشل في ذلك[(٣)]، وفي هذه القضية ذاتها يقول ابن الطقطقى: «واختلف الناس عند قتل المسترشد في سبب قتله؛ فقال قوم: إن مسعودًا لم يعلم بذلك ولا رضي به. وقال قوم: بل مسعود هو الذي واطأ الباطنية على قتله وأمرهم بذلك، لأنه خافه حيث قويت نفسه على جمع الجموع وجر الجيوش، ولم يمكنه قتله ظاهرًا ففعل ما فعل من الإحسان إليه ظاهرًا ثم قتله باطنًا، ثم إنه أخرج جماعة من أهل الجرائم فقتلهم وأوهم الناس أنه قد قتل

---

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٢٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٨٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٦/ ٥١، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٧٣، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/ ٨٨.

قتلته، ثم أطلقهم سرًا»[١].

وعلى الجانب الآخر يؤكد الأستاذ خير الدين الزركلي أن قاتل الخليفة المسترشد هو السلطان سنجر نفسه؛ فهو الذي أرسل الباطنية مع رسوله إلى ابن أخيه السلطان مسعود[٢]، وهذا رأي نستبعده للعلاقة الطيبة التي جمعته بالخليفة والبيت العباسي عمومًا وكذا منذ سلطنة ابن أخيه محمود ومطالبة عمه سنجر أن يحسن التعامل مع الخليفة بعد الحرب التي جرت بينهما في أواخر عام ٥٢٠هـ، فضلا عن الرسالة الصريحة التي يحذّر فيها ابن أخيه مسعود من إلحاق الأذى بالخليفة لأن بوادر العصيان المدني والشقاق كانت قد بدأت تلوح في كل البلدان الخاضعة للسلاجقة؛ ثم لبعد المسافة بين خلافة المسترشد في بغداد وسلطنة سنجر في آسيا الوسطى وشرق إيران.

وفي هذه الأثناء كان العلامة المؤرخ ابن الجوزي شابًا حدثًا شاهدا على هذه الأحداث، وقد جاء الخبر إلى بغداد بموت الخليفة، فقال: «وقع البكاء والنحيب في البلد وخرج الرجال حفاة مخرِّقين الثياب والنساء مُنشِرات الشعور يلطمنَ وينظمن الأشعار التي من عادتهنَّ قول مثلها في أحيان اللطم، وأشعار النساء البغداديات اللاتي ينظمنها في وقت اللطم طريفة المعنى وإن كانت على غير صواب اللفظ، وكان مما لطمن به أن قلن: ...

يا صاحب القضيب ونور الخاتم	صار الحريم بعد قتلك مأتم
اهتزت الدنيا ومن عليها	بعد النبي ومن ولي عليها
قد صاحب البومة على السرادق	يا سيدي ذا كان في السوابق
ترى تراك العين في حريمك	والطرحة السودا على كريمك

وجلس الناس للعزاء في ديوان الخلافة ثلاثة أيام .. فلما كان في اليوم الثالث تقدم إلى الناس أن يعبروا ويلبسوا ثياب الهناء ويحضروا البيعة بباب الحجرة[٣] فحضروا يوم الاثنين

(١) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٠٣.
(٢) الزركلي: الأعلام ٥/ ١٤٧.
(٣) قال ياقوت عن باب الحجرة: «موضع بدار الخلافة المعظّمة ببغداد، حرسها الله تعالى، وهي دار عظيمة الشأن عجيبة البنيان، فيها يُخلع على الوزراء، وإليها يحضرون في أيام الموسم للهناء، وأول من أنشأها الإمام المسترشد بالله أبو منصور الفضل ابن الإمام المستظهر بالله». ياقوت: معجم البلدان ١/ ٣٠٧.

سابع عشرين ذي القعدة»[١].

وبهذا تنتهي قصة خليفة استمرت خلافته سبعة عشر عامًا متصلة رأينا خلالها بعض قوته وشجاعته وكذلك تهوره في بعض الأوقات، لكن قطعًا لم يكن من الخلفاء المنبطحين الجبناء في كل أمره، ولذلك نرى صفات الثناء عليه من المؤرخين واحدة تقريبًا، فالمسترشد كان «شجاعًا مقدامًا بعيد الهمة فصيحا بليغا، عذب الكلام حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة محببا إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رُئي خطيبا، قُتل وعمره خمس وأربعون سنة، وثلاثة أشهر، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما»[٢].

قال في شجاعته وإقدامه الصفدي: «خرج عدة نوب إلى الحلة والموصل وطريق خراسان لم تزل أيامه مكدرة بكثرة التشويش من المخالفين وكان يخرج بنفسه لدفع ذلك ومباشرته إلى أن خرج الخرجة الأخيرة فكسر وأسر وقتله الملاحدة»[٣].

محمود بن محمد سلطان سلاجقة العراق

بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ بدأت المنازعات من جديد حول عرش السلطنة مما أحدث انقسامًا كبيرًا بين السلاجقة ويرجع السبب في هذه المنازعات إلى أن السلطان محمد قبيل وفاته أمر بإسناد السلطنة إلى ابنه محمود، وكان حينئذ في الرابعة عشرة من عمره، ووافق الخليفة العباسي المستظهر بالله (ت٥١٢هـ) على إقامة الخطبة للسلطان محمود ببغداد في يوم الجمعة الموافق الثالث والعشرين من محرم سنة ٥١٢هـ، ولكن عمّه سلطان سلاجقة خراسان وهو سنجر لم يرض عن تولي هذا الفتى الصغير، فأعلن نفسه سلطانًا على السلاجقة ومن ثم غيَّر لقبه من ناصر الدين إلى لقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه.

وقد أدى ذلك إلى انقسام الدولة السلجوقية واندلاع القتال بين سنجر وابن أخيه، والحق أننا يمكن أن نلمس شخصية سنجر التي كان يحسبها كل من يلقاها بأنه سلطان آل سلجوق، وهو نفسه يحكي ما جرى بينه وبين الخليفة المستظهر بالله حينما جاء مع أخيه محمد طالبًا السلطنة من الخليفة في عام ٤٩٥هـ بقوله: «لما وقفنا ظنني السلطان، فافتتح كلامه معي،

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٠.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٩.
(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٤/ ١٦.

فخدمت، وقلت: يا مولانا، هو السلطان، وأشرت إلى أخي، ففوض إليه السلطنة، وجعلني ولي عهده»[١].

وقد التقى محمود بعمه سنجر بالقرب من مدينة ساوة[٢] سنة ٥١٣هـ، واستعان سنجر في هذه المعركة بفرقة من الفيلة كانت السبب في انتصاره، على أن الصلح لم يلبث أن تم بين الفريقين وسار محمود إلى عمه سنجر فأكرمه وصفح عنه وقبل شفاعته في آخرين واستقر الرأي على أن يبقى محمود بن محمد شهرًا في خدمة عمه السلطان سنجر بالرّي وألا يدق له البوق في حالة ركوبه أو نزوله، وأن يسير مترجلًا في ركاب عمه، وأن يترك كل ما يتعلق بشعائر السلطنة ورسومها[٣].

وأطاع محمود عمه السلطان سنجر ونفذ ما استقر عليه الرأي بينهما، فقد «كان من حلم سنجر، أنه يغضي عمن يغضب»[٤]. ومن ثم قرر سنجر اختيار محمود وليًا لعهده ونائبًا عنه في العراق سنة ٥١٣هـ، وسمح السلطان سنجر له بأن يلقب بلقب سلطان؛ ولذلك يعتبر أول من جلس على عرش سلطنة السلاجقة بالعراق هو السلطان محمود بن محمد، وأصبح سلطان العراق من الناحية الرسمية خاضعًا وتابعًا لسلطنة السلطان الأعظم سنجر في خراسان وكان سلاطين العراق يخضعون للسلطان سنجر ويذكرون اسمه في الخطبة قبل أسمائهم، وقد اعترف الخليفة العباسي المسترشد بالله بمحمود بن محمد سلطانًا على سلاجقة العراق رغم صغر سنه[٥].

وافق الخليفة العباسي المسترشد بالله في سنة ٥١٣هـ على تنصيب سنجر سلطانًا أعظم للسلاجقة وإقامة الخطبة باسمه بعد الخليفة في جميع أقاليم الدولة السلجوقية، وبناء على ذلك اتسع نفوذه وسلطانه وشمل بالإضافة إلى خراسان أكثر أقاليم إيران والعراق. هذا وقد أكرم سنجر –بعد أن أصبح سلطانًا أعظم للدولة السلجوقية– أبناء أخيه محمد فوزع عليهم حكم

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٣.

(٢) ساوة مدينة إيرانية في محافظة مركزى. قال ياقوت: «ساوة مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخا». ياقوت: معجم البلدان ٣/ ١٧٩.

(٣) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٦٥ – ٢٦٧.

(٤) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٦٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٦٤١، ٦٤٢.

مدن وأقاليم إيران والعراق، واستطاع سنجر أن يعيد بسط نفوذه وسلطانه على أراضي ما وراء النهر بعد العملية الناجحة التي خاضها ضد محمد خان، ويعتبر السلطان سنجر من السلاطين السلاجقة الذين أبدوا اهتمامًا خاصًا بمجريات الأمور في بلاد ما وراء النهر، فكان يضطر دائمًا للذهاب إلى تلك الأقاليم للتأكد من استقرار سلطته على هذه الأقاليم، واستطاع أن يخضع حركات التمرد في دولته وامتد نفوذه إلى سائر البلاد حتى قيل إن الخطبة له وصلت إلى كاشغر(١)، وأقصى بلاد اليمن ومكة والطائف ومكران(٢) وأذربيجان وغزنة(٣) وسمرقند(٤)، وخراسان وطبرستان(٥)، وكرمان(٦)، وسجستان، وأصفهان(٧)، وهمذان(٨)، والري(٩)، وآرنيه(١٠)،

(١) كاشغر: مدينة من أشهر مدن تركستان الشرقية وأهمها، وكانت عاصمة تركستان الشرقية، ولها مركز عظيم في التجارة مع روسيا وقد اجتاحت تركستان الشرقية القوات الصينية الشيوعية سنة ١٩٤٩م واحتلتها، فأطلق عليها الصينيون اسم (سينكيانج) وهي كلمة صينية تعني: المستعمرة الجديدة.

(٢) مكران: الإقليم الجنوبي بمحافظة سيستان وبلوتشستان في إيران، ويطل على بحر عمان. وإقليم مكران الإيراني جزء من بلاد مكران الممتدة بين إيران وباكستان. قال ياقوت: «هذه الولاية بين كرمان من غربيّها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها». ياقوت: معجم البلدان ٥/ ١٨٠.

(٣) غزنة: مدينة أفغانية تقع جنوب غربي العاصمة كابول. قال ياقوت: «هي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحدّ بين خراسان والهند». ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٢٠١.

(٤) سمرقند: مدينة في أوزبكستان يبلغ عدد سكانها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة وهي ثاني أكبر مدن أوزباكستان حاليًا.

(٥) طبرستان: إقليم يَقع في شمال دولة إيران اليوم ويَمتد في مُعظمه عبر سلسلة جبال ضخمة وتسمى هذه السلسلة الآن سلسلة جبال ألبروز. لكن هذا الإقليم كان أكثر اتساعًا في زمن الخلافة العباسية عما هو عليه الآن، قال ياقوت: «الغالب على هذه النواحي الجبال، فمن أعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل، وهي قصبتها، وسارية، وهي مثلها، وشالوس، وهي مقاربة لها، وربما عدّت جرجان من خراسان إلى غير ذلك من البلدان، وطبرستان في البلاد المعروفة بمازندران». ياقوت: معجم البلدان ٤/ ١٣.

(٦) إحدى محافظات إيران الإحدى والثلاثين. تقع في جنوب شرقي البلاد وعاصمتها مدينة كرمان. قال ياقوت: «هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة ... فشرقيّها مكران ومفازة ما بين مكران والبحر من وراء البلوص، وغربيّها أرض فارس، وشماليّها مفازة خراسان، وجنوبيّها بحر فارس». ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٤٥٤.

(٧) أصفهان أو أصبهان هي إحدى مدن إيران ومركز محافظة أصفهان على بعد ٣٤٠ كم جنوب طهران، تقع على نهر زاينده والذي يسمى في إيران «زاينده رود» و رود كلمة فارسية تعني «نهر».

(٨) هَمدان أو همذان هي مدينة تقع في شرق إيران وعاصمة محافظة همدان. كانت عاصمة إقليم الجبال في شرق الخلافة العباسية.

(٩) الري هي مدينة تاريخية تقع بالقرب من طهران في إيران.

(١٠) أرّان: منطقة واسعة تقع الآن جنوب أذربيجان وأقصى شمال شرق إيران من أهم مدنها كنجة وبيلقان وغيرها. ياقوت: معجم البلدان ١/ ١٣٦.

وآرمينية[١]، وبغداد والعراقين[٢]، والموصل[٣]، وديار بكر[٤]، وديار ربيعة، والشام والحرمين، كما كانت تضرب له السكة في هذه الأقاليم جميعها، وأصبحت جميع هذه البلدان تخضع لنفوذ السلطان سنجر إخر السلاجقة العظام لأنه استطاع أن يعيد للدولة السلجوقية هيبتها ووحدتها، وأن يجعل كل أجزائها خاضعة لأمر سلطان واحد، وأعاد بذلك عصر السلاجقة العظام[٥].

على أن الأمور لم تستقر لمحمود بن محمد طويلًا في العراق؛ فقد كثرت النزاعات والحروب بينهم، وكذلك فيما بينهم وبين الخليفتين المستظهر ومن بعده المسترشد، وكان للسلطان سنجر دور كبير في التدخل في تلك النزاعات وإخماد الفتن وقمعها والقضاء عليها لإقرار الأوضاع واستتباب الأمن في أجزاء الدولة السلجوقية.

فبعد أن تولى السلطان محمود أمر السلطنة جعل أخاه مسعودًا على الموصل مع أتابكه جيوش بك، وفي سنة ٥١٤هـ دبّ النزاع بين الأخوين وخرج مسعود عن طاعة السلطان محمود، وكان سبب ذلك أن «دبيس بن صدقة كان يكاتب جيوش بك أتابك مسعود، يحثه على طلب السلطنة للملك مسعود، ويعده المساعدة، وكان غرضه أن يختلفوا فينال من الجاه وعلو المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السلطانين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه»[٦]، ووعده بطلب السلطنة لمسعود وشرع جيوش بك في جمع العسكر وبلغ ذلك الخبر للسلطان محمود فأرسل إليه وإلى أخيه مسعود ووعدهما الإحسان والصفح إن عادا إلى طاعته وتهددهما إن أصرا على معصيته ولم يستجيبا للسلطان محمود وواصلا عصيانهما له. وسار كل من جيوش بك ومسعود نحو محمود والتقى الجمعان عند أسد أباد[٧].

---

(١) إحدى دول منطقة القوقاز حاليًا تحدها تركيا من الغرب وجورجيا من الشمال وجمهورية ناغورني كاراباخ وأذربيجان في الشرق، أما من الجنوب فتحدها إيران ومكتنف ناخيتشيفان الأذربيجاني. قال ياقوت: «اسم لصقع عظيم واسع في جهة الشمال» وقد عدّد عدة أنواع من أرمينية فمنها الصغرى ومنها الكبرى ومنها غير ذلك. ياقوت: معجم البلدان ١/ ١٦٠.

(٢) العراقين: هما عراق العرب وعراق العجم، والمقصود بها: العراق الحالية وشرق إيران.

(٣) مدينة معروفة في شمال العراق حاليا.

(٤) مدينة كردية في جنوب شرقي تركيا حاليًا.

(٥) الصلابي: دولة السلاجقة ص١٥٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٦٤٩.

(٧) قلعة أسد أباد أو أباذ، تبعد عن همذان من ٥٠ إلى ٦٠كم. قال العزيزي: « من أسد أباذ إلى همذان تسعة فراسخ، وبينها أيضا وبين الدينور سبعة عشر فرسخا». الحسن بن أحمد العزيزي: المسالك والممالك ص١٤٥.

وفي المقابل سيّر محمود إلى السلطان سنجر القاضي أبا سعد الهروي، يفيده ويخبره بما استجد على الساحة من النزاع بينه وبين أخيه مسعوداً وقد أسفر اللقاء عن هزيمة جيش مسعود وجيوش بك، وأسر أبو إسماعيل الحسين بن علي الطغرائي وزير مسعود الذي قتله السلطان محمود، ثم أرسل مسعود إلى أخيه السلطان محمود يطلب منه الأمان والصفح، وجاء إليه وتعانقا وتصافا، وأرسل السلطان محمود إلى السلطان سنجر يخبر بما فعل مع أخيه مسعود، فما كان من السلطان سنجر إلا أن سعد بتصافى الأخوين وإنهاء الخلاف والنزاع بينهما[١].

وفي سنة ٥١٩هـ كانت البداية الفعلية للنزاع بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية، عندما لجأ دبيس بن صدقة إلى طغرل بن محمد حيث حسّن له الاستيلاء على العراق وطلب السلطنة، فاستجاب طغرل لإغراء دبيس له فسار الاثنان على رأس جيش كبير إلى بغداد لقتال الخليفة المسترشد بالله والسلطان محمود بن محمد، وكان سبب مسيرة دبيس بن صدقة لحرب الخليفة ما بينهما من نزاع وخلاف، بينما كان هدف طغرل هو انتزاع لقب السلطان من أخيه محمود بن محمد، وحينما بلغ الخليفة بأن طغرل ودبيس بن صدقة أعدا جيشًا لقتاله، أعد هو الآخر جيشًا وخرج لصدهما إلا أن طغرل مرض فجأة ومن ثم لم يشترك في الحرب ضد الخليفة المسترشد بالله، وتقابل جيش الخليفة مع جيش دبيس بن صدقة، إلا أن دبيسًا طلب العفو من الخليفة وقبل الأرض بين يدي الخليفة، مما جعل الخليفة يصفح عنه[٢]. وقد تناولنا العلاقة بين دبيس بن صدقة والخليفة المسترشد بصورة مفصلة سابقًا.

وقد ظلت الأحوال هادئة بين محمود ومسعود بعد المصالحة التي تمت بينهما سنة ٥١٤هـ وبقية أبناء محمد بن ملكشاه حتى توفي محمود في شوال سنة ٥٢٥هـ؛ ليعود النزاع من جديد بين الإخوة على السلطنة؛ ولقد كان السلطان محمود «قوّي المعرفة بالعربية حافظًا للأشعار والأمثال عارفًا بالتواريخ والسّير»[٣].

طغتكين يستكمل المسيرة

تناولنا أوضاع الشام تحت حكم رضوان ودُقاق ابني تُتش بن ألب أرسلان، وميراث

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٦٥٠، ٦٥١ تدمرى.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٦٩٨.
(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٩٩.

إمارة دمشق الذي آل إلى الضابط العسكري المحنك طغتكين الذي بدأ حكمه سنة ٤٩٧هـ بتحديين كبيرين هما التحدي الصليبي وتغلغله في بلاد الساحل الشامي والجنوب في فلسطين وقد ذكرناه آنفًا.

بيد أن ما يتعلق بالتحدي الباطني الذي بدأ في الظهور جنوب الشام حيث إمارة طغتكين سنة ٥٠٧هـ فإننا نجد تراخيًا بل قد يكون ترحيبًا مبطنًا من طغتكين لكبار دعاة الباطنية، فلقد انتقل داعية الباطنية المدعو بهرام إلى دمشق من حلب بعدما طرده أهلها والقائمون عليها وخاصة ألب أرسلان الأخرس بن رضوان بن تُتش، وكان قد دعا إلى مذهب الإسماعيلية وأظهر شخصيته، وكان معينه على ذلك وزير طغتكين أبو طاهر المزدقاني فعظم شره، ولذلك خاف من أهل دمشق وطلب من طغتكين حصنا يأوي إليه هو وأتباعه، فأشار عليه المزدقاني بتسليمه قلعة بانياس غربي دمشق. فاستلمها وجمع فيها أصحابه(١).

وهذا الإيواء لبهرام وللباطنية عدّه بعض المؤرخين نقيصة كبيرة؛ لأنها قوّت من شوكتهم وعزيمتهم، وجعلتهم يتعاملون بصورة مباشرة مع الصليبيين؛ فلقد «عظم الخطب، وتوجع أهل الخير، وتستروا من سبّهم»(٢).

على أن علاقة ظهير الدين طغتكين بالخلافة العباسية متمثلة في المستظهر بالله والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه كانت تتراوح بين التبعية ومحاولة الجنوح نحو الاستقلال، إلا أنها عادت للتبعية بعد حملة برسق بن برسق سنة ٥٠٩هـ التي أرسلها السلطان محمد لتأديب من أراد الخروج عليه، ففي حرب طغتكين مع جيوش الصليبيين بالقرب من طبرية سنة ٥٠١هـ والتي انتصر فيها نراه يُرسل الأسرى من كبار الفرسان إلى الخليفة المستظهر والسلطان السلجوقي(٣).

وبحلول عام ٥٢٢هـ كان ظهير الدين طغتكين قد مرض مرضًا شديدًا، أوصى فيه بالعهد لولده تاج الملوك بوري، وقد توفي في ٨ صفر من هذا العام «فأبكى العيون ونكأ القلوب وفت في الأعضاد وفتت الأكباد واشتد الأسف لفقده والجزع عليه ولم يسمع إلا

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٥١.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٢٠.
(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢٥٩.

متفجع له وذاكر لجميل أفعاله وشاكر لأيامه»[١].

أما علاقة طغتكين بالمسترشد فنتبين فيها ملمحًا جديدًا يوضح طبيعة العلاقات بين الجانبين، ومدى خضوعه للخليفة العباسي؛ ذلك أنه أرسل مستأذنًا الخليفة المسترشد كي يمكنه من عمارة أرض فضاء في دمشق، ورد أخرى لأصحابها، وهذا يُدلل على كامل الخضوع والتبعية للخلافة العباسية، ولعل قوة المسترشد التي كانت قد بدأت تنتشر في الآفاق قد جعلت طغتكين يُقدم على مثل هذه الخطوة.

قال ابن القلانسي: «كان هذا الأمير السعيد قد بالغ في استعمال العدل والكف عن الظلم وأعاد على جماعة من الرعية أملاكًا في ظاهر البلد جمةً دائرةً اغتُصبت منهم في زمن الولاة الظالمين فأعادها إلى خراجها القديم المستقر ورفع عنها مواد الجور والعدوان وحسم عن مالكيها أسباب التأول في كل مكان وأوان فأحرز بذاك صالح الدعاء، ثم رفع إلى أمير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله رقعةً عند مصيره إلى بغداد يذكر فيها حال مواضع دائرة في عمل دمشق وحصص عامرة وأرض معطلة لا مالك لها ولا فائدة في عطلتها ولا انتفاع لخاصي ولا عامي بشيء منها لدثورها ودروس معاملها ورسومها واستأذنه في بيعها ممن رغب فيها ويؤثر عمارتها للانتفاع بريعها وغلتها وصرف ما يحصل من ثمنها في الأجناد المرتبين للجهاد؛ فأذن له في ذلك إذنًا تامًا مؤكدًا أباحه له وأمضاه لمن يملكه بالابتياع منه وأحله وأطلقه ووقع بذاك على ظهر الرقعة بالأمضاء ووكد بالعلامة الشريفة الأمامية المسترشدية التي قبلها منه وتقلدها عنه وأشهد عليه بذلك الشهود المعدلين وأمضى البيع في ذلك لمن رغب فيه، فعُمّرت عدة ضياع فأجريت عيون مياهها وأعيدت إلى أجمل عاداتها وظهرت منها الخيرات وعمت بذلك الميامن والبركات ودامت له الدولة ولمن بعده ببركات هذه الأفعال الحميدة»[٢].

أتابكة دمشق بعد طغتكين

لقد سار بوري بن طغتكين على نهج والده في التعامل مع الخلافة العباسية، فقد أراد أن يستعين بالخليفة المسترشد عام ٥٢٣هـ في مواجهاته مع الصليبيين فأرسل رسالة بهذا المعنى

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٤٨.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٤٩.

نقلها شيخ حنابلة بغداد عبد الوهاب بن عبد الواحد الواعظ[١].

ولكن يبدو أن المراسلات بين بوري بن طغتكين والخليفة المسترشد لم تكن إلا حبرًا على ورق، فبالتزامن مع هذه الرسائل والمكاتبات كان المسترشد في معركة على السلطة والنفوذ ضد السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه (ت٥٢٥هـ).

والحق أن بوري بن طغتكين كان كثير التقاتل ضد الصليبيين «كثير الجهاد، شجاعا مقداما، سد مسد أبيه، وفاق عليه»[٢] ولو «كان له عسكر كثير، لاستأصل الفرنج»[٣].

ولقد حرص بوري على تطهير إمارته من الباطنية الذين كان خطرهم قد استشرى حتى اخترقوا مستويات كبرى في دولته وبالأخص وزيره ووزير والده من قبل أبو طاهر المزدقاني الذي كان العامل الأول في حماية الباطنية بل عظم خطره وقرّر التحالف مع الصليبيين؛ فعرض على الصليبيين تسليمهم دمشق مقابل إعطائه والباطنيين مدينة صور بدلا عنها، وحدد أحد أيام الجُمع لتنفيذها، حيث يكون المسلمون في المساجد مما يسهل فتح أبواب المدينة للصليبيين بسهولة، ولكن تم كشف المؤامرة قبل موعدها، فقتل السلطان بوري وزيره الخائن وأحرق جثته وعلق رأسه على باب القلعة ونادى بقتل الباطنية، حتى قتل منهم بحلول منتصف رمضان ٥٢٣هـ ستة آلاف شخص، وعند ذلك استنجد داعيتهم إسماعيل العجمي بالصليبيين ليحموه هو وأصحابه مقابل تسليمه قلعة بانياس لهم[٤].

على أن الصليبيين الذين تواعدوا مع المزدقاني على المجيء لم يرجعوا رغم انكشاف حليفهم فقد حاربوا بوري ومن معه من التركمان والعرب والعسكر الدمشقي، لكنهم لم يلبثوا أن انهزموا أمامه، وكان كبير الوعّاظ في دمشق عبد الوهاب الحنبلي ومعه عدد من التجّار قد وصلوا إلى بغداد قبيل المواجهة الصليبية مع بوري ليطلب المدد العسكري والعون من البغاددة وهمّ بتأليب العامة على السلطان والخليفة، غير أن السلطان محمود بن محمد وعده بإرسال المدد لبوري، ولا نعرف هل وصل أم لا[٥]!

---

(١) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ١/ ٢٠٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٨ تدمرى.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٧٥.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٧١.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٦/ ٢٠.

ولقد كان لمقتل المزدقاني وآلاف من الباطنية الأثر السيئ لكبير الباطنية في قلاع الألموت ببلاد فارس برزك أميد الرودباري خليفة الحسن بن الصباح (ت٥٣٢هـ) الذي أرسل اثنين من أتباعه فتخفيا في جند بوري واستطاعا أن يثبا «عليه في يوم الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ٥٢٥هـ وضربه أحدهما بالسيف طالبًا لرأسه فجرحه في رقبته جرحًا لم يتمكن منه وضربه بسكين عند خاصرته نفذت بين اللحم والجلد»[١].

وظل بوري مصابًا بهذه الإصابات الخطيرة حتى تُوفي بأثرها في رجب من العام التالي ٥٢٦هـ وعمرُه ٤٨ عامًا، وكان قد مدحه شاعر الشام في عصره أحمد بن محمد بن الخيّاط الدمشقي (ت٥١٧هـ) بأكثر من قصيدة منها[٢]:

لقد كرّم الله ابن دهرٍ تسوده ... وشرّف يا تاج الملوك بك الدهرا

ومنّ على هذا الزمان وأهله ... بأروع لا يعصي الزمان له أمرا

حسام أمير المؤمنين ومن يكن ... حسامًا له فليقتل الخوف والفقرا

إذا قلت في تاج الملوك قصيدةً ... من الشعر قالوا قد مدحت به الشعرا

وقد خلفه في أتابكية دمشق ابنه شمس الملوك إسماعيل؛ وكان متصفًا بالطموح والاندفاع الزائد، ونجح هذا الحاكم الجديد في استعادة حماة في أول شهر شوال عام ٥٢٧هـ - وكان عماد الدين زنكي أمير الموصل ومؤسس الدولة الزنكية قد ضمها لدولته الناشئة وانتزعها من آل بوري سنة ٥٢٣هـ - مستغلًا انهماك عماد الدين زنكي بمشاكله مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، كما استطاع أن يأخذ قلعة بانياس من الباطنية وأن يهاجم الصليبيين في أواخر سنة ٥٢٨هـ ويظفر بغنائم كبيرة جعلتهم يلجأون إلى الهدنة والصلح[٣].

غير أن إسماعيل لم يلبث أن أساء السيرة، وبالغ في ظلم الأهالي ومصادرة أموالهم، كما أسرف في التخلص من معارضيه، حتى أضحى كل شخص يخشى على حياته، فاضطربت أحوال دمشق، وتألّب الجميع عليه.

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٦٥.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٧١.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٨٥.

وكان قد أدرك إصرار عماد الدين زنكي على مهاجمة دمشق وصعوبة الصمود بوجهه والنقمة تحيطه من كل مكان فقرر القيام بمناورة استهدف من ورائها كسب زنكي إلى جانبه ضد خصومه الدمشقيين، فكاتبه عام ٥٢٩هـ يطلب منه القدوم إلى دمشق لتسليمها إياه طوعًا، وشرط عليه – لقاء ذلك – أن يمكنه من الانتقام من خصومه، وأبلغه أنه إن لم يسرع بتلبية طلبه قام باستدعاء الصليبيين، وسلمهم دمشق وكان إثم المسلمين في عنق زنكي. ثم ما لبث إسماعيل أن شرع بنقل أمواله وممتلكاته إلى صرخد، استعدادًا لتسليم دمشق لأمير الموصل. غير أن كبار أمراء دمشق وقادتها أوضحوا لوالدته – ذات النفوذ الكبير في الإمارة – العواقب الوخيمة التي ستجرها عليهم سياسة ابنها الرعناء فأسرعت بتدبير قتله، وأجلست مكانه في الحكم أخاه شهاب الدين محمود حيث بايعه الناس.

كان عماد الدين زنكي آنذاك قد خرج من الموصل وعبر الفرات في طريقه إلى دمشق، وعندما بلغته أنباء التغييرات التي حصلت، لم يقطع أمله في إيجاد وسيلة التفاهم مع الحكام الجدد، لذلك واصل سيره حتى بلغ أرباض المدينة وأرسل رسولًا إلى حكامها للتفاوض بشأن شروط التسليم اعتقادًا منه بعدم قدرتهم على المقاومة لكن أهل دمشق عزموا على مقاومته فأرسلوا له الرسائل تلو الأخرى يطلبون منه الرجوع(١).

لكن عماد الدين زنكي لم يحفل بهذه الرسائل وأصرّ على المضي للاستيلاء على دمشق، ووصل بالفعل في جمادى الأولى من هذه السنة ٥٢٩هـ، وبدأ في حصاره الذي طال حتى يئس منه وأراد مصالحة شهاب الدين محمود الذي امتنع من الخروج إليه.

ومن اللافت أننا نجد تدخل الخليفة المسترشد العباسي لوأد هذه الفتنة، فقد «وافق ذلك وصول بشر بن كريم بن بشر رسولًا من الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين إلى عماد الدين أتابك بخلع أعدت له والأمر بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولي أمره والتدبير له وأن يخطب للسلطان ألب أرسلان المقيم بالموصل»(٢).

على أن هذه المهادنة لم تمنع المواجهة بين الجانبين خاصة هجمات عماد الدين زنكي على وسط الشام وجنوبه لاسيما حماة وحمص وشيزر وغيرها، وكانت حمص بالتحديد مركزًا

(١) الصلابي: عصر الدولة الدولة الزنكية ص١٠٤.
(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٣٩٢.

حصينًا أراد زنكي أن يضمه لدولته منذ عام ٥٢٩هـ.

ومن ثم فكر زنكي أن يأخذ هذه المدن بطريقة أخرى توفِّر عليه كثيرًا من العناء، وقد تفتح الباب لضم مدن أخرى في المستقبل. لقد فكر عماد الدين زنكي أن يتزوج زواجًا سياسيًّا مهمًّا يكفل له التقرب من حاكم دمشق شهاب الدين محمود بن بوري، بل والاستيلاء على دمشق ذاتها «وأرسل زنكي وخطب أم شهاب الدّين محمود صاحب دمشق وتزوجها وهي زمرد خاتون بنت جاولي، وحملت إليه في رمضان تزوجها طمعا في دمشق فلما خاب أمله أعرض عنها»(١).

وقد قتل محمود بن بوري غيلة من بعض خدمه وموظفيه في شوال سنة ٥٣٣هـ وكان المدبر لدولته أمه زمرد خاتون ومن بعدها القائد العسكري ومملوكه معين الدين أنر(٢).

تولى أتابكية دمشق بعد مقتل شهاب الدين محمود أخوه جمال الدين محمد الذي قيل إنه كان متورطًا في قتل أخيه محمود، وقد كان محمد هذا واليًا لمدينة بعلبك «أساء السيرة، فما متعه الله، فمات بعد محمود بعشرة أشهر، فأجلسوا في الملك ولده آبق وهو مراهق»(٣)، وقد توفي إثر مرض ألم به في شعبان من العام التالي ٥٣٤هـ.

تولى مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابكية دمشق لمدة ١٥ عامًا متصلة، غير أنه كان المسيطر على دمشق فعليًا القائد العسكري المحنك معين الدين أنر الطغتكيني، وكان عماد الدين زنكي المهدد الأكبر لأتابكية دمشق قد قتل في قلعة جعبر سنة ٥٤١هـ، وقد خلفه على الشام ولده نور الدين محمود الذي تقرّب إلى أنر بالزواج من ابنته، على أن وفاة معين الدين أنر سنة ٥٤٤هـ جعلت الباب مفتوحًا أمام نور الدين لحصار دمشق وضمها للدولة النورية، وهذا ما حدث في شهر صفر سنة ٥٤٩هـ «وعوض مجير الدين أبق عن دمشق حمص ثم أخذها منه وعوضه عنها بالس، فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم قصد بغداد في أيام الإمام المقتفي»(٤) ليصبح الشام خاضعًا في مجمله لنور الدين محمود بن زنكي.

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٠.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٧/ ١٠٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٨٤.

إن الدولة البورية أو أتابكية دمشق التي نشأت على أنقاض سلاجقة الشام كان لها – برغم التحدي الباطني والزنكي بعد ذلك – أثر كبير في جهاد الصليبيين، فلقد كانت نقطة التماس، وخط الدفاع الأول عن سلاجقة العراق والخلافة العباسية والزنكيين في العراق والأراتقة وأمراء شمال الشام؛ لقد لعبت هذه الإمارة التي استمرت نصف قرن دورًا مهمًا ومحوريًا في صد الهجمات الصليبية فضلا عن إضعاف شوكة الباطنية الحشاشين في الشام، كما أنها التزمت بالولاء والتبعية الكاملة للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية.

عماد الدين زنكي يغيّر وجه المنطقة!

الدولة السلجوقية دولة عسكرية بالأساس، ومنطق الدولة العسكرية في الحكم، وفلسفتها في الإدارة اعتمدت في الأساس على القادة العسكريين المحنكين، وبالمثل اعتمدت القيادة العسكرية للمدن الكبرى في فارس والعراق والشام على نخبة عسكرية تساعدهم في إدارة شئون هذه المدن والدفاع عنها، فظهر ما يسمى بالأتابكيات وهي دولة داخل دولة!

ظهر عماد الدين زنكي في النصف الأول من القرن السادس الهجري والعالم الإسلامي في أشد الحاجة إلى قائد عسكري محنك ليس كل همه توسيع ملكه، أو الطاعة العمياء للقيادة السلجوقية المسيطرة، أو الدخول في ترهات المشاكسات العسكرية والسياسية الحاصلة آنئذ، كان العراق والشام بحاجة إلى قائد يستفيد بهذا الوضع المعقد بين خلافة عباسية متطلعة إلى القوة، ودولة سلجوقية لا تزال فتية، وأتابكيات وإمارات يسعى كل منها إلى تحقيق مصالحه، وتحدّ صليبي يحتل مدنا كبرى في الشام وكامل إقليم فلسطين، باختصار كان ظهور عماد الدين زنكي في هذا التوقيت بمثابة وجود الرجل المناسب في المكان المناسب والزمن المناسب، ولا يمكن في ظل القراءة التاريخية المتأنية أن نضفي على الرجل مسحة القداسة كما يفعل بعض المؤرخين، فالإنسان بطبعه أشد تركيبية من تفسيره بمنطق أحادي ساذج، فهو في النهاية متأثر بأخلاق ونوازع عصره!

في عباءة السلاجقة!

كان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي، منُذ عهد طفولته، ذلك الدور الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والإدارية في الأعوام (٤٦٥هـ – ٤٨٧هـ) والمكانة التي حصل عليها نتيجة خدماته للسلاطين

السلاجقة، وعمله على تدعيم كيانهم، حتى أنه ضحى بحياته في سبيل الولاء للسلطان السلجوقي بركيارق، ولم ينس هذا تضحية آق سنقر في سبيل عرشه فجازاه - بعد مقتله - بتوجيه العناية والاهتمام نحو ابنه الوحيد عماد الدين زنكي الذي كان آنذاك في العاشرة من عمره، وكان يقيم في حلب تحت رعاية مماليك أبيه، وأصحابه الذين كانوا يكنون الحب العميق لآق سنقر.

لكن لما تولى أمر الموصل قوام الدولة كربوقا سنة ٤٨٩هـ، باسم السلطان بركيارق أولى زنكي اهتمامًا خاصًا، وطلب من بعض مماليك والده المقيمين في حلب إحضار عماد الدين إليه وقال لهم: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته، فأحضروه عنده[١]، ويبدو أن كربوقا أدرك مكانة آقسنقر والد عماد الدين في نفوس كثير من التركمان وعرف ما يكنّون له من الولاء والطاعة، فحرص على أن يضّم إليه ابنه عماد الدين ليحصل على الولاء نفسه الذي يحمله التركمان لوالده، إضافة إلى أن كربوقا أثناء ملازمته لآقسنقر قد أدرك نجابة عماد الدين ومكانته بين مماليك والده، فأراد أن يضمه إلى جانبه للاستعانه به، وبمماليك والده في حروبه ضد خصومه، وربما ليضمن عدم منافسته له مستقبلًا، وقد حظي عماد الدين بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا، وظل عماد الدين زنكي ملازمًا له بالموصل إلى أن توفي كربوقا سنة ٤٩٥هـ[٢].

أعقب شمس الدولة جكرمش كربوقا على ولاية الموصل (٤٩٥ - ٥٠٠هـ) والذي كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه وعلى معرفة بالخدمات التي أداها والد زنكي للسلاجقة، ومن ثم توثقت العلاقة بينه وبين زنكي حيث: قربه وأحبه واتخذه ولدًا، وظل الأخير ملازمًا له حتى وفاته عام ٥٠٠هـ[٣].

بعد وفاة جكرمش تولى جاولي سقاو (٥٠٠ - ٥٠٢هـ) ولاية الموصل وكان زنكي قد بلغ مرحلة الشباب وساد الصفاء علاقاته بالوالي الجديد، إلا أن عصيان الأخير للسلطان محمد عام ٥٠٢هـ وهروبه إلى الشام، دفع زنكي إلى الانفصال عنه وجماعة من كبار الأمراء في

(١) أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ١/ ١٠٤.
(٢) الصلابي: السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره ص٢٣.
(٣) أبو شامة: عيون الروضتين ١/ ١٠٤.

نفس الوقت الذي عين فيه السلطان واليًا جديدًا على الموصل هو الأمير مودود بن التونتكين (٥٠٢ – ٥٠٧هـ)، فانضم زنكي ورفاقه إليه. مما كان له أبلغ الأثر في نفس السلطان والوالي الجديد على السواء، الأمر الذي رشحه لأن يكون من كبار أمراء هذا الوالي، وأن يحصل على مزيد من الإقطاعات، وظل ملازمًا لمودود حتى مقتله عام ٥٠٧هـ على أيدي الباطنية في جامع دمشق.

عاد زنكي بعد استشهاد مودود إلى الموصل ليلتحق بخدمة الوالي الجديد جيوش بك ثم ما لبث أن انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين، في نفس العام، فقاتل في الرها وسميساط وسروج[1]، وأظهر من الشجاعة والمقدرة خلال ذلك ما زاد من شهرته لدى المسلمين، ودفع السلطان محمد إلى أن يطلب من واليه على الموصل تقديم زنكي والرجوع إلى مشورته تقديرًا لإخلاصه وقدراته.

لكن عندما توفي السلطان السلجوقي محمد عام ٥١١هـ، سعى جيوش بك إلى استغلال وجود ابنه مسعود – إذ كان أتابكًا له – ودفعه إلى التوجه إلى بغداد لكي ينصب نفسه سلطانًا على سلاجقة العراق – مستهدفًا من وراء ذلك التحكم الفعلي في شؤون الدولة السلجوقية باسم السلطان الجديد، وقد أيد زنكي هذه المحاولة، وسار الوالي ومسعود متوجهين إلى بغداد على رأس حشد من قوات الموصل إلا أن المحاولة أخفقت بعد سلسلة من الحروب والمناوشات شهدتها منطقة بغداد، واستتب الأمر للسلطان محمود الذي أعقب أباه في الحكم كما مرّ بنا.

وبعد ثلاثة أعوام حاول جيوش بك أن يثور ثانية ضد السلطان محمود، غير أن زنكي رفض تأييده وأشار على المتمردين بطاعة السلطان وترك مخالفته وحذرهم عاقبة العصيان. لكنهم لم يلتفتوا إلى قوله، وأقدموا على تنفيذ محاولتهم التي انتهت هي الأخرى بالفشل بعد هزيمة جيوش بك ومسعود على يد السلطان محمود الذي بلغه موقف زنكي منه فقدره حق قدره وأوصى آق سنقر البرسقي والي الموصل الجديد بالعناية به وتقديمه على سائر الأمراء.

وعندما عين آق سنقر البرسقي عام ٥١٦هـ شحنة على العراق رافقه زنكي واشترك إلى

(١) من أهم مدن الثغور قديما، تقع في شمال الجزيرة الفراتية.

جانبه في المعركة التي دارت ضد دبيس أمير الحلة وانتهت بهزيمة البرسقي، الذي رأى أن يزيد من اعتماده على زنكي في صراعه ضد دبيس، فولاه واسط - ذات الموقع المهم - وكلفه مهمة الدفاع عنها ضد هجمات أمير الحلة. وقد استطاع زنكي أن يسحق في طريقه إلى واسط القوات التي حشدها دبيس للدفاع عن النعمانية، وأن يستولي على هذا الموقع.

وأظهر زنكي في منصبه الجديد حزمًا وكفاءة، وأبان عن مقدرة إدارية فذة، الأمر الذي دفع البرسقي، حاكم العراق إلى إضافة البصرة إلى ولايته، لكي يصد هجمات الأعراب الدائمة عليها، وينشر الأمن في ربوعها فانتقل زنكي إليها لكي يحقق فيها ما أنجزه في واسط من نشر للأمن وقضاء على الفوضى[1].

وقد تمكن في وقت قصير من أن يتوقف هجمات الأعراب وغاراتهم المتتابعة عند حدها، وأن يجليهم إلى أعماق الصحراء، كما قضى على الفتن التي عمت البصرة، وأظهر مقدرة عسكرية وإدارية كالتي أظهرها في واسط من قبل، مما زاد من مكانته في نظر رجالات الدولة السلجوقية ومن رهبته للأعداء، قال ابن الأثير: «فظهر من حمايته لها ما عجب منه الناس، ولم يزل يقصد العرب ويقاتلهم في حللهم، حتى أبعدوا إلى البر»[2].

لكن أُقيل البرسقي من شحنكية العراق في عام ٥١٧هـ وأعيد إلى الموصل، وعين يرنقش الزكوي شحنة بعده فأرسل البرسقي إلى زنكي يستدعيه من البصرة ليتجه معه إلى الموصل غير أن الأخير فضل أن يربط مصيره بالسلطان محمود.

على أن البصرة أمست بعد مغادرة زنكي لها مسرحًا للفوضى، وهدفًا للنهب وهجمات الأعراب، وبلغ السلطان محمود ذلك فأمر زنكي بالعودة إليها، بعد أن أقطعه إياها عام ٥١٨هـ وطلب منه اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتوطيد الأمن في المنطقة، كما كلفه مهمة الإشراف على واسط والسعي للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة بإرسال جيش للاستيلاء عليها، إذ كانت هدفًا لمحاولاته التوسعية، ومن ثم غادر زنكي أصفهان إلى البصرة وباشر مهام منصبه، فأحسن معاملة أهلها واستطاع أن يخلصهم من هجمات الأعراب، وذلك عن طريق تنظيم دوريات عسكرية دائمة للقيام بهجمات مضادة على الأعراب ونصب الكمائن لهم، كما

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٣٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٦٩٥ تدمرى.

اهتم بالوقت ذاته، بأمور واسط وأخذ يمد السلطان بأخبار العراق بحيث لم يخف على الأخير شيئًا من أموره، الأمر الذي زاد من تقديره لزنكي ومن ارتفاع منزلته عنده، ورشحه لمنصب شحنكية العراق كلها[١].

الموصل وبداية الصعود إلى القمة!

حينما توفي أمير الموصل آق سنقر البرسقي عام ٥٢١هـ تولى أمرها أخ صغير له تحت وصاية مملوك تركي يدعى جاولي، أدرك فقهاء البلد حالة من الضعف والتفكك ستنتاب المدينة بعد أمن واستتباب ورخاء مرحلي مرت به، ولذلك قامت عائلة الشهرزوري المعروفة بالعلم والصلاح بدور كبير في تنصيب عماد الدين زنكي في الموصل لكونه قائدا عسكريًا قويًا له تاريخ مُشرّف.

على أن جاولي قام بإرسال القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهر زوري، ونائب عز الدين البرسقي صلاح الدين محمد الياغيسياني إلى بغداد، التي كان بها السلطان محمود السلجوقي، وذلك كي يُقنعوه باستمرار الحكم باسمه بصفة الوصاية عليه، إلا أن القاضي ورفيقه أدركا ذلك الهدف وقد كانا على معرفة بطباع بجاولي السيئة، ومن ثمّ خططا معًا كي يتمكنا من إقناع السلطان بتولية زنكي الموصل وحلب[٢].

وأخذ القاضي الشهرزوري على عاتقه حمل الأمانة وقول الحق، فاجتمع هو وصلاح الدين الياغيسياني بوزير السلطان السلجوقي. وقالا له: «قد علمت أنت والسلطان السلجوقي أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها واستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين ... ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة يذب عنها ويحمي حوزتها وقد أنهينا الحال إليك لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله واللوم من السلطان»[٣].

وتحقق هدفهما عندما استشارهما فيمن يفضلون لولاية الموصل، ويبدو أن القاضي الشهرزوري ورفيقه أشارا عليه بمجموعة من القادة المسلمين من بينهم عماد الدين زنكي

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٦٩٥ تدمرى. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٢.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٧ تدمرى.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٧ تدمرى.

حتى لا يشك في أمرهما وإصرارهما عليه إلا أنهما أختارا عماد الدين بإيعاز من وزيره أنوشروان وعينه واليًا على الموصل، وهنا يظهر دور العالم القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري في اختيار القائد الأفضل لقيادة القوى الإسلامية نحو مواجهة الغزو الصليبي حتى كان لهذا الاختيار أثره في إرساء حجر الجهاد في المشرق الإسلامي، حيث تمكن من خلاله غرس نواة الوحدة مع حلب عندما أخذها ورحب به أهلها عام ٥٢٢هـ لأن موقع حلب الاستراتيجي بين بلاد الشام، ومناطق أعالي الفرات هو الذي جعلها في قلب الأحداث آنذاك حتى إن ذلك الأمير عماد الدين قد أدرك أهمية ذلك الموقع بالنسبة لبلاد الشام والموصل والجزيرة الفراتية وتمنى لو أخذها المسلمون قبل أن يدخلها الصليبيون[١].

اقتنع السلطان محمود بجدارة زنكي في القيام بأعباء المنصب الجديد ومن ثم أصدر منشورًا بتوليته الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام، وسلمه ولديه ألب أرسلان والخفاجي ليكون أتابكًا لهما (أي أبا مربيًا) وفقًا للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك، ومنُذ ذلك الوقت سمي زنكي أتابكًا وأصبح كل من ولدي السلطان محمود تحت إشرافه المباشر. وفي الثالث من رمضان عام ٥٢١هـ وصل بغداد الأمير مجاهد الدين بهروز، قادمًا من بلاد فارس، ليتولى شحنكية العراق، فغادر زنكي ورجاله عاصمة العراق نحو الموصل لتسلم مهام منصبه الجديد وتعتبر أتابكيَّة الموصل نواة للدولة الزنكية[٢].

علاقاته بالخلافة العباسية

كان زنكي قد بدأ يلمع اسمه في العراق في ولاية آق سنقر البرسقي على الموصل (٥١٧ – ٥٢١هـ) فقد كان أحد المقربين منه، وكانت علاقة هذه الإمارة بالخلافة والسلاجقة والقوى العراقية لا سيما العربية منها تقوم في الأساس على منطق الولاء للأقوى؛ فعلى سبيل المثال لم يترك البرسقي وزنكي الخليفةَ المسترشد وكان في أوج قوته يجابه بمفرده حشود دبيس ابن صدقة فجمعوا قواتهم والتقوا به في مطلع عام ٥١٧هـ قريبًا من الحلة، واستطاعوا أن يلحقوا به هزيمة نكراء، وأن يقتلوا ويأسروا الكثير من جنده، واضطر هو ومن سلم من قواته إلى الفرار، بينما عاد المسترشد وحلفاؤه إلى بغداد يستقبلهم الأهالي هناك استقبالا

(١) الصلابي: عصر الدولة الزنكية ص٤٠.
(٢) أبو شامة: عيون الروضتين ١/ ١١٥، ١١٦.



حافلا، بعد تخلصهم من خطر محقق كان يحيق ببغداد ويعرضها للنهب والتخريب، وكان زنكي - لدى مغادرته البصرة - قد فوض شؤونها لمقدم حاميتها الأمير سخت كمان فاستغل دبيس بعد زنكي عنها وهاجمها على حين غرة وتمكن من قتل مقدم حاميتها ونهب أهاليها، لكن زنكي ما لبث أن عاد إلى البصرة ليقر الأوضاع فيها من جديد، فانسحب دبيس من المنطقة واتجه إلى الشام للعمل مع الصليبيين(١).

لكن في عام ٥١٩هـ تدهورت العلاقات بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي رأى نفسه مضطرًا للتوجه إلى بغداد للحد من مطامح الخليفة وفرض سيطرته المباشرة على العراق.

وكان الخليفة قد أرسل بعض جيوشه بقيادة عفيف الخادم للاستيلاء على واسط إلا أن زنكي تمكن من صده والانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين عند مشارف واسط(٢).

وفي العشرين من ذي الحجة وصل السلطان إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب منه إقرار الصلح فرفض الأخير طلبه، الأمر الذي أدى إلى نشوب القتال بين الطرفين وقد رأى السلطان أن يعتمد على زنكي في صراعه هذا فأرسل إليه يأمره بالحضور إلى بغداد على رأس قواته وأن يجلب معه ما يستطيع من زوارق حربية وسفن، فنفذ عماد الدين زنكي الأمر من منطلق الولاء للأقوى أيضًا، وجمع عددًا كبيرًا منها، إثر جولة قام بها في مناطق العراق الجنوبي لهذا الغرض، وبعد أن ملأها بالمقاتلة اتخذ طريقه إلى بغداد، وما أن بلغ الخليفة نبأ تقدم زنكي بقواته الحاشدة برًا ونهرًا، حتى أدرك أنه ليس في طاقته الصمود طويلا إزاء شروط السلطان، وأن بغداد مقبلة على حصار شديد في البر والنهر، فأرسل إليه يعلن موافقته على الصلح، ومن ثم دخل السلطان بغداد حيث تمت المصالحة وساد الوئام(٣).

ولما أراد السلطان محمود الرحيل عن بغداد بعد صلحه مع الخليفة المسترشد نظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية العراق وبغداد، ويأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور فلم ير في أمرائه

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٦٨٥.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٢٣.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٢٣.

وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ويرفع هذا الخرق من الاتساع وتقوى على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي فولاه شحنكية العراق مضافًا إلى ما بيده من الإقطاع وسار السلطان عن بغداد، وقد اطمأن إلى نفوذه في العراق، بعد أن أناب عنه الرجل الذي يستطيع أن يقوم بمهام منصبه خير قيام وأصبح عماد الدين منذ ذلك التاريخ يصرف الأمور في سائر جهات العراق وعلى رأسها بغداد(١).

راوحت علاقة عماد الدين بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بين التعاون المثمر والعداء الشديد وفقًا للمصلحة العامة والشخصية في الوقت نفسه، على أن هذه التقلبات لم تؤثر على مركزه في ولاية الموصل والجزيرة وبلاد الشام، فقد تعرض في بداية حكمه، لمحاولة استهدفت عزله عن منصبه وإحلال دُبَيس بن صدقة أمير الحلة مكانه، ذلك أن هذا الرجل كان قد التحق بخدمة السلطان سنجر، سلطان السلاجقة العظام في خراسان، وأضحى من أمرائه المقربين وحدث أن توجه محمود سلطان سلاجقة العراق إلى خراسان لتصفية المشاكل القديمة مع عمه سنجر وأثناء المباحثات التي جرت بينهما طلب سنجر من ابن أخيه محمود أن:

- يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل والجزيرة وبلاد الشام ويوليها لدُبَيس.
- يطلب من الخليفة تحسين علاقاته به بعد المشاكل التي أثارها ضد الخلافة.

ويبدو أن محمودًا استجاب لطلب عمه، فعندما وصل إلى بغداد في مطلع عام ٥٢٣هـ سعى لدى الخليفة المسترشد بالله لتحقيق ذلك، كما طلب من عماد الدين زنكي التخلي عن منصبه وتسليمه لُدبَيس(٢).

ولقد كان هذا الطلب كافيًا للقضاء على آمال عماد الدين زنكي وتطلعاته السياسية، لذلك تحرك على وجه السرعة لإحباط هذا التدبير، فقدم إلى بغداد، وتمكّن بعد مباحثات طويلة، وتقديم هدايا قيمة من إقناع السلطان بضرورة إبقائه على ولاية الموصل لمجابهة الصليبيين، كما أكّد طاعته وإخلاصه له فخلع عليه وجدد له ولايته، وكتب له منشورًا جديدًا بحكم الموصل والجزيرة والشام، تأكيدًا لمنشور عام ٥٢١هـ.

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٠٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٣.



وقد ساعدت عماد الدين زنكي مجموعة من العوامل على بقائه في منصبه منها ما بذله الخليفة المسترشد من جهود لتثبيت زنكي على الموصل بدافع من كراهيته العميقة لدبيس، حتى أنه أرسل إلى السلطان محمود يقول له: «إن هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثّر سواد الكفار»[١]. وكان دبيس قد انضم إلى الصليبيين بعد هزيمة ٥١٧هـ وأسهم معهم في حصار حلب طمعًا بالاستيلاء عليها وحكمها نيابة عنهم.

لكن تبدلت هذه العلاقة الوطيدة بين الخليفة المسترشد وعماد الدين زنكي الذي كان قد أعلن ولاءه الكامل للسلطان القوي سنجر بن ملكشاه الذي سلّط زنكي ودبيسًا لمحاربة المسترشد وقتاله والحد من قوته المتصاعدة، وقد تناولنا ذلك من قبل، كما تناولنا بالتفصيل أسباب حصار المسترشد لعماد الزنكي والموصل سنة ٥٢٧هـ وذلك عقب انتصاره عليه سنة ٥٢٦هـ وقد باء حصاره بالفشل بسبب الهجوم المباغت لدبيس بن صدقة ومسعود بن محمد السلجوقي على بغداد.

واللافت أنه كان للحروب التي حدثت بين السلاجقة فيما بينهم من جهة، ثم فيما بينهم وبين الخلافة العباسية من جهة أخرى، واشتراك عماد الدين زنكي فيها نتائج مهمة على وضعه السياسي والعسكري منها:

١ - أنه خسر علاقته الودية بالسلطنة السلجوقية التي استفاد منها في أيام السلطان محمود، إلا أنه حصل على مدينة إربل المهمة عسكريًا.

٢ - اتسعت شهرته كأمير ذي قوة مؤثِّرة في الصراع الدائر في المنطقة.

٣ - خرج من تلك الحروب وقد تعرَّف على عائلة بني أيوب، مما سيكون له أثر كبير في تطور هذه العائلة، وازدياد نشاطها.

٤ - تدهورت العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية[٢].

لكن في مطلع عام ٥٢٨هـ أجرى الخليفة المسترشد بالله العباسي مفاوضات ناجحة مع عماد الدين زنكي وعُقد الصلح بين الجانبين وتبودلت الهدايا، وأرسل عماد الدين زنكي ابنه

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ص٣٠٢.
(٢) الصلابي: عصر الدولة الزنكية ص٨١، ٨٢.

سيف الدين غازي إلى الخليفة ليؤكد طاعته وولاءه له، بل واستنجد الخليفة بزنكي عام ٥٢٩هـ أثناء صراعه مع السلطان مسعود وكان عماد الدين زنكي آنذاك يحاصر دمشق[1]، ففك الحصار عنها، وعقد صلحًا مع حكومتها حتى لا يُطعن من الخلف وعاد مسرعًا إلى بغداد لنجدة الخليفة إلا أنه وصل متأخرًا، إذ انتصر السلطان مسعود على الخليفة المسترشد في المعركة التي دارت بينهما في العاشر من شهر رمضان ووقع في الأسر، وظل مأسورًا حتى منتصف ذي القعدة، حين هاجمه جماعة من الباطنية وقتلوه كما مرّ بنا ذلك مفصّلا.

وهكذا من خلال ما مرّ بنا نلحظ أن عماد الدين زنكي تعامل مع القوى السلجوقية والخلافة العباسية من منطلق الولاء للأقوى وذلك للحفاظ على إمارة الموصل والجزيرة والشام وهي السنوات السبع الأولى لحكمه لهذه الولايات، ففي زمن السلطان محمود كانت العلاقات هادئة يشوبها الولاء الكامل، وبعد وفاته يعلن ولاءه للسلطان الكبير سنجر، لكن سرعان ما يدين بالطاعة للسلطان المتغلب مسعود، غير أنه في نهاية المطاف يأخذ جانب الخليفة المسترشد حينما أدرك أن قوة مسعود المتنامية أصبحت خطرًا حقيقيًا على أملاكه وإمارته!

❋ ❋ ❋

(١) وكانت في ظل الحكم البوري كما سنرى.



الراشد بالله

(ذو القعدة ٥٢٩هـ إلى ذي القعدة٥٣٠هـ)

هو أمير المؤمنين أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله الفضل بن أحمد العباسي، ولد في رمضان عام ٥٠٢هـ، وخُطب له بولاية العهد عام ٥١٣هـ، واستخلف في السابع من ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ، وأمه أم ولد اسمها جُلنار، وقد بايعه الأعيان ببغداد والأمراء، وخطب له على المنابر ببغداد وسائر البلاد(١).

كان الراشد «أبيضَ مشرّب حمرة جسيمًا».

وكان نقش خاتمه: «من آمن بالانتقال عمل للمآل»(٢).

علاقته بالرعية

هو شاب إذن في السابعة والعشرين من عمره، يبتدئ فترة حكمه بالتقرب من الرعية برد ما نهبه عمال والده منهم، ورفع المظالم عنهم، والإصلاح الإداري في مؤسسات الدولة بتعيين الموظفين والقضاة الموثوق فيهم، ثم يعلن أهم هذه الإصلاحات في قرار رسمي جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لما أجل الله محل أنبيائه وجعله نائبا عنه في أرضه آمرا في سمائه وارتضاه خليفة على عباده وعاملا بالحق في بلاده تقدم بتصفح ما كان يجري على أيدي النواب في الأيام المسترشدية سقاها الله رحمة مستهلة السحاب وما عساه كان يتم من أفعالهم الذميمة، فوقف من ذلك على سهم المطالبة بغير حق فاقتضى رأيه الشريف التقدم برفع المطالبة عنهم، وأبرز كل ما وجد وأوعز برده على أربابه ليحظى الإمام الشهيد بزلفي ثوابه، وليعلم الخاصة والعامة من رأي أمير المؤمنين إيثاره رضا الله سبحانه»(٣).

وقد أنفذ الراشد قراره السابق سريعًا حيث دخل نائبه «وأخرج من باب الحجرة أكياسًا

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦٩.
(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٢.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥١.

فيها حجج الناس ووثائقهم وما كتب عليهم وما أخذ منهم فأعيد على أربابه وشهد الشهود على كل منهم أنه قد أبرأ أمير المؤمنين مما يستحقه في ذمته وتقدموا إلى خازن المخزن بإخراج ما عنده من الوثائق فانصرف الناس يدعون لأمير المؤمنين ويترحمون على الماضي»[١].

كان الراشد في مدة ولايته التي استمرت شهورًا معدودات «حسن السيرة، مؤثرا للعدل»[٢]. ولعله لم يرد أن ينشغل عن معركته الكبرى بتحميل الرعية ما لا تحتمل؛ إذ كانت الكراهية تملأ قلبه على السلطان مسعود الذي تسبب في هزيمة والده وإذلاله ومقتله بعد ذلك على اختلاف الروايات كما ذكرنا.

صراعه ضد مسعود

في بداية العام ٥٣٠هـ أوفد السلطان مسعود مبعوثًا خاصًا للخليفة الجديد يطالبه فيه بدفع الفدية التي اتفق مع والده على أدائها، وقدرها أربعمائة ألف دينار، وهو مبلغ ضخم جدًا لم يكن الخليفة الجديد يملكه، غير أن مبعوث السلطان واسمه برتقش الزكوي لم يصدق كلام الراشد وأراد أن يفتش دار الخلافة ويأخذ منها ما تصل إليه يداه، وهذا إمعان من السلطان مسعود في القضاء على هيبة خلفاء بني العباس بصورة تظهر مدى عجزهم وإذلالهم أمام العامة.

لكن خليفة شابًا وصفه المؤرخون بالقوة والهيبة والشجاعة - وحكوا عنه هذه القصة وقالوا: «إنه كان بدار الخلافة أيل عظيم اعترضه في البستان، فأحجم الخدم، فهجم على الأيل، وأمسك بقرنيه ورماه، وطلب منشارا، فقطع قرنيه»[٣]- لن يرضى بهذا التجاوز الخطير والكبير من هذا الموظف المتطاول!

فقد «جمع العساكر لمنعها وأمّر عليهم كج آبه[٤] وأعاد عمارة السور فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبِك آبه شحنة بغداد وهو من أمراء السلطان على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد بالله فاستعد لمنعهم وركب برتقش ومعه العسكر في نحو خمسة

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥١.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦٩.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦٩.
(٤) أحد كبار القادة العسكريين من المماليك في دولة الراشد بالله.



آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فأخرجوا عسكر السلطان إلى دار السلطان فساروا إلى طريق خراسان ثم انحدر بك آبه إلى واسط وسار برتقش إلى البندنيجين[١] ونهبت العامة دار السلطان»[٢].

والغريب أنه بعد حادثة إخراج عساكر السلطان مسعود من العراق تداعت جل الإمارات والولايات الأخرى بفض يد الطاعة ومناوءة مسعود، وكان أبرز المناوئين عماد الدين زنكي أتابك الموصل والملك داود بن محمود السلجوقي أمير أذربيجان وبوزابه أمير فارس، قال ابن العمراني: «اجتمع عليه من كان تفرّق من غلمان أبيه وأقطع العراق واستدعى زنكي من الشام وداود بن محمد من أذربيجان وبوزابه من بلاد فارس وجمع ببغداد ثلاثين ألف فارس وعوّل على قصد السلطان مسعود والأخذ بثأر أبيه»[٣].

لكن جرت مباحثات سياسية، حاول فيها السلطان مسعود تقديم السمع والطاعة للخليفة شريطة أن يُبعد كلا من داود وزنكي من بغداد، لكنهما رفضا وأصرا على القتال وهو الأمر الذي وافق هوى الراشد في محاولة منه لاستعادة مجد الخلافة، والثأر لأبيه كما ذكر ابن العمراني سالفًا؛ ولذلك «تأكدت الوحشة بين السلطان والخليفة جدًا، وبرز الخليفة إلى ظاهر بغداد ومشى الجيش بين يديه، كما كانوا يعاملون أباه وخرج السلطان داود من جانب آخر، فلما بلغهم كثرة جيوش السلطان حسّن عماد الدين زنكي للخليفة أن يذهب معه إلى الموصل، واتفق دخول مسعود إلى بغداد، في غيبتهم، فاستحوذ على دار الخلافة بما فيها جميعه، ثم استخلص من نساء الخليفة وحظاياه الحلي والمصاغ والثياب التي للزينة، وغير ذلك»[٤].

ورغم أن جيش زنكي والخليفة كان جاهزًا لملاقاة السلطان مسعود إلا أنهما لم يثبتا في هذا الموقف، اللهم إلا مناوشات بسيطة دارت بين طلائع جيش مسعود وزنكي[٥].

---

(١) البندنيجين تسمى الآن بمدينة مندلي وتقع على بعد ١٦٠ كم شمال شرق مدينة بغداد. يحدها من الشمال قضاءا (خانقين والمقدادية) ومن الجنوب قضاء بدرة التابعة لمحافظة واسط ومن الشرق إيران ومن الغرب قضاءا بعقوبة والمقدادية.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٢٨٨.

(٣) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٢٢.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٦١.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٨.

والحق أن الريبة التي أصابت القادة المحيطين بالخليفة من بعضهم هي التي عجّلت برحيل زنكي والراشد إلى الموصل، فقد أرسل «مسعود عسكرا إلى واسط[1] فأخذها والنعمانية[2] فنهبها وضرب بقاع جازر[3] فمضى البازدار بوزابه فجلس بإزائه ونفذ الراشد العساكر ومضى سيف الدولة يطلب الحلة ونودي لا يبقى ببغداد من العسكر أحد فرحل الناس وخرج الراشد فضرب بصرصر[4] واستشعر بعض العسكر من بعض فخشي- زنكي من ألبقش[5] والبازدار[6] فعاد إلى ورائه فرجع أكثر العسكر منهزمين ودخل الراشد بغداد. وقيل إن السلطان مسعود كاتب زنكي سرا وحلف له أن يقره على بلاده وعلى الشام جميعه وكاتب الأمراء وقال: من منكم قبض على زنكي وقتله أعطيته بلاده، فعرف زنكي ذلك فأشار على الراشد أن يرحل صحبته»[7].

خلع الراشد!

دخل السلطان مسعود بغداد مستبيحًا لدار الخلافة ومسيطرا على العاصمة بعد هرب الراشد منها، ومظهرًا قوته وبطشه، وبعد مدة وجيزة جمع القضاة والفقهاء وأظهر لهم ورقة قال إنها بخط الراشد جاء فيها: أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان فقد خلع نفسه من الخلافة فأفتى من الفقهاء بخلعه، فخُلع في يوم الاثنين سادس عشر- شهر ذي القعدة بحُكم الحاكم وفُتيا أكثر الفقهاء[8].

ويُفصّل ابن دحية كيفية خلع الراشد وفتوى الفقهاء بذلك بقوله: «اجتمع الوزير أبو

---

(١) واسط: محافظة عراقية تقع وسط العراق.

(٢) مدينة عراقية تقع على ضفة نهر دجلة في محافظة واسط جنوب شرق بغداد.

(٣) جازر: من قرى مدينة واسط. البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ٣٠٦.

(٤) ثاني الأكبر الأنهار الآخذة من الفرات إلى دجلة ويجري بموازاة نهر عيسى في جنوبه. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٥٠.

(٥) ألبقش السلاحي: كان نائب الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه أمير إقليم الجبال، انضم إلى الخليفة المسترشد ثم الراشد في محنته أمام السلطان مسعود ثم سرعان ما تخلى عنه وقد رجع إلى السلطان مسعود فرضي عنه وعيّنه شحنة بغداد أي محافظ بغداد سنة ٥٣١هـ. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٥١، ٥٧، ٧٢، ٧٧، ٨٢ تدمرى.

(٦) الأمير يرنقش البازدار أمير مدينة قزوين، وأحد المناوئين للسلطان مسعود والمتحالفين مع الخليفة المسترشد والراشد. توفي سنة ٥٣٥هـ. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٣٦، ٣٨، ٦١، ٦٣، ٧٢، ١١٣.

(٧) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٩.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٦١.



القاسم علي بن طراد الزينبي، وكاتب الإنشاء ابن الأنباري وصاحب المخزن أبو الفتوح طلحة يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وكتبوا محضرًا فيه شهادة جماعة من العدول بما جرى من الراشد بالله من الظلم وأخذ الأموال، وسفك الدماء، وشرب الخمر وذكروا فسقه وعدوا أفعاله وارتكابه المحارم واستفتوا الفقهاء فيمن فعل ذلك، هل تصح إمامته أم لا، وهل إذا ثبت فسقه بما ذكر عنه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه، ويستبدل به من أهل بيته من خير منه طريقة ودينًا، فأفتى الفقهاء الذين في ذلك الوقت بخلعه، وفسخ عهده، وحل عقده، والاستبدال به غيره إذا كان بهذه الصفة، وعرضت هذه الفتوى والمحضر على السلطان مسعود: فقال: هذا أمر قد قلدتكم إياه وأنا منه بريء عند الله.

ثم قال: اختاروا رجلا من هذا البيت يصلح لهذا الأمر، فوقع الاختيار بواسطة الزينبي أن يولي أبا عبد الله محمد بن المستظهر بالله، فلما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، حضر السلطان مسعود والجماعة الذين حضروا دار الخلافة في الدار التي على دجلة، وتعرف بالمثمنة، وأحضر أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله ولقب بالمقتفي لأمر الله، وعاد السلطان مسعود إلى داره، ثم فتح باب الدار القائمية، بكرة يوم الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة، فبايعه الفقهاء والقضاة والشهود وأعيان الناس، ثم خلع الراشد وكان مقيمًا بالموصل»[(١)].

وهذه الفتوى لها حظ من سخط السلطان مسعود على الخليفة الراشد ولولا الخلاف الذي وقع بين الخليفة والسلطان لما سمعنا بها أصلا[(٢)].

على أن ابن الجوزي يذكر أن السلطان مسعود قد أتى بورقة قيل إن الراشد هو الذي كتبها قبل الهرب إلى الموصل وفيها:

«متى جندت أو خرجت فقد خلعت نفسي من الأمر»، فشهد الشهود أن هذا خط الخليفة وأحكم الوزير علي بن طراد النوبة وأحضر الفقهاء والقضاة وخوفهم وهددهم أن لم يخلعوه وكتب محضر فيه أن أبا جعفر بن المسترشد بدا من أفعاله وقبح سيرته وسفكه الدماء المعصومة وفعل ما لا يجوز معه أن يكون إماما وشهد بذلك جماعة وحكم ابن الكرجي قاضي

(١) ابن دحية الكلبي: النبراس في تاريخ بني العباس ص١٤٤.
(٢) الصلابي: دولة السلاجقة ص١٦٥.

البلد بخلعه يوم الاثنين سادس عشر الشهر بحكم الحاكم وولي المقتفي»[١].

لكن لـمَ هذه الحماسة التي تتجلى في رأي الوزير علي بن طراد الزينبي ولماذا تم الاتفاق على محمد بن المستظهر بالله عم الراشد الملقب بالمقتفي بأمر الله دون غيره من أمراء البيت العباسي؟!

كان ابن طراد الزينبي سليل البيت العباسي وقريب الخلفاء بل كبير الأسرة العباسية في العراق ونقيبهم قد ترقى في دولة المسترشد وعين وزيرًا له، ثم قبض عليه بسبب أمور وشكايات وقعت منه سنة ٥٢٣هـ ثم أُفرج عنه سنة ٥٢٨هـ وأعيد لوزارة المسترشد مرة أخرى، وسار معه لحرب السلطان مسعود في العام التالي ٥٢٩هـ، ولما هُزم المسترشد ثم قتل بعد ذلك، وقع ابن الزينبي في الأسر، واستعان به السلطان مسعود لما رجع إلى بغداد ووجد أن الراشد قد هرب، فاقترب من السلطان مسعود وحسّن له أن يترك الراشد ولا يتودد إليه وهوّن من أمره، وأشار عليه أن يعجل باستخلاف محمد بن المستظهر بالله، وقد كان هذا الأخير زوج ابنته؛ فضلًا عن كونه أخا الخليفة المسترشد بالله، وهكذا قبل مسعود رأي ابن طراد وأرهبا معًا كبار فقهاء بغداد ليشهدوا على الخليفة الراشد بسوء الخلق والخلاعة والمجون والجور؛ كي يشرعنوا لخلعه واستخلاف زوج ابنة الوزير ابن طراد محمد المقتفي بأمر الله، وهذا ما حدث بالفعل[٢].

تتبع السلطان مسعود للراشد

بعد الانتهاء من خلع الراشد واستخلاف المقتفي تفرغ مسعود لحرب الراشد الذي كان

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٦٠. وقد نقل ابن تغري بردي من تاريخ ابن الحداد الحنبلي (ت٥٧٣هـ) وهو «الذيل على ذيل ابن الزاغوني» وهو تاريخ مفقود لبغداد من سنة ٥٣٧هـ إلى سنة ٥٧٠هـ، قوله: «قال صدقة الحدّاد الحنبليّ فى تاريخه: إن الوزير أبا القاسم بن طرّاد صدّر محضرا على الراشد فيه أنواع من الكبائر ارتكبها من الفسق والفجور ونكاح أمّهات أولاد أبيه وأخذ أموال الناس وسفك الدماء، وأنّه فعل أشياء لا يجوز أن يكون معها إماما. فتوقّف الشهود؛ فهدّدهم ابن طرّاد وقال: علمتم صحّة هذا، فما المانع من إقامة الشهادة! فشهدوا. وكان السلطان مسعود قد جمع القضاة والشهود والأعيان وأخرج لهم نسخة يمين كانت بينه وبين الراشد، أخذها عليه بخطّه: «متى حشدت أو حاذيت وجذبت سيفا فى وجه مسعود فقد خلعت نفسى من هذا الأمر»، وفيها خطوط القضاة والشهود بذلك. فحكم القضاة حينئذ بخلعه؛ فخلع فى يوم الاثنين ثامن عشر ذى القعدة. وولّوا المقتفى محمد ابن المستظهر أخ المسترشد عمّ الراشد هذا، وحبس الراشد إلى أن مات». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٥٨، وإسماعيل البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ١/ ٦٩٦.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥٠، وابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٢٢.



قد بدأ في جمع الحشود حوله، واحتمائه بالأمير عماد الدين زنكي أمير الموصل والشام والجزيرة وكتب السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي أمير الموصل في القبض على الراشد وإرساله إلى بغداد، فمنع من ذلك زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين صاحب إربل وقال لعماد الدين: «هو ضيف عندنا وفي كرامتنا وقد كان بالأمس خليفتنا والله ولا سلمناه، ولو أريقت دونه الدماء ما دامت الأرض والسماء، فاعتذر عماد الدين للسلطان مسعود وقال: إني أخرجه من ولايتنا، فأرسل إليه أنت عسكرًا يقبض عليه في غير جهتنا، وأعد له زين الدين جماعة من الأكراد، فساروا بين يديه على طريق قريبة لا يعرفها من الناس إلا آحاد أو بعض آحاد فوصل مراغة أذربيجان»[١].

وقد كان عماد الدين زنكي قد اعترف بشرعية الخليفة الجديد عقب سفارة الفقيه القاضي كمال الدين الشهرزوري في رجب سنة ٥٣١هـ، لذا كان الراشد حانقًا أشد الحنق من زنكي الذي لم يفعل شيئًا له، بل جعله يخرج من الموصل هاربًا إلى أمراء إيران، ولذلك كان الراشد عازمًا على قتل زنكي، غير أن إفصاحه عن نيته لأحد المقربين من زنكي جعل الخطة تفشل[٢]!

ولما وصل الراشد إلى أذربيجان أرسل إلى السلطان الكبير سنجر بن ملكشاه ليعينه على هذه المصيبة التي بات فيها بالجنود والعتاد، فرد عليه سنجر معتذرًا بحرب المسلمين مع الكفار وابتعادها عنه بقوله: «قد آبت عساكر المسلمين إلى جانب جيحون وإن حزب الله هم الغالبون»[٣].

ويذكر ابن العمراني أن الراشد طلب العون من سلاجقة الروم وبعض أمراء التركمانيين الأقوياء لكنهم أيضًا لم يُجيبوه ولا ردوا عليه[٤]!

لكن الراشد لم ييأس وظل يُكاتب أمراء الأطراف حتى انضم له منكوبرس أتابك فارس والأمير بوزابه أمير إقليم فارس ونائب الأمير منكبرس على خوزستان[٥] اللذين أعدا خطة محكمة

---

(١) ابن دحية الكلبي: النبراس ص١٤٣.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ٨/ ٣٨٤٩، ٣٨٥٠.

(٣) الحسيني: أخبار الخلافة العباسية ص١٠٩.

(٤) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٢٣.

(٥) خوزستان أو عربستان هي إحدى محافظات إيران ومركزها مدينة الأحواز. تضم مدنًا رئيسية أخرى مثل عبادان ودزفول ومسجد سليمان وغيرها، وتقع بمحاذاة الكويت على الجهة الغربية من الخليج العربي.

لما علما أن السلطان مسعود قد خرج من العراق ليقطع عليهما طريق ذهابهما إلى الراشد في أذربيجان؛ لكنهما هزماه وأسرا كثيرًا من أمرائه، ونجحا في كسر السلطان مسعود وطرده من إيران «فسار الراشد من مراغة[١] ولقيه بوزابه على باب همذان والتحق بهم خوارزم شاه[٢] وكل عسكر كان بالجبال وخوزستان وقصدوا أصفهان ونزلوا على بابها أيامًا وعوّلوا على قصد بغداد، وأراد الخليفة الذي ببغداد، وهو المقتفي لأمر الله أن يهرب إلى البطائح واستدعى المظفر بن حماد أمير البطائح وأعدّ السفن تحت الدار ينتظر هجومهم عليه حتى يهرب»[٣]!

مقتل الراشد

كان مقتل الراشد عقب خلعه بشهور قليلة، فقد قتل في عام ٥٣٢هـ في أصفهان، وقد تناول ابن الجوزي أسبابًا ثلاثة أودى أحدها إلى مقتل الراشد، قال: «خرج الراشد من الموصل الى بلاد أذربيجان ثم مضى إلى أصفهان وقوى ثم مرض مرضا شديدا. وفي سبب موته ثلاثة أقوال: أحدها أنه سُقي السم ثلاث مرات. والثاني أنه قتله قوم من الفراشين الذين كانوا في خدمته. والثالث أنه قتله الباطنية وقُتلوا بعده. وكان موته في سابع عشرين رمضان وبلغ الخبر فقعدوا له في العزاء يوما واحدا»[٤]

على أن الذهبي يذكر أن الراشد خرج من الموصل إلى بلاد أذربيجان ثم إلى مراغة وكان معه جماعة فصادروا أهلها، وعاثوا في تلك الديار ثم ذهبوا إلى همذان فأفسدوا فيها، وحلقوا لحى جماعة من الفقهاء، و«عثوا ومضوا إلى نواحي أصبهان، فانتهبوا القُرى، وحاصروا البلد في جمع من أجناد داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه، فمرض الراشد مرضًا أشفى منه، بلغنا أن جماعة من العجم فراشين كانوا في خدمته، اتصلوا به هناك، فدخلوا عليه في رمضان سنة اثنتين وثلاثين فقتلوه بالسكاكين، وقُتلُوا بعده كلهم. وقيل : كان قد سقي سُمًّا، ثم دفن بالمدينة العتيقة بأصفهان في حجرة من بناء نظام الملك وجاء الخبر إلى عمَّه المقتفي، فعقدوا له العزاء يومًا واحدًا»[٥] ومع مجيء عهد المقتفي يبدأ عصر جديد للدولة العباسية حيث حرص

---

(١) هي مدينة تقع في شمال غرب إيران.

(٢) أتسز بن محمد خوارزمشاه توفي سنة ٥٥١هـ.

(٣) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٢٣.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٦٧.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٧٢.

على إعادة هيبة الخلفاء بذكاء ودهاء ونجح في ذلك إلى حد كبير.

لقد كان الراشد «جميل الطوية للرعية، حسن السيرة كارهًا للفتن محبًا للأمن، إلا أن للمقادير حكمها»[١].

ومما أُثر عن الراشد قوله: «إنا نكره الفتن إشفاقًا على الرعيَّة ونؤثر العدل والأمن في البرية، ويأبى المقدور إلا تصعب الأمور واختلاط الجمهور، فنسأل الله العون على لمّ شَعَث الناس بإطفاء نائرة البأس»[٢].

وللراشد قصيدة أولها[٣]:

سأقتضي من ذمتي ديوني ... إن أخرتني رِيَب المنونِ

ولستُ بالراشد إن لم أنتخي[٤] ... لهاشم عن حسبي وديني

وأستثيرَنَّ لمسترشدكم ... من عصبة قد مرقوا في الدين

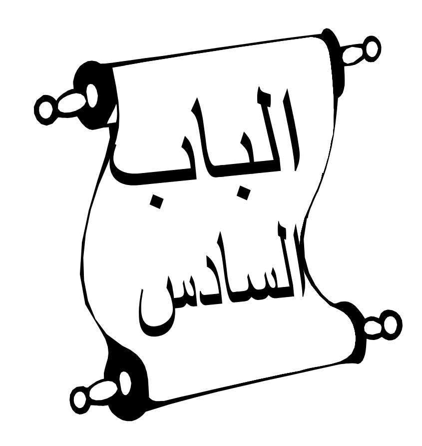
* * *

(١) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٢.

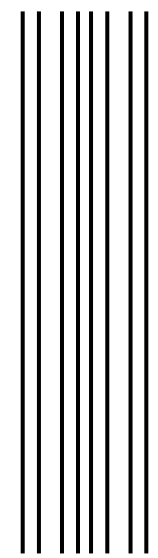
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٧٠.

(٣) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٢.

(٤) أنتخى: من النخوة وهي الفخر والزهو. راجع المعجم الوسيط ٢/ ٩١٠.



استقلال وانهيار





الباب السادس: استقلال وانهيار

قال العلامة رشيد رضا: «الدواء المستأصل لهذا الوباء، هو إحياء منصب الإمامة، بإعادة سلطة أهل الحل والعقد المعبر عنهم بالجماعة، لإقامة الحكومة الإسلامية الصَّحيحة، الَّتي هي خير حكومة يصلح بها أمر المسلمين بل أمر سائر البشر، بجمعها بين العدل والمساواة وحفظ المصالح ومنع المفاسد، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وكفالة القاصرين والعاجزين، وكفاية الفقراء والمساكين من صدقات المسلمين، ففيها علاج لجميع المفاسد الاجتماعية»(١).

***

في هذا الباب نتناول المائة والثلاثين عامًا الأخيرة من حكم الخلافة العباسية، وهو قرن ونيف شديد الغرابة؛ إذ فيه يتحصل العباسيون أخيرا على حريتهم التي سُلبت آنفًا على يد البويهيين ومن بعدهم السلاجقة، بل استطاعت أن تقف أمام التحدي الخوارزمي وهو تحد كان يمكن أن يعيد ذات السياسة البويهية والسلجوقية على العباسيين من جديد، ومع فترة الاستقرار هذه، وبالرغم من الهدوء الذي ساد العراق فترة ليست بالقصيرة نرى الخطر الأكبر يلوح في الأفق، خطرًا ظل أربعين سنة متواصلة يأكل الأخضر واليابس حتى استطاع أن يبتلع الخلافة العباسية، ذلك هو الخطر التتري المغولي.

وخلفاء هذا العصر هم:

- أبو عبد الله محمد المقتفي بأمر الله
- أبو المظفر يوسف المستنجد بالله
- أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله
- أبو العباس أحمد الناصر لدين الله
- أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله
- أبو جعفر المنصور المستنصر بالله
- أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله

---

(١) محمد رشيد رضا: الخلافة ص٧٧.



المقتفي لأمر الله

(من ذي القعدة ٥٣٠ هـ إلى ربيع أول ٥٥٥ هـ)

هو محمد بن المستظهر بالله ويكنى أبا عبد الله وولي من أولاد المستظهر المسترشد والمقتفي وهما أخوان.

وولد المقتفي في ربيع الآخر سنة ٤٨٩هـ وكان عمره عند توليته الخلافة ٤١ عامًا تقريبًا، وسنرى بعد قليل كيف أن هذا الخليفة الذي تولى الخلافة مدة خمس وعشرين سنة متصلة كان يسير في حذو أخيه المسترشد في هيبته وقوته وشجاعته، غير أنه كان أذكى من المسترشد وولده الراشد، وهو أول من أعاد الهيبة الحقيقية للخلافة العباسية، وأول من بدأت الخلافة العباسية تنحو في عهده نحو الاستقلال والثبات والقوة من جديد، ولم يكن من المستغرب أن يقول الذهبي فيه: « ولم يزل أمر الخلفاء في ضعف إلى أن استخلف المقتفي لأمر لله فانصلح أمر الخلافة قليلا»[١].

كانت أم المقتفي لأمر الله أم ولد يُقال لها «نزهة حبشية، كان لها ثلاث بنين: المقتفي وأبو الحسن عبد الله وأبو طالب العباس، وكانت موصوفة بالكرم والإفضال أدركت خلافته[٢].

كان المقتفي بأمر الله «تام الطول، عبل الجسم[٣]. نقش خاتمه: كن مع الله على حذرٍ تسلم»[٤].

صبرٌ وفطنة!

كان اختيار المقتفي لأمر الله لتولي الخلافة بناء على تزكية الوزير أبو القاسم علي بن طراد الزينبي، وكمال الدين بن طلحة صاحب المخزن[٥]، ومؤيد الدين بن الأنباري كاتب الإنشاء

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٥٤.
(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٣.
(٣) عبل الجسم: ضخم الجسم. المعجم الوسيط ٢/ ٥٨١.
(٤) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٣.
(٥) وزير المالية في عرفنا الآن.

على أن يضمنوا عدم خروجه على السلطان مسعود ووافقوا على ذلك، وتمت مبايعته في اليوم الثالث من خروج الراشد صوب الموصل وهو يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٥٣٠هـ[١].

ويمكن أن نرى تفاصيل الشروط التي اتفق عليها السلطان مسعود مع الوزير الزينبي، وصاحب المخزن، وكاتب الإنشاء، والتي تعهدوا بها للسلطان؛ فقد قال لهم مسعود: «لا أريد أن يجلس إلا من لا يداخل نفسه في غير أمور الدين ولا يُجنّد ولا يتخذ، ولا يجمع ولا يخرج عليّ ولا على أهل بيتي»[٢]. ولذلك «بايعوا المقتفي على ألا يكون عنده خيل، ولا آلة سفر»[٣].

وهذه الشروط التي وافق عليها المقتفي ووافق عليها من بايعوا له تبين أن مسعود لم يرد إلا خليفة لا شأن له على الإطلاق، ولذلك لم يكن من العبث أن يأخذ «البيعةَ له على الناس السلطان غياث الدنيا مسعود وأخوه سلجوق شاه وشرف الدين أبو القاسم على بن طراد الزينبي»[٤].

والحق أن المقتفي تقمّصَ دور الخليفة الضعيف ببراعة منقطعة النظير في السنوات الست الأولى من خلافته، لقد جارى المقتفي السلطان مسعود في بداية حكمه حيث أرسل مسعود رسلًا «فأخذ جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغال وأثاث وذهب وفضة وسُتور وسرادق وحُصر ومساند وطالب الناس بالخراج ولم يترك في الاصطبل الخاص سوى أربعة أرؤس من الخيل وثلاثة من البغال برسم الماء[٥] فقيل إنهم أخذوا ذلك ليحبسوا مما تقرر على الخليفة وقيل بل بايعوا على أن لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر وأخذوا جواري خادمات وغلمان كان ابن الداريح ينوب عن العميد[٦] فضمن أطيان سلاحية الخليفة بمائة ألف دينار فأخذت أموالهم»[٧].

---

(١) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٢٥، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٣٢.
(٢) تاريخ الفارقي ص٢٥١.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣١٠.
(٤) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص٢٢٥.
(٥) لحمل الماء.
(٦) العميد: السيد المعتمد عليه في الأمور. ابن منظور: لسان العرب، مادة عمد ٣/ ٣٠٢. وهو لقب أطلقه السلاجقة على رئيس العراق من ناحيتهم. وعلى رئيس كل إقليم آخر.
(٧) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٦١.

ولم يترك السلطان مسعود الظافر لزوجة الخليفة المخلوع الراشد بعض إقطاعها إلا بعد استلطافها واستعطافها له، ولم يستطع المقتفي أن يتدخل لإيقاف هذه المهزلة!

لكن هذه المجاراة كشفت لنا عن حقيقة المقتفي الذي رفض أن يصادر الناس ويفرض عليهم الضرائب لدفع الغرامة التي كانت على أخيه المسترشد؛ فقد «ورد أبو البركات بن مسلمة وزير السلطان مسعود، فقبض على أبي الفتوح بن طلحة (وزير المالية) وقرر عليه بحمل مائة ألف دينار من ماله ومن دار الخلافة، فبعث إليه المقتفي يقول: ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله، فجرى ما جرى. وأن المسترشد ولي ففعل ما فعل، ورحل وأخذ ما تبقى، ولم يبق إلا الأثاث، فأخذته كله وتصرفت في دار الضرب[١]، وأخذت التركات[٢] والجوالي[٣]، فمن أي وجهٍ نقيم لك هذا المال وما بقي إلا نخرج من الدار ونسلمها، فإني عاهدتُ أن لا آخذ من المسلمين حبةً ظلمًا. قال: فأسقط ستين ألفًا، وقام أبو الفتوح صاحب المخزن من ماله بعشرة آلاف دينار، وأمر السلطان بجباية الأملاك، فلقي الناس من ذلك شدة، فخرج رجل صالح يقال له ابن الكواز إلى السلطان، وقال: أنت المطالِب بما يجري على الناس، فما يكون جوابك فانظر بين يديك، ولا تكن ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم، فأسقط ذلك»[٤].

وهي بداية قوية لا شك من المقتفي الذي ملك الجرأة على رفض تنفيذ أمر السلطان القوي مسعود على حساب العامة ومصالحهم، وإن جاء ذلك من طريق مسعود وليس من

(١) الدار التي تُصنع فيها العُملة، وإشراف السلاجقة على مؤسسة العُملة (البنك المركزي اليوم) دليل قوي على درجة الهيمنة الواضحة جدا.

(٢) ديوان التركات: كان يتولى إرث من لا وارث له من الرعية؛ لأن الدولة كانت ترثهم بحكم الشرع الإسلامي. صادق حسن السوداني: الوظائف الإدارية في دولة الناصر لدين الله العباسي ص ١٠١. مجلة المورد العراقية – بغداد، المجلد الثالث، العدد الثاني، ١٩٧٤م.

(٣) ديوان الجوالي: الجوالي جمع جالية وهم أهل الذمة في بلاد الإسلام، ويؤدون للخليفة الجزية بمقتضى الشريعة، وكان هذا الديوان يستوفي الجزية من أهل الذمة وفقًا لمذهب الإمام الشافعي الذي حدّد أن يؤخذ من الذمي الفقير أقل من دينار، ومتوسط الحال ديناران، والغني منهم أربعة دنانير. وكان صاحب الذمة يقف بين يدي صاحب ديوان الجوالي إلى أن توزن جزيته فيُعطى وصلا ولا يغني ابن عن أبيه في تأدية ولا قريب عن ذي قرابته. صادق حسن السوداني: الوظائف الإدارية في دولة الناصر لدين الله العباسي ص١٠١. مجلة المورد العراقية – بغداد، المجلد الثالث، العدد الثاني، ١٩٧٤م.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٦/ ١٩٩.

طريق المقتفي أو الخلافة.

وقد تنبه مسعود منذ الأيام الأولى لخلافة المقتفي لقوته وفطنته؛ فقد حكى لنا ابن الطقطقى ما يدلل على ذلك قال: «أرسل مسعود إلى المقتفي يقول له: اذكر ما تحتاج إليه أنت وكل من يتعلق بك حتى أُعيّن لك به إقطاعات. فأرسل إليه المقتفي يقول: عندنا بالدار ثمانون بغلًا تنقل الماء من دجلة ليشربه عيالنا فانظر أنت كم يحتاج إليه من يشرب في كل يوم ماءً يحمله ثمانون بغلًا. فقال مسعود: لقد أجلسنا في الخلافة رجلًا عظيمًا فالله تعالى يكفينا شره»[1].

أما سبب لقبه بالمقتفي فيرجع إلى ما قاله ابن الجوزي أنه «حكى بعض من أثق به أن المقتفي رأى في منامه قبل أن يلي بستة أيام رسول الله ﷺ وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك فاقتف بي فتلقب المقتفي لأمر الله»[2].

وبداية من عام ٥٣١هـ يبدأ المقتفي في توطيد أركان دولته بمبايعة سنجر وعماد الدين زنكي له، ثم زواجه من أخت السلطان مسعود، فاطمة بنت محمد بن ملكشاه في حفل بهيج حضره «مسعود والأكابر وتولى العقدة وزير الخليفة ونثرت الحبوب والجواهر وتماثيل الكافور والعنبر»[3].

ثم استطاع المقتفي أن يُعيد «بلاده ومعاملاتها إليه والتركات واستقر عن ذلك عشرة آلاف دينار»[4].

وفي عام ٥٣٤هـ نرى أول محاولة حقيقية من المقتفي ليكون مالك أمره الحقيقي غير أنه لم يفلح، فلقد «تمكن الوزير أبو القاسم بن طراد من الدولتين[5]، ونفذ الخليفة خدمًا وأعمالًا على البلاد من غير مشاورة الوزير، وجرت بينهما وحْشَة، وانقطع الوزير عن الخدمة، ثم وقع الصلح في شعبان وخلع على الوزير»[6]، واستمر في خضوعه للسلطان مسعود حينما تدخل في عزل وزيره وتعيين آخر، فما كان من المقتفي إلا أن أرسل للسلطان رسالة جاء فيها: «كلنا

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٣١٠.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٦١.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٦٧.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٦٩.
(٥) أي أصبح وزيرا للسلاجقة والعباسيين.
(٦) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٨٥.

بحكمك فولِّ من تريده واعزل من تريد»[١]. واستطاع مسعود أن ينفّذ ما أمر به على الخليفة وحاشيته.

وبحلول عام ٥٣٥هـ بدأ السلاجقة يطمئنون للمقتفي، ويثقون فيه، ويظهرون له الطاعة الشكلية التي درجت عليها العلاقة بينهما منذ دخولهم بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري، فقد «وصل في ذي القعدة رسول من عند سنجر ومعه البُردة والقضيب فسلّمه إلى المقتفي»[٢] وهي من مظاهر ورسوم خلفاء بني العباس وكان مسعود قد استولى عليها عقب مقتل المسترشد عام ٥٢٩هـ[٣].

وقد استمر السلطان مسعود في تدخّله في عزل وتعيين المقرّبين من الخليفة حتى جاء عام ٥٣٦هـ، وهو العام الذي استشفع فيه وزير الخليفة السابق ابن طراد الزينبي الذي حاول أن يظهر قوته على المقتفي من خلال تدخله المتكرر في قراراته واعتراضه على كثير منها حتى غضب منه المقتفي، فهرب ابن طراد خوفًا من الخليفة، حتى «دخل الوزير ابن طراد إلى السلطان مسعود وسأله أن يسأل أمير المؤمنين أن يرضى عنه ويعيده إلى داره فسلمه إلى وزيره وقال له: تمضي وتسأل أمير المؤمنين بشفاعتي وأقام عنده أياما والرسل تردد بينه وبين أمير المؤمنين والساعي في ذلك صاحب المخزن وأمير المؤمنين يعد ذنوبه ومكاتباته وإساءاته ومضى الوزير في الشفاعة وجعل يقول: يا مولانا ما زالت العبيد تجني والموالي تعفو وقد اتصل السؤال من جانبي سنجر ومسعود فأجاب وعفا عنه ... واستأذنوا فأذن لوزير السلطان وحده فدخل ووقف بين يدي أمير المؤمنين وقال: يا مولانا! السلطان سنجر يسأل ويتضرع إلى أمير المؤمنين في قبول شفاعته في الزينبي وكذلك مسعود يقبل الأرض ويقول له حق خدمة وإن كان بدا منه سيئة فقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ وقال: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا**﴾ ورأى أمير المؤمنين في ذلك أعلى فأخذ أمير المؤمنين يعدد سيئاته ثم قال: عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه، وقد أجبت السلطانين إلى سؤالهما وعفوتُ عنه»[٤].

وفي العام التالي ٥٣٧هـ «قبض السلطان مسعود على الأمير ترشك وهو من خواص

---

(١) ابن الجوزي: ١٠/ ٨٥.
(٢) ابن الجوزي: ١٠/ ٩٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣١٧.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٩٦.

الخليفـة وممـن ربي عنـده وفي داره فسـاء ذلـك الخليفـة ثـم أطلقـه السـلطان حفظـا لقلـب الخليفة»[١].

وهاتان الحادثتان من قبول وساطة السلطانين الكبيرين مسعود وسنجر بعد تمنّع لعـودة الوزير ابن طراد، وإطلاق سراح ذلك الأمير إرضاء للخليفة يُدلل على العلاقة الطيبة والودية بين السلطان والخليفة، وقد تُدلل على القوة التي بدأ المقتفي بالله يحققها واقعًا، ففي هذا العـام أيضًا نجد الخليفة منظمًا لطبيعة تعامل الموظفين العموميين خاصة الوزير وقاضي القضاة، فقد أصدر مرسومًا جاء فيه: «أن لا يخاطب أحد بموادنا سوى الوزير ولا يحمل لأحد غاشية[٢] على الكتف سوى قاضي القضاة الزينبي»[٣].

وفي عام ٥٤١هـ نجد التحدي الحقيقي بين السلطان مسعود والخليفة المقتفي وإن كانـت الحادثة لا قيمـة لهـا، لكنهـا ذات مغـزى عـلى الجـرأة التـي بـات يتمتـع بهـا المقتفـي فقـد دخـل «السلطان مسعود إلى بغداد وعمل دار ضرب فقبض الخليفة على ضرّاب كان سبب إقامة دار الضرب لمسعود فنفذ الشحنة فقبض عـلى حاجـب البـاب ابـن الصـاحب وعـلى أربعـة أنفـس خواص، وقال: لا أسلمهم حتى يخلوا صاحبي، وكان ذلك يوم الجمعـة تاسـع عشرـ شـعبان فنفذ الخليفة فأخرج من في الجامع وغلقه وأمـر بغلـق المسـاجد فبقيـت ثلاثـة أيـام كـذلك ثـم تقدموا بفتحها ولم يُسلَّم لهم الضراب وأطلق حاجب الباب»[٤].

وبحلول عام ٥٤٣هـ كانت الحرب قـد استعرت بـين السـلطان وبعـض إخوتـه وأمرائـه خاصة أمير فارس وخوزستان وأمـير أذربيجـان وأمـير الجبـل والـري وشـحنة واسـط وأمـير الحلة، وحتى هذا العام كان موقف الخليفة محايدًا بعيدًا عن شر هذه الأحـداث التـي عصـفت من قبل بأخيه المسترشد وابن أخيه الراشد.

لكن هذا العـام شـهد تحـولاً كبـيرًا إذ أضـحت المنـاطق القريبـة مـن بغـداد محـل الصرـاع السلجوقي، حتى إن العساكر المنهزمة وعلى رأسها الأمير السلجوقي ملكشاه بـن محمـود بـن

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٢٧.
(٢) الغاشية هنا مقصود بها الغطاء أو الرداء على الكتف. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة غشا ١٥/ ١٢٦.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٠٣.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١١٩، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣١١.

محمد قد لجأت إليها وهو ما يجعلها مركز العمليات الحربية لجند السلطان السلجوقي مما استدعى الخليفة أن يؤمن بغداد ويبعد هذه الحرب عنه وعن رعيته، وقد استأذن مسعودًا في فك العهد الذي كان بينهما فأذن له مسعود بجواب جاء فيه: «قد أذنت لك أن تجنّد عسكرًا وتحتاط بنفسك وللمسلمين، فجند وأظهر السرادقات والخيم وحفر الخنادق وسد العقود»[1].

وبدأ الخليفة في استعراض قوته، واستغلال هذه المرحلة الجديدة التي باتت القيادة العسكرية في يديه؛ فقد «جلس المقتفي في منظرة[2] الحلبة[3] واستعرض العسكر وحفرت الخنادق ببغداد ونودي بلبس العوام السلاح وأن يمنعوا عن أنفسهم وأموالهم ...»[4].

لكن مع هذا لم تسلم بغداد من السلب والنهب والمشاكسات بين جند السلاجقة غير المنظمين وبعض أمراء بني صدقة المندفعين وبين أهل بغداد وعساكر الخليفة، وكانت حصيلة هذه المشاكسات وقوع خمسمائة قتيل من معسكر الأمراء المناوئين للسلطان مسعود والخلافة على السواء.

قال ابن القلانسي عن الهجوم المباغت على بغداد في جمادى الآخرة سنة ٥٤٣هـ: «وردت الأخبار من بغداد باضطراب الأحوال فيها وظهور العيث والفساد في نواحيها وضواحيها وأن الأمير بوزابه (أمير فارس) والأمير علي بن دبيس بن صدقة (أمير الحِلة) اجتمعوا وتوافقوا في تقدير خمسة آلاف فارس ووصلوا إلى بغداد على حين غفلة من أهلها وهجموها وحصلوا بدار السلطان وتناهوا في الفساد والعناد بحيث وقعت الحرب بينهم وقتل من النظار وغيرهم نحو خمسمائة إنسان في الطرقات وأن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله رتب

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٣٢.

(٢) المنظرة: بناء على شكل منارة في الأماكن العالية كالأبراج، كان يتخذها خلفاء بني العباس للتنزه في بعض الأحيان، ولاستشراف واستعراض العساكر العباسية والجيوش. راجع: مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٤١١.

(٣) ومنظرة الحلبة: موضع مشرف ينظر منه، وهي منظرة محكمة البنيان في وسط السوق في آخر محلة المأمونية ببغداد قرب الحلبة (شرقي بغداد)، كان أول من بناها الخليفة المأمون وكانت في أيامه تشرف على البرّية، وأما الآن (في زمن ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦هـ) فهي في وسط البلد، ثم أمر المستنجد بالله بنقضها وتجديدها على ما هي عليه اليوم جعلت ليجلس فيها الخليفة ويستعرض الجيوش. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢٩٠، ٥/ ٢١٢.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٣٢.



الأجناد والعسكرية بإزائهم بحيث هزموهم وأخرجوهم من بغداد وطلبوا ناحية النهروان وتناهوا في العيث والإفساد في الأعمال والاستيلاء على الغلال وخرج أمر الخلافة بالشروع في عمارة سور بغداد وحفر الخنادق وتحصينها وإلزام الأماثل والتجار وأعيان الرعايا القيام بما ينفق على العمارات من أموالهم على سبيل القرض والمعونة ولحق الناس من ذلك المشقة والكلفة المؤلمة»[١].

والحق أن بوزابّه كان قد قتله السلطان مسعود في مرج قراتكين بالقرب من همذان قبل هذه المعركة في العام ذاته، ولم يصل إلى بغداد ولا حاصرها، وإنما لجأ إليها بعض عساكره وجنده ويحتمل أن يكون معهم علي بن دبيس بن صدقة.

وكان من أبرز النتائج المترتبة على هذه الهزيمة أن جاء بعض المتواطئين في هذا الحصار وهم في حالة من الضعف جعلتهم يعتذرون للخليفة عن هذه المناوشات التي تسببت في إيقاع القتلى من الطرفين، حتى جاء هؤلاء الأمراء الخارجون «فرموا أنفسهم تحت الرّقة[٢] بإزاء التاج[٣]، وقالوا: ما كان هذا بعلمنا وإنما فعله أوباش لم نأمرهم به. فعبر إليهم خادم وقبّح فعلهم وقال: إنما كان الذين قتلتم نظارة فاعتذروا فلم يقبل عذرهم، فأقاموا إلى الليل وقالوا نحن قيام على رؤوسنا ما نبرح، أو يأذن لنا أمير المؤمنين ويعفو عن جرمنا فعبر إليهم الخادم وقال: أمير المؤمنين يقول: إنا قد عفونا عنكم فامضوا واستحلوا من أهل القتلى ثم تقدم بإصلاح ثلم[٤] السور، وخرج العوام بالدبادب والبوقات»[٥].

هل نفهم من هذا أن التحصينات التي أقامها الخليفة المقتفي حول بغداد هي التي كسرت شوكة هؤلاء المتغلبين وأرجعتهم بل جعلتهم أذلاء كما رأينا؟ لا. فقراءة سريعة لما كتبه الأصفهاني في تأريخه لآل سلجوق توضح لنا أن هؤلاء المتغلبين قد حاولوا فرض قوتهم

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٤٦٩.
(٢) الرّقة: البستان المقابل للتاج من دار الخلافة ببغداد وهي بالجانب الغربي، وهو عظيم جدّا جليل القدر. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٦٠.
(٣) التّاج: اسم لدار مشهورة جليلة المقدار واسعة الأقطار ببغداد من دور الخلافة المعظمة، كان أول من وضع أساسه وسماه بهذه التسمية أمير المؤمنين المعتضد، ولم يتم في أيامه فأتمه ابنه المكتفي. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٣.
(٤) الثّلمة: الثغرة، وثلم الجدار: أحدث فيه شقًا. المعجم الوسيط ١/ ٩٧، ٩٩.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٣٣.

على الخليفة عندما جاءوا إلى بغداد محاصرين لها؛ فقد طلبوا من الخليفة فدية قيمتها ٣٠ ألف دينار، لكن صاحب ديوانه ابن هبيرة نصحه بإنفاق هذا المبلغ الضخم على جنده؛ حيث قال له: «إن كان لابدّ من إتلاف هذا المبلغ فالرأي إنفاقه في جيش يدفعهم من الترك المطلقة ببغداد وأنواع الناس، ويكون هذا يدًا عند السلطان مسعود، ثم لو دُفع لهم ذلك لجعلوا بغداد مخباةً لهم»(١).

وقد سمع الخليفة لنصيحة صاحب ديوانه وكان لها نتائجها الإيجابية التي رأيناها، الأمر الذي جعل أسهم ابن هبيرة عالية عند الخليفة فتمت ترقيته من صاحب ديوان الزمام إلى وزير في هذا العام(٢).

إن انتصار الخليفة العسكري في عام ٥٤٣هـ على بعض الأمراء ذوي الشوكة، يعتبر بداية حقيقية لزوال نفوذ الدولة السلجوقية وانهيارها، وإعادة هيبة وسلطان الخلافة على العراق، كما أن دور مسعود السلجوقي في الأحداث بدأ في التلاشي، وقد تزامن ذلك مع بدء الخليفة العمل على تكوين جيش مدرب قوي، حتى إن السيوطي جعل هذا العام البداية الحقيقية لانتعاش الخلافة العباسية(٣).

وتكمن أهمية هذه المواجهة بعدة نواح، أهمها تخلص الخليفة من تعهداته للسلطان بعدم تجنيد الجند، وهذا ما أكده الأصفهاني بقوله: «وصار من ذلك اليوم للخليفة جند»(٤)، فكانت هذه المواجهة بداية تكوين نواة جيش الخلافة، إذ اعتمد الخليفة في تكوينه على أهل بغداد «ونودي بلبس العوام السلاح»(٥)، وقد أبان أهل بغداد مقدرة فائقة في التصدي للمحاصرة واستبسالهم في الدفاع عن المدينة، وما مقتل خمسمائة إنسان من العامة أثناء الحصار إلا دليل على ذلك، فقد استطاع الخليفة إشراك عامة بغداد وأعيانها وتجارها والمتعطلين من رجالها في الدفاع عن المدينة، ومن النتائج المهمة التي حققها الخليفة في هذه المواجهة تحصينه لمدينة بغداد

---

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٢١.

(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٠٣. ذكر ابن خلدون أن وزارة ابن هبيرة كانت في العام التالي سنة ٥٤٤هـ. تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٣٧.

(٣) محمد جاسم المشهداني: الخليفة المقتفي لأمر الله ص٩٧، ٩٨.

(٤) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٠٤.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٦٥.



كحفر الخنادق وبناء السور حولها[١].

وقد كان العام التالي امتحانًا قويًا للخليفة المقتفي؛ فقد فوجئ السلاجقة بقوة المقتفي، فعادوا في عام ٥٤٤هـ بقيادة نائب الشحنة (الشرطة) وعسكروا على بعد عدة أميال من بغداد، وبعثوا إلى الخليفة طالبين إليه أن تكون الخطبة لملكشاه بن محمود السلجوقي فرفض طلبهم بحزم، واستعد لهم وأعد بغداد وجنده، لكنهم آثروا الانسحاب في نهاية الأمر بعدما أرسل الخليفة إلى السلطان يستعجله في المجيء قائلًا له بحزم: «إنهم جاءوا لأجل الخطبة وإني ما أجبتهم للعهد الذي بيني وبينك فينبغي أن تعجل المجيء فلم يبرح ... وجاء السلطان مسعود في ذي الحجة وخرج إليه الوزير ابن هبيرة وأرباب الدولة وجلس لهم وطيب قلوبهم فرجعوا مسرورين»[٢].

وبحلول عام ٥٤٦هـ يزور السلطان مسعود بغداد زيارته الدورية العادية التي يستقبله فيها الوزير اللامع يحيى بن هبيرة على رأس وفد من كبار رجال بغداد.

ويأتي عام ٥٤٧هـ وهو العام الذي تخفُت فيه راية الدولة السلجوقية وتعلو فيه راية العباسيين من جديد، فلقد توفي السلطان مسعود في رجب من هذا العام إثر مرض أصابه، ويبدو أن الخليفة المقتفي كان متحفزًا ومتوقعًا لهذا الخبر فنراه يبسط سيطرته على بغداد، يُجبر كل موظف كان لمسعود على الرحيل والهرب؛ إذ «لما ورد موت السلطان اختلط الناس وهرب مسعود الشحنة إلى تكريت فظفروا بخيله وبعض سلاحه ونادى الخليفة أنه من تخلف من الجند ولم يحضر الديوان ليدوّن ويجري على عادته في إقطاعه أبيح دمه وماله»[٣].

لكن يبدو أن هذا التحفز كان بسبب العلاقة المتوترة التي وصلت لأسوئها في هذا العام حتى إن مسعودًا أراد أن يخلع المقتفي من الخلافة نظرًا للمكانة والقوة العسكرية التي بات يتمتع بها، فبدأ بإهانته وتسليط موظفيه على الخلافة والخليفة، فقد «ذكر ابن هُبيرة في الإفصاح[٤]

(١) معن المقابلة: الوزير عون الدين بن هبيرة ودوره في مساندة الخلافة العباسية في استعادة نفوذها الزمني، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ١٨/ ٣٢٠.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٣٨.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٤٧.
(٤) «الإفصاح عن معاني الصحاح» أهم مؤلفات الوزير ابن هبيرة، وهو شرح لصحيحي البخاري ومسلم رحمهما الله.

قال: لما تطاول على المقتفي أصحاب مسعود، وأساءوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة. اتفق الرأي على الدعاء عليه شهرًا، كما دعا النبي ﷺ على رِعل وذكوان شهرًا، فابتدأ هو والخليفة سرًا، كل واحد في موضعه يدعو سحَرًا، من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى، واستمر الأمر كل ليلة، فلما تكمّل الشهر، مات مسعود على سريره، لم يزد على الشهر يومًا، ولا نقص يومًا، فتبارك الله رب العالمين»[١].

وقد واصل المقتفي جهوده الحثيثة لاستعادة هيبة واحترام الخلافة، فدعم جيشه بعناصر جديدة، وحصّن بغداد تحصينًا قويًا، ورتب الولاة في الولايات، وبعث رجال الأخبار إلى مختلف الولايات لموافاته بما يستجد من أمور، وكان هذا بالتزامن مع صراع السلاجقة على تركة مسعود، وقد أشار الأصفهاني إلى بعض صفات وشيم مسعود نستلمح منها كسله الواضح في صعود نجوم مناوئيه، ونفهم منها سر القوة التي تمتع بها المقتفي في وجوده يقول الأصفهاني: «كان مسعود جم الصنيعة، لكنه يصطنع الأراذل، ويرفع الأسافل، وكان كثير الاتكال، على استمرار الإقبال، قليل الاحتفال بمكايد الرجال، دائم الإغضاء عن ذميم الفعال، لا يُضمر لعدو سخيمة، ولا يقبل في ولي نميمة»[٢].

العراق في يد العباسيين من جديد!

منذ العام ٥٤٧هـ وحتى وفاة المقتفي في العام ٥٥٥هـ تبدأ مرحلة الاسترداد العباسي للعراق من جديد.. هي ثمانية أعوام فقط، لكنها أعوام استقلال للعباسيين الذين بدأت شوكتهم في النهوض والقوة من جديد، ومن العجيب أن هذه القوة تتزامن مع صعود نجم نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي بدأ في المرحلة الثانية والمهمة من إرجاع بلاد الشام المسلوبة إلى ديار الإسلام ولواء الإسلام مرة أخرى.

يمكن أن نطلق أيضًا على الأعوام الأربعين المقبلة في الشام والعراق ومصر والحجاز واليمن أعوام الوحدة والانطلاق والقوة والاسترداد ونحن مطمئنون لهذا الحكم طبقًا لمجريات الأحداث التي ستمر بنا إن شاء الله.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٧/ ٣٤، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣١٢.
(٢) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٠٧.

لقد اتجهت سياسة المقتفي بعد وفاة مسعود السلجوقي إلى تصفية ما تبقى من نفوذ السلاجقة في العراق وتحريره كاملًا من سيطرتهم وإعادة السيادة العربية العباسية إليه، بعد أن ظل طوال ثلاثة قرون وأكثر تحت نفوذ المتغلبين وتسلطهم، ونلاحظ أن أهم ما تم تحريره من مدن العراق: تكريت وواسط والبصرة والحلة، ولكل مدينة من هؤلاء أحداث في فتحها وضمها للسيطرة العباسية من جديد، لذا وجب التوقف معها بتأن[1]..

تحرير مدينة تكريت

تقع مدينة تكريت على مسافة ١٦٠ كم شمال غرب بغداد، وقد كانت من جملة المدن المهمة التي يسيطر عليها سلاجقة العراق وآخرهم مسعود بن محمد السلجوقي، وما جعل الخليفة المقتفي يبدأ باسترداد هذه المدينة أن موظفي مسعود وعلى رأسهم رئيس شرطته قد هربوا إلى أمراء مسعود المتربصين في هذه المدينة فخاف منهم المقتفي خاصة وقد حاولوا من قبل أن يجبروا الخليفة على اتباعهم ودفع أموال طائلة لهم، فأرسل لهم جيشًا صغيرا من ٥٠٠ فارس بقيادة ترشك أحد خواص الخليفة وابن الوزير واسمه ظفر بن يحيى ابن هبيرة، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل نتيجة خيانة ترشك وانضمامه للسلاجقة، الأمر الذي دفع الخليفة نفسه بقيادة جيش إلى تكريت بعدما عاث قادة السلاجقة فسادًا في شرقي العراق ووسطها، وبالفعل وصل الخليفة إليها وحاصرها أيامًا، إلا أن هجوم ملكشاه ابن أخي مسعود على مدينة واسط جعل الخليفة المقتفي يذهب إلى ملاقاته، وقد هزمه بالفعل ورجع الخليفة إلى بغداد دون فتح تكريت وذلك في سنة ٥٤٨هـ[2].

وقد حاول الخليفة مرارًا فتح تكريت وفشل ثانية ثم أرسل لها وزيره وفشل أيضًا، ثم طلب مسعود بلال من الملك السلجوقي الجديد محمد بن محمود أخي السلطان المدد «فأمده بالأمير سلارجور بن الزهيري الكردي، وكان من كبار الأمراء السلطانية»[3] ثم ما لبث السلطان محمد في نسيان هذا الأمر، وتثاقل عنه كما يذكر الأصفهاني، الأمر الذي جعل مسعود بلال يعود إلى تكريت مرة أخرى لاستجماع قواه، ووضع خطة هجوم جديدة ضد الخليفة المقتفي.

---

(١) المشهداني: المقتفي لأمر الله ص١٠٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢١٠ تدمرى، وأبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٩، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٣٧.

(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٣٠.

وانقسمت معارك العباسيين وأتباع السلاجقة سنة ٥٤٩ هـ إلى قسمين:

الأول: إرسال الخليفة رسولًا إلى والي تكريت للإفراج عن أسرى موقعة سنة ٥٤٨ هـ وهم ابن الوزير عون الدين وآخرون، لكن الوالي ومن معه قبضوا على الرسول الأمر الذي دفع الخليفة إلى الهجوم على تكريت في شهر صفر سنة ٥٤٩هـ وقاد ذلك الهجوم بنفسه، وكان هجومًا قويًا استخدم فيه ١٣ منجنيقًا تسبب في إسقاط أحد الأبراج، لكن الحصار استمر حتى الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٤٩هـ دون الوصول إلى شيء، مما اضطر الخليفة إلى الرجوع إلى بغداد ليدخلها في آخر شهر ربيع الأول(١).

الثاني: هجوم الوزير عون الدين بن هبيرة في ٧ ربيع الآخر من السنة نفسها على تكريت، وبدأ في عملية إحكام الحصار؛ لكن مسعود بلال باغت الخليفة المقتفي بمهاجمة شرق العراق وبالتحديد منطقة شهربان(٢)، فأمر الخليفة قواته بالانسحاب من مدينة تكريت والتوجه لمحاربتهم «فجمعا جمعا (أي مسعود بلال وأحد قادة السلطان محمد واسمه ألبقش) كثيرًا من التركمان ونزلا بطريق خراسان فخرج الخليفة إليهما، فنفذ مسعود من أخرج أرسلان شاه بن طغرل من قلعة تكريت وكان محبوسا بها وجعلوا القتال عليه؛ ليكون اسم الملك جامعا للعسكر وتلازم العسكران على نهر بكمزا(٣) فعبر الخليفة إليهم فتلازموا ثمانية عشر يوما وتحصن التركمان بالخركاهات(٤) والمواشي»(٥).

واشتد القتال بين الفريقين في «آخر يوم من رجب (سنة ٥٤٩هـ) فكانت الوقعة فانهزمت ميسرة العسكر الخليفي وبعض القلب وكان بإزائهم مسعود الخادم حتى بلغت الهزيمة إلى باب بغداد وثبت الخليفة.. فلما رأى العسكر الميسرة قد انهزمت ضعفت قلوبهم فجاء منكوبرس، وكان فارسا شديد البأس ومعه هويذان فنزلا عن الخيل.. وقالا: يا مولانا تثبت علينا ساعة حتى نحمل بين يديك فإذا رأيناك قويت قلوبنا، فقال: لا والله إلا معكما! فجذب السيف ولبس الحديد هو وولي العهد وبكّرا وصاح أمير المؤمنين: يالمضر كذب

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢١٥ تدمرى.
(٢) مدينة عراقية تقع ضمن محافظة ديالى، وثاني أكبر قضاء في ديالى بعد مركز المحافظة تُسمى الآن المقدادية.
(٣) قرية كانت تقع على طريق خراسان، قال عنها ياقوت بجمزا. ياقوت ١/ ٣٤٠.
(٤) نوع من الخيام القوية.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٩٦ عطا، والذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/ ٥.

الشيطان وفر وقرأ: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]»[١].

وانتصرت قوات الخليفة المقتفي، وأسرت المئات من التركمان بنسائهم وذراريهم، وهرب ألبقش ومسعود وكبار الأمراء معهم، وكانت هذه الموقعة بكمزا بالقرب من مدينة بعقوبة؛ انتصر الخليفة بالرغم من غدر قبائل بني عوف أحد العناصر الأساسية للجيش العباسي في هذه المعركة، ومعهم أمير من أمراء الجيش هو هندي الكردي[٢].

وبعد تمكن جيوش الخلافة من القضاء على مسعود بلال ومن معه في موقعة بكمزا، تكون قد تمكنت من القضاء على أخطر غزو بقيادة محمد السلجوقي، وبعد هذا تفرغت الخلافة للقضاء على بقايا السلاجقة في تكريت، وتم لها دخول تكريت وتحرير رهائن العباسيين منها وضمها للسلطة العباسية بعد قتال وحروب طاحنة.

تحرير واسط والحلّة والغرّاف

قال ياقوت عن مدينة واسط: «متوسطة بين البصرة والكوفة لأن منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخا»[٣]، وهي الآن محافظة كبيرة وسط العراق، وأما الغرّاف فقال عنها ياقوت: «وهو نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة»[٤]، فهي منطقة ممتدة بمحاذاة جنوب واسط، وقال عن الحِلّة: «بين واسط والبصرة والأهواز في موضع آخر»[٥].

هذه المناطق الثلاث في وسط العراق وشرقيها كانت ساحة شد وجذب بين العباسيين المتمركزين بالقرب منها في بغداد، وبين مناوئيهم من السلاجقة الذين يريدون إعادة السيطرة على العراق من خلال قوتهم العسكرية أو عن طريق من يوالونهم من الأعراب المسيطرين على بعض هذه المناطق.

أول محاولات السيطرة على مدينة واسط كانت للسلطان الجديد ملكشاه بن محمود السلجوقي الذي جاء إليها في بدايات عام ٥٤٨هـ ليضمها إلى سلطنته ويقوي بها من عزيمة

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٩٧ عطا.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢١٦ تدمرى.
(٣) ياقوت: معجم البلدان ٥/ ٣٤٧.
(٤) ياقوت: المعجم ٤/ ١٩٠.
(٥) ياقوت: المعجم ٢/ ٢٥٩.

أتباعه من السلاجقة لكن الخليفة المقتفي اتجه «إلى واسط لدفع ملكشاه، فانهزم إلى خوزستان، فنزل الخليفة بظاهر واسط أيامًا، ورجع إلى بغداد»[١].

ولقد رأينا أن مسعود بلال رئيس شرطة السلاجقة ومعه بعض أمراء السلاجقة قد هاجموا مدينة واسط الإستراتيجية في وسط العراق بغية فك الحصار عن تكريت، ومن ثم وجهت الخلافة العباسية وجهتها إلى طريق أخرى وهي رفع يد هؤلاء السلاجقة عن واسط وما يحيط بها من مناطق حيوية تهدد عاصمة الخلافة التي بدأت في التعافي من جديد.

قاد الوزير المحنك ابن هبيرة جيش الخلافة وواجه مسعود بلال ومن معه فاستطاعت قوات الخلافة أن تنتصر عليهم بل وتطاردهم إلى أبعد نقطة عنها، وكان لهذا النصر دوره في تحفيز الخليفة وعلو شأن وزيره الذي شرّفه الخليفة «بقميص وعمامة ولقبه سلطان العراق ملك الجيوش»[٢]، وقد استطاع السلاجقة بعد ذلك أن يستولوا على واسط مرة أخرى غير أن جيوش الخلافة استطاعت أن تدخلها وتسيطر عليها، حتى إن الخليفة المقتفي زارها في عامي ٥٥٣ و ٥٥٤هـ.

ويلخص لنا ابن خلدون بعبارة موجزة ما حدث من شد وجذب على منطقة واسط والحلة بين الخليفة المقتفي وبين أمراء السلاجقة في الفترة ما بين ٥٤٧هـ حتى عام ٥٥٢هـ بقوله: «ثم جاءت عساكر السلطان ملك شاه إلى واسط وخرجت منها عساكر المقتفى إلى واسط فملكها، ثم إلى الحلة كذلك ثم عاد إلى بغداد آخر ذى القعدة سنة سبع وأربعين، ثم قبض الأمراء على ملك شاه سنة ثمان وأربعين وبايعوا لأخيه محمد وطلب الخطبة من المقتفى فمنع منها فسار السلطان محمد بن محمود إلى العراق سنة إحدى وخمسين واضطرب الناس ببغداد واهتم المقتفى بالاحتشاد وجاءته عساكر واسط وبعث السلطان مهلهل بن أبى العسكر إلى الحلة فملكها وحاصر السلطان محمد بغداد سنة ثنتين وخمسين وامتنعت عليه»[٣].

وحرص الخليفة على الاتجاه إلى منطقة الغراف جنوبي واسط وولاها لأحد أمرائه، ومرّ

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٧/ ٤١، ٤٢.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٥٧.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٩٣.

بها في زيارته لواسط في عام ٥٥٤هـ حتى إنه حدثت له حادثة سقوط من على فرسه[١].

وقد كان العماد الأصفهاني قبل أن يلتحق بدولة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي من الكتاب المقرّبين من الوزير العباسي عون الدين بن هبيرة، وكان نائبًا له على مدينة واسط أثناء زياة المقتفي لها في المرة الثانية سنة ٥٥٤هـ، وقد وصف لنا مشهد دخول الخليفة ووزيره المدينة، وأهم الأعمال التي قاموا بها بقوله: «وصل (المقتفي) إلى واسط في أواخر صفر سنة ٥٥٤ هـ، وأناب نائب الوزير ابن هبيرة بها، وخرجتُ في أصحابي للتلقي، وكنت من زحمة اللقاء على غاية التوقي. فبصرت بموكب الخليفة وقد أقبل في أفواجه، كأنه البحر في أمواجه. فنزلت وتقدمت إليه، وقبّلت الأرض بين يديه. فوقف لأركب إشفاقا عليّ من الزحمة، وكانت فطرته مجبولة على الرأفة والرحمة، وقال له مخلص الدين بن الكيا الهراسي: هذا الذي يقول في أمير المؤمنين من قصيدته كأنه يصف هذه الحالة:

لما شفعت العزم وهو مؤيدٌ ... بالحزم أسفر بالمنى منط السفر

وبرزت مثل الشمس تشرق للورى ... وسناك يحجب عنك ناظر من نظر

بمظلة سوداء تحكي هالة ... وجه الإمام يُضيء فيها كالقمر

وقال الوزير: هذا صاحبي وقد وليته، وأصحبته وأوليته. وبهج بخدمتي ونجح، وبذخ بنيابتي ورجح. فوصّى الإمام وزيره بي، وأعجبه سمتي وأسلوبي. وسار على رسله ودخل إلى دار الديوان، وجلس ساعة في الإيوان. ثم قام وجلس الوزير في الدست[٢]، وكتب ووقّع، وقال وأسمع.. ثم انتقل الخليفة إلى سرادقه، والوزير إلى مضاربه، ونزل أرباب الدولة كل منهم على مراتبه. قال: وحضرتُ بميدان واسط، والمقتفي رضي الله عنه حاضر، ومعه أولاده ولي العهد المستنجد يوسف، وأبو علي، وأبو أحمد، وولد المستنجد أبو محمد وهو المستضيء الذي تولى بعده، ولعبوا بالكرة[٣]. ولم يلبث بواسط ثلاثة أيام، حتى عاد إلى بغداد سريعًا»[٤].

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٨٩.
(٢) الدّست: صدر المجلس، وهو المكان المخصص لجلوس الوزير. راجع المعجم الوسيط ١/ ٢٨٢، ٢٨٣.
(٣) لعب الكرة قديما يُشبه لعبة البولو حديثًا.
(٤) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٧٣، ٣٧٤ دار الكتب.

مدن عراقية أخرى!

بدأت العديد من المدن العراقية الأخرى في الرجوع إلى سلطة الخلافة العباسية، من أشهر هذه المدن الكوفة وكربلاء، فنرى الخليفة العباسي يزور هاتين المدينتين في عام ٥٥٣هـ.

وهناك منطقة اللِّحف التي استطاع الخليفة أن يرجعها إلى السيادة العباسية في عام ٥٤٩هـ، وهي منطقة قريبة من بغداد على مشارف جبال همدان ونهاوند في الشرق(١).

كما حاول الخليفة أن يستولي على منطقة دقوقا(٢) الإستراتيجية القريبة من إربل والموصل، وحاصرها بنفسه في سنة ٥٥٠هـ إلا أنه «رجع عنها لأنه بلغه أنّ عسكر الموصل تجهّز لمدافعته عنها فرحل»(٣). وكان حاكم الموصل يومئذ الأمير قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي.

يقول الدكتور المشهداني: «إن انتصار الخلافة على السلاجقة كان له أثره البارز في إحداث الشقاق والخلاف بين السلاجقة، أضف إلى ذلك أن الأحداث كشفت عدم إخلاص السلاجقة للخلافة العباسية وبالأخص محمد السلجوقي الذي ظل ملتزمًا بموقف محايد حتى آخر لحظة حينما غيّر موقفه وانحاز للسلاجقة»(٤).

بغداد على حافة السقوط!

كان من المتوقع أن تطال بغداد مناوشات بل وحروب قوية لاستئصالها من يد المقتفي الظافر لترجع إلى ما كانت عليه سابقًا، عاصمة ذليلة تابعة لا قيمة لخليفتها ولا رأي سوى اسمه ورسمه.

كانت البداية كما رأينا في دخول ملكشاه بن محمود السلجوقي في أواخر عام ٥٤٧هـ حينما حاول احتلال واسط لتكون منطلقًا لدخول بغداد، لكنها فشلت بهزيمته ومن ثم خلعه بعد ذلك في عام ٥٤٨هـ.

لقد كان مسعود بلال شحنة بغداد، والرجل الذي قويت شوكته في الأعوام الثلاثة

---

(١) البغدادي: مراصد الإطلاع ٥/ ١٤.
(٢) دقوقا: بلدة بين أربل وبغداد. البغدادي: مراصد الإطلاع ٢/ ٥٣٠.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٣٩.
(٤) المشهداني: المقتفي ص١٢٢.



الأخيرة في سلطنة مسعود السلجوقي على بغداد، أول وأكثر الحانقين على سلطة بغداد التي أخذت منه ماله وإقطاعه ونفوذه وجردته من رتبه وألقابه وطردته عن بغداد، فما كان منه إلا أن تحصن في تكريت شمال العاصمة وبدأ في الاتصال بالسلطان محمد بن محمود السلجوقي الذي لطالما رفض الإصغاء إلى هذا العجول المتعصب.

وقد رأينا مناوشاته وحروبه التي باءت كلها بالفشل والهلاك في نهاية الأمر والتي كان مقصدها من الأساس الوصول إلى بغداد والسيطرة عليها من جديد، وقد كان السلطان محمد قد مال إلى هذا الرجل في أواخر عام ٥٤٩هـ لكن ذلك لم يغن من هزيمته شيئًا.

غير أن لاعبًا جديدًا ظهر على سطح المجريات السياسية استطاع الخليفة المقتفي أن يستغله لصالحه رغم الخسائر المرحلية التي لحقت بالمقتفي بعد ذلك، هذا اللاعب هو الأمير السلجوقي سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه عم السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذي التجأ إلى الخليفة المقتفي بسبب خلافات ونزاعات على السلطة مع ابن أخيه وكان ذلك في أواخر عام ٥٥١هـ، يقول ابن الجوزي: «وفي شوال وصل الملك سليمان بن محمد بن ملك شاه إلى بغداد ضيفًا مستجيرًا بأمير المؤمنين وتلقى بولد الوزير ابن هبيرة وكان على رأسه شمسة وخمسة أعلام سود ولم ينزل أحدهما للآخر وقبّل عتبة باب النوبي»[(١)].

وقول ابن الجوزي إن ابن الوزير لم ينزل لعم السلطان السلجوقي من على فرسه، ثم ذهاب هذا الأمير ليقبّل عتبة باب النوبي، أحد أبواب القصر العباسي دليل على قوة ومكانة المقتفي في هذا الوقت، ولذلك نرى الذهبي معلقًا على هذا الموقف بقوله: «ولم يحتفل لمجيئه، لتمكن الخليفة وقوة دولته وكثرة جيوشه وهيبته»[(٢)].

وكان قبل أن يُؤذن لسليمان عم ملكشاه ومحمد الذي تنازع معهما على مناطق غرب إيران قد أرسل إلى الخليفة يخبره بوصوله وترددت بينهما الرسل، وأراد الخليفة أن يضمن عدم خداع سليمان فطالبه بإرسال زوجته رهينة، فأرسلها إلى بغداد مع كثير من الجواري والأتباع، وقد اطمأن الخليفة لسليمان فأذن له بالدخول كما رأينا.

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٦١.

(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/ ١٣.

وبعد انتظار دام شهرا كاملًا ذهب سليمان لملاقاة الخليفة طالبًا منه تقديم المساعدة في مواجهة ابن أخيه السلطان محمد، فاشترط عليه الخليفة شروطًا، قال الذهبي: «فاستدعي في نصف المحرم إلى باب الخليفة المقتفي وحلف وقلد السلطنة. وذكر في الخطبة بعد السلطان سنجر. وقرر أنه ليس له في العراق شيء إلا ما يفتحه من خراسان. فقدم للمقتفي عشرين ألف دينار له ومائتي كُرّ[1]. ثم سار المقتفي وفي خدمته سليمان شاه إلى حلوان[2]، ثم بعث المقتفي مع سليمان شاه جيشًا»[3]. هذا الجيش ضم إليه الخليفة أحد أمرائه وهو «الأمير قويدان صاحب الحلة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل في ربيع الأول وسار الخليفة إلى حلوان»[4].

ومن اللافت أن المقتفي حرص أن يكون أخو السلطان محمد وهو ملكشاه بن محمود مع عمه ضد أخيه؛ ليشغله عن مخططاته الرامية لاحتلال العراق، وبالفعل انضم ملكشاه إلى عمه شريطة أن يكون ولي عهده من بعده واتجهت الجيوش لملاقاة محمد، لكنه لما علم بذلك أرسل «إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائبه زين الدين (علي كوجك) يطلب منهما المساعدة ويبذل لهما البذول الكثيرة إن ظفر؛ فأجاباه إلى ذلك ووافقا، فقويت نفسه وسار إلى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم في جمادى الأولى واشتد القتال بين الفريقين وانهزم سليمان شاه ومن معه»[5].

وكان من نتائج هذه المعركة أن «تشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة - وكانوا ثلاثة آلاف رجل - نحوًا من خمسين رجلًا ولم يقتل منهم أحد وإنما أُخذت خيولهم وأموالهم وتشتتوا وجاءوا متفرقين .. وسار سليمان نحو بغداد على شهرزور[6]، فخرج إليه زين الدين علي كوجك في جماعة من عسكر الموصل، وكان بشهرزور الأمير بُزان مقطعا لها من جهة زين

---

(١) الكُرّ: مكيال لأهل العراق.
(٢) منطقة في غرب إيران الآن.
(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/ ١٣.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٠٥.
(٥) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٠٥، ٤٠٦.
(٦) بلدة كردية عراقية تابعة لمحافظة السليمانية وهي تبعد ٣٥ كم جنوب شرق مركز محافظة السليمانية. قال ياقوت: «كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان». ياقوت: معجم البلدان ٣/ ٣٧٥.

الدين وسارا فوقفا على طريق سليمان شاه فأخذاه أسيرًا وحمله زين الدين إلى قلعة الموصل وحبسه بها مكرما ومحترمًا»[١]، وقد ظل هناك حتى تمت سلطنته في العام ٥٥٥هـ كما سيأتي بعد قليل.

كان انتصار السلاجقة هذا قد عزز من مركز السلطان محمد السلجوقي الذي أخذ يُحرّض السلاجقة عامة على الخليفة المقتفي لأمر الله.

وفي نهاية عام ٥٥١هـ وعقب الانتصار القوي لمحمد شاه السلجوقي على كل من سليمان شاه عمه وملكشاه أخيه وقويدان نائب الخليفة في هذا الجيش، قرّر محمد أن يذلّ الخليفة بإجباره على الاعتراف بسلطنته؛ لأن الخليفة لم يكن يعترف إلا بسلطنة السلطان معز الدين سنجر بن ملكشاه، وألحقها بالاعتراف بسلطنة عمه المنشق سليمان شاه، فصمّم محمد على القضاء على المقتفي الذي دبّر لتفتيت الأسرة السلجوقية، وشغلها بحروبها الداخلية.

وقد لخص الحسيني مشهد حصار بغداد ومحاولة اقتحامها من قبل محمد السلجوقي بالطرق السلمية بقوله: «ولما كنت سنة اثنتين وخمسين وخمس مائة قصد السلطان محمد بغداد ومعه عساكر العراق وأذربيجان.. واستعد الإمام المقتفي لأمر الله للحصار وأدخل إلى بغداد من المير والعلوفات والأغنام والأبقار ما يُقيم بها وبمن فيها من العسكر وبذل الأموال واجتمعت العساكر إليه من كل مكان حتى صار من العساكر ما لم يُعهد مثلها مجتمعة ببغداد، ووصل السلطان محمد إلى بغداد ونزل من جانب باب الشماسيّة[٢] وبقي مدة لا يأمر بقتال، وهو يراسل الإمام المقتفي لأمر الله أنه عبدُ الطاعة، وأنه ليس له مقصود بمجيئه إلى بغداد إلا أن يعود عنها وقد علم ملوك الأطراف أن أمير المؤمنين عنه راض، وأن يُسعف بإمارة الرضا عنه وهو أن يذكر اسمه على المنابر تلو أمير المؤمنين ويعود عن بغداد ولا يكون له فيها والٍ ولا صاحب يُشار إليه، واجتهد أن يتيسر له أمر من غير قتال فما أجابوه عن مراسلاته بشيء

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٠٥، ٤٠٦.

(٢) كان في الجانب الشرقي من بغداد ثلاث محلات كبرى (أحياء): المحلة التي بالقرب من رأس الجسر. وقد عُرفت بالرصافة، ومحلّة الشمّاسية فوقها على النهر، ومحلّة المخرّم، وكان يحيط بهذه الأحياء الثلاثة من بغداد الشرقية سور نصف دائري يبدأ من ضفة النهر فوق الشمّاسية وينتهي بالنهر أيضًا تحت المخرّم. كي ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٩. وباب الشمّاسية هو باب حي الشماسية في شرق بغداد.

يُرضيه ولا حال يسكن إليها»[١].

إن التأمل في هذا المشهد الذي لم نره من قبل في العلاقة بين السلاجقة الأقوياء ذوي الأنفة والجند والمنعة وبين العباسيين المنكسرين دائمًا المنقادين لهؤلاء السلاجقة، ليدلل على أن المقتفي وصل إلى أقصى مراحل القوة وإن كان محصورا في بغداد، كما يدلل على ضعف وانكسار بل وتنازل السلطان محمد السلجوقي الذي كل ما تمناه أن يقبل «أمير المؤمنين» سلطنته ليضفي عليها شرعية أمام رعيته وجنده والأمراء التابعين له فضلًا عن المناوئين، هذا دون أن يكون للسلاجقة أي دور أو أتباع في بغداد يتابعون أحوالها، ويتدخلون في شئونها كما كانوا من قبل، ومع كل هذه التنازلات لم يرض المقتفي!

وقد كانت النتيجة المترتبة على هذا الرفض أن المناوشات بين الفريقين سواء في البر أو في نهر دجلة تواصلت من بعد انقطاع مرحلي، وكان الوزير المحنك ابن هبيرة قد ميّل إليه كثيرا من وزراء وأمراء السلطان محمد بالمال، وكذلك بالحجة القوية القائمة على شرعية الخلافة ووجوب اتباع أوامر الخليفة، وقد أتى كل هذا بثمره، فكان هؤلاء الأمراء يساعدون على قعود السلطان محمد ونكوصه على العقب كلما حاول أن يحارب الخليفة ويجهز على البغاددة في معركة فاصلة.

وفي هذه الأثناء، تزامن وجوب تحصيل أموال وأحمال من أمير الحلة علي بن دبيس وأمير منطقة واسط والغراف والبطيحة[٢] مظفر بن حماد وذلك طبقا للاتفاقيات التي تمت بينهم وبين الخليفة الذي استطاع أن يجعلهم منضوين تحت لواء الخلافة في الأعوام السابقة، لكن كلا الرجلين استغل الفرصة بوجود السلطان السلجوقي على مشارف بغداد، وعزموا على الانضمام للسلطان محمد للتخلص من المقتفي الذي سامهم سوء الهزائم المتوالية، ولما عرف الخليفة بحشودهم وسفنهم في واسط، حاول ردهم بتنازله عن أحمالهم وأموالهم المستحقة منهم هذا العام، لكنهم أبوا، بل طلب مظفر بن حماد أن يرسل الخليفة إليه وزيره عون الدين ابن هبيرة أسيرا يفعل فيه ما يشاء، لكن الخليفة رفض هذا، ومن ثم بدأت محاولات أخرى في

---

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٣٤.

(٢) كانت البطيحة في العصور الإسلامية تتواجد في رقعة يبلغ عرضها خمسين ميلًا وطولها قرابة مائتي ميل، وتمتد جنوبًا حتى تلامس البصرة، وكان الماء يأتيها من الفرات عند موضع في شمالها الغربي، يبعد بضعة أميال عن الكوفة؛ إذ كان عمود الفرات في تلك الأيام شط الكوفة. كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٣.



إيقاع هؤلاء القادمين في حرب مفتعلة مع السلطان.

لقد استغل الوزير ابن هبيرة العلاقة السرية القوية بينه وبين أمراء السلطان محمد ووزرائه، وطلب منهم أن يقنعوا السلطان بوجوب اختبار هؤلاء الأعراب الذين لا يأمنون مكرهم وخداعهم ووجوب أن يسلكوا بسفنهم نهيرا صغيرا اسمه صرصر وهو الصراة كما ذكر ابن الجوزي وهو بعيد عن بغداد حتى يصلوا إليهم ويتأكدوا من صدق كلامهم وتأييدهم للسلطان محمد، وبذلك يفوت الخليفة ووزيره الفرصة على هذه الحشود بحرب أو مناوشات قوية تضعف الجيش البغدادي الذي قد لا يتحمل مواجهة مع هذه الحشود الكبيرة، كل ذلك بهدف كسب مزيد من الوقت لخطة جديدة ذكية اقترحها الوزير ابن هبيرة على الخليفة.

لكن في هذه الأوقات وبالتحديد في بدايات سنة ٥٥٢هـ كانت الحرب ضارية بين الجانبين، ويبدو لنا من مطالعة المصادر المعاصرة والشاهدة على هذه الأحداث كيف أن الخليفة كان على استعداد تام وكامل، بل وعنده من الخطط العسكرية والمناوشات القوية ما استطاع به أن يستنزف من قوة عدوه، والحق أن أهل بغداد عن بكرة أبيهم كانوا على قلب رجل واحد، حتى من رأيناهم من العيارين والشطار انضموا إلى عسكر الخليفة.

وعن هذه الاستعدادات العسكرية الكبيرة بالتزامن مع مجيء محمد السلجوقي وسيطرته على الجانب الغربي من العاصمة يقول ابن الجوزي: «ولبس الناس السلاح فأخرج الخليفة سبعة آلاف جوشن ففرقها ونصبت المجانيق والعرادات(١) وأقام أربعين شقّاقا يعملون الخشب لعمل التراس والمجانيق والعرادات فكانت مائتين وسبعين عرادة ومنجنيقًا، في كل عرادة أربعون رجلا وكان يخرج كل يوم من الخزانة أكثر من مائة كُرّ(٢)»(٣)، وقد «حكى زجّاج الخاصّ(٤) أنه عمل في هذه النوبة ثمانية عشر ألف قارورة للنفط سوى ما كان عندهم من بقايا نوبة تكريت»(٥)، وهذه الزجاجات الحارقة أشبه ما تكون بالمولوتوف الآن وهي

(١) من الآلات الحربية الكبيرة المصنوعة من الخشب، وهي بمثابة الدبابات اليوم، وكانت قاذفاتها في الماضي من الحجارة الكبيرة.

(٢) الكرّ: مكيال لأهل العراق يساوي أربعين إردبًا. المعجم الوسيط ٢/ ٧٨٢.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٩٦.

(٤) زجّاج الخاصّ: صانع الزجاج الذي يعمل لصالح مؤسسة الخلافة.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٧١.

قنابل حارقة كانت تُلقى على السفن والمجانيق والعرادات وفي ساحات المعارك.

بل إننا رأينا الاستعداد المعنوي والروحي والإيماني الذي استعان به الخليفة في هذا الحصار العسكري القوي؛ فقد أذن المقتفي « للوعاظ في الجلوس بعد منعهم من ذلك مدة سنة وخمسة أشهر وكان ذلك في ليلة السبت ثامن عشر المحرم لما كان يوم الاثنين ركب عسكر محمد شاه وعلي كوجك وجاءوا في نحو ثلاثين ألف مجفجف»[1].

بل الأكثر من ذلك وجود فرق خاصة لقوات الخليفة المقتفي من الصبيان والفتيان والمراهقين كانوا يقومون بعمليات خاصة ومحددة في عسكر محمد السلجوقي؛ فقد «كان صبيان بغداد يعبرون إليهم بالمقاليع[2] وزرافات النار[3] فيردون العسكر الكثير ويتلقون النشاب بميازر (دروع) صوف وكان القتال تحت قمرية وقصر عيسى وضرب الصبيان يوما أميرًا منهم بقارورة نفط فرمت به الفرس فقتلوه»[4]، وكانت من مهام هذه القوات الخاصة منع الميرة والإمدادات عن العساكر السلجوقية وقد نجحوا في ذلك نجاحا كبيرًا.

ومن اللافت وجود فرقة ممن يُطلق عليهم اليوم بالاصطلاح العسكري «الضفادع البشرية» كانت تابعة لقوات الخلافة العباسية كانت من صبيان بغداد كذلك، ففي أحد أيام شهر صفر من هذا العام ٥٥٢هـ وصلت إمدادات لمعسكر محمد السلجوقي من الموصل «عليه دقيق وسكر وعسل وسمن ونعل للخيل وغير ذلك فأخذه أصحاب الخليفة فركبوا بأجمعهم وانتشروا من الرملة إلى تحت الرقة وضربوا الدبادب والبوقات وكانت الريح شديدة تمنع السفن أن تصعد، فرمى صبيان بغداد نفوسهم في الماء وسبحوا فصعد منهم نحو خمسين بأيديهم السيوف والمقاليع والنشاب وسكنت الريح فركبت المقاتلة في السفن تمنع من الصبيان وكان يومًا مشهودا»[5].

وقد اشترك في هذه الحرب كل رجال وصبيان بغداد وكانوا على أهبة الاستعداد والقتال كلما سمعوا النفير، ولم تُستثن طبقة اجتماعية من هذا القتال اللهم إلا طبقة الوعاظ الذين

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٩٦.

(٢) المقاليع، مفردها مقلاع، وهو ما يُرمى به الحجر. المعجم الوسيط ٢/ ٧٥٥.

(٣) الزرّافات، مفردها زرّافة، وهو أنبوبة من الزجاج ونحوه أحد طرفيها واسع والآخر ضيق في جوفها عود يجذب السائل ثم يدفعه. المعجم الوسيط ١/ ٣٩٣.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٩٦.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٧٠.



كانوا يقومون بدور معنوي مهم في هذا القتال الدائر بين الفريقين «ففي يوم الجمعة سادس عشر صفر وصلت سفن القوم إلى الدور فخرجت سفن أهل بغداد فمنعتها من الإصعاد وجرى قتال عظيم، ووقع النفير ببغداد ولم يصل الجمعة إلا القليل ونودي من الديوان بحمل السلاح فحمل العوام والتجار والرؤساء ثياب الحرب وكان المحتسب كل يوم يجوز والسلاح بين يديه»(١).

ولإدراك الخليفة ووزيره ابن هبيرة أن أمر الحصار قد يطول، قاموا بإجراءات اقتصادية تضمن عدم نفوق أسواق بغداد من السلع والمواد الغذائية، وأظهر ابن هبيرة عبقرية نادرة في هذا المجال يقول ابن الأثير: «وكانت الغلات ببغداد كثيرة لأن الوزير كان يفرقها بالجند عوض الدنانير ليبيعوها فلم تزل الأسعار عندهم رخيصة»(٢).

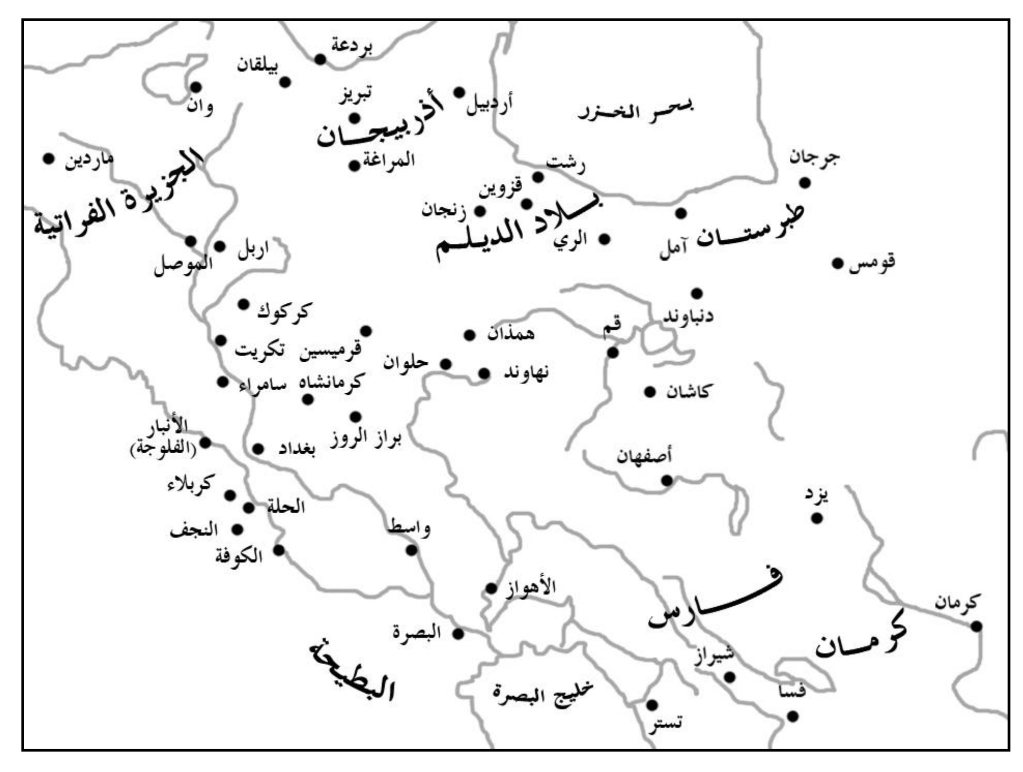
ويضيف العماد الأصفهاني في هذا المعنى: «ولما طال الحصار وتمادى الانتصار، وخاف الخليفة الغلاء، ففتح الأهراء، واقتصر للأجناد في الأعطيات على تفريق التمور فيهم والغلات، وأخذوها واحتاجوا إلى أثمانها في النفقات فرموها في الأسواق، وباعوها في الدينار فخمد بذلك استعار نار الأسعار، وما زاد السعر في الأقوات، ولا غلى مطعوم في وقت من الأوقات»(٣).

وظل الحال هكذا بين كر وفر، وتقدم ومقاومة شعبية وعسكرية قوية من أهل بغداد، حتى وصلت إمدادات عسكرية وقوات كثيرة من أمراء كل من الحلة وواسط والغراف والبطيحة والبصرة في الجنوب، وكان مع السلطان محمد شاه القائد العسكري الكبير علي كوجك أمير الموصل نائب الأتابك قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي (ت٥٥٤هـ)، وبهذا تجمع مع السلطان السلجوقي العدد الوفير والعتاد القوي.

ولنرجع إلى نجاح خطة الوزير عون الدين بن هبيرة الذي استطاع أن يغير مسار أمراء الحلة وواسط والبطيحة والغراف من دجلة إلى الصراة، وبهذا أخفقت محاولاتهم المبدئية في المناوشة والقتال مع أهل بغداد.

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٧٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٣٣ تدمرى.
(٣) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٣١.



لقد كانت خطة ابن هبيرة العبقرية تقضي- بكسب مزيد من الوقت للاتصال بأعداء السلطان محمد، وتأليبهم عليه، وكانت كما يلي:

١- الاتصال بأمير أذربيجان شمس الدين إلدكز وكانت زوجته قد تزوجت من أمير سلجوقي قبله وأنجبت ولدا اسمه أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وكان فتى صغيرا، وكانت الخطة تقضي في حالة انتصار إلدكز على محمد وإبعاده عن بغداد بقواته الكبيرة أن يعترف الخليفة بشرعية الفتى أرسلان شاه وتنصيبه سلطانا على جموع السلاجقة، وهو عرض مغر بلا أدنى شك، فضلا عن العداوة بين إلدكز ومحمد السلجوقي[1].

٢- الاتصال بالأمير ملكشاه بن محمود السلجوقي أخي السلطان محمد الذي هُزم قبل أشهر قليلة مع عمه السلطان سليمان شاه وعسكر الخليفة في همذان أمام أخيه السلطان محمد، وكان يطمع في استعادة ملكه، وتنصيبه سلطانًا هو الآخر، وقد

---

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٤٠.

انضمت إليه عساكر الخليفة المقتفي نكاية في أخيه محمد، فقد ذكر ابن الجوزي أن الخليفة جمع عساكره وقال: «تمضون إلى همدان لتكونوا مع ملكشاه ضد محمد شاه وكوجك»[1].

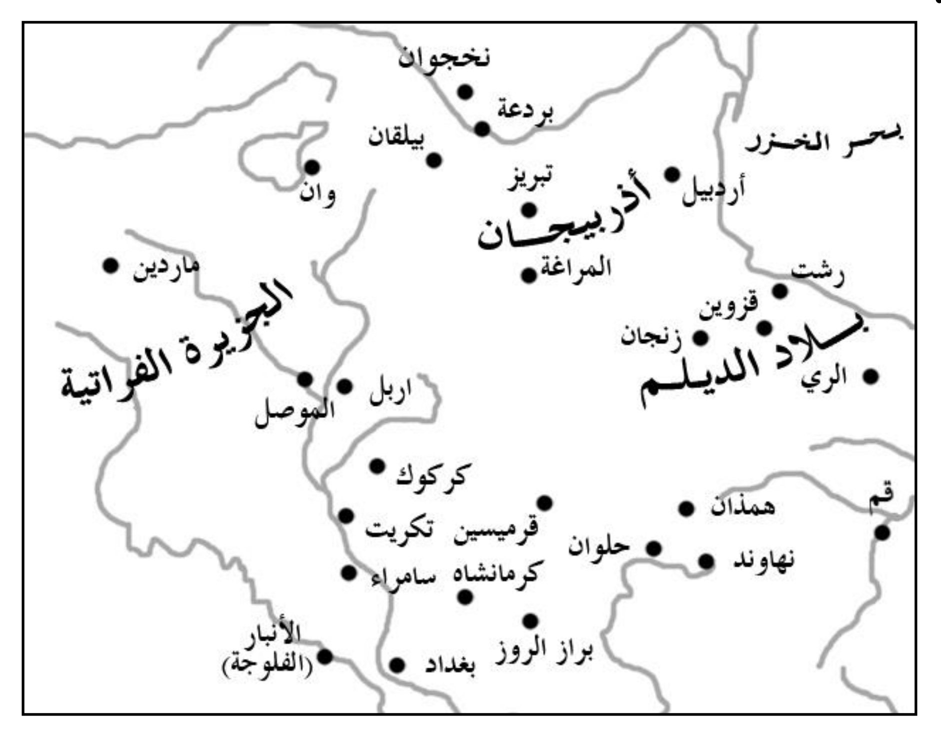
٣- الاتصال بالأمير إينانج أمير ولاية الري الذي شق عصا الطاعة عن مولاه السلطان محمد، لكن استطاع السلطان أن يصطلح معه، ويقره على ما تحت يده.

بل إننا نرى الحسيني ذاكرا اسم الأمير سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان عم السلطان محمد بن محمود بن محمد ينضم إلى معسكر شمس الدين إلدكز وملكشاه بن محمود وعسكر الخليفة العباسي، ولكن ما ذكره الحسيني لا نجده عند كل من ابن الجوزي وابن الأثير والأصفهاني وغيرهم.

في وسط هذه التحركات، وهذه الموجة العاتية من الخروج على السلطان محمد، فإنه لم يسعه إلا أن يفك حصاره عن بغداد متجها شرقا إلى همذان التي حاصرها أخوه ملكشاه واستطاع أن يدخلها عنوة معسكرا بها، وقبل أن ينفضّ السلطان محمد عن بغداد، نجد ابن الجوزي يذكر أمرا لافتًا وهو أن أكبر مناصري السلطان محمد الأمير زين الدين علي بن كوجك نائب الأمير قطب الدين على الموصل ينضم إلى معسكر الخليفة ملتجئًا إليه طالبًا المسامحة والمغفرة منه، من بعد رسالة أرسلها له نور الدين محمود يأمره فيها بذلك، قال ابن الجوزي: «قيل إن نور الدين بن زنكي بعث إلى علي كوجك وقال له: تمضي وترمي نفسك بين يدي أمير المؤمنين حتى يرضى»[2]، وهذا الموقف بلا شك سيكون له أثره الطيب على الدولة النورية قريبا.

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٧٥.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٧١.



انطلق محمد بن محمود السلجوقي لملاقاة كل من أخيه ملكشاه وأمير أذربيجان شمس الدين إلدكز بعدما علم استيلاؤهما على همذان وهي عاصمة ملك سلاجقة العراق، وفيها توفي عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، وقد ذكر الأصفهاني أنه «لما أحس ملكشاه بقرب أخيه محمد انصرف وانحرف وقفاه أتابك إلدكز وما توقف..»[(1)].

والتقى بهم محمد عند منطقة نخجوان في أذربيجان وأنزل بهما هزيمة ماحقة جعلتهما يذعنان له بالطاعة التامة.

بعد هزيمة السلطان محمد لكل من شمس الدين إلدكز وملكشاه كان عازمًا على العودة مرة أخرى لمحاصرة بغداد، بيد أنه لم يستطع أن يحقق ذلك لمرضه ووفاته في العام التالي، تاركا دولة السلاجقة في العراقين (العراق والجانب الشرقي من إيران حاليا) دون سلطان من بعده وقد اختلف الأمراء بعده فيمن يولون فاستقر الأمر على سليمان شاه بن محمد عم السلطان محمد في أواخر عام ٥٥٤هـ الذي بايع الخليفة وأذعن له ويصف لنا الأصفهاني مشهد مبايعة

(١) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٦٢.

السلطان الضعيف الخرق سليمان شاه للخليفة المقتفي بقوله: «فبادر السلطان إلى التثام الأرض، وامتثال الفرض، وقبل كتابه وقبّله»[١].

وحاول هذا السلطان في مشهد طريف أن يعيد مراسم السلاجقة ومكانتها السالفة في العاصمة بغداد بإرسال سفراء وموظفين تابعين له ليمكثوا في بغداد كما كانت عادتهم قديما؛ وهو ما يُدلل على غياب الوعي السياسي بل وحتى التاريخي عند هذا السلطان، قال الأصفهاني عن هؤلاء الرسل – وعلى رأسهم أحد حجابه وأحد أمرائه وأحد قضاته وآخرون – وما واجهوه: «فاستصحب القاضي والأمير ووصل، على ظن أنه بالمراد حصل، وبالرغائب رغبا .. وأقاما مدة للتقرب والترقب، ثم قاما للتطلب والتغلب .. فقال لهما الوزير (ابن هبيرة): ما بالكما، وما حالكما، وبما أرسلكما، وفيم سؤالكما؟ فقالا: ما جئنا لنذهب، وإنما جئنا لنخاطب ونخطب. فقيل لهما: ما أنتما إلا سفيرا اهتداء وإهداء، وخفيرا ولاية وولاء، والتعرض للخطبة تعرض للخطوب .. فتلاشت تلك الرسالة لعدم رسلها، ولروعة مثل ذلك الحادث لم يرجعوا إلى مثلها، ووقعت في أنفسهم من بغداد الهيبة، ومن حصولها الخيبة، فلم يقدم ملك إليها، ولم يقدم سلطان عليها»[٢]. وبهذا الوصف البليغ من الأصفهاني انتهت سيادة السلاجقة على العراق العربي بصورة نهائية.

بهذا الانسحاب وانشغال السلطان محمد بحربه مع أخيه ملكشاه ومناوئه إلدكز، ثم موته بعد ذلك استطاع الخليفة المقتفي منذ عام ٥٥٢هـ أن يتخلص بصورة نهائية من خطر السلاجقة الذي ظل جاثما على صدر آبائه وأجداده مائة عام كاملة، ولذلك نرى تعليق الحسيني على انتصار المقتفي واندحار السلاجقة بقوله: «وانقطع بعد ذلك أطماع السلاطين السلجوقية عن بغداد»[٣] ، وقد علّق الأصفهاني على هذا الانتصار العباسي بقوله: «وأصبحت بغداد وقد أتاها الله بالفرح .. ونصر الحق وحق النصر، وكف المقتفى عن انتقاء المنكفين، وانتشرت عساكر أمير المؤمنين في البلاد .. وعرفت الأعاجم أنه لا مطمع بعدها في بغداد»[٤].

---

(١) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٦٨.
(٢) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٦٩.
(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٤٠.
(٤) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٣٢.

ويصف الأصفهاني الحالة التي كانت عليها بغداد بعد هذا النصر وكان حاضرا معاصرا لهذه الأحداث بقوله: «وكنتُ حينئذٍ ببغداد، وجرت قصائد في هناء الإمام، واستخدمني الوزير عون الدين تلك السنة في النيابة عنه بواسط، فنقلني من المدرسة إلى العمل..»[١]. وقال ابن الجوزي: «وخرج الناس يلعبون في نهر عيسى وغيره بأنواع اللعب والمضحكات فرحا بالسلامة وكان العظامية والقرع والصبيان الذين كانوا يقاتلون في تلك الأيام قد اتخذوا زرديات من بعر الغنم وسلاحا من الفارسي وأخرجوا طبلا وبوقا ونصبوا خشبا وصلبوا جماعة تحت آباطهم يلعبون ويضحكون ما كان كل سبت وخرج الناس يتفرجون ويضحكون عليهم»[٢].

وفي العامين التاليين ٥٥٣ و ٥٥٤هـ استطاع الخليفة المقتفي أن يرد مناوشات بعض أمراء السلاجقة على الجهة الشرقية والشمالية الشرقية من العراق وخاصة إقليم الجبال، فقد كانت قلعة الماهكي ومنطقة تسمى اللحف[٣] في هذا الإقليم لأحد الأمراء واسمه سنقر الهمداني وقد أقطعها الخليفة لأحد أنصاره واسمه قايماز العميدي، وكان سنقر ممن تخلى عن الخليفة وقت الحاجة إليه، وأرسل يقول له: «ارحل عن بلدي. فامتنع فسار إليه وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميدي ورجع إلى بغداد بأسوأ حال، فبرز الخليفة وسار في عسكره إلى سنقر فوصل إلى النعمانية[٤] وسير العساكر مع ترشك[٥] ورجع إلى بغداد، ومضى ترشك نحو سنقر الهمذاني فتوغل سنقر في الجبال هاربا ونهب ترشك ما وجد له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك، وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه، ونزل على الماهكي وحصرها أياما ثم عاد إلى البندنيجين وأرسل إلى بغداد بالبشارة، وأما سنقر فإنه لحق بملكشاه فاستنجده فسير معه خمسمائة فارس فعاد ونزل على قلعة هناك وأفسد أصحابه في البلاد، وأرسل ترشك إلى بغداد يطلب نجدة فجاءته»[٦]. واستطاع القائد ترشك أن يهزم سُنقر

---

(١) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٣٣.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٧٥.

(٣) قال ياقوت عن منطقة اللحف: «من نواحي بغداد سمي بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند وتلك النواحي وهو دونها مما يلي العراق ومنه البندنيجين وغيرها وفيه عدة قلاع حصينة». ياقوت: معجم البلدان ٥/ ١٤.

(٤) القريبة من واسط.

(٥) الأمير ترشك المقتفوي من الأمراء المقربين من الخليفة، وممن ربي عنده وفي داره وكان المقتفي يحبه ويقرّبه، وقد اعتقله السلطان مسعود سنة ٥٣٧هـ ثم سرعان ما أطلقه «حفظًا لقلب الخليفة». ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ تدمرى.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٣٣، ٤٣٤.



ويستولي على غنائمه، لكن القلعة لم تسقط بالكلية في يد العباسيين.

إن الذي دفع الخليفة المقتفي للقضاء على هذه الفلول، هو نظرته للموضوع بأهمية بالغة؛ لأنه خشي أن يتشجع السلاجقة على مهاجمة الخلافة مستقبلًا، فعزم على تأديب سنقر الهمداني كما ذكر ابن الأثير آنفًا، ثم بعد خلع سليمان شاه من قبل أمرائه وقتلهم له، لم يلب الخليفة طلبهم بالاعتراف بسلطنة ألب أرسلان، وظلت الخطبة للخليفة وحده في بغداد حتى وفاته.

أمّن المقتفي نصره بضم مدن وولايات العراق إليه، وعزم على تفقدها كلها واحدة وراء أخرى، وهذا ما لم نعهده من أي خليفة قبله، أولئك الذين ظلوا جاثمين في بغداد، بل جاثمين في قصر الخلافة طيلة الوقت، فتوجّه إلى مدينة أوانا[(١)] ثم قصر الملك، ورحل بعدها إلى البطائح، ثم عاد إلى بغداد[(٢)].

وبموت السلطان محمد سنة ٥٥٤هـ ومن قبله السلطان سنجر سنة ٥٥٢هـ، يكون الخليفة المقتفي قد تخلص من أقوى رجلين من رجال السلاجقة في ذلك الوقت، يقول ابن الأثير واصفًا المقتفي لأمر الله: «وهو أول من استبد بالعراق منفردًا عن سلطان يكون معه من أول الديلم إلى الآن[(٣)]، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ) إلى أن يكون المعتضد بالله (٢٨٩- ٢٩٧هـ)»[(٤)].

نهاية المقتفي بأمر الله

وبعد خلافة دامت ربع قرن شهدت الخلافة العباسية فيها تحولًا جذريا، وإعادة لقوتها وهيبتها وسابق عهدها الذهبي، «وفي صبيحة الأحد ثاني ربيع الأول (من عام ٥٥٥هـ) أصبحت أبواب دار الخلافة كلها مغلقة إلى قريب الظهر، وأغلق باب النوبي وباب العامة فتحقق الناس الأمر وركب العسكر بالسلاح فلما كان قريب الظهر فتحت الأبواب ودعي

---

(١) أوانا: بلدة من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، من جهة تكريت. ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ١١٨ عطا.

(٣) توفي ابن الأثير سنة ٦٣٠هـ.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٧٠.

الناس إلى بيعة المستنجد بالله فأظهروا موت المقتفي»[1].

وقد كان المقتفي محببًا إلى جميع رعيته داخل العراق وخارجها، حتى أقيمت له سرادقات العزاء في عواصم الأقاليم الكبرى، ومنها دمشق التي كانت تحت سيطرة الدولة النورية، وقد حضر العلامة ابن عساكر عزاء الخليفة المقتفي وأشار إلى ذلك في كتابه العظيم «تاريخ مدينة دمشق»[2].

قال الإربلي عن بعض مناقب المقتفي وعصره: «كانت أيامه نضرة بالعدل، تزهو بفعل الخيرات، وانتشار العلوم، وكان على قدم من العبادة قبل إفضاء الأمر إليه وبعده، ولم يُر بعد المعتصم خليفة في شجاعته وصرامته، مع لين جانب ورأفة في لطافة؛ خرج عليه من سلاطين الوقت في أيامه جماعةٌ؛ ففلَّ الله جموعهم، ولم يبلغ أحدٌ منهم غرضًا»[3].

قال الأستاذ خير الدين الزركلي عنه: «استقل بأعمال الدولة. وكان حازما، مقداما، يباشر الحروب بنفسه، وهو أول من انفرد بإدارة شؤون الملك بنفسه، من أول عهد الديلم إلى عهده، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك بالخلفاء من عهد المستنصر إلى أيامه، لم يتقدمه بذلك غير المعتضد، ودامت له الخلافة أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر، وتوفي ببغداد. كان يقظا كثير العناية بأخبار البلاد، يبذل الأموال العظيمة على الأرصاد والعيون فلا يكاد يفوته شيء مما يحدث في مملكته وغيرها»[4].

وقد كان المقتفي محبا للشعر، ناظمًا له، ذكر له ابن واصل شعرا منه[5]:

قالت: أحبك، قلتُ: كاذبة ... غري بذا من ليس ينتقد

لو قلت لي: أشناك، قلت: أجل ... الشيخ ليس يحبه أحد!

وقد توفي الخليفة المقتفي لأمر الله عن عمر ناهز ٦٦ سنة هجرية، ودُفن بدار الخلافة أولًا، ثم نُقل إلى مقابر خلفاء بني العباس في تربة الرّصافة، وكان قد جعل أبا المظفر يوسف

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٩٢.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٣٩٩.
(٣) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٣.
(٤) الزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٦، ٣١٧.
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ١٣٣.



ولده وليًا للعهد[١]، فرحمه الله رحمة واسعة، ما أحوجنا لمثل هذه الهمة في زماننا هذا، ممن يقتنصون لحظة الفرج، ويقومون على بناء دولة الإسلام، وينهضون بمشروعنا الحضاري ويعتبرون من التاريخ وسير العظماء السابقين!

كيف كان وزراؤه؟!

ذكر ابن الجوزي في بداية التأريخ للمقتفي أن وزراءه هم «علي بن طراد ثم أبو نصر المظفر بن علي بن جهير ثم أبو القاسم علي بن صدقة ثم أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة وكان القضاة في زمانه أبو القاسم الزينبي ثم أبو الحسن الدامغاني»[٢].

غير أن زامباور النمساوي استدرك اثنين لم يذكرهما ابن الجوزي، وهما سديد الدولة الأنباري وجهم بن عمرو الشيباني وكلاهما لم يمكث في الوزارة إلا قليلًا[٣].

والحق أن أهم وأفضل وزراء العباسيين في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة في عمر الخلافة كان عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة ولنا معه وقفة لاستجلاء مجهوده وتاريخه العظيم!

عبقرية الوزير ابن هبيرة!

أجمعت المصادر التي ترجمت لابن هبيرة على أنه عربي شيباني، دوري بغدادي، حنبلي المذهب، ولد في دور[٤] في ربيع الآخر سنة٤٩٩هـ ونُسب إليها، كما نُسب إلى بغداد التي استقر بها، فهو الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن الحسن بن أحمد بن الحسن إلى أن يصله نسّابوه إلى بني شيبان ثم الدوري فالبغدادي، كنيته أبو المظفر ولقبه عون الدين، قدِم ابن هبيرة إلى بغداد شابًا بصحبة والده الذي أراد له أن يكون من أهل العلم، فدرس في مدارس بغداد وأخذ العلم على كبار شيوخ عصره، فقد سمع الحديث عن القاضي أبي الحسن ابن الفراء، وأبو الحسين بن الزغواني، وعبدالوهاب الأنماطي وأبو غالب بن البنا وأبوعثمان ابن ملة وابن الحصين[٥].

---

(١) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٦١.
(٣) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص١٠.
(٤) قرية من نواحي بغداد من أعمال الدجيل، وكانت تعرف بدور بني أوقر وقد اشتهرت فيما بعد بدور الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٤٨١.
(٥) ابن رجب الحنبلي: ذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ١٠٧- ١١٢.

وأخذ الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، على أبي بكر الدينوري، والأدب على ابن منصور الجواليقي، كما صحِب أبو عبدالله محمد بن يحيى الزبيدي الواعظ الزاهد.

هذه الخلفية الثقافية التي تمتع بها ابن هبيرة، جعلته يصنف الكتب في شتى أنواع المعرفة، فقد صنف كتاب الإفصاح عن معاني الصحاح، وهو كتاب في عدة مجلدات، قدم فيه شرحا لصحيحي البخاري ومسلم(١).

كما صنف كتابًا في النحو، هو المقتصد، واختصر كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت، وصنف كتاب العبادات الخمس، على مذهب الإمام أحمد، كما له أرجوزة في المقصور والممدود، وأخرى في علم الخط، وهذا ما جعل الذهبي يصفه بصاحب التصانيف، بعدما ذكر ألقابه وكنيته ثم اسمه(٢)، مما يدلل على أن ابن هبيرة كان له باع طويل ومكانة رفيعة بين العلماء والفقهاء جعلته فيما بعد يظهر هذه الخلفية الثقافية والعلمية في المناصب التي تولاها في إدارة الخلافة، والتي بدأ يتدرج فيها من مرتبة إلى أخرى أعلى منها، حتى وصل إلى منصب الوزارة، في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله(٣).

يتضح من اهتمامات ابن هبيرة، أنه أراد أن يسلك طريق العلم، ويسبر غوره، في شتى حقوله، كسائر علماء عصره، وهذا ما كان يدفعه إليه والده ويحضه عليه - نظرًا لمكانة العلم والعلماء في ذلك العصر - ويؤكد ذلك تنوع مصنفاته بين الفقه، والحديث، واللغة، والأدب والشعر، وما كان دخوله في العمل الكتابي، في الإدارة الخلافية، إلا مرحلة مؤقتة، اضطرته إليها الحاجة والعوز، ولم يكن يعلم أن القدر يخبئ له مستقبلا مغايرًا لحياة العلم والعلماء، وهي الحياة السياسية، في عصر كانت فيه السياسة مليئة بالمؤامرات والدسائس والصراع على القوى والنفوذ(٤).

وإذا كان دخوله في معترك السياسة، دون تخطيط منه أو سعي إليه، إلا أن الأيام أثبتت أنه كان الرجل المناسب في المكان المناسب، إذ استطاع أن يوظف قدراته وإمكاناته ليلعب

(١) ابن رجب، ذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ١١٣ - ١١٥.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٥٦.
(٣) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ١١٦، ١١٧.
(٤) معن المقابلة: الوزير عون الدين بن هبيرة ودوره في مساندة الخلافة العباسية في استعادة نفوذها الزمني ١٨/ ٣١٢.

دورًا محوريًا في توجيه الصراع الذي كان دائرًا بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية.

فقد استطاع أن يوظف هذه القدرات، التي اكتسبها أثناء تحصيله العلمي، على شيوخ وعلماء بغداد، وفي مدارسها، ومساجدها، في النجاحات المتتالية التي حققها منذ أن وطئت قدماه المؤسسة الإدارية في الخلافة العباسية، وكان ذلك زمن الخليفة المقتفي لأمر الله فقد دخل الإدارة الخلافية كاتبًا، ثم أخذت مواهبه تتفتق، فانتقل مشرفًا في المخزن (بيت المال)[1].

أما النقلة النوعية التي ستصعد به ليصبح قاب قوسين أو أدنى من الوزارة، فهي تسلمه ديوان الزمام (ديوان الخلافة أو البلاط)، بحيث يكون على تماس مباشر مع الخليفة، والذي سيكتشف هذا الأخير براعة وحنكة ابن هبيرة، وسداد رأيه، بحيث كان الخليفة المقتفي لأمر الله بأمس الحاجة في تلك المرحلة لشخصية تمتلك زمام المبادرة، ليبدأ مشروعه في استعادة النفوذ الزمني للخلافة، وقد تأكد له أن ابن هبيرة هو الشخصية المناسبة، والتي ستسير معه جنبًا إلى جنب في مشروعه هذا، بعد الحادثة التي تعرضت لها بغداد سنة ٥٤٣ هـ ودور ابن هبيرة فيها.

ففي هذا العام ٥٤٣هـ تجدد الصراع بين السلطان مسعود ومنافسيه على السلطنة، فقد توجهت مجموعة من الأمراء السلاجقة، يتقدمهم الملك محمد شاه بن محمود بن ملكشاه إلى بغداد؛ بغية إسقاط سلطنة مسعود، وتنصيب محمد شاه سلطانًا على سلاجقة العراق، وأخذوا بمحاصرتها، ولم تفلح كل المحاولات التي بذلها الخليفة في ثني المحاصرين من التعرض لبغداد، وأخيرًا طالب المحاصرون مبلغ ثلاثين ألف دينار لفك حصارهم، فاستشار الخليفة خاصته فنصحوه أن يلبي طلبهم، إلا أن ابن هبيرة –وكان يشغل ديوان الزمام – أشار على الخليفة باتخاذ العسكر والتصدي للمحاصرين وعدم الإذعان لمطالبهم، فقد نصح الخليفة بقوله : «هؤلاء القوم خرجوا عليك وعلى السلطان، وجاهروكما بالعصيان، فاجعل الله بالاستجارة، وقدم له الاستخارة، وأنفق على ما عزمت بذله لهم، في عسكر يقاومهم ويدفع شرهم، فإنك إن دفعتهم بالعطاء، لم تسلم من عتب السلطان مسعود، وإن هزمتهم باللقاء قلت له إني فللت جنود عصيانك من أهل طاعتك بجنودك وأنت لا تحمد على ما تحمل ولا

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ١٦٦ عطا.

تشكر على ما تعمل»[١].

وعلى ما يبدو أن هذه النصيحة لاقت هوى لدى الخليفة المقتفي لأمر لله فأخذ بها فاضطر المحاصرون إلى الانسحاب، فكان هذا النصر بفعل نصيحة ابن هبيرة، فكافأه الخليفة بأن ولاه الوزارة، وكان ذلك في الثالث من ربيع الأول من سنة ٥٤٤ هـ، كما مرّ بنا سابقًا.

ونستطيع القول أن وصول ابن هبيرة إلى وزارة الخليفة المقتفي لأمر الله يعد مرحلة مهمة في مسيرة الخلافة في التصدي لنفوذ السلاجقة، إذ لعب هذا الوزير دورًا مركزيًا في استعادة النفوذ السياسي للخلافة من خلال مساندة الخليفة المقتفي لأمر الله وابنه من بعده الخليفة المستنجد بالله للتخلص من النفوذ السلجوقي وتحرير الخلافة من هيمنتهم، وبما أن «أزمّة أمور الملوك بأكف الوزراء»[٢] ندرك أهمية اختيار ابن هبيرة في وزارة المقتفي لأمر الله.

ولا أدل على أهمية هذه الحادثة في مؤسسة الخلافة من المراسم التي اتبعت في تنصيب الوزير ابن هبيرة، فقد وصف ابن خلكان مراسم التنصيب بقوله: «ولما وصل إلى باب الحجرة استُدعي فدخل وقد جلس له المقتفي لأمر الله بميمنة التاج، فقبل الأرض وسلم، وتحدث ساعة بما لم يحط به غيرهما علمًا، ثم خرج، وقد جهزوا له التشريف على عادة الوزراء فلبسه، ثم استدعي ثانيًا فقبل الأرض، ودعا بدعاء أعجب الخليفة... ثم إن عون الدين خرج فقُدم له حصان أدهم سائل الغرة محجل ... وخرج بين يديه أرباب المناصب وأعيان الدولة وأمراء الحضرة، وجميع خدام الخلافة، وسائر حجاب الديوان، والطبول تضرب أمامه، والمسند (خلع الخلافة) وراءه محمول، على عادتهم في ذلك، حتى دخل الديوان، ونزل على طرف الديوان وجلس في الدست (صدر الديوان)، وقام لقراءة عهده الشيخ سديد الدولة أبو عبدالله محمد بن عبدالكريم بن الأنباري»[٣].

وعلى الرغم من أن هذه المراسم كانت تتبع في تنصيب الوزراء بشكل عام إلا أنها أعادت إلى الأذهان صورة الوزراء الأوائل من وزراء العصر العباسي الأول الذين كانوا يمثلون بحق وزراء السيف والقلم لا مجرد كتاب في دار الخلافة، وهذا ما ينسحب على ابن هبيرة الذي قاد

(١) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٦٦.
(٢) الطرطوشي: سراج الملوك ص٢٢٤.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ٢٣٢، ٢٣٣.



جيوش الخلافة وحقق الانتصار تلو الآخر(١).

وقد وزر ابن هبيرة للخليفة المستنجد بالله وأبقاه على وزارته وكان يثق فيه ثقة مطلقة نظرًا لما رآه في خلافة أبيه، وسنرى بعد قليل عند حديثنا عن خلافة المستنجد بالله أثر هذه العلاقة، ولذلك كان المقتفي والمستنجد يقولان في حقه: «ما وزر لبني العباس كيحيى بن هبيرة في جميع أحواله»(٢).

أما مناقب ابن هبيرة وأخلاقه فكثيرة فإنه «لما تولى الوزارة دخل الديوان وعليه الخلع، فرأى غلامًا من غلمان الديوان واقفًا عن بعد، فاستدناه وتبسم في وجهه وأمر له بذهب وكسوة، ثم قال: لا إله إلا الله، أذكر مرةً وقد دخلت هذا الديوان وجلستُ في بعض المجالس، فجاء هذا الغلام وجذبني بيدي وقال: قم فليس هذا مكانك، وقد رأيته الساعة واقفًا وأثر الخوف ظاهر عليه فأحببت أن أوانسه وأزيل رعبه»(٣).

ومن عفوه أنه «رأى يومًا في الديوان جنديًا، فقال لحاجبه: أعط هذا الجندي عشرين دينارًا وكر حنطة وقل له لا يدخل الديوان ولا يرينا وجهه. فتغامز الناس وتشوفوا إلى معرفة السبب في ذلك. وفطن الوزير لذلك فقال لهم: كان هذا الجندي شحنة في قريتنا، فقتل شخص من أهل القرية، فجاء هذا الشحنة وأخذ جماعةً من أهل القرية وأخذني معهم مكتوفًا في عرض الفرس، وبالغ في أذاي وضربي ثم أخذ من كل واحد منهم شيئًا وأطلقه، وبقيت أنا معه، فقال لي: أعطني شيئًا أخلصك. فقلت: والله ما أملك شيئًا. فأعاد عليَّ الضرب والإهانة، ثم قال لي: اذهب إلى لعنة الله، ثم أطلقني، فأنا لا أحب أن أرى صورة وجهه»(٤).

وعن صلته لجيرانه وتواضعه أنه «حدّث عنه بعض مجالسيه، قال: كنا يومًا عنده فدخل الحاجب وقال: يا مولانا بالباب رجل سوادي، يذكر أنه فلان بن فلان ومعه شملة مكورة وهو يطلب الحضور بين يديك. فعرفه الوزير وقال له: أدخله. قال: فدخل شيخ طويل من

(١) معن المقابلة: الوزير عون الدين بن هبيرة ودوره في مساندة الخلافة العباسية في استعادة نفوذها الزمني ١٨/ ٣١٤.
(٢) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٩٩.
(٣) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٩٩.
(٤) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٠٠.

أهل السواد عليه ثياب غليظة من القطن وعمامة فوط ملونة، وفي رجله جمجمان، فسلم على الوزير وقال: يا سيدي، أم الصغيرات، يعني زوجته، لما علمت أني أجيء إلى بغداد قالت لي: سلم على الشيخ يحيى بن هبيرة واستوحش له، وقد خبزت لك هذا الخبيز على اسمك. فتبسم الوزير وهش به وقال: جزاها الله خيرًا. وحل تلك الشملة فإذا فيها خبز شعير مشطور بكامخ التوث. فأخذ الوزير منه رغيفين وقال: هذا نصيبي من هذه الهدية، وفرق الباقي على الصدور الحاضرين. وسأل الرجل عن حوائجه وحوائج زوجته فقضاها، وقال للحاضرين: هذا كان جاري في قريتي وشريكي في زريع وأعرف منه الأمانة»(١).

لقد كان ابن هبيرة من الوزراء المتواضعين الرجاعين للحق دائمًا، قال ابن الجوزي عنه: «كان يتحدث بنعم الله عليه ويذكر في منصبه شدة فقره القديم فيقول: نزلت يوما إلى دجلة وليس معي رغيف أعبر به. وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء وكانت أمواله مبذولة لهم وللتدبير فكانت السنة تدور وعليه ديون وقال: ما وجبت علي زكاة قط ... وجعل لي (أي ابن الجوزي) مجلسًا في داره كل جمعة يحضره ويطلق العوام في الحضور وكان بعض الفقراء يقرأ القرآن في داره فأعجبه فقال لزوجته: إني أريد أن أزوجه ابنتي فغضبت الأم ومنعت من ذلك، وكان يقرأ عنده الحديث في كل يوم بعد العصر. فحضر فقيه مالكي فذكرت مسألة فخالف فيها ذلك الفقيه فاتفق الوزير وجميع العلماء على شيء وذلك الرجل يخالف، فبدر من الوزير أن قال له: أحمار أنت أما ترى الكل يخالفونك وأنت مصر؟ فلما كان في اليوم الثاني قال الوزير للجماعة جرى مني بالأمس ما لا يليق بالأدب حتى قلت له تلك الكلمة فليقل لي كما قلت له فما أنا إلا كأحدكم فضج الخلق بالبكاء»(٢).

لقد كان ابن هبيرة من أفاضل الوزراء وأعيانهم وأماجدهم، له في تدبير الدولة وضبط المملكة اليد الطولى، وله في العلوم والتصانيف التبريز على أهل عصره، وله أشعار كثيرة، فمنها(٣):

يقين الفتى يزرى بحالة حرصه ... فقوة ذا عن ضعف ذا تتحصل

إذا قل مال المرء قلّ صديقه ... وقبّح منه كل ما كان يجمل

(١) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٠٠، ٣٠١.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢١٥، ٢١٦.

(٣) ابن الطقطقى: الفخري ص٣٠٢.



مات ابن هبيرة مسمومًا في ١٣ جمادى الآخرة سنة ٥٦٠هـ وقد ناهز الحادية والستين من عمره[١]، وقد قال ابن الجوزي، وكان ممن غسّل الوزير ابن هبيرة وحضر جنازته واكتشف أنه مات مسمومًا: «حمُلت جنازته يوم الأحد إلى جامع القصر. فصلى عليه ثم حمل إلى مدرسته التي بناها بباب البصرة فدفن بها وغلقت يومئذ أسواق بغداد وخرج جمع لم نره لمخلوق قط في الأسواق وعلى السطوح وشاطئ دجلة وكثر البكاء عليه لما كان يفعله من البر ويظهره من العدل وقيل في حقه مراثٍ كثيرة»[٢].

الصعلكة في بغداد المقتفوية!

لم تختلف بغداد كثيرا في زمن الخليفة المقتفي بالله عن ذي قبل، فالأوضاع الاجتماعية فيها تكاد تكون مقدسة من طبقة رجال الحكم والأمراء، والعلماء والفقهاء والقضاة، والعامة والنساء والأطفال، ثم طائفة يزداد غيها يومًا بعد يوم وهم «العيارون» وهم صعاليك بغداد من الفقراء المعدمين الَّذين خرجوا عن قوانين المجتمع لما أصابهم من الظُّلم والعطل عن العمل، طحنهم الفقر فأغاروا على الأغنياء وسلبوهم أموالهم، وقد يدفعون ما يسلبونه إلى غيرهم من ذوي العجز والفاقة!

وظاهرة العيارين ظاهرة ترجع جذورها إلى بدايات الخلافة العباسية، حتى إنه كان لهم دورهم السياسي في بعض الأوقات، منها أنَّهم رفضوا انقلاب المأمون بن هارون الرَّشيد على أخيه الأمين، واستلابه السُّلطة من أخيه، وقيل: بلغ عدد العيَّارين في انتفاضتهم رفضًا لخلافة المأمون نحو مئة ألف عيَّار، وهذا العدد الذي قد يكون مبالغًا فيه ليس مهمًّا بقدر ما يكشف عن أثر الظُّروف السِّياسيَّة والاقتصاديَّة في المرجعيَّة السُّلوكيَّة للعيَّارين، وذكر ابن الأثير ما فعله العيَّارون والشُّطَّار بمن سمَّاهم أهل الصَّلاح حين قال: «ووثب الشُّطَّار على أهل الصَّلاح» وقصد بأهل الصَّلاح: الأثرياء من كبار التُّجار والقوَّاد، وإنَّما وثب العيَّارون والشُّطَّار عليهم في قصورهم لتخاذلهم عن نصرة الأمين في حرب استمرَّت أربعة عشر شهرًا كانت من منظور العيَّارين والشُّطَّار حربًا بين العجم والعرب[٣].

---

(١) ابن الطقطقى: الفخري ص٣١٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢١٦، ٢١٧.
(٣) الموسوعة العربية، ج١٣ فصل «العيارون».

ويذكر ابن الجوزي أن أكبر حادثة سرقة لهم في بداية حكم المقتفي استولوا فيها على آلاف الدنانير من المال والحبوب والمتاع في باب الأزج في بغداد، لكن شحنة (شرطة) بغداد استطاعت أن تقبض على بعضهم «أخذ الشحنة أقواما من أولئك فصلبوهم على جذوع ثم أخذ منهم أموالا وحطهم في عافية»(١).

بل الأعجب من ذلك أن ترى أحد أكابر هؤلاء العيارين يريد أن يضرب السكة باسمه في الأنبار، ليقيم دولة العياريين في عام ٥٣٢هـ!! ويذكر لنا ابن الأثير أن هذا الجريء واسمه ابن بكران العيار يقول: «كثرت أتباعه وصار يركب ظاهرا في جمع من المفسدين وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد فأمر أبا القاسم ابن أخيه حامي باب الأزج أن يشتد إليه ويلبس سراويل فتوة منه ليأمن من شره وكان ابن بكران يكثر المقام بالسوادة ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز فانتهى أمرهما إلى أنهما أراد أن يضربا باسمهما سكة في الأنبار فأرسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي إلى الوالي أبي الكرم وقالا: إما أن تقتل ابن بكران وإما أن نقتلك. فأحضر ابن أخيه وعرفه ما جرى وقال له: إما أن تختارني ونفسك وإما أن تختار ابن بكران فقال: أنا أقتله. وكان لابن بكران عادة يجيء في بعض الليالي إلى ابن أخي أبي الكرم فيقيم في داره ويشرب عنده فلما جاء على عادته وشرب أخذ أبو القاسم سلاحه ووثب به فقتله وأراح الناس من شره ثم أخذ بعده رفيقه ابن البزاز وصلب وقتل معه جماعة من الحرامية فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة»(٢).

ثم تطور نشاط العيارين «وصاروا يأخذون مجاهرة»(٣)، وهذا من العجب بمكان، أن يُترك اللصوص الظرفاء يأخذون وينهبون ما تصل إليه أيديهم وشرطة بغداد لا حول لها ولا قوة.

على أن ابن الأثير في تأريخه لحوادث عام ٥٣٦هـ يقرر أن السلطان مسعود ساءه ما وصلت إليه الأوضاع الأمنية في بغداد بسبب أفعال العيارين، فأجرى حركة تنقلات كما نسميها اليوم فعزل قائد شرطة بغداد واسمه مجاهد الدين بهروز وهو رجل أمني من الطراز

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٦٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٦.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٨٦.



الأول وأتى بآخر اسمه قزل وهو أمير الاصطبلات السلطانية، لكنه لم يفلح فـ«وصل السلطان إلى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ما ساءه فأعاد بهروز إلى الشحنكية فتاب كثير منهم ولم ينتفع الناس بذلك لأن ولد الوزير وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر بهروز على منعهم»[1]، أي أن العيارين استطاعوا أن يأخذوا شرعية لأعمالهم الفاسدة بمشاركتهم للطبقة الحاكمة في بغداد، وهذا ما نراه اليوم من كبار المفسدين في البلاد الذين ثارت عليهم عموم الناس فانقلبوا من بعد غناهم وتمكنهم إلى الفقر والسجن!

وقد استغاث عامة بغداد من بطش العيارين خاصة في عام ٥٣٨هـ الذي يُعد من أسوأ الثغرات الأمنية التي أحدثها هؤلاء اللصوص في بغداد بالسلطان مسعود، فقد وصل الأمر بالناس أنهم كانوا يضعون «رحالهم إلى دار الخلافة وباب المراتب وكان اللصوص يمشون بثياب التجار في النهار فلا يعرفهم الإنسان حتى يأخذوه فأخذت خرق الصيارف وضاقت المعايش وأعيد إلى الولاية أبو الكرم الهاشمي في جمادى الأولى فطاف البلد وأخذ ثلاثة فلم ينفع. وكان للعيارين عيون على الناس من النساء والرجال يطوفون الخانات الرحبة والصيارف والجوهريين فإذا عاينوا من قد باع شيئا تبعوه وأخذوا ما معه وكانوا يجتمعون في دور الذين يحمونهم في دار وزير السلطان ودار يرنقش وأخذوا أخرق الصيارف وجرحوهم ولقوا رجلا قد باع دابة بخمسة وعشرين دينارا فضربوه بالسيف وأخذوها فنفر الناس وغلقوا دكاكينهم وغلقوا باب الجامع وتلقوا السلطان في الميدان ومعهم ابن الكواز الزاهد فاستغاثوا إليه فلم يجبهم فعادوا مرارا وهو لا يلتفت وكان في العيارين ابن قاورت وهو ابن عم السلطان مسعود فأخذ بعملات فتقدم السلطان بصلبه فصلبه بباب درب صالح الذي فيه بيته وصلب معه ثلاثة من أصحابه ثم أباح السلطان دماءهم فصلب منهم جماعة فسكن الناس»[2].

العلماء والوعاظ

وظهرت طائفة الزاهدين الواعظين وبرز منهم جمع في هذه المرحلة من تاريخ الخلافة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٠٦.

العباسية وعلى رأسهم ابن الجوزي وابن الكواز الزاهد وغيرهم، وقد حكي عن ابن الكواز هذا أنه في عام ٥٣٤هـ ولدت «ابنة قاورت من السلطان مسعود ولدا ذكرا فعلقت بغداد وظهرت المنكرات فبقيت ثمانية أيام فمضى ابن الكواز الزاهد إلى باب ابن قاورت وقال إن أزلتم هذا وإلا بتنا في الجوامع وشكونا إلى الله تعالى فحطوا التعاليق فمات الولد»(١).

ويبدو أن هذه الطائفة كانت لها مكانتها في قلب أهل بغداد جميعهم، حتى إن بعض الفقهاء حاولوا أن يكونوا من هؤلاء الوعاظ كأبي يعلى الفراء الذي فشل في هذه المهمة فشلًا ذريعًا، والغريب والطريف أيضًا أن بعض المحتالين كانوا يحاولون تسنم هذه المكانة عن طريق حيلهم؛ رغبة في النصب على أهل بغداد، أو حاجة في مكانة عليا.

وقد ذكر لنا ابن الجوزي حادثة عجيبة سنة ٥٣٥هـ قال: «وصل إلى بغداد رجل أظهر الزهد والنسك وأقام في قرية السلطان بباب بغداد فقصده الناس من كل جانب واتفق أن بعض أهل السواد دفن ولدا له قريبا من قبر السبتي فمضى ذلك المتزهد فنبشه ودفنه في موضع ثم قال للناس في بعض الأيام اعلموا أنني قد رأيت عمر بن الخطاب في المنام ومعه علي بن أبي طالب فسلمت عليهما وسلموا عليَّ وقالا لي: إن في هذا الموضع صبيًا من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وخطا لي المكان وأشار إلى ذلك الموضع فحفروه فرأوا الصبي وهو أمرد فمن وصل إلى قطعة من أكفانه فكأنه قد ملك الملك، وخرج أرباب الدولة وأهل بغداد وانقلب البلد وطرح في الموضع دساتيج الماء الورد والبخور وأخذ التراب للتبرك وازدحم الناس على القبر حتى لم يصل أحد من كثرة الزحام وجعل الناس يقبلون يد الزاهد وهو يظهر التمنع والبكاء والخشوع والناس يزدحمون عليه وتارة على الميت وبقي هذا أياما والميت مكشوف يبصره الناس ثم ظهرت رائحته وجاء جماعة من أذكياء بغداد فافتقدوا كفنه فرأوه خاما ووجدوا تحته حصيرا جديدا فقالوا: هذا لا يمكن أن يكون على هذه الصفة منذ أربعمائة سنة فما زالوا ينقبون عن ذلك حتى جاء السوادي فأبصره وقال: هذا والله ولدي وكنت دفنته عند السبتي فمضى معه قوم إلى المكان فرأوا القبر قد نبش وليس فيه ميت فلما سمع الزاهد ذلك هرب فطلبوه ووقعوا به فأخذوه فقرروه فأقر أنه فعل ذلك حيلة فأخذ

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٨.

وأركب حمارا وشهر وذلك في ربيع الآخر من هذه السنة»[١].

وقد كان لهذه الطبقة تأثيرها الكبير في أهل بغداد، وقد أشار ابن الجوزي إلى أحد الشيوخ الوافدين من نيسابور مع السلطان مسعود، والذي كان له أثر بالغ في أهل بغداد، وهو الشيخ «الحسن بن أبي بكر النيسابوري وكان من أصحاب أبي حنيفة وكانت له معرفة حسنة باللغة وفهم جيد في المناظرة ... ومدح الأئمة الأربعة ... فقام في الأسبوع الثاني أبو محمد أبن الباطوخ فأنشده قصيدة فيها هذا المعنى وهي:

صرف العيون إليك يحلو ... وكثير لفظك لا يمل
والناس لو متعتهم ... بك ألف عام لم يولوا
من أين وجه ملالهم ... وغرامهم بك لا يقل
لو رمت بذل نفوسهم ... بذلوا رضا لك واستقلوا
وافيت فابتسم الهدى ... وأنار دين مضمحل
ونهضت في نصر الكتا ... ب بحد غضب لا يفل[٢]

وهي قصيدة طويلة رائعة تبين الأثر النفسي والسلوكي الذي أحدثه هذا الواعظ في أهل بغداد.

واللافت أن وعظ هؤلاء كان يجد آذانًا مصغية في بعض الأوقات من قبل الخليفة والسلطان، ويترتب عليها إسقاط بعض الضرائب والمكوس، أو إصلاحات اجتماعية وسياسية أخرى، وهذا ما حدث مع السلطان مسعود حينما جلس يستمع لوعظ ابن العبادي الذي «عرّض بذكر حق البيع وذكر ما يجري على المسلمين من ذلك ثم قال له: يا سلطان العالم أنت تهب مثله لمطرب ومغن بقدر هذا المأخوذ من المسلمين تهبه لي وتحسبني ذلك المطرب واتركه للمسلمين وافعله شكرا لما أنعم الله به عليك من بلوغ الأغراض فأشار بيده أني قد فعلت فارتفعت الضجة بالدعاء له ونودي في البلد بإسقاطه»[٣].

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٨٨، ٨٩.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٠٦، ١٠٧.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٢٠.

والحق أن المقتفي مع ما عرف عنه سياسيًا وعسكريًا كان مائلًا للعلماء ومقربًا لهم، ولم يكن بدعًا من عصره، وكثيرًا ما كان يتجاهل ملأه وبعض حاشيته ليستمع إلى العلماء، ومن أكثر العلماء قربًا من المقتفي كان الإمام الجواليقي موهوب بن أحمد (ت٥٤٠هـ) فقد كان إمامًا للمقتفي درس على يديه وهو خليفة بعض الكتب النافعة، وكثيرًا ما كانت العلاقة بينهما تتجاوز العلم إلى تقويم السلوك والتأديب الذي يستدعيه الموقف بطبيعة الحال؛ قال الذهبي: «كان يصلي بالمقتفي بالله، فدخل عليه، وهو أول ما دخل، فما زاد على أن قال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى. فقال ابن التلميذ النصراني، وكان قائمًا وله إدلال الخدمة والطب: ما هكذا يسلم على أمير المؤمنين يا شيخ. فلم يلتفت إليه ابن الجواليقي، وقال: يا أمير المؤمنين، سلامي هو ما جاءت به السنة النبوية. وروى الحديث ثم قال: يا أمير المؤمنين، لو حلف الحالف أن نصرانيًا أو يهوديًا لم يصل إلى قلبه نوعٌ من أنواع العلم على الوجه لما لزمته كفارة، لأن الله ختم على قلوبهم، ولن يفك ختم الله إلا الإيمان. فقال: صدقت، وأحسنت. وكأنما ألجم ابن التلميذ بحجرٍ، مع فضله وغزارة أدبه»[(١)].

ومن اللافت أن التدريس في الجامعة النظامية إحدى أكبر الجامعات في العالم الإسلامي وقتئذ لم يكن إلا لأعاظم العلماء، ولذلك كان التدريس في هذا الجامعة لا يتم إلا بإذن من الخليفة نفسه حرصًا على إيصال العلم من العلماء الراسخين ذوي المكانة العالية عند الخلافة، وقد لفت نظرنا إلى هذا حادثة ذكرها ابن الجوزي في بداية تأريخه لحوادث عام ٥٤٥هـ حيث قال: « فمن الحوادث فيها أنه في المحرم جلس يوسف الدمشقي مدرسا في النظامية من جانب الأعاجم وألقى الدرس واجتمع له الفقهاء والخلق الكثير ولم يكن ذلك عن إذن الخليفة وكان ميل الخليفة إلى ابن النظام فلما كان يوم الجمعة منع يوسف من الدخول إلى الجامع وإلى دار الخلافة وضربت جماعة من أصحابه بالخشب وصلى الجمعة في جامع السلطان ولم يعد إلى المدرسة وألزم بيته وفي يوم السبت سابع عشرين المحرم جلس أبو النجيب للتدريس في النظامية الصبح وتقدم إليه بالتدريس في النظامية فقال له أريد إذن الخليفة فاستخرج له إذن الخليفة»[(٢)].

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٦/ ٥٥١.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٤٢.

خلافات السلاجقة على الجبهة الشرقية

استقرت الأمور للسلطان مسعود بعد مقتل الخليفة الراشد سنة ٥٣٠هـ بأصفهان، وتعيين خليفة تابع له وهو المقتفي بأمر الله سنة ٥٣٢هـ، وقد رأينا في تعامل المقتفي ومحاولاته المتكررة للتملص من حكم مسعود كثيرًا من الأحداث المتشابكة بين السلطان مسعود والخليفة المقتفي مما لا داعي لتكراره هنا.

السلطان مسعود يتقاذفه الأمراء

لقد واجه السلطان مسعود تحديات جمة في دولته التي شملت العراق وكامل إقليم إيران وأذربيجان حتى حدود سلطنة عمه سنجر في خراسان وبلاد ما وراء النهر.

فأول هذه التحديات خروج الأمير منكوبرس أتابك إقليم فارس عليه سنة ٥٣١هـ مما استدعى أن يُجيش مسعود الجيوش لقتاله، وبالفعل انهزم منكوبرس، واستطاع أحد أصحابه واسمه بوزابه أن يفلت من الأسر لكنه أصر مع المنهزمين على العودة لتخليص منكوبرس من الأسر، وكان قد قُتل بالفعل، لكنه استطاع أن يفتك بالسلطان مسعود ومن معه من كبار القادة والأمراء وكانوا اثني عشر أميرًا، ورجع بوزابه لإقليم فارس واستولى عليه، ونجا السلطان مسعود من هذه الغارة بأعجوبة[١].

وفي عام ٥٣٣هـ أشار الوزير كمال الدين محمد بن علي الرازي على السلطان مسعود أن يُقيل الأتابك قراسنقر أمير أذربيجان من ولايته؛ لأن قوته كانت قد زادت عن الحد مما يُشكل تهديدًا مباشرًا للسلطان ولدولته، وبالفعل جمع مسعود الجيوش، ووصل الخبر إلى قراسنقر الذي تحالف مع الأمير سلجوق أخي السلطان مسعود والأمير داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه ابن أخي السلطان مسعود وكان الأول قد أقطعه مسعود بلاد خلاط وديار بكر والثاني جعله أميرا على تبريز وزوجه ابنته وقد وعد قراسنقر الأمير سلجوق بن محمد أن يعيده لإمارة فارس بعد القضاء على مغتصبها الأمير بوزابه[٢].

هذا الجمع والتحالف الكبير أجبر السلطان مسعود على الإذعان لشرطه، وكان يتمثل

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١١٠، ١١١.
(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٠٦ دار الكتب العلمية.

في قتل الوزير كمال الدين الرازي أو الحرب، وبالفعل سلمهم مسعود الوزير المذكور، ثم أراد تحالف قراسنقر وسلجوق بن محمد أن يقضي على بوزابه المستولي على إقليم فارس، وقد نجحوا بالفعل في المرة الأولى غير أن استراتيجية بوزابه في الهرب ثم الغارة المفاجئة جعلته يستولي على إقليم فارس مرة أخرى، بل ويأسر الأمير سلجوق أخي السلطان مسعود، ولم يجد قراسنقر أتابك أذربيجان بدًا من الهرب إلى بلاده(١).

لكن بحلول عام ٥٣٨هـ كان بوزابه أمير فارس قد عزم على إقصاء مسعود عن السلطنة لأنه جعل نفسه أتابكًا للأميرين السلجوقيين محمد وملكشاه ابني السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وكانت خطة بوزابه تقضي بالتحالف مع أمير الري القوي عباس الرازي والأمير سليمان شاه بن محمد أخي السلطان مسعود الذي كان مقيما في هذا الأقليم ومُقطعا له، ويرسلوا للسلطان مسعود رسالة يعلنون فيها ولاءهم الكامل له، حتى إذا قربوا من العاصمة السلجوقية همذان انقضوا عليه وجعلوا السلطنة لمن شاءوا من أولاد وأمراء السلاجقة(٢).

لكن مسعود كان قد عزم على المسير إلى العراق في هذه السنة، ولما وصلت عساكر بوزابه وعباس الرازي ومن معهم من أمراء السلاجقة إلى همذان ولم يجدوا السلطان مسعود ولا عساكره أرسلوا إلى الأتابك جاولي جندار أمير أرانية (أرّان) كي ينضم لهم، ووعدوه بأن تكون السلطنة له، لكن جاولي حثّ الأتابك أياز أتابك تبريز القريبة منه وغيره من الأمراء كي يذهبوا إلى همذان للقضاء على ثورة بوزابه وعباس الرازي، وهذا ما حدث غير أن الشتاء ونزول الثلوج قد حال دون المواجهة، وكان جاولي قد أرسل إلى السلطان مسعود يستدعيه من بغداد، وهذا الموقف من جاولي جعل السلطان مسعود يثق فيه ويقربه ويجعله أمير الأمراء(٣).

وقد حاول جاولي أن يستميل الأمير سليمان شاه السلجوقي في صفه، ولما علم بوزابه وعباس أن قوة مسعود ومن معه أعظم من قوتهما عزما على الرحيل واتفقا على إعادة الكرة مرة أخرى، لكن السلطان مسعود أمر جاولي باتباع بوزابه والقضاء عليه، وسار هو خلف

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٠٦- ٣٠٨.
(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣١٣، ٣١٤.
(٣) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣١٣، ٣١٤، وابن الأثير: الكامل ٩/ ١٣٧ تدمرى.

عباس وأخيه سليمان شاه، واستطاع أن يقبض عليه ويعتقله في قلعة سرجهان[1].

واستطاع جاولي أن يستولي على مدينة شيراز عاصمة إقليم فارس بعد هرب بوزابه منها، لكنه لما علم أن السلطان مسعود قبض على أخيه سليمان واعتقله خاف على نفسه وأرسل لبوزابه يطلب منه العودة للصلح والتحالف، حيث قال: «أتخذُ اليوم عنده يدا، لينجدني عند الحاجة غدا. فهذا السلطان غير موثوق بمواثيقه، ولا موفق في تسديده وتفويقه»[2] وبالفعل تحالف عباس أمير الري وبوزابه أمير فارس وجاولي أمير أرانية على قتال السلطان مسعود في موعد تم تحديده[3]!

كانت هذه الأحداث ما بين عامي ٥٣٨هـ و ٥٤٠هـ، وبالفعل أرسل جاولي إلى بوزابه وعباس رسولا في حدود عام ٥٤١هـ يطلب منهما الاستعداد للالتقاء لقتال السلطان مسعود، لكن حاجب السلطان مسعود واسمه الأمير عبد الرحمن طغايرك استطاع أن يرصد رسول جاولي ومن معه من عساكر وأخّره عن إرسال الرسالة، وقد استبطأ جاولي رد بوزابه ولم يعلم سبب تأخر الرد ولا سبب عدم رجوع رسوله بالجواب، فأصدر أوامره بالمواجهة الفردية للسلطان مسعود، لكنه كان قد أصابه ورم في ساعده جراء جراحة فاسدة في هذه الأثناء، زادت عليه أثناء المسير، فتسمم كامل جسده، وتوفي قبل أن يواجه مسعود في مدينة زنجان[4] في جمادى الأولى سنة ٥٤١هـ، وفيه قال الشاعر المظفّر بن الزنجاني قصيدة جاء فيها[5]:

عشرون ألف مهنّد قد أُصلتت ... فلّت مضاربها نِكايةُ مِبْضع!

وبعدما عرف بوزابه وعباس بمقتل الأمير جاولي أرسل إليهما حاجب السلطان مسعود رسالة يطلب منهما الصلح ويعدهما فيها بالمكانة والمنزلة الكبيرة عند السلطان مسعود، وكان بوزابه وعباس قد استوليا على كثير من البلاد، وبالفعل التقى الأتابك بوزابه والأتابك عباس

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣١٥.
(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣١٥.
(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١١٦.
(٤) مدينة إيرانية تقع شمال غرب البلاد عاصمة محافظة زنجان، تقع على بعد ٢٩٨كم إلى الشمال الغربي من طهران. قال ياقوت: «بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من قزوين». ياقوت: معجم البلدان ٣/ ١٥٢.
(٥) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١١٦، ١١٧.

بالسلطان مسعود وتم الصلح بين الطرفين على شروط جعلت السلطان مسعود في حكم المحجور عليه هي:

١- أن يعين السلطان مسعود وزيرًا جديدًا له هو تاج الدين بن دارست الفارسي كاتب بوزابه ووزيره.

٢- أن يتولى الحاجب عبد الرحمن بن طغايرك بلاد أرّانية وأرمينية وأذربيجان وكل ما كان يتولاه جاولي الجندار.

٣- أن يُرسل الأمير أرسلان خاصبك بن بلنكري وهو أحد الأمراء المقربين من السلطان مسعود إلى الأمير عبد الرحمن بن طغايرك ليكون معه وتحت مراقبته.

٤- أن يُرسل الأمير عباس في صحبة السلطان مسعود ويكون معه وتحت مراقبته إلى بغداد.

٥- أن تكون خدمة السلطان مسعود وإمداده بما يريد من عساكر في دائرة صغيرة من عبد الرحمن بن طغايرك وبوزابه وعباس.

هذه الشروط القاسية على السلطان مسعود جعلته حانقًا على الأمير عبد الرحمن وبوزابه وعباس؛ فلقد جعلوا مسعودًا في حكم الموصى عليه منهم، فضلًا عن إقصاء أحد أهم وأقرب الأمراء المحبوبين من السلطان مسعود وهو الأمير أرسلان خاصبك بن بلنكري(١)!

لذا كان مسعود عازمًا على الانتقام لنفسه من هذه الكارثة السياسية والعسكرية التي حلّت به من بعض قادته، فأمر خاصبك بن بلنكري بقتل عبد الرحمن بن طغايرك وهذا ما حدث بالفعل، وقام هو بقتل الأمير عباس في ذي القعدة سنة ٥٤١هـ(٢).

ولما علم بوزابّه بمقتل صاحبيه عبد الرحمن وعباس أمر على الفور بالتحرك للاستيلاء على همذان، وقد ذكرنا سابقًا أن الأميرين محمد وملكشاه ابني السلطان محمود كان تحت رعاية ووصاية بوزابه، فأخذهما معه، واستطاع أن يحتل أصفهان، ثم عزم على المسير إلى همذان، وفي هذه الأثناء انضم له ابن عباس وكان نائبًا على الري مكان والده؛ وذلك للثأر من

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١١٨.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٤٧ تدمرى.

السلطان مسعود، لكن مسعود استطاع أن يلتقيهم عند مرج قراتكين على بعد ٦٠كم تقريبًا من همذان، إلا أن مسعود استطاع أن يهزمهما فقُتل ابن عبّاس وأُسر بوزابّه، ثم قتله مسعود بطلب من خاصبك[١].

وبعد هزيمة مسعود لبوزابه وقتله لعباس وولده وهما من أمراء الري وكانت تابعة للسلطان سنجر بن ملكشاه حيث تنازل عنها السلطان محمود قبل وفاته سنة ٥٢٥هـ، واستيلاء الأمير أرسلان خاصبك بن بلنكري على السلطان مسعود قدم السلطان سنجر من خراسان إلى الري، وأراد مسعود أن يهرب إلى بغداد لكن أحد وزرائه نصحه بمصالحة عمه، وبالفعل ذهب مسعود من همذان إلى الري لمقابلة عمه السلطان سنجر «ولما وصل إلى عمّه السلطان سنجر أكرمه غاية الإكرام وخلع عليه ونسي لنظره إياه كل ذنب وشفع السلطان مسعود عنده في خاصبك فأجابه وودّعه وعاد إلى خراسان وعاد السلطان مسعود إلى بغداد»[٢].

وفاة السلطان مسعود

ظلت أوضاع إقليم فارس في هدوء، وعلاقات السلطان مسعود بالخليفة المقتفي بين شد وجذب، لا سيما عماله وموظفيه في العراق وعلى رأسهم الشحنة مسعود بلال، حتى أصيب مسعود بمرض توفي على إثره في جمادى الآخرة سنة ٥٤٧هـ.

وقد ذكر الوزير يحيى بن هُبيرة في كتابه «الإفصاح» أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساؤوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتَّفق الرَّأي على الدُّعاء على مسعود بن محمد شهرًا، كما دعا رسول الله ﷺ على رعْل وذكوان[٣]. واستمر الوزير يحيى بن هبيرة والخليفة المقتفي في الدعاء شهرًا، فابتدأ هو والخليفة سِرًا، كل واحد في موضعه يدعو شهرًا، من ليلة تسع وعشرين من جُمادى الأولى سبع وأربعين وخمس مئة واستمر الأمر على ذلك كلَّ ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادي الآخرة كان موت مسعود على سريره،

---

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٢٧.

(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٢١.

(٣) رِعْل وذَكْوَان وعُصيّة: قبائل من بني سليم زعموا أنهم أسلموا فطلبوا من النبي ﷺ أن يمدهم من يفقههم فأمدهم بسبعين فقتلوهم ، فكان ذلك سبب القنوت والدعاء عليهم. ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ١٣٩.

لم يزد عن الشهر يومًا ولا نقص يومًا.. فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأوورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين، مجيب دعوة الدّاعين. قال : وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول : لا أدّل على وجود موجود أعظم من أن يُدعى فيجيب[1].

برذعة
بيلقان
وان
تبريز
أذربيجان
أردبيل
بحر الخزر
دهستان
ماردين
المراغة
رشت
جرجان
الجزيرة الفراتية
قزوين
زنجان
بلاد الديلم
الري
آمل
طبرستان
بسطام
اربل
الموصل
كركوك
دنباوند
قم
همذان
قرميسين
تكريت
حلوان
نهاوند
سامراء
كرمانشاه
كاشان
العراق
الأنبار
بغداد
أصفهان
كربلاء
الحلة
يزد
النجف
واسط
الكوفة
الأهواز
البصرة
كرمان
شيراز
خليج البصرة
فسا
تستر

جيل جديد يتصارع!

كان السلطان مسعود قد عهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، لأنه لم ينجب ولدًا، وخطب له ببلاد الجبل والري، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود كما رأينا خاصبك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه، وحاول ملكشاه ومن معه من السلاجقة طوال عام ٥٤٧هـ دخول العراق والسيطرة عليها كما رأينا سابقًا.

(١) الصلابي: دولة السلاجقة ص١٦٠. نقلًا عن الإفصاح لابن هبيرة.

لكن سرعان ما قبض خاصبك على ملكشاه وسجنه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخُوزستان في العام التالي ٥٤٨هـ يستدعيه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضًا ليستولي على الدولة السلجوقية، فلما كاتب محمدًا أجابه على الحضور عنده، وسار إليه وهو بهمذان، «فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة أوائل صفر، وخطب له بالسلطنة، وخدمه، وبالغ في خدمته، وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار، ثم إنه دخل إلى الملك محمد ثاني يوم وصوله، فقتله محمد، وقتل معه زنكي الجاندار، وألقى برأسيهما، فتفرق أصحابهما، ولم ينتطح فيهما عنزان[١].

واستقر السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه في السلطنة السلجوقية في صفر من سنة ٥٤٨هـ، وقد بايعه وأذعن له بالطاعة كبار الأمراء والأتابك في إيران وأذربيجان وخلاط والموصل عدا العراق؛ فقد كان الخليفة المقتفي قد تحصل على مكانة حصينة أبى معها أن يكون مطية للسلاجقة، وقد رأينا سابقًا ما دار بين السلطان محمد وحصاره لبغداد وبين الخليفة المقتفي وخطة وزيره ابن هبيرة العبقرية التي أجبرت السلطان محمد على العودة لهمذان مرة أخرى في عام ٥٥٢هـ.

رجع السلطان محمد شاه إلى همذان التي كان قد احتلها كل من شمس الدين إلدكز أمير أذربيجان وملكشاه بن محمد أخي السلطان محمد الحالم بعودة ملكه[٢].

وحينما اقترب السلطان محمد من همذان هرب منها شمس الدين إلدكز إلى أذربيجان في الشمال، وكان معه عم السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، لكن محمدًا أبى إلا أن يتبعه ليقضي عليه، فأعقبه إلى الشمال ليقاتله في معركة كبيرة عند منطقة نخجوان في جنوب أذربيجان على مقربة من الحدود الشمالية الإيرانية الآن؛ فقد «التقى الفريقان على وادي أرس قريب نخجوان وتزاحف الجمعان وأخذوا في أشد القتال حتى تكسّرت النصال واحمرت الآفاق.. ووطّن السلطان محمد وأصحابه نفوسهم على الثبات والصبر وتوسّموا من نياتهم وعزائمهم مخايل النصر.. فسقى الله السلطان محمد زلال نصره، بما رأى منه من عظم جلده وصبره، وانهزم الاتابك شمس الدين إلدكز ومن هو في صحبته من العساكر مفلولين.. وأقام

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٨٧ تدمرى.

(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٧٠ دار الكتب العلمية.

في نخجوان مدة.. ولم يزل في أران مقيما إلى أن راسله الأتابك شمس الدين إلدكز وقال: أنا عبدك ومملوك هذا البيت... والآن إذ قد تعيّن أن السلطان واحد وقد ألقت إليه البلاد أزمّتها فأنا أول من أطاع ودخل في الجماعة ووافق الإجماع، فقبل عذره وفوّض إليه ولاية أرّان (في شمال أذربيجان) بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق أن لا يخالفه ويوافقه ولا يفارقه، فتقبّل جميع ذلك، وعاد إلى همذان مؤيدًا منصورًا»[١].

أما ملكشاه بن محمود فكان قد هرب إلى قُم وقاشان وما جاورهما من مدن وقرى في الجنوب فنهبها واستولى عليها، وقد راسله أخوه السلطان محمد ليكف عن النهب والسلب ويعده بولاية العهد، خاصة أنه كان قد اشتد عليه المرض، غير أن ملكشاه لم يأبه لأخيه، بل اتجه في عام ٥٥٣هـ إلى مدينة أصفهان المهمة في جنوب شرقي همذان محاولًا السيطرة عليها، لكن أهلها منعوه من دخولها لأنها كانت تدين بالطاعة للسلطان محمد، فاستمر في النهب والإفساد؛ وهنا قرر محمد أن يقود حملة عسكرية لردع أخيه، وإيقافه عن هذا الخطل الذي أصابه، وسرعان ما تفرقت عساكر ملكشاه عنه، وقرر أن يتجه إلى قرمسين[٢] التي لحقه فيها بعض قادة الخليفة المقتفي الحانق على السلطان محمد شاه، ومنها قرروا التوجه إلى خوزستان جنوبًا ومنها إلى بغداد، لكنهم أصابهم ضر شديد، فقرروا الرجوع إلى خوزستان ومنها إلى السلطان محمد[٣].

غير أن أمير خوزستان شملة التركماني وكان أحد المماليك المقربين من خاصبك بن بلنكري مملوك السلطان مسعود، وكان حانقًا على الخليفة المقتفي في ذات الوقت، منعه من دخول بلاده، فكاتب ملكشاه «الأكراد الكُر الذين هناك، واستدعاهم إليه، ففرحوا به، ونزل إليه من تلك الجبال خلق كثير، فأطاعوه، فرحل ونزل على كرخايا[٤]، وطلب من شملة الحرب، فألان له شملة القول، وقال: أنا أخطب لك وأكون معك. فلم يقبل منه، فاضطر

---

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٤٢.

(٢) إحدى أهم مدن إقليم الجبال بين العراق وإيران، وتُسمى الآن كرمانشاه، وتبعد عن العاصمة طهران حوالي ٥٢٥ كم باتجاه الغرب.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٥٣، ٢٥٤ تدمرى.

(٤) نهر في جنوب بغداد، يأخذ من نهر عيسى ويسقي «رستاق الفروسيج الذي منه بغداد نفسها». عبد المؤمن البغدادي: مراصد الإطلاع ٣/ ١١٥٥.

شملة إلى الحرب، فجمع عسكره وقصده، فلقيه ملكشاه ومعه سنقر الهمذاني وقويدان، وغيرهما من الأمراء، فاقتتلوا، فانهزم شملة، وقتل كثير من أصحابه، وصعد إلى قلعته وملك ملكشاه البلاد، وجبى الأموال الكثيرة وأظهر العدل، وتوجه إلى أرض فارس»(١).

استقر ملكشاه في إقليم فارس وانضم له صاحبها الأمير دكلا، وأمير خوزستان شملة التركماني، وكان السلطان محمد قد أنهكه المرض، وتوفي على إثره في همذان في أول ذي الحجة سنة ٥٥٤هـ، ولما علم ملكشاه بوفاة أخيه سار من فارس إلى أصفهان واستطاع أن يضمها إليه، وأرسل إلى أمراء أخيه في همذان يطلب منهم الانصياع له، والدخول في طاعته، لكن معظمهم رفض، وآثروا الانضواء لعمه الأمير الضعيف سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه حبيس الأمير مودود في الموصل؛ وكان قد حبسه تقربًا من الأمير محمد شاه(٢).

وبالفعل أرسل أمراء ومماليك السلاجقة في همذان إلى الأمير قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي يطلبون منه إرسال سليمان شاه إليهم ليجعلوه سلطانا، واتفقوا على:

١- أن يكون سليمان شاه سلطان السلاجقة.

٢- أن يكون قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي أمير الموصل أتابكه وقائد جيوشه.

٣- أن يكون زين الدين علي كوجك نائب الأمير مودود وقائد جنده مقدم العساكر السلطانية السلجوقية.

٤- أن يكون وزير قطب الدين مودود، وهو الوزير جمال الدين وزيرًا للسلطان الجديد سليمان شاه(٣).

وبالفعل سار سليمان شاه بصحبة علي كوجك من الموصل إلى همذان في بداية سنة ٥٥٥هـ، ولما اقتربوا من الوصول، رأى كوجك كثرة الجنود السلجوقية، بل ورأى تطاولهم وسوء أدبهم مع سليمان شاه، فخافهم، ورجع على الفور إلى الموصل(٤).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٥٤ تدمرى.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٢٦ تدمرى.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٦٩ تدمرى.
(٤) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٧٢، ٣٧٣ دار الكتب العلمية.

وفي هذه الأثناء كان الأمير ملكشاه بن محمود بن محمد قد استقر في أصفهان، ولما علم أن الخليفة المقتفي قد قبل سلطنة عمه سليمان شاه، أرسل إلى المقتفي يطلب منه قطع «خطبة عمه سليمان شاه، وأن يخطبوا له، ويعيدوا القواعد بالعراق إلى ما كانت أولا، وإلا قصدهم»[1]. وأخذ الوزير ابن هبيرة تهديد ملكشاه إلى الخليفة على محمل الجد، وبدأ في تدبير مؤامرة أدت إلى قتل ملكشاه في نهاية المطاف.

قال ابن الأثير عن هذه المؤامرة: «وضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيًا كان خَصيصًا به، يقال له: أغلَبك الكُوهْرَاييني، فمضى إلى بلاد العجم (فارس)، واشترى جارية من قاضي همذان بألف دينار، وباعها من ملكشاه، وكان قد وضعها على سمه ووعدها أمورا عظيمة، ففعلت ذلك، وسمته في لحم مشوي، فأصبح ميتا، وجاء الطبيب إلى دكلا وشملة، فعرفهما أنه مسموم، فعرفوا أن ذلك من فعل الجارية، فأخذت، وضربت، وأقرت. وهرب أغلبك، ووصل إلى بغداد، ووفى له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه»[2].

وبمقتل الأمير ملكشاه سنة ٥٥٥هـ استقرت أحوال السلطنة السلجوقية مؤقتًا للسلطان الضعيف سليمان شاه، وعاد دكلا إلى إقليم فارس كما كان، وأخذ شملة التركماني إقليم خوزستان الذي كان قد استولى عليه ملكشاه.

عماد الدين زنكي والسنوات العشر الأخيرة؛

بعكس السنوات العشر السابقة من تقلب الأمير الأتابك عماد الدين زنكي من الولاء للسلاجقة تارة وللعباسيين تارة أخرى؛ وهو ما سبّب له المشاكل والمواجهات الدامية التي كادت أن تعصف به في أحداث سنة ٥٢٧هـ حينما حاصر الخليفة المسترشد الموصل بالفعل؛ فإنه في هذه السنوات العشر الأخيرة من عمره تتجه سياسته إلى تحييد دولته الناشئة عن المشكلات الكبرى التي دارت بين السلاجقة وأنفسهم، وبين السلاجقة والقوة العباسية الصاعدة بقيادة الخليفة المقتفي؛ وقد كان لهذه السياسة نتائجها على مستوى توسيع رقعة الدولة الزنكية في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام على السواء؛ فضلا عن إنهاك القوة الصليبية

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٧٦ تدمرى.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٧٦ تدمرى. لم يؤكد الأصفهاني أن العباسيين كانوا وراء مقتل ملكشاه بالسم. الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٧٨.



المستقرة في بلاد الشام، والتي أتت بنتائج باهرة، أهمها افتكاك إمارة الرها وتحريرها من الاحتلال الصليبي سنة ٥٣٩هـ لأول مرة منذ الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩١هـ.

من المواجهة إلى المهادنة

بعد مقتل الخليفة المسترشد في العام ٥٢٩هـ وبعدما فشل عماد الدين زنكي في مساعدته أثناء مواجهته للسلطان مسعود، ما لبثت العلاقات أن تدهورت بين الخليفة الجديد الراشد وبين السلطان مسعود واجتمع لدى الراشد عدد من الأمراء المناهضين للسلطان، وجندوا له العمل على إسقاطه والمجيء بسلطان جديد يرتضونه وفي مستهل صفر عام ٥٣٠هـ وصل زنكي بغداد قادمًا من الشام بعد أن استدعاه الراشد واتفق معه على إعلان الخطبة لألب أرسلان بن السلطان محمود أي جعله سلطانًا للسلاجقة بدلا من مسعود بن محمد، وكان ألب أرسلان مقيمًا في الموصل تحت رعاية أتابكه عماد الدين زنكي، والأتابك تعني الأمير الوالد، وقد كانت عادة السلاطين السلاجقة تقضي باختيار أمراء ليكونوا أتابكة لأبنائهم، يتعلمون على أيديهم فنون القتال والحرب والأخلاق وما شابه ويتقربون منهم، ثم يكونون بمثابة نوابهم عند اشتداد عودهم، وتولي مهامهم السياسية والعسكرية.

وبالفعل انضم زنكي إلى الأمراء الذين كانوا قد حرضوا الخليفة على إعلان العصيان ضد السلطان مسعود، ووجد الخليفة أن الفرصة قد سنحت للبدء بالعمل، فألغى الخطبة لمسعود وحولها لداود بن محمود، خلافًا لما تم الاتفاق عليه مع زنكي(١).

وقام السلطان الجديد بتعيين شحنة له في العراق، ولم يمض على ذلك سوى وقت قصير حتى دبّت الخلافات بين الراشد وسائر الأمراء بسبب المنافسات والأحقاد القديمة واتفق المتحالفون على توجيه ضربتهم للسلطان مسعود في بلاد فارس نفسها، إلا أنهم ما أن قطعوا مسافة قصيرة حتى ورد خبر بتوجه مسعود على رأس قواته صواب بغداد، فارتأوا أن يعودوا إليها لاتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة لصد الهجوم وما لبث السلطان مسعود أن فرض الحصار على بغداد، وجرت مناوشات ومعارك جانبية بين الطرفين لم تستقر عن نتيجة حاسمة وسعى الخليفة إلى إحلال الصلح لكن ذلك كان دون جدوى وأخذت الأوضاع داخل بغداد

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٥٨.

تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، ونجح السلطان مسعود في دخول بغداد وخلعه عن سدة الخلافة وولىّ المقتفي لأمر الله مكانه في شهر ذي الحجة عام ٥٣٠هـ كما مرّ بنا، وغادر الراشد بغداد متوجهًا إلى الموصل بصحبة عماد الدين زنكي، والجدير بالذكر أن الخطبة للمقتفي اقتصرت على بعض أنحاء العراق بينما استمرت مناطق الموصل والجزيرة وبلاد الشام تخطب للراشد الذي كان يتمتع بحماية عماد الدين زنكي[١].

لكن لم يدم التحالف طويلًا بين عماد الدين زنكي والراشد فقد شعر كل منهما بضعف موقفه أمام موقف السلطان والخليفة الجديد لذلك أسرعا بإرسال الرسل للتوسط لديهما وإنهاء حالة الحرب، وأضحى عماد الدين زنكي على الرغم من ضعف موقفه المرحلي، القوة التي تتطلع إليها الأطراف المتنازعة لاستقطابها، وهكذا استمالة أعوان المقتفي إلى جانبهم، وكافأه الخليفة بأن أقطعه بعض أملاكه وزاد في ألقابه، واضطر تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية إلى التخلي عن حليفه الراشد.

وقد حكى ابن الأثير عن والده والذي سمعه من الفقيه الشهير كمال الدين الشهرزوري في سفارته إلى الخليفة المقتفي بأمر من الأمير زنكي لتحسين العلاقات بين الخليفة الجديد والأمير الطامح ذي القوة الصاعدة، وكان الخليفة المخلوع الراشد لا يزال في الموصل في حماية زنكي، يعترف له بالخلافة، قال: «أما رسول الراشد فلم تُسمع رسالته، وأما رسول أتابك زنكي فكان كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، فأحضر في الديوان[٢]، وسُمِعت رسالته، وحكى لي والدي عنه قال: لما حضرت الديوان قيل لي: تبايع أمير المؤمنين؟ فقلت: أمير المؤمنين عندنا في الموصل وله في أعناق الخلق بيعة متقدمة. وطال الكلام، وعدت إلى منزلي. فلما كان الليل جاءتني امرأة عجوز سرا واجتمعت بي، وأبلغتني رسالة عن المقتفي لأمر الله مضمونها عتابي على ما قلته واستنزالي عنه. فقلت: غدا أخدم خدمة يظهر أثرها. فلما كان الغد أُحضرت الديوان، وقيل لي في معنى البيعة، فقلت: أنا رجل فقيه قاض، ولا يجوز لي أن أبايع إلا بعد أن يثبت عندي خلع المتقدم[٣]. فأحضروا الشهود، وشهدوا عندي في

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١١.
(٢) ديوان الزمام، وهو الديوان المسئول بشئون الخلافة والخليفة.
(٣) أي التأكد من الناحية الشرعية والقانونية والشعبية بخلع الراشد.

الديوان بما أوجب خلعه، فقلت: هذا ثابت لا كلام فيه، ولكن لا بد لنا في هذه الدعوة من نصيب؛ لأن أمير المؤمنين قد حصل له خلافة الله في أرضه، والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده، ونحن بأي شيء نعود؟ فرفع الأمر إلى الخليفة، فأمر أن يُعطى أتابك زنكي صريفين، ودرب هرون، وحربى ملكا[١]، وهي من خاص الخليفة[٢]، ويُزاد في ألقابه، وقال: هذه قاعدة لم يُسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب في خاص الخليفة. فبايعتُ وعدتُ مقضيّ الحوائج قد حصل لي جملة صالحة من المال والتحف. وكانت بيعة، وخُطب للمقتفي في الموصل في رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، ولما عاد كمال الدين بن الشهرزوري سيّر على يده المحضَر الذي عُمل بخلع الراشد، فحكم به قاضي القضاة الزينبي بالموصل (وكان عند أتابك زنكي)»[٣].

وكان من الطبيعي أن تتحسن العلاقات بينه وبين السلطان مسعود الذي أرسل إليه في شهر ربيع الأول عام ٥٣٢هـ التشريف الكامل والخلع بعد الانتصارات الكثيرة على الصليبيين والأمراء المتنازعين في الشام[٤].

كان زنكي قد أدرك خطورة الأوضاع في شمالي الشام بفعل تهديد الصليبيين لمدينة حلب التي كانت تعاني من الفوضى في ظل صراع على السلطة بعد وفاة حاكمها إيلغازي الأرتقي في شهر رمضان عام ٥١٦هـ، فأرسل قاضيه الشهرزوري ليشرح للسلطان هذا الوضع، ويطلب منه مساعدة عسكرية لإبعاد الصليبيين عن المنطقة.

ونجح الشهرزوري في مهمته، وتمكّن من إقناع السلطان بإمداده بقوة عسكرية إلا أن رسالة عاجلة وصلت إلى بغداد من عماد الدين زنكي، أفادت بأن الصليبيين رحلوا عن حلب، وأنه لم يعد بحاجة إلى المدد العسكري وتدليلًا على العلاقات الجيدة بين السلطنة السلجوقية والدولة الزنكية، فقد أرسل السلطان مسعود رسالة تهنئة إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب حمص بمناسبة انتصاره على الصليبيين وخلع عليه الخلع السلطانية[٥].

(١) قرى ومناطق في بغداد وبالقرب منها.
(٢) أملاك الخليفة.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٧٨، ٧٩ تدمرى.
(٤) ابن العديم: زبدة الحلب ص٣١٥.
(٥) الصلابي: السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره ص٧٤.

إلا أن هذه العلاقات تبدَّلت في عام ٥٣٨هـ حين حاول السلطان مسعود الذي خشي من طموحات عماد الدين زنكي واتساع رقعة إمارته، وتنامي قوته العسكرية، توجيه ضربة حاسمة له، معتقدًا بأنه وراء القلاقل التي كان يقوم بها أمراء الأطراف ضد حكمه في العراق وأن هؤلاء لا يلتزمون بسياسته. وقد أكد ابن الأثير أن عماد الدين زنكي هدف إلى إلهاء السلطان بهذا التدبير، قال: «كان أتابك زنكي لا شك يفعل ذلك؛ لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره»[١].

غير أنه لما علم بنوايا السلطان لمحاربته أرسل إليه يستعطفه ويستميله وفعلًا جرت مفاوضات بين الطرفين أدّت إلى إعادة الوفاق بينهما وكان من أهم بنود الصلح أن:

١- يدفع عماد الدين للسلطان مبلغ مائة ألف دينار.

٢- أن يتنازل زنكي عن بعض إقطاعاته.

٣- أن يحضر شخصيًا إلى بلاط السلطان مسعود لإعلان الطاعة[٢].

ويبدو أن تراجع السلطان عن موقفه العدائي يعود إلى أمرين:

الأول: أنه أدرك خطورة الوضع في الجزيرة وشمالي الشام حيث غدا الصليبيون يشكلون خطرًا مباشرًا على المنطقة وأن عماد الدين زنكي هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تقف في وجههم، وترغمهم على التراجع.

الثاني: أنه جوبه بمعارضة شديدة من رجال دولته ومواطنيه من أجل إبقاء إمارة الموصل كحاجز قوي متماسك أمام أطماع الصليبيين، وبعد إقرار الصلح، أرسل عماد الدين زنكي عشرين ألف دينار كدفعة أولى تنفيذًا للبند الأول من الاتفاق، ثم تنازل السلطان عن المبلغ المتبقي بهدف استقطابه وكسب وده حتى لا ينضم إلى أمراء الأطراف الذين خرجوا عن حكمه، كما تغاضى عن تنفيذ البند الخاص بحضوره إلى البلاط السلجوقي، وعذره بسبب انهماكه في جهاد الصليبيين إلا أنه اشترط عليه فتح الرها[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٢٦ .
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٢٦، ١٢٧، وابن واصل: مفرّج الكروب ١/ ٩٠- ٩٢.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٩٢- ٩٥.

وقامت علاقات عماد الدين زنكي مع الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله على الود والتعاطف، واستمرَّت الصلات المتبادلة بينهما، وازدادت هذه العلاقات وثوقًا بعد أن فتح عماد الدين زنكي الرها في عام ٥٣٩هـ حيث منحه عددًا من الألقاب، كالأمير الكبير، العادل، المؤيد، المظفر، المنصور.

وهكذا يتضح أن عماد الدين زنكي اتبع سياسة مستقلة إلى حد كبير، تجاه علاقته بكل من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وأضحى يشكل قوة مؤثرة ضاغطة في الأحداث التي شهدها العراق مستغلًا علاقات الخلافة المتقلبة بالسلطنة السلجوقية لتحسين وضعه السياسي غير أن هذه السياسة لم تؤدِّ إلى استقرار وضعه بل على العكس هدَّدت حكمه بين الفينة والفينة، ولولا نجاحه في مقاومة الصليبيين وإقامة إمارة حاجزة في الموصل، بينهم وبين العراق لكان من المحتمل أن تتعرض إمارته لخضات سياسية شديدة وخطيرة، ربما أودت بجهوده في بناء دولة(١).

استمرار الجهاد على الجبهة الشامية

كانت الإمارات الصليبية الأربع: الرها، وإنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس قواعد للصراع الإسلامي الصليبي على الجبهة الشامية بالأخص، بل كانت خطرًا بالغًا على بقية بلاد المسلمين، خاصة أن العالم الإسلامي- في ذلك الوقت- كان يعاني حالة من الفوضى والتشتت والضياع، بسبب تنازع الحكام والولاة، والخلاف الدائم بين العباسيين والفاطميين من جهة، وبين الخلافة العباسية التي بدأ الضعف يدب إليها ومحاولات التمرد والاستقلال عنها التي راحت تتزايد يومًا بعد يوم من جهة أخرى.

وسعى الصليبيون إلى بسط نفوذهم وإحكام سيطرتهم على المزيد من البلاد إليهم، وإنشاء إمارات صليبية جديدة؛ لتكون شوكة في ظهر العالم الإسلامي، تمهيدًا للقضاء التام عليه، وقد رأينا بعض مجهودات سلاجقة الشام وأتابكة دمشق في جهادهم ضد الصليبيين.

لم يشأ زنكي أن يدخل في حرب مع الصليبيين منذ البداية، فقد كان يريد أن يوطد دعائم إمارته الجديدة، ويدعم جيشه، ويعزز إمكاناته العسكرية والاقتصادية قبل أن يقدم على

---

(١) الصلابي: عصر الدولة الزنكية ص٨٣- ٨٦.

خوض غمار المعركة ضد الصليبيين كما رأينا في السنوات العشر الأولى من حكمه للموصل؛ وقد وعمل على توحيد الإمارات الصغيرة المتناثرة من حوله تحت لواء واحد، فقد كان خطر تلك الإمارات المتنازعة لا يقل عن خطر الصليبيين المحدق بهم، وذلك بسبب التنازع المستمر بينهم، وغلبة المصالح الخاصة والأهواء على أمرائهم.

بدأ عماد الدين زنكى بمدينة حلب المهمة في المنطقة الشمالية من بلاد الشام في ١ محرم سنة ٥٢٢هـ أى بعد شهور قليلة من ولايته على الموصل مما يوضح أن هذا الرجل الفذ كان يملك خطة شاملة ورؤية واضحة معدة سلفًا لحركته بأرض الشام، ولم يكن ضمه لمدينة حلب بالشيء السهل فلقد ظل محاصرًا لها عدة شهور قبل فتحها، ثم قام بعدها بضم مدينة حماة في السنة التالية ٥٢٣هـ، ثم ضم مدينة سرجى ودارا ثم حصن الأثارب وكان بيد الصليبيين، ثم انشغل عماد الدين زنكى بالخلافات العنيفة بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود بل تورط فيها وذلك لعدة سنوات كما رأينا، ثم عاد بعدها لهدفه الأسمى وضم عدة قلاع من الأكراد الحميدية والهكّارية وقلعة الصور وواصل سعيه حتى استقامت له ديار بكر وإقليم الجبال سنة ٥٢٨هـ وحمص وما جاورها سنة ٥٢٩هـ[١].

استقامت معظم بلاد الشام لعماد الدين زنكى عدا ما كان بيد الصليبيين ودمشق قلب الشام وحاضرته، وقد حاول زنكى ضم دمشق سنة ٥٢٩هـ ولكنه فشل وبقيت خارج سلطته وبقي يخطط ويفكر في كيفية الوصول إلى دمشق.

ولما ازدادت قوة عماد الدين زنكى في حلب وثقلت وطأته على الصليبيين في الشام فكروا في الاستعانة بإمبراطور القسطنطينية عمانوئيل، ورغم الاختلاف المذهبى بينهم فهم كاثوليك وهو أرثوذكسي إلا أن عمانوئيل وافق في نهاية المطاف على نجدتهم.

ومن ثم أصبحت بلاد الشام في موقف حرج بالغ الخطورة فإمبراطور بيزنطة جاء بجيوش جرارة سنة ٥٣٢هـ واخترق آسيا الصغرى ولم يقدر أحد من سلاجقة الروم على إيقافه ودخل إلى شمال بلاد الشام بعد أن استولى على مدينة بُزاعة وهى قريبة من حلب فغدر بأهلها بعد أن أعطاهم الأمان فقتلهم[٢].

---

(١) راجع: أبو شامة: عيون الروضتين ١/ ١١٨– ١٢٧.

(٢) أبو شامة: عيون الروضتين ١/ ١٢٢.

قرر زنكي العمل من خلال مسارين:

١- مناوشة إمبراطور بيزنطة بشن حرب عصابات على معسكره باستخدام المجاهدين المتطوعين في الشام ضد الأعداء بالكر والفر وإظهار القوة والشجاعة وإرسال رسائل تهديد ووعيد لهذا الإمبراطور على الرغم من الفارق الضخم بين القوتين وذلك من أجل إرهاب البيزنطيين ومنعهم من التقدم.

٢- إيقاع الخلاف بين البيزنطيين والفرنجة، فلقد كان عماد الدين زنكى استغل الخلاف المذهبى بين الأرثوذكس والكاثوليك للتفريق بينهما، فأرسل إلى إمبراطور بيزنطة يخوفه من نكصان الفرنجة للعهود وأنهم يتربصون به فإن فارق مكانه الذي فيه قلعة شيزاز بالقرب من حماة سيتخلفون عن نصرته ثم أرسل إلى الصليبيين الفرنجة يخوفهم من إمبراطور بيزنطة ويقول لهم إن ملك بالشام حصنًا واحدًا ملك بلادكم جميعًا[(١)].

وبالفعل نجحت خطة عماد الدين زنكى ووقع الخلاف بين الطرفين وانسحب الإمبراطور من الشام وترك المجانيق وأسلحة كثيرة بحالتها غنمها جيش المسلمين، وحرروا أسرى المسلمين الذين كانوا مأسورين في جيش عمانوئيل.

وقد حاول بعدها فتح دمشق ولكنه فشل بسبب حصانتها وقوة حاكمها معين الدين أنر فلم يستطع عماد الدين تحقيق حلمه في أهم مدن الشام حتى وفاته.

أول إمارات الصليبيين في يد زنكي

تقع إمارة الرُّها في منطقة الجزيرة الفراتية وهى المنطقة الواسعة الواقعة بين نهر الفرات ونهر دجلة، وقد فتحها المسلمون سنة ١٧هـ، والرها من البلاد التي كان لها خصوصية عند البيزنطيين لأنها كانت تنتشر بها الكنائس والصوامع، وأيضا لها خصوصية عند المسلمين لكونها على حدود الدولة الإسلامية المشتركة مع الدولة البيزنطية؛ فهي من مدن الثغور وكان الخلفاء دائمى الاهتمام بهذه المنطقة، ولكن مع ضعف الخلافة العباسية وخروج كثير من أجزائها عن سيطرتها جعلت الرها تتعرض للعدوان المتكرر من البيزنطيين.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٨١٠ – ٨٥.

وعندما انطلقت شرارة الحملات الصليبية احتل الصليبيون الرها وأقاموا بها أول إمارة صليبية في منطقة الجزيرة وذلك سنة ٤٩٢ هـ.

كان أمير الرها جوسلين؛ قد فهم من تحركات عماد الدين زنكى أنه يخطط لفتح الرها؛ ذلك أن زنكي استطاع أن يدعم موقفه بالاستيلاء على بعض المواقع وعدد من الحصون الخاضعة لإمارة الرها، وتمكن بذلك من قطع الاتصال بين أمير جوسلين وبين حلفائه.

لقد كانت إمارة الرُّها واحدة من أهم الإمارات الصليبية في المشرق، وذلك لقوة تحصينها، وقربها من العراق مركز الخلافة العباسية ونقطة التماس مع أملاك السلاجقة، لذا كان السلطان مسعود قد شرط في صلحه لزنكي سنة ٥٣٨هـ أن يسعى لفتح مدينة الرها وطرد الصليبيين منها، نظرا لما تمثله من خطر عسكري محدق بالسلطنة السلجوقية.

ومن ثم فقد اتجهت نية زنكي إلى إسقاطها، وصح عزمه على فتحها، وراح يدرس الموقف بدقة، فأدرك أنه لن يتمكن من فتحها إلا إذا استدرج أميرها جوسلين وقواته خارجها، فلجأ إلى حيلة بارعة أتاحت له الوصول إلى مأربه؛ إذ تظاهر بالخروج إلى آمد القريبة من الرّها لحصارها، وفي الوقت نفسه كان بعض أعوانه يرصدون تحركات أمير الرها، الذي ما إن اطمأن إلى انشغال عماد الدين عنه بحصار آمد حتى خرج بجنوده إلى تل باشر- على الضفة الغربية للفرات- ليستجم ويتفرغ لشأنه[1].

وقد كان هذا ما توقعه عماد الدين، فأسرع بالسير إلى الرها في جيش كبير، واستنفر كل من يقدر على القتال من المسلمين لجهاد الصليبيين، فاجتمع حوله حشد هائل من المتطوعين، فحاصر المدينة من جميع الجهات، وحاول التفاهم مع أهلها بالطرق السلمية، وبذل جهدًا كبيرًا لإقناعهم بالاستسلام، وتعهد لهم بالأمان، ولكنهم أبوا، فما كان منه إلا أن شدد الحصار عليهم، واستخدم الآلات التي جلبها معه لتدمير أسوار المدينة قبل أن يتمكن الصليبيون من تجميع جيوشهم لإنقاذ المدينة.

وبعد ٢٨ يومًا من الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت لقوات زنكي في ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ، فأصدر عماد الدين أوامره إلى

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين ١/ ١١٨، ١٣٨، ١٣٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٤، ومحمد كُرد علي: خطط الشام ٢/ ١٣.

الجند بإيقاف أي أعمال للقتل أو الأسر أو السلب، وإعادة ما استولوا عليه من غنائم وأسلاب، فأعادوا كل ما أخذوه إلى أصحابه(1).

وبدأ من فوره عملية تجديد وإصلاحات شاملة للمدينة، فأعاد بناء ما تهدّم من أسوارها، وتعمير ما ضرب في الحرب أثناء اقتحام المدينة، وسار في أهلها بالعدل وحسن السيرة، حتى نعموا في ظله بالأمن والعدل، واحتفظوا بكنائسهم وأوديتهم فلم يتعرض لهم في عبادتهم وطقوسهم.

ومن النتائج المهمة التي ترتبت على فتح مدينة الرها:

١- تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامية وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحافًا بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما مودود، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية، واليوم إسقاط الرها وغدًا إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلًا، ومن الآن فصاعدًا لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء، وإنجاز.

٢- تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية غير الشرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق، وكذلك بلاد فارس.

٣- زاد الضغط على النطاق الصليبي الذي اتخذ شكلًا طوليًا من أنطاكية في الشمال إلى أيلات (الرشراش) جنوبًا ومن نهر الأردن شرقًا إلى الساحل الشامي - باستثناء عسقلان، إذ إن صور سقطت بالفعل سنة ٥١٨هـ بما اشتمله من إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، فالمؤكد أن رأس الحربة الصليبية في الرها سقطت إلى غير رجعة، والآن أصبح ذراعها قائمًا في باقي الكيان الصليبي، ولذلك ازداد

(١) كامل الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/ ٨٠.

الضغط العسكري عليه من قبل القوى الإسلامية التي سيطرت على الظهير الشامي الموازي للساحل والسهل الساحلي، وكأن المعركة صارت - على المستوى الجغرافي - معركة بين الساحل والظهير، واعتمد الأول على الدعم الخارجي الأوروبي في الأساس، واعتمد الثاني على إمكاناته المحلية الوافرة التي تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين.

٤- أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأم في الغرب الأوروبي، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لابد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام حملة صليبية ٥٤٢هـ - ٥٤٤هـ التي اشتهرت بالصليبية الثانية، وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءًا من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين - عامة - في عهد الحروب الصليبية.

٥- ارتفاع شأن عماد الدين زنكي إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية، تردد اسمه سريعًا في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيرًا كبيرًا في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين، فقد احتل مكانة بارزة؛ فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء أمير العراقين والشام(١). وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية أحاديث تمحورت حول شخصه، تصور لنا مدى التقدير، والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير، ومهد هذا الفتح

---

(١) القلانسي: تاريخ دمشق ص٤٤٣.



الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة، وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في المنطقة، وأدَّى فتح الرها دورًا كبيرًا في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها(١).

مقتل عماد الدين زنكي

لم يمض عامان على نصر زنكي الكبير في الرها حتى تم اغتياله في ٦ ربيع الآخرة سنة ٥٤١هـ خلال حصاره لقلعة جعبر(٢) على يد يرنقش كبير حرسه الذي تسلل إلى مخدعه فذبحه وهو نائم(٣).

لقد كان زنكي في أوج انتصاره على الصليبيين، كما حقق انتصارًا آخر على المستوى الإسلامي بعد أن نجح في توحيد الصفوف وتكوين جبهة إسلامية قوية، ومن ناحية أخرى فقد كانت قلعة جعبر على وشك السقوط بعد أن بلغ حصاره لها مداه، فضلًا عن أن قاتله يرنقش كان من الباطنية، وقد استطاع التستر والانتظار طويلًا- على عادة الباطنية- حتى حانت اللحظة المناسبة لتنفيذ جريمته.

وعن مقتل عماد الدين زنكي ينقل ابن الأثير عن والده عن أحد شهود عيان هذه الحادثة قوله: «في هذه السنة لخمس مضين من ربيع الآخر قتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر؛ قتله جماعة من مماليكه ليلًا غيلة وهربوا إلى قلعة جعبر فصاحوا على من بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح فدخل أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق. حدثني والدي عن بعض خواصّه قال: دخلت إليه في الحال وهو حي فحين رآني ظن أني أريد قتله فأشار إليَّ بأصبعه السبابة يستعطفني فوقعتُ من هيبته فقلتُ: يا مولاي من فعل هذا؟! فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله»(٤).

أما ما نذكره من صفاته الخِلقية والخُلقية، فهو ما يسرده ابن الأثير وهو القريب من

(١) الصلابي: السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره ص١٢٩، ١٣٠.
(٢) تقع قلعة جعبر في منطقة الجزيرة السورية على الضفة اليسرى لنهر الفرات، تبعد ٥٠ كيلومترًا عن مدينة الرقة، وتشرف على بحيرة كبيرة.
(٣) أبو شامة: عيون الروضتين ١/ ١٥٤، وابن العديم: زبدة الحلب ص٣٢٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٣٩.

الدولة الزنكية بقوله: «كان حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين قد وَخطه الشيب، وكان قد زاد عمره على ستين سنة، ولما قتل دفن بالرَّقة، وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت أهلا وسكانا. حكى لي والدي قال: رأيتُ الموصل وأكثرها خراب بحيث يقف الإنسان قريب محلة الطيالين ويرى الجامع العتيق والعرَصَة ودار السلطان وليس بين ذلك عمارة قط. وكان الإنسان لا يقدر على المشي إلى الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة وهو الآن في وسط العمارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلها أرض مراح. وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك، وكان أيضا شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد وكان يقول: إن لم تحفظ نساء الأجناد وإلا فسدن لكثرة غياب أزواجهن في الأسفار، وكان أشجع خلق الله .. كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلهم يقصدها، ويريد أخذها، وهو لا يقنع بحفظها، حتى إنه لا ينقضي عليه عام إلا ويفتح من بلادهم. فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاورَه في ناحية تكريت، وقصد الموصل وحصَرها، ثم إلى جانبه، من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود; ثم ابن سقمان صاحب خِلاط ; ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفا; ثم صاحب آمد وماردين ثم الفرنج من مجاورة ماردين، إلى دمشق، ثم أصحاب دمشق، فهذه الولايات قد أحاطت بولايته من كل جهاتها، فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة، ويأخذ من هذا ويصانع هذا، إلى أن ملك من كل من يليه طرفا من بلاده»[(١)].

وإذا كان ابن الأثير من المفكرين والمؤرخين القريبين من الدولة الزنكية؛ فإن قول العماد الأصفهاني في عماد الدين زنكي يكاد يُلامس الحقيقة، ويقترب من وصف الأطوار التي مرّ بها زنكي، قال: «كان جبارا عسوفا، بنكباء النكبات عصوفا، نمريّ الخلق، أسدي الحنق، لا ينكر العنف، ولا يعرف العرف. قد استولى على الشام سنة ٥٢٢ هـ إلى أن قتل في سنة ٥٤١هـ، وهو مرهوب لسطوه، مجفوّ لجفوه. لكنما ختم الله له في آخر عمره بالسعادة وبالشهادة، ووفقه للجهاد الذي هو أفضل أركان العبادة»[(٢)].

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٠، ٣٤١.

(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣١٧ دار الكتب العلمية.

لقد كان لعماد الدين زنكي رحمه الله أكبر الأثر في زمنه على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، لقد أتى به القدر في اللحظة المناسبة لتوحيد شرذمة قُطر لا بأس به من ديار الإسلام، وكان له ما أراد منذ اللحظة الأولى لإمارته على الموصل سنة ٥٢١هـ، فظل عشرين عامًا تالية لا يهدأ له بال، ولا ينعم براحة حتى عرف له حقه القريب والبعيد، والقوي والضعيف.

أولاد زنكي يستكملون المسير!

انقسمت الدولة الزنكية بعد وفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ إلى شطرين، الأول في الموصل والجزيرة وملكها الابن الأكبر سيف الدين غازي، والثاني في حلب والشام وملكها الابن الثاني نور الدين محمود، وقد تميّزت العلاقة بين الأخوين بالود والتفاهم والتعاضد.

التفاهم بين الإخوة

لكن كانت أولوية كل منهما تختلف عن الآخر؛ ذلك أن أولوية نور الدين محمود تمثّلت بحكم وجوده في الشام باستكمال مسيرة الجهاد التي بدأها والده رحمه الله، في حين كانت إمارة سيف الدين غازي واتصالها وتماسّها بالدولة السلجوقية والخلافة العباسية قد جعلت أولويته مهادنة هذين الفريقين والاتجاه صوب الشرق والجنوب، بعكس نور الدين الذي شغله الغرب ومقاومة الصليبيين.

وبالرغم من الخلافات التي نشبت بين الأخوين عقب وفاة والدهما؛ إذ اعتبر سيف الدين وهو الأخ الأكبر انفصال أخيه الأصغر عنه نوعًا من الخروج عن الأعراف التركية والسياسية التي كانت تقضي بالإمارة للابن الأكبر، فضلًا عن أن ألب أرسلان بن محمود السلجوقي الذي كان يحكم زنكي باسمه الموصل والجزيرة كان قد شهد مقتل زنكي في قلعة جعبر، وهو ما جعله يُجِدّ للرجوع إلى الموصل للاستيلاء عليها، ولم يأبه نور الدين لهذا وأخذ خاتم أبيه واتجه إلى حلب وتسلمها.

على أن قضاء سيف الدين غازي ووزير أبيه جمال الدين الأصفهاني على فتنة ألب أرسلان وسجنه، قد جعلت العلاقات تعود بين الأخوين إلى طبيعتها، بعد الصلح الذي عقداه عند نهر الخابور، وهو النهر الذي يفصل بين إمارة الموصل وإمارة حلب.

وتجلت مظاهر التعاون والتآزر بين سيف الدين ونور الدين في:

١- اشتراك عساكر الموصل جنبا إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصليبيين، وذلك في الدفاع عن دمشق ضد الصليبيين الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٣هـ ونجاحهم في حمل الصليبيين على الرحيل عن دمشق.

٢- اشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العُريمة وطرد الصليبيين منه.

٣- اشتراك عساكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في إنّب، وفي فتح أفاميه سنة ٥٤٤هـ[1].

إلا أن العهد لم يطل بسيف الدين غازي حيث توفي بالموصل في جمادى الآخرة من سنة ٥٤٤هـ بعد أن حكم الموصل ثلاث سنين وشهرًا وعشرين يومًا ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل، وكان عمره عند وفاته ٤٤ عاما، خلّف ولدًا شابًا مات بعد أبيه بأشهر قليلة، وآلت إمارة الموصل لقطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي.

جهاد نور الدين على الجبهة الشامية

بعد نجاح نور الدين محمود وبمساعدة قوات أخيه سيف الدين غازي على شل حركة الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ، وفشل حصارهم على دمشق، وكانت هذه الحملة الصليبية بغرض الانتقام من الزنكيين الذين استولوا سنة ٥٣٩هـ على إمارة الرها الصليبية وإعادة تحريرها منهم مرة أخرى سنة ٥٤١هـ على يد نور الدين، فقد تفرغ محمود لاستكمال مسيرة والده في افتتاح بقية المدن الشامية التي كانت تدين بالطاعة للصليبيين أو لأمراء ضعاف لا قوة لهم، ممن يُشكلون تشرذمًا لا داعي له في المواجهة الإسلامية الصليبية.

والحق أن نور الدين محمود كان قد بدأ في هذه المهمة باكرًا حتى قال ابن الأثير في حوادث عام ٥٤٢هـ: «في هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب بلد الفرنج ففتح منه مدينة أرتاح بالسيف ونهبها وحصر مابولة وبصرفوت وكفرلاثا وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد طمعوا وظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذه فلما رأوا من نور

---

(١) الصلابي: القائد المجاهد نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره ص٢٢، ٢٣.

الدين هذا الجد في أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد وخاب ظنهم وأملهم»[١].

واستولى نور الدين على مدينة إعزاز المهمة والقريبة من حلب وكانت تحت الاحتلال الصليبي سنة ٥٤٥هـ، كما استولى على مدينة بعلبك المهمة والقريبة من الإمارات الصليبية سنة ٥٥٠هـ[٢].

وكما كانت دمشق محور اهتمام عماد الدين زنكي حتى فشل في إلحاقها بدولته مرارًا، حرص نور الدين على ضم هذه المدينة المحورية فهي قلب الشام، وقاعدة لشن الهجمات الخطيرة على القوات الصليبية المتمركزة في مملكة بيت المقدس في فلسطين والساحل الشامي.

لذا كانت أول محاولة لنور الدين للسيطرة على دمشق في سنة ٥٤٥هـ حين أرسل قواته لضمها لكن مسير هذه القوات تأخر بسبب هطول الأمطار فسارع مجير الدين أبق أمير دمشق بالاستنجاد بالصليبيين، فقرر نور الدين فك الحصار بعد أن وعده مجير الدين بأن ينقش اسمه على النقود وأن يدعو له في المساجد[٣].

وكان الصليبيون قد سيطروا على عسقلان سنة ٥٤٨هـ، وانتزعوها من يد الفاطميين، وخشي نور الدين على دمشق خاصة بعد أن استطال الصليبيون عليها بعد ملكهم عسقلان ووضعوا عليها الجزية.

وفي محاولته فتح دمشق أدرك نور الدين أن اعتماد العنف سيستفز حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم، فعمد إلى إعمال الحيلة والسياسة فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق إليه وأخذ نور الدين يكاتبه مشككًا إياه بنوايا عدد من أمرائه وأنهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها انتقل نور الدين خطوة أخرى فاتصل بأحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجماهيرها واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء، وحاصر مجير الدين في القلعة

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٨.
(٢) أبو شامة: عيون الروضتين ١/ ٣١٨.
(٣) القلانسي: تاريخ دمشق ص٤٨٠، وأبو شامة: عيون الروضتين ١/ ٢٤٠.

وبذل له إقطاعًا منها مدينة حمص. فسار إليها مجير الدين وملك نور الدين القلعة. ثم عوضه عن حمص ببالس فلم يرضها فرحل إلى بغداد وابتنى بها دارًا وأقام بها إلى أن توفي(١).

إن ضم دمشق إلى وحدة بلاد الشام كان نقطة تحول بالغة الأهمية في تاريخ المشرق الإسلامي، حيث امتدت دولة إسلامية عسكرية قوية مركزها دمشق، من الرها شمالًا حتى حوران جنوبًا، كما أن ضمها حقق توازنًا بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، فإذا كان الصليبيون باحتلالهم عسقلان عام ٥٤٨هـ قد سيطروا على الساحل الشامي الممتد من اسكندرونة شمالًا حتى غزة جنوبًا، فإن ضم دمشق جعل داخل بلاد الشام من الفرات حتى جنوبي حوران في قبضة قيادة إسلامية واحدة، ومن هنا فقد عَدَّ المؤرخون ضم دمشق «فتح الفتوح» وخطوة كبيرة لتحقيق الوحدة بين مصر وبلاد الشام(٢).

كذلك اهتم نور الدين بضم مدينة شيزر الاستراتيجية الواقعة على الخطوط التجارية بين حلب ودمشق وحمص، ورغم ذلك فإنه لم يحاول ضمها عسكريا غير أن زلزال سنة ٥٥٢هـ الكبير والشهير دمّر الحصن وقتل معظم آل منقذ أمرائها، ومن ثم خشي نور الدين على شيزر من أن تقع تحت أيدي الصليبيين فوقف بجيشه في أطراف البلاد ورمم ما تضرر من أسوارها وضمها إلى دولته، برعاية أخيه من الرضاعة مجد الدين بن الداية الذي أحسن القيام بالمهمات الإدارية في دولة نور الدين محمود وإخوته كما يُقرر سبط ابن الجوزي(٣).

واستمرت سياسة نور الدين الرامية لتوحيد مدن الشام تحت قيادة ودولة واحدة، حتى تم له ذلك بصورة نهائية في العام ٥٥٩هـ؛ حيث بدأت أنظاره تتجه صوب مصر، التي كانت قد شهدت أحداثًا سياسية داخلية عاصفة أراد الصليبيون أن يستغلوها لضم مصر إليهم، وهو ما يعني تدمير كل ما قام به زنكي ونور الدين من بعده على الجبهة الشامية؛ وذلك لقوة وأهمية مصر عسكريًا واستراتيجيًا.

❊ ❊ ❊

---

(١) القلانسي: تاريخ دمشق ص٥٠٣ – ٥٠٥.

(٢) الصلابي: القائد المجاهد نور الدين محمود ص٢٤٧، وللصلابي أيضًا: عصر الدولة الزنكية ص٤٥٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٣٢٤، ٣٢٥.



المستنجد بالله

(من ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ حتى ربيع الثاني سنة ٥٦٦ هـ)

هو يوسف بن محمد المقتفي بأمر الله بن المستظهر بالله، ولد في بغداد في عام ٥١٠هـ، وبويع بولاية العهد في سنة ٥٤٢هـ[(١)]، وتولى مقاليد الخلافة عقب وفاة أبيه في ربيع الأول من عام ٥٥٥هـ. وقد جعل الإربلي مولده في سنة ٥١٨هـ لكن لم يوافقه أحد من المؤرخين.

كانت والدته أم ولد تُسمى طاووس روميّة أدركت خلافته، ولم يل الخلافة العباسية من اسمه يوسف سواه، ولا شاركه أحد في كنيته حيث تكنّى بأبي المظفّر[(٢)].

كان المستنجد «مليح الوجه، بياضه مشرّب حمرة، أزجّ[(٣)] الحاجبين، في شعره شُقرة. نقش خاتمه: من أحب نفسه عمل لها»[(٤)].

تحديات الخلافة

كاد المستنجد بالله يُغتال عقب وفاة والده مباشرة، من جارية لوالده كانت أم ولد أرادت أن يبايع الناس ابنها أبا علي، قال ابن الأثير: «كان للمقتفي حظية وهي أم ولده أبي علي فلما اشتد مرض المقتفي وأيست منه أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها الأمير أبو علي خليفةً، فقالوا: كيف الحيلة مع ولي العهد؟ فقالت: إذا دخل على والده قبضتُ عليه. وكان يدخل إلى أبيه كل يوم. فقالوا: لا بد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبي المعالي بن الكيا الهراسي[(٥)]

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٨ .

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٥٧ تدمرى.

(٣) طويل الحاجبين. ابن منظور: لسان العرب، مادة أزج ٢/ ٢٠٨.

(٤) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٤.

(٥) هو عبد الملك بن علي بن محمد بن إبراهيم الطبري، كان والده من كبار فقهاء بغداد، قال ابن النجار البغدادي: «لم يكن له اشتغال بالعلم ولا سلك طريقة والده، بل خالط أصحاب الديوان وخدم في أشغالهم وعلت مرتبته، فرُتِّب حاجبا وناظرا في المظالم في سنة خمس وخمسمائة، فأقام نحوا من أربعين يوما ثم عُزل». حبسه الخليفة المستنجد أول ما تقلد الخلافة، وظل في سجن المطمورة البغدادي محبوسًا عشر سنين وأشهر، حتى وفاة الخليفة المستنجد. ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ١/ ٦٣، ٦٤.

فدعوه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيرا فبذلوا له ما طلب، فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبي علي أحضرت عدة من الجواري وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله، وكان له خصي صغير يرسله كل وقت يتعرّف أخبار والده، فرأى الجواري بأيديهن السكاكين، ورأى بيد أبي علي وأمه سيفين، فعاد إلى المستنجد وأخبره»[1].

واستطاع المستنجد أن يقضي على كل من دبر هذه الفتنة بالقبض على امرأة أبيه وولدها، وقتل من أرادوا قتله.

وقد «بويع له في يوم الاثنين ثانى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمس مائة وهو اليوم الثالث من وفاة أبيه بعد الجلوس للعزاء على العادة، وتولى أخذ البيعة على الناس عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة وزير أبيه وابن رئيس الرؤساء أستاذ داره، ودخل إليه الفقهاء والقضاة وسائر أرباب الدولة والمناصب. وكان عمه الأمير هارون بن المستظهر بالله واقفا، وكان يوما مشهودا»[2].

وعقب هذه المحاولة الفاشلة بسبب حنكة المستنجد وسيره على درب والده في بث العيون والمخابرات، وتقريب الأتباع والأنصار، بدأ في تثبيت دعائم ملكه بإصلاحات داخلية كثيرة، غفل عنها والده نتيجة التحديات الخارجية التي ظلت مع المقتفي حتى وفاته، لا سيما السلاجقة.

وقد عدّد ابن الأثير وغيره هذه المنجزات الداخلية التي استهل بها المستنجد ولايته، قال: «لما ولي الخلافة أقرّ ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضي ابن المرخم وكان بئس الحاكم، وقدم عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وكان أستاذ الدار ومكّنه وتقدم إلى الوزير أن يقوم له، وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن أحمد الدامغاني ورتب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي وخلع عليه»[3].

وهي منجزات متنوعة منها الاجتماعية لا سيما إزالة الضرائب على العامة، خاصة أن الحاجة إليها لم تعد كما كانت من قبل، وعزل بعض العمال أصحاب السمعة السيئة بين العامة،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٣٩.

(٢) ابن العمراني: الإنباء ص٢٢٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٤٠.

وبعض الفقهاء ذوي الآراء المتطرفة من وجهة نظر الخلافة والثقافة السائدة، وجدّد منصب قاضي القضاة كما رأينا.

وزاد ابن الجوزي في هذه المنجزات بقوله: «وأسقطت الضرائب وما كان ينسب إلى سوق الخيل والجمال والغنم والسمك والمدبغة والبيع في جميع أعمال العراق وأفرج عن جماعة كانوا مطالبين بأموال»(١).

لكن أهم التغييرات الإدارية لم تشمل الوزير المحنك عون الدين بن هبيرة الذي شهد له المستنجد بالله بالحنكة والذكاء والإدارة الحسنة، وهي أوصاف صحيحة لا مشاحّة فيها، رأينا آثارها في خلافة المقتفي لأمر الله والد المستنجد.

وثمة حادثة مهمة تجلي لنا الثقة التي وضعها المستنجد في وزير أبيه ووزيره، وهي ثقة ظهرت في تحمل الوزير لتبعات مسئولية أبيه المقتفي وحفظه لأسراره، قال ابن هبيرة نفسه: «كان المستنجد قد بعث إليّ مكتوبا مع خادم في حياة أبيه وكأنه أراد أن يسره عنه فأخذته وقبلته وقلت للخادم قل له: والله ما يمكنني أن أقرأه ولا أن أجيب عنه قال: فأخذ ذلك في نفسه عليَّ فلما ولي دخلت عليه فقلت يا أمير المؤمنين: أكبر دليل في نصحي أني ما حابيتك نصحا لأمير المؤمنين، قال: صدقت أنت الوزير، فقلت إلى متى؟ فقال: إلى الموت، فقلتُ: أحتاج والله إلى اليد الشريفة فأحلفته على ما ضمن لي»(٢).

وما يلفت النظر أن العلاقة بين المستنجد ووزيره ابن هبيرة كانت قوية متينة، بل كان يضع فيه كل ثقته، ويراه ذا موصفات لا تكاد توجد في غيره، بل الأعجب من ذلك أنه نظم شعرا يمدح فيه هذا الوزير في حياته، بل يجعله أعظم من البرامكة وزراء جده الأكبر هارون الرشيد، وقد نقل هذا الشعر السيوطي في «تاريخ الخلفاء»(٣) وكان مما جاء فيه:

صَفَتْ نِعْمَتَانِ خَصَّتَاكَ و عمَّتا ... بِذكرِهِما حَتَّى القيامة تُذْكَرُ

وجودك و الدنيا إليكِ فقيرة ... وجودك والمعروف في الناس منكر

فلو رام يا يحيى مكانك جعفر ... ويحيى لكفا عنه يحيى و جعفر

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٩٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٩٣.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٨٢.

ولم أر من ينوي لك السوء يا أبا الـ مظفر إلا كنت أنت المظفر

وكثيرًا ما رأينا الخليفة المستنجد يكثر الخروج إلى الصيد والاستمتاع بهذه الهواية مدة السنوات الإحدى عشرة التي تولى فيها إمرة المؤمنين، وذلك لهدوء الأوضاع، وسكون الفتن والقلاقل في زمنه.

العلاقات الخارجية وتجفيف منابع التوتر

سار المستنجد على سيرة والده، وبدت خلافته للمراقبين من حوله كما كانت في زمن أبيه، فالخليفة الكهل لم يكن غرًا يضيع ما بناه أبوه في ربع قرن مضى، وقد كان من الطبيعي أن يحافظ على القوة الجديدة التي اكتسبتها الخلافة من جراء كسرها للشوكة السلجوقية، وقمع الاضطرابات العربية في العراق، وهو ما أثّر بالإيجاب والاحترام في رؤية السلاجقة في الشرق والزنكيين في شمال الجزيرة الفراتية والشام لقوة وهيبة الخلافة.

لقد كان علي بن كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي على الموصل ممن وقف مع محمد بن محمود بن محمد السلجوقي في حربه وحصاره لبغداد، ثم رجع الرجل بأمر من نور الدين محمود الذي كان أثقب رؤية، وأبعد نظرًا لقوة الخلافة المتصاعدة، ولذلك حرص الزنكيون على توطيد العلاقات مع الخلافة، وبمجرد صعود المستنجد لسدة الخلافة وفي أول مناسبة تمثلت في مرور الحاج على العاصمة بغداد كما جرت العادة، أرسل الزنكيون علي بن كوجك إلى الخليفة ليهنئه بالخلافة ويطلب منه العفو له ولمواليه في الشمال، يقول ابن الأثير: «وفيها أرسل زين الدين علي نائب قطب الدين صاحب الموصل رسولا إلى المستنجد يعتذر مما جناه من مساعدة محمد شاه في حصار بغداد ويطلب أن يؤذن له في الحج، فأرسل إليه يوسف الدمشقي مدرس النظامية وسليمان بن قتلش يطيبان قلبه عن الخليفة ويعرفانه الإذن في الحج فحج ودخل إلى الخليفة فأكرمه وخلع عليه»(١).

وقد حاول الخليفة المستنجد في بداية ولايته أن يجفف منابع التوتر، ويقضي على أية قوة محتملة تناوئه، منهم بعض قوات من التركمان استطاعوا احتلال منطقة البندنيجَينِ في شرق

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٤٣.

بغداد على مشارف إقليم الجبل[١] وكان على رأس هؤلاء القائد العسكري العباسي ترشك المقتفوي الذي قتل أحد مماليك الخليفة وفرّ هاربًا ليكون عصابة ويحدث نوعًا من التوتر في هذه المنطقة.

ففي شهر ربيع الأول من سنة ٥٥٦هـ سارت إشاعة مفادها «أن عسكرا قد تعلق بالبندنيجين[٢] من التركمان وأن الخليفة يريد أن يُنفذ هناك عسكرا يضمهم إلى ترشك ويقاتلونهم فخرج جماعة من الأمراء في جيش كبير فاجتمعوا بترشك فلما حصل بينهم وثبوا عليه فقتلوه واحتزوا رأسه وبعثوا به في مخلاة وإنما احتالوا عليه لأنهم دعوه فأبى أن يحضر وأضمر الغدر وقتل مملوكا للخليفة ودعا الوزير أولياء ذلك المقتول وقال: إن أمير المؤمنين قد اقتص لأبيكم من قاتله فشكروا»[٣].

وفي نفس العام ثارت قبائل بني خفاجة في الحلة والكوفة بسبب تأخر إرسال الحصص المستحقة لهم من الطعام والتمر، وقد حاول كل من مُقطع الكوفة وشِحنة الحلّة أن يخمد هذا الغضب، لكنهما فشلا، وقُتل شحنة الحلة وهو مدير الأمن بها، الأمر الذي دفع الوزير الكبير عون الدين بن هبيرة في بغداد إلى تجهيز حملة عسكرية «لطلب خفاجة فدخلوا البرية ورجع، وانتهت خفاجة إلى البصرة وبعثوا بالعدوّ وسألوا الصلح فأجيبوا»[٤].

في أمر آخر، لم يسع المستنجد بالله إلا أن ينتهز فرصة ذهبية سيقت إليه، وهي الاستيلاء على قلعة الماهكي في شمال شرقي بغداد بالطرق السلمية؛ وكان المقتفي قد حاول أن ينتزع هذه القلعة المهمة من مناوئيه سنة ٥٥٤هـ؛ وكان استيلاء المستنجد على الماهكي سنة ٥٥٧هـ بسبب انتزاح مالكها سنقر الهمذاني عنها إلى همذان، وسلمها إلى أحد مماليكه الذي ضعف عن حمايتها من غارات التركمان والأكراد القريبين منها، ثم سرعان ما «أُشير عليه ببيعها من

(١) قال ياقوت عنها: «هي بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد» ونقل عن أحد علمائها قوله: «البندنيجين اسم يطلق على عدة محال متفرقة غير متصلة البنيان بل كل واحدة منفردة لا ترى الأخرى لكن نخل الجميع متصلة وأكبر محلة فيها يقال لها باقطنايا وبها سوق ودار الإمارة ومنزل القاضي ثم بويقيا ثم سوق جميل ثم فلشت وقد خرج منها خلق من العلماء محدثون وشعراء وفقهاء وكتاب». ياقوت: معجم البلدان ١/ ٤٩٩.

(٢) مدينة شمال شرق بغداد.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ١٤٧ عطا.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٤٦.

الخليفة، فراسل في ذلك، فاستقرت على خمسة عشر ألف دينار وسلاح وغير ذلك من الأمتعة، وعدة من القرى، فسلمها وتسلم ما استقر له، وأقام ببغداد»[1].

كذلك حرص المستنجد على تطهير المناطق القريبة من العاصمة بغداد، والتي لطالما استثمرت فرصة ضعف الخلافة للوقوف مع الخصوم، خاصة بني أسد زعماء مناطق الحلة والبطائح جنوب العاصمة بغداد، هؤلاء الذين أرهقوا المقتفي والد المستنجد مرارا وتكرارًا حتى دخلوا في طاعته بشق الأنفس، الأمر الذي أضمره المستنجد في نفسه، وعزم على القضاء على قوتهم بصورة نهائية، وذلك بالاستعانة ببعض أمرائه الأقوياء.

وحالما دخل العام ٥٥٨هـ حتى أعطى المستنجد إشارة البدء لقواته وأنصاره للقضاء على هذه القبائل العربية الكثيفة، يقول ابن الأثير: «في هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله بإهلاك بني أسد الحلة المزيدية، لما ظهر من فسادهم، ولما كان في نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمدا لما حصر بغداد، فأمر يزدن بن قماج[2] بقتالهم وإجلائهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البطائح[3]، فلا يقدر عليهم، فتوجه يزدن إليهم، وجمع عساكر كثيرة من فارسٍ وراجل، وأرسل إلى ابن معروف مقدم المنتفق[4]، وهو بأرض البصرة، فجاء في خلق كثير، وحصرهم، وسكّر[5] عنهم الماء، وصابرهم مدة، فأرسل الخليفة يعتب على يزدن ويُعجزه وينسبه إلى موافقتهم في التشيع، وكان يزدن يتشيع، فجدَّ هو وابن معروف في قتالهم والتضييق عليهم، وسد مسالكهم في الماء، فاستسلموا حينئذ، فقتل منهم أربعة آلاف قتيل، ونادى فيمن بقي: من وجد بعد هذا في الحلة المزيدية فقد حل دمه، فتفرقوا في البلاد، ولم يبق منهم بالعراق من يعرف، وسلمت بطائحهم إلى ابن معروف وبلادهم»[6].

ولما حاول بعض التركمان إعادة الاستيلاء على قلعة الماهكي شرقي العراق وهي من أعمال بغداد وقتئذ، لم ينتظر الخليفة طويلاً حتى أرسل قائده المحنك يوسف الدمشقي الذي

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٩٤ تدمرى.

(٢) من كبار أمراء الدولة العباسية في عصر المستنجد، قال الذهبي: «كان شيعيًا غاليًا، متعصبًا. فانتشر بسببه الرفض، وتأذّى أهل السنة إلى أن هلك في ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ». تاريخ الإسلام ٣٩/ ٣٢٨.

(٣) أي يُقيمون في منطقة البطائح جنوب العاصمة بغداد.

(٤) مجموعة من القبائل العربية كثيرة العدد بالقرب من البصرة جنوب العراق. ومقدم المنتفق: أميرها.

(٥) أغلق.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٣ تدمرى.



لسوء الحظ قضى هنالك في عام ٥٦٢هـ.

غير أن ابن الأثير يذكر هذه الحكاية مفصلة باتحاد قوات الخلافة التي تم حشدها من مناطق متعددة لا سيما النعمانية وواسط وبغداد ضد القائد التركماني شملة الذي تم تحريضه من قبل مناوئي الخلافة من السلاجقة وعلى رأسهم شمس الدين إلدكز الذي كان قد وصل إلى ذروة قوته حينها، وقد كان يحمل في قلبه حنقا على الخلافة العباسية التي حاولت إسقاط دولته مرارًا، قال ابن الأثير: «في هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان إلى قلعة الماهكي، من أعمال بغداد، وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيئا من البلاد، ويشتطُّ في الطلب، فسيّر الخليفة أكثر عساكره إليه؛ ليمنعوه، وأرسل إليه يوسف الدمشقي[١] يلومه، ويحذره عاقبة فعله، فاعتذر بأن إلدكز والسلطان أرسلان شاه أقطعا الملك - وهو ولد ملكشاه[٢] - البصرة وواسطًا والحلة، وعرض التوقيع بذلك، وقال: أنا أقنعُ بثلث ذلك، فعاد الدمشقي بذلك، فأمر الخليفة بلعنه، وأنه من الخوارج»[٣].

ولم يكن من مفر من المواجهة العسكرية بين الفريقين، وأرسل المستنجد حملته بقيادة ناظر مدينة واسط ابن البلدي والقائد العسكري أرغش المسترشدي، على أن «شملة أرسل قلج ابن أخيه في طائفة من العسكر; لقتال طائفة من الأكراد، فركب أرغش في بعض العسكر الذي عنده، وسار إلى قلج، فحاربه، فأسر قلج وبعض أصحابه وسيرهم إلى بغداد، وبلغ شملة، وطلب الصلح، فلم تقع الإجابة إليه، ثم إن أرغش سقط عن فرسه بعد الوقعة، فمات وبقي شملة مقيما مقابل عسكر الخليفة، فلما علم أنه لا قدرة له عليهم رحل وعاد إلى بلاده، وكانت مدة سفره أربعة أشهر »[٤].

ولذلك لما رجع ابن البلدي ناظر مدينة واسط بعد انسحاب شملة تلقته بغداد باحتفاء زائد، وكوفئ مكافأة جزيلة من الخليفة على تصديه لذلك الخارج، ثم سرعان ما عيّنه

(١) كان مدرّسًا في المدرسة النظامية في بغداد، وقد استعان به الخليفة المستنجد لإرسال رسائله إلى شملة التركماني أمير خوزستان مرارًا، وقد توفي في إحدى هذه السفارات في خوزستان سنة ٥٦٣هـ. ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٣٥ تدمرى.

(٢) كان شمس الدين أيلدكز وصيًا على سلطان السلاجقة المحجور عليه أرسلان بن طغرل كما سنرى.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٦.

المستنجد وزيرًا في العام التالي ٥٦٣هـ[١].

وبسبب تجرؤ شمس الدين إلدكز على الخلافة العباسية، ومساعدته لمناوئيها بالسلاح والعتاد وكافة أشكال الدعم؛ فقد حاول المستنجد أن يسير على ذات الطريقة، وهي الوقوف مع مناوئيه ضده، وكان أبرزهم أمير مراغة أذربيجان الأتابك آقسنقر الأحمديلي وقد كان عنده ابن السلطان محمد بن محمود السلجوقي وأراد أن تعترف الخلافة بشرعية سلطنة هذا الغلام، ومن ثم يحاول توسيع هذه السلطنة متبعًا في ذلك إستراتيجية إلدكز، وقد قبل الخليفة عرض آقسنقر، الأمر الذي قوّض شرعية أرسلان بن طغرل وزوج أمه شمس الدين إلدكز وهو ما اعتبروه إعلانًا صريحًا للحرب.

وقد كانت هذه الأحداث في بداية عام ٥٦٣هـ، عقب انجلاء شملة التركماني عن قلعة الماهكي شرقي بغداد، ولذلك حينما علم إلدكز بهذه المؤامرة بين الخلافة وآق سنقر الأحمديلي: «جهّز عسكرًا كثيفا وجعل المقدَّم عليهم ابنه البهلوان، وسيّرهم إلى آقسنقر فوقعت بينهم حرب أجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصّنه بمراغة ونازله البهلوان وحصره وضيّق عليه ثم ترددت الرسل بينهم فاصطلحوا وعاد البهلوان إلى أبيه بهمذان»[٢].

وأما العلاقة بين العباسيين والفاطميين فلم تتراجع حدة عداوتها رغم قلة الاحتكاك بين الجانبين منذ مجيء الصليبيين وتمركزهم في الشام، ولطالما تابع الجانبان أخبار بعضهما البعض، ففي عام ٥٥٩هـ حدثت الفتنة الشهيرة في مصر بين شاور وضرغام وكلاهما كان من المتطلعين للوزارة الفاطمية، وكان شاور قد تقلد الوزارة بعد أسرة آل رزيّك الشهيرة، لكن ضرغام ثار عليه وخلعه، الأمر الذي اضطر معه شاور للجوء إلى نور الدين محمود في بلاد الشام، وقد اتفق معه على إعطائه ثلث غلة مصر إذا دعمه بالعساكر، وقد قبل نور الدين هذا العرض، وأرسل معه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين على رأس عساكر كثيفة، وقد التقى مع عسكر ضرغام فانهزم ثم قُتل، لكن شاور تصالح مع الخليفة الفاطمي العاضد، ونكث عهده مع نور الدين، الأمر الذي جعل أسد الدين يرفض الرجوع، ثم استعان شاور

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٣٤ تدمرى.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٩٦.

بالقوات الصليبية التي جاءت وحاصرت أسد الدين في بلبيس في الشرقية مدة ثمانية أشهر، لم يفكوا حصارهم عليها إلا بعد هجوم نور الدين على قلاعهم ومدنهم في بلاد الشام، واستيلاؤه على قلعة حارم، ما جعلهم يعودون أدراجهم لحماية ممتلكاتهم تلك، ثم لم يرجع أسد الدين إلى بلاد الشام إلا وكان متحصلًا على مبلغ ضخم قيمته ستون ألف دينار مصرية(١).

لقد كان دخول قوات نور الدين محمود إلى مصر وبقائها مدة عام كامل فيها، وهزيمة الفاطميين ثم انكسار هيبة الصليبيين فيها خبرا سعيدا على الخليفة المستنجد الذي بُشّر به، حتى إن ابن الجوزي(٢) يقول: «وورد البشير إلى المستنجد بفتح مصر فقال حاجب الوزير ابن تركان قصيدة أولها:

لعل حداة العيس أن يتوقفوا	ليشفي غليلا بالمدامع مدنف
ليهنك يا مولى الأنام بشارة	بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت به هام الأعادي بهمة	تقاصر عنها السمهري المثقف
بعثت إلى شرق البلاد وغربها	بعوثا من الآراء تحيي وتتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر	ونابت مناب الرمح والرمح يرعف»

وأما الحرمان الشريفان فقد استعادت الخلافة العباسية السيطرة عليهما، ولو كانت شكلية من هجمات الفاطميين المتكررة عليها، وقد كان بعض العلويين قد تولوا مقاليد مكة والمدينة منذ منتصف القرن الرابع الهجري، وبعد نجاح العباسيين في إرجاع مكة والمدينة للسيادة العباسية، حرص العلويون حكام الحرمين على إبراز هذه السيادة في زيارة سنوية للعاصمة بغداد، ففي ربيع الأول من عام ٥٦٥هـ «جاء المكيون بخرق البحر والهدايا كما جرت العادة والطبول بين أيديهم وكان معهم ثلاثة أفراس وبغلة وأنطع من الأدم ومضوا إلى الديوان»(٣).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٨، ٣٠٩.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٣٠.

وفاة المستنجد بالله

وقد توفي المستنجد بالله في ٩ ربيع الأول من عام ٥٦٦هـ عن عمر ناهز السادسة والخمسين من عمره، بعد مرض أصابه.

غير أن ابن الأثير ذكر أن بعض القادة العسكريين من حوله استغلوا مرضه وقتلوه لأنهم علموا نيته بقتله لهم[١]، وهذا ما يصرح به ابن العبري بقوله: «كان سبب موته أنه كتب إلى وزيره (ابن البلدي) مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين قايماز وصلبهما، وكان قد اشتدّ مرضه. فاجتمع الطبيب بهما وأوقفهما على الخطّ. فقالا له: عُد إليه وقل له: إنني أوصلتُ الخطّ إلى الوزير وفعل ذلك. ثم دخل المذكوران على المستنجد ومعهما أصحابهما فحملوه وهو يستغيث إلى الحمّام وألقوه وأغلقوا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات»[٢].

لكن لماذا أراد الخليفة المستنجد أن يتخلص من أستاذ دار الخلافة عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء والأمير قطب الدين قايماز؟ هذا السؤال نجد إجابته عند ابن خلدون الذي يقول: «كان الخليفة المستنجد قد غلب على دولته أستاذ داره عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وكان أكبر الأمراء ببغداد، وكان يُرادفه[٣] قطب الدين قايماز المظفري، ولما ولّى المستنجد أبا جعفر البلدي على وزارته غضّ[٤] من أستاذ الدار وعارضه في أحكامه، فاستحكمت بينهما العداوة، وتنكّر المستنجد لأستاذ دار وصاحبه قطب الدين، فكانا يتّهمان بأنّ ذلك بسعاية الوزير»[٥]. ولذلك لم يتوانا عن قتل المستنجد بالله.

وسنرى قوة «ملك الأمراء»[٦] قطب الدين قايماز في خلافة المستضيء، واستيلائه على هذا الخليفة مدة ٤ سنوات كاملة، كان له فيها الحل والعقد، حتى توفاه الأجل سنة ٥٧٠هـ في أحداث كادت أن تعصف بدولة المستضيء بن المستنجد بالله[٧].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٩.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢١٢.
(٣) يُتابعه.
(٤) قلّل من شأنه وأخفضه عن مكانته السابقة.
(٥) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٤٨.
(٦) لقب كان يُطلق على قائد الجيش العباسي.
(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٦.



لقد نقل الصفدي عن كتاب «المناقب العباسية والمفاخر الهاشمية»[١] عن دولة المستنجد وصفاته ما نصه: «كانت أيامه أيام خصب ورخاء وأمن عام ودولته زاهرة وسياسته قاهرة وهيبته رائعة وسطوته قامعة، ذلت له رقاب الجبابرة في الآفاق وخضعت له منهم الأعناق وأشحن بالظلمة الحبوس وأزال قوانين الظلم ورفع سائر المكوس وتمكَّن تمكُّن الخلفاء المتقدمين وكان آخر من عمل في أيامه بقوانين الأئمة الماضين من مواظبة وزير على عمل المواكب ورفع القُصص إليه والمظالم، فما انتهت إليه حالة مكروهة إلا أزالها وعثرة إلا أقالها»[٢].

ونقل ابن العماد عن ابن النجار البغدادي وكان معاصرًا للخليفة المستنجد قوله: «كان المستنجد موصوفا بالفهم الثاقب والرأي الصائب والذكاء الغالب والفضل الباهر والعدل الظاهر، له نظمٌ بديع، ونثر بليغ ومعرفة بعمل آلات الفلك والأسطرلاب وغير ذلك»[٣]، وكانت الدولة في عصره هادئة وادعة مسيطرة على العراق، تدين لها بلاد الحجاز والجزيرة العربية بالطاعة الشكلية فضلا عن بلاد الشام وإيران.

بغداد المستنجدية

صارت بغداد في زمن المستنجد أهدأ حالا، وأقل ضجيجًا، بحيث اهتم الخليفة بتحسين أوضاع درة الدنيا وتاجها، لاسيما بعد الأحداث العاصفة التي جرت في زمن والده المقتفي، وقد كان من الطبيعي أن تزدهر حلقات العلم، وأسواق العاصمة، ومحافل البلد، وتتشابك العلائق الاجتماعية بصورة لا تبتعد عن الجدة والطرافة والاندهاش في بعض الأوقات.

فمن أرقى وأجل الطبقات الاجتماعية في العاصمة بغداد، طبقة العلماء والفقهاء، ومن اللافت أن تشابكت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية بطبيعة الحال حول هذه الطبقة التي تعدى دورها الاهتمام بالتعليم والتفقيه، وكان لها وظائفها المعروفة بين الناس،

---

(١) هذا الكتاب له عنوان آخر هو « المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية» في تاريخ الدولة العباسية، مؤلفه هو أبو الفرج بن الحسين البصري المتوفى سنة ٦٥٩هـ، والكتاب لا يزال مخطوطًا، وتوجد إحدى نسخه في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية في الرياض بالسعودية.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٩/ ١٣٤. ذكر الإربلي هذا النص كذلك دون عزو إلى مصدره. الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٤.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/ ٢١٨.

لعل من أظهر هذه الوظائف الحرص على نقاء العقيدة الصحيحة في العاصمة والذب عنها، وقد كان هذا الحرص مبعثه سلامة الأمن العام، ورؤية الخلافة لوجهتها الرسمية في مسألة العقائد بالذات.

ففي العام الذي تولى فيه المستنجد إمرة المؤمنين يبدأ نجم الإمام ابن الجوزي في الصعود والبروز والتصديق الرسمي والمجتمعي على دوره ودور غيره من العلماء في خسف أي نشاط ثقافي أو علمي يخالف المنهج العقدي السائد، وهذا الخسف أو بالأحرى المقاومة لم يكن إلا بالمقاومة الفكرية من جانب العلماء، وقد تتدخل السلطات أحيانًا إذا رأت أن الخطر مستشرٍ، قال ابن الجوزي: «وظهر أقوام يتكلمون بالبدع ويتعصبون في المذاهب وأعانني الله تعالى عليهم وكانت كلمتنا هي العليا. وأذن لرجل يقال له أبو جعفر بن سعيد بن المشاط فجلس في الجامع فكان يسأل فيقال له: آلم ذلك الكتاب كلام الله فيقول لا، ويقول في القصص هذا كلام موسى وهذا كلام النملة فأفسد عقائد الناس وخرج فمات عن قريب»(١).

وأيضا كانت تصادر الكتب التي تناوئ الدولة العباسية وخلفاءها ففي «جمادى (من عام ٥٥٩هـ) اجتمع جماعة يسمعون كتاب ابن منده في فضائل أحمد بن حنبل في مسجد ابن شافع فجرى بين ابن الخشاب وبين أبي المحسن الدمشقي منازعة في أمر يتعلق بالفقهاء فآل الأمر إلى خصام فوشى بهم الدمشقي إلى الخليفة وأنهم يقرأون كتابا فيه معايب الخلفاء فتقدم بأخذ الكتاب من أيديهم»(٢).

وحرصت الخلافة على المظهر العام لبغداد، وإزالة كل المعوقات التي تعوق حركة الناس ومعاشهم في العاصمة، ففي عام ٥٥٦هـ «خرج التوقيع بإزالة المتعيشين الذين يجلسون على الطرقات في رحبة الجامع وغيرها وبنقض الدكاك البارزة في الأسواق التي توجب الازدحام»(٣).

وثمة إصلاحات كانت الدولة تقرها إذا ما حدثت المشاكل الموجبة لانتفائها، لا سيما ما يتعلق فيها بالرابطة اليومية بين مؤسسات الدولة والناس، ففي عام ٥٥٧هـ «وفي رجب منها

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٩٥.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٠٨.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ١٩٩.



جمع الوكلاء والمحضرون والشهود كلهم عند حاجب الباب[1] وشرط عليهم أن لا يتبرطلوا[2] من أحد ولا يأخذ الشروطي في كتب البراءة أكثر من حبتين[3] ولا المحضر أكثر من حبة ولا الوكيل أكثر من قيراطين[4] وأشهدوا عليهم الشهود بذلك وسببه جناية جرت بينهم في تزويج كتاب».

وكان فقهاء بغداد وعلماؤها يقعون تحت طائلة القانون، لا قداسة لمكانتهم، ولا سلطان لطبقتهم إذا ما أخطأ أحدهم وارتكب جريرة تستوجب عقابه، وفي القصة التالية التي يرويها ابن الجوزي، نرى من خلالها عدة أمور، منها طبيعة العلاقة الاجتماعية بين أفراد الأسرة وقتئذ، والعلاقة بين الفقهاء والدولة، وبين الناس وبعضها في العاصمة بغداد، يقول ابن الجوزي: « وحكى أبو الفرج بن الحسين الحداد قال: جرت لابن فضلان الفقيه قصة عجيبة وهو أنه اتهم بقتل امرأة فأخذ واعتقل بباب النوبي أياما وذلك أنه دخل على أخت له قد خطبت وما تمت عدتها من زوج كان لها فمات فضربها فثارت إليه امرأة كانت عندهم في الدار لتخلصها منه فرفسها برجله ولكمها بيده فوقعت المرأة مغشية عليها ثم خرجت فوقعت في الطريق فأدخلت إلى رباط وسئلت عن حالها فأخبرتهم الخبر فحملت إلى بيت أهلها فماتت في الحال فكتب أهلها إلى الخليفة فتقدم أخذه فأنكر فلم يكن لهم بينة فحلف وخرج وهذه القصة إذا صحت فقد وجبت عليه الدية مغلظة في ماله لأنه شبه عمد ويجب عليه كفارة القتل بلا خلاف»[5].

ولم تخلُ العاصمة من جو المرح والابتكار، بل إننا نجد إشارة لابن الجوزي في حوادث عام ٥٦٠هـ تشير إلى وجود «المهرجين» و«المسرحيين» و«البهلوانات» بصورتهم المبدئية في تلك السنة، ولعل المسلمين في هذا التاريخ المتقدم الذي كان الصليبيون فيه يتعاملون مع المسلمين بكل وحشية وقسوة وجفاء، فضلا عن انعدام أسباب الترف والتقدم في بلدانهم

(١) حجب: منع. وحجبه: منعه من الدخول، والحاجب: البوّاب، يقول ابن خلدون عن وظيفة الحجابة: «هذا اللقب كان مخصوصًا في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة، ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته، وكانت هذه منزّلة يومًا عن الخطط، مرءوسة لها إذ الوزير متصرف فيها بما يراه، وهكذا كانت سائر أيام بني العباس». تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٩٩.

(٢) تبرطل: أخذ الرشوة. راجع المعجم الوسيط ١/ ٥٠.

(٣) الحبة: تساوي جزءًا من ثمانية وأربعين جزء من الدرهم = ٠,٠٦٢ جرامًا. القلعجي: معجم لغة الفقهاء ص١٤٧.

(٤) الدينار يساوي ٢٠قيراطًا، والقيراط يساوي ٧٢حبة. قلعجي: معجم لغة الفقهاء ص٢١٢.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٠٤.

وهي في عصورهم الوسطى المظلمة، هم أسبق الناس إلى هذا الفن، يقول ابن الجوزي: «وقدم رجل مغربي فنصب جذعا طويلًا ووقف على رأسه يعالج، فحاكاه صبي عجان وسافر العجان البلاد فقدم وقد اكتسب الأموال والجواري والخدم فنصب جذعين طويلين شد أحدهما إلى الآخر وصعد ورقص على كرة معه بحبال وحمل جرة ماء على رأسه ولبس سراويله هناك ورمى نفسه واستقبلها بحبل مشدود فحصل له مبلغ»[١].

ويبدو أن هواية «البهلوانات» هذه كان لها صور عديدة، منها «اللعب بالنفط»، وهو ما نراه اليوم في الموالد والمهرجانات و«السيركات»، وقد كانت هذه الهواية تتسبب في مشاكل في بعض الأوقات، منها ما حدث مع أحد سيئي الحظ، ففي شهر شعبان من عام ٥٦٤هـ «اتفقت حادثة عجيبة وهو أن إنسانا كان قائما عند دكان عطار بشارع دار الدقيق فجاء نفاط يلعب بقارورة النفط فخرجت من يده بغير اختياره فأهلكت ما في الدكان كله وتعلقت بثياب ذلك الرجل القائم هناك إلى أن نزع ثيابه انسلخ جلده من عنقه إلى مشد سراويله وأخذ النفاط فحبس وجرت فتنة فتخلص النفاط»[٢].

أما العلاقة بين سنة بغداد وهم الأغلبية فيها وبين شيعتها الذين طالما تمركزوا في حي الكرخ غرب العاصمة، فكانت تدور بين شد وجذب، وكثيرا ما استغل الشيعة ضعف مؤسسة الخلافة والأجهزة الأمنية للانقضاض على السنة وتخريب منشآتهم والفتك بهم، ففي عام ٥٦١هـ ظهر «من الروافض أمر عظيم من ذكر الصحابة وسبهم وكانوا في الكرخ إذا رأوا مكحول العين ضربوه»[٣]، لكن مع ذلك لم نسمع مرة أن مؤسسة الخلافة أمرت بالقضاء عليهم وقتلهم، كما فعلت مع عرب بني أسد وهم بالآلاف.

شمس الدين إلدكز يرث السلاجقة

تناولنا من قبل اعتراف الخليفة المقتفي بأمر الله بسلطنة السلطان الضعيف سليمان شاه ابن محمد السلجوقي، وكان غرض اعتراف الخليفة المقتفي بهذا السلطان الطائش يكمن في إلهاء السلاجقة بأحوالهم، وتغلب أمرائه عليه، كي لا يكون لهم مطمع في العراق وأملاك

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢١١.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٢٩.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢١٨.

الخلافة العباسية مرة أخرى.

غير أن خفة سليمان شاه وطيشه لا زالت تزداد يوما وراء آخر الأمر الذي جعل أمراءه والمقربين منه يرفضون أعماله وحمقه بل وتجرأه على ارتكاب المحرمات جهارًا، ومن ثم «صاروا لا يحضرون بابه وكان قد ردّ جميع الأمور إلى شرف الدين كردبازو[1] الخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية، يرجع إلى دين وعقل وحسن وتدبير، فكان الأمراء يشكون إليه وهو يسكنهم فاتفق أنه شرب يوما بظاهر همذان في الكشك[2] فحضر عنده كردبازو حتى أن بعضهم كشف له سوأته فخرج مغضبا فلما صحا سليمان أرسل إليه يعتذر فقبل عذره إلا أنه تجنب الحضور عنده»[3].

وأراد سليمان شاه أن يستعين بأمير الجبل والري القوي إينانج لمجابهة أمرائه وكبيرهم كردبازو الذي امتنع عن الحضور إليه، وعلم كُردبازو بما أهم به سليمان شاه، فزادت العلاقات بينهما سوءا «فعمل كردبازو دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء فلما صار السلطان سليمان شاه في داره قبض عليه كردبازو وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي وعلى أصحابه في شوال سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه في قلعة ثم أرسل إليه من خنقه»[4]. وكان مقتل سليمان شاه في قلعة همذان في ١٣ ربيع الأول سنة ٥٥٦هـ[5].

وقال ابن الأثير عن سبب مقتل سليمان شاه: «في هذه السنة في ربيع الآخر قتل السلطان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه؛ وسبب ذلك أنه كان فيه تهور وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى أنه شربها في رمضان نهارا وكان يجمع المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء فأهمل العسكر أمره»[6].

(١) من كبار مشايخ الخدم السلجوقية ومن كبار الأمراء. قال الأصفهاني عن طبقة الخدم في الدولة السلجوقية المتأخرة في إيران: «كانت الخدام الحبوش لهم الجيوش، والأسرة والعروش. منهم نجم الدين رشيد، من مشايخهم وأكابرهم، وجمال الدين إقبال الجاندار، وشرف الدين كردبازو ومسعود البلالي». الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣١٠. دار الكتب.

(٢) الكشك: الكوخ وهو بالفارسية كوشك. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط ٢/ ٧٨٩. والكُشك كان بمثابة القصر الريفي الذي يطل على المتنزهات عند العباسيين والسلاجقة.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٤٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٤٥.

(٥) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٧٦ .

(٦) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٩٩.

ولكن قبل أن نستكمل حديثنا عن خليفة سليمان شاه علينا أن نعيد التذكير بأحوال السلاجقة في إيران؛ فلم يكد السلطان محمد بن ملكشاه يُتوفى سنة ٥١١هـ حتى قام نزاع حول العرش وانقسم السلاجقة على أنفسهم في الوقت الذي كان فيه أعداؤهم يحدقون بهم من كل جانب؛ ذلك أن السلطان محمد قبيل وفاته أمر بإسناد السلطنة إلى ابنه محمود وحين وليها كان في الرابعة عشرة من عمره، الأمر الذي جعل عمه السلطان سنجر والي خراسان وما وراء النهر يأنف أن يذعن له بالطاعة ويكون تابعًا له؛ فأعلن سنجر نفسه سلطانًا على السلاجقة، وبذلك انقسمت الدولة السلجوقية إلى دولتين: القسم الشرقي وسلطانه سنجر ابن ملكشاه، والقسم الغربي وسلطانه محمود بن محمد بن ملكشاه.

واشتعلت الحرب بين الطرفين كما رأينا وانتصر فيها سنجر وبالرغم من هزيمة ابن أخيه إلا أنه صالحه وعيّنه وليًا لعهده وأعاد إليه جميع البلاد التي كانت تحت حوزته ما عدا مدينة الري التي اتخذها سنجر قاعدة يُراقب منها أعمال محمود خشية أن تحدثه نفسه بالخروج عليه مرة أخرى.

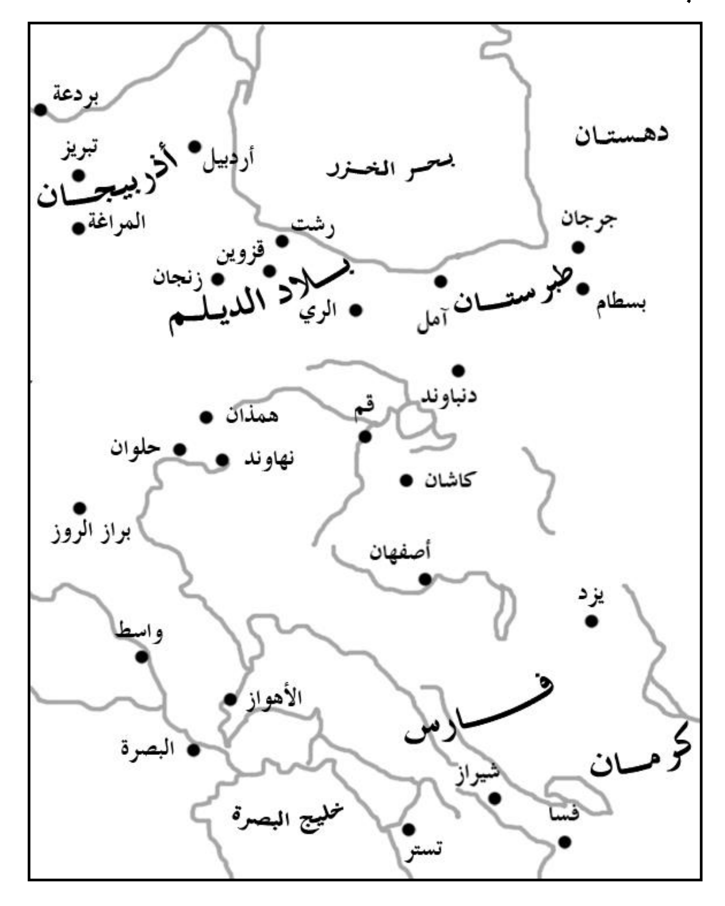
ولقد رأينا تصارع السلاجقة على تركة محمود الذي وافته المنية سنة ٥٢٥هـ؛ حيث خرج حاكم الموصل وأذربيجان مسعود بن محمد وتنازع مع ابن أخيه داود بن محمود، كما تقاتل مسعود مع أخيه سلجوقشاه، وقد استقرت الأمور بعد صراعات وتكتلات إلى مسعود بن محمد سنة ٥٢٩هـ الذي تسبب في مقتل الخليفة المسترشد وابنه الراشد من بعده سنة ٥٣٠هـ.

لكن وفاة مسعود سنة ٥٤٧هـ جعلت سلطان سلاجقة العراق يبدأ في الأفول، وأخذت قوة السلاجقة في العراق وكردستان مجرى جديدًا أسوأ مما كان عليه سابقًا، ولقد سلب أتابكة أذربيجان والران السلطان السلجوقي المهام والسلطات الفعلية لأسيادهم السلاطين الصوريين!

وكان مؤسس هذه الأسرة «أتابكة أذربيجان والرّان» هو شمس الدين إلدكز سنة٥٣١هـ، وقد كان إلدكز مملوك الوزير كمال الدين السميرمي وزير السلطان محمود السلجوقي، وعقب هذا الوزير، عيّن السلطان مسعود السلجوقي شمس الدين إلدكز حاكمًا على منطقة الران والقرة التابعة لولايتها، واستطاع إلدكز أن يتوسّع في سلطانه خارج منطقة الران أو أرانية كما كان يُطلق عليها وقتئذ، فاستولى على أذربيجان، واستطاع أن يؤسس أسرة حاكمة في هاتين المنطقتين عُرفت في التاريخ باسم «أتابكة أذربيجان والران» واستمرت تحكم

في المنطقة قرابة قرن من الزمان[١].

ولنرجع إلى اتفاق أمراء السلاجقة في همذان على تولية أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وكان شابًا يافعًا، قال ابن الأثير عن ملابسات هذه التولية: «وأرسل إلى إلدكز صاحب أرّانية وأكثر بلاد أذربيجان يستدعيه إليه ليخطب للملك أرسلان شاه الذي معه وبلغ الخبر إلى إينانج صاحب الرّي سار ينهب البلاد إلى أن وصل إلى همذان فتحصن كُردبازو فطلب منه إينانج أن يعطيه مصافا فقال: أنا لا أحاربك حتى يصل الأتابك الأعظم إلدكز، وسار إلدكز في عساكره جميعها يزيد على عشرين ألف فارس ومعه أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه فوصل إلى همذان فلقيهم كردبازو وأنزله دار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد»[٢].



(١) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٦٧ - ٦٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٤٥.

لكن إينانج أمير الري وبعض أمرائه لم يرضوا بأرسلان شاه ولا بتحكم شمس الدين إلدكز فيهم، ومن ثم اتفقوا على مبايعة أخيه الأمير محمد بن طغرل، وكان محبوسًا عند أمير شيراز في إقليم فارس الأتابك سنقر، فخرج محمد إليهم بعساكر كثيرة من شيراز والتقى بهم في أصفهان، ثم وقعت المعركة بين شمس الدين إلدكز وابن زوجته أرسلان بن طغرل وبين محمد بن طغرل وإينانج في منطقة تسمى مرغزار قراتكين بالقرب من أصفهان، غير أن تحالف أمير شيراز وإينانج ومحمد بن طغرل ومن معهم من عساكر قدرت بعشرين ألف مقاتل لم تثبت أمام قوة إلدكز وأرسلان شاه، وانهزموا ورجع إلدكز وأرسلان إلى عاصمة ملكهم همدان في فرح وسرور(١).

لكن ذلك لم يثن إينانج عن عزمه برد هذه الهزيمة، لاسيما بعد علمه بعزم شمس الدين إلدكز مهاجمة الري، وهو ما جعله يهرب من الري باتجاه الشرق صوب مدينة بسطام، الأمر الذي دفعه ليدخل في طاعة الدولة الخوارزمية التي كانت في غرب إيران.

وقد قام الأمير الخوارزمي بإنفاذ قوة داعمة من جنوب إيران تدعم إينانج في مواجهة السلاجقة وأتابكتهم في همذان في الشمال، لكن المواجهة باءت بهزيمة إينانج والخوارزمية، ورفض شمس الدين إلدكز الصلح مع هذا الغادر، واتفق مع وزيره سعد الدين الأشل على قتله، وتم قتله بالفعل وصارت منطقة الري وما حولها في هدوء ودعة بعد مقتل أكبر أمير كان يتسبب في القلاقل والنزاعات منذ السلطان مسعود(٢).

على أن ابن الأثير يذكر رواية أخرى فيها أنه لما مات ملكشاه بن محمود بن محمد أخو السلطان محمد في عام ٥٥٥هـ، أخذ أمراؤه ابنه محمود معهم إلى إقليم فارس وأميره هو زنكي بن دكلا، وقد راسلهم الوزير عون الدين بن هبيرة وأخبرهم أن الخليفة المستنجد سيعترف بسلطة محمود بن ملكشاه إن هم اتحدوا مع إينانج وهزموا شمس الدين إلدكز وأرسلان بن طغرل، ويبدو أن الخلافة كانت تتوجس من القوة الصاعدة إلدكز الذي استطاع أن يهزم جل أمراء إيران وعلى رأسهم إينانج، وقد كاتب ابن هبيرة «زنكي بن دكلا صاحب بلاد فارس يبذل له أن يخطب للملك الذي عنده وهو ابن ملكشاه وعلق الخطبة له بظفره إلدكز فخطب

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٤٦، ١٤٧، والأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ٣٧٩، ٣٨٠.
(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٥٣.

ابن دكلا للملك الذي عنده»[١] الذي تسبب في حرب بين الجانبين انتهت بهزيمة إينانج كما ذكر الحسيني آنفًا.

ومهما يكن من أمر؛ فقد أصبح إلدكز هو الآمر الناهي في منطقة وسط وشرق إيران فضلا عن أذربيجان وآران في الشمال، وذكر ابن الأثير أن عام ٥٥٨هـ هجمت قبائل الكرج الوثنية على أذربيجان وخاصة منطقة دوين، وقتلوا وأسروا النساء وأحرقوا البلد، الأمر الذي دفع إلدكز بمساعدة أرسلان بن طغرل في همدان وبعض أمراء شمال الجزيرة الفراتية وإيران لقتال هؤلاء، وانتصر إلدكز بعد حرب طاحنة دامت شهرًا، كان عنصر المفاجأة فيها أحد الأسباب التي أدت لغلبة المعسكر الإسلامي[٢].

غير أن الحسيني يذكر أن ثمة قتالا كبيرا دار بين الكرج والمعسكر السلجوقي في عام ٥٥٦هـ، كان سببه تجرؤ الكرج على المطالبة بخراج كان يدفعه بعض أمراء أذربيجان قبل مجيء إلدكز، الأمر الذي دفع إلدكز لقتالهم بجنود كثيفة جدا، وتمت هزيمة هذه القبائل ووقعت غنائم لا حصر لها في المعسكر الإسلامي، وقد تكون هذه الإغارة من إلدكز سبب مهاجمة الكرج لدوين في أذربيجان فجأة وتم سحقهم بإغارة أخرى في بداية عام ٥٥٨هـ كما ذكر ابن الأثير[٣].

في هذه الأثناء تجلت أربع قوى رئيسية في منطقة إيران حتى ما وراء النهر، وهم:

١- سلاجقة العراق وسلطانهم أرسلان بن طغرل ومدبر أمره وزوج والدته شمس الدين إلدكز وهم مسيطرون على شرق العراق وأذربيجان حتى بداية خراسان وإقليم فارس في الجنوب.

٢- سلاجقة خراسان وسلطانهم محمود بن سنجر، وقد توفي والده السلطان الكبير سنجر في عام ٥٥٢هـ ودولته تشمل كلا من خراسان وغزنة وبعض بلاد ما وراء النهر ونيسابور.

٣- القوة الخوارزمية بقيادة إل أرسلان بن أتسز في منطقة خوارزم وجرجان.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٥٨.

(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٦٠ – ١٦٣.

٤- الملك المؤيد أي آبه وكان أحد أمراء السلطان سنجر وانشق عنه بعد أسر الغز له، وكان أي آبه مستوليًا على طوس ونسا وأبيورد وشهرستان والدامغان.

والحق أنه بحدود سنة ٥٦٣هـ كانت دولة سلاجقة العراق بقيادة أرسلان بن طغرل وزوج أمه شمس الدين إلدكز أقوى هذه الممالك؛ فقد استطاعت أن تسيطر على مجريات الأحداث، وتهدد باقي الممالك التي تفكر في التطاول على سلطانهم خاصة الخوارزمية والملك المؤيد، بل إننا نرى طلب شمس الدين إلدكز صراحة من قطب الدين مودود بن زنكي أن يرسل إليه ما كان يرسله أبوه لدولة السلاجقة سابقًا؛ فقد «نفّذ (إلدكز) رسولًا إلى الموصل يلتمس منهم الخطبة والسكة وإنفاذ ما كانوا يحملونه إلى السلاطين السلجوقية فأجابوه



بالسمع والطاعة، وخطبوا للسلطان أرسلان شاه بن طغرل بالموصل وسائر بلاد الديار بكر والجزيرة ونفّذوا إليه من التحف والهدايا والطرف والخيل العراب والبغلات.. وتأكدت المودة بين قطب الدين مودود بن زنكي وبين أتابك شمس الدين إلدكز، وصاروا كيدٍ واحدة في خدمة السلطان أرسلان شاه بن طغرل»[١].

ولذلك كان من حنكة الوزير العباسي ابن هبيرة في بادئ هذه الدولة أن حاول أن يقضي عليها كما مرّ بنا، فكأنه أحسّ بخطر إلدكز على سلطان الخلافة العباسية، والحق أن إلدكز كان المسيطر الحقيقي على مقاليد هذه الدولة وزاد تسلطه عليها بعد وفاة الأمير الخوارزمي إل أرسلان بن أتسز في عام ٥٦٧هـ، ولم يكن للسلطان السلجوقي أرسلان بن طغرل أي كلمة أو رأي أو قدرة على التحكم في أمور سلطنته.

وينقل لنا الحسيني مشهدًا طريفًا بين هذا السلطان الذي ضاق صدره بتحكم زوج أمه في الدولة وبين والدته التي ذهب شاكيًا إليها من قلة حيلته، وسلطنته الشكلية، وقد طيبت خاطره بكلمات واقعية كان مما جاء فيها: «لا عليك أن هذا الرجل قد خاطر بنفسه، واقتحم خوض الحتوف في الحروب مرة بعد مرة، وأنفق نفائس أمواله وأهلك غلمانه ورجاله حتى قدر أن يقيمك سلطانا، وكم من السلجوقية ممن هو أكبر سنا منك في الحبوس وضيق العيش جل مرادهم لو قدروا على الحركة من مواضعهم لا يقدرون، وأنت على سرير السلطنة، وهو وولداه يخدمونك ويقومون بين يديك، ويقارعون أعداءك، ويقهرون معاندك وأنت فارغ القلب من ذلك، وكلما يعتمد أتابك من عظماء من يعطي ومنع من يمنع، فكلّه راجع إلى إصلاح دولتك وثبات ملكك، فلا يحزنك فعله، ولا يُهمّك قصده فهو مملوكك»[٢]. ويزيد الحسيني المشهد بقوله: «فكان إذا سمع هذا من أمه يسكت!»[٣].

وقد صدق الأصفهاني حين قال عقب انتصار إلدكز على إينانج ومحمد بن طغرل سنة ٥٥٥هـ: «تفرد زوج أمه أتابك إلدكز بالأمر والنهي، والنشر والطي، والحسم والكي، والإثبات والنفي. فأدنى وأبعد، وأشقى وأسعد. وراقب الإضراب، وضرب الرقاب.

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٦٤.
(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٦٧.
(٣) الحسيني: السابق.

وحابى الأعداء وعادى الأحباب»[١].

وظل أرسلان بن طغرل متحملًا لهذا الوضع الثقيل على نفسه إلى أن مات شمس الدين إلدكز في أذربيجان في العام ٥٧٠هـ، وبدأت مرحلة جديدة حاول فيها تملك زمام أمره، وبسط سيطرته الفعلية على مملكته[٢].

فتح مصر!

المقصود بفتح مصر هنا، انتزاعها من القبضة الفاطمية إلى الخلافة العباسية بصورة رمزية، ولدولة نور الدين محمود وصلاح الدين من بعده على الحقيقة.

كان نور الدين محمود بعد أن سيطر على دمشق عاصمة الشام سنة ٥٤٩هـ واستتب له الأمر في سائر المناطق الشامية من حلب في الشمال إلى حوران في الجنوب قد فكر جديًا في الاتجاه صوب مصر ومحاولة ضمها إلى دولته؛ لتصبح مملكة بيت المقدس أقوى وأهم الممالك الصليبية بين فكي الرحى مصر والشام، وقد كان انتصار الصليبيين على الفاطميين في موقعة عسقلان سنة ٥٤٨هـ أحد الأسباب القوية التي دفعته إلى ذلك؛ خاصة أن الوضع السياسي الداخلي لمصر كان قد وصل إلى مرحلة مزرية يتنازع فيها الوزراء الحكم لأنفسهم.

هذه الخواطر بدأت تتخذ منحى جديًا حينما جاء الوزير شاور بن مجير السعدي في ذي القعدة سنة ٥٥٨هـ لنور الدين محمود مستغيثًا يطلب منه العون لطرد ضرغام الذي استولى على الوزارة وطرده منها، ووعد شاورُ نورَ الدين بأمور كثيرة منها[٣]:

١- أن تدين مصر بالطاعة للدولة النورية من خلال تعيين رجل نور الدين القوي أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين في مصر بجوار شاور بحيث لا يتخذ أمرًا إلا بمشاورته.

٢- أن يتكفل شاور برد ما أنفقه نور الدين على الحملة إذا نجحت في تحقيق أهدافها.

٣- أن تُسلم مصر ثلث خراجها للدولة النورية بعد دفع مرتبات الجند المصري.

---

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٨٠.

(٢) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٨١.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/ ٢٦٢، ٢٦٣.



لكن على الجانب الآخر ومن منطلق توازن القوى أسرع ضرغام ليتحالف مع ملك مملكة بيت المقدس عموري الأول الذي قبل مساعدة ضرغام مقابل:

١- أن تكون مصر تابعة لمملكة بيت المقدس.

٢- أن تدفع جزية سنوية يقررها عموري الأول.

لكن سرعة حملة شيركوه التي انطلقت من دمشق في جمادى الآخرة سنة ٥٥٩هـ بصحبة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ذى السبعة والعشرين عامًا، والتي وصلت إلى القاهرة في أواخر الشهر ذاته أجهضت مخططات الصليبيين وضرغام، بل استطاعت هذه الحملة أن تقضي على ضرغام ومعظم قواته في شهر رجب من نفس العام، وأن تعيد شاور إلى منصبه[١].

على أن شاور قد غدر بأسد الدين وراح يظهر ما أبطنه سابقًا، بل وبعث إلى الملك الصليبي عموري الأول يطلب منه النجدة لإخراج أسد الدين من مصر مقابل إغراءات مالية وسياسية كبيرة، الأمر الذي دفع عموري إلى الاستجابة خاصة أن حملته لنجدة ضرغام كانت قد فشلت من قبل.

في هذه الأثناء كان أسد الدين قد استولى على شرقي الدلتا متخذًا من بلبيس مقرًا له، لكن قوات الصليبيين الكثيفة بمساعدة قوات الفاطميين وشاور التي وصلت في شوال من عام ٥٥٩هـ، وضعف المؤن والأقوات قد أرغمت شيركوه على إعمال الطرق السياسية والدبلوماسية لحل هذه المشكلة، وقد اتفق الطرفان الصليبي والنوري على الانسحاب من مصر، وهذا ما حدث في ذي الحجة من نفس العام، ورجعت مصر مرة أخرى إلى سيطرة الوزير شاور السعدي[٢].

لكن استبداد شاور أجبر الخليفة الفاطمي العاضد على مراسلة نور الدين ليخلصه منه، وبالفعل خرجت حملة عسكرية قوامها ألفا فارس في ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ بقيادة أسد الدين شيركوه الذي كان متحمسًا لدخول مصر والاستقرار بها، ومع ابن أخيه صلاح الدين، وكما استعان شاور بالملك عموري الأول من قبل أعاد طلب العون منه قبل وصول قوات

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/ ٢٦٦- ٢٦٨.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٧/ ١٢٢.

أسد الدين، لكن الرسالة ورد فعل الملك الصليبي جاء متأخرًا كالعادة، واستطاع أسد الدين وقواته أن يسيطروا على الجيزة في ربيع الثاني من نفس السنة، لكن قوات عموري الأول كانت قد وصلت على مقربة ميل من القاهرة، فتلقاهم شاور واتفق معهم على إعطائهم مبلغ ٤٠٠ ألف دينار نصفها قبل مواجهة أسد الدين ونصفها بعد طرده، ومن ثم آثر أسد الدين أن ينسحب باتجاه الصعيد، واستطاع أن يثبت مع فرسانه وينفذ خطة عسكرية فيها قدر لا بأس من الذكاء بحيث استطاعت قواته القليلة المكونة من ألفي فارس فقط أن تهزم القوات الصليبية الفاطمية في معركة البابين في صعيد مصر(١).

واستطاع بعدها أن ينطلق إلى الإسكندرية ويستولي عليها، لكن حصار الصليبيين والفاطميين لها تسبب في ضيق وأذى السكان وعساكر الجند الشامي على السواء، فجاء أسد الدين من الصعيد واستطاع أن يفك الحصار، وسرعان ما تواصل الفريقان واتفقا على عقد الصلح وكان على الشروط التالية:

١- خروج القوات النورية والصليبية من مصر.

٢- تبادل الأسرى.

٣- يتعهد شاور بألاّ يُعاقب رعاياه في الإسكندرية وفي غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه.

لكن شاور عاد وغدر بأهل الإسكندرية، وكانت هذه هي المرّة الثانية التي يغدر فيها شاور، وقد علَّمت صلاح الدين درسًا قاسيًا، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصَّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام ٥٦٤هـ.

وبعد انجلاء القوات النورية عن مصر اتفق الجانبان الصليبي والفاطمي على:

١- دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.

٢- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرر محاولة الهجوم.

٣- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم(٢).

---

(١) ابن شدّاد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٧٦- ٧٨، وابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٢٧، ٣٢٨ تدمرى.

(٢) أبو شامة: عيون الروضتين ٢/ ٥٠- ٦٠.

وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية الصليبية على مصر بشكل من الأشكال منذ ذي القعدة سنة ٥٦٢هـ.

لم يكن نور الدين محمود ليرض بهذا الوضع السيئ الذي آلت إليه مصر، بل وصل حال الصليبيين بالمصريين أن عيّنوا لهم شحنة أي مديرًا لأمن القاهرة، حتى أرسلوا إلى الملك عموري الأول يهونون عليه من دخول مصر واحتلالها، وبالفعل جهّز عموري حملة صليبية خرجت من بيت المقدس ووصلت بلبيس في الشرقية في صفر سنة ٥٦٤هـ، ثم وصلت إلى الفسطاط وبدأت في حصارها، الأمر الذي دفع شاور إلى حريقها الذي استمر ٥٤ يومًا كاملة[١]!!

كل هذا دفع العاضد وبعض المقربين منه ليرسل الرسائل إلى نور الدين محمود وكان في حلب يطلب منه المدد والعون، على أن يمنحه ثلث مصر، ومنح الإقطاعات لجنده، والسماح باستقرار شيركوه بمصر، وللمرة الثالثة على التوالي يأمر نور الدين أسد الدين شيركوه بالمسير إلى مصر، وجعل معه عددًا من كبار القادة منهم ابن أخيه صلاح الدين الذي كان قد كره الانضمام لهذه الحملة من كثرة ما لاقاه في الحملتين السابقتين، بعكس عمه الذي كان متحمسًا كالعادة، لكنه قبل الخروج تحت ضغط من نور الدين محمود الذي سار معهم من حلب حتى دمشق، وودعهم في ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ، ووصلت عساكر أسد الدين القاهرة في أوائل ربيع الآخر من نفس السنة[٢].

خرج الصليبيون من مصر بعدما أسروا ١٢ ألفًا من المصريين ما بين رجل وامرأة وطفل، وتسببوا في إحراق الفسطاط المدينة الإسلامية الأولى في مصر، وكانوا قد اتفقوا مع شاور على الانسحاب مقابل الإيقاع بشيركوه الذي أُجبروا على استقباله لأنه جاء في الأساس لمعاضدتهم ومساعدتهم ضد الصليبيين.

ومن ثم شرع شاور يماطل أسدَ الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضًا، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعًا. فقال: صدقت، وأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣/ ٢٩٦، ٢٩٧.
(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/ ٤٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٣٥٠.

الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسًا واحدًا ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه، وأخيرا اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخرة سنة ٥٦٤هـ[١].

لكن الخليفة العباسي المستنجد بالله قد استبطأ إعلان الدعوة العباسية في القاهرة، فقد أرسل «من بغداد إلى نور الدّين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر فأحضر الأمير نجم الدّين أيُّوب وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك وحمّلَه رسالة منها وهذا أمر يجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لا سيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته»[٢].

لكن التحديات التي واجهت صلاح الدين بمصر والقوى التي كانت لا تزال تحتفظ بولائها القديم من المماليك السودان والأرمن وغيرهم جعلته يؤخر الدعوة للخلافة العباسية؛ فقد أرسل لنور الدين محمود يوضّح أن «أحواله لم تستقر بعد وأموره مضطربة وأعداؤه كثيرون وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرِّقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم وأن هذا الأمر وإن لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله»[٣].

حتى استتبّ له الأمر في عام ٥٦٧هـ، أي بعد وفاة الخليفة المستنجد بعام كامل، وتمت الدعوة للعباسيين بعد القضاء على الثورات والمؤامرات في خلافة المستضيء العباسي، وجاءت البشائر إلى الخليفة المستضيء بذلك ففرح فرحًا شديدًا، وأمر بإقامة الأفراح والبشائر في العاصمة بغداد لعدة أيام.

العلاقات العباسية الفاطمية بعد فتنة البساسيري

كانت فتنة البساسيري (٤٤٨- ٤٥١هـ) آخر المؤامرات والفتن الكبرى بين الفاطميين والعباسيين، وكان القضاء على مشعلها أبي الحارث البساسيري إيذانًا بصحوة سنية على

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين ٢/ ٥٦.

(٢) أبو شامة: عيون الروضتين ٢/ ١٥٢.

(٣) أبو شامة: عيون الروضتين ٢/ ١٩٨.



الصعيد السياسي في العراق وبلاد الشام، لكن سرعان ما انفض النزاع بين الجانبين – بالرغم من خطة السلاجقة للسيطرة على مصر – بسبب مجيء الحملات الصليبية التي كانت بمثابة الحاجز العسكري بين الجانبين سنة ٤٩١هـ، وظلت حتى سقوط الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ.

لكن يمكن أن نرى لمحات وأمثلة عن طبيعة هذه العلاقات في الفترة ما بين ٤٥١هـ حتى ٥٦٧هـ؛ فقد كانت الحرب على أشدها بين الفاطميين والعباسيين، ولما تولى المقتدي بأمر الله مقاليد الخلافة في عام ٤٦٧هـ كان الخليفة الفاطمي في القاهرة هو المستنصر معاذ بن علي (ت٤٨٧هـ)، والذي يعد أطول حاكم في العصور الوسطى تولى مقاليد السلطة؛ حيث تولاها منذ عام ٤٢٧هـ حتى وفاته عام ٤٨٧هـ.

لقد كانت الأعوام العشرون الأخيرة في خلافة المستنصر الفاطمي هي الفترة التي تجلت فيها قوة السلاجقة وقوة الدعاية والتحريض العباسي تجاه أعدائهم من الفاطميين العبيديين.

لكن ثمة إستراتيجية سار على نهجها الفاطميون العبيديون في تعاملهم مع الخلافة العباسية، تمثّلت هذه الإستراتيجية في أمرين مهمين: هما المنافسة التجارية والمواجهة الحربية.

فعلى صعيد المنافسة التجارية فقد تبنى الفاطميون في سبيل قضائهم على العباسيين إستراتيجية شرقية رأت ضرورة قيام منافسة بين طريقي التجارة المؤديين إلى الشرق الأقصى. وهدف الفاطميين من ذلك السيطرة على الشاطئين الإفريقي والعربي للبحر الأحمر وعلى المنفذ الجنوبي المؤدي للهند[١].

لقد ساعدت الظروف الفاطميين في تحقيق هدفهم، وقد قصدوا بذلك أمرين مهمين، هو تقوية الخلافة الفاطمية عن طريق الانتعاش الاقتصادي ثم إضعاف الخلافة العباسية، بالإضافة إلى خلق نواة لنشر النفوذ الفاطمي على طول الطرق البديلة التي بدأ حكام العراق في استخدامها، كان كل ذلك كما يقرر الدكتور أيمن فؤاد سيد: «في ضوء ما هو معروف عن كفاءة الإسماعيليين في خططهم بمثابة سياسية محكمة مدروسة تهدف إلى القضاء على الخلافة العباسية ليحل محلهم الفاطميون كحكام وحيدين للعالم الإسلامي»[٢].

(١) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر ص١٢٩.
(٢) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية ص١٣٠.

ومن ناحية أخرى صعّد الدعاة المواجهة العسكرية مع العباسيين – كما مرّ بنا في فتنة البساسيري واستيلائه على العاصمة بغداد[١].

وقد استمرت هذه المواجهات بين الجانبين على أكثر من صعيد، بغية توسيع الرقعة الجغرافية والأيديولوجية لكلا الطرفين، ففي الأعوام الأولى من حكم المقتدي بأمر الله وخاصة في عام ٤٦٩هـ، قام أحد قادة سلطان السلاجقة ألب أرسلان ويُسمى أتسز بن أوق الخوارزمي (ت٤٧١هـ) وكان الحاكم المسيطر على دمشق وما جاورها من بلاد الشام بمحاولة فاشلة لغزو الفاطميين في مصر؛ رغبة فيما تحت أيديهم من البلاد والأموال، لكن محاولاته باءت بالفشل وقتل بدر الجمالي جمعًا كبيرا من أصحابه وإخوته ورجع خائبًا منتقمًا بمن لقي من رعية الفاطميين لاسيما في بيت المقدس[٢].

والحق أن أتسز أراد أن يقطع الطريق على مشروع السلطان ملكشاه بإرسال أخيه تُتُش إلى بلاد الشام فأحيا المشروع السلجوقي العام بالقضاء على الدولة الفاطمية في مصر، وربما فكر في اتخاذ مصر ملجأ وملكًا له فيما إذا حاول السلاجقة الاستئثار ببلاد الشام، أو أنه خشي أن يُقدم الفاطميون على مهاجمته.

بيد أن هزيمته أحدثت نتيجتين مهمتين:

الأول: رد فعل داخلي تجلّى بوقوف أهل دمشق إلى جانبه اصطناعًا بفعل ضعفهم، وعصيان أهل الشام الجنوبية على حكمه بعد أن عدّت هزيمته بمثابة النهاية له.

والثاني: خارجي وقد تمثّل في شعور الدوائر السلجوقية في المشرق بعجز أتسز عن القيام بمثل هذه المهمة الضخمة.

وعلى الرغم من أن الرجل لم يكن سُلجوقيًا إلا أن هزيمته كانت أول هزيمة بارزة للنفوذ السلجوقي أمام القوة الفاطمية، وقد أدرك أتسز هذه الظاهرة لذلك أسرع بالكتابة إلى بغداد بأنه ينوي العودة إلى مصر وأنه يجمع العساكر[٣].

---

(١) الخطيب: تاريخ بغداد ٩/ ٣٩٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٨٢، ٨٣.

(٣) محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص١٢٣، ١٢٤.



كما برز الصراع الفاطمي العباسي على المحاولات المستميتة لكل منهما للهيمنة على الحرمين الشريفين، ولم تكد تمر بضع سنوات حتى ينتصر أحدهما على الآخر ويطرده من مكة والمدينة والعكس؛ ففي ذي الحجة من سنة ٤٦٧هـ: «أعيدت الخطبة للمصريين وقطعت خطبة العباسيين، وذلك لما قوي أمر صاحب مصر بعدما كان ضعيفا بسبب غلاء بلده، فلما رخصت تراجع الناس إليها، وطاب العيش بها، وقد كانت الخطبة للعباسيين بمكة منذ أربعين سنة وخمسة أشهر»(١).

غير أنه بحلول عام ٤٧٠هـ كان الفاطميون قد استرجعوا قوتهم ودخلوا الحرمين الشريفين في غفلة من العباسيين على ما يبدو، لدرجة أن المقريزي يقول في حوادث هذا العام: «وفيها وصل إلى مكة من بغداد منبر كبير في شهر رمضان منقوش عليه بالذهب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين. مما أمر بعمله محمد بن محمد بن جهير. فاتفق وصوله وقد أعيدت الخطبة للمستنصر، فكسر المنبر المذكور وأحرق»(٢).

وظلت بلاد الحرمين بين شد العبيديين الفاطميين وجذب العباسيين، حتى استقرت في أيدي العباسيين عام ٤٧٨هـ ثم أخذها العبيديون لكن سرعان ما استردها العباسيون ثانية في العام التالي ٤٧٩هـ وقد «خُلع اسم المستنصر وآبائه من مكة والمدينة وكتب اسم المقتدي»(٣).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٣٦.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/ ٣١٩.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/ ٣٢٤.

الدولة الفاطمية

ومن وسائل تقويض العباسيين لقوة الفاطميين الاتصال بالقوى الخلفية لهم؛ فقد اتصل المقتدي بالمرابطين في المغرب لتعزيز مكانة المرابطين وتقوية مركزهم السياسي، مما يعني تحالفًا يُضعف من النفوذ الفاطمي المحصور بين العباسيين في الشرق والمرابطين في الغرب، ففي سنة ٤٧٩هـ، قال السيوطي: «أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش إلى المقتدي يطلب أن يسلطنه وأن يُقلده ما بيده من البلاد فبعث إليه الخلع والأعلام والتقليد ولقبه بأمير المسلمين ففرح بدلك وسُر به فقهاء المغرب»(١).

وكان هذا الاتصال العباسي بالمرابطين سببًا في ازدياد العداوة بين الجانبين للدرجة التي قتل فيها أمير الجيوش الفاطمي أحد رسل الخليفة المقتدي العباسي إلى يوسف بن تاشفين، لما رست به السفينة بسبب سوء الرياح في مدينة الإسكندرية وذلك سنة ٤٨٤هـ(٢).

على أية حال كانت الحروب الصليبية وتكوين مملكة بيت المقدس الصليبية بمثابة الحاجز العسكري والسياسي بين الجانبين، كما أن انشغال كل من العباسيين والفاطميين بمشاكلهم الداخلية قد قلّل من المجاذبات التي كانت تحدث بين الجانبين قبل مجيء السلاجقة واستقرارهم في العراق والشام.

لكن كان وقوف العباسيين في خلافة المستنجد وابنه المستضيء مع الدولة النورية ودولة صلاح الدين الأيوبي ماديًا ومعنويًا حافزًا مهمًا للقضاء على الدولة الفاطمية التي كانت قد أنهكها تصارع الوزراء وضعف الخلفاء الفاطميين، مما عجّل بإعلان الخطبة للخلافة العباسية سنة ٥٦٧هـ.

بنو مَزْيَد الأسديون

هم فرعٌ من قبيلة بني أسد الذين كانوا منتشرين بصحراء القادسية (صحراء النجف) على الساحل الأيسر لنهر دجلة، أسسها أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي في عام ٣٨٨هـ، وأقام إمارته ببلدة النيل وهي بلدة على الضفة الغربية للفرات بين بغداد والكوفة، وهى اليوم قرية عامره قرب بابل على بعد حوالي خمسة أميال من مدينه الحلة، وحصل على دعم من البويهيين المسيطرين على مقاليد الدولة العباسية في ذلك الوقت، قال ابن خلدون: «كان بنو

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٦٥.
(٢) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ٢/ ١٣٢.

مزيد هؤلاء من بني أسد وكانت محلاّتهم من بغداد إلى البصرة إلى نجد وهي معروفة. وكانت لهم النعمانية. وكان بنو دُبيس من عشائرهم في نواحي خوزستان في جزائر معروفة بهم»[1].

وقد انتقل حكم تلك الأسرة إلى مدينة الحلة والتي أنشأها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي عام ٤٩٤هـ ويعتبر المؤسس الحقيقي لتلك الإمارة فجعلها عاصمة له، واحترفوا الغارات والنهب خلال فترات الاضطراب والفتن. كما لم يتردد أمراؤها في محالفة الصليبيين فيما بعد.

فبنو مزْيد وبنو دُبيس قبيلان أسديان، أو بطنان قريبا الوشيجة، وكان لهما زعامة، وفيهما وجاهة في عهد دولة بني المسيب الذين هم أمراء بني عقيل، وبنى نمير وبني خفاجة بطون عامر بن صعصعة، وعهد ملوك بني بويه وملوك السلاجقة. ثم انتهى الأمر في هؤلاء البطون إلى أن أصبحوا ولاة الأطراف وذوي إقطاع يساهمون في الأمر والملك أثناء ضعف الدولة العباسية التي لم يكن لخلفائها شيء من الأمر سوى السلطة الاسمية.

وقد تزعم بنو مزيد العرب ومن انضاف إليهم من الأكراد بين واسط والبصرة حتى صار سلاطين بني بويه يتقربون إلى زعيم هذه الإمارة نور الدولة دبيس بن علي الأسدي (ت٤٧٤هـ) تفاديًا للاصطدام بها؛ لأنهم كانوا يمثلون الانتفاضة العربية ضد السيطرة البويهية على الخلافة العباسية بالرغم من اشتراك البويهيين والمزيديين في مذهب التشيع، وعندما سقطت سلطنة البويهيين سنة ٤٤٧هـ سعى زعماء بني مزيد إلى عرقلة التوسع السلجوقي في العراق وبلاد الجزيرة، وساعدوا القوى المعارضة لهم كالبساسيري، مما اضطر سلاطين السلاجقة إلى التقرب من هؤلاء الزعماء؛ غير أن الاختلاف المذهبي بين الطرفين، ونظرة كل منهما للخلافة العباسية قد زادت من نشوب الفتن بين آن وآخر؛ فأمراء بني مزيد كانوا ينظرون إلى الخلافة العباسية على أنها يجب أن تتحرر من السيطرة السلجوقية في الوقت الذي يرى فيه زعماء السلاجقة أن تظل هذه الخلافة ضعيفة تابعة لهم اتباعًا كليًا.

لكن هذا لم يمنع التواصل بينهما، وتحسن العلاقات في ظل وجود نظام الملك الطوسي الذي كان يستقبلهم بين الحين والآخر في أصفهان، الأمر الذي هدأ من اضطراباتهم القديمة مع البويهيين كثيرًا.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٧٦.

وبعد وفاة دبيس بن علي سنة ٤٧٤هـ قام بعده ولده منصور أبو كامل وكانت الدولة البويهية قد زالت وحل محلها السلاجقة. ودام حكم منصور خمس سنين وتوفي سنة ٤٧٩هـ فتولى بعده ولده سيف الدولة صدقة. وكانت مدة ولايته اثنتين وعشرين سنة، فخضعت له القبائل الفراتية وامتدت إمارته إلى البصرة وواسط والبطيحة والكوفة وهيت وعانة والحديثة، وسيطر على أقوى القبائل العراقية لذلك العهد مثل بني خفاجة وبني عقيل وبني عبادة وقبيلة جاوان الكردية. وقد اهتمّ بالشؤون الإدارية والعمرانية والثقافية. ورأى أفضل ما يعينه على ذلك هو العدل في الحكم. هذا عدا عما كان يلقاه العلماء والأدباء في كنفه من الرعاية فأقبلوا عليه من كل ناحية.

لكن بعد وفاة نظام الملك وظهور نزاعات البيت السلجوقي تحولت علاقة المزْيديين والسلاجقة إلى التوتر، وكثيرًا ما كانت الصراعات هي المسيطرة على المشهد بينهما؛ ففي سنة ٥٠١هـ حصلت منافرة بين الأمير صدقة والسلطان محمد السلجوقي وذلك لأن الأمير صدقة آوى بعض الفارين من السلطان، ولم يسلمهم له وأظهر له الخلاف فهاجمه السلطان السلجوقي محمد وحصلت المعركة وانتهت بمقتل الأمير صدقة وكان عمره تسعا وخمسين سنة. وقد ندم السلطان على قتله وذكر أن الأقدار غلبته على ذلك.

بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي أطلق ولده محمود دبيسا بن صدقة الذي كان في أسر أبيه وأعاده إلى الحلة سنة ٥١٢هـ فأنشأ الدولة من جديد، وقال فيه ابن خلكان: «ملك العرب صاحب الحلة المزيدية، كان جوادًا كريمًا، عنده معرفة بالأدب والشعر وتمكن في خلافة المسترشد واستولى على كثير من بلاد العراق، وهو من بيت كبير. ودبيس هو الذي ذكره الحريري صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله: والأسدي دبيس، لأنه كان معاصرًا له فرام التقرب إليه في مقاماته لجلالة قدره، وله نظم حسن ...»(١). وقد تمكنت سلطته في البلاد واجتمعت عليه القبائل العربية والكردية، وأغضبه الخليفة المسترشد فجمع جيوشه ودخل بغداد وضرب سرادقه بإزاء دار الخلافة وهدد المسترشد، فاسترضاه المسترشد فرجع إلى الحلة. وقام صراع بينه وبين السلاجقة فانتصر عليهم عند نهر بشير شرقي الفرات سنة ٥١٦هـ.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٦٣.

الموصل
الحضرة
البوازيج
دقوقا
عانة
الحديثة
سامراء
جلولاء
حربي
عكبرا
باعقوبا
براز الروز
هيت
البندجين
بغداد
كربلاء
الحلة
النجف
الكوفة
واسط
الرصافة
القادسية
البطيحة
البصرة

وامتد الصراع إلى أن اضطر دبيس للجلاء عن الحلة، ثم عاد إليها وتكرر الجلاء والعودة. إلى أن دعاه إليه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وبعد أن أكرمه عاد فغدر به وقتله سنة ٥٢٩هـ.

خلّف دبيس أبناءه الثلاثة صدقة الذي توفي قتيلا عام ٥٣٢هـ، فحكم أخوه محمد من بعده حتى عام ٥٤٠هـ عندما ثار عليه أخوه الثالث علي بن دبيس فطرده من الحلة بعد أن هزمه. ويروي ابن الأثير أن علي بن دبيس قد مات مسموما في أسد آباد عام ٥٤٥هـ، وقد كان علي بن دبيس شجاعًا مهابًا لا يخاف السلاطين أرسل إليه أحد سلاطين السلاجقة رسولًا «يتهدده فقال لرسوله: قل له: مثلي ما يُهدد لأن قصارى أمري أن يخرجني من جدران



الحلة ويبعدني عن أوساخها فأسكن في فيافي بني أسد وأقنع بخيام الشعر وتلال الرمل وثماد المياه وخشن العيش وهو وأمثاله قد تعود إيقاد الشمع ودخان الند وألوان الأطعمة ونعيم الحمامات»[١].

وفي نهاية المطاف طرد الخليفة العباسي المستنجد بالله - بواسطة قبيلة بني المنتفق - قبيلة بني أسد من الحلة بسبب تعاونهم مع السلاجقة عند حصارهم لبغداد، وذلك عام ٥٥٨هـ. وقد قتل منهم حوالي ٤ آلاف قبل نزوحهم النهائي إلى الأهوار، وتستولي المنتفق على أراضيهم[٢].

لكن من المهم أن نذكر أن العباسيين كانوا يتعاملون معهم بين شد وجذب، ففي سنة ٤٧٩هـ رجع صدقة بن مزيد من أصفهان بعد مقابلة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك وكان قريبًا من بغداد «فنزل النهروان وطلب من الديوان أن يتلقى كما كانت عادة أبيه فلم يُجَب إلى ذلك فعدل إلى بلاده»[٣].

وكثيرًا ما كان العباسيون يلجأون إليهم ليمدوهم بالرجال والسلاح أو يطلبوا منهم مساعدتهم في درء الفتن التي كانت تقوم بين العامة أو أهل المذاهب في بغداد، مثل الفتنة الكبرى سنة ٤٨٢هـ التي استعان فيها المقتدي بأميرهم صدقة بن مزيد الأسدي وقد قبل على الفور وكان سببًا رئيسًا في هدوء الأوضاع في العاصمة العباسية[٤].

وعلى كل، كانت هذه الأسرة محل إعجاب وتقدير من كل ما جاورها من القوى سواء كان العباسيون أو البويهيون أو السلاجقة، وظلت على هذا الحال حتى تم القضاء نهائيًا على قوتهم في زمن الخليفة المستنجد بالله كما رأينا.

❊ ❊ ❊

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/ ٧١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٤٦.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٨.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٤٨.



المستضيء بأمر الله

(من ربيع الثاني ٥٦٦ هـ إلى ذي القعدة ٥٧٥ هـ)

توفي الخليفة المستنجد بالله يوسف بن محمد المقتفي مخلفًا وراءه ولي عهده وابنه الأكبر أبو علي الحسن بن يوسف المستضيء، وقد كان في الثلاثين من عمره، وهي سن مناسبة لتولي مقاليد الخلافة.

وولد المستضيء بالله في بغداد في السادس من شعبان سنة ٥٣٦هـ، وكانت أمه أم ولد اسمها غَضّة أرمنية لم تُدرك خلافته، وقد كان المستضيء «أبيض اللون، أقنى الأنف، أزجّ الحاجبين، جميل الوجه. نقش خاتمه: من فكّر في المآل عمل للانتقال»[١].

المستضيء من القيد إلى التحرّر!

لقد كان من اللافت أن هذا الخليفة هو الوحيد الذي ارتقى إلى سدة الخلافة متسميًا باسم الحسن، ولعل ندرة التسمي بهذا الاسم داخل الأسرة العباسية قد يرجع للعلاقات الحساسة بينهم وبين العلويين، قال ابن الأثير عن هذا الأمر وبعض الإصلاحات الفورية التي قام بها المستضيء فور توليته إمرة المؤمنين: «ولم يتول الخلافة من اسمه الحسن إلا الحسن بن علي بن أبي طالب والمستضيء بأمر الله واتفقا في الكنية والكرم فبايعه أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه وبايعه الناس من الغد بيعة عامة وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه وفرق أموالا جليلة المقدار»[٢]. قال ابن الجوزي: «وأظهر من العدل والكرم ما لم نره من أعمارنا»[٣]

لقد كان المستضيء عادلًا حسن السيرة في الرعية، عاش حميدًا ومات سعيدًا كما يذكر المؤرخون، فمن جملة إصلاحاته قوته وبأسه على أهل الفساد وأرباب الجرائم، فقد حُكي عنه «أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين

---

(١) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٩.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٣٣.

بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنسانا آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الأموال على أصحابها أيضا. وقبض على القاضي ابن المرخم وأخذ منه مالا كثيرا فأعاده على أصحابه أيضا وكان ابن المرخم ظالما جائرا في أحكامه»(١).

لم يكن أمام المستضيء بالله من بدّ من الاستعانة بعضد الدين أبى الفرج وقطب الدين قايماز وهما الضالعان الأساسيان في مقتل الخليفة المستنجد؛ فلقد «شرطا عليه أن يكون عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين أستاذ دار وقطب الدين قايماز أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك»(٢)، وذلك قبل البيعة الخاصة والخليفة المستنجد بالله لا يزال مسجى لم يُدفن بعد في ٩ ربيع الأول سنة ٥٦٦هـ.

على أنه في العام التالي ٥٦٧هـ عزل الخليفة المستضيء بأمر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء لأن قطب الدين قايماز ألزمه بعزله فلم يمكنه مخالفته(٣)، فالقوة العسكرية التي باتت في يد قطب الدين قايماز ألزمت المستضيء بفعل ذلك!

لكن في العام ٥٧٠هـ أراد الخليفة المستضيء أن يُعيد عضد الدين إلى الوزارة ثانية(٤)، الأمر الذي دفع قطب الدين قايماز إلى حصار دار الخلافة مقر الخليفة بقواته، وأغلق أهم أبوابها باب النّوبي وباب العامة؛ فاضطر المستضيء إلى الإذعان وموافقة قطب الدين(٥)، ولا شك أن هذه الحالة من الإكراه والضعف الذي أصاب المستضيء تشبه إلى حد كبير ما رأيناه في عصر أجداده ممن انبطحوا للبويهيين والسلاجقة من بعدهم!

والعجيب أن قايماز دخل «إلى الخليفة معتذرا مما فعل من غلق الأبواب وغير ذلك وهو منزعج خائف؛ فقيل إنه لم يذكر له في ذلك شيء فخرج طيب النفس»(٦). أي أن المستضيء

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٤٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٨.

(٤) يذكر ابن الأثير وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين أن هذه الأحداث كانت سنة ٥٦٩هـ، لكن ابن الجوزي المعاصر لهذه الأحداث يؤكد أنها كانت في العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ. المنتظم ١٨/ ٢١٢ عطا.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٩٩ تدمري.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٥١.

كان مغيبًا عن المشهد برمته، ولم يكن يعلم ما يحدث داخل أسوار دار الخلافة ذاتها!!

وفي ظل هذا التراخي من الخليفة المستضيء تجاه قايماز، كان من الطبيعي أن يستأسد هذا الأخير ويفعل ما بدا له؛ فقد تواطأ في شوال من عام ٥٧٠هـ مع أخي زوجته الأمير علاء الدين تنامش الذي نهب وسرق وقتل الناس في منطقة الغراف جنوب العاصمة، حتى جاء بعض أهلها مستغيثين، وقد نهره الخليفة وطلب منه إنهاء هذه الفتنة، لكن قايماز وتنامش كانا قد تعاظمت قوتهما في الدولة، فلما يسمعا للخليفة رأيًا، وأصرّا على خلافه ومناوأته، بل و«احتقروه»(١) على حد وصف ابن الأثير!

وزادت جرأة قايماز وتسلّطه فقد أراد أن يؤذي ظهير الدين بن العطار رئيس المخزن (بيت مال الخلافة)، وكان مخلصًا للخليفة محبًا له، فلما هرب ظهير الدين أرسل قايماز في طلبه، لكن ظهير الدين لجأ إلى دار الخلافة؛ مما دفع قطب الدين إلى تجميع مماليكه وقواته للهجوم على دار الخلافة؛ فما رأى المستضيء ذلك، وعلم أنه لا قدرة له على دفع قطب الدين وعساكره، وقف في أعلى سطح دار الخلافة وظهر للعامّة وصاح فيهم قائلًا: «مالُ قطب الدين (قايماز) لكم ودمُهُ لي»(٢).

ثم «ضُربت ناحية قايماز بقوارير النفط فنقّب حائطا من داره إلى درب بهروز وخرج من البلد ضاحي نهار ومعه تنامش ابن حماه وعدد يسير من الأمراء، ودخل العوام إلى دار قايماز ودور الأمراء الذين هربوا معه فنهبوها وأخذوا أموالا زائدة عن الحد(٣)، وأحرقوا من الدور مواضع كثيرة، وبقي الخارجون من البلد في الذل والجوع، وقصدوا حِلة ابن مزيد ثم خرجوا

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤١٢ تدمرى.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٧١.

(٣) حكى ابن الأثير مشهد النهب وما وجد في دار قايماز من التحف والأموال بقوله: «نُهبت داره، وأخذ منها من الأموال ما لا يعد ولا يحصى، فرئي فيها من التنعم ما ليس لأحد مثله، فمن جملة ذلك أن بيت الطهارة الذي كان له فيه سلسلة ذهب من السقف إلى محاذي وجه القاعد على الخلا، وفي أسفلها كرة كبيرة ذهب، مخرمة، محشوة بالمسك والعنبر ليشمها إذا قعد، فتشبث بها إنسان وقطعها وأخذها، ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير. وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس، فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس قصد المطبخ فأخذ منه قدرا مملوءة طبيخا، وألقى الأكياس فيها وحملها على رأسه وخرج بها، والناس يضحكون منه، فيقول: أنا أريد شيئا أطعمه عيالي اليوم، فنجا بها معه، فاستغنى بعد ذلك، فظهر المال، ولم يبق من نعمة قطب الدين في ساعة واحدة قليل ولا كثير». ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤١٣ تدمرى.

عنها فطلبوا الشام وقد تفلل جمعهم وبقي معهم عدد يسير»[١].

وسرعان ما استغل المستضيء الموقف فاستعان بطبقة العلماء فيها ليقف على شرعية قوية في مواجهة الخارج قايماز، فأحضر الفقهاء «للاستفتاء في حق قايماز وما يجب عليه من مخالفته أمير المؤمنين فكتب الفقهاء كلهم أنه مارق»[٢].

ولما علم الخليفة أن قايماز لجأ إلى مدينة الحلة أرسل إليه شيخ شيوخ الصوفية في بغداد «فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحلة إلى الموصل على البر فلحقه ومن معه عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش، ومات قطب الدين قبل وصوله إلى الموصل»[٣].

وعقّب ابن الأثير على هذه الحادثة بقوله: «وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الإحسان والظلم وسوء التدبير فإنه ظلم أهل العراق وكفر إحسان الخليفة الذي كان قد غمره ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الأمور كلها كما كان، فإن عامة بغداد كانوا يريدونه وكان قويا بالإحسان على البلاد فأطاعوه ولما مات في ذي الحجة وصل علاء الدين تنامش إلى الموصل فأقام مديدة ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد فعاد إليها وبقي بها إلى أن مات بغير إقطاع وكان هذا آخر أمرهم»[٤].

وظلت الخلافة في حالة أمن وطمأنينة وهدوء حتى توفي الخليفة المستضيء في شهر ذي القعدة من عام ٥٧٥هـ «وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله، وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حميدا ومات سعيدا رضي الله عنه فلقد كانت أيامه كما قيل:

كأن أيامه من حسن سيرته   مواسم الحج والأعياد والجمع!

ووزراؤه عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٥٤.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٥٤.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤١٣.
(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٧٢.

وسبعين وخمسمائة ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور ابن نصر المعروف بابن العطار وكان حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكنا كثيرا فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أمير المؤمنين»(١).

قال الإربلي عن مناقبه: «كان سخيًا جوادًا حسن السيرة سليم السريرة، أظهر يوم مبايعته من ردّ المظالم والإفراج عن المحبوسين، وإسقاط الضرائب والمكوس، ورسوم البيع وسياقات الأعمال، ولم تصل إليه قُصّة يسأل فيها حاجة إلا وردّها بقضاء حاجة صاحبها، وفي أيامه عمل جسرٌ، ومُدّ على دجلة»(٢).

ونقل الذهبي عن ابن النجار البغدادي قوله في الخليفة المستضيء: «كان حليما، رحيما، شفيقا، لينا، كريما، نقلت من خط أبي طالب بن عبد السميع(٣)، قال: كان المستضيء من الأئمة الموفقين، كثير السخاء، حسن السيرة»(٤).

دانت له الممالك!

لقد حرص المستضيء على تثبيت دعائم خلافته، والمحافظة على مناطق نفوذه، ومواجهة أي قوى مناوئة بحزم، سائرًا على ذات الإستراتيجية التي سار عليها والده وجده من قبل.

ففي عام ٥٦٦هـ «بعث يزدن (أحد كبار أمرائه) مع جماعة من العسكر إلى واسط ليردوا ابن سنكا عن البلاد»(٥)، وقد كان ابن سنكا هذا ابن أخي شملة التركماني أمير خوزستان، وقد استطاعت قوات الخلافة القضاء عليه وقتله(٦).

وفي عام ٥٦٨هـ حدثت اضطرابات في منطقة سواد العراق(٧) شرقي بغداد فأرسل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٩٧، ٩٨.

(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٦.

(٣) هو عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد بْن عَبْد السميع بْن عَبْد الله أحد العدول بها، من بيت صالحين ورواة، كان حسن النقل ثقة، وحدث بالكثير وله مصنفات حسان فِي الحديث وغيره وسمع مني وسألته عَنْ مولده، فَقَالَ: فِي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وتوفي في محرم سنة إحدى وعشرين وستمائة بواسط. تاريخ بغداد وذيوله ١٥/ ٢٤٠.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٩.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٣٥.

(٦) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٢٧.

(٧) قال البكري عن سواد العراق: إنه يبدأ من «تخوم الموصل (في الشمال) مع الماء (نهر دجلة)، إلى ساحل البحر ببلاد عبّادان (الخليج العربي جنوبًا)، من شرقيّ دجلة، هذا طوله. وأمّا عرضه فحدّه من أرض حُلوان (شرقي =

الخليفة قائده العسكري المحنك يزدن لوأد هذه الاضطرابات وقد نجح في ذلك أيضًا، قال ابن الأثير: «وفيها (أي عام ٥٦٨هـ) أغار بنو حزن من خفاجة على سواد العراق؛ وسبب ذلك أن الحماية كانت لهم لسواد العراق فلما تمكن يزدن من البلاد، وتسلم الحلة، أخذها منهم وجعلها لبني كعب من خفاجة، وأغار بنو حزن على السواد فسار يزدن في عسكر ومعه الغضبان الخفاجي وهو من بني كعب لقتال بني حزن فبينما هم سائرون ليلا رمى بعض الجند الغضبان بسهم فقتله لفساده وكان في السواد فلما قتل عاد العسكر إلى بغداد وأعيدت خفارة السواد إلى بني حزن»[1]، وقد توفي هذا الأمير في هذا العام، وأقطعت واسط لأخيه علاء الدين إيتامش من بعده.

ويبدو أن بني خفاجة قد طغوا في منطقة السواد، وقد كانت الخلافة تترقب كل المناطق التابعة لها بحذر، ولذلك وفي عام ٥٧١هـ «خرج في أواخر ذي الحجة عسكر كثير إلى بني خفاجة لمحاربتهم فرحلوا فلم يدركوهم وقتل من المطاردين قوم»[2].

وفي عام ٥٦٩هـ بنى ابن سنكا وهو ابن أخي شملة التركماني أمير خوزستان قلعة شرقي بغداد قرب قلعة الماهكي الاستراتيجية، واتخذها قاعدة لعملياته العسكرية والإغارة على مدن العراق، فأرسل له الخليفة المستضيء على الفور أميره قايماز العميدي الذي استطاع أن يقتله ويهدم هذه القلعة؛ فقد اتخذها «ذريعة إلى الإغارة على البلاد ونقل إليها الميرة فبعث السلطان إليه الجيوش فالتقوا فحمل بنفسه عليهم فطحن الميمنة فتقدم قايماز العميدي إلى الأمراء فحثهم على خوض الماء وكان قد فتح البثوق يحتج بها فخاض قايماز ومعه جماعة فغرقوا ثم اقتتلوا وأُسر ابن سنكا ثم قتل وجيء برأسه فعلق بباب النوبي وهدمت القلعة ثم جاء رسول شملة ومعه حمل يبذل الطاعة ويعتذر مما جرى فلم يلتفت إليه»[3].

وقد تجلت قوة وشرعية الخلافة بتوافد الوفود عليه لمبايعته، وكان على رأسهم شمس

= إيران حاليًا)، إلى منتهى طرف القادسيّة (بالقرب من الكوفة)، المتّصل بالعذيب. وطوله مئة وعشرون فرسخا، وعرضه ثمانون فرسخا». والفرسخ يساوي ٥كم تقريبًا، فتكون مساحة سواد العراق بحسب وصف البكري ٠٠٠ ,٢٤٠كم تقريبًا. البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ١/ ٦.

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٥٠.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٦٠.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٤٤.

الدين إلدكز المناوئ الأكبر للخليفة في إيران وأذربيجان، «ففي سلخ شوال جلس أمير المؤمنين للرسل الذين جاءوا من همذان وغيرها فبايعوه»[١].

وبمناسبة سقوط الدولة الفاطمية العبيدية فقد أرسل نور الدين محمود سفيرًا هو شهاب الدين بن أبي عصرون «إلى بغداد وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام فأنشأت بشارة أولها: الحمد لله معلي الحق ومعلنه وموهي الباطل وموهنه ومنها : ولم يبق بتلك البلاد منبر إلا وقد أقيمت عليه الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين وتمهدت جوامع الجمع وتهدمت صوامع البدع... إلى أن قال: وطالما مرت عليها الحقب الخوالي وبقيت مائتين وثماني سنين ممنوة[٢] بدعوة المبطلين مملوءة بحزب الشياطين فملكنا الله تلك البلاد ومكن لنا في الأرض وأقدرنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض وتقدمنا إلى من استنبناه أن يقيم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك»[٣].

وبسقوط الدولة الفاطمية بصورة نهائية وبموت العاضد العبيدي في العام ٥٦٧هـ، أصبحت الخلافة العباسية القوة الشرعية الوحيدة في العالم التي دانت لها كل الأقاليم الإسلامية واعترفت بشرعيتها، حتى رأينا ابن تاشفين في الغرب يخاف من تسمية نفسه بأمير المؤمنين، ليتسمى بأمير المسلمين؛ ولقد اعتبرت الخلافة أن هذا الخبر من أعظم الأخبار التي يستحق نور الدين وصلاح الدين عليها أسنى مكافأة، وأرفع وسام عباسي، ولذلك فإنه «لما وصلت البشارة إلى بغداد بذلك ضربت البشائر بها عدة أيام وزينت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم المقتفوية والمقدمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية والأعلام السود»[٤].

وبناء على سقوط الدولة الفاطمية فقد «ضعف التشيع ببغداد ووهي وأمن الناس ورزق الخليفة المستضيء سعادة عظيمة في خلافته وخطب له باليمن وبرقة وتوزر ومصر إلى أسوان

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٣٥.

(٢) ممنوة: من الفعل نَوه، والمقصود: ارتفع وعلا. أي ارتفعت دولة الفاطميين بدعوة المبطلين.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٨٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٥.

ودانت الملوك بطاعته وذلك سنة سبع وستين»[١]، بل إننا نجد مهادنة ومهاداة بعض بلدان جنوب شرقي الجزيرة العربية وشرقها، ففي أواخر عام ٥٦٧هـ «وصلت رسل ملك البحرين[٢] وكيش[٣] بهدايا فيها ألواح صندل وأبنوس وطيب وناب فيل»[٤]. وقد «خُطب له باليمن، وبرقة، وتوزر، وإلى بلاد الترك، ودانت له الملوك»[٥].

وقد كان للحرمين الشريفين مكانتهما العظمى عند الخليفة العباسي، بل كانا رمزًا لقوة الخلافة وسيادتها، وحرص الخليفة على إزالة أي مظالم يفعلها ولاة الحرمين حينها، وقد كانت متكررة، أو أي معوقات تعوق مسيرة الحجيج في أداء شعائرهم، ولذلك فإننا نرى في عام ٥٧١هـ حادثًا غريبًا فعله والي مكة، وهو بناؤه قلعة فوق جبل أبي قبيس في مكة أعاقت من أداء مراسم الحج، فأمر الخليفة على الفور أمير الحج أن يعزل والي مكة ويعين بدلًا منه أخًا له[٦].

بيد أن الحرمين الشريفين كانا أيضًا تحت حماية دولة صلاح الدين الأيوبي، بدليل بعض الإصلاحات والإجراءات التي افترضها على والي مكة في عام ٥٧٤هـ، لكن يبدو أن هذه السيادة لم تكن لتصطدم مع ما تريده الخلافة التي يتظلل صلاح الدين بظلالها، ويستمد شرعيته منها[٧].

بغداد المستضيئية!

أهم ما يلفت نظر الباحث في بغداد زمن المستضيء ما يراه من اهتمام الناس وشغفهم بمجالس الوعظ، وهو شغف لا نزال نراه حتى وقتنا هذا، مع الأئمة والدعاة والعلماء المشاهير.

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٨٤.

(٢) كانت البحرين قديما تُطلق على شرق الجزيرة العربية من جنوب البصرة شمالًا إلى عُمان جنوبًا، وكانت عاصمتها مدينة هجر بالقرب من الأحساء في شرق السعودية الآن.

(٣) قال عبد المؤمن البغدادي: «قيس: جزيرة فى بحر عمان، وتسمى كيش، دورها أربعة فراسخ: مدينة مليحة للنظر ذات بساتين وعمارات جيّدة، وهى مرفأ مراكب الهند وبرّ فارس، وبها مغاص اللؤلؤ». البغدادي: مراصد الإطلاع ٣/ ١١٣٩ . وجزيرة كيش تتبع الآن إيران وتقع في الخليج العربي بمحاذاتها دولة الإمارات على الجهة الشرقية من الخليج.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٣٨.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٧٧.

(٧) ابن أبي شامة: عيون الروضتين ٢/ ٣٥، ٣٦.

لقد كان ابن الجوزي درة الوعاظ، وسيد علماء بغداد في تلك الحقبة المزدهرة من تاريخها الوارف، لقد كان مطلوبًا من مختلف أحياء بغداد كلها، في الليل أو النهار، هو ذاته يحكي قصة تبرز لنا أثر مجالس الوعظ على الناس بقوله: «سألني أهل الحربية (أحد أحياء بغداد) أن أعقد عندهم مجلسا للوعظ ليلة فوعدتهم ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الأول فانقلبت بغداد وعبر أهلها عبورا زاد على نصف شعبان زيادة كثيرة فعبرت إلى باب البصرة فدخلتها بعد المغرب فتلقاني أهلها بالشموع الكثيرة وصحبني منها خلق عظيم فلما خرجت من باب البصرة رأيت أهل الحربية قد أقبلوا بشموع لا يمكن إحصاؤها فأضيفت إلى شموع أهل باب البصرة فحزرت بألف شمعة فما رأيت البرية إلا مملوءة ضوءا وخرج أهل المحال الرجال والنساء والصبيان ينظرون وكان الزحام في البرية كالزحام في سوق الثلاثاء فدخلت الحربية وقد امتلأ الشارع واكتريت الرواشن من وقت الضحى فلو قيل إن الذين خرجوا يطلبون المجلس وسعوا في الصحراء بين باب البصرة والحربية مع المجتمعين في المجلس كانوا ثلاثمائة ألف ما أبعد القائل»[١].

وذات المشهد نراه في حوادث عام ٥٧٠هـ، فنرى محبي محيى الدين ابن الجوزي يؤجرون الدكك والكراسي بالأموال الغالية لأجل الاستماع إليه، قال رحمه الله: «تقدم إليَّ بالجلوس تحت المنظرة بباب بدر فتكلمت يوم الخميس بعد العصر خامس رجب وحضر أمير المؤمنين وأخذ الناس أماكنهم من بعد صلاة الفجر واكتريت دكاكين فكان مكان كل رجل بقيراط[٢] حتى إنه اكترى دكان لثمانية عشر بثمانية عشر قيراطا ثم جاء رجل فأعطاهم ستة قراريط حتى جلس معهم وكل الناس يقفون يوم مجلسي من باب بدر إلى باب العيد كأنه العيد ينظر بعضهم إلى بعض وينتظرون قطع المجلس»[٣].

ولقد كانت من عادات العباسيين الجميلة إقامة الحفلات العامة التي يتخللها وعظ وإنشاد وشعر وتفريق الهدايا (الخلع) على الحاضرين، منها الاحتفال بدخول شهر رجب في قصر الخلافة ببغداد، وكانت احتفالية رسمية يلتزم فيها الجميع بملبس محدد، قال ابن

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٤٣.
(٢) القيراط: نصف دانق، والدّرهم: ست دوانق، والدينار: عشر دراهم تقريبا، وهي عُملة العراق يومئذ. انظر: لسان العرب، مادة دنق، وقرط.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٥٢.

الجوزي: «فتقدم بالجلوس في اليوم الثاني فتكلمتُ وأمير المؤمنين حاضر وأُمرنا بالبكور إلى دعوة أمير المؤمنين فحضرنا بكرة السبت وحضر الوزير ابن رئيس الرؤساء وأرباب الدولة والعلماء والمتصوفة فأكلوا وأنشد ابن شبيب قصيدة يمدح فيها أمير المؤمنين وخرج قاضي القضاة وأرباب الدولة بعد الأكل وخرجت معهم وبات الباقون مع المتصوفة على سماع الإنشاد وفرق على الجماعة مال وخلع وكان هذا رسمهم في كل رجب وكانت العادة أن لا يدخل أحد الدار بطيلَسان(١) ولا طرحة(٢) احتراما لأمير المؤمنين سوى قاضي القضاة فإنه كان يجعل طرحته طيلسانا وكنت إذا تكلمت بباب بدر أصعد المنبر فإذا جلست رفعت الطرحة فوضعتها إلى جانبي فإذا فرغ المجلس أعدتها»(٣).

وكانت من جملة عادات العلماء في بغداد إقامة المناظرات التي كانت تشرف عليها مؤسسات الدولة في بعض الأوقات، وتنظيم شئون الخطابة والإرشاد في العاصمة، يقول ابن الجوزي في أحداث عام ٥٧١هـ: «استدعانا صاحب المخزن للمناظرة فحضر فقهاء بغداد ولم يتخلف إلا النادر ودل أبو الخير القزويني في مسألة زكاة الحلي واعترضت عليه ثم جرينا على العادة في الجلوس بباب بدر ليلة الجمعة فأسبوع لي وأسبوع للقزويني وكان الزحام عندي أكثر وبعث إليَّ بعض الأمراء من أقارب أمير المؤمنين فقال: والله ما أحضر أنا ولا أمير المؤمنين غير مجلسك وإنما تلمحنا مجلس غيرك يوما وبعض يوم آخر»(٤).

بل كانت هذه المناظرات تتم إلى منتصف الليل، قال ابن الجوزي: «تقدم بجلوسي في دار صاحب المخزن فجلست وحضر أمير المؤمنين وأذن للعوام في الدخول فتكلمت بعد العصر إلى المغرب وبتنا في الدار تلك الليلة مع جماعة من الفقهاء فجرت مناظرات إلى نصف الليل»(٥).

وقد استمرت الدولة العباسية على عادتها في مقاومة التشيع في العاصمة، ولم تكن المقاومة

---

(١) الطيلسان: نوع من الأوشحة يُلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، خال عن التفصيل والخياطة. وهو ما يعرف في العامية المصرية بالشال.

(٢) الطرحة: كساء يلقى على الكتف واستعمل حديثا بمعنى غطاء يطرح على الرأس والكتفين ومنه طرحة العروس. المعجم الوسيط ٢/ ٥٥٣.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٥٧.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٥٨.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٦٥.

أمنية فقط، بل كانت خليطًا من الأمني والعلمي، وكان من بعض عاداتهم أن يقود هذه الحملات بعض العلماء بتفويض من الخليفة نفسه، يتبعه صاحب المخزن أي وزير المالية، قال ابن الجوزي: «كان الرفض (التشيّع) في هذه الأيام قد كثُر فكتب صاحب المخزن إلى أمير المؤمنين إن لم تقوِّ يَديْ ابن الجوزي لم تُطق على دفع البدع.. فكتب أمير المؤمنين بتقوية يدي فأخبرت الناس بذلك على المنبر وقلت إن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قد بلغه كثرة الرفض وقد خرج توقيعه بتقوية يدي في إزالة البدع فمن سمعتموه من العوام يتنقص بالصحابة فأخبروني حتى أنقَض داره وأخلده الحبس وإن كان من الوعاظ حدرته المشان[١] فانكف الناس»[٢].

وقد كان للباطنية أبرز الأعداء الكبار للخلافة العباسية وللمشروع السني عمومًا تواجد في العاصمة بغداد، فكما قتلوا الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك الطوسي في عام ٤٨٥هـ استطاعوا أن يقتلوا وزير الخليفة المستضيء بالله في عام ٥٧٣هـ بل معه حاجب الخليفة أيضًا[٣]، وقد حاولت الدولة أن تقضي على خطر هؤلاء مع مرور الزمن.

وحرصت الخلافة على القضاء على الفتن بين المسلمين عموما وغيرهم من أهل الملل الأخرى لاسيما اليهود والنصارى الذين كانوا يتمركزون في بعض أحياء بغداد، وقد وصلت حرية العبادة في العاصمة إلى الحد الذي طالب فيه اليهود المسلمين بعدم الأذان لانزعاجهم منه، وقد أدبتهم الدولة على هذا التجرؤ[٤]!

وفي إطار الجانب الأمني ذاته كان قادة الجيوش وكبار الأمراء من الأتراك كما جرت عادة العباسيين منذ المعتصم، وقد كان ثمة تحريش واحتكاك يقع بين هؤلاء الأمراء وبين عامة أهل بغداد في بعض الأوقات، وقد كان الخليفة يتدخل بنفسه لإزالة هذه الإشكاليات، ففي عام ٥٧١هـ «في ذي الحجة يوم العيد وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبين الأتراك بسبب أخذ جمال النحر فقتل بينهم جماعة ونهب شيء كثير من الأموال ففرق الخليفة أموالا جليلة فيمن نهب ماله»[٥].

---

(١) حدرته المشان: أي أخذته السفن من بغداد إلى غيرها، والمقصود النفي من بغداد.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٥٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٨٨.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٧٥.
(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٧٨.

أما المرأة في بغداد فقد كانت لها كل الحق في حرية التعلم والحركة والبيع والشراء والتعبير عن رأيها، بل رأينا بعض زوجات الخليفة العباسي تهتم بإنشاء المنشآت المخصصة للنساء، فمن جملة هذه المنشآت إقامة الرباطات للصوفيات، وهي أماكن مخصصة توقف عليها الأوقاف والأموال الكثيرة للعابدات الزاهدات اللاتي لا يرغبن في الحياة ومتعها، بل تُعيّن الجهة الواقفة امرأة واعظة لمن يسكُنّ هذه الرباطات[١]!

ويبدو أن ظاهرة النساء الزاهدات في الدنيا، المتقللات من زينتها كانت منتشرة في بغداد آنئذ، ففي ترجمة فاطمة بنت نصر أخت أحد كبار رجال الدولة زمن الخليفة المستضيء يقول ابن الجوزي في سياق كلامه عن وفاتها ومناقبها: «حدثني أخوها صاحب المخزن أنها كانت كثيرة التعبد شديدة الخوف ما خرجت في عمرها من بيتها إلا ثلاث مرات لضرورة وما كانت تلتفت إلى زينة الدنيا»[٢].

سلاجقة الشرق وبوادر انهيار سلطنتهم

توفي القائد المحنك شمس الدين إلدكز في أذربيجان في عام ٥٧٠هـ، وظن السلطان السلجوقي الضعيف أرسلان بن طغرل أن مقاليد الأمور قد آلت إليه؛ غير أن الأمير محمد البهلوان بن شمس الدين إلدكز سارع في تملك زمام قوة ودولة والده، وبسط سيطرته على أذربيجان وشمال إيران، غير أن أرسلان بن طغرل قد انضم إليه معظم الأمراء المحيطين به وأعانوه وقدّموا له الدعم المالي والعسكري الذي كان منزوعًا منه في حياة إلدكز.

عزم أرسلان على توحيد سلطنته وتقويتها، في محاولة منه لاستعادة أمجاد البيت السلجوقي، فأشار عليه أمراؤه ومماليكه بالتوجه صوب أذربيجان والقضاء على أخيه من أمه الأمير محمد البهلوان، وكانت من جملة مغريات الأمراء لأرسلان قولهم: «إنك إذا استخلصت أذربيجان وأجلست فيها من أصحابك من تثق إليه، تعود إلى همدان وتقصد بغداد وتأخذها وصاحب الموصل قطب الدين مودود بن زنكي وهو مملوكك ومن تحت طاعته يأتي إلى خدمتك فإذا أخذت بغداد وخطب لك على منبر الخلافة يخلو لك جو الولاية من منازع، ومن عدوّ مغالب مقارع، فوافقهم على هذا الرأي ورحل حتى وصل إلى مدينة

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٧١.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٧٩.

زنجان واعتراه مرض شديد أقلقه، وعارض أزعجه، فأقام بها ينتظر البرء من مرضه، فلما رأى أن المرض قد زاد، وأن أجله قد آل إلى الازدراد[1] أمر أن يُحمل إلى همدان فرجع ورجعت العساكر وتوفي سنة سبعين وخمس مائة بعد موت شمس الدين إلدكز بشهرين»[2].

وقد نصّب محمد البهلوان طغرل الثالث بن أرسلان بن طغرل سلطانًا للسلاجقة، وعيّن نفسه أتابكًا كما كان الحال بين والده والسلطان أرسلان، لكن كان للسلطان أرسلان ولد آخر اسمه محمد واليًا على خوزستان مع أتابكه شرف الدين أميران بن شملة الذي ضايق الخلافة العباسية كثيرًا كما مرّ بنا، وحاول احتلال بعض المناطق التابعة لها، ومن ثم خرج الأمير السلجوقي محمد رافضًا مبايعة أخيه الأصغر طغرل ملكًا على السلاجقة، واتجه من خوزستان إلى أصفهان متحصنا بها، وبدأ كبار أمراء والده في دعمه والوقوف بجانبه، ما دعا محمد البهلوان إلى الإسراع صوب أصفهان للقضاء على محمد بن أرسلان، فانهزم وحاول الدخول إلى خوزستان التي بها الأمير شملة، لكنه رفض لجوء محمد بن أرسلان بها خوفًا من محمد البهلوان بن إلدكز، فرحل محمد بن أرسلان وبعض عساكره صوب العراق، ومكثوا بالقرب من واسط، غير أن واليها رفض مكوثهم بالقرب منه أكثر من ثلاثة أيام.

اتجه محمد بن أرسلان بن طغرل صوب بغداد، لعله ينال موافقة الخليفة على سلطنته وإضفاء قوة الشرعية العباسية عليه، غير أن الخلافة رفضت هذا الطلب، ولم تعره انتباهًا، ثم حاول الرجوع إلى خوزستان لكنه فشل، واتجه صوب شيراز وكان أميرها الأتابك زنكي من أمراء أبيه، لكن مع ذلك سلمه هذا الأمير لمحمد البهلوان بعدما هدده وقال له: «إنك إن لم تُنفذ الملك محمد إلى خدمة السلطان تحت الاحتياط فأنا أقصدك، فإن قاتلتني ففيه بوارُك وإن هربت من بين يديّ فلك دمارك ودمار بلادك، فقبض عليه أتابك زنكي، ونفّذه إلى السلطان طغرل، فأخذه الأتابك بهلوان وحطّه في قلعة سرجهان وكان آخر العهد به»[3].

وقد أشار ابن الجوزي إلى هذه المناوشات التي دارت بين محمد بن أرسلان والقوات العباسية في أحداث سنة ٥٧٢هـ، قال: «وفي شهر رجب قارب بغداد بعض السلجوقية ممن

(١) الازدراد: الابتلاع. والمقصد هنا اقتراب خروج الروح من الحلقوم. لسان العرب، مادة زرد ٣/ ١٩٤.
(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٦٩.
(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٧٠، ١٧١.



يروم السلطنة وأرسل رسولا ليؤذن له في المجيء فلم يُلتفت إليه فجمع جمعا ونهب مواضع فخرج إليه العسكر وجرت مناوشات في شعبان ورحل فرجع العسكر إلى بغداد ثم عاد فنهب مواضع وآذى قرى فعاد العسكر فخرج إليه وأمر عليهم شكر الخادم فأقاموا يراصدونه طول رمضان ثم رحل في شوال الى ناحية خراسان فرجع العسكر»(١).

ومن اللافت أن ابن الأثير يجعل سلطنة طغرل الثالث في المحرم من عام ٥٧٣هـ؛ فقد «خطب للسلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه المقيم عند إلدكز بهمذان وكان أبوه أرسلان قد توفي»(٢).

وقد كان طغرل الثالث طفلًا صغيرا لا حول له ولا قوة يتحكم فيه وفي مملكته محمد البهلوان بن إلدكز إلى أن توفي في عام ٥٨٢هـ، ليختلف أولاده من بعده على مملكته ثم يخرج عليهم عمهم قزل أرسلان بن إلدكز.

نور الدين محمود وحلم الوحدة

بعد وفاة قطب الدين مودود أخي نور الدين محمود، استطاع وزيره فخر الدين عبد المسيح بمساعدة زوجة قطب الدين على المبايعة لسيف الدين غازي الابن الأصغر بدلًا من الأكبر عماد الدين زنكي، الأمر الذي جعل زنكي يستنجد بعمه نور الدين، وكان ذلك عقب وفاة والده في أواخر عام ٥٦٥هـ.

لقد خاف نور الدين على ضياع مملكة أخيه قطب الدين بسبب وجود وزير سيئ التدبير، خبيث المنزلة، وهو ما دفعه لوجوب ضم مملكة أخيه وعاصمتها الموصل إلى ملكه سعيًا لتحقيق الوحدة التي ينشدها، ودعمًا لمشروعه في مقاومة الصليبيين، ورعاية لأبناء أخيه بالوجه الذي يراه هو، ومن ثم انطلق نور الدين مع تجريدة قليلة العدد في بداية عام ٥٦٦هـ، انضمت لها العديد من التجريدات المتعاطفة والمؤيدة لمحمود وعلى رأسها عساكر حصن كيفا وقائدها محمد بن قرا أرسلان بن داوود، وقد استطاع قبل الوصول إلى الموصل أن يفتح عددا من مدن شمال الشام والعراق، والتي لم تكن قد دخلت في طاعته من قبل، ففتح كلا من سنجار التي ملّكها لابن أخيه عماد الدين، وضم أيضًا الرقة وبلَد ونصيبين والخابور، قبل أن

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٨٨.

يحصر الموصل ويضمها إليه ويقر ابن أخيه سيف الدين غازي عليها، ويأخذ معه عبد المسيح ويحسن وفادته إلى الشام، بل وأقطعه بها إقطاعا يتعيش منه!

لكن ما يلفت النظر أن نور الدين محمود لم يرض أن يكون تابعًا لشمس الدين إلدكز كما كان أخوه قطب الدين من قبل، ففي وسط هذه الحادثة، وقبل وصول نور الدين إلى الموصل واستيلائه عليها، استنجد سيف الدين غازي الثاني بشمس الدين إلدكز وكان صاحب القوة الجلية آنئذ كما ذكرنا من قبل، وقد كان قطب الدين يرسل له سنويا مالاً جزيلاً كإحدى العلامات الدالة على انضوائه تحت طاعته، وبالفعل أرسل إلدكز رسالة قوية يحذر فيها نور الدين من مهاجمة الموصل؛ لأنها من بلاد السلطان السلجوقي أرسلان بن طغرل، فما كان من نور الدين إلا أن أرسل إليه رسالة شديدة اللهجة، واضحة الرؤية، تبرز نتفًا من إستراتيجيته العسكرية، بل والخلل العسكري والإداري الواقع فيه شمس الدين إلدكز، وقد جاء فيها: «أنا أصلح لأولاد أخي منك فلم تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا ولي مثل ربع بلادك بالفرنج وهم أشجع العالم فأخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم ولا يحل لي السكوت عنك فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين»(١).

وحرص صلاح الدين الأيوبي على الضغط على الصليبيين ومهاجمة مواقعهم القريبة من مصر، وبهذا تزداد نجاعة الضغط الحاصل عليهم، فهجمات كل من نور الدين في الشمال وصلاح الدين في الجنوب كانت من جملة العوامل القوية في إضعاف القوة الصليبية في فلسطين خاصة، قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة سار صلاح الدين أيضا عن مصر إلى بلاد الفرنج فأغار على أعمال عسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيرا وعاد إلى مصر وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال في البر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر وحصر أيلة برا وبحرا وفتحها في العشر الأول من

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٠.

ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر»[1].

ومما يلفت النظر أن جهاد نور الدين في بلاد الشام لم يكن يتوقف عند حدود مملكته، فلقد فهم هذا القائد المحنك ما نسميه اليوم بأهمية الأمن القومي بمفهومه الجيوسياسي العام، وتعدى نظره ورؤيته حدود دولته وإقليمه، فمن عظمة هذا القائد أنه رأى تقاعس سلاجقة الروم في الشمال عن حفظ بعض ثغورهم، فحرص على حفظها وتقويتها وضم بعض بلدانهم لمملكته، ففي عام ٥٦٨هـ «سار الملك نور الدين إلى بلاد عز الدين قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وأصلح ما وجده فيها من الخلل.ثم سار فافتتح مرعش وبهسا، وعمل في كل منهما بالحسنى»[2].

توفي رحمه الله في قلعة دمشق في عام ٥٦٩هـ عن ٥٩ عامًا مخلفًا وراءه تاريخًا عريضًا من البطولات والإنجازات لا يقل عن والده عماد الدين في شيء بل يزيد بمراحل، قال ابن الأثير عن نور الدين: «كان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه، وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها، وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل»[3]

ومن جوامع ما ذُكر عن نور الدين محمود رحمه الله قول ابن كثير رحمه الله: «ولد (نور الدين) وقت طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرهما من البلدان الكثيرة الكبيرة، وتعلم القرآن والفروسية والرمي، وكان شهما شجاعا ذا همة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة وديانة بينة، فلما قتل أبوه سنة إحدى وأربعين (وخمسمائة) وهو محاصر جعبر، صار الملك بحلب إلى ابنه نور الدين هذا، وأعطاه أخوه سيف الدين غازي الموصل، ثم تقدم، ثم افتتح دمشق في سنة تسع وأربعين فأحسن إلى أهلها وبنى لهم المدارس والمساجد والرُّبط،

---

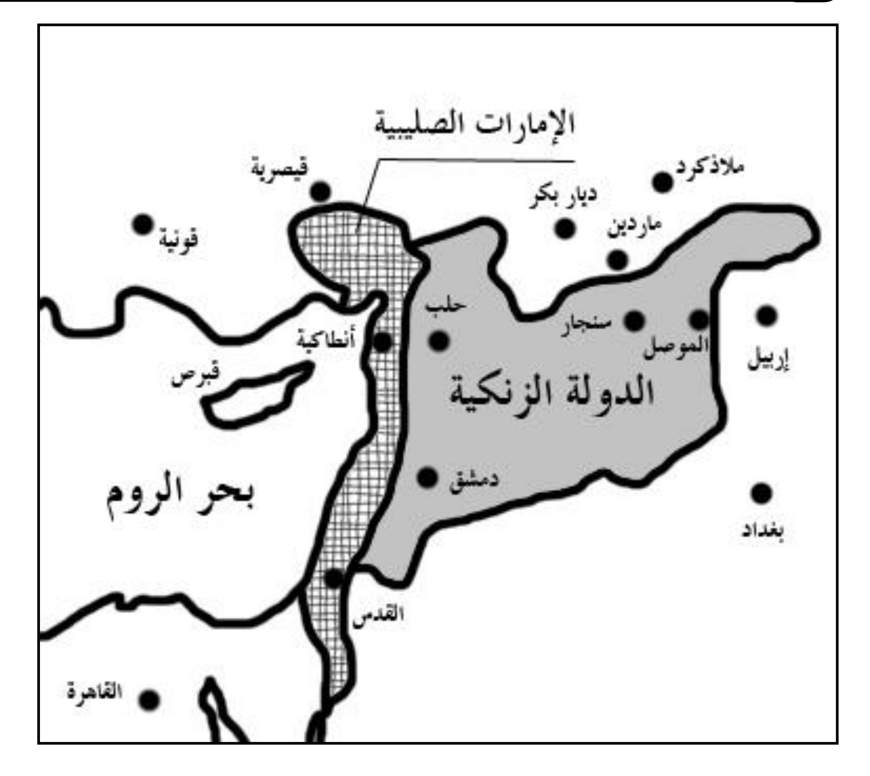
(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٣٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٥٦.

ووسّع لهم الطرق على المارة، ووسع الأسواق، ووضع المكوس وغير ذلك، وكان حنفي المذهب يحب العلماء والفقراء ويكرمهم ويحترمهم، ويحسن إليهم، وكان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة، واتباع الشرع المطهر، ويعقد مجالس العدل ويتولاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي والفقهاء والمفتون من سائر المذاهب، ويجلس في يوم الثلاثاء بالمسجد، ليصل إليه كل واحد من المسلمين وأهل الذمة، حتى يساويهم، وأحاط السور على حارة اليهود، وكان خرابا ... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل لأن شعار الرفض كان ظاهرا بها، وأقام الحدود وفتح الحصون، وكسر الفرنج مرارا عديدة، واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة التي كانوا قد استحوذوا عليها من معاقل المسلمين، وأقطع العرب إقطاعات لئلا يتعرضوا للحجيج، وبنى بدمشق مارستانا[1] لم يُبن في الشام قبله مثله ولا بعده أيضا، ووقف وقفا على من يُعلّم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة، وعلى المجاورين بالحرمين وله أوقاف دارة على جميع أبواب الخير، وعلى الأرامل والمحاويج... وقد كان رحمه الله حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعا للآثار النبوية، محافظا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة محبا لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج مقتصدا في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، ولم يسمع منه كلمة فحش قط، في غضب ولا رضا، صموتا وقورا»[2].

وقد قال ابن الجوزي فيما نقله عنه ابن كثير أن نور الدين قد «استرجع من أيدي الكفار (الصليبيين) نيفا وخمسين مدينة، وقد كان يكاتبني وأكاتبه، قال: ولما حضرته الوفاة أخذ العهد على الأمراء من بعده لولده يعني الصالح إسماعيل»[3].

(١) المارستان والبيمارستان: المستشفى.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٣، ٣٤٤.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٣.





العلاقات النورية العباسية

عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية في خلافة كل من المقتفي لأمر الله (٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ) والمستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦هـ) وجزء لا بأس به من خلافة المستضيء بالله (٥٦٦ - ٥٧٥هـ) ؛ فلقد اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك، كافة البقاع الإسلامية الأخرى، وعلى رأسها الدولة النورية في الشام.

والحق أنه سار على ذات النهج الذي اتبعه أبوه في تعامله مع الخلافة العباسية، خاصة أن علاقة والده كانت على أفضل ما يُرام مع الخليفة المقتفي لأمر الله.

لذا تنوعت العلاقات بين الطرفين من سياسية دبلوماسية إلى اقتصادية إلى عسكرية إلى دينية وثقافية.

فعلى الصعيد السياسي يلاحظ أن كلا من الطرفين، وجدت لديه دوافع لتوطيد علاقته السياسية بالآخر، إذ احتاجت الدولة النورية من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها في بلاد الشام

والجزيرة، إذ إن تأييد الخلافة لذلك بدعم حكم نور الدين يكسبه صفة المشروعية أمام رعاياه في تلك المناطق، ولذلك فقد حرص أشد الحرص على الحصول على تقاليد سيادته السياسية، ومن جهة الخلافة العباسية رأت في الدولة النورية قوة سياسية فعّالة في المنطقة، من الممكن أن تجني من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها، وحيث إنها صارعت الصليبيين، فإن تأييد الخليفة العباسي لنور الدين كان يجعله محط تقدير بالغ لرعاياه في العراق وخارجه، وعملت الدولة النورية على توطيد علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة.

وقد حرص نور الدين على اختيار السفراء الذين توافرت فيهم بعض الشروط العقلية والجسمانية، خاصة من عناصر أرباب الأقلام من الفقهاء والعلماء ومنهم من كان من أصل عراقي، لكي يدعم أكثر من غيره الصلات بين الجانبين، وقد حمل أولئك السفراء، الرسائل والهدايا لمخاطبة ود خليفة بغداد، واحتوت الرسائل على بعض المطالب أو إظهار الولاء أو التهنئة بمناسبة تولية الخليفة إلى نحو ذلك، ولدينا العديد من أسماء السفراء الذين ترددوا بين العراق والشام، وهؤلاء جميعًا مثلوا عددًا من قيادات الدولة النورية لاسيما في جهازها الإداري ومن وراء تلك الاتصالات الدبلوماسية، قام ديوان الإنشاء النوري بدور كبير في إعداد الرسائل المناسبة لكل موقف(١).

ولا نزاع أن ذلك الديوان تزايد دوره تعاظمًا من خلال خدمته للسياسة الخارجية للدولة، ووجود شخصية مثل العماد الكاتب الأصفهاني على رأسه يدل على مدى نشاطه، ومن أمثلة الاتصالات الدبلوماسية بين الجانبين أن نور الدين عندما أخضع دمشق لسيطرته عام ٥٤٩هـ محققًا بذلك أحد أكبر انتصاراته العسكرية بعث الخليفة إليه عهدًا بالسلطة وإقرارًا بسيادته عليها(٢).

ومنطقى أن الخلافة العباسية أدركت أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق، تمكنه من تحقيق أهدافها في القضاء على الفاطميين، ومعنى ذلك أن بلاد الشام نفسها كانت ميدانًا رحبًا لاختيار قدرة الدولة النورية على التغيير السياسي في المنطقة، خاصة في مصر، ولا مراء في أن

---

(١) أرسل نور الدين محمود العماد الأصفهاني الكاتب الحاذق برسالة إلى الخليفة المستنجد سنة ٥٦٦هـ يخبره فيها بآخر أخباره وما استجد له من أمور. أبو شامة: عيون الروضتين ٢/ ١٦٩.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٩٨ عطا، والصلابي: القائد المجاهد نور الدين محمود ص٢٢٣.

النجاحات النورية هناك أكدت للعباسيين أن تلك الدولة الفتية، بإمكانها أن تحقق طموحات خلفاء بغداد في تقويض حكم زعماء القاهرة.

ومن بعد ذلك استمرت العلاقات السياسية قوية بين الجانبين، وانتهز نور الدين فرصة انتصاره على الصليبيين في عام ٥٥٢هـ، فأرسل إلى بغداد تحفًا وهدايا ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم، إشارة إلى تأديته لدوره الجهادي ضد أعداء المسلمين لكسب دعم العباسيين، وفي أعقاب الظفر على أعدائه في حارم عام ٥٥٩هـ، أرسل إلى الخليفة أخبار انتصاره، وتكرر ذات الأمر عند سقوط الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ[١].

وقد عكس الإنجاز الأخير مدى نجاح التحالف النوري - العباسي في تحقيق الإنجازات الكبرى ضد أعداء العباسيين. وقد استفاد العباسيون من نور الدين محمود، عندما سعوا إلى إعلام دولته بأخبار تولية الخلفاء الجدد، من أجل الحصول على مبايعته لهم، فعندما تولى المستضيء أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ويطلب مبايعته[٢].

ولعل إرسال الخليفة المستضيء خلعة عباسية لنور الدين في جمادى الأولى سنة ٥٦٦هـ أثناء حصاره للموصل دليل على متانة العلاقات بين الجانبين، خاصة أن نور الدين كان قد أغلظ القول لشمس الدين إلدكز العدو الأكبر للعباسيين يومئذ، وكان سبب ذلك لأن «سيف الدين غازي[٣] وفخر الدين[٤] قد سيّرا عز الدين مسعود بن قطب الدين[٥] إلى أتابك

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ١٩٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٦٠.

(٣) سيف الدين غازي الثاني ابن قطب الدين مودود حاكم الموصل بعد وفاة والده سنة ٥٦٥هـ، وظل أميرًا على الموصل والجزيرة حتى وفاته سنة ٥٧٦هـ. الزركلي: الأعلام ٥/ ١١٣.

(٤) فخر الدين عبد المسيح الخصي: أحد مماليك الأمير قطب الدين مودود أمير الموصل والقائم بأمر دولته، كان نور الدين يخشى منه على دولة الزنكيين في الموصل لسياسته الخشنة، وظُلمه، وبعد دخول نور الدين الموصل سنة ٥٦٦هـ أخذه معه إلى الشام، ثم أرسله إلى ذي النون بن الدانشمند صاحب سيواس في وسط بلاد الروم (محافظة الآن في وسط تركيا). لم أقف على تاريخ وفاته، غير أنه رجع إلى سيف الدين غازي مرة أخرى بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ، لكنه لم يعد لسابق عهده إذ أمسى أميرا عاديًا من جملة الأمراء. ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٩٧ تدمري، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٨.

(٥) عز الدين مسعود بن مودود أخو سيف الدين غازي الثاني، كان صاحب سنجار، ومقدّم جيش زنكيي الموصل، تولى حكم الموصل والجزيرة بعد وفاة أخيه سنة ٥٧٦هـ، وحلب بعد وفاة ابن عمه الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود سنة ٥٧٧هـ، لكن استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يأخذ منه حلب وسِنجار بعد أن نما إلى علمه أن عز الدين يتعاون مع الصليبيين ضده، ثم سرعان ما تم الصلح بينهما، وظل أميرًا على الموصل حتى وفاته سنة ٥٨٩هـ. الزركلي: الأعلام ٧/ ٢٢٠، ٢٢١.

شمس الدين إيلدكز، صاحب همذان وبلد الجبل، وأذربيجان، وأصفهان، والري وتلك الأعمال يستنجده على عمه نور الدين، فأرسل إلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن التعرض إلى الموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان، فلا تقصدها، فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخي منك، فلم تدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة، وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا، ولي مثل ربع بلادك، بالفرنج، وهم أشجع العالم، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم، ولا يحل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين»(1).

وحرص نور الدين على الحصول على تقليد توليه على أملاك مصر والشام وبلاد الجزيرة بل وبلاد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم وإربل والموصل وتم له ما أراد(2)، فالوضع السابق دل على علاقة الدولة النورية الوثيقة بالعباسيين، وقد أرسل نور الدين للخليفة المستضيء في رجب سنة ٥٦٩هـ « تحفًا كثيرة وفيها ثياب من ثياب المصريين وحمار كأن جلده الثوب العتابي»(3).

وقد أثبتت هذه العلاقات القوية بين الجانبين بعض النقوش، إذ وردت على جدران الآثار التي شيدت في عهد الدولة النورية، بعض التعبيرات الدالة على قوة الصلات بين الحليفين، إذ وصف نور الدين في نقش يرجع إلى شوال ٥٤٣هـ فبراير في المدرسة الحلاوية بحلب بأنه «رضى الخلافة» وكذلك وصف بأنه «خليل أمير المؤمنين» من نقش يرجع إلى عام ٥٥٩هـ - ٥٦٠هـ على باب شرق من أبواب مدينة دمشق، ووجّه تعبير «نصير أمير المؤمنين» في نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام ٥٦١هـ وكذلك تعبير «ناصر أمير المؤمنين» في نقش على قلعة حلب(4).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٥٩، ٣٦٠. تدمري.

(٢) توغّل نور الدين محمود في أراضي دولة سلاجقة الروم في ذي القعدة سنة ٥٦٨هـ وبعد استيلائه على عدة مدن كبرى فيها «جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن الشهرزوري من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وبإربل وخلاط الشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر». ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٨٤. تدمري.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٢٠٤ عطا.

(٤) محمد مؤنس: فن الصراع الإسلامي الصليبي ص٦٥.

واللافت أن ذلك التحالف بين القوتين كان أمرًا ضروريًا، ولم يحدث عشوائيًا بل إن بغداد وجدت في سلطان حلب أكبر قوة سياسية مجاورة لها يمكن أن تحقق أهدافها، خاصة مع عدم تواجد تطلعات مشرقية له، وأفادت الدولة النورية من ذلك التحالف كما أفاد العباسيون واستمر التحالف بين الجانبين على امتداد نحو الثلاثين عامًا مع تعدد الخلفاء العباسيين وذلك لا يخلو من دلالة مهمة، وهي أنه كان حيويًا لهم وأن نورالدين لم يجد منهم ما يجعله ينقض ذلك التحالف بل عمل على دعمه طالما أن الخلافة ساعدته على توسعاته الخارجية، وأنه صار رجل الدولة العباسية في المنطقة[1].

أما على المستوى العسكري فلقد أفاد نور الدين محمود من نفوذ العباسيين للضغط على أمراء المشرق الإسلامي لمعاونته ضد أعدائه الصليبيين، فمعلوم أن الجيش النوري اعتمد أساسًا على الدعم الحربي المقدم من أمراء المشرق، لاسيما في العراق ويلاحظ أن الثقل السياسي للخلافة أجبر أولئك الأمراء على المبادرة بتقديم عونهم الحربي، كما أن نور الدين نفسه اتجه إلى مراسلة الفقهاء والمتصوفة في تلك الأقاليم من أجل الدعاية السياسية وتوضيح حاجته إلى العون الحربي من أولئك الأمراء على نحو مثل « ضغط شعبي» عليهم، ونجد في كافة المعارك الحربية الكبرى التي خاض غمارها الجيش النوري، أشارت المصادر إلى مقدم قوات المشرق وعلى رأسها الأمراء حكام: أربيل، وسنجار، ومنبج وغيرهم، فالدور العباسي في استقدام جيوش المشرق وحث أمرائه على دعم نور الدين - لا يستهان به.

وعلى الجانب الاقتصادي فقد ارتبط الجانبان بعلاقات طيبة، فمعلوم أن العالم الإسلامي توقف ازدهاره على مدى سيطرته على محاور التجارة العالمية وكذا منافذها، إذ شكلت التجارة معظم دخل العالم الإسلامي، ومن الثابت أن معابر التجارة العالمية بين الشرق والغرب وقعت في مناطق خاضعة لسيادة العباسيين، إذا قدمت التجارة من الشرق الأقصى وتدفقت سلعها عبر الخليج العربي إلى شمال العراق ومنه إلى شمال الشام ثم الإمبراطورية البيزنطية وأوروبا.

كذلك ارتبط شمال الشام بشمال العراق بطرق تجارية، عديدة لاسيما بين حلب والموصل، وعملت الدولة النورية على انتعاش حركة التجارة بين العراق والشام، من خلال إزالة جانب من المكوس على التجار المسافرين بين الإقليمين لتشجيعهم على المتاجرة، فقد

(١) الصلابي: عصر الدولة الزنكية ص٤٣٣.

اهتمت الدولة النورية، بإنعاش التجارة مع مناطق العباسيين والإفادة من ثراء التجار العراقيين، وتشجيعهم على المتاجرة مع الأسواق الشامية، ولاشك أنها جنت من وراء ذلك مكوسًا وفيرة.

ومن جهة أخرى، اتجهت الدولة النورية في بعض الأحيان إلى طلب المساعدة المالية من الخلافة العباسية للإنفاق على مرافق البلاد، ونجد مثالًا دالًا على ذلك، عندما وقعت أحداث زلزال عام ٥٦٥هـ، والذي اجتاح بلاد الشام، خاصة مدن حلب، وبعلبك، وحمص وحماه، وشيزر، وبعرين، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وتأثرت به مدينة حلب أكثر من غيرها بمظاهر الخراب والدمار، وعلى الرغم من أن نور الدين أخرج من الأموال ما لايقدر بقدر(١)، من أجل ترميم ما تهدم، إلا أن ذلك لم يكف فاتجه إلى طلب عون الخلافة، ففي نص أورده ابن الفرات شرح نور الدين للخليفة المستنجد بالله ما حل بمناطق دولته من دمار بالغ على نحو أثر على دفاعاتها في مواجهة الصليبيين، واستصراخه أن يقدم له العون المالي اللازم(٢).

ولا ريب في أن الخلافة العباسية كانت تحرص على دعم الدولة النورية ماليًا، لتواجه أعداءها من الصليبيين، ولذلك فإنها بادرت بتقديم مساعدتها، والمرجح أن ذلك تم بسرعة واضحة لتدارك خطر تهدم أسوار وقلاع مدن الدولة النورية، خوفًا من هجوم صليبي مفاجئ عليها اغتنامًا للموقف. ومن جهة أخرى قدمت الدولة النورية للخلافة العباسية الأموال اللازمة التي كانت بدورها تطلبها، كدليل على الولاء، ونجد أنها عندما أقدمت في بعض الأحيان على إنقاص المكوس المفروضة على النشاط التجاري، راسل نورالدين محمود الخليفة ليوضح له الأمر، وليطلب منه تقليل ما كان يحصل عليه من قبل(٣).

وعلى الجانب الثقافي والعقدي؛ فقد كان الهدف المشترك الكبير بين نور الدين والدولة العباسية إعادة نشر المذهب السني في بلاد الشام ومصر والوقوف أمام المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي كانت تتبناه الدولة الفاطمية في مصر، وكذلك الوقوف أمام المذهب الشيعي الإمامي، وكانت نظرة نور الدين محمود الاستراتيجية تعتبر وحدة العقيدة ركنًا أساسيًا في

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين ٢/ ١٥٤، ١٥٥.

(٢) الصلابي: القائد المجاهد نور الدين محمود ص٢٢٧.

(٣) الصلابي: عصر الدولة الزنكية ص٤٣٥؛ نقلًا عن محمد مؤنس: فن الصراع الإسلامي الصليبي ص٧٢.

وحدة المسلمين السياسية ولتحقيق وحدة العقيدة في بلاده سلك طريق العلم والإقناع بالمنطق وإقامة الحجة والبرهان، فأنشأ المدارس التي تدرس الشريعة على حسب مذاهب السنة مركزًا على المذهبين الشافعي والحنفي، واستقدم أشهر العلماء والفقهاء للتدريس فيها(١) ولتتولى الحوار مع علماء الشيعة على أساس الكتاب والسنة الشريفة.

على أنه لم يتردد في اتباع طريق الحزم لوقف التجاوزات والمخالفات التي دأب الشيعة الرافضة على ارتكابها بحق بعض الصحابة، فأمر بمنع شتم أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وكان ذلك شائعًا في مجتمع الشيعة الرافضة في حلب، كما أمر بوقف الأذان حسب الصيغة التي استحدثها الشيعة؛ فقد أضافوا فقرة: حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر(٢)، وإعادته حسب الصيغة الصحيحة التي عرفت في زمن الرسول ﷺ، وعندما حاول زعماء الشيعة في حلب عدم الامتثال لأوامر نور الدين عاقبهم ونفى بعضهم خارج حلب(٣).

وتحوّل مجتمع حلب مع مرور السنين إلى مجتمع سني بالكامل، وكذلك باقي مدن بلاد الشام وإنما كان التركيز على مدينة حلب لأنها كانت مركزًا للشيعة الرافضة في بلاد الشام أما في مصر فقد بدأت عملية التغيير من خلال الدولة النورية - مباشرة بعد الاستيلاء عليها وكانت توجيهات نور الدين في هذا المجال واضحة لصلاح الدين لتغيير نظام القضاء من المذهب الإسماعيلي الشيعي الرافضي إلى المذهب السني وإنشاء المدارس السنية، وكان التغيير تدريجيًا حتى بداية عام ٥٦٧هـ عندما أعلنت نهاية الدولة الفاطمية وأقيمت الدعوة للخلافة العباسية، فصار التغيير سريعًا وشاملًا، فكانت المصالح المشتركة بين نور الدين والخلافة

---

(١) قال ابن العديم: «شرع نور الدين في تجديد المدارس والرباطات بحلب، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها، فجدد المدرسة المعروفة بالحلاويين، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، واستدعى برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي الخفي وولاه تدريسها، فغير الأذان بحلب، ومنع المؤذنين من قولهم: حي على خير العمل وجلس تحت المنارة ومعه الفقهاء، وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه. فأذنوا الأذان المشروع، واستمر الأمر من ذلك اليوم. وجدد المدرسة العصرونية على مذهب الشافعي، وولاها شرف الدين بن أبي عصرون، ومدرسة النفري، وولاها القطب النيسابوري، ومسجد الغضائري وقف عليه وقفًا، وولاه الشيخ شعيب، وصار يعرف به». ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص٣٣١، ٣٣٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ص٣٣٢.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٤٦٨، والصلابي: عصر الدولة الزنكية ص٤٣٥، ٤٣٦.

العباسية قربت بينهما وأثمرت علاقتهما الطيبة بما عاد عليهما بالفائدة العظيمة[١].

ويتصل بالصلات المذهبية الاهتمام المشترك من جانب الخلافة العباسية والدولة النورية بالحج، والإعداد لموكبه وتأمين خطوط سيره، وقد كان هناك موكب الحجاج الشاميين وآخر للعراقيين اتخذ كل طريقه الخاص إلى الأماكن الإسلامية المقدسة، وحرص نور الدين محمود على أن يظهر أمام خلفاء بغداد بمظهر الراعي لتلك الأماكن، إذ عمل على تأمين طريق الحجاج الشاميين عن طريق تقديم الإقطاعات للقبائل العربية التي سكنت نواحي الأردن وشمال الجزيرة حتى لا تتعرض للحجاج وساهم في تعمير المسجد النبوي وعمل خندقًا حول الحجرة النبوية مملوءًا بالرصاص عام ٥٥٧هـ وكان هذا الاتجاه هدفًا مشتركًا بين الخلافة العباسية والدولة النورية وقال عنه ابن الجوزي: وكان سيرته أصلح من كثير من الولاة، والطرق في أيامه آمنة والمحامد له كثيرة وكان يتدين بطاعة الخلافة[٢].

صلاح الدين يواصل الطريق!

لقد عزم صلاح الدين على إكمال ما بدأه سلفه نور الدين محمود، فكان توحيد مصر والشام تحت رايته الحلم الذي راوده طويلًا، وكان الدافع له أن نور الدين قد ترك صبيًا صغيرًا اختلف الأمراء حوله، وبدأوا في تفتيت ما وحّده نور الدين، لكن تأخّر صلاح الدين عن إتمام هذه المهمة كان بسبب هجوم الصليبيين القادمين من صقلية على الإسكندرية بعدما راسلهم بعض المناوئين له وعلى رأسهم الشاعر عمارة اليمني الذي تم قتله والمجموعة التي معه في أواخر عام ٥٦٩هـ بعدما اكتُشف أمرهم، وقد استطاع أن يرد الصليبيين ويدحرهم، بل بدأت مناوئة كنز الدولة أحد أمراء النوبة وجنوب الصعيد فقتل أحد أمراء صلاح الدين وأعلن العصيان عليه «فجرّد إليه صلاح الدين طائفة من الجيش وأمّر عليهم أخاه الملك العادل أبا بكر الكردي، فلما التقيا هزمه أبو بكر وأسر أهله وقتله»[٣].

ثم عزم صلاح الدين على الاتجاه صوب الشام ففتح كلاً من دمشق وحمص وحماة في عام ٥٧٠هـ وكان شعاره حفظ مملكة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، وحاصر

---

(١) الصلابي: القائد المجاهد نور الدين محمود ص٢٢٨.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٢١٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٤.



صلاح الدين حلب التي كان الصالح إسماعيل بها، لكنه فشل في فتحها[1].

وقد راسل إسماعيل ابن عمه سيف الدين غازي في الموصل يحفزه على نصرته، وبالفعل أرسل سيف الدين أخوه عز الدين مسعود في جيش كثيف فالتقى بهم صلاح الدين بالقرب من حماة «فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي وانهزموا لا يلوي أخ على أخيه، وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه، فلما رأى صلاح الدين ثباته قال: إما أن هذا أشجع الناس أو أنه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم وغنموا منهم غنائم كثيرة ... وعاد المنهزمون إلى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصرا لها ومقاتلا وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده ودام محاصرا لهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها، فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة ووصلت إليه بها خلع الخليفة مع رسوله»[2].

ورغم ذلك، فقد ارتأى صلاح الدين أن يسلك سبيلا آخر مع الحلبيين، فكتب لأهلها كتابًا أنشأه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي (ت٥٩٦هـ) ليزيل عن أهلها الدعاية السيئة التي نشرها كبار الأمراء بينهم، وقد جاء فيها: «فإذا قضى التسليم حق اللقا، فاستدعى الإخلاص جهد الدعا، فليعد وليعد حوادث ما كان حديثا يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيرا فأكثر منه ما قد جرى، ويشرح صدر منها لعله يشرح منها صدرا، وليوضح الأحوال المستبشرة فإن الله لا يعبد سرا ... كان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتح الفتوح بمباشرتنا أنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين بعساكرنا، ونحن ووالدنا وعمنا، فأي مدينة فتحت أو أي معقل للعدو أو عسكر أو مصاف للإسلام معه ضرب ولم نكن فيه فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدونا أن يصطلي الجمرة ونملك الكرة، ونقدم الجماعة ونرتب المقاتلة، وندبر التعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها»[3]. ثم ذكر ما صنعوا بمصر من كسر الكفر وإزالة المنكر وقمع الفرنج وهدم

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٩٠ - ٩٢، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٧٠.

(٣) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٢١، ٢٢.

البدع، وما بسط من العدل ونشر من الفضل، وما أقامه من الخطب العباسية ببلاد مصر واليمن والنوبة وإفريقية وغير ذلك، بكلام بسيط حسن.

لكن سيف الدين غازي أصر على مواجهة صلاح الدين في العام التالي ٥٧١هـ، غير أنه ما لبث أن انهزم في مواجهة صلاح الدين في أرض المعركة وفر هو وجيشه تاركًا غنائم كثيرة لهم، ثم فتح صلاح الدين قلعة بزاعة[١] ومنبج[٢] وإعزاز[٣]، وفي حصاره لإعزاز تعرض لهجوم من بعض الباطنية وكادوا أن يقتلوه، ثم اتجه صوب حلب للمرة الثانية وقد حاصرها وطال حصاره لها؛ نظرًا لقوة مقاومة الحلبيين لها، ثم اتفق الجانبان على الصلح فتم الإقرار على جعل حلب كما هي للصالح إسماعيل وسيف الدين غازي، وإرجاع قلعة إعزاز للصالح[٤].

ومما يلفت نظرنا أن وجهة صلاح الدين لم تكن صوب الشام وفقط، بل وسّع من حدود ملكه صوب الغرب حتى دانت له طرابلس الغرب في ليبيا، وكان قائد فتح هذه المناطق القائد الشهير بهاء الدين قراقوش الذي أشرف على بناء قلعة الجبل الشهيرة في القاهرة[٥].

وفي حدود عام ٥٧٢هـ استطاع صلاح الدين أن يوسع من ملكه في بلاد الشام، ويقلص من نفوذ سيف الدين غازي في الموصل، ويحصر الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في حلب، لينيب أخاه تورانشاه عنه في دمشق قاعدة ملكه في الشام، وتبدأ أولى مواجهات صلاح الدين الجدية أمام الصليبيين الذين سرعان ما طلبوا الهدنة معه في هذا العام، كما طالب الباطنية الهدنة كذلك والتصالح معه بعدما حاصرهم في أحد مراكزهم الحصينة بالقرب من حماة[٦].

وفي عام ٥٧٣هـ حاول صلاح الدين فتح غزة وعسقلان وأخذها من أيدي الحاميات الصليبية فدخلهما ولم ير فيها أي أحد، ثم لما رأى انعدام وجود الصليبيين حاول التوغل في فلسطين متجها صوب الرملة، لكن الصليبيين كانوا قد أعدوا كمينًا له وحاصروه بالقرب من

---

(١) مدينة بزاعة تبعد عن مدينة حلب بحدود ٣٥ كم، وهي مدينة سورية الآن.
(٢) منبج: مدينة سورية تقع في الشمال الشرقي لمدينة حلب، وتبعد عنها نحو ٨٠ كم، وتقوم على أرض فسيحة ترتفع نحو ٣٩٨ مترًا سطح البحر.
(٣) تقع إعزاز شمال غربي حلب على مسافة ٤٨كم، والعَزّاز في اللغة: الأرض الصلبة.
(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٧٧.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٦٠.
(٦) ابن أبي شامة: الروضتين ٢/ ٣٠.

الرملة وحاربوه وقتلوا وأسروا من جنده الكثير، وقد نجا من هذا الكمين وبعض جنده بأعجوبة، قال الأصفهاني: «فاعترضه نهر عليه تل الصافية(١) فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافية فما شعروا إلا بالفرنج طالبة بأطلابها حازبة بأحزابها ذابة بذئابها عاوية بكلابها... لكن الناس لما عرفوا الوقعة تفرقوا وراء أثقالهم ثم نجوا برجالهم دون رحالهم وضربوا بجملتهم حملتهم على السلطان وثبت ووقف على تقدمه من تخلف. وسمعته يوما يصف تلك النوبة ويشكر من جماعته الصحبة ويمدح منهم في عصبتهم العصبة»(٢).

وفي العام التالي ٥٧٤هـ تجرأ الصليبيون على غزو الشام، فحاولوا الاستيلاء على حماة، لكنهم هزموا شر هزيمة رغم كثرتهم العددية والقتالية، ثم حاولوا الاستيلاء على دمشق وأسروا وقتلوا ونهبوا منها الكثير، إلا أن عساكر صلاح الدين بقيادة ابن أخيه استطاعت أن تلحقهم بهزيمة فادحة، ويبدو أن خطة الصليبيين في هذه السنة قد تمثلت في الاجتياح الكامل لكل ما تصل إليه أيديهم في شمال الشام وجنوبه؛ فقد «أغار البرنس صاحب أنطاكية واللاذقية على جشير(٣) المسلمين بشيزر وأخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فأجحف بأموالهم وكان صلاح الدين على بانياس فسيَّر ولد أخيه تقي الدين عمر إلى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو»(٤).

وقد استقر صلاح الدين في مدينة بانياس منذ هذا العام لإزالة كل الاضطرابات المحيطة به من خصومه الصليبيين الذين أغاروا على المناطق القريبة منهم في الاجتياح الكبير لهم هذا العام، ثم بدأ في القضاء على أهم معاقلهم في هذه المنطقة وهو حصن مخاضة الأحزان، غير أنه اضطر لقتال الصليبيين الذين باغتوا جنده في بداية عام ٥٧٥هـ بالقرب من طبرية، لكنه استطاع أن يقتل فيهم «مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأُسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخاه صاحب

---

(١) حصن من أعمال فلسطين. البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ٢٧١.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي ٣/ ٣٨، ٤٠.

(٣) الجشير: هي الجوالق أو الغرارات أو الأجولة المملوءة بالحبوب.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٩٣.

جبيل[1] وصاحب طبرية ومقدم الداوية[2] ومقدم الاسبتارية[3] وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم»[4]، وعاد صلاح الدين ليسقط حصن مخاضة الأحزان وقد نجح في ذلك بعد مشقة بالغة.

وما يلفت النظر في سقوط هذا الحصن أن مراسلات صلاح الدين للخليفة في بغداد كانت تتم بصورة مستمرة يوقفه فيها على آخر ما تم التوصل إليه في مقاومة الصليبيين، وهذا ما يشير إليه أكثر من مؤرخ، فبعد فتح هذا الحصن الحصين، نجد رسالة صلاح الدين تصل إلى الخليفة العباسي المستضيء يبشره فيها، ويفصّل له هذا الفتح وقد كان مما جاء فيها وصف سور هذا الحصن: «هذا وقد عُرّض الحائط إلى أن زاد على عشرة أذرع، وقطعت له عظام الحجارة، كلّ فصّ منها من سبعة أذرع إلى ما فوقها وما دونها، وعدّتها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها أنوف الجبال الشمّ، وقد جعلت سقيّته بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجة بمثل جسمه وصاحبَه بأوثق وأصلب من جرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه»[5].

ثم اضطر صلاح الدين لمحاربة سلاجقة الروم وملكهم قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان في الشمال في ذات العام؛ لأنهم حاولوا استعادة حصن رَعْبان[6]، وكان نور الدين قد

---

(١) مدينة لبنانية مركز قضاء جبيل في محافظة جبل لبنان. تقع على بعد ٣٧ كيلومترًا إلى الشمال من بيروت. راجع: البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ٣١٤.

(٢) الداوية: هيئة عسكرية دينية كانت تابعة لفرسان المسيح الفقراء، الذين كانوا يعرفون في العصور الوسطى أيضًا بفرسان هيكل سليمان، نسبة إلى مقرهم ببيت المقدس، تألفت خلال الحروب الصليبية، وكانت النواة الأولى للهيئة فرقة تألفت من تسعة فرسان برياسة هيو دي باين، لحماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة المسيحية. وازداد عددهم تدريجيا، وكان لهم نشاطهم الملحوظ في الحروب الصليبية. انظر: محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص٩٥.

(٣) فرسان المستشفى HOSPITALLERS، أو فرسان القديس يوحنا: فرقة عسكرية صليبية أو جماعة دينية صليبية محاربة ساهمت بشكل بارز في الحروب الصليبية، أقامت بجزيرة رودس، ثم احتلت طرابلس في ليبيا. انظر: محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص٩٦، ٩٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٩٥.

(٥) ابن أبي شامة: عيون الروضتين ٢/ ٦٤.

(٦) مدينة بين حلب وسميساط قرب نهر الفرات معدودة في العواصم، ياقوت: معجم البلدان ٣/ ٥١.

أخذه منهم ثم آل إلى ولاية صلاح الدين، وقد أرسل إليهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه، فغلبهم وردهم وسلمت الحدود الشمالية لمملكة صلاح الدين من محاولات سلاجقة الروم اليائسة[1].

***

(١) ابن أبي شامة: عيون الروضتين ٢/ ٦٠، ٦١.



الناصر لدين الله

(من ذي القعدة ٥٧٥هـ إلى آخر رمضان ٦٢٢هـ)

قال ابن النجار البغدادي عن الخليفة الناصر: «خُطِب له بالأندلس والصين وكان أسد بني العباس»[١].

أسد بني العباس، الناصر الداهية، هذا أقل ما يُقال عن الناصر وعصره، خليفة مكث في الحكم سبعة وأربعين سنة تقريبًا، سار فيها على استراتيجية سياسية واقتصادية وعسكرية لافتة تستوجب الدراسة والفحص لمن أراد الأسوة وإن شابها القصور والتجاوز؛ فهي تجربة بشرية في نهاية المطاف.

تنشئته وتربيته

ولد أبو العباس الناصر لدين الله أحمد بن الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله في بغداد في ولاية جده الأكبر المقتفي لأمر الله محمد في العاشر من رجب سنة ٥٥٣هـ[٢]، وقد خلط بعض المؤرخين في ترجمته بينه وبين ابنه الظاهر محمد المولود عام ٥٧١هـ[٣].

كان الناصر «أبيض مُترّك الوجه، مليح العينين صغيرهما. نقش خاتمه: رجائي من الله عفوه»[٤].

نشأ الناصر كدأب أولاد الأمراء العباسيين في تنعم ونفوذ وسلطة قوية كان جده المقتفي قد أرسى دعائمها وتجلت في خلافة جده المستنجد ووالده المستضيء، وقد طلب العلم صغيرا وأجاز له بعض أكابر علماء عصره منهم أبو الحسين عبد الحق اليوسفي وأبو الحسن علي بن عساكر البطايحي والشيخة شهدة البغدادية وغيرهم[٥].

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٢٦، نقلا عن ابن النجار البغدادي.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ٦/ ١٩٢، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣١٨.
(٣) منهم الذهبي في تاريخ الإسلام وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب.
(٤) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٧.
(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٣٨٧.



روى الناصر الحديث عن النبي ﷺ بالإجازة عن شيوخ أجازوا له، وصنّف في ذلك كتابًا سمّاه «روح العارفين»، وقد أجاز لجماعة من أهل العلم وأصحاب الحديث، وكان كتابه الآنف يُدرّس بجوامع بغداد وغيرها من البلدان الإسلامية الأخرى، وهذا مما تفرّدت به الدولة الإسلامية بين الدول(١)!

بويع له بولاية العهد ثم استُخلف في السنة التي توفي فيها أبوه المستضيء عام ٥٧٥هـ وهو شاب في الثالثة والعشرين من عمره لتستمر خلافته مدة ٤٧ عامًا متصلة ليعتبر بذلك أطول خلفاء بني العباس مكوثًا في الحكم.

ويحكي لنا الإربلي مراسم التنصيب بقوله: «بويع بالخلافة في صبيحة يوم الأحد غرّة ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، فأوّل من بايعه أخوه أبو منصور هاشم ثم الأمراء من بني الأعمام وخواصّه ومماليكه، ثم القضاة والولاة والفقهاء، وكان المتولي لأخذ البيعة على الناس أستاذ داره أبو الفضل هبة الله بن الصاحب وصندل المقتفوي»(٢).

ثم جلس الناصر بعد ثلاثة أيام للبيعة العامة كما جرت العادة ولتلقي التهاني من وفود الأقاليم ومن وجوه أعيان الناس فيها، وكان من بينهم ضياء الدين الشهرزوري الذي جاء برسالة التهنئة من السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكانت وفود بلاد الشام ومصر والثغور قد حضرت ومعها شعراؤها للتهنئة والبيعة، فكانت مناسبة أظهرت فيها مؤسسة الخلافة العباسية في بغداد مظاهر الأبهة والابتهاج والبُشرى بالعاهل الجديد، كما شارك الناس في هذه الاحتفالات وتمنوا أن تكون أيام الناصر أيام خصب ورفاهية بعدما عانوه من سني البؤس واليأس(٣).

ولقد شهدت مدة خلافته الطويلة هذه سياسة داخلية تميل إلى الحسم وفرض السيطرة والأمن مع الإصلاح والجنوح نحو المركزية، وخارجية تميل إلى فرض هيبة الخلافة وتحقيق مصالحها العليا بكافة الوسائل والطرق، وعلى رأسها استثمار جهاز مخابراته القوي، ومن ثم لم يكن من المستغرب أن يقول الذهبي فيه: «لم يزل الإمام النّاصر مدَّة حياته في عزٍّ وجلالةٍ،

---

(١) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٧.

(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٧.

(٣) فاروق عمر: الخلافة العباسية السقوط والانهيار ٢/ ٢٠٨.

وقمع للأعداء، واستظهارٍ على الملوك، لم يجد ضيمًا، ولا خرج عليه خارجيّ إلّا قمعه، ولا مخالفٌ إلّا دمغه، وكلّ من أضمر له سوءا رماه الله بالخذلان، وأباده. وكان مع سعادة جدِّه شديد الاهتمام بمصالح الملك، لا يخفى عليه شيء من أحوال رعيّة كبارهم وصغارهم. وأصحاب أخباره في أقطار البلاد يوصلون إليه أحوال الملوك الظاهرة والباطنة حتّى يشاهد جميع البلاد دفعة واحدة. وكانت له حيلٌ لطيفة، ومكايد غامضة، وخدعٌ لا يفطن لها أحد. يوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لا يشعرون، ويوقع العداوة بين ملوكٍ متّفقين وهم لا يفطنون»[١].

على أننا يمكن أن نقول إن سياسته في المجمل كانت أقرب للشدة منها إلى اللين والصفح، ويبدو أن والده المستضيء قد لمس فيه شيئًا من الحدة والشدة فعزم على البيعة لأخيه أبي منصور هاشم؛ فقد قال الصفدي: «كان أبوه المستضيء قد تخوّفه فاعتقله ومال إلى أخيه أبي منصور، وكان ظهير الدين بن العطار[٢] وأكثر الدولة وحظية المستضيء بنفشا[٣] والمجد ابن الصاحب[٤] مع أبي منصور ونفر يسير مع أبي العباس»[٥]. لكن هذه المحاولة لسحب ولاية العهد منه قد فشلت.

الناصر المنصور!

بدأت خلافة الناصر من حيث يتوقع كل متابع لحال الأسرة العباسية في سنة ٥٧٥هـ ووالده المستضيء على أعتاب الموت، والمحاولات الجادة والحثيثة لخصومه أن يولّوا أخاه أبا

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٨٦.

(٢) هو منصور بن نصر بن الحسين الحرّاني (ت٥٧٥هـ): وزير كاتب. كان صاحب (المخزن) للخلفاء. ولم تحسن سيرته. ولي الوزارة للمستضيء العباسي سنة ٥٧٣ هـ ببغداد، بعد مقتل الوزير ابن هبيرة. وكان ظهير الدين سبب قتله. قال ابن خلدون: فاستولى على الدولة وتحكم بها. وقال سبط ابن الجوزي: كان في عزمه (يعني ظهير الدين) أن يولي الخلافة (أبا منصور) فانخرمت عليه القاعدة، فلما بويع الإمام الناصر، لم يحضر، واعتذر بالمرض، فقبض عليه الناصر وحبسه أياما وأخرجه من محبسه ميتا، وفيه آثار الضرب. الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٠٦.

(٣) بنْفشا فتاة المستضيء بالله، كَانَتْ أحبّ سراريه وجواريه إليه. وقفت مدرسة بباب الأَزَج، وعمّرت عدَّة مساجد. وكانت كثيرة الرغبة فِي أفعال البرّ. توفيت في ٩ ربيع الأول سنة ٥٩٨هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٢/ ٣٤٢.

(٤) مجد الدين بن الصاحب، هو هبة الله بن عليّ بن هبة الله بن الصاحب ولي حجابة باب النّوبي ثمَّ ولاه المستضيء أستاذية دار الخلافة، فلما استخلف الناصر أقرَّه على ذلك وأدناه وردَّ إليه النظر في أكثر الأمور، فعلت منزلته إلى أن قتل في ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وعلّق رأسه على داره. تاريخ بغداد وذيوله ١٥/ ٣٦٧.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ٦/ ١٩٢.

منصور هاشم ابن جارية المستضيء بنفشا التي كما يبدو من سيرتها كانت ذات نفوذ وقوة ومكانة حتى إن أكابر رجال الدولة وبعض علمائها كانوا يتقربون منها بالهدايا والتّحف[1].

الناصر وسيطرة ابن الصاحب

بدأ الناصر حكمه بحملة تطهير لكل من حاول أن يقصيه عن الخلافة، واللافت أن هذه الحملة لم تكن إلا بعد بضعة أيام على توليته الخلافة واستتباب حالها وإمساكه بزمام الأمور كلها في يده، وقد كان وزير أبيه ظهير الدين بن العطار الذي تولى الوزارة في عام ٥٧٠هـ من كبراء المناوئين للناصر كما رأينا من قبل، ولذلك أمر بسجنه ثم قتل في محبسه وحينما أرادوا دفنه ثارت على جنازته العامة والغوغاء «فرجموه، ثم رمي، فطرح من تابوته، ومزق الكفن، وسحب بحبل، والصبيان يصيحون: باسم الله يا مولانا حتى ألقي في المدبغة»[2].

وقد تعجب ابن الأثير من فعل الغوغاء بهذا الوزير، رغم كونه قد «حسنت سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم»[3]، غير أن هذه الحادثة البشعة، والمآل السيئ الذي لقيه هذا الوزير كان في حقيقة الأمر بسبب تسلطه وجبروته وتفرده بالأمر في ولاية المستضيء بل قد أشار سبط ابن الجوزي إلى أنه كان سببًا في قتل الوزير الشهير عضد الدين بن المسلمة[4].

وبعد تخلصه من ابن العطار بقي أمامه مجد الدين بن الصاحب أستاذ دار الخلافة والقائم بشئونها وأمرها، وقد كان طاغيا متجبرًا يعرف أسرار الدولة ومكامن قوتها، ومع ذلك استبقاه الناصر ورفض أن يتخلص منه هو الآخر وهو حديث عهد بالخلافة، أو لعله وجد له أنصارًا يقوون شوكته فآثر الانصياع له إلى حين[5].

ولذلك لم يكن من المستغرب أن يقربه الناصر ويعطيه الهدايا والخُلع في أول خلافته في جملة من أُرسلت إليهم هذه الخلع من عمال وموظفي الخليفة في العراق والأطراف كما جرت العادة بذلك في المناسبات العامة[6].

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٧/ ١٥٥.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٨٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٩٨.
(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٢٢٠.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٤٠١.
(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٣٨.

غير أن مجد الدين بن الصاحب فيما يبدو هو الذي عاون الخليفة على القبض على وزيره ظهير الدين بن العطار، فلما تخلصا منه، سيطر ابن الصاحب على الخليفة وتجبر فقد كان «متحكما في الدولة ليس للخليفة معه حكم»(١)، وقد ظل في قوته واستبداده وسيطرته على مقاليد الخلافة والخليفة منذ مقتل ابن العطار في أواخر عام ٥٧٥هـ حتى شهر ربيع الأول من عام ٥٨٣هـ حيث قبض عليه الخليفة ثم قتله كما سنرى بعد قليل؛ مستفيدًا بدروس التاريخ في ذلك، حيث ضرب أجنحة السلطة وأصحاب النفوذ ببعضهم ليخلو له الحكم!

ورغم استبداد ابن الصاحب بأمر الخلافة ومكانته الكبيرة في الدولة إلا أن الناصر كان قد بدأ في الاهتمام بأوضاع بغداد والعراق الداخلية، وكان يُشرف على هذه الإصلاحات بنفسه وهو لا يزال بعد في مقتبل الشباب والفتوة؛ فقد كان «يشق الدروب والأسواق أكثر الليل، والناس يتهيبون لقياه»(٢) وقد حرص عماله وموظفوه على الامتثال لأوامره كلها، وكان يحرص على متابعتهم في كل شيء!

ومن جملة إصلاحاته السريعة في الجهاز الإداري للدولة أنه عزل كبار السن ومن لم يعودوا يقدرون على أداء مهامهم كنائب الوزير شرف الدين بن شادوش وعين بدلا منه آخر، وأقطع البصرة لأحد أمرائه واسمه طغرل الناصري الخاص البصرة بعد موت متوليها قسيم الدولة(٣)، وقد طاف في أواخر عام ٥٧٦هـ البلاد القريبة من بغداد يتفقد أحوالها بنفسه، ويقف على آخر ما يحدث فيها بشخصه(٤).

وكل من كان يعمل لصالحه آنئذ بجد وتفان كان الناصر يكافئه ويعينه على أمره، ففي عام ٥٧٧هـ كانت قلعة الماهكي معقل الاضطراب منذ زمن في شرق بغداد، وكان أميرها عبد الوهاب الكردي خارجًا عن سيطرة الخليفة الناصر، فلما وثب ابن عم له اسمه جوبان وأخرجه منها وصرح باتباعه للخلافة العباسية أقرّه الناصر على هذه القلعة وأرسل له «الخُلعة والتقليد بولايتها»(٥).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٦٤.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٩٤.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٤٣.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٤٣.
(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٤٦.

كما حرص الناصر لدين الله على تقريب ذوي المكانة والمهارة في الوظائف الخارجية ورجال الدبلوماسية العباسية؛ ولعل أبرزهم كان صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل النيسابوري[١] الذي ذهب إلى إيران ليأخذ البيعة من أميرها محمد البهلوان بن شمس الدين إلدكز الذي رفض البيعة في بادئ الأمر؛ لكن رسول الخليفة هذا لم يرد أن يرجع للخليفة إلا وقد اضطر هذا الأمير للمبايعة للناصر، وقد حكى لنا المؤرخون شجاعة وقدرة هذا السفير المحنك على تغيير قناعة الأمير من الرفض للقبول، فقال: «سير صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همذان وأصفهان والري وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ له في القول حتى إنه قال لعسكره في حضرته ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبالغ أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه من الإمارة وتقاتلوه فاضطر إلى البيعة والخطبة»[٢].

وقد قرّب الخليفة منه شيخ الشيوخ عبد الرحيم النيسابوري وجعله أعظم رسله إلى الأمراء وأصحاب المكانة في أرجاء الأرض حتى إنه قد أرسله إلى الناصر صلاح الدين مرارًا وقد أحسن القيام بمهامه حتى توفي أثناء رجوعه من إحدى سفاراته التي كان غرضها الإصلاح بين عز الدين مسعود بن مودود أمير الموصل وبين صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٠هـ[٣]، وقد قال عنه الذهبي: «له رأي ودهاء وتقدّم وجاه عريض؛ فكان المشار إليه في حسن الرأي والتدبير، مع زهد وعبادة، ترسّل إلى الشام، وكانت الملوك تستضيء برأيه»[٤].

ويبدو أن سطوة وآراء الوزير وأستاذ الدار ابن الصاحب المتهم بالرفض والتشيع كانت تتجلى في بعض قرارات الخليفة العجيبة، ففي عام ٥٨٠هـ نراه يصدر مرسومًا بجعل «مشهد موسى الكاظم (في طوس بشمال إيران) أمنًا لمن لاذ به، فالتجأ إليه خلق، وحصل بذلك مفاسد»[٥]، رغم أنه منذ عامين فقط كان قد انتسب إلى «الفتوة» وفكرتها تتعارض مع هذا القرار، لكن لا يجب أن نستغرب من سياسة الناصر، حتى وصفه المؤرخون بذلك، قال ابن

(١) شيخ الشيوخ: من ألقاب رجال الدين، يُقصد به رئيس الشيوخ وكبيرهم، ارتبط بأرباب الطرق الصوفية أكثر من غيرهم، فكان يُعرف بهذا اللقب شيوخ الخوانق. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٢٨٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٩٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٢٩.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٣٠٧.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٨٧.

الأثير: «كان يفعل الشيء وضده فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة ثم أعادها»(١). ولعل ما بدر منه من ميل للتشيع كان بسبب نفوذ أستاذ داره ابن الصاحب.

وفي المحرّم من عام ٥٨٢هـ وفي تحدٍّ واضح من ابن الصاحب للأغلبية السنية في بغداد وللخليفة نفسه، أصرّ على أن يتم الاحتفال بعاشوراء جهرًا على غير العادة، وأن يطوف الشيعة المتمركزين في الكرخ والمختارة في غرب بغداد العاصمة من أقصاها إلى أقصاها وهم يرددون ما لا يحب أهل السنة سماعه، قال الذهبي نقلًا عن ابن البُزوري(٢) صاحب «ذيل تاريخ المنتظم»(٣): « فُرِش الرَّماد في الأسواق ببغداد، وناح أهل الكَرخ والمختارة، وخرج النساء حاسراتٍ يلطمن وينحُن، والخِلَع تُفاض عليهنّ وعلى المنشدين من الرجال. وتعدى الأمر إلى سبِّ الصحابة. وكان أهل الكرخ يصيحون: ما بقي كتمان. وأقاموا ابنة قرايا، وكان الظّهير ابن العطار قد كبس دار أبيها، وأخرج منها كُتبًا في سبّ الصحابة، فقطع يديه ورجليه، ورجمته العوام حتى مات، فقامت هذه المرأة تحت منظرة الخليفة وحولها خلائق وهي تنشد أشعار العوْني وتقول: العنوا راكبةَ الجمل. وتذكر حديث الإفْك. قال: وكلّ ذلك منسوبٌ إلى أستاذ الدّار، وهو مجد الدّين بن الصّاحب»(٤)، ولذلك لم يمر هذا العام إلا وقد شهدت بغداد فتنة كبرى بين السنة والشيعة قُتل فيها المئات من الناس(٥)!

ومنذ العام السابق وظهور مجد الدين بن الصاحب بمظهر المسيطر على أوضاع الخلافة والمتحكم فيها، لدرجة ظهرت فيها الأقلية الشيعية في بغداد على الأغلبية بتدبير منه وتحت عينه والخليفة الناصر عازم على قتله، ثم نما إلى علم الخليفة أن ابن الصاحب يريد تغيير

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٣.

(٢) محفوظ بن معتوق بن أبي بكر بن عمر بن محمد بن عمارة، أبو بكر، عز الدين البغدادي المعروف بابن البزوري: مؤرخ. كان من سراة التجار. أصله من بغداد، سكن دمشق، وتوفي فيها، ودفن بسفح قاسيون. له «تاريخ» كبير، ذيل به على المنتظم لابن الجوزي، قال الذهبي: رأيت منه ثلاثة مجلدات في خزانته بسفح قاسيون. ولد سنة ٦٣١هـ وتوفي سنة ٦٩٤هـ. الزركلي: الأعلام ٥/ ٢٩١.

(٣) لم أقف عليه، وقد بحثت عنه كثيرا فلم أجده.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤١/ ١٢.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤١/ ١٤.

الخليفة نفسه فحانت لحظة مقتله في هذا العام ٥٨٣هـ، وبالفعل قتله رئيس شرطة بغداد ياقوت الناصري بيده في دهليز قصر الخليفة الناصر؛ وقد ذكر ابن الأثير أن ابن الصاحب كان حسن السيرة في الناس، وأن سبب مقتله كان وشاية من أحد خصومه للخليفة ونلاحظ أنه يستنكر من طرف خفي مقتله[١].

غير أن مؤرخين آخرين يصورون لنا مدى تجبر هذا الوزير وتعديه على الصحابة حتى أظهر التشيع في حضرة الخلافة ذاتها، فقد كان «أحد من بلغ أعلى الرتب، وصار يولي، ويعزل، وأظهر الرفض، ثم ولي حجابة باب النوبي، ولم يزل في ارتقاء حتى قتل، وعلق رأسه ببغداد»[٢] بل ويزيد على ذلك أنه كان يعد للانقلاب على الخليفة وكان يعمل على قصم الدولة وهدمها، قال الذهبي: «طُلب إلى دار الخلافة، فوثب عليه الشحنة ياقوت في الدهليز، فقتله، وكان قد تمرد، وسفك الدماء، وسب الصحابة، وعزم على قلب الدولة، فقصمه الله»[٣].

وقد قال سبط ابن الجوزي عن ابن الصاحب: «قرَّبه الناصر تقريبًا زائدًا، فبسط يده في الأموال، وسفك الدّماء، وسبّ الصحابة ظاهرًا، وبَطَر بطَرًا شديدًا، وعزم على تغيير الدولة. إلى أن قال: وثب عليه في الدِّهليز[٤] ياقوت شِحنة بغداد فقتله، ووُجد له ما لم يوجد في دُور الخلفاء»[٥].

الصراع ضد القوى المناوئة

بعد الانفكاك من سيطرة ابن الصاحب ومقتله، يمكن أن نطلق على المرحلة القادمة، مرحلة توطيد النفوذ العباسي، وتحقيق الطموح الناصري في السياسة والحرب والإصلاح الداخلي، وقد كانت ثمة تحديات جمة أمامه كان من الطبيعي أن يستأصلها ليحقق ما أراد.

بعد مقتل ابن الصاحب عيّن الناصر عبيدَ الله بن يونس وزيرًا وخلفًا له، وهو أحد شهود قاضي القضاة وصاحب علم ورواية وفقه، وهي منزلة ليست بالكبيرة مقارنة بالمنصب

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٦٥.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٦٥.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٦٥.
(٤) الدّهليز: المدخل بين الباب والدار، وهو أيضًا الحنية أو العَطْفة باللهجة المصرية. المعجم الوسيط ١/ ٣٠٠.
(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤١/ ١٦ نقلًا عن سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان.

الجديد، لكن المنصب يحتم على الخليفة أن يختار من يصلح بغض الطرف عن مكانة ومنزلة الوزير الجديد، وإن كان الرجل قد عُين لتوّه ناظرًا في ديوان الزمام وهو الديوان المعنيّ بشئون الخلافة والخليفة في العام السابق[1]؛ أو لعل الخليفة قد اختاره مغمورًا مقارنة بسلفه كي لا يقع فيما وقع فيه من مصائب وتصارع على النفوذ سابقا.

غير أنه سرعان ما أمر الناصر بخروج الوزير جلال الدين عبيد الله بن يونس في أوائل عام ٥٨٤هـ لمعاونة قزل بن إلدكز في حربه على ابن أخيه طغرل بن أرسلان بن طغرل الطامح في عودة أمجاد الدولة السلجوقية القديمة، وقد وقع في الأسر في حربه تلك وبقي عندهم مدة ولم يرجع إلى بغداد إلا بعد أشهر عدة كما سنرى عند حديثنا عن العلاقة بين الناصر والسلاجقة في إيران وأذربيجان.

والحق أن هذا الوزير لم يكن له خبرة بالأمور العسكرية، ويمكن أن يُعذر الناصر بقلة خبرته في اختيار الوزراء؛ ذلك أنه ظل تحت سيطرة ابن الصاحب لمدة ثماني سنوات كاملة.

لقد تفطّن صلاح الدين الأيوبي البعيد عن بغداد بآلاف الأميال، من هذه الحقيقة الجلية التي غابت عن الخليفة الناصر، فحينما علم أن الخليفة أمر وزيره الجديد ابن يونس بمواجهة طغرل السلجوقي صرّح بأن العباسيين منهزمون لا محالة وقد أشار لأصحابه بذلك قبل أن يأتي خبر الهزيمة على الحقيقة، فلقد سأل أصحابه قائلًا: «كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم؟ فقال له بعض الحاضرين: وكيف ذلك؟ فقال: لا شك أن أصحابي وأهلي أعرفُ بالحرب من الوزير وأطوع في العسكر منه، ومع هذا فما أُرسل أحدا منهم في سرية للحرب إلا وأخاف عليه، وهذا الوزير غير عارف بالحرب وقريب العهد بالولاية ولا يراه الأمراء أهلا أن يطاع. وفي مقابله سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه وكان الأمر كذلك ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه: كنت أخبرتكم بكذا وكذا وقد وصل الخبر بذلك!»[2].

وحينما رجعت عساكر بغداد منهزمة من تلك المواجهة قال أحد شعراء بغداد وظرفائهم أحمد بن الواثق بالله متهكما من هذه العساكر وهذا الوزير الخائب[3]:

---

(١) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ٢/ ١١٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٨، ١٧٩.



اتركونـا مـن جائحـات الجريمـة	طلعـة طلعـة تكـون وخيمـة
بركـات الـوزير قـد شـملتنا	فلهـذا أمورنـا مسـتقيمة
خرجـت جنـدنا تريـد خراسـان	جميعـا بأبهـات عظيمـة
بخيـول وعـدة وعديـد	وسـيوف مجربـات قديمـة
ووزيـر وطـاق طنـب ونقـش	وخيـول معـدة للهزيمـة
هـم رأوا غـرة العـدو وقـد	أقبـل ولـوا وانحـل عقـد العزيمـة
وأتونـا ولا يخفـى حنـين	بوجـوه سـود قبـاح دميمـة

ولذلك أمر الخليفة على الفور بعزل ابن يونس وتعيين وزير آخر هو شهاب الدين سعيد ابن حديدة، وكان من أهل التجارة وسراة بغداد محبوبًا للعامة والعلماء؛ فقد كان يستضيف العلامة ابن الجوزي للوعظ الدائم في بيته[1].

ورغم هزيمة الجند العباسي وأسر الوزير ابن يونس فقد جاء رسول في أوائل عام ٥٨٥هـ، من ناحية طغرل السلجوقي يعتذر للخليفة ويطلب منه العفو والصفح، وهذا ما جعل الناصر يهدأ قليلا وينظر إلى بعض المستجدات الخطيرة داخل العراق وعلى رأسها الاضطرابات في قلعة الحديثة بالقرب من هيت في الشمال وقلعة تكريت في شمال غرب بغداد.

فأما قلعة الحديثة: فقد حصرها الأمير الناصري طاشتكين وهو من أشهر أمراء ومماليك الخليفة المستضيء والناصر من بعده، وكان قد عُين أميرًا للحاج العراقي مرارًا وتسبب في مقتل أمير الحاج الشامي ابن عبد الملك المقدم في عام ٥٨٣هـ، وقد عُرفت عنه قوته وبأسه[2].

والحق أننا لا نملك أي تفاصيل عن أسباب الاضطراب في قلعة الحديثة وقد ذكر كل من أبي الفداء وابن الوردي أنها حديثة عانة تطل على الفرات وهي من أعمال الجزيرة الفراتية في شمال العراق، وذكر الذهبي أن بدء محاصرة طاشتكين لها بأمر من الخليفة الناصر كان في

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٥/ ١١٢.
(٢) انظر سيرته: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٦/ ٢٢١، ٢٢٢.

عام ٥٨٥هـ وأشار كل من أبي الفدا وابن الوردي أنها حُصرت وفُتحت وعادت للطاعة في عام ٥٨٧هـ في إيجاز شديد يحول دون معرفة أسباب الحصار(١).

وإن أكد ابن الأثير أن الحصار قد دام عامًا كاملًا دون أن يتطرق هو الآخر لأسباب الحصار، قال في حوادث عام ٥٨٦هـ: «في هذه السنة في ربيع الأول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة وكان سير إليها جيشا حصرها سنة خمس وثمانين فقاتلوا عليها قتالا شديدا ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير، فلما ضاقت عليهم الأقوات سلموها على أقطاع عينوها ووصل صاحبها وأهلها إلى بغداد وأعطوا أقطاعا ثم تفرقوا في البلاد واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وأنه يتعرض بالسؤال إلى بعض خدم الناس، نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته»(٢).

وأما قلعة تكريت: فقد أوجز كذلك ابن الأثير وغيره القول في أسباب تمردها فقال: «في شوال (سنة ٥٨٥ هـ) ملك الخليفة تكريت وسبب ذلك أن صاحبها وهو الأمير عيسى قتله إخوته وملكوا القلعة بعده فسير الخليفة إليهم عسكرًا فحصروها وتسلموها ودخل أصحابه إلى بغداد فأعطوا أقطاعا»(٣).

لكن سبب قتل هؤلاء الإخوة لأخيهم فخر الدين عيسى بن مودود وقدوم حملة عباسية لرد هذه القلعة إلى الدولة؛ كان سببه أن هؤلاء الإخوة خافوا أن تنضم قلعتهم لحوزة التركمان بعد مصاهرة أخيهم لأمير التركمان؛ فقد «أحبَّ (فخر الدين عيسى) مُطربة فتزوجها وأولدها ولدين: شمس الدين وفخر الدين، وتوصلت المطربة وزوجت ابنها شمس بابنة حسن بن قفجاق أمير التركمان، وطلبت منه خمسين فارسًا تكون عندهم في تكريت لتحفظها. فلما علم إخوته بذلك، وكانوا اثني عشر رجلًا، وثبوا على أخيهم عيسى المذكور فقتلوه خنقًا وملكوا تكريت. ثم وقع بينهم الاختلاف، فباعها المقدم منهم للإمام الناصر لدين الله»(٤).

ولعل إرسال العساكر إلى هذه القلعة وهي مضطربة في شأن داخلي كان الغرض منه ألا

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠١.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٠٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٩.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٥٠٠.

يستبدّ الإخوة بحكمها وتخرج عن الطاعة فتقتدي بقية القلاع والمدن المجاورة بها، ولعل محاصرة طاشتكين لحديثة عانة القريبة من هذه الأنحاء سببه هذا أيضًا، فأراد وأد الخطر في مهده وقبل أن يستفحل في شمال العراق كله.

ولم يسع الناصر إلا استغلال الفرص التي كانت تقدم إليه من بعض مناوئيه القدامى؛ فلقد رأينا أن ثمة اضطرابات قامت في قلعة الماهكي شرقي العراق وطُرد صاحبها عبد الوهاب الكردي في عام ٥٧٧هـ وقد استطاعت قوات الخليفة الناصر الظفر به وأسره أخيرًا بعد عشر سنوات كاملة في سنة ٥٨٧هـ، وأُتي به إلى بغداد غير أن الخليفة أحسن وفادته و«خلع عليه وأعطي كوسات وأعلامًا(١)، وأُقطع الدينور(٢)»(٣).

وفي سنة ٥٨٩هـ استطاع الناصر أن يملك إحدى قلاع إقليم خوزستان(٤) بعد مقتل سوسيان بن شملة التركماني من قبل بعض جنوده الذين أرسلوا عقب مقتله إلى بغداد للدخول في شرعيتها، وقد كانت هذه القلعة سبب الاضطرابات ومنطلق الغارات على العراق من الشرق دومًا، وقد رأيناها سابقًا لما كان شملة التركماني حاكمًا لها وما قام به من مناوشات في زمن الخليفة المستنجد بن المقتفي العباسي(٥).

ومن ثم وجد الناصر أن الفرصة سانحة لفتح إقليم خوزستان كله بعد مقتل حاكمه ابن شملة، وعزم على استكمال هذه المهمة تحت قيادة راشدة لا تخيب آماله كما فعل الوزير ابن يونس من قبل، ويبدو أنه رأى أن وزيره ابن حديدة(٦) لا يصلح هو الآخر للأمور العسكرية والحربية هذه فعزله في عام ٥٩٠هـ وقلّدها لمؤيد الدين بن القصاب محمد بن أحمد وأمره

---

(١) من دلائل دخوله في الطاعة العباسية.

(٢) مدينة من أعمال الجبل، وإقليم الجبال الآن منطقة كردستان العراق وإيران، بينها وبين همذان نيّف وعشرون فرسخا، كثيرة الثمار والزروع. البغدادي: مراصد الإطلاع ٢/ ٥٨١.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤١/ ٧٤.

(٤) خوزستان: تقع بين البصرة وإقليم فارس شرقي العراق وغربي إيران الآن.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٢٩، والذهبي: تاريخ الإسلام ٤١/ ٨٩، وقد ذكر ابن الوردي أنها ضُمّت للخليفة سنة ٥٩٠هـ. تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٨.

(٦) سَعِيد بْن عليّ بْن أَحْمَد بْن حسن بْن حديدة أَبُو المعالي الوزير: من كرخ سامرّا بالقرب من سامراء على نهر دجلة شمال بغداد، سكن بغداد وكان أحد الموسرين ذوي الجاه والمكانة، ثم ولي الوزارة في سنة أربع وثمانين وخمسمائة ولقب (معز الدين) ثُمَّ عزل بعد أشهر. توفي سنة ٦١٦هـ. تاريخ بغداد وذيوله ١٥/ ١٩٣.

باستكمال فتح خوزستان، وقد كان ابن القصّاب وهو شيخ على أعتاب السبعين من عمره «من رجال الدهر شهامة، وهيبة، وحزما، وغورا، ودهاء»(١).

وقد استدعاه الناصر وقال له: «يا محمد قد قلدتك ما وراء بابي، وجعلته في ذمتك، فاعمل فيما ترى برأيك. وخلع عليه وضربت النوبة(٢) على بابه على قاعدة الوزراء، ثمّ توجه إلى تستر(٣)، فافتتح بلاد خوزستان»(٤).

ومؤيد الدين كان قد أثبت جدارته لهذا المنصب بسبب ما قام به في توطئة هذه البلاد وكثرة أصدقائه ومعارفه الذين استنجدوا به عند فتنة مقتل ابن شملة، وقد كان وقتها من كبار موظفي ديوان الإنشاء.

كان مؤيد الدين بن القصّاب عارفًا بإقليم خوزستان «ومن أي وجه يمكن الدخول إليها والاستيلاء عليها، فلما ولي ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يرسله في عسكر إليها ليملكها له، وكان عزمه أنه إذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهرًا للطاعة، مستقلًا بالحكم فيها، ليأمن على نفسه. فاتفق أن صاحبها ابن شملة توفي، واختلف أولاده بعده، فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجده لما بينهم من الصحبة القديمة، فقوي الطمع في البلاد، فجهزت العساكر وسيرت معه إلى خوزستان، فوصلها سنة إحدى وتسعين وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها، وملك مدينة تستر (عاصمة الإقليم) في المحرم، وملك غيرها من البلاد، وملك القلاع، وأنفذ بني شملة أصحاب بلاد خوزستان إلى بغداد، فوصلوا في ربيع الأول»(٥).

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٢٣.

(٢) النوبة: الجماعة من الناس. ويبدو أنها عادة بروتوكولية لازمت الوزراء والسلاطين والخلفاء في الدولة الإسلامية؛ إذ كانت تُدق الطبول في أوقات الصلوات الخمس في المكان الذي يتواجد فيه هؤلاء. لسان العرب، مادة نوب ١/ ٧٧٤. وراجع: محمد محمود إدريس: رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية ص٨١- ٩٠.

(٣) مدينة إيرانية تقع شمال مدينة الأهواز فى محافظة خوزستان وتبعد عنها حولي ٩٣ كيلومترًا. قال ياقوت: «تُستَر أعظم مدينة بخوزستان اليوم (في عصره)، وهو تعريب شوشتر ومعناه النزه والحسن والطيب واللطيف، فبأيّ الأسماء وسمتها من هذه جاز، قال: وشوشتر معناه معنى أفعل، فكأنه قال: أنزه وأطيب وأحسن». ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢٩.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٢/ ٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٣.



وقد استمرت فتوحات ابن القصّاب في غربي إيران في سنة ٥٩١هـ ليأخذ من الخوارزميين ما استولوا عليه من طغرل الثالث بن أرسلان سنة ٥٩٠هـ، لكن فتوحاته هذه وطرده للخوارزميين جعلت بقايا حلفاء السلاجقة ومواليهم وعلى رأسهم قتلغ إينانج بن البهلوان حفيد شمس الدين إلدكز ينقلب عليه؛ لخلوّ الساحة من الخوارزميين، فقد قصد إينانج «الريّ فدخلها وتحصّن بها، وخالف فيها الوزير فحصره ففارقها، ودخلها الوزير وأنهبها عسكر بغداد. ثمّ ولاّها فلك الدّين سنقر النّاصريّ»[١]، وقد عين مماليك البهلوان أميرا عليهم - غير إينانج المهزوم - اسمه كركجة وقد دخل في طاعة الخليفة واقتسم معه إرث السلاجقة على أن يكون له مُدن الري وقاشان وقُم وساوه، وذلك قبل أن يأخذها منه الخوارزميون بعد ذلك[٢].

لكن انتصار ابن القصاب على إينانج بن البهلوان لم يستمر سوى أشهر قليلة إلا وقد علم أن الخوارزميين قد عادوا بقيادة علاء الدين تكش الخوارزمي واستردوا بالفعل ما أخذه ابن القصاب في منتصف شعبان سنة ٥٩١هـ، وكان ابن القصاب قد توفي قُبيل هذه الأحداث في أوائل شعبان سنة ٥٩٢هـ[٣].

ومن اللافت أن ابن القصّاب لم يكن وحده الموكل إليه مهمة فتح هذه البلاد وضمها للدولة العباسية على الحقيقة؛ فقد أرسل الخليفة الناصر مملوكه وأحد كبار أمرائه طغرل الناصري - وابن القصّاب منشغل بفتوحات خوزستان - ليفتح أصفهان في عام ٥٩١هـ أيضًا بعدما وصلت للخليفة رسائل من كبرائها يدعونه فيها للدخول في طاعته شريطة إرساله للقوات العباسية ليخلصوهم من القوات الخوارزمية؛ فقد «جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشًا وسيره إلى أصفهان، ومقدمهم سيف الدين طغرل، مقطع بلد اللحف من العراق، وكان بأصفهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده. وكان أهل أصفهان يكرهونهم، فكاتب صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية بأصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل الديوان من العساكر، وكان هو الحاكم بأصفهان على جميع أهلها، فسيرت العساكر،

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٢/ ٥.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٦٥٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٥، ٢٣٦.



فوصلوا إلى أصفهان، ونزلوا بظاهر البلد، وفارقه عسكر خوارزم شاه، وعادوا إلى خراسان، وتبعهم بعض عسكر الخليفة، فتخطفوا منهم، وأخذوا من ساقة العسكر من قدروا عليه، ودخل عسكر الخليفة إلى أصفهان وملكوها»[(١)].

ورغم استيلاء الخوارزميين على معظم ما أخذه منهم ابن القصّاب إلا أن الخليفة استطاع أن يبقي إقليم خوزستان تحت السيادة العباسية المباشرة وجعل أميره الأكبر طاشتكين الوالي عليه[(٢)] إلى أن توفي سنة ٦٠٢هـ ليخلفه على ولاية خوزستان زوج ابنته سنجر الناصري[(٣)].

وبحلول العام ٥٩٤هـ كانت الأوضاع بين الخليفة الناصر وعلاء الدين تكش بن إيل أرسلان الخوارزمي في توتر، الأمر الذي دعا الخليفة إلى دعم بغداد دفاعيًا ببناء سور ثان قوي[(٤)].

على أن العلاقة عقب وفاة علاء الدين تكش سنة ٥٩٦هـ قد تحسنت حينما أرسل خلفه علاء الدين محمد بن تكش ابن عم له سفيرًا إلى الخليفة الناصر ليعتذر له على ما بدر من عمه من معاملات ملأها الشد والجذب في كثير من الأحيان[(٥)].

أصرّ الناصر على تطبيق سياسة الحسم ضد خصومه وردعهم أولًا بأول ففي سنة ٦٠٨هـ استولى أحد المماليك واسمه منكلي على بلاد أصفهان والري والجبال من الأمير أيدغمش مملوك محمد البهلوان بن شمس الدين إلدكز صاحب أذربيجان وقد فرّ هذا الأخير إلى بغداد، فأكرمه الخليفة ثم أرسله في عام ٦١٠هـ ليحرر بلاده من مملوكه منكلي ذاك، إلا أن أمره كُشف قبل وصول أمداد الخليفة إليه فقتله منكلي ومماليكه، الأمر الذي أزعج وأغضب الناصر كثيرًا، وقد كان الأمير أيدغمش من الذين يحبهم الناصر لولائه له، وجهاده في القضاء على الاضطرابات التي كانت تقع في إيران وعلى رأسها هجمات الباطنية والإسماعيلية في قزوين وألموت[(٦)]، فعزم على محاربة هذا المملوك والقضاء عليه نهائيًا وتقسيم مملكته بينه وبين

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٩.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٥٤.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣١.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٢/ ٢٢.
(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٢/ ٢٧.
(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٣/ ١١، والعبر في خبر من غبر ٣/ ١٥٣.

صاحب أذربيجان وزعيم الإسماعيلية الباطنية جلال الدين الحسن وكان قد تاب وأظهر شعائر الإسلام هو وقومه[1].

وحشد الناصر في سنة ٦١٢هـ لهذا المملوك آلافًا من كل فج، وكان هذا التحالف مكونا من:

- أوزبك بن محمد البهلوان أمير أذربيجان وأرّان.
- أمير إربل وشهرزور مظفر الدين كوكبري وكان قائد التحالف.
- الجيش العباسي بقيادة الأمير الشهير مظفر الدين وجه السبع.
- قائد الإسماعيلية التائب جلال الدين الحسن.

أطاعوا جميعهم الناصر وخرجوا ثم حاصروا منكلي بالقرب من بلاد الكرج شمال أذربيجان، ثم هزموه، ففر منكلي وسرعان ما قُتل في مدينة ساوه بإقليم فارس، وأرسل رأسه إلى بغداد في جمادى من نفس العام، وعيّنوا بدلًا منه على إقليم الجبل وأصفهان أحد مماليك البهلوان محمد بن شمس الدين إلدكز واسمه أغلمش وقد كان ولاؤه لخوارزم شاه محمد بن تكش وذلك في تفاصيل كثيرة يرويها ابن الأثير الذي عاصر هذه الأحداث وغيره[2].

وفي الفترة ما بين عامي ٦١٢هـ إلى ٦١٤هـ انشغل الناصر بمناوئة الخوارزميين الذين كانوا قد وصلوا إلى أوج قوتهم واتساعهم ومطالبتهم بأن تتعامل الخلافة معهم كما تعاملت مع السلاجقة من قبل، وهذا ما سنقف معه بالتفصيل لاحقًا.

وفي هذه الأثناء كان قد برز لسطح الأحداث سنة ٦١٦هـ الخطر الأعظم الذي ابتلي به العالم في القرون الوسطى وهو ظهور المغول واجتياحهم وفسادهم، وسنرى أيضًا علاقة وموقف الخلافة العباسية من هؤلاء المجتاحين بعد قليل، لكن في خضم هذه الأحداث أصر الناصر على تأمين الجبهة الداخلية في العراق، وهي الجبهة التي كان يُسيطر عليها على وجه الحقيقة.

وفي نفس العام ٦١٦هـ نرى اضطرابًا كبيرًا من قبائل بني معروف ومهاجمتها للضياع والقرى وقطع الطرق القريبة منها في البطائح جنوب العاصمة بغداد؛ ولقد رأينا من قبل أن

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٥٦، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٣.

هذه المنطقة على وجه الخصوص كانت معقل الاضطرابات وشوكة في حلق الخلافة منذ المقتفي ومن خلفه المستنجد الذي قضى على اضطرابات القبائل العربية وعلى رأسهم بنو أسد أقارب بني معروف في النسب، والآن يتبع الحفيد الناصر حذو آبائه وأجداده في القضاء على هذه الاضطرابات الجديدة بإرسال حملة عسكرية ضخمة للغاية يكاد المشاركون فيها يكونوا من كل مناطق العراق وقبائله[(١)].

قال ابن الأثير: «في هذه السنة في ذي القعدة أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معدا متولي بلاد واسط أن يسير إلى قتال بني معروف، فتجهز وجمع معه من الرجالة من تكريت وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقا كثيرا وسار إليهم، ومقدّمهم حينئذ معلى بن معروف وهم قوم من ربيعة وكانت بيوتهم غربي الفرات تحت سوراء[(٢)] وما يتصل بذلك من البطائح، وكثر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى، وقطعوا الطريق، وأفسدوا في النواحي المقاربة لبطيحة الغرّاف، فشكا أهل تلك البلاد الديوانَ منهم، فأمر معَدّا أن يسير إليهم في الجموع، فسار إليهم، فاستعد بنو معروف لقتاله فاقتتلوا بموضع يعرف بالمقبر وهو تل كبير بالبطيحة بقرب الغراف، وكثر القتل بينهم ثم انهزم بنو معروف وكثر القتل فيهم والأسر والغرق وأُخذت أموالهم وحملت رؤوس كثيرة من القتلى إلى بغداد في ذي الحجة من السنة»[(٣)].

وكانت فلولهم قد انتزحت إلى القطيف والأجنا في شرق الجزيرة العربية، وعادوا في العام التالي سنة ٦١٧هـ ودخلوا البصرة وطلبوا من شِحنة (مدير الأمن) البصرة أن يُرسل إلى ديوان الخلافة في بغداد بطلب الصلح، «فكتب معهم بذلك وسيرهم مع أصحابه إلى بغداد، فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم، فقتلوا»[(٤)]!

على أن قوة الناصر قد شابها بعض الانتكاسات في أوقات متفرقة من مواجهاته مع القوى المناوئة له.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٤.

(٢) سوراء: نهر صغير متفرّع من الفرات في مناطق السواد في وسط العراق. راجع: البغدادي: مراصد الإطلاع ٢/ ٧٣٥، ٣/ ١٠٢١.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٩٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٦٦ تدمري.

ففي بداية سنة ٥٨٨هـ هجمت قبائل بني عامر بن صعصعة[١] البصرةَ وأحاطت بها من كل جانب بغية نهبها والاستيلاء عليها، وكانت البصرة مُقطعة لأحد مماليك الناصر وهو طغرل الناصري وأميرها يومئذ محمد بن إسماعيل الذي لم يقدر على صد هجمات هذه القبائل، لكنهم سرعان ما تركوها بعد نهبها وعادت البصرة إلى سيرتها الأولى[٢].

ومن أشهر انتكاسات الناصر ما حدث له عقب وفاة الأمير الكبير طاشتكين أمير خوزستان وقائد الجيش العباسي في العام ٦٠٢هـ، فبعد وفاته تولى إمارة إقليم خوزستان وكورها الأمير سنجر الناصري الذي أُمر من قبل الناصر العباسي بمحاربة قشتمر الناصري أحد الأمراء المنشقين على الناصر والمستولين على بعض مناطق خوزستان بل انضم لأمير كُرستان[٣] بين فارس وأصفهان وخوزستان ثم خلفه على ملكه؛ فلقد أزعجت الناصر هذه القوة العسكرية التي بات يملكها «فأمر (الخليفة) سنجرَ بجمع العساكر وقصده وقتاله ففعل سنجر ما أمر به وجمع العساكر وسار إليه؛ فأرسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يقصده ويخرج إلى الخروج عن العبودية ولم يقبل عذره فجمع أهل تلك الأعمال ونزل إلى العسكر فلقيهم فهزمهم وأرسل إلى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين أيتغمش صاحب أصبهان وهمذان والري يعرفها الحال ويقول: إني لا قوة لي بعسكر الخليفة لما أضيف إليهم عساكر أخرى من بغداد وعادوا إلى حربي وحينئذ لا أقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوفهما من عسكر الخليفة إن ملك تلك الجبال فأجاباه إلى ما طلب فقوي جنابه واستمر على حاله»[٤].

وقد كانت هذه الأحداث في رمضان من عام ٦٠٣هـ، وما لبث قشتمر أن عاد إلى خدمة الخليفة الناصر بعدما أُقصي عن الوزارة نصير الدين العلوي.

لكن سنجر الناصري الذي هُزم أمام قشتمر خرج على الخليفة سنة ٦٠٧هـ وأراد الانفصال بإقليم خوزستان، الأمر الذي جعل الخليفة يرسل له على الفور قوة عسكرية بقيادة نائب الوزارة الجديد مؤيد الدين القُمي والمستشار الخاص للخليفة عز الدين بن نجاح

---

(١) للتعرف أكثر على قبائل بني عامر وهجومهم هذا على البصرة، انظر: عمر كحالة: معجم قبائل العرب ٢/ ٧١٠، ٧١١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٠.

(٣) كُرستان: إقليم بين خوزستان وأصفهان. البغدادي: مراصد الإطلاع ٣/ ١١٨١.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٣١.

الشرابي اللذين استطاعا أن يأخذاه من صاحب شيراز بعدما لجأ إليه، ثم عاد إلى بغداد وحُبس بها فترة ثم عفا عنه الخليفة(١)!

وهكذا كانت علاقة الناصر بمناوئيه، علاقة ظللها الحسم، وأحاطت بها تحقيق المصلحة العليا للخلافة بالسيطرة على كل ما تطاله يد جيشها، وإن لم تخلُ هذه السياسة من انتكاسات كما رأينا منذ قليل.

الناصر والأقطار البعيدة

ظل الناصر العباسي يترقّب ما يدور حوله في الأقاليم والبلاد، ويعلم ما يدور فيها من خلال جهازه المخابراتي القوي، ومن ثم كانت علاقاته بأمراء الممالك والأقطار قوية متينة يهابونه ويخافونه لقوته وسطوته وشهرته، حيث خضعت كل بلاد الشرق وبعض بلاد المغرب للدولة العباسية؛ وأذعنوا لها بالطاعة، ولو بصورة صورية استغل فيها الوضع السياسي كما استغله الآخرون؛ وفي ذلك يقول ابن دحية: «أخذ الأمر حقًا وقوة وفتح البلاد طاعة وعنوة وطبقت دعوته جميع الآفاق وطلعت حكمته باهرة الإشراق وأوقع بوزراء السوء على الإطلاق وقام بما عليه من العهد والميثاق»(٢).

ففي عام ٥٨١هـ قام علي بن إسحاق ابن غانية بمساعدة إخوته بالانقلاب على أخيهم الوالي الجديد لجزيرة ميورقة في الأندلس محمد بن إسحاق بن غانية، وكان سبب ذلك ميل محمد إلى الإذعان والدخول في لواء الدولة الموحدية القوية الجديدة التي ورثت ما خلّفه المرابطون الذين دان لهم بنو غانية منذ أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجري، ولم يكتفِ هو وإخوته بهذا الانقلاب، بل قرروا – نكاية في الموحدين – أن يستولوا على منطقة بجاية وقسنطينة والجزائر في شرقي المغرب الأوسط إلا أن قوات الموحدين استطاعت أن تقهرهم وتنتصر عليهم وتسترد هذه المدن منهم بعد ٧ أشهر فقط من انتصارهم ذاك، وأُسر بعض إخوة علي بن غانية؛ وفر هو إلى إفريقية فاستولى عليها وعاونه بعض كبار أمرائها وقبائل العرب فيها وبهاء الدين قراقوش وأمرائه من الأتراك الذين أُرسلوا إليها ليضموها لبني أيوب منذ عام ٥٧٦هـ وأعلنوا دخولهم في طاعة ابن غانية ومن ثم في طاعة الخليفة

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٣/ ٢٩.
(٢) ابن دحية: النبراس في خلفاء بني العباس ص١٤٥.

العباسي الناصر، غير أن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لاحق ابن غانية في أعماق إفريقية واستطاع أن يستخلص معظم بلاد إفريقية، وفرّ ابن غانية في الصحراء جنوبي إفريقية ثم مات بها إثر جراحته في حربه تلك وكان ذلك في حدود عام ٥٨٣هـ(١).

وقد تولى أمر الميارقة ولم شعث الجند من بعده أخوه يحيى بن غانية فصار ينتصر على قوات الموحدين حينا وينهزم أحيانًا أخرى حتى سيطر على جُلّ بلاد إفريقية بعد ذلك، لكنه وفي عام ٥٩٦هـ أرسل رسولًا إلى الخليفة الناصر العباسي يجدد فيه البيعة والطاعة، ولعل سبب هذا التجديد للمستجدات التي واجهها ابن غانية آنئذ وعلى رأسها حروبه مع خصم جديد عنيد هو محمد بن عبد الكريم الجراجي وقد كان خالعًا لطاعة بني عبد المؤمن هو الآخر يريد الاستبداد بإفريقية، على أن الذهبي يذكر أن رسول بني غانية أُرسل بالتحديد من قِبل يحيى بن إسحاق بن يحيى، قال الذهبي: «قدم بغداد من المغرب رسول الملثّمة ومن مخدومه إسحاق بن يحيى بن إسحاق بن غانية الملثَّم المايرقي الخارج على بني عبد المؤمن، فتلقّي بالموكب الشّريف، وأخبر أن مرسله أقام الدّعوة للخليفة ببلاده بلاد المغرب. أنبأني ابن البزوريّ قال: إنّ الرسول المذكور كان ملثّما لا يظهر منه سوى عينيه، وأقام ببغداد أيّامًا، وأُعطي لواء أسود وخلعًا، وأعيد إلى مرسله»(٢).

ولم يختلف اليمن عن مثل اضطرابات إفريقية، وتدخل الناصر فيها؛ غير أن تدخله هذه المرة كان بشكل مباشر؛ فإن أميره الجديد إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ابن أخي صلاح الدين قد خلف أباه في حكم اليمن بعد موته عام ٥٩٤هـ، ويبدو أن بطشه وقتله للمناوئين له جعله يغتر في نفسه، أو كما يقول عبد الباقي اليماني: «داخلته الخيلاء في عقله، وادعى الخلافة، وانتمى إلى بني أمية، وتلقّب بالإمام الهادي بنور الله، المعز لدين الله، أمير المؤمنين، فكتب إليه أعمامه ينكرون عليه هذه الدعوى، ثم أخاف مماليك أبيه، فهرب منهم سنقر الأتابك في طائفة كبيرة من المماليك، وبقي أكثر من معه من الأكراد، ولما تفاحش أمره بدعوى الخلافة قتله الأكراد على باب زبيد في سنة ثمان وتسعين، ونهب الأكراد زبيد نهبًا شنيعًا»(٣).

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى ص١٤٨- ١٦٨.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٢/ ٢٩.

(٣) عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني: بهجة الزمن في تاريخ اليمن ص ٨٠، ٨١.

لكن في حقيقة الأمر كان للخلافة العباسية وللناصر بصورة خاصة دخل مباشر في مقتل إسماعيل بن طغتكين، فيبدو أنه لما رأى أن أعمامه قد فشلوا في إثنائه عن دعواه بإمرة المؤمنين وصار يناطح الخليفة رأسًا، دعا من فوره قائده الأكبر مجد الدين طاشتكين الناصري من خوزستان على وجه السرعة ليخلصه – كدأبه – من هذه المشكلة الجديدة في اليمن، وبالفعل رجع طاشتكين من خوزستان في ذي القعدة سنة ٥٩٧هـ، وبدأ يعد الجيش للمسير نحو اليمن، ثم سار واستقر به المقام في مكة وبدأ يُراسل كبار أمراء المعز «يحثّهم على محاربته ويأمرهم بالجهاد، وكانوا كارهين ما ادّعاه إِسْمَاعِيل من ادّعاء الإمامة، فأجاب أكثرهم إِلَى ذلك، وكان إِسْمَاعِيل يركب فِي أُبَّهَة المُلك، ويحترز كثيرًا على نفسه، فتحالف القرابليّ وأخوه السابق وعيسى بن حوك على اغتياله فركض يوما خلف وحش فوثب عليه القرابلي فحل كتفه بضربة، وضربه السّابق بدد أمعاءه، ونادیا بشِعار الدّولة العبّاسيَّة، فلبّى دعوتهما جمعٌ من الأمراء، ونزلا من خوفهما مركبا، وهبّت لهم ريح، فسارا فِي خمسة أيام فوصلا جدة، ثُمَّ أتيا مكَّة، فخلع عليهما طاشتِكين، ونفّذ بهما إِلَى بغداد، فاختارا أن يكونا فِي خدمة طاشتِكين بخوزستان»[١].

وفي تخلّص الناصر بالله العباسي من عدو بعيد عنه كابن طغتكين الأيوبي في اليمن ما يدل على قوته وبأسه، وهو بذلك يستعيد قوة العباسيين في أوجهم السياسي زمن المنصور وهارون الرشيد والمأمون؛ ولقد استمر الناصر على هذا النهج القوي في ردع كل مخالف أو مناوئ أو متعدٍ على الدولة، ففي ذات العام ٥٩٨هـ وبعد مقتل ابن طغتكين تعدى بعض قطاع الطرق على قافلة لتجار بغداد كانت متجهة للشام وفيها من الأموال والمتاع الشيء الكثير؛ فأمر الخليفة علاء الدين تتامش أحد كبار أمرائه بالخروج لاسترداد أموال التجار والقبض على برغش مملوك بني مهارش[٢] رئيس هذه العصابة، وبالفعل تم قتله وقتل معاونيه وأُتي برؤوسهم والأموال التي نهبوها إلى بغداد، ويعلّق الذهبي على هذه الحادثة بقوله: «وتأرّج

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ١٢/ ٩٤١. تحقيق بشّار عواد، دار الغرب الإسلامي – ٢٠٠٣م.

(٢) بنو مهارش، ينسبون إلى مهارش بن مجلي بن عكيث، أبو الحارث مجير الدين العقيلي (ت ٤٩٩ هـ) أمير العرب بعانة والحديثة على نهر الفرات شمال شرقي بغداد، ومهارش هذا هو الذي آوى الخليفة القائم بأمر الله وظل عنده طوال فتنة البشساسيري لمدة عام كامل، وقد توفي سنة ٤٩٩هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام ١٠/ ٨٢٠. تحقيق بشّار عوّاد.

عرْفُ هذه المنقبة في أقاصي البلاد»[١]، أي انتشر خبرها وقوة الناصر معها في العالم الإسلامي كله.

ولذلك كان ملوك وأمراء الأطراف يستغلون أي حادث ولو عارض ليقدموا فيه الهدايا والأمتعة التي تدلل على ولائهم وطاعتهم للخليفة، ففي عام ٦٠١هـ «وقع حريق عظيم بدار الخلافة في خزائن السلاح، فاحترق من ذلك شيء كثير من السلاح والأمتعة والمساكن ما يقارب قيمته أربعة آلاف ألف دينار، وشاع خبر هذا الحريق في الناس، فأرسلت الملوك من سائر الأقطار هدايا أسلحة إلى الخليفة عوضا عن ذلك وفوقه من ذلك شيئا كثيرا»[٢].

على أن أهم ما يلفت النظر في علاقات الناصر الخارجية ونجاح هذه السياسة تمثّل في تصالح العباسيين مع الإسماعلية الباطنية لأول وآخر مرّة من إنشائها على يد الحسن الصباح وسقوطها على يد المغول؛ بل وإعلان هؤلاء الباطنية بقيادة جلال الدين الحسن أنهم تابوا وأنابوا وأظهروا شعائر الإسلام فيهم؛ فقد كان الناصر يرسل إليهم قائلًا: «إنّكم إذا فعلتم ذلك كنّا يدا واحدة، ولم يتغيَّر عليكم من أحوالكم شيءٌ، ومن يروم هذا من هؤلاء فقد رام منال العيُّوق[٣]»[٤]. يقصد أن اتحادهم قوة، ولعل هذا الاتحاد الذي حدث بالفعل قد أزعج علاء الدين الخوارزمي، الذي أراد الانتقام من الخليفة الناصر سنة ٦١٤هـ على ما سنرى بعد قليل.

إن سياسة الناصر الخارجية يمكن فهمها في ضوء قول موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ) وهو أحد مفكري ومؤرخي عصره وكان معاصرًا للناصر، حيث قال: «كان النّاصر لدين الله قد ملأ القلوب هيبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الهند ومصر كما يرهبه أهل بغداد، فأحيا هيبة الخلافة وكانت قد ماتت بموت المعتصم، ثمّ ماتت بموته. ولقد كنت بمصر والشام في خلوات الملوك والأكابر، فإذا جرى ذكره، خفّضوا أصواتهم هيبة وإجلالا»[٥].

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٢/ ٤٥.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٤٩.
(٣) العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها ويطلع قبل الجوزاء. المعجم الوسيط ٣/ ٦٣٧.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٨٨ نقلًا عن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي.
(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٨٩.

ولذلك لم يكن من المستغرب على الناصر لدين الله أن «دانت له السلاطين، ودخل تحت طاعته من كان من المخالفين، وذلَّت له العتاة والطُّغاة، وانقهرت بسيفه الجبابرة والبغاة، واندحض أضداده وأعداؤه، وكثر أنصاره وأولياؤه، وفتح البلاد العديدة، وملك من الممالك ما لم يملكه من تقدَّمه من الخلفاء والملوك أحد»(١).

مركزية الناصر!

كان للناصر لدين الله رؤية سياسة ثابتة تتمحور حول المركزية الشديدة، لذلك لم يكن ليسمح أن يعيق مشروعه السلطوي أيًا كان، وكان من الطبيعي أن يُقصي- كل من حامت الشكوك حوله.

تجلت هذه المركزية في ظل استبداد الوزير ابن الصاحب بالخليفة الجديد الناصر؛ ففي سنة ٥٧٧هـ « طاف البلاد والأعمال، وغاب أسبوعًا»(٢) وذلك لمعرفة آخر الأخبار، وأوضاع الرعية والعُمال على وجه الدقة.

فعلى سبيل المثال ما أن حلّ منتصف عام ٥٨٨هـ إلا وقد هدأت أوضاع العراق وبغداد قليلًا، إلا وقد أُخبر في رجب من هذا العام من عيونه ومخابراته التي عُرف بها أن أمير الحاج طاشتكين يكاتبُ صلاح الدين الأيوبي ليأخذ بغداد لأن الوضع في العراق قد صار هادئًا، قال ابن كثير: «اتهم أمير الحج ببغداد وهو طاشتكين، وقد كان على إمرة الحج من مدة عشرين سنة، وكان في غاية حسن السيرة، واتهم بأنه يكاتب صلاح الدين بن أيوب في أخذ بغداد، فإنه ليس بينه وبينها أحد يمانعه عنها، وقد كان مكذوبا عليه، ومع هذا أهين وحبس وصودر»(٣).

غير أنه ثبت صدق طاشتكين بعد ذلك بسنتين وكان المدعي عليه حاسدًا له من أصحابه أراد أن يتولى الحِلّة بدلًا منه، قال الذهبي: «فيها قبض على ألب غازي متولي الحلة وأخذت

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣١٩. والقول منسوب للمؤرخ ابن النجار البغدادي (ت٦٤٣هـ) ولم يصلنا من تاريخه وعنوانه «التاريخ المجدد لمدينة السلام وأخبار فضائلها الأعلام ومن وردها من الأعلام» أو الشهير بـ«ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار إلا جزء ضئيل يبدأ بترجمة عبد المغيث بن زهير وينتهي بترجمة الفضل بن محمد بن أحمد ابن سعيد الحداد.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٤٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٤٢٨.

أمواله، وقتل جزاء بما كذب على الأمير طاشتكين»[١].

ويبدو أن الناصر لم يرد أن يشاركه أحد في هذه القوة التي كان يتمتع بها ولو كان من بنيه، فكانت قناعته تتمثل في إقصاء أي قوة تهدده؛ ففي سنة ٦٠١هـ نراه يعزل ولده أبو نصر محمد الملقب بالظاهر من ولاية العهد؛ لأنه: «خافه على نفسه فإنه كان شديدًا قويًا أيدًا عالي الهمة فأسقط من ولاية العهد في الخطبة واعتقله وضيق عليه ومال إلى أخيه الصغير الأمير علي إلا أنه لم يعهد إليه»[٢]، لكن وفاة الأمير علي بعد أحد عشر عامًا كانت كفيلة بإرجاع أبي نصر محمد الظاهر وليًا للعهد من جديد «إلا أنه (كان) تحت الاحتياط والحجر لا يتصرف في شيء»[٣] .

وقد وصف الصفدي حالة التضييق التي عانى منها الظاهر للدرجة التي كان سيفقد فيها بصره: «وحبس النَّاصر ولده الظَّاهر في دار مُبيضة الأرجاء ليس فيها لون غير البياض وكان حراسه يفتشون اللحم خوفًا أن يكون فيه شيء أخضر ينعش به نور بصره فضعف بصره حتَّى كاد يعمى إلى أن تحيل ابن النَّاقد[٤] الَّذي صار وزيرًا بعد ذلك فدخل عليه ومعه سروال[٥] أخضر وأرى أنه يحتاج إلى المستراح[٦] فدخل وترك السروال في المستراح، وفطن الظَّاهر لذلك فدخل على أثره فوجده فلبسه ولم يزل يتعلل به حتَّى تراجع بصره. ويقال إن الظَّاهر أشار إليه إشارة لطيفة وحك عينه ففهم ابن النَّاقد ذلك وأحضر له ذلك»[٧].

وظل الظاهر على هذه الحالة من التضييق والشدة حتى توفي الناصر في سنة ٦٢٢هـ

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤١/ ٩٥.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٤٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٣.

(٤) نصير الدين ابن الناقد أبو الأزهر أحمد بن محمد بن علي البغدادي «قرأ النحو وتعاني الكتابة، وتنقّل وكان أخا الخليفة الظاهر من الرضاع. تولى أستاذ دارية الخلافة، ثم وزر سنة تسع وعشرين وست مئة وكان في مبدئه كثير التعبد والتلاوة، وتعلل بألم المفاصل، فعجز عن الحركة، فاستناب من يعلم عنه، وحضر يوم بيعة المستعصم في محفة وجلس لأخذ البيعة، وبقي عالي الرتبة إلى أن مات في سنة اثنتين وأربعين وست مئة». الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٠٨، ١٠٩.

(٥) السروال: لفظ معرب، لباس يغطي السرة والركبتين وما بينهما. وهو شبيه بالبنطال في أيامنا هذه. انظر: محمد قلعجي: معجم لغة الفقهاء ص٢٤٤.

(٦) المستراح: الكنيف أو بيت الخلاء. المعجم الوسيط ١/ ٣٨١.

(٧) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ٦٩.

ليصبح الظاهر خليفة حر الإرادة والتصرف من بعده ولو لم يعمر في الخلافة إلا أشهرًا!

ومثلما عزل الخليفة ولده عن ولاية العهد لخوفه منه، فإنه سارع إلى عزل وزيره نصير الدين بن مهدي العلوي في عام ٦٠٤هـ وكان قد عينه سنة ٥٩٢هـ؛ وقد عزله لأنه أُخبر من عيونه ومخابراته أنه يتطلع إلى الخلافة ويبتغيها، وكان قد عمل على إقصاء أمراء ومماليك الخليفة وإبعادهم عنه، قال ابن كثير: «قبض الخليفة على وزيره ابن مهدي العلوي، وذلك أنه نسب إليه أنه يروم الخلافة، وقيل غير ذلك من الأسباب، والمقصود أنه حبس بدار طاشتكين حتى مات بها، وكان جبارا عنيدا، حتى قال بعضهم فيه:

خليلي قولا للخليفة وانصحا	توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما	صنيعك يا خير البرية ضائع
فإن كان حقا من سلالة حيدر	فهذا وزير في الخلافة طامع
وإن كان فيما يدعي غير صادق	فأضيع ما كانت لديه الصنائع»[1]

وكثيرًا ما دعّم الخليفة هذا الاتجاه فعزل أستاذ داره علي بن بختيار الكاتب[2] وولى بدلًا منه وزيره السابق عبيد الله بن يونس.

الفُتوّة .. فكرة عبقرية!

لقد تأثر الناصر بفكرة «الفتوة» وأعجب بها إعجابًا شديدًا، وانتُسب لها منذ العام ٥٧٨هـ، وهذه الفكرة مضمونها العمل بمحاسن الأخلاق كصدق الحديث وأداء الأمانة وأداء الفرائض واجتناب المحارم ونصر المظلوم وصلة الأرحام والوفاء بالعهد، وقد كان الانتساب لهذه الفكرة يلازمه طقوس معينة كلبس سراويل أطلق عليها «سراويل الفتوة» وشرب ماء مالح وغير ذلك، وهي تؤخذ على يد شيخ، وقد أخذها الناصر من أحد شيوخ بغداد واسمه عبد الجبار، وكان لهذه الحركة نقيب وزعيم ثم لما تعلمها وانتسب لها الناصر بدأ في إلزام أنصاره وأهل دولته بها، وصار يرسل هذه السراويل إلى عماله وموظفيه بل قلدت العامة الخليفة وأصبحت ظاهرة منتشرة في بغداد، وهو أمر حمده عليه كثير من المؤرخين،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٥٧.

(٢) انظر ترجمته: ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ٣/ ١٤٥.



حتى عدت من صفات دولة الخليفة الناصر لمن يطالع سيرته في التراجم والسير؛ وإن كانت «الفتوة» لا تخلو من بعض المنكرات والشبهات[١]!

ولقد لعب نظام الفتوَّة دورًا كبيرًا في العلاقات الدولية بين الخلافة العباسّية والعديد من الممالك الإسلامية وعلى الخصوص الممالك الأيُّوبيَّة، وذلك من خلال الهدف السياسي البعيد، الذي حاولت الخلافة العباسية – في عهد الناصر لدين الله – الوصول إليه عبر تنظيم الفتوة وهو إعادة فرض سيطرتها على تلك الممالك بأسلوب جديد. ويقوم نظام الفتوة – أساسًا – على مكارم الأخلاق فهو: أن تكرم من يؤذيك وتحسن إلى من يسيء إليك، وهذه أمور حسنة مطلوبة سميت فتوَّة أم لم يسمَّ، وقد شهد هذا النظام ذروة مجده مع الخليفة العباسي النَّاصر لدين الله.

لقد كان الخليفة النَّاصر شابًّا مرحًا ممتلئًا بالحيوية والرجولة، والناس يتهيَّبون لقياه، فانعكست قوَّة شخصيته على قوة منصب الخلافة والتمس الناصر طريقة جديدة لتقوية نفوذه على الممالك الإسلامية المختلفة، التي تدين له بنفوذ معنوي، وليس عليها أيُّ تأثير سياسي حقيقي، فسعى لتزويد منصب الخلافة بسلطة أخرى غير سلطة الشرعية تتمثل بسلطة اجتماعية سياسيَّة أخلاقية، تؤدّي – بحال انتشارها – إلى التفاف الجميع حول منصب الخلافة الذي يرأس هذه السلطة أو المنظمة الجديدة. وكان صاحب الفتوَّة في بغداد أيام الخليفة الناصر هو الشيخ عبد الجبار، فأحضره الخليفة «وأعطاه خمسمائة دينار، وخلع عليه وعلى ولده، وكان شيخًا حسنًا له أتباع كثيرون»[٢]، ممّا يعني أنه تنازل للخليفة عن منصب رئيس الفتيان.

وما قام به الخليفة النّاصر – بعد ذلك – هو عملية إعادة تنظيم ورعاية لهذه المنظمة، فجعله ذلك رجلها الأول، ورئيسها ثم حدَّد قواعدها، ونشرها، وانتسب إليه في الفتوة أكابر الناس والملوك، ففي عام ٦٠٧هـ، طلب الخليفة الناصر من كلّ ملوك المسلمين أن ينتموا إليه في الفتوّة ويعدونه إمامهم بها، على أن تنتمي رعية كلّ منهم إلى ملكها[٣].

---

(١) عن الفتوة انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ٨٣ – ٩٣.

(٢) الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق ص٨٦، وسهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ٢١/ ٢٥٦ نقلا عن تاريخ ابن أبي الدم الحموي.

(٣) الصلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين ص٣٨١.

وقد وُضع للفتوَّة شروط خاصَّة يجب أن تنطبق على من ينتمي إليها، ومنها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، ونصرة المظلوم، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد، وغيرها من قواعد الأخلاق التي حضَّ عليها الإسلام، وكانت هناك أمور عديدة يطلب تطبيقها من المنتسبين إلى تنظيم الفتوَّة وكلها يستدل عليها من ذكرها في الأحاديث النبوية الشريفة، منها:

- طاعة الرؤساء والمقدَّمين.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف.
- حفظ الجار.
- التعاضد والتناصر بين الأعضاء.
- حفظ الجار.
- كتمان السّرّ.
- صدق اللهجة.
- العفة عن المحارم[1].

وكان المنتسبون لتنظيم الفتوة يسمّون الفتيان، أمّا من ينضمُّ حديثًا لها، فيدعى بالرفيق، ويرشّح الفتى الجديد لقبوله في التنظيم فتيان قدماء، ثم يقام حفل تنسيب للمنضمين الجدد، تلقى فيه كلمات، تشيد بالفتوَّة، وتربطها بتعاليم الإسلام من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ويشرب المنتسبون الجدد كأس الفتوَّة وفيه ماء وملح، وهو دليل قبول الأنظمة والتعاليم الخاصَّة بالفتوة.

وكان الفتى عند تنسيبه يلفُّ بملابس رقيقة من الكتَّان، أو القطن الأبيض، ثم يرتدي السروال الخاصَّ بالفتوَّة، وكان السروال هو الشعار، أو الزي الخاص لهذا التنظيم، فجميع الفتيان يرتدون طرازًا خاصًّا وموحَّدًا من السراويل يميزهم عن بقية الناس، ثم توضع على رأس الفتى طاقية صغيرة سوداء، وفوقها قلنسوة من الصوف الأبيض، ويضع على أكتافه قباء، أو عباءة خفيفة يلفُّ عليها حزام، يعلق به سكّين، أو خنجر، ويلبس في رجله خفَّين

(١) سهيل زكار: الموسوعة الشامية ٢١/ ٢٥٨. نقلا عن تاريخ ابن أبي الدم الحموي.

وربما كان من أشهر حفلات تنسيب الملوك لتنظيم الفتوة هي الحفلة التي أقامها الملك المنصور الأيوبي صاحب حماة عام ٦٢٢هـ، وأقام الخطبة فيها قاضي حماة سالم بن نصر الله والد المؤرّخ ابن واصل[١].

وعندما استكمل الخليفة الناصر تنظيمه الجديد نظريًا، بدا بتسيير رسله إلى ملوك المسلمين، طالبا منهم الانتماء إليه عبر نظام الفتوَّة، وقد قبل الجميع ذلك، وانتسبوا للخليفة الناصر، فهذا لا ينقص من ملكهم شيء وما سلطة الفتوة إلا سلطة معنوية، لذلك لم يتخلف منهم أحد وقد لبس السلطان العادل سراويل الفتوَّة للخليفة الناصر، وكذلك أولاده الملك المعظم والملك الكامل والملك الأشرف، ولبسها المجاهد صاحب حمص، والملك الظَّاهر غازي ابن السُّلطان صلاح الدين صاحب حلب، وكذلك أرسل لباس الفتوَّة إلى كيخسرو سلطان الرُّوم وخوارزم شاه وسلطان الهند وغزنة، قال المقريزي عن حوادث سنة ٦٠٧هـ: «فيها شرب ملوك الأطراف كأس الفتوة للخليفة الناصر، ولبسوا سراويل الفتوة أيضا،فوردت عليهم الرسل بذلك، ليكون انتماؤهم له، وأمر كل ملك أن يسقي رعيته ويلبسهم ، لتنتمي كل رعية إلى ملكها، ففعلوا ذلك، وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمراءها وأكابرها، وألبس كلا منهم له، وسقاه كأس الفتوة» [٢].

واعتقد الخليفة النَّاصر بذلك أنَّه قد جمع الأمَّة حوله، وبالفعل، فقد أسبغت الفتوَّة مزيدًا من الهيبة على منصب الخليفة، فقد كان الملك الذي ينتسب إلى الخليفة يتبعه كلُّ أركان دولته وأكابر بلاده، ولكن اهتمام الخليفة النَّاصر بتنظيم الفتوَّة جعله يعتقد أنها كلّ ما يربطه بملوك المسلمين، حتى إنَّه لم يبصر أعظم المخاطر التي تحيق بهم، ففي عام ٦١٥هـ وصلت رسل الخليفة الناصر إلى الملك الكامل، وهو مرابط على دمياط أمام قوات الفرنجة التي احتلت المدينة، وأخذت تتقدّم باتجاه القاهرة فظنَّ الناس الظنون الجميلة يؤمئذ في الخليفة، فتبيَّن أنه لأجل رمي البندق، وكونه يريد أن يكون هو قبلته فتعجَّب الناس من إمام العصر وهمَّته فكأن الكامل كان بحاجة إلى زعامة الخليفة لرمي البندق ليقاوم جحافل الفرنج الزاحفة على مصر.

---

(١) ابن واصل: مفرّج الكروب ٤/ ١٦٤.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٢٩١.

وكان من اهتمامات الفتيان الرمي بالبندق، وتدريب الحمام، وقد تفنن الناس في ذلك سواء الأمراء أو الملوك، وفي العصر الأيوبي كان الرمي بالبندق، قد شاع في معظم أنحاء الدولة الإسلامية وهو رياضة رمي وتدريب على التسديد ويستخدم للرمي على الطيور من أجل الصيد أو الرياضة، وكان الخليفة العبَّاسي النَّاصر لدين الله قد منع رمي البندق إلا لمن ينتمي له.

لقد قصد الخليفة النَّاصر من اهتمامه الكبير بنظام الفتوة تقوية مركزه وزيادة فاعلية منصب الخليفة وربط ملوك الأطراف والرعايا بشخص الخليفة، من حيث كونه زعيمًا فعليًا، إضافة لكونه خليفة وإمامًا شرعيًا، ولكنَّ كلَّ ما قام به النّاصر لتنظيم الفتوَّة تهاوى بعد موته، ويرى بعض الباحثين إن نظام الفتوة استمر بالقوة والاندفاع نفسهما بعد وفاة الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢هـ إذ اهتم الخلفاء العباسيون بعده في العناية بالفتوة والقيام برسومها ورعاية الفتيان في البلاد الإسلامية على اختلاف الحماسة لها[١].

قال الدكتور فاروق عمر فوزي: لقد كان نظام الفتوة محاولة جادة من قبل خليفة داهية وسياسي محنك لبث روح جديدة وعزيمة فتية في نفوس الشباب والقادة في المجتمع العربي الإسلامي؛ من خلال انخراطهم في تنظيم يتزعمه الخليفة ويقوده بنفسه من أجل مواجهة المخاطر التي تهدد الدولة؛ كخطر الباطنية والغلو في الداخل والمغول التتار والإفرنج في الخارج، ولتحقيق روابط جديدة ومتينة بين ملوك الأطراف المسلمين للثبات أمام المحن والشدائد[٢].

الإدارة العباسية في عصر الناصر

كانت دولة الناصر لدين الله تدار من قبل عدد كبير من الموظفين مختلفي المناصب والرتب مختلفي الأسماء.

لقد كان يساعد الخليفة الناصر في إدارة شؤون الدولة نخبة من المسؤولين السياسيين والإداريين، وعلى رأسهم الوزير ونائبه وأستاذ الدار «دار الخلافة» والحاجب وقاضي القضاة، وصاحب المخزن وصاحب المظالم والحسبة ورؤساء الدواوين المتنوعة وصاحب ديوان الزمام

---

(١) الصلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين ص٣٨٤، نقلا عن أحلام حسن النقيب: سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، منشور بكلية الآداب، جامعة بغداد – ١٩٨٨م.

(٢) فاروق عمر فوزي: الخلافة العباسية ٢/ ٢١٦، ٢١٧.



وكان لأستاذ الدار نفوذ كبير في بداية خلافة الناصر ولكن الخليفة أوقع به بعد أن كثرت الشكاوى على تجاوزاته وسلبه أموال الرعية خاصة بعد أن تسلم الخليفة مذكرة من نائب الوزارة جلال الدين صدقة، وكان ذلك سنة ٥٨٣هـ.

وأما وزراء الخليفة الناصر، فكانوا وزراء تنفيذ لا سلطة لهم بوجود الخليفة الذي كان يباشر الأمور بنفسه ما عدا بضع سنين قبيل وفاته، ومن هنا جاءت كلمات ابن دحية في الناصر: «أخذ الأمر حقًا وقوة وفتح البلاد طاعة وعنوة وطبقت دعوته جميع الآفاق وطلعت حكمته باهرة الإشراق وأوقع بوزراء السوء على الإطلاق وقام بما عليه من العهد والميثاق»(١).

كما وأن الناصر لم يكن لديه وزير على الدوم، بل يختار حينًا وزيرًا ويعين أحيانًا أخرى نائب وزير حسب ما يراه ضروريًا ويحدثنا صاحب كتاب الفخري في الآداب السلطانية عن اهتمام الناصر في اختيار الرجل المناسب في المحل المناسب وحرصه على معرفة معدن الرجال وسريرتهم قبل التعيين، أنه كان يطلق الدعايات والإشاعات بين الناس بواسطة أصحاب الأخبار وأعوانهم حول ترشيح شخص معين لمنصب معين فتكثر الأقاويل عليه من قبل أصدقائه وأعدائه من معارفه فيكتب أصحاب الأخبار إلى الخليفة بذلك كله وأي الفئتين على حق وصواب وعندئذ يوازن الخليفة بين الرأيين ويختار الشخص أو يتركه، وهذا ما كان يفعله حين يختار وزيرًا أو قاضيًا أو صاحب ديوان أو غيرهم من وجوه مؤسسة الخلافة في السياسة أو الإدارة(٢).

ومما يلاحظ في سياسة الخليفة الناصر لدين الله أنه اعتبر الوزراء منفذين لا مفوضين في الحكم ولذلك استوزر أربع عشرة شخصية حمل خمسة منهم فقط لقب الوزير أما البقية الباقية فلم يكونوا أكثر من نواب وزراء.

على أن ما يجدر ذكره فيما يتعلق بهذا هو الجمع بين رياستي السيف والقلم في آن واحد، ففي الوقت الذي يشرف فيه الوزير على الأمور المالية والإدارية كان يتقلد قيادة الجيش ويقود العساكر لقتال الأعداء والمتمردين وذوي النزعة الإنفصالية، ولعل أشهر مثل على ذلك وزير

(١) ابن دحية: النبراس ص١٤٥.
(٢) فاروق عمر: الخلافة العباسية، السقوط والانهيار ٢/ ٢١٠.

الناصر المعروف «ابن القصاب» الذي قاد جيش الخلافة ودوخ السلاجقة وأعاد العديد من مدن بلاد فارس الغربية إلى نفوذ الخلافة العباسية في بغداد، وتوفي سنة ٥٩٢هـ بعد أن أعاد همذان وأصفهان وحاصر الري.

ولقد استمرت الخلافة العباسية في الأخذ بالنظام المركزي في الإدارة فكان الخليفة بمساعدة الوزير يعين من يراه مناسبًا على الأقاليم التابعة للدولة وهي في تلك الفترة قليلة ومحصورة في العراق وبعض أقاليم بلاد فارس الغربية، والمعروف أن ولاية مصر وولاية بلاد الشام والحجاز واليمن كانت تابعة لصلاح الدين الأيوبي وأسرته ومع اعتراف هؤلاء جميعًا بالخليفة العباسي إلا أنه لم يكن للخليفة العباسي نفوذ مؤثر فيهم، بل إن إقراره لهم كان اعترافًا بأمر قد وقع فعلًا، وقد ظهرت في العصور العباسية الأخيرة مناصب جديدة بسبب تبدل الظروف منها: منصب الشحنة وهو موظف يتولى سلطات إدارية وأمنية في المدن والمراكز الحضرية الأصغر من المدن، وهناك منصب «الحماة» وهم المسؤولون عن حفظ الأمن والنظام في الأرياف، ومناطق البادية ويختارون عادة من رؤساء العشائر المتنفذين في مناطقهم كي يتمكنوا من أداء مهامهم بيسر وسهولة.

لقد كانت دواوين الدولة الرئيسية مستمرة في تأدية واجباتها دون تغيير جذري، رغم أن بعضها قد تبدل اسمه؛ فمثلًا ديوان الخراج تبدل إلى «المخزن» وصاحبه صاحب المخزن، وأصبح ديوان الجند ديوانًا للجيش وديوان النفقات والضياع أصبح ديوان المقاطعات، وغدا لضريبة الجزئية التي تؤخذ من أهل الذمة ديوان خاص بها يسمى «ديوان الجوالي»، وكانت مواريث من لا وارث له تذهب إلى بيت المال مباشرة، أما في العصور العباسية الأخيرة، فأصبح لها ديوان ينظمها تحت اسم «ديوان التركات الحشرية» على أن الأهم من ذلك ظهور دواوين جديدة، تشير رواياتنا التاريخية إلى أسمائها وبعض مهامها في عهد الناصر لدين الله منها[(١)]:

- **ديوان الأبنية**: وهو ديوان يدل على مدى اهتمام الناصر بالعمران والبناء رغم كونه كان يواجه تحديات عديدة من الخارج وخاصة من بلاد فارس ولكنه كان يصر على إيجاد الأموال

---

(١) صادق حسن السوداني: الوظائف الإدارية في دولة الناصر لدين الله العباسي ص١٠٠، ١٠١. مجلة المورد العراقية – بغداد، المجلد الثالث، العدد الثاني، ١٩٧٤م.

اللازمة لإعمار عاصمته بغداد وترميم أسوارها وأبوابها وبناء أسواق ومدارس وربط في أماكن عديدة من المناطق الواقعة تحت نفوذ الخلافة.

– **ديوان المقاطعات**: وهذا الديوان مسؤول عن المقاطعات التي يمنحها الخليفة للأمراء والمتنفذين حيث تسجل بأسمائهم في دفاتر خاصة مقابل شروط معينة يقبلها الأمير المقطع.

– **ديوان الوقوف**: ومع أن هذا الديوان كان موجودًا قبل عهد الناصر، وأن الاهتمام بالوقوف اهتمام إسلامي قديم، فقط نشط هذا الديوان في عهد الناصر بسبب كثرة الوقوف التي أوقفها الخليفة.

– **ديوان الطبق**: وتنحصر مسؤوليته في الإشراف على توزيع الطعام والشراب على الفقراء والمحتاجين خاصة أولئك الذين يمنعهم التعفف من سؤال الناس أو التسول، وكان صاحب الديوان يستعين بذوي الخبرة من أعيان الناس والنقباء للتعرف على المحتاجين في الأزقة والسكك والمحلات.

– **ديوان البريد**: من أهم صلاحيات صاحبه هو كونه عينا للخليفة يوافيه بأخبار الأقاليم والأحداث المهمة التي تقع فيه، إلا أن هذه المهمة الخطيرة أصبحت في العصور العباسية الأخيرة تنحصر أكثر فأكثر بيد: صاحب ديوان الخبرة، الذي تداخلت صلاحياته مع بعض صلاحيات صاحب البريد الخاصة بتقصي الأخبار التي تهم الدولة.

وظهرت في هذا العصر وظيفة الشِّحنة أو الشحنكية وهي وظيفة استحدثها السلاجقة وهي أشبه ما تكون بوظيفة المتصرف أو المحافظ في عصرنا الحاضر يتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وإدارية وهو مسئول عن إدارة المدينة والمحافظة على أمنها واستقرارها، وملاحقة الخارجين على النظام ومعاقبة المسيئين.

وهناك وظيفة صدرية المخزن، والمخزن هو ديوان الخراج كما ذكرنا آنفًا، وصدر المخزن كوزير المالية والتموين والمشرف على اقتصاد البلد.

وهناك الكُتّاب، وهم المتولون مهمة الكتابة في دار الخلافة ودوائر الدولة الأخرى ومنهم كاتب الإنشاء أو ما كان يُعرف بكاتب الرسائل في أيام الدولة العباسية وكانوا يُنتقون بعناية كبيرة.

وهُناك النقباء، وقد اشتهرت في عصر الخليفة الناصر ثلاث نقابات: الأولى للعباسيين،

والثانية نقابة الطالبيين أو العلويين، والثالثة نقابة النقباء. وكانت هناك نقابة رابعة في عصر الناصر تُعرف بنقابة مشهد موسى بن جعفر. ومنصب النقابة منصب إداري إلى حد كبير أشبه ما يكون بممثل العلويين أو العباسيين عند الخلافة أو الدولة؛ فهو الناطق بلسانهم، ونقيب النقباء أعلى منزلة من نقيب العلويين والعباسيين وهو الناطق باسم الجميع، وغالبًا ما يكون من الأسرة العباسية(١).

أما ما يتعلق بسياسة الناصر لدين الله المالية والاقتصادية؛ فما لبثت الضائقة المالية أن خفت مع مجيء الناصر لدين الله، حيث كثرت الخيرات والزروع ورخصت الأسعار، فكانت أيامه على حد قول ابن جبير رخاءً وعدلًا وطيب عيش، ويضيف ابن جبير الذي زار العراق في هذه الفترة كثرة المزارع والنخيل وبساتين الفواكه، فيقول مثلًا عن الطريق الزراعي بين بغداد إلى الحلة: «إنها أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يمينًا وشمالًا وتشق هذه البسائط فروع من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها وهي متسعة وفسيحة تشرح بها العيون وتنبسط فيها النفوس، والأمن فيها متصل»(٢).

وأشار ابن جبير إلى اهتمام الناصر بالمحافظة على الأمن والاستقرار فقد لاحظ نقاط حراسة على طول الطريق لحماية القناطر والجداول المتفرعة على الأنهار وحماية القوافل خاصة أن هذه الطريق كانت جزءًا من طريق الحج إلى الحجاز يقول ابن جبير: « فلا تكاد تمشي ميلا إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير، وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها»(٣).

وقد منع الخليفة الناصر سوء استغلال المزارعين أو استخدامهم في أعمال السخرة، فحين علم الخليفة أن عامله على منطقة نهر الملك قد أجبر الفلاحين على العمل بالسخرة لحسابه الخاص أمر بقطع يده ليكون عبرة لمن يستغل نفوذه بصورة غير صحيحة، كما أن هذا الإجراء يدل – ضمن إجراءات أخرى منها تحقيق عبء بعض الضرائب – على الأمل الذي كان

---

(١) انظر: ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/ ٢٨٧- ٢٩٥.
(٢) رحلة ابن جبير ص١٧٠. دار الهلال.
(٣) رحلة ابن جبير ص١٧١. دار الهلال.

يعلقهم الناصر على الفلاحين وهم الفئة المنتجة للغلة التي يقتات منها الشعب، وهذا يفسر إشارات ابن الساعي في كتابه الجامع المختصر إلى وفرة المواد الغذائية ورخص أسعارها في هذه الفترة.

وهناك سبب آخر من أسباب كثرة الغلات وانخفاض الأسعار على عهد الخليفة الناصر لدين الله فقد أمر الخليفة في أول خلافته بفتح خزائن الغلات وإطلاق البيع للناس، كما أعطى أرزاق الجند من الحبوب عينًا فكثر العرض من الحنطة والشعير والذرة في الأسواق، مما أدى إلى تراخي أسعارها بسبب الفائض منها وكثرة نسبته على الطلب(١).

سياسة الناصر في الميزان

تسلم الخليفة الناصر لدين الله زمام الحكم في سنة ٥٧٥هـ والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ؛ فالأعداء يتربصون بالخلافة من الداخل والخارج، والفساد الإداري والسياسي قد استشرى في أجهزة الدولة ومؤسساتها والأحوال المعايشية والاقتصادية لم يعد يُطيقها الفرد العادي في المجتمع.

لكن الخليفة الداهية استطاع أن ينتشل البلاد والعباد من الأزمات الخانقة ويرسي بسفينة الدولة على شاطئ السلامة، وإن كانت سلامة مؤقتة أشبه ما تكون بإفاقة ما قبل الموت كما سنرى.

ويختلف المؤرخون في تقويمهم لعهده الذي استمر ٤٧ عامًا متصلة، وانتهى سنة ٦٢٢هـ، فالسيوطي وابن الطقطقى مثلا يعتبرون الناصر من دهاة خلفاء بني العباس، وأنه بالسياسة والدبلوماسية حقق الكثير من أهدافه وأنجز العديد للخلافة؛ فالفضل يعود إليه في إنهاء النفوذ السلجوقي في العراق سنة ٥٩٥هـ، كما أنه أعاد نفوذ الخلافة السياسي والإداري على الأقاليم التي استولى عليها السلاجقة في فترة الضعف والانحلال.

ومن خلال نظام الفتوة الناصرية استطاع أن يزرع روحًا جديدة وثّابة إلى الأمة من أجل إعدادها للصمود أمام الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بها؛ فكانت جهوده تنصب إلى الحفاظ على مؤسسة الخلافة واستقلاليتها من أي تسلط من خلال بناء جيش عباسي قوي

---

(١) الأيوبي: مضمار الحقائق ص١١، وفاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٢١٤.

ومستقل تتحالف معه جيوش أمراء الأطراف ليتصدى لكل التحديات التي تواجه الخلافة العباسية.

كما عمل على بناء قاعدة ثقافية ثابتة وقوية تُساند القوة العسكرية وذلك بالعمل على تشجيع نشر العلم والشريعة ومحاربة الحركات الباطنية المغالية.

كما أحيا سُنة أسلافه من الخلفاء العباسيين الأوائل بالنظر في المظالم بنفسه وإعادة حقوقهم إليه، وكان يتجوّل ليلًا متنكرًا في دروب بغداد للتعرّف على أحوال الناس وأوضاعهم، قال ابن الطقطقى: « أحبّ مباشرة أحوال الرعيّة بنفسه، حتّى كان يتمشّى في الليل في دروب بغداد ليعرف أخبار الرعيّة وما يدور بينهم، وكان كلّ أحد من أرباب المناصب والرّعايا يخافه ويحاذره بحيث كأنه يطلع عليه في داره»(١).

وفي تلك الظروف الصعبة حرص على إعادة بناء جهاز معلوماتي ومخابراتي قوي ليكون على اطلاع بما يحدث حوله لتلافي أي خطر قد يحدق به؛ لذا «كثرت جواسيسه وأصحاب أخباره عند السّلاطين وفي أطراف البلاد»(٢).

كذلك لم يدّخر الناصر وسعًا في استغلال صراعات السلاجقة فيما بينهم أو السلاجقة والخوارزمية وأمد بعضهم بقوات عسكرية ضد البعض الآخر.

كما أن الناصر هدم «دار السلطنة» في بغداد وهي رمز للهيمنة السلجوقية سنة ٥٨٣هـ، حيث لم يجرؤ أحد من الخلفاء قبله على ذلك، ورغم أن عددًا من خلفاء بني العباس تصدوا للسلاجقة وتحدوا نفوذهم مثل المسترشد والراشد والمقتفي، بيد أن إجراءات الناصر كانت أكثر دقة وتأثيرًا.

وحرص الناصر على تولي الوزارة بنفسه لفترات عديدة كما حرص على اختيار الوزراء الأكفاء، فمثلًا كان مؤيد الدين بن القصّاب يتمتّع بكفاءة عسكرية توازي قابليته الإدارية والمالية لذلك اختاره الناصر لقيادة الجيش وقد نجح بالفعل في التصدي لتحرّشات السلاجقة العسكرية كما أفلح في استرداد الأحواز (خوزستان) وأصفهان وهمذان إلى

(١) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٠٨. دار القلم.
(٢) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٠٨. دار القلم.

العباسيين بعدما كانت تحت السيطرة السلجوقية.

لقد كان الخطر على الخلافة العباسية والعراق يصدر من قبل المشرق، وقد نجح الخليفة الناصر في محاولاته المستمرة طوال عهده على حفظ التوازن الدقيق فكان يضرب الأمراء الطامعين بالعراق الواحد بالآخر؛ فقط ضرب خوارزمشاه تكش زعيم الخوارزمية بطغرل الثالث سلطان السلاجقة واشتبك الطرفان في معركة كانت نتيجتها نهاية النفوذ السلجوقي بالعراق، ثم تصدى للخوارزمية الذين اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين للسلاجقة فمنعهم من تحقيق أهدافهم وهددهم بالغوريين وغيرهم من أمراء المشرق، فكانت لعبة عسكرية دقيقة نجح فيها الناصر.

لهذه الأسباب وبسبب الخطر الدائم من المشرق كان الخليفة الناصر في شغل شاغل بهمومه المشرقية عما يحدث في الأقاليم الغربية حيث كان صلاح الدين الأيوبي قد أسقط الفاطميين وخطب باسم الخلافة العباسية سنة ٥٦٧هـ، وبدأ يُعد العدة لمجابهة الصليبيين الفرنج، ومع ذلك فإن ما قدمه الخليفة الناصر من معونة مادية ومعنوية كان كافيًا لدعم صلاح الدين، ومهما قدم الناصر من معونة، فإن هذا يعني أن الخلافة العباسية في مأمن من خطر الأيوبيين، وهذا لحسن الحظ ما أراده صلاح الدين بالضبط من الخلافة العباسية حيث كان يدرك ظروفها الداخلية والخارجية والأخطار الشرقية التي يجب أن تتصدى لها، والذي يطلع على الرسائل المتبادلة بين الناصر وصلاح الدين يُدرك ذلك.

وقد أخذ الخليفة الناصر بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ جانب الملك العادل شقيق صلاح الدين وشرّفه بلباس الفتوة واعترف بنفوذه على مصر وبلاد الشام في محاولة من الخليفة لجمع شمل الأيوبيين تحت قيادة واحدة لمجابهة الخطر الفرنجي[١].

ومع ذلك كله لابد أن نقوّم جهود الناصر ودأبه المتواصل لاستعادة قوة مؤسسة الخلافة بالدهاء والدبلوماسية تارة وبالقوة والسيف تارة أخرى، وفي الوقت نفسه لم يأل جهدًا في دفع عجلة النشاط الثقافي والعلمي والعمراني في البلاد، وكان حكم المؤرخ العراقي الكبير الدكتور مصطفى جواد خلاصة لما يمكن أن نقرره على الناصر وعصره؛ فلقد كان «أعظم

(١) فاروق عمر: الخلافة العباسية، السقوط والانهيار ٢/ ٢٠٣- ٢٠٦.

سياسي عباسي وأحسن بني العباس – المتأخرين – اضطلاعًا بأمور الخلافة؛ فقد وسّع مملكته توسيعًا لا يبلغه إلا ذو همة حاسمة وطموح عظيم»[١]. وهو من «أكثر متأخريهم عمارة وسيادة وسياسة»[٢].

لكن مع كل ما مضى من إنجازات حقيقية ومهمة في الداخل والخارج إلا أن الوضع في الداخل قد تحمل طموحات الناصر وتكاليف السعي الدؤوب للاستقلال والقوة بل وحتى بعض هواياته التي جرّت عليه النقد اللاذع، قال ابن الأثير وهو من المعاصرين للخليفة الناصر: «لم يطلق في طول مرضه شيئا كان أحدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالما، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده»[٣].

إن سبعة وأربعين عامًا في الحكم في واقع شديد التعقيد كما كان الحال في العراق ما بين عامي ٥٧٥هـ و ٦٢٢هـ لا يمكن أن يكون واقعًا ورديًا شديد الهدوء والرخاء؛ فقد كان الهاجس الأمني وخطر كل من السلاجقة والخوارزميين بعدهم ثم المغول في نهاية المطاف يتطلب يدًا من حديد لتأمين الجبهة الداخلية للوقوف في وجه هذه التحديات شديدة الخطورة.

ومهما يكن من أمر فإن عصر الناصر العباسي بحاجة إلى دراسات أشد تفصيلًا من مجرد التأريخ له مع بقية خلفاء بني العباس في كتابنا هذا، ولعل الله أن يُعيننا على إخراج مثل هذه الدراسة المهمة.

وفاة الناصر وحكم التاريخ

إننا نجد الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياة الناصر أعوامًا ساكنة ليس فيها نشاط يُذكر، سوى ترقيته لمؤيد الدين القُمي من نائب للوزارة أي وكيل لها إلى منصب الوزير وذلك سنة ٦١٩هـ، ويبدو أن الناصر قد أُجبر على ذلك للمرض الذي ألم به وأقعده منذ هذه السنة حتى وفاته في عام ٦٢٢هـ؛ وقد كان دأب الناصر التقليل من تعيين الوزراء المفوضين عنه في إدارة البلاد لأنه كان يقوم بمهامهم ولذلك كان نواب الوزراء كثيرين جدا في عصره، بعكس

(١) ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، مقدمة المحقق الدكتور مصطفى جواد.
(٢) مصطفى جواد: العصر العباسي، مجلة سومر العراقية ص٧٠. بغداد- ١٩٤٥م.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٤٠٠. تدمري.



الوزراء الذين يمكن أن نعدهم على الأصابع؛ وكأن الناصر قد جمع بين منصب الرئيس ورئيس الوزراء في أيامنا هذه، ويبدو أن ممارسته لهذه السياسية مدة ٤٤ عامًا متصلة قبل أن يُقعده المرض قد جعلته من أقوى خلفاء بني العباس وأكثرهم حنكة ودهاء وهيبة!

وفي آخر شهر رمضان من سنة ٦٢٢هـ تُوفي الخليفة الناصر لدين الله بعد خلافة دامت ٤٧ عامًا متصلة لم يلِ هذه المدة أحد مثله من خلفاء بني العباس، وكان عمره عند وفاته ٦٩ سنة هجرية وأشهرًا.

لقد اقتربت الأحكام التاريخية للمؤرخين الذين عاصروا خلافته وحكموا عليها كل بمنظوره الجغرافي والثقافي والسياسي ومن حيث القرب والبعد من عصره وزمنه لكنها في النهاية متقاربة من حيث قوة الناصر وشجاعته وهيبته مع بعض الأفعال الغريبة والمتناقضة، وقد كان ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) من أكثر المؤرخين المعاصرين له نيلًا منه حتى إنه اتهمه صراحة بممالأة التتار والاتفاق معهم للهجوم على خوارزمشاه والقضاء عليه وعلى مملكته، قال: «لم يُطلق في طول مرضه شيئًا كان أحدثه من الرسوم الجائرة؛ وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالمًا، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة، ثم بطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة، ثم أعادها. وجعل جل همه في رمي البندق[1]، والطيور وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها، إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة... فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعظم الأمور، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحًا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب»[2].

ومثل هذه الروايات التي ينقلها المؤرخون عن ابن الأثير يُعلّق عليها الدكتور فاروق عمر فوزي بقوله: إن خليفة مثل الناصر أعاد هيبة الخلافة وقضى على النفوذ السلجوقي

---

(١) البندق: كرات صغيرة من حجر أو معدن أو طين، تقذف من ماسورة. وقيل: تُقذف من قوس يُسمى البرقيل. المعجم الوسيط ١/ ٥١، ٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٣.

الأجنبي في العراق وهدم دار السلطنة السلجوقية في بغداد حتى أطلق عليه لقب «أسد بني العباس تتصدع لهيبته الجبال»، إن خليفة بمثل هذه المواصفات والإنجازات لابد أن ينتقده منافسوه، وأعداؤه الذين كانوا يتوقون إلى ضعف الخلافة وسقوطها لكي يخلو لهم الجو السياسي، ومن هنا نلاحظ بعض الروايات التي تشكك في إجراءاته وسياساته وخاصة نظام الفتوة الناصرية حيث اعتبرته دلالة طيش ولهو أدى إلى إهمال الخليفة لشؤون الدولة والانشغال برسوم الفتوة مثل الرمي بالبندقية وتربية الطيور وما إلى ذلك، ليس في هذه الروايات شيء من الصحة، إن النتائج السياسية والعسكرية للفتوة التي أعادت للدولة هيبتها وللتضامن الإسلامي بين أمراء الأطراف قوته ومتانته أكبر دليل على ضعف تلك الافتراءات، إن هذه المبالغات هي حلقة من سلسلة التشكيك الذي تعرضت إليه شخصية الناصر وسياساته من أعدائه ومنافسيه داخل دار الإسلام وخارجها، وقد وصلت هذه الحملة ذروتها في اتهامه بمراسلة المغول وحثهم على غزو دار الإسلام وهو أمر لا يعقل أن يقوم به خليفة عربي عباسي هاشمي، لقد كان الخليفة الناصر لدين الله من خلفاء بني العباس المتأخرين الذين يستحقون التقدير لأنهم حققوا مكاسب مهمة للخلافة والمجتمع في وقت صعب اشتدت فيه الأزمات[1].

ولعل رواية المؤرخ ابن الساعي علي بن أنجب (ت٦٧٤هـ) وحكمه على الناصر وعصره أقرب لتأويل الدكتور فاروق السابق حيث قال عنه: «لم يزل في عز وجلالة للأعداء، واستظهار على الملوك والسلاطين في أقطار الأرض مدة حياته، فما خرج عليه خارجي إلا قمعه، ولا مخالف إلا دفعه، ولا آوى إليه مظلوم مشتت الشمل إلا جمعه؛ وكان إذا أطعم أشبع، وإذا ضرب أوجع، وكان يُعطي عطاء من لا يخاف الفقر؛ وقد ملأ القلوب هيبة وخيفة؛ فكان يرهبه أهل الهند ومصر كما يرهبه أهل بغداد، وكان الملوك والأكابر بمصر والشام إذا جرى ذكره في خلواتهم خفضوا أصواتهم هيبة وإجلالًا، ودانت السلاطين للناصر، ودخل في طاعته من كان من المخالفين، وذلت له العتاة والطغاة، وانقهرت بسيفه الجبابرة، واندحض أعداؤه، وكثُر أنصاره، وفتح البلاد العديدة، وملك من الممالك ما لم يملكه أحد ممن تقدمه من الخلفاء والملوك، وخُطب له ببلاد الأندلس، وبلاد الصين، وكان

---

(١) فاروق عمر فوزي: الخلافة العباسية ٢/ ٢١٧، ٢٣٧.



أشد بني العباس يتصدع لهيبته الجبال»[(١)].

ومهما يكن من تقييمات المؤرخين لفترة حكم الناصر؛ فإننا نتفهم دأب الحكم وأمور السياسة في تلك الأزمان؛ لا سيما مع خليفة كالناصر تولى مقاليد الخلافة لما يقرب من خمسة عقود متصلة، كان من الطبيعي فيها أن يتصف بما يتصف به سياسيو عصره من الفروسية والشجاعة والهيبة مع البطش والتضييق على الرعية في بعض الأوقات؛ خاصة وقد علمنا أن السلاجقة انتهوا في عصره، وانشغال مناوئيه من الخوارزميين بالتتار، فهدأت الأوضاع السياسية والأمنية لخلافته؛ وقد كان في المجمل خليفة قويًا، والحكم بطبيعة الحال على الشخصية التاريخية والإنسانية لا يكون إلا وفق ميزان دقيق، وتحرٍ صادق!

القضاء على السلاجقة وفلولهم

ذكرنا أن طغرل الثالث بن أرسلان قد نصّبه محمد البهلوان بن إلدكز بعد وفاة والده في عام ٥٧٠هـ، ومن ثمّ أصبح هذا الفتى الصغير سلطان السلاجقة الجديد الذي لم يكن له من السلطنة بجانب محمد البهلوان إلا الاسم والصفة دون الحقيقة، اللهم إلا الخطبة والدعاء له في كل من الموصل وأرمينية وخلاط وفارس وخوزستان وهي البلاد التي كان يسيطر عليها البهلوان فعليًا.

ومنذ تولي البلهوان أتابكية الدولة السلجوقية منذ سنة ٥٧٠هـ فقد عمل على استتباب حال المملكة السلجوقية من خلال مهادنة ومهاداة أكبر قوتين آنئذ وهما الخوارزميون بقيادة خوارزم شاه علاء الدين تكش في المشرق والخلافة العباسية متمثلة في المستضيء ومن بعده الناصر في الغرب، وظل على هذا الحال حتى توفي البهلوان سنة ٥٨٢هـ مخلفًا وراءه أربعة من الأولاد الذكور اثنان منهما من أم واحدة وهما إينانج محمود وأمير أميران عمر، والآخران أبو بكر وأوزبك من أمهات شتى وأخ له هو مظفر الدين قزل أرسلان، والسلطان الصوري طغرل الثالث بن أرسلان.

وقد كان البهلوان قسّم ولايات السلطنة السجلوقية على أولاده الأربعة فلابنه أبي بكر أذربيجان وأرّان وجعل الرّي وأصفهان وشرق العراق لولديه إينانج محمود وعمر وجعل

(١) ابن الساعي: مختصر تاريخ الخلفاء ص١١١.

همذان لولده أوزبك؛ ونصحهم في حال الاختلاف الرجوع إلى عمهم مظفر الدين قزل أرسلان وهم جميعهم تحت سلطنة طغرل الثالث السلجوقي؛ غير أن مكانة قزل وتقريبه لأبي بكر بن البهلوان وعطاياه لكبار مماليك ورؤساء الجيوش البهلوية قد جعلت الغيرة تدب عند أم إينانج محمود وعمر ومن ثم فإنها دبّرت مؤامرة مع مماليك زوجها للتخلص من قزل وأبي بكر دفعة واحدة، لكنه اكتشف المؤامرة وجعل الولدين معه غير أنه سرعان ما هرب الولدان من عمهما وانضما إلى السلطان طغرل الذي قرّبهما وأراد من خلالهما أن يكون سلطانًا على الحقيقة، وهذا ما جعل قزل في موقف لا يُحسد عليه، وانقسم البيت البهلوي على نفسه إلى معسكرين كل يُريد استئصال شأفة الآخر!

في هذه الأثناء وبالتحديد في بدايات سنة ٥٨٣هـ أرسل قُزل من أذربيجان إلى الخليفة الناصر رسالة عاجلة لعب فيها على وتر عودة أمجاد السلاجقة ما يهدد رأسًا الخلافة العباسية ويُرجعها إلى الوصاية السلجوقية مرة أخرى، وقد جاء فيها: «قد أفضى الأمر بنا إلى ما قد علم أمير المؤمنين، وغدر بنا من العساكر من اطّرح الوفاء، ومال إلى الغدر والجفاء، وصاروا مع ركن الدين طغرل، ومتى لم تحسم مادّة هذا الفساد يُفضي الأمر إلى حالة لا ينادى وليدها، ويعجز عنه أنصار الدولة وعبيدها؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يُجهّز العساكر من صوب بغداد ويصل المملوك من صوب أذربيجان، كان ذلك مما يفتّ في عضد الخصم، ومُلك العراق كله يعود إلى أولياء الدولة، تجري فيه الأحكام الشريفة كما تجري في بغداد وسائر الأعمال»[(١)].

كان الناصر في هذه الأثناء قد تخلص من مجد الدين بن الصاحب أستاذ دار الخلافة وعيّن وزيرًا جديدًا هو جلال الدين عبيد الله بن يونس الذي أمره على الفور بالاستعداد والخروج لمعاضدة قزل أرسلان، وبالفعل كان ابن يونس قد وصل إلى همذان في بدايات ٥٨٤هـ، وقد ذكرنا من قبل أن هذا الوزير لم يكن يملك من الحنكة العسكرية ما يؤهله لخوض غمار هذه الحرب[(٢)].

ويؤكد لنا الحسيني حقيقة ضعف القدرة العسكرية لهذا الوزير بقوله: «خرج (ابن يونس) من بغداد سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وتوجّهوا إلى همدان على موعد من أتابك مظفر الدين قزل أرسلان أنه يجتمع بهم فتأخر وصول أتابك مظفر الدين قزل أرسلان وهوّن

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٧٦، ١٧٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٨.



الوزير جلال الدين بن يونس أمر السلطان طغرل، وقال: إيش الحاجة إلى أتابك مظفر الدين قزل أرسلان، نحن نمضي بمفردنا ونأخذ همدان. فرحل من كرمانشاه طالبًا همدان، ونـزل في وادي مرج، وخرج السلطان طغرل من همدان ومعه جميع أمراء العراق وإينانج محمود ومعه عساكر أتابك بهلوان، والتقى الفريقان وجرت بينهم حرب، شابت منها الذوائب .. وامتلأت أرض المعركة من القتلى بين الفريقين»[١]. وأُسر ابن يونس في نهاية المطاف.

لكن يذكر الحسيني أن العساكر التي رجعت منهزمة إلى بغداد قد أعاد تجهيزها الخليفة الناصر بسلاح وافر وعدة عظيمة وتحت قيادة عسكرية مخضرمة، قال: «لما رجع العسكر إلى بغداد تقدّم الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بتجهيزهم مرّة ثانية، وإزاحة علتهم وأخرج من العدة الوافرة والأسلحة العظيمة والأموال الجسيمة ما لا عهد لأحد بمثلها؛ خارجة من الديوان العزيز، وقدّم عليهم الأمير مجاهد الدين خالص الخاص، وخرج من بغداد باقي السنة، فلما قرب من همدان وكان السلطان طغرل بها، وعلم كثرة العسكر، وأن المقدّم عليهم ذو جدّ جديد وبأس شديد، وأنهم قد قصدوه بقلوب مشحونة بالحقد، ونيّات صادقة على الصبر، فارق همدان إلى صوب أصفهان ودخل عسكر بغداد إلى همدان، وأقام بها أيامًا ووصل إليهم الأتابك مظفّر الدين قزل أرسلان فالتقوه وأكرموه وأوصلوا له مراسم مولانا أمير المؤمنين الناصر لدين الله بمراعاته وتسليم الولاية إليه، وخاطبوه بالملك نصير أمير المؤمنين»[٢].

وقد هرب طغرل الثالث إلى أذربيجان عند أميرها عز الدين حسن بن قفجاق وقد تزوج أخته وصارا يدًا واحدة وأخذا ينهبان ويحاولان ضم البلاد الخاضعة لقزل أرسلان لهما، لكن سرعان ما سار لهم قزل وابنا أخيه محمود وأبو بكر فالتقوا مع طغرل وحسن بن قفجاق الذين هُزما وتقهقرا إلى قلعة على مقربة من الزاب[٣]، وأرسل طغرل للخليفة الناصر يطلب منه العفو والصفح؛ لكن قزل أرسلان تبعه وحاصره ثم قرر طغرل أن يُسلم نفسه لعمه قزل ظنًا منه أنه سيعفو عنه للقرابة التي بينهما، لكن قزل أسره واعتقله في قلعة بالقرب من تبريز؛ غير

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٧٧.

(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٧٨.

(٣) هناك عدة أنهار أُطلق عليها اسم الزاب، والمقصود هنا الزاب الأسفل، وهو نهر يتفجّر من «جبال تسمى جبال السّلق بين شهرزور وأذربيجان، حتى يفيض في دجلة عند السّنّ فوق تكريت». البغدادي: مراصد الإطلاع ٢/ ٦٥٢.

أن قزل أرسلان قد أساء السيرة في الرعية بل في أقاربه وأمرائه، قال الأصفهاني: «قبضه (أي طغرل) يوم قدومه واعتقله في بعض المعاقل، فتعفّت آثار تلك الطوائل، وسكن الدهر، وقُضي الأمر، وضرب قزل أرسلان النوب الخمس، ووطن على الاستبداد بالسلطنة النفس، ولهى بالصفاء عن الكدر، وغفل عن القضاء والقدر، فوُجد ليلة من الليالي بهمذان مذبوحًا على فراشه، وقد يئس عاصر الملك به من انتعاشه، وكان بين حفّاظه وحُراسه، ولم يُعلم من الذي أقدم على قطع رأسه، وذلك في شعبان سنة ٥٨٧هـ»[١]. ويذكر الحسيني أن الذي قتله هي زوجته الجديدة إينانج خاتون زوجة أخيه البهلوان وأم محمود وعمر، بعدما غارت عليه من أفعاله الفاحشة[٢].

وتولى مُلك أذربيجان من بعده ابن أخيه أبو بكر بن البهلوان، واستطاع السلطان طغرل الثالث الهرب من الأسر والاعتقال، وحاول أن يتسلم تبريز عاصمة أذربيجان لكنه لم يستطع لامتناع ابن عمه أبي بكر بن البهلوان وكان أولاد عمه الباقين في الري محمود وعمر ومعهم عساكر من العراق، فلجأ طغرل إلى همدان ثم إلى قزوين وانضمت إليه ووقعت المواجهة بينهم وبينه ثم هُزموا أمامه وفرّ محمود إلى أذربيجان ثم لم تجد أمُّه حيلة سوى أن تلجأ إلى طغرل وتعرض عليه نفسها كزوجة وما معها من الأموال وكنوز زوجها السابق محمد البهلوان فقبل طغرل ذلك وتزوجها في همدان ثم توفيت بعد فترة وظن ابنها محمود أن طغرل قتلها، وخاف منه، ولجأ هو وأخوه عمر إلى تبريز وأخذوها ثم كثر جمعهم وصمم أخوهم أبو بكر على محاربتهم لأنهم استولوا على جزء من مملكته، فهزمهم وشردهم، فلجأوا إلى الكرج والتركمان في الشمال واتحدوا لمحاربته من جديد، وبالفعل واجهوه وهزموه هذه المرة، لكن سرعان ما عاد ليستولي أبو بكر بن البهلوان على بلاده من جديد، وينغمس في ملذاته وشهواته[٣]!

أما طغرل الثالث فإنه حاول جاهدًا أن يسترجع أمجاد البيت السلجوقي بعدما أمن مكر أولاد عمه محمود وأبو بكر ابنا البهلوان؛ فأراد أن يضم الرّي وكان الخوارزميون مستولين

---

(١) الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق ص٢٧٧.

(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٨١.

(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص ١٨٢ – ١٩٠.

عليها من قبلُ، فاستولى عليها وقتل الخوارزميين ثم استولى على أصفهان، ثم انتقل أخوه محمود إلى علاء الدين خوارزمشاه، وعزم خوارزمشاه على استرجاع الري وأصفهان والقضاء على قوة طغرل الثالث السلجوقي التي كانت قد بدأت تحدث اضطرابًا للخوارزميين والعباسيين على السواء.

وفي وسط انتصارات طغرل الثالث أرسل الخليفة الناصر رسالة في حدود عام ٥٨٩هـ إلى السلطان علاء الدين تكش خوارزمشاه «يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد»[١]، ولم يجد علاء الدين فرصة أسنح من هذه لا سيما بعدما قضى على الاضطرابات الداخلية في مملكته واستولى على مملكة أخيه سلطان شاه بعد موته، فاتجه مسرعًا من أقصى الشرق في نيسابور إلى الري في آسيا الوسطى.

ولما علم طغرل باقتراب وصول العساكر الخوارزمية إليه، مضافًا إليها ابن عمه إينانج محمود بن البهلوان وعساكره عزم على الخروج رغم قلة عسكره وتشتتها في الأقاليم، ورفض نصيحة الناصحين له من كبار أمرائه بالانسحاب التكتيكي وإعمال الحيل العسكرية والفخاخ لعلاء الدين خوارزمشاه وعسكره وإرهاقهم لكي يجبروا على الصلح، فأبى ذلك كله وقال لهم: «هذا رأي جيد لو سمحت نفسي به، وأنا ما أرى أن يتحدث الناس عني ويقولوا إنني فررتُ من بين يدي هذا الرجل، وأيضًا يدخل الخوارزميون إلى الري ويتحكمون فيها على أهلها، وهم قوم قد أظهروا محبتي وبالغوا في مشايعتي ومتابعتي فيتحكّمون فيهم ويظلمونهم ويغشمونهم، ولست أفعل ذلك»[٢].

فخرج طغرل الثالث من فوره إلى معسكره بالقرب من الرّي وتجهّز للمعركة، فلما بدأت «حمل بنفسه في وسط عسكر خوارزم شاه فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول (سنة ٥٩٠هـ) وحُمل رأسه إلى خوارزم شاه، فسيّره من يومه إلى بغداد، فنُصب بها بباب النوبي عدة أيام، وسار خوارزم شاه إلى همذان وملك تلك البلاد جميعها، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سيّر عسكرًا إلى نجدة خوارزم شاه، وسيّر له الخلع

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٢.
(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٩٣.

السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب»[١].

وبموت طغرل الثالث تنتهي الدولة السلجوقية إلى الأبد بعد سيطرة وقوة دامت ما يقرب من قرنين على آسيا الإسلامية وأذربيجان والأناضول والعراق والشام، قال الحسيني عن موته: «وهو آخر ملوك السلجوقية، صارت جمرة آل سلجوق رمادًا تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرًا»[٢].

وبطبيعة الحال، فإن الظافر الجديد الذي استولى على هذه البلاد الممتدة قسّمها على أمرائه وفي مقدمتهم محمود بن البهلوان الذي قتل بيديه ابن عمه طغرل الثالث، وقد كان تابعًا لأحد أمراء خوارزم شاه، وسنرى عند حديثنا عن العلاقة بين الخوارزميين والخليفة الناصر حروب محمود بن البهلوان مع الوزير العباسي ابن القصّاب، والمحاولات المستميتة من قبل العباسيين للاستيلاء على تركة السلاجقة!

لماذا سقط السلاجقة؟!

لقد كانت هناك أسباب عدة لمحناها معًا في سرد قصة السلاجقة من البداية إلى النهاية، وطبيعة العلاقات بينهم وبين الدول المختلفة وعلى رأسها العلاقة مع الخلافة العباسية، رأينا الضعف بدأ يدب في أوصال الدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة ٤٨٥هـ؛ وما أحدثته وفاته من صراع على السلطة بين أولاده وأحفاده من جانب وبين الخلفاء العباسيين من جانب آخر؛ فضلا عن الصراع بين الكتلتين الإسلامية والنصرانية فإذا تركنا كل هذا فإننا نجد أن هناك عوامل أخرى انبثقت من جوف الدولة وأخذت تعمل على إضعاف القوة السلجوقية نفسها، وأهمها ذلك الصراع العنيف الذي قام بين أمراء السلاجقة، كما نجد طائفة الإسماعيلية التي كان رائدها تكوين صرح قوي على أشلاء القوى الإسلامية المتداعية، وأخيرًا نجد اتساع النزعة إلى الاستقلال بين دول الأتابكة كان من أهم عوامل ذلك التفكك.

لقد أورث ملكشاه أبناءه دولة موطدة الأركان، كما أورث الشرق الإسلامي أبناء تغلب على نفوسهم روح الطمع بدلًا من أن تسودهم روح التساند والاتحاد؛ فأعمتهم المصلحة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٣.

(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص١٩٤.

الشخصية وانشقوا على أنفسهم، وقادهم هذا كله إلى حروب وفتن داخلية صرفتهم عن النظر في مصالح تلك الدولة التي استلزمت الكثير من الجهد في تكوينها؛ فانشق أبناء ملكشاه على أنفسهم في كل من فارس والعراق، وأخذ كل منهم يسعى إلى جمع السلطة في يده؛ كما برز تُتش من الشام يسعى إلى مد نفوذه إلى ما خلفه أخوه ملكشاه من مُلك، وهكذا استمر ذلك الصراع بين أبناء البيت السلجوقي وأدى هذا إلى تفكك القوى الإسلامية وانحلالها؛ مما ساعد على نجاح القوى الخارجية الطامعة في اغتصاب ما تستطيع اغتصابه.

لكن ثمة عامل آخر أودى بكيان الدولة السلجوقية يرجع كما ذكرنا إلى طائفة الإسماعيلية الباطنية؛ فلقد أخذ الفاطميون يُروّجون للمذهب الشيعي في بلاد المشرق منذ أن استتب لهم الأمر في مصر، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إضعاف الخلافة العباسية إذا لم يتمكنوا من القضاء عليها، ثم حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) وتشيّع فريق لابنه نزار، وتشيّع فريق آخر لابنه المستعلي؛ واتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق في إقليم إيران مهدًا لها بزعامة الحسن بن الصباح؛ أما الفرقة الثانية فقد ظل أتباعها في مصر، وقد استطاع الحسن بن الصباح أن ينتهز فرصة ذلك الشقاق والانحلال الحادث في جوف الشرق الإسلامي ليقوى بمذهبه، ولا يخفى أن السياسة المرسومة لنجاح هذه الطائفة كانت تهدف إلى تقويتها على حساب الانقسام الذي حدث في قلب الدولة سواء أكان ذلك الانقسام دينيا أم عنصريًا، وكانت النتيجة أن أضاف الحسن بن الصباح إلى عوامل اضمحلال الشرق الإسلامي عاملًا جديدًا يفوق العوامل التي تحدثنا عنها قوة وعنفًا، ويُعتبر السلطان ألب أرسلان السلجوقي (ت٤٦٥هـ) مسئولًا إلى حد كبير عن نجاح هذه الدعوة إذ إنه تسبّب في حجب أخبارهم عن الدولة بعد أن ألغى نظام البريد الذي كان سائدًا في الدولة الإسلامية، فلم يتمكن السلاجقة من استقصاء الأخبار في دولتهم.

وكان لمدارس الدعوة الشيعية في القاهرة أكبر الأثر في نجاح الدعوة بفضل ما كانت تُرسله من دعاة إلى بلاد فارس، كما كان اضطهاد العباسيين لهم والتنكيل بمن يقع في يدهم من هؤلاء سببًا في تماسك هذه الفئة وتكاتفها؛ شأنها في ذلك شأن كل أقلية مضطهدة، وقد اتخذ الحسن بن الصباح من قلعة ألموت مركزًا لدعوته، ومنها أخذ يُرسل دعاته إلى سائر

أقاليم شرق الخلافة العباسية، كما عمل على الاستيلاء على كثير من القلاع في قوهستان وخوزستان وغيرهما؛ مستعملًا اللين تارة والعنف تارة أخرى، وفضلًا عن ذلك فقد أكثر من بناء القلاع الحصينة فوق الجبل وأصبح يهدد البلاد الإسلامية في غرب آسيا.

والأمر الذي لا شك فيه أن الحسن بن الصباح كان يهدف إلى إسقاط الخلافة العباسية بطرق القتل والإرهاب وسفك الدماء في كل ناحية من نواحي الشرق الإسلامي، مستعينًا في ذلك بجماعة الفدائيين الذين اختارهم من الشبان المتحمسين، والذين كانوا لا يترددون في التضحية بأرواحهم في سبيل الاستجابة إلى ما يُؤمرون به، فنجحوا في أن يوقعوا الرعب في قلوب السكان الآمنين، فقد مهر هؤلاء في فن التخفي واستعمال السلاح، كما مهروا في استخدام اللغات الأجنبية، وكانوا يقتلون المسلمين في أيام الجمع في المساجد، ومن المهم أن نذكر أن شر الإسماعيلية لم يستفحل تمامًا إلا بعد وفاة السلطان ملكشاه؛ فقد انتهز الإسماعيلية فرصة ذلك الشقاق الذي دب في جوف الدولة بين أفراد الأسرة السلجوقية، ثم الصراع الذي قام بين السلاجقة وبين الخلافة العباسية وأخذوا يعملون لأنفسهم على حساب هؤلاء جميعًا، ووصل الأمر بالسلاجقة إلى أنهم كانوا يوعزون إلى الإسماعيلية بقتل الخلفاء العباسيين كما فعلوا مع الخليفة الراشد، وقيل: فعل ذلك السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه مع الخليفة المسترشد أيضًا[1].

ومن العوامل التي أدت إلى انحلال الدولة السلجوقية ومن ثم ضعف المشرق الإسلامي فقد تمثّل في نظام الأتابكيات؛ فقد أكثر السلاجقة من الأتراك في بلاطهم، وأسندوا إليهم الوظائف الرئيسية في قصورهم، فإذا أظهر أحدهم كفاءة خاصة أو صفة ممتازة وصل إلى أعلى المراتب في الجيش وفي البلاط، أو عُهد إليه بحكم إقليم من أقاليم الدولة، وكان السلاجقة يعهدون في تربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك، فإذا عيّن السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن، ذهب معه هذا التركي ليكون عونًا له في حكم الإقليم الذي أُسند إليه.

ولم يكن هناك من خوف على الدولة السلجوقية خاصة والخلافة العباسية عامة من نظام الأتابكة، مادام سلاطين السلاجقة من القوة بحيث يستطيعون فرض سيطرتهم ونفوذهم على من تسوّل له نفسه التفكير في الاستقلال، ومادام في الدولة جيش قوي تُسيطر عليه قوة

(١) الدياربكري: تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٢.



واحدة، ولكن الخوف كل الخوف أن يضعف سلاطين السلاجقة فتضعف دولتهم، وينفرد كل حاكم من هؤلاء بحكم ما تحت يده، وعلى هذا الأساس فقد كان طبيعيًا أن يستقلّ الأتابكة بالحكم بعد وفاة السلطان ملكشاه، كما كان من الطبيعي أن يتسابق كلٌّ إلى توسيع رقعة البلاد التي تحت يده على حساب جاره، ولذلك قام الصراع بين هؤلاء الحكام في الوقت الذي قام فيه الصراع بين أفراد البيت السلجوقي وأصبحت أقاليم الشرق الإسلامي على هذا الأساس مفككة الأوصال، لا تأتمر بإمرة حاكم واحد، كما كان طبيعيًا أن ينتهز النهازون من أعداء الدولة في الخارج هذه الفرصة ليعملوا على اقتطاع ما يستطيعون اقتطاعه من أملاك الدولة الإسلامية .. وبهذا الذي سبق سقطت الدولة السلجوقية(١)!

الخوارزميون والناصر العباسي

الشرق بالنسبة للخلافة العباسية يكاد أن يكون الجهة الوحيدة للأخطار المحدقة، وكما قيل لا يفل الحديد إلا الحديد، فكل خطر مشرقي عانت منه الخلافة العباسية ردحًا من الزمن لم يقضِ عليه إلا بقوة تشبهه، فلكل شيء آفة من جنسه، فقد قضى السلاجقة على البويهيين والآن يستعين العباسيون بالخوارزميين للقضاء على السلاجقة وكلهم من الهضبة الإيرانية وبلاد ما وراء النهر!

من هم الخوارزميون؟!

يقع إقليم خوارزم في أقصى شرق الخلافة العباسية، وحدوده من الغرب بلاد الترك الغربية، ومن الجنوب خُراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك، وكان هذا الإقليم من ولايات الاتحاد السوفيتي سابقًا، وهو الآن موزّع بين الجمهوريتين الإسلاميتين أوزباكستان وتركستان(٢).

لقد كان الجزء الشرقي من الخلافة العباسية قد أمسى بعد سقوط السلاجقة أُلعوبة في أيدي الأمراء المتغلبين من الأتراك الذين سببت حروبهم المتواصلة الخراب والدمار وضعف البنية العسكرية لمقاومة أي تحد خارجي.

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكُبرتي، مقدمة المحقق حافظ أحمد حمدي ص٦ - ١٠.
(٢) عصام الدين الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي ص١٥٩.

والحق أنه منذ عام ٤٩٠هـ كانت بلدان المشرق الإسلامي بدأت تعود إلى حالة من الهدوء والاستقرار بفضل مجهود السلطان السلجوقي القوي سنجر بن ملكشاه (ت٥٥٢هـ) الذي استطاع توحيد إقليم فارس والبلدان الواقعة على جانبي نهر جيحون، وكان من الطبيعي أن يُقرّ الأمراء النابهين على الولايات الخاضعة له، وكانت خوارزم التي تقع في الشمال الشرقي من مرو عاصمة الدولة السلجوقية الخراسانية قد آلت إلى القائد العسكري محمد بن أنوشْتِكين الذي سبق للسلطان بركياروق بن ملكشاه أن ولاه عليها، وجاء سنجر وأقره عليها كذلك، وسرعان ما جنح ابن أنوشتكين إلى الاستقلال بإماراته متخذًا لقب خوارزمشاه.

على أن أتسز بن محمد بن أنوشتكين الذي خلف والده في حكم خوارزم ما لبث أن خلع الطاعة بالكلية عن السلاجقة بعكس والده الذي كان قد أبقى العلاقات قائمة بين الجانبين، الأمر الذي دفع السلطان سنجر إلى إعلان خلعه من إمارة خوارزم جزاء عصيانه وتمرده.

والتقى الجانبان الخورزمي والسلجوقي وانهزم أتسز وقتل ولدٌ له سنة ٥٣٢هـ، ما دفعه للانتقام لنفسه وولده وإمارته التي طُرد منها، هذا الانتقام تمثّل في تحريض قبيلة القراخِطاي المغولية الوثنية وهم الخَطا - كما يذكر المؤرخون - على مهاجمة سمرقند، وهذه القبائل قريبة الصلة من ناحية النسب بالأتراك الخوارزمية، وكانوا يُعرفون بسلالة لياو، ومن هنا لا يزال الروس إلى اليوم يسمون الصين خِتاي، ولكن الجرجينيين وهم شعبٌ تُنكُتيّ طردوهم من هناك في حدود سنة ٥٢٠هـ، فارتدوا في اتجاه الغرب.

وهاجم المغول القراخِطائيون في بادئ الأمر بلاد القيرغيز على ضفاف نهر اليَنِيسي، ثم هاجموا كاشغر وخُتَن في الجنوب، وفي المحرم من سنة ٥٣٦هـ أنزلوا بالسلطان سنجر وجنوده هزيمة منكرة على الضفة الشرقية من نهر جيحون، ومن ذلك الحين صاروا يحكمون رقعة واسعة جدًا من الأرض تمتد من الينيسي في الشمال إلى بلخ في الجنوب، ومن خوارزم التي انقلب أميرها أتسز بن محمد تابعًا لهم في الغرب حتى الإمبراطورية الأويغورية في الشرق، واتخذوا بالقرب من بلاساغون على ضفاف نهر تشوي عاصمة لهم(١).

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٧٧.



وبعد رجوع القبائل المغولية الوثنية واستقرارها في بلاساغون كما مرّ بنا، اتجه سنجر إلى محاصرة خوارزم ليرجعها إلى دولته كما كانت، لكن أتسز أحكم غلقها جيدًا، ولما طال حصار سنجر لها أرسل أتسز يطلب الصلح على أن يدين بالطاعة والولاء للدولة السلجوقية الخراسانية وهذا ما قبله سنجر بسهولة؛ لصعوبة دخول المدينة واحتمال عودة القبائل الوثنية

مرة أخرى، وتم الصلح بين الطرفين سنة ٥٣٨هـ[١].

وفي ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٥١هـ توفي الأمير أتسز بن محمد بن أنوشتكين عن عمر ناهز الستين عامًا، وولي من بعده ابنه إيل أرسلان بن أتسز، وأقرّه السلطان سنجر على ولاية خوارزم.

كان أمام الأمير إيل أرسلان عدة تحديات منها:

١- التحدي السلجوقي الذي واجهه بعد وفاة السلطان سنجر متمثلًا في الملك المؤيد أي أبه وهو أحد مماليك السلطان سنجر والمستولي على دولته بعد وفاته.

٢- التحدي القراخطائي بمحاولة التملص منهم، وعدم دفع الجزية السنوية التي كان يدفعها لهم والده سنويا.

٣- التحدي السلجوقي العراقي لا سيما من الأتابك شمس الدين إلدكز الوصي على أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه الذي تم تعيينه أميرا على سلاجقة العراق سنة ٥٥٦هـ.

وظل إيل أرسلان في مواجهة هذه التحديات الثلاثة دون تقدم ملحوظ لصالحه حتى توفي في رمضان سنة ٥٦٧هـ ليخلفه ولده علاء الدين تَكش[٢].

أسرع الأمير سلطان شاه محمود بن إيل أرسلان لتنصيب نفسه خوارزمشاه، ولما كان الابن الأكبر علاء الدين تكش هو الحقيق بزعامة البيت الخوارزمي؛ فقد قامت الحرب بين الأخوين؛ حيث استعان سلطان شاه بالملك المؤيد أي أبه صاحب نيسابور وخراسان، واستعان علاء الدين تكش بالقبائل الوثنية الخطائية، ما أدى إلى هزيمة سلطان شاه بل ومقتل أي أبه سنة ٥٦٨هـ.

ولم يهدأ لسلطان شاه خاطر، فتارة استعان بالقبائل الخطائية التي كانت قد دخلت في صراع مع علاء الدين الذي رفض أن يدفع لهم الجزية وقد انهزموا حينما فتح عليهم علاء الدين تَكش نهر جيحون.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٢٨. تدمري.

(٢) عفاف سيد صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص٤٨- ٥٩.



وتارة كان سلطان شاه يستعين بطغان شاه بن الملك المؤيد أي أبه وفشل أيضا من المملكة الخوارزمية، ثم في نهاية المطاف استولى سلطان شاه على جزء من مملكة طغان شاه وبالتحديد سرخس وطوس وذلك بمعاونة الخطائيين له.

على أن علاقة سلطان شاه بالسلطان الغوري سلطان الهند والسند وجزء من جنوب خراسان ساءت حينما طلب منه أن يُسلم له عدة مدن قريبة من دولته، الأمر الذي جعل غياث الدين الغوري يرفض هذا الطلب، وقامت الحرب بين الطرفين مرتين بسبب تعنت سلطان شاه، وفي المرة الثانية كانت هزيمة سلطان شاه.

حاول علاء الدين تكش أن يستغل هزيمة أخيه ليقبض عليه، إلا أن سلطان شاه عرف تدبيره، ورجع تائبا نادما إلى الملك الغوري يطلب منه المساعدة، وبالفعل ساعده غياث الدين واتجه معه في حملة عسكرية كبيرة إلى خوارزم التي كان قد تركها علاء الدين خوفًا من هجوم طغان شاه ملك نيسابور ففر هاربًا إلى القبائل الخطائية، وظل الوضع على ما هو عليه حتى توفي سُلطان شاه سنة ٥٨٩هـ، الأمر الذي أعاد العلاقات إلى طبيعتها بين خوارزمشاه علاء الدين تكش وبين السلطان غياث الدين الغوري.

وفي هذا العام أيضًا ٥٨٩هـ جاءت الرسل من الخليفة الناصر تطلب من علاء الدين تكش أن يقضي على قوة طغرل الثالث الطامح لعودة ملك السلاجقة، وهذا ما قام به بالفعل علاء الدين تكش، واستطاع أن يستولي على كامل إقليم إيران حتى حدود الخلافة العباسية في العراق سنة ٥٩٠هـ كما مرّ عند حديثنا المستفيض عن السلطان طغرل الثالث.

العلاقات العباسية الخوارزمية قبل الناصر لدين الله

كانت الدولة الخوارزمية قد بدأت تأخذ منحى الاستقلال الحقيقي عقب وفاة السلطان السلجوقي سنجر بن ملكشاه سنة ٥٥٢هـ، وكانت قد حرصت على تقوية موقفها الشرعي بالاتصال بالخلافة العباسية متمثّلة في الخليفة المقتفي ومن بعده ابنه المستنجد.

وقد حفظ لنا رشيد الدين الوطواط (ت٥٧٦هـ) كاتب الدولة الخوارزمية في عهد أتسز ابن محمد (ت٥٦٧هـ) عديد الرسائل المهمة المرسلة من الخوارزميين إلى العباسيين في فترة حكم كل من الخليفة المقتفي (ت٥٥٥هـ) وولده المستنجد (ت٥٦٦هـ).

فمنها مراسلة يلتزم فيها أتسز بطاعة الخلافة العباسية والولاء لها، وإن «من اعتصم بحبل مشايعته، وانتظم في سلك مبايعته نال في الدارين مناه، وحاز في المحكّين مبتغاه»[1].

وقد بيّن الوطواط أن الخلفاء العباسيين بذلوا قصارى جهدهم في حماية الدين وبيضته والمراماة عن حريم الحق وحوزته، وأنهم ساعدوا السلاجقة لكنهم لم يحفظوا لهم مساعدتهم، فقابل «هذا الذي هو اليوم أكبر تلك القبيلة سنا وحرمه، وأعظم تلك العشيرة جاهًا وحشمة جنات العبد وأسلافه بما قابل من استئصال بقاعه واستباحة دماء أتباعه وأشياعه»[2].

وقد حاول بذلك أن يُثبت للخليفة العباسي أن ما يقوم به الخوارزميون من الاستيلاء على ممتلكات السلاجقة هو حق وواجب؛ «لقلة شفقتهم على الرعايا، وإبرازهم السنن الضائرة من الأيام، وإحداثهم الرسوم الجائرة في الإسلام»[3].

وقد شرح الوطواط للخليفة المقتفي ما قام به السلطان سنجر من حملات على أراضي الخوارزميين، وما فعله بهم عند منطقة هزار آسف[4]، وعدد الهزائم التي مني بها السلاجقة على أيدي الخوارزميين، وهربوا إلى قلعة اسكندر وهي قلعة في أقصى ديار خوارزم، ويُعلل الوطواط سبب انتصار الخوارزميين كان «ببركة موالاة الدولة القاهرة الإمامية النبوية المقتفية».

وفي مكاتبة أخرى قدمها الوطواط نيابة عن السلطنة الخوارزمية بيّن ضرورة الالتزام بطاعة أمير المؤمنين؛ لكن ثمة عوائق وقفت أمام الخوارزميين أهمها «أن خطة العبد[5] لصيقة ببلاد الشرك من ديار الترك، والعبد في أكثر أوقاته وأغلب حالاته مشغول بمحاربة أعداء الدين ومقارعة أحزاب الشياطين، يُذل صعابهم، ويفل أنيابهم، ويرد على بحبوحة الإسلام خيلهم وركابهم».

---

(١) رشيد الدين الوطواط: رسالة إلى المقتفي ص٥.

(٢) رشيد الدين الوطواط: رسالة إلى المقتفي ص٦، ٧.

(٣) رشيد الدين الوطواط: رسالة إلى المقتفي ص٧.

(٤) قال ابن حوقل: «تدعى من خوارزم هزارآسف هزارآسب». صورة الأرض ٢/ ٥٢٢. وهزارآسف أو هزارآسب «مدينة كبيرة وقلعة حصينة بأرض خوارزم. الماء محيط بها وهي كالجزيرة ليس إليها إلا طريق واحد». القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص٥٦٧.

(٥) يقصد سلطنة أتسز الخوارزمية.

وقد اهتم الخوارزميون بضرورة الحصول على الخلع والتشريفات التي تصل من دار الخلافة إليهم ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية، وكانت لها أثر حسن عليهم، ويؤكد «أن الخلع الحاصلة للعبد والتشريفات الواصلة إليه من المواقف المقدسة قدسها الله فقد هزت عطفه وشدت أزره وأطلعت نجوم فخره».

وقد ظلت العلاقة وطيدة بين الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية بعد وفاة الخليفة المقتفي سنة ٥٥٥هـ؛ فقد أكد في مراسلة إلى الخليفة المستنجد مدى قوة الخلافة في عهده فهي «رفيعة البنيان، منيعة الأركان، والإمامة راسية الأوتاد، سامية الأطواد، والملة مشدودة السواعد، مشيدة القواعد». وهذا ما لاحظناه بالفعل في خلافة المستنجد التي امتازت بالهدوء والاستقرار.

ويقول الوطواط نيابة عن الخوارزميين في مناسبة عزاء المستنجد بوفاة والده المقتفي: «فإن ساءنا فقدُ الإمام الذي مضى؛ فقد سرّنا عهدُ الإمام الذي بقي، وإن في بقاء مولانا وسيدنا الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، أدام الله جلاله، ومدّ على الخافقين ظلاله؛ لعِوضًا من كل ما يفوت، وخلفًا من كل من يموت»[1]. كما أكد للخليفة المستنجد على أن الدولة الخوارزمية تستخدم رسوم الخلافة «فزينت الخطبة بميامن اسمه، وحُلّيت السكة بمحاسن رسمه».

وقد ظلت العلاقة بين الخوارزميين على هذه الحالة من التناغم والوفاق؛ حتى استنجد الناصر بالله بعلاء الدين تكش ليساعده في التخلص من السلاجقة.

الناصر والخوارزميون من التعاضد إلى التصارع!

لقد عاصر الخليفة العباسي القوي الناصر الدولة الخوارزمية في عهد أمرائها الثلاثة الأخيرين وهم علاء الدين تكش بن إيل أرسلان (ت٥٩٦هـ) وابنه علاء الدين محمد بن تكش (ت٦١٧هـ) وابن ابنه جلال الدين منكوبرتي بن محمد (ت٦٢٨هـ).

وقد شهدت بل وشاركت الدولة الخوارزمية في عهد هؤلاء الأمراء الثلاثة في سلسلة من الأحداث المهمة والكبيرة التي شهدها العالم الإسلامي في هذه الأوقات.

---

(١) الوطواط: رسالة إلى المقتفي ص٢٦.

علاء الدين تكش (ت ٥٩٦هـ)

أول هذه الأحداث قضاء علاء الدين تكش خوارزمشاه بصورة نهائية على الدولة السلجوقية، ففي سنة ٥٩٠هـ «حَارب تكش طغرلبك بِالْقربِ من الرّيّ وَحمل طغرلبك بنَفسِهِ فَقتل فِي الرَّابِع وَالْعِشْرين من ربيع الأول من هَذِه السّنة، وَأرْسل تكش رَأسه إِلَى بَغْدَاد، وَسَار فَملك هَمدَان وَتلك الْبِلَاد، وَسلم بَعْضهَا إِلَى ابْن البهلوان وأقطع بَعْضهَا لمماليكه وَرجع إِلَى خوارزم»[١].

وكنا قد توقفنا عند خلع مماليك السلاجقة الطاعة لإينانج بن البهلوان الذي فض حلفه مع الخوارزميين واستولى على الري والجبال، ثم تمت هزيمته على يد الوزير العباسي مؤيد الدين بن القصّاب، وقد عيّنوا بدلًا منه مملوكًا اسمه كوكجة.

اتجهت فلول السلاجقة من الري بقيادة كوكجة إلى أصفهان لطرد القوات الخوارزمية منها، لكن قوات الخلافة العباسية كانت تعمل في إيران على أكثر من محور، ففي خوزستان ابن القصّاب، وفي أصفهان كان سيف الدين طغرل مملوك الخليفة الناصر.

ولما علم كوكجة ومن معه بوصول العسكر العباسي إلى مقربة من أصفهان للاستيلاء عليها وطرد الخوارزميين منها؛ خوفًا من استيلاء الخوارزميين على العراق كما فعل السلاجقة من قبل، أرسل إلى «مملوك الخليفة سيف الدين طغرل، يعرض نفسه على خدمة الديوان، ويظهر العبودية، وإنه لما قصد أصفهان في طلب العساكر الخوارزمية، وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار في طلبهم، فلم يدركهم، وسار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان»[٢].

استطاع المملوك والقائد العسكري كوكجة أن يطرد الخوارزميين من أصفهان، بل ويتعقب فلولهم حتى وصل إلى منطقة طفس وكانت خاضعة للإسماعيلية الباطنية، ولم يجد بدًا من الرجوع إلى أصفهان والاستيلاء عليها.

ثم أرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يجعله واليًا على الري وساوة وقم وقاجان وما حولها حتى مرذغان، ويكون للخليفة الناصر أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين، فوافق الخليفة على

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ١٣٧. تدمري.

ذلك، وأرسل إليه منشور التولية والخلع. وقد قُتل كوكجة سنة ٦٠٠هـ على يد أيدغمش كبير مماليكه، الذي عيّن نفسه مدبرًا لمملكة أوزبك بن البهلوان الأمير الضعيف(١)!

وبذلك دخلت إيران أو العراق العجمي كما كان يُسمى تحت حكم أسرة ابن البهلوان مرة أخرى مع السيادة الشكلية للخلافة العباسية.

وعلى الفور أرسل الخليفة الناصر أحد كبار الأمراء الأيوبيين لهمذان ليتسلمها واسمه أبو الهيجاء السمين، وكان إقطاعه بيت المقدس، لكنه قد أُخذ منه من العزيز والعادل الأيوبيين، الأمر الذي جعله يقبل مهمة الناصر له.

وصل أبو الهيجاء إلى همذان في صفر سنة ٥٩٣هـ وكان بها الأمير أوزبك بن البهلوان وابنه وبعض كبار القادة الآخرين، وقد استقبلوه استقبالًا حافلًا، واجتمعوا به ووثقوا فيه ثقة مطلقة، لكن أبا الهيجاء تصرّف من عقله، واتفق مع أحدهم على اعتقال كل من أوزبك وولده وبعض كبار القادة الآخرين «فلما وصل الخبر بذلك إلى بغداد، أنكرت هذه الحال على أبي الهيجاء، وأمر بالإفراج عن الجماعة وسيرت لهم الخلع من بغداد تطيبا لقلوبهم، فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا أمنوا، ففارقوا أبا الهيجاء السمين، فخاف الديوان، فلم يرجع إليه، ولم يمكنه أيضا المقام، فعاد يريد إربل لأنه من بلدها هو، فتوفي قبل وصوله إليها وهو من الأكراد الحكمية من بلد إربل»(٢).

لم يقبل علاء الدين تكش بهذه الهزيمة وطرد القوات الخوارزمية كما فُعل بها من قبل على يد الوزير العباسي ابن القصاب سنة ٥٩١هـ، وسرعان ما أعدّ حملة عسكرية قوية انطلقت إلى «الري وهمذان وأصفهان وما بينهما من البلاد وملكها، وتعرض إلى عساكر الخليفة، وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد»(٣).

في هذه اللحظة نزل خبر طلب علاء الدين تكش الخوارزمي إظهار السلطنة والخطبة له في بغداد كالصاعقة على الخليفة الناصر؛ إذ طالما خاف العباسيون منذ المقتفي أن يرجع إليهم من يسومهم سوء العذاب والاضطهاد كما فعل البويهيون والسلاجقة فيهم على مدى قرنين ونصف تقريبًا.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٠١. تدمري.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٤٤. تدمري.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٥٣. تدمري.

لم يجد الناصر أمامه من سبيل سوى أن يُشغل علاء الدين بمن هو أقوى منه عدة وعددًا، وأرسل على الفور طلب استغاثة إلى السلطان الغوري غياث الدين محمد بن سام سلطان الهند وأفغانستان سنة ٥٩٤هـ يأمره فيه بتجهيز حملة عسكرية لردع علاء الدين تكش؛ لأنه عزم على احتلال العراق.

وأرسل السلطان غياث الدين إلى علاء الدين يتهدده ويقبّح له تعديه على الخليفة الناصر، وأنه يتوعده بحملة عسكرية قوية، وعلى الفور وكدأب الخوارزميين دائمًا لم يجد له من حليف سوى الخِطائيين الوثنيين الأتراك للاستنجاد بهم، وقد أرسل لهم يخوفهم من عاقبة الاستهانة بغياث الدين الذي سيأخذ بلاده ثم يتوجه إلى بلادهم ليتملكها، وكان الغوري قد أرسل من استولى على مدينة بلخ وهي من أملاك الخوارزميين.

وهنا أنفذ الخطائيون في جمادى الآخرة سنة ٥٩٤هـ «جيشا كثيفا، وجعل مقدمهم المعروف بطاينكوا، وهو كالوزير له (أي لملك الخطا)، فساروا وعبروا جيحون»[١].

وعلى الجانب الآخر وصلت عساكر الخوارزميين إلى مدينة هراة المهمة في شرق خراسان بغية الاستيلاء عليها وضمها لهم.

لكن غياث الدين الغوري برغم مرض النقرس الذي أصابه وأقعده، وبالرغم من أن جيوشه كانت مع أخيه شهاب الدين في الهند؛ فقد أرسل إلى ولاته على كل من الطاَلَقَان[٢] وباميان[٣] وكرزبان[٤] يأمرهم بالمسير ومقاتلة الخِطائيين الذين عاثوا في شمال الدولة الغورية فسادًا فقد «قتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى، فاستغاث الناس بغياث الدين»[٥].

واستطاعت القوات الغورية المتوفرة بقيادة محمد بن جربك الغوري أمير الطالقان والحسين بن خرميل في قلعة كرزبان وحرّوش الغوري أن تفاجئ الخطائيين ليلًا، ونزلوا فيهم

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٥٣. تدمري.

(٢) الطالَقَان: بخراسان بين مرو الروذ وبلخ. ياقوت: معجم البلدن ٤/ ٦. وتقع الطالقان الآن في شمال أفغانستان.

(٣) قال ياقوت عن باميان: «بلدة وكورة في الجبال، بين بلخ وهراة وغزنة، بها قلعة حصينة. والقصبة صغيرة والمملكة واسعة». ياقوت: معجم البلدان ١/ ٣٣٠. وتقع هذه المنطقة في دولة أفغانستان الآن شرق العاصمة كابول.

(٤) قال البغدادي عن كرزبان: «وأهل خراسان يسمّونها كرزوان. بلدة في الجبل، قرب الطالقان، يتصل جبلها بجبل الغور، قريبة من مروالروذ». البغدادي: مراصد الإطلاع ٣/ ١١٥٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٥٤. تدمري.



قتلاً ونهبًا، وبالرغم من ذلك استطاع الخطائيون أن يثبتوا في اليوم التالي حينما عرفوا أن هذه القوات هي قوات محلية في نهاية المطاف، لكن المدد الذي أرسله غياث الدين وكثرة عدد المتطوعين من المسلمين جعلت الخطائيين يفرون منهزمين بل وصل بهم الأمر بين القتل بالسيف أو القتل بالغرق؛ فقد حصرتهم القوات الغورية بين نهر جيحون في الشرق وبينهم في الغرب، وقتل في هذه المعركة من الخطائيين اثنا عشر ألف قتيل، جعلت ملك الخطا يُرسل إلى خوارزمشاه الذي أوقع به في هذه الحرب يقول له: «أنت قتلت رجالي، وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار»[١].

وهنا لجأ علاء الدين تكش إلى غياث الدين الغوري يطلب منه الصلح ويستعطفه؛ خوفًا من انتقام الخطائيين؛ لكن الغوري شرط هذه المصالحة بـ«طاعة الخليفة، وإعادة ما أخذه الخِطا من بلاد الإسلام»[٢]. وهو ما لم يقدر علاء الدين الخوارزمي على فعله.

واضطر علاء الدين لمحاربة الخطا الذين جاءوا إليه في جيش جرار حاصر مدينة خوارزم، لكن استحكام غلق المدينة وهجوم الجيش الخوارزمي بصورة مستمرة بالليل لعدة أيام على الخطائيين ثم انضمام أعداد كبيرة من المتطوعين، كل ذلك أجبر الخطائيين على التقهقر والانسحاب إلى مدينة بخارى التي كانت تحت سيطرتهم، الأمر الذي شجّع علاء الدين على محاصرة بخارى وكانت ضمن دولة الخطائيين بل والاستيلاء عليها وضمها لسلطنته في عام ٥٩٤هـ[٣].

وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ اتجه علاء الدين تكش إلى الري وبلاد الجبل؛ وذلك بسبب الأخبار التي وصلته عن تمرّد وخروج نائبه وقائد جيشه مياجق واستقلاله بتلك المنطقة عن سلطته، وعندما علم مياجق بقدوم السلطان تكش هرب، لكن سرعان ما لحق به تكش وتمكنت قواته من القبض عليه في إحدى قلاع مازندان، وأحضر بين يدي تكش الذي أراد قتله، لكن شفاعة أخي مياجق أقجه جعلت السلطان يخفف العقوبة من القتل إلى الحبس سنة، ثم الإفراج المشروط بمواصلة قتال أعداء الدولة الخوارزمية في أقصى الشرق.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٥٥. تدمري.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٥٥. تدمري.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٥٥.

وسرعان ما تحسّنت العلاقات بين الخليفة الناصر لدين الله وبين السلطان علاء الدين تكش، وازدادت هذه العلاقات وثوقًا عند وصول ابن أخي خوارزم شاه إلى بغداد في المحرم سنة ٥٩٦هـ مبعوثًا إلى الخليفة الناصر يظهر له طاعة عمه للخليفة، ويعتذر منه عما بدر من عمه من الخطبة له ببغداد، وتُلقي بـ«الموكب الشريف الديواني، ودخل، وقبّل العتبة الشريفة بباب النوبي المحروس، وخلع عليه وأكرم مثواه»[١].

وفي ٢٠ رمضان من نفس العام ٥٩٥هـ توفي السلطان علاء الدين تكش[٢] وخلفه ابنه قطب الدين محمد الذي غيّر كنيته إلى علاء الدين، ودُفن في خوارزم.

علاء الدين محمد الثاني بن تكش (ت٦١٧هـ)

اتسمت سياسة علاء الدين الثاني بالخليفة العباسي الناصر لدين الله بالتقارب في نصفها الأول، والتصارع والصدام في نصفها الثاني.

بعد إتمام المصالحة بين العباسيين والخوارزميين قبيل وفاة علاء الدين تكش سنة ٥٩٦هـ سارت العلاقات بين الجانبين في توافق تام، هذا التوافق أو الهدوء بين الجانبين إنما كان لانشغال علاء الدين محمد بن تكش بحروب متواصلة مع أعداء ألداء.

وكانت من صور هذا التوافق إرسال السفارات والهدايا بين الجانبين كما حدث في أعوام ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٥هـ وهذه نماذج استطاعت الدكتورة عفاف صبرة أن تحصرها وتأتي بها كأمثلة للتدليل على هذه العلاقات الجيدة بين الطرفين وقتئذٍ[٣].

لقد أحاطت بالدولة الخورازمية ثلاث قوى كبرى آنئذ، في الشمال والشرق القبائل الخطائية الوثنية البوذية، وفي الجنوب الدولة الغورية الإسلامية الفتية، وفي الشرق الخلافة العباسية وحلفائها.

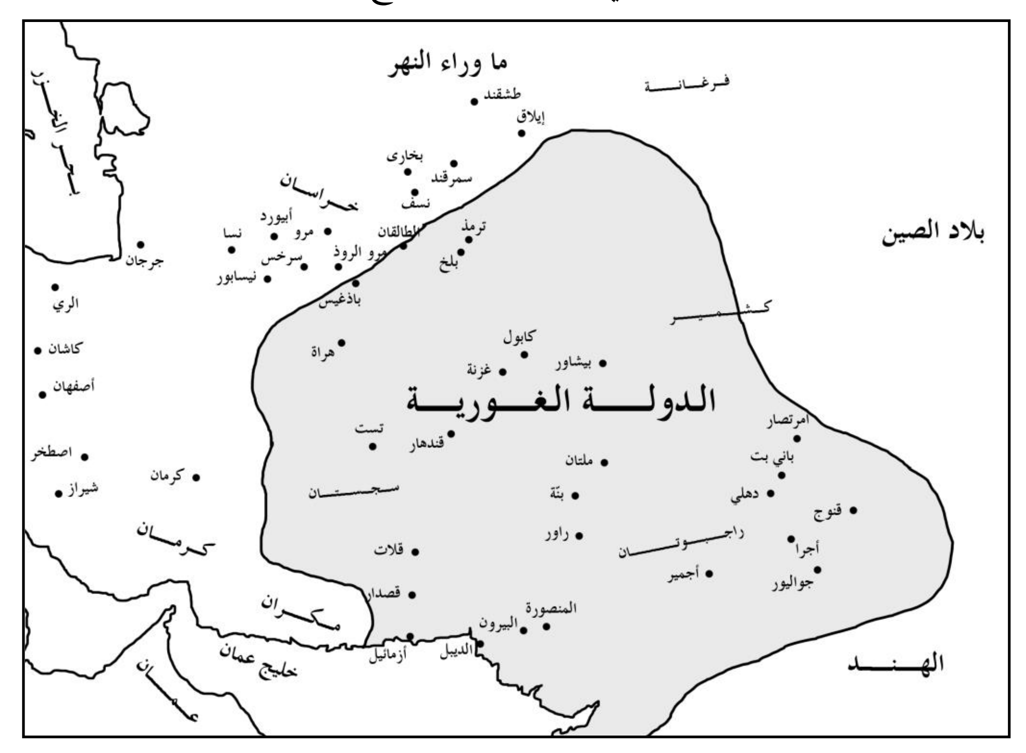
لذا انشغل علاء الدين محمد بصراعه ضد الخِطائيين والغوريين ويمكن أن نجملها فيما يلي:

---

(١) عفاف صبرة نقلا عن العبود الدولة الخوارزمية ص٨٩، نقلا عن ابن الساعي: الجامع المختصر ٦/ ١٩.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٢/ ٢٣٥.
(٣) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص١٣٤- ١٣٦.

١- المواجهة الخوارزمية الغورية

بدأ علاء الدين محمد عهده بسلسلة حروب، كان دافعها اجتياح الغوريين حكام المناطق الجبلية (أفغانستان اليوم) وورثة الدولة الغزنوية المتخذين من غزنة عاصمة لهم أملاك الخوارزميين في خراسان، مستصغرين شأنه عند سماعهم بوفاة والده وحلوله بالعرش، واضطر من أجل استرجاع هذه الأملاك إلى القدوم على رأس قواته إلى خراسان خمس مرات بين ٥٩٦ و٦٠٣هـ، وانتهت حروبه في خراسان إلى استرجاع أملاكه حتى هرات.



بعد وفاة السلطان الغوري شهاب الدين سنة ٦٠٣هـ، الحاكم الوحيد في العالم الإسلامي في ذلك الوقت المؤهل لمنافسة علاء الدين، واضطرار خليفته إلى الاعتراف بالتبعية له بالخطبة والسكة - آلت أملاك الغوريين التي تمتد إلى السند إلى حكمه، وتمكن من إلحاق مازندران[١] في العام التالي ومن الاستيلاء على كرمان سنة ٦٠٥هـ، وحقق بذلك لنفسه مركز

(١) جزء من إقليم طبرستان، وقيل هي إقليم طبرستان التاريخي. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٥/ ١٦٤. والآن هي محافظة في شمال إيران تطل على شاطئ بحر قزوين.

الصدارة في مشرق العالم الإسلامي.

٢- المواجهة الخوارزمية الخطائية

التفت علاء الدين محمد بعد ذلك نحو الشرق، وكان قد أثقلته الجزية السنوية التي كان يدفعها سلاطين خوارزم للخطا البوذيين. وكانت تتوارد عليه في عاصمته الجرجانية رسائل سكان ما وراء النهر الخاضعين لنفوذ الخِطا تناشده كي يخلصهم من حكمهم، كما وعده عثمان سلطان سمرقند - سليل أحد فروع الإيلخانية - منذ ٦٠٤هـ أن يدفع له ما كان يؤديه للخطا من أموال، إضافة إلى الخطبة والسكة.

وصادفت هذه الدعوات هوى في نفس السلطان للظهور بمظهر الزعيم الإسلامي المحرر للمسلمين من نير حكامهم الوثنيين، وانقسمت المواجهة الخوارزمية ضد الخِطائيين على مرحلتين:

الأولى: مواجهة مباشرة دون مساعدة من أحد سوى خان سمرقند عثمان الخاني وقد كانت هذه المواجهة سنة ٦٠٦هـ «فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبرا، فانهزم الخطا هزيمة منكرة، وقتل منهم وأسر خلقًا لا يحصى، وكان فيمن أسر طاينكوه مقدمهم، وجيء به إلى خوارزم شاه، فأكرمه، وأجلسه على سريره، وسيره إلى خوارزم، ثم قصد خوارزم شاه إلى بلاد ما وراء النهر، فملكها مدينة مدينة، وناحية ناحية، حتى بلغ إلى مدينة أوزكند، وجعل نوابه فيها»[(١)].

الثانية: مساعدة المغول النايمان بقيادة كوجلك خان لإبادة من تبقى من القبائل الخطائية، وهذه المساعدة كانت في اللحظة الأخيرة؛ فقد كانت العداوة متأصلة بين المغول النايمان وبين الخطائيين الأمر الذي استغله المغول لصالحهم لما علموا انتصار علاء الدين محمد على الخطائيين سنة ٦٠٦هـ، فأرسلوا إليه يطلبون منه المساعدة للقضاء بصورة نهائية على الخطائيين، وفي نفس اللحظة أرسل الخطائيون يلتمسون من علاء الدين محمد أن يعينهم على قتال المغول مقابل نسيان هزيمتهم وقتلاهم.

لكن إستراتيجية علاء الدين تمثّلت في الميل لأكثرهم قوة وعدة وانتصارًا على الآخر،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٥٨. تدمري.

وهذا ما فعله بمعاضدة المغول؛ ففي هذه المعركة «انهزم الخِطا هزيمة عظيمة، فمال حينئذ خوارزم شاه، وجعل يقتل، ويأسر، وينهب، ولم يترك أحدا ينجو منهم، فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرة مع ملكهم في موضع من نواحي الترك يحيط به جبل ليس إليه طريق إلا من جهة واحدة، تحصنوا فيه وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة، وساروا في عسكره»[١].

والحق أن هزيمة الخطائيين وإبادتهم كانت أحد الأسباب التي أدت إلى ازدياد نفوذ المغول النايمان الهاربين أصلًا من خطر جنكيز خان في الشرق؛ فقد أرسلوا إلى علاء الدين محمد يطلبون منه تقسيم البلاد القراخِطائية بينهم، الأمر الذي قابله باستهزاء شديد، واستعلاء كبير، كانت عاقبته سلسلة من المناوشات التي لم ترقَ لمستوى الحرب بين الجانبين، وقد أمر علاء الدين تكش سنة ٦٠٤هـ «أهل الشاش[٢]، وفرغانة[٣]، وأسفيجاب[٤]، وكاسان[٥]، وما حولها من المدن - التي لم يكن في الدنيا أنزه منها ولا أحسن عمارة - بالجلاء منها، واللحاق ببلاد الإسلام، ثم خربها جميعها خوفا من التتر أن يملكوها»[٦].

في المقابل استمرت سلسلة فتوحات السلطان الخوارزمي في مناطق الشمال والشمال الشرقي والجنوب والشرق بعدما أرغم من تبقى من الغوريين على الانصياع له، فضلا عن القضاء على الدولة الخطائية، لكن لم تُجْدِ حملته إلى بلاد القبجاق[٧] عبر نهر سيحون شمالًا سنة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٦٠. تدمري

(٢) الشاش: «ناحية من وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. كانت أكبر ثغر في وجه الترك، وكانت من أنزه بلاد الله وأكثرها خيرًا. وكانت عامة دورهم يجري فيها الماء وكلها مستترة بالخضرة». القزويني: آثار البلاد ص٥٣٨. وتقع الشاش الآن شرق جمهورية أوزباكستان. وأكد البعض أنها عاصمة أوزباكستان طشقند. محمد أمين: مقال بعنوان «فاراب القازقية درة آسيا الوسطى». على موقع آسيا الوسطى باللغة العربية على الشبكة العنكبوتية الانترنت.

(٣) فرغانة: «مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان، من جهة مطلع الشمس، على يمين القاصد لبلاد الترك». البغدادي: مراصد الإطلاع ٣/ ١٠٢٩ . وفرغانة مركز ولاية فرغانة الواقعة في شرق أوزبكستان الآن والتي تبعد عن العاصمة طشقند ٤٢٠كم.

(٤) أسفيجاب: «بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر، فى حدود تركستان، لها ولاية واسعة وقرى كثيرة كالمدن، وهى ثغر». البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ٧٤. وأسفيجاب هي مدينة سايرام حاليًا في جمهورية كازاخستان.

(٥) كاسان أو قاسان: « بما وراء النهر، فى حدود بلاد الترك». تقع حاليا في دولة أوزبكستان الى الجنوب الشرقي من مدينة سمرقند. راجع الويكيبيديا، مادة كاسان.

(٦) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٦١. تدمري.

(٧) بلاد القبجاق أو القبجق هي جمهورية كازاخستان الآن.

٦٠٦هـ في حين نجحت حملته الثانية سنة ٦١٣هـ في الاستيلاء على مدينة سغناق - على مجرى سيحون الأوسط - وأمّنت له السيطرة على جزء من شواطئه الشمالية والمناطق المتاخمة لها، كما أتم له قواده بين ٦٠٧و ٦١٤هـ، إخضاع سائر أجزاء إيران، قال ابن الأثير: « إنه ملك البلاد (أي إقليم إيران) وخطب فيها لخوارزم شاه، وسار خوارزم شاه إلى ساوة فملكها، وأقطعها لعماد الملك عارض جيشه[١]، وهو من أهلها ثم سار إلى قزوين وزنجان وأبهر[٢]، فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع ثم سار إلى همذان فملكها، وأقطع البلاد لأصحابه، وملك أصفهان، وكذلك قم وقاشان، واستوعب ملك جميع البلاد، واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان، صاحب أذربيجان وأرّان، بأن يخطب له أوزبك في بلاده ويدخل في طاعته»[٣].

بل وقرئت الخطبة باسمه على منابر عُمان؛ فوصلت الدولة الخوارزمية بذلك إلى أقصى اتساع لها وامتدت سلطة علاء الدين من شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالًا إلى المحيط الهندي جنوبًا، ومن السند شرقًا إلى حدود العراق غربًا[٤].

---

(١) عارض الجيش: رتبة عسكرية من مراتب الجيوش الإسلامية، قد تكون بعد رُتبة المقدّم. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٣١٥.

(٢) أبهر: «مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان». البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ٢١. وهي الآن مدينة إيرانية تقع في محافظة زنجان.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٠٠. تدمري.

(٤) مظفر شهاب: خوارزم شاه، الموسوعة العربية ٩/ ٣١.



صدام محمد خوارزمشاه بالخلافة العباسية

في حدود عام ٦١٤هـ كان علاء الدين محمد الثاني بن تكش قد استولى على ممتلكات الدولة الخطائية والدولة الغورية وكامل إقليم إيران حتى خط التماس مع الخلافة العباسية، وهي رقعة جغرافية هائلة جعلته من أقوى القوى العالمية حينئذٍ، وكانت الأعوام الثمانية عشرة السابقة قد تكشّفت عن مجموعة من الأحداث أدت في مجموعها إلى اقتراب الصدام بين الجانبين.

يقول بروكلمان عن أحد هذه الأسباب: «احتكّ شاه خوارزم بمنطقة نفوذ الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي وُفّق إلى تحرير بغداد من حكم أمراء الجيش، ومن ثم تقدّم من عاصمته في العراق إلى بسط سلطانه في اتجاه الشرق، والواقع أن هذا الخليفة الذي يُعدّ آخر

الدهاة من بني العباس حاول أن يمكّن لسلطته الهزيلة المثقلة بعمل بارع قوامه موالاة الشيعة ورعايتهم؛ ذلك بأنه نشأت في العراق منذ عدة قرون جماعات الفتوة التي كان أول ظهورها بلا ريب على الحدود بين المجاهدين ولكنها لم تلبث بعد ذلك أن نشطت داخل الإمبراطورية .. وإنما سعى الناصر إلى أن يُسخّر هذه الجماعات لخدمته؛ من طريق تنظيمها تنظيمًا جديدًا وتزعّمها بنفسه .. وقد أفسح الناصر لأعقاب علي (رضي الله عنه) وذريّته في مجال النشاط في منظمة الفتوة الجديدة مستفيدًا من نفوذهم الأدبي؛ حريصًا في الوقت ذاته على أن تظل سيطرته سليمة لم تُمس»(١).

هذا النفوذ الأدبي والروحي لحركة الفتوة في الدولة الإسلامية وسيطرة الناصر عليها، وتصالحه مع الإسماعيلية الباطنية وإمامهم الحسن الثالث (٦٠٧ – ٦١٨هـ) وهي الدولة المتاخمة والعدوة للدولة الخوارزمية فمعاقلها قوهستان، وألموت، وروددبان ألّبت عداوة السلطان الخوارزمي على العباسيين.

لكن يمكن أن نجمل أسباب الحملة العسكرية الخوارزمية بقيادة خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش على العراق والخلافة العباسية بما يلي:

أولا: القوة التي بات فيها محمد خوارزمشاه بعد القضاء على الدولة الغورية والخطائية واستيلائه على كامل إقليم إيران؛ فقد قال محمد بن أحمد النسوي – (ت٦٣٨هـ) أحد أهم وأوثق المصادر التي تناولت سيرة علاء الدين محمد وابنه جلال الدين منكوبرتي، وكان موظفًا كبيرًا وقاضيًا في دولة جلال الدين – : «لما عظُم شأن السلطان، وفخُم أمره، وتجلّت له الدنيا في أرفع ملابسها، وأشرقت شمس دولته من أكرم مطالعها، واستملئت جريدة ديوان الجيش على ما يُقارب أربعمائة ألف فارس؛ سمت همته إلى طلب ما كان لبني سلجوق من الحكم والملك ببغداد»(٢).

وقد أرسل خوارزمشاه الرسائل إلى الخليفة الناصر، فجاء في إحداها: «كن معي كَمَا كَانَت الْخُلَفَاء قبلك مَعَ سلاطين السلجوقية كألب رسْلَان وملكشاه وأقربهم بِنَا عهدا

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٧٩، ٣٨٠.
(٢) النسوي: سيرة السلطان منكُبرتي ص٤٩.

السُّلْطَان سنجر فَيكون أَمر بَغْدَاد وَالْعراق لي وَلَا يكون لَك إِلَّا الْخطْبَة»[١].

لكن العباسيين أبوا ذلك وأنكروه، وقالوا إن الظروف هي التي أدت إلى تحكم السلاجقة في بغداد، وقت أن كانت الخلافة في حاجة ماسة إلى مساعدتهم للقضاء على ديكتاتورية وإرهاب البويهيين والقادة الأتراك، كما أنه «ليس بحتم أن يكون مع الزمان على أكتاف الخلافة متحكمٌ يأمر فيها وينهى كيف شاء، بما سرّ وساء، ومهما احتجنا إليك في مثل ذلك- ولا كان ذلك - أجبناك إلى ما أجبنا أولئك (أي السلاجقة)؛ أوليس فيما أُنعم عليه به من الممالك الواسعة الأقاليم، المتباعدة المتشاسعة غنيةٌ عن الطمع في دار ملك أمير المؤمنين ومشاهد آبائه الراشدين»[٢].

ولم يجد العباسيون بدًا من إرسال الشيخ الفقيه شهاب الدين السهروردي «رسولًا مدافعًا، وواعظًا وازعًا عما كان يلتمسه السلطان». بيد أن سفارته لم تفلح بإقناع خوارزمشاه خاصة أن الخليفة العباسي استهان بالسبيل الذي كان للسلطان خوارزم شاه، واهتم بسبيل الحسن الثالث الإسماعيلي في طريق مكة، ولما حاول السهروردي أن يثني عزم السلطان عن الهجوم على بغداد من خلال تذكيره بأفضال آل العباس من الحديث النبوي الشريف، رد عليه بأن الناصر العباسي قد سجن بعضًا من أبناء الأسرة العباسية أنفسهم لمدد طويلة جعلت «منهم خلقًا مخلدين يتناسلون بها ويتوالدون، فلو أعاد الشيخ بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع، وأجدى وأنفع»[٣]. ثم إن خوارزمشاه رد على السهروردي بأنه لم يؤذ أحدًا من بني العباس، ثم أيس السهروردي من السلطان، ولم يرجع عن عزمه.

لكن بخصوص ما يتعلق بتقديم الخليفة الناصر لدين الله لسبيل جلال الدين حسن الإسماعيلي زعيم الباطنية، فيبدو أن ذلك كان من قبيل الدعاية والتشجيع لصاحب الإسماعيلية؛ وذلك بمعاملته معاملة خاصة إكرامًا وتقديرًا له ولأتباعه؛ لأنهم نبذوا لأول مرة منذ نشأتهم العنف بل والمعتقد؛ فإذا كان تقديم الخليفة الناصر لهم، إنما كان مكافأة على إيابهم إلى الجماعة المسلمة، فضلًا عن أن قافلتهم كانت ضمن الحجيج العراقي أي قافلة الخليفة ذاته.

---

(١) تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٣٢٩.
(٢) النسوي: سيرة السلطان منكُبرتي ص٥٠.
(٣) النسوي: سيرة منكبرتي ص٥٢.

ثانيًا: حاول السلطان علاء الدين محمد أن يختلق الأسباب لمعاداة الخليفة الناصر كي يملك المسوّغ الذي يسمح له بتوجيه ضربته إلى الناصر ومن ثم احتلال بغداد والعراق، منها أن الناصر كان قد خطب بولاية العهد لابنه الأكبر الظاهر بأمر الله في صفر سنة ٥٨٥هـ، وسرعان ما تغيّر على ولده في جمادى الآخرة سنة ٦٠١هـ وأسقط الخطبة له؛ بحجة عجزه عن القيام بولاية العهد، فلما أسقطت الخطبة في سائر الآفاق، رفض خوارزمشاه إسقاطها، وقال: «قد صحّ عندي توليته، ولم يثبت عندي موجب عزله وجعل ذلك حجة لطروق العراق بالعساكر ليرد خطبته»(١).

ثالثًا: قام علاء الدين محمد بتأييد بعض حركات التمرد والعصيان ضد الخلافة العباسية؛ فعندما عصى بعض مماليك ديوان الخلافة، وقاموا باحتجاجات كبرى سنة ٦٠٨هـ، أرسلوا إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه يطلبون منه الاستجارة والعون على هذا التمرد، لكن الخليفة الناصر كان قد أرسل إلى الأمير مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل والملك الأشرف الأيوبي يطلب منهما العون لإخماد هذه الحركة الانقلابية وتم له ذلك بالفعل(٢).

رابعًا: اكتشاف علاء الدين محمد خوارزمشاه وثائق في دواوين مدينة غزنة بعد انتصاره على الغوريين سنة ٦١٢هـ تُفيد وجود مراسلات بين الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الغورية يُحرّضهم فيها على ضرورة مهاجمة الخوارزميين، وقد لبّى الغوريون النداء وحاربوا علاء الدين خوارزمشاه كما مرّ بنا.

خامسًا: اكتشاف علاء الدين خوارزمشاه رسائل أخرى إلى الأتراك الخطا يُحرّضهم فيها على مهاجمة الخوارزميين بل ويعدهم بتأييد سلطانهم على البلاد الإسلامية التي يقتطعونها لأنفسهم من البلاد الخوارزمية، كما أرسل إليهم الهدايا والخلع عربونًا لصداقته وليس أدل على ذلك من الكتاب الذي أرسله جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين محمد خوارزمشاه إلى المعظّم عيسى صاحب دمشق يُحرّضه فيه على غزو أملاك الخليفة الناصر فقد جاء في هذه الرسالة: «تحضر أنت ومن عاهدني واتّفق معي حتّى نقصد الخليفة، فإنّه كان السّبب في هلاك أبي، وفي مجيء الكفّار إلى البلاد، وجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد، والخلع، والخيل.

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ٦٩.

(٢) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص٦٨، ٦٩.

قال المعظَّم: فكتبت إليه، أنا معك على كلّ حال، إلّا على الخليفة، فإنَّه إمام المسلمين»(١).

سادسًا: اعتقد خوارزمشاه محمد بأن الخليفة الناصر كان هو المحرّض الأول لسعد بن دكلا أتابك فارس وأوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان على الاستيلاء على إيران لذلك رأينا جهود علاء الدين محمد في سبيل استعادة هذه المنطقة وضمها إلى نفوذه قبل أن يتوجّه لملاقاة الخلافة في عقر دارها سنة ٦١٤هـ.

هذه الأسباب مجتمعة قوّت من عزم علاء الدين محمد الثاني خوارزمشاه على المسير صوب بغداد للقضاء على الخليفة العباسي أو إجباره على الخطبة للخوارزميين كما فعل العباسيون مع البويهيين والسلاجقة من قبل.

سار علاء الدين خوارزمشاه محمد بن تكش بعدما أذعنت له ممالك إيران وأذربيجان وفارس، وقضى على كافة الحركات المناوئة له وكانت خطته تقضي بما يلي:

١- تقسيم الدولة الخوارزمية بين أولاده قطب الدين أوزلاغ شاه وجلال الدين منكُبرتي وركن الدين غورشايجي في حركة احترازية لتأمين ظهره وقت غزو العراق وبغداد.

٢- «دعا (علاء الدين محمد خوارزمشاه) سنة ١٢١٧م (٦١٤هـ) إلى مؤتمر ديني لتقرير أحقية العلويين بالخلافة، وكان أتباعهم لا يزالون يملأون فارس من أقصاها إلى أقصاها، ثم إن اختياره وقع على علويّ من تِرمِذ يُدعى علاء المُلك كمنافس للخليفة، ومن ثمّ شرع في إعداد العدة لفتح بغداد ورفع علاء الملك إلى عرش الخلافة»(٢).

٣- تمركز في همذان العاصمة السابقة للسلاجقة والمنطقة المتماسّة مع الخلافة العباسية عاصمة إقليم الجبل (العراق العجمي) وأرسل أمامه فرقتين عسكريتين بقيادة أميرين من أكابر أمراء الحرب الخوارزميين قوامهما ٣٠ ألف مقاتل إلى منطقة حُلوان شرقي العاصمة بغداد، وأقطعها لأول الأميرين وصولا؛ لتكون بمثابة حامية استطلاعية ومانعة لأي تحركات مباغتة من الخلافة العباسية.

٤- قسّم بقية الأقاليم الخاضعة إداريًا للعاصمة بغداد إلى بقية الأمراء الكبار في صورة

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٨.
(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٨٠.

إقطاعات ووظائف إدارية ليقوّي من عزائم كبار القادة في الجيش الخوارزمي على الهجوم والإصرار على أخذ بغداد[1].

لكن لحظه العاثر هذه الخطة المحكمة والجيش العرمرم المكون من عشرات الآلاف من الجنود لم يغن عنه من تقلبات الطقس السيئ شيئًا، فعند تمزكز علاء الدين محمد خوارزمشاه في منطقة قلعة أسد أباذ البعيدة عن همذان بما يقارب ٣٣كم تقريبًا غربًا نزل ثلج «لم يُسمع بمثله، فهلكت دوابهم، ومات كثير منهم، وطمع فيمن بقي بنو ترجم الأتراك، وبنو هكار الأكراد، فتخطفوهم، فلم يرجع منهم إلى خوارزم شاه إلا اليسير، فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق، وعزم على العود إلى خراسان خوفا من التتر، لأنه ظن أنه يقضي حاجته، ويفرغ من إرادته في المدة اليسيرة، فخاب ظنه»[2].

وقد علّق النسوي على صعوبة الموقف الذي قاساه الجيش الخوارزمي بقوله: «عظُم إذ ذاك البلاء، وأُعضل الداء، وصارت الأرض كأنها ببياضها سوداء، وشمل الهلاك خلقًا كثيرًا من الرجال، ولم ينجُ شيء من الجمال، وتَلِفت أيدي رجال وأرجل آخرين، ورجع السلطان عن وجهه؛ ذلك على خيبة مما همّ به، ويأس مطلبه»[3].

وقد أكد النسوي أن علاء الدين خوارزمشاه ندم «على ما ارتكبه من إزالة الحشمة، وإضاعة الحق والحرمة الواجبة مراعاتهما على كل ذي دين قويم، وعقل سليم، ومعتقد بأن ربه أثبت جنة وجحيما، وعلم أن ذلك البيت (أي العباسي) هو الذي يؤيده الله بملائكة سمائه، وله سر في إداماته وإبقائه»[4].

لكن يبدو أن رأي النسوي غير صحيح، إذ لم تكن علامات الندم بادية على خوارزمشاه الذي وصل في المحرم سنة ٦١٥هـ إلى نيسابور «وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله، وقال: إنه قد مات»[5]. وفعل ذلك في كبرى مدن الشرق الإسلامي مثل مرو وسرخس وبلخ وبخارى وغيرها.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٠٠. تدمري، والنسوي: سير منكبرتي ص٦٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٠٠. تدمري
(٣) النسوي: سيرة منكبرتي ص٦٤.
(٤) النسوي: سيرة منكُبرتي ص٦٤.
(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٠٠. تدمري.



وما بين العامين ٦١٥هـ و ٦١٧هـ واجه علاء الدين محمد الثاني الخطر الأعظم، خطر المغول الذين قضوا على دولته في شهور عديدة، حتى لاحقوه من مدينة إلى مدينة، ليهرب في نهاية المطاف إلى جزيرة نائية في بحر قزوين ليتوفّاه الأجل سنة ٦١٧هـ وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئًا(١).

جلال الدين منكُبرتي (ت٦٢٨هـ)

أسند إليه والده علاء الدين محمد خوارزمشاه ولاية العهد قبل وفاته بشهر واحد فقط، ونزعها من أخيه قطب الدين أوزلاغ شاه؛ لأنه وجد جلال الدين أقدر أولاده على الحفاظ على دولته التي وهنت قواعدها وتهدمت، ولأخذ ثأره من أعدائه المغول.

إثر وفاة علاء الدين خوارزم شاه ترك جلال الدين الجزيرة التي كان قد لجأ إليها والده في جنوب شرق بحر قزوين هربًا من المغول، وتوجّه إلى خوارزم بصحبة أخويه قطب الدين أوزلاغ شاه وآق شاه، فاستقبله أهلها وقرابة سبعة آلاف من الفرسان الموالين لأخيه أوزلاغ شاه، الذين سرعان ما تآمروا على قتله، وإعادة السلطنة إلى أوزلاغ شاه الذي كان والده خوارزم شاه قد ولاّه عهده قبل تولية العهد لابنه جلال الدين، وأعطاه بلاد خوارزم وخراسان ومازندران بتأثير من أمه وجدّته تركان خاتون، ولكن السلطان جلال الدين استطاع الإفلات بعد أن أخبره أحد قواده بالمؤامرة، ففرّ باتجاه خراسان ومعه قرابة ثلاثمائة فارس، واستطاع الوصول إلى مدينة نسا بعد معركة خاضها في سهول بيراون شمال شرقي غزنة، في قتال فرسان أرسلهم جنكيزخان للقضاء عليه قبل وصوله إلى خراسان، وذلك في سنة ٦١٨هـ، وكان النصر حليف جلال الدين الذي سار إلى نيسابور(٢).

وبعد أيام من فرار جلال الدين من خوارزم، سار عسكر جنكيز خان إليها، ففرّ منها أوزلاغ شاه وآق شاه للحاق بجلال الدين، فتبعهما عسكر جنكيز خان، وجرت بينهما معركة بنواحي خراسان قتل فيها أوزلاغ شاه وآق شاه(٣).

---

(١) سنتناول بالتفصيل لاحقًا الحديث عن المغول وانتشارهم وأسباب قضائهم على الدولة الخوارزمية في عهدي خوارزمشاه علاء الدين محمد الثاني بن تكش وولده جلال الدين منكُبرتي.

(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٥٤، وأبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٢٨.

(٣) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٢٩- ١٣٢.

أكمل جلال الدين طريقه ودخل غزنة، وما كاد يستقر فيها حتى أرسل جنكيز خان حملة أخرى اصطدم بها جلال الدين خارج غزنة وكان النصر حليفه أيضًا في بدايتها، ولكن فتنة دبت بين قواده الذين تنازعوا على اقتسام الغنائم، مما أدى إلى ضعف جيش جلال الدين بعد مغادرة القسم الأعظم من فرسانه.

وكان جنكيز خان يرصد أخبار الفتنة فاستغلها وأرسل جيشًا كبيرًا وراء جلال الدين الذي لم يستطع مجابهته، واضطر للفرار نحو الهند حتى وصل إلى نهر السند، ولكنه لم يستطع عبوره لعدم توافر السفن لديه، فاضطر إلى مجابهة جيش جنكيز خان مدة ثلاثة أيام لحقت فيها خسائر جسيمة بالفريقين. وعندما وصلت السفن التي طلبها ركبها مع البقية الباقية من فرسانه وعبر نهر السند إلى أراضي الهند وأحرقها ونهبها.

بقي السلطان جلال الدين يتنقل في الهند مع فرسانه يسلبون ميرتهم وحاجاتهم حتى سنة ٦٢١هـ، وبعد أن تيقن من زوال خطر جيش جنكيز خان ورحيله عن البلاد عاد وعبر نهر السند ثانية وتوجه إلى كرمان وأصفهان وامتلكهما، ثم تابع سيره إلى فارس وكان أخوه من أبيه غياث الدين قد استولى على بعضها، فأعاد ما كان أخوه أخذه منها إلى أتابك سعد صاحبها وصالحه.

توالت فتوحات جلال الدين ووصل سنة ٦٢٣هـ إلى أوج قوته وسيطرته، وذلك بعد استيلائه على عراق العجم وفارس وكرمان وأذربيجان وتبريز وتفليس التي دخلها عنوة بعد حروب ضارية مع الكرج[١].

وفي سنة ٦٢٤هـ سار إلى قتال الإسماعيلية وحاصرهم في قلعة أَلَمُوت وضربهم بشدة وقسوة بسبب اغتيالهم أحد أمرائه في مدينة (كنجة)[٢].

وفي السنة التالية دخل جلال الدين أراضي أرمينية وملك مدينة خلاط التابعة للملك الأشرف الأيوبي، وذلك بعد حصار طويل[٣].

أورثته هذه الانتصارات والاعتداءات نقمة جميع الملوك والحكام المجاورين له، بسبب ما

---

(١) انظر: النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٩٢ – ٢٠٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٢٣. تدمري.
(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٣٢. تدمري.

سلب من أراضيهم وممتلكاتهم، ونقم عليه سكان المدن والبلاد بسبب سوء معاملته لهم، وزادت تصرفاته الشاذة من نفور أتباعه منه، ففارقه بعضهم وتركوه، فضعف مركزه وجيشه، ولذلك وفي بداية سنة ٦٢٧هـ بدأت الهزائم تتوالى عليه، وكان أولها هزيمته أمام علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج بن أرسلان سلطان سلاجقة الروم، ثم كانت هزيمته أمام الملك الأشرف الأيوبي صاحب دمشق والجزيرة وخِلاط بعد معارك عنيفة جرت بينهما في ٢٨ رمضان من السنة ذاتها، فاستغلت قبائل التتر هذه الهزائم وسارعوا إلى الاستيلاء على مدينة الري ثم همذان ثم دخلوا إلى أذربيجان وروّعوا سكانها بالسلب والنهب والقتل، ولم يستطع جلال الدين صدهم ولا نجدة السكان(١).

استمر جلال الدين بالهرب أمام التتر قاصدًا آمد فلاحقوه ودخلوها كما دخلوا إربل ودقوقا ومعظم البلاد التي كان يسيطر عليها، فقصد مدينة خلاط وديار بكر ومدن الجزيرة طلبًا للنجدة من ملوكها المسلمين، كما طلبها من خليفة بغداد المستنصر بالله، ولكن دون جدوى. فقصد ميافارقين ليتخلص من المطاردة، ولما وصل إلى قرية بالقرب منها، عرفه رجل كردي من سكانها، كان قد قُتل أبوه وأخوه في معركة مع جيش جلال الدين، فانقض عليه وقتله، وكان مقتله في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ فكانت مدة سلطنته اثنتي عشرة سنة تقريبًا، وانقرضت بمقتله الدولة الخوارزمية. وكانت مدتها مذ وليها خوارزم شاه محمد بن أنوشتكين في رجب سنة ٤٩٠هـ إلى مقتل السلطان جلال الدين منكبرتي، تزيد على مئة وثمانٍ وثلاثين سنة حكم فيها سبعة سلاطين(٢).

سياسة منكُبرتي مع الناصر والظاهر

كان العداء للعباسيين وللخليفة الناصر على وجه التحديد هو السمة العامة التي تغلب على السياسة الخارجية الخوارزمية منذ فشل حملة سنة ٦١٤هـ على الخلافة العباسية.

ولذلك قرّر جلال الدين منكُبرتي بعد وصوله إلى كرمان وفارس سنة ٦٢١هـ، وبعد أن ضمن دخول أخيه غيّاث الدين بيرشاه أمير عراق العجم وأتابك سعد بن كلا أمير إقليم فارس في طاعته، أن يكوّن حلفًا ضد الخليفة العباسي الناصر، وكان المستهدف من هذا

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٢٦- ٣٢٨.

(٢) زهير حميدان: جلال الدين بن خوارزم شاه، الموسوعة العربية ٧/ ٦٣٤.

الحلف هو الأمير الأيوبي المعظّم عيسى بن العادل، وأرسل يقول له: «تحضر أنت ومن عاهدني واتّفق معي حتّى نقصد الخليفة، فإنَّه كان السّبب في هلاك أبي، وفي مجيء الكفَّار إلى البلاد، وجدنا كتبه إلى الخِطا وتواقيعه لهم بالبلاد، والخلع، والخيل. قال المعظَّم: فكتبت إليه، أنا معك على كلّ حال، إلّا على الخليفة، فإنَّه إمام المسلمين»(١).

وبرغم رفض العادل لهذا الحلف احترامًا للخليفة العباسي؛ إلا أن ذلك لم يمنع جلال الدين منكبرتي من مهاجمة أملاك الخلافة العباسية بدءًا من إقليم خوزستان في الشرق مرورًا بالبصرة في الجنوب الغربي ثم بعقوبا في غرب بغداد ثم مدينة دقوقا القريبة من بعقوبة.

اتجه جلال الدين ببعض قواته إلى مدينة تُستَر عاصمة إقليم خوزستان في المحرم سنة ٦٢٢هـ وكان أميرها مملوك الخليفة الناصر مظفّر الدين المعروف بوجه السبع، لكن استطاع وجه السبع أن يحمي المدينة من عدوان جلال الدين منكبرتي، وظل هذا الأخير محاصرًا لها مدة شهرين كاملين، مما اضطره إلى ترك حصارها والاتجاه إلى المناطق المجاورة مثل بادرايا وباكسيا(٢)، وبعض رجاله اتجه إلى البصرة، وقد اتسمت حملات منكبرتي على هذه الأماكن بالسلب والنهب وقطع الطريق، لكن الأمير مُلتكين قائد الأمن في البصرة وكان تابعًا للخليفة الناصر استطاع أن يرد حملة العساكر الخوارزمية على المدينة خائبة بعدما وقف لهم وقتل منهم مجموعات كبيرة أجبرتهم على رفع الحصار عنها(٣).

تلاقى جلال الدين منكبرتي الجيش العباسي بقيادة مملوك الناصر الأمير جمال الدين قشتمر، وكان قريبا من جيش الخوارزميين في خوزستان والبصرة، واستطاع منكبرتي أن يصل إلى بعقوبا التي تبعد عن العاصمة بغداد ما يقارب الـ٥٧كم واحتلها بالفعل، ثم سار من بعقوبا إلى دقوقا وهي مدينة بين إربل وبغداد، وقد حاصرها وأيس منها لكنه غيّر رأيه وأصر على فتحها في ربيع الأول سنة ٦٢٢هـ؛ لأن أهلها صعدوا «إلى السور وقاتلوه، وسبّوه،

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٨.

(٢) بادرايا وباكسيا كانتا تابعتين لكوْرة، والكورة كالحي الكبير أو مركز من مراكز المحافظة تُسمى استان بازيجان خسرو شرقي نهر دجلة، ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٦، ٧. وابن الفقيه: البلدان ص٣٨٢. قال ابن الفوطي: باكسيا بلدة قرب دبيثا بواسط. ابن الفوطي: مجمع الآداب في معجم الألقاب ٦/ ٧٥. وقال محمد الكاظم: بادرايا، منطقة في الجانب الغربي من بغداد. ابن الفوطي: ٦/ ٧٤.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ٤/ ١٤٤.

وأكثروا من التكبير، فعظم ذلك عنده وشق عليه، وجد في قتالهم، ففتحها عنوة وقهرا، ونهبتها عساكره، وقتلوا كثيرا من أهلها، فهرب من سلم منهم من القتل وتفرقوا في البلاد»[١].

وكانت قد خرجت سرية خوارزمية إلى البت[٢] والراذان[٣] فهرب أهلها إلى تكريت وتتبعهم الخوارزميون حتى إن أهل البوازيج التابعة للأمير بدر الدين لؤلؤ بعثوا إليه يطلبون منه أن يرسل إليهم شحنة من الجنود تحميهم، وقدموا إليه الأموال اللازمة فوافق على طلبهم، كما نجح جلال الدين منكبرتي في ضم مظفر الدين كوكبري أمير إربل إلى صفّه، وتم الصلح بينهما، بعد أن كان مظفر الدين متفقًا مع الخلافة العباسية للوقوف في وجه جلال الدين، بل ويذكر ابن واصل أن المعظّم عيسى أمير دمشق دخل في حلف ثلاثي مع جلال الدين منكبرتي ومظفّر الدين كوكبري نكاية في أخويه الكامل والأشرف[٤].

وفي ظل هذا الخطر الداهم على الخلافة العباسية وعجز الجيش العباسي عن مواجهة هذا الحلف العسكري الجديد «وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار، وأصلحوا السلاح من الجروخ، والقسي والنشاب، والنفط، وغير ذلك، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد»[٥]. وكانت قيمة ما أنفقه الخليفة على تحصين بغداد وتسليح الجيش والإنفاق على الناس «ألف ألف دينار»[٦] وهو مبلغ ضخم للغاية، ويُدلل على الوضع المالي المستقر للدولة العباسية زمن الناصر.

لكن لما اطمأن جلال الدين منكبرتي من حملته الرادعة للعباسيين اتجه إلى أذربيجان التي أرسل له أهلها رسائل يطلبون منه المجيء إليها واستلامها وطرد أميرها الضعيف منها، وذلك بسبب هجومات الكرج من النصارى المقيمين في شمال أذربيجان والقوقاز وهذا ما فعله منكبرتي باستيلائه على تبريز عاصمة أذربيجان في ذي الحجة سنة ٦٢٢هـ.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٨٩. تدمري.
(٢) البت: قرية كالمدينة كانت تابعة لبغداد. البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ١٦١.
(٣) راذان الأعلى والأسفل، كورتان كانتا تابعتين للعاصمة بغداد. البغدادي: مراصد الإطلاع ٢/ ٥٩٣.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ٤/ ١٤٦.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٨٩. تدمري.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٢٤.

وقبل ذلك في شهر شوال من نفس العام كان الخليفة الناصر قد توفّاه الأجل، وأصبح الخليفة الجديد هو ابنه الظاهر بأمر الله.

استغل الظاهر بأمر الله انشغال جلال الدين منكبرتي بحروبه في أذربيجان والكرج، وأسرع بإرسال محيى الدين يوسف بن الجوزي سفيرًا إلى المعظم عيسى أمير دمشق ومعه الخلع والتشريفات ورسالة تتضمن « نهيه عن موالاة جلال الدين بن خوارزم شاه، فإنه خارجي من عزمه قتال الخليفة وأخذ بغداد منهم». ويبدو مفهومًا من هذه الرسالة محاولة الظاهر تفكيك التحالف القديم بين الأطراف الثلاثة، وبالفعل أجابه المعظّم عيسى إلى ذلك[1].

وفي ذات الوقت كان الظاهر بأمر الله قد أرسل إلى جلال الدين منكبرتي رسولين أثناء مقامه بتبريز «مبشرين بانتصاب الإمام الظاهر بأمر الله منصب آبائه الخلفاء»[2]. وهؤلاء هما نجم الدين الرازي وركن الدين بن عطاف، وقد أُمر ابن عطّاف أن يلزم السلطان جلال الدين، ويعود الرازي بمن يصب من رسل جلال الدين.

وقد قابل جلال الدين مبعوث الخليفة بارتياح وبعث معه القاضي مجير الدين عمر الخوارزمي حاملًا الخلع، إلا أنه عند وصوله إلى بغداد كان الظاهر قد تُوفي في رجب سنة ٦٢٣هـ، فعادت الخلع إلى بغداد «وحمل السلطان الأمر في ردها إلى بغداد لتغيّر النية في حقه إلى أن تحقق السبب»[3].

ظهور المغول وصعودهم

كان ظهور المغول البداية الحقيقية لسقوط الخلافة العباسية، وعامل مهم كهذا العامل لابد أن نتوقف معه بشيء من التأمل والتفصيل والترجيح، ومعرفة التاريخ الغامض الذي يحيط بهذه القبائل الرعوية البربرية التي ظلت تائهة في صحاري وبراري منغوليا لا يشغلها سوى المأكل والمرعى؛ حتى انبثق منها من اشتد ساعده لتجميع هؤلاء القبائل، ثم للاستيلاء على معظم أرجاء العالم القديم!

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٢٤.

(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٢٨٠.

(٣) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٢٨٠.

المغول والتتار .. من هم؟

ظهر المغول على مسرح أحداث التاريخ العالمي في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ثم برزوا كقوة عالمية ذات شهرة دولية واسعة النطاق خارج نطاق موطنهم الأصلي منغوليا في خلال العقدين الأول والثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وقد استطاعوا أن يؤسسوا لهم أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في أقصر مدة، حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال الثلاثة عقود الأخرى من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقًا إلى قلب القارة الأوربية غربًا، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالًا إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوبًا ولقد عرَّفهم مؤرخونا العرب منهم على وجه الخصوص والذين عاصروا أحداث ظهور المغول وغزواتهم للعالم الإسلامي بأنهم هم، التتر أو التتار وقد نهج منهجهم من جاء بعدهم من المؤرخين، بل وحتى الأغلبية من مؤرخي المغول في عصرنا الحاضر.

على أن هذه التسمية الخاطئة لم تقتصر فقط على المؤرخين المسلمين من العرب، بل وسار على ذلك التعريف الخاطئ المؤرخون والرحالة الأوربيون الأقدمون إلا أن المؤرخين الأوربيين المستشرقين الكبار، أمثال بريتسكنيدر وبارتولد الروسيين، وسيولر الألماني وبويل الإنجليزي وغيرهم، عرفوا الفرق بين التتار والمغول وذلك من خلال ما كتبه المؤرخ المسلم رشيد الدين الوزير، وخاصة ما كتبه في كتابه المشهور «جامع التواريخ»، ثم ما كتبه المؤرخون الصينيون، والتي ترجمت كتبهم إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة، كالروسية، والألمانية والفرنسية، والإنجليزية، كما عرف المستشرقون ذلك أيضًا مما كتب باللغة المغولية، ويتمثل ذلك بصورة رئيسية بالكتاب المعروف بـ«التاريخ السري للمغول»[1].

أما معنى كلمة تتار فغير محدد، فهي تعني لدى الصينيين البدو والبداوة، والفروسية أحيانًا، وفي اللغة التركية القديمة نجد كلمة تتراي، التي يُقصد بها الفارس صاحب البريد، ومن معانيها عندهم الأنفة والرفعة والإباء. ويبدو مما ذكرناه أن كلمة تتار قد ارتبط معناها بالفروسية والشجاعة، التي تتطابق ونمط الحياة التي عاشها هؤلاء في الفترات الأولى من ظهورهم على المسرح السياسي العالمي.

(١) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص٢٧، ٢٨.

اختلف العلماء كذلك على أصول التَّتار، وهل هم جزء من العنصر المغولي (المنغولي)، أو أنهم أرومة مستقلة متميزة، وفي الواقع يرى قليل من العلماء أنهما أرومتان مختلفتان شكلًا وهيئةً، ولكل منهما أرضه وعاداته وتقاليده، ولكن أكثر العلماء لا يشاطرونهم الرأي هذا، بل يعدونهما عرقًا واحدًا وموطنهما الأصلي واحد، والتمايز العرقي النسبي بينهما ظهر وتبلور لاحقًا، بعد أن غادروا موطنهم الأم، وامتزجوا بأعراق أخرى أوربية وسواها. ويرى هؤلاء كذلك أن كلمة تتار لا تعني شعبًا آخر غير مغولي، وإن طغيان التسمية على المغول سببه الدور الحربي البارز والقيادي الذي قامت به قبائل التَّتر المشاركة في غزوات جنكيزخان وخلفه.

ومن اللافت أن تسمية منغوليا تاريخيًا تعني أرضًا واسعة غير محددة تمامًا، تضم وسط آسيا وشمال الصين، أو ما يعرف بمنغوليا الخارجية ومنطقة تانوتوفا Tanutova، الواقعة ضمن روسيا حاليًا والمتنازع عليها مع الصين. وكذلك ما يعرف بمنطقة منغوليا الداخلية الصينية حاليًا.

يقول بارتولد في إشارة للخلط بين التتار والمغول: «يقول المؤرخ رشيد الدين: إن إطلاق كلمة التتار على نطاق واسع يرجع إلى قوة التتار الحقيقيين الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت حول بحيرة «بوير نور[1] Bouir Nor». أما الآن فإنا نعلم أن استعمال هذه الكلمة على هذا النطاق الواسع يرجع إلى زمن أبعد من ذلك، يرجع إلى عهد نقوش أورخون أي القرن الثامن الميلادي ... ويحتمل كثيرًا أن يكون هذا الاسم علمًا على الناطقين باللغة المغولية بوجه عام، وتدل معلومات رشيد الدين (الهمذاني) على أن حدود البلاد الناطقة بالمغولية والتركية في زمانه هي تقريبا نفس حدود البلاد الناطقة بهاتين اللغتين في عصرنا هذا؛ فقد كان شعب نايمان يملك كل غرب منغوليا ابتداءً من شمال نهر أورخون[2] إلى نهر إيرتيس[3]، وشعب أويرات وهو جاره إلى الشمال يتكلمان اللغة المغولية»[4].

(١) بحيرة بوير نور: بحيرة حدودية بين الصين ودولة منغوليا، تقع الآن في ولاية هولن بوير أقصى- شمال الصين. الرابط:
http://arabic.china.org.cn/china/archive/nmg60/2007-08/07/content_8643779.htm
(٢) نهر أورخون أهم أنهار منغوليا.
(٣) نهر إيرتيس أو نهر إرتيش أهم روافد نهر أوب. ويجري متجهًا نحو الشمال الغربي مسافة ٤٢٤٨كم عبر الصين وروسيا حتى يلتقي نهر أوب في غرب سيبريا. انظر: موسوعة المعرفة على الإنترنت، مادة إيرتيش.
(٤) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص١٧١.



ويفرق بارتولد كذلك بين التتار والمغول وأماكن تواجدهم بقوله: «كانت قبائل المغول تقطن المنطقة الممتدة من سد الصين جنوبًا إلى بحيرة بايقال شمالًا، وكان مستواهم الحضاري على درجات مختلفة، وقد ذكر الصينيون ثلاثة أنواع من التتار: التتار البيض وكان الصينيون يجاورنهم جنوبًا. وفي شمالهم التتار السود، وفي شمال هؤلاء التتار المتوحّشون الذين كان المغول يسمونهم شعوب الغابة، وكان التتار السود بدوًا أما المتوحشون فكانوا يعيشون على الصيد»(١).

هؤلاء التتار كانوا في أغلب الأوقات مطيعين وخاضعين لملوك الخِطا، ولكن من آن لآخر كانوا يثورون على الخطا، فيسرع هؤلاء لمقاومتهم وإجبارهم على الخضوع مرة أخرى(٢).

بناء على هذا، نجد أن المغول شيء والتتار شيء آخر، ويمكن أن توجد صلة تعريفية بين الاثنين فنقول بكلمات مختصرة: إن التتار مغول وليس المغول تترًا، فالتتار شعبة متفرعة من المغول، وليس المغول فرعًا من التتار، فالأصل هنا هم المغول، وليس الأصل التتار، وعلى الرغم من أن التتار تفرعوا أصلًا من المغول، وأصبح لهم دولة مستقلة، سيطرت على المغول حقبة من الزمن إلا أنه في الفترة التي نتكلم عنها الآن، جاء المغول تحت زعامة جنكيز خان، فهزم التتار، فقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم واسترقوا أطفالهم، ولهذا نجد أن التتار قد تلاشوا على يد الزعيم المغولي العظيم، وأصبح المغول هم أصحاب الدولة والغلبة، فأسسوا إمبراطورية لهم عرفت في التاريخ بالمغول وليست بالتتار.

إذن نشأ المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي وهي أراض واسعة تنعدم المياه في بعض جهاتها، وتكوّن حاجزًا منيعًا بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضي الباردة في سيبريا، ونجدُ هذه القبائل تعيش عيشة بربرية بحتة وتتوق إلى تعرّف كنه الحضارة الصينية المتاخمة لها في الجنوب، فنراهم يُغيرون عليها، وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم، وهذا هو السرّ في بناء سور الصين العظيم الذي بناه أهل الجنوب في عصور التاريخ الأولى دفعًا لغارات المتبربرين من الشمال.

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص١٧١.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ ص٢٧.

ولم يكن من المعقول أن يستقر الكيان السياسي في هذه البلاد وهي على هذه الحال من الفوضى السياسية والاضطراب الاجتماعي، وكانت الحالة هناك تستلزم ظهور شخصية قوية توحّد القبائل المغولية أولًا، وتسيطر على سائر القبائل المبعثرة هنا وهناك، ولم تكن هذه الشخصية إلا شخصية شاب مغولي مات أبوه وهو لا يزال فتى صغيرًا لم يتعد الثانية عشرة عامًا من عمره .. هذا الفتى هو تيموجين الملقّب فيما بعد بجنكيز خان[١].

جنكيز خان .. مبيد الأمم!

تيموجين أو الملقّب جنكيزخان Jenghis Khan مؤسس أوسع امبراطورية عرفها عالم العصر الوسيط مغولي الجنس، من عشيرة كيات Kiat أحد أفخاذ قبيلة بورجيغين Bordjigin، التي كانت تعد من قبائل الصنف الأول المغولية في أصالة النسب.

كانت كيات تنزل عند منابع نهري أونون Onon وكيرولين Kerulen في شمال جبال كنتاي[٢] Keantai. وكان والده يسوكاي Ysugai يتولى رئاسة العشيرة.

كانت ولادة تيموجين، وهي لفظة صينية تعني الصلب أو الفائق- في دولن بولداق Dulun- Boldaq، الواقعة عند الضفة اليمنى للمجرى الأعلى لـنهر أونون. والمنطقة اليوم في أقصى الحدود الشرقية للاتحاد الروسي، وذلك سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٥م.

وقد مازجت الأسطورة حوادث حياة تيموجين الأولى، فقيل إن قطعة دم متجمد كانت في يده عند ولادته. كان أكبر إخوته الذكور الثلاثة والأنثى، ولما بلغ التاسعة خطب له والده على عادة المغول الفتاة بورته Borte من قبيلة القونغيرات Qongirat النازلة في شمال بوير ـ نور.

مات يسوكاي والد تيموجين بِسُمّ دسّه له التتار ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، وكانت سلطته قد تجاوزت عشيرته إلى عشائر أخرى، فاستحق لذلك لقب بهادور (بطل/ شجاع) الذي اشتهر به، ولكن غالب أنصاره رفضوا الانضواء تحت سلطة ابنه الفتى تيموجين ذى الـ١٢ عامًا على الرغم من جهود أمه للم شمل العشيرة وحلفائها، ففارقوها مع قطعانهم، واضطرت الأم إلى الانكفاء مع أطفالها وبعض المخلصين إلى سفوح كنتاي تجمع الثمار والجذور

(١) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٢٧، ١٢٨.
(٢) من الجبال المقدسة عند المغول، يقع في ولاية كينتاي المنغولية.

لإطعامهم. ولما اشتد عود الصغار مارسوا الصيد، وأتقن تيموجين في حقبة التشرد فن الرماية وركوب الخيل، واجتمع حوله بعض الشبان. كما استطاع النجاة من أسر أصدقاء أبيه القدامى الحاقدين عليه وتزوج بورته[١].

بدأ نجم تيموجين يلمع بين العشائر في السابعة عشرة من عمره، بعد نجاحه في استرجاع خيول سرقت منه واسترجاع زوجته التي سباها الماركيت[٢].

ووجد في أحد أصدقاء أبيه القدامى وانغ - خان زعيم الكرايت[٣] Kerait النازلة في أطراف صحراء جوبي الشمالية الغربية خير حامٍ له في تلك المرحلة من حياته، ولما بلغ الثالثة والثلاثين بدأ يظهر زعيمًا بين القبائل في عقد المعاهدات، وقيادة الأحلاف، وتأليب القبائل بعضها على بعضها الآخر، ولذلك أخذ بعض أصدقاء أبيه يعودون للانضواء تحت سلطته، مبهورين بمواهبه في القيادة وبإخلاصه لأصدقائه.

واستطاع في سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م مع حليفه وانغ - خان، وبتحريضٍ من الصين التي أقلقها تعاظم قوة المغول إيقاع هزيمة نهائية بهؤلاء في منازلهم؛ فنادى به أتباعه، وكان فيهم أحفاد لأسر مالكة قديمة خانًا بموافقة وانغ - خان. وسمح لتيموجين لقبه الجديد أن يلحق نفسه رسميًا بخانات المغول الذين حاولوا توحيد منغولية في حقبة سابقة. وعد نفسه خلفًا لـ كوتولا Koutoula آخر هؤلاء الخانات.

ولما تابع تيموجين مساعيه لإلحاق بقية القبائل بسلطته، أخافت أعماله وانغ - خان، فحاول التخلص منه، ولكن تيموجين كان أسرع منه واستطاع القضاء على المؤامرة ومدبرها وقبائل الكرايت المغولية فصار بهذا الانتصار سيد منغوليا الشرقية وذلك سنة ٥٩٩هـ[٤].

بعد ذلك شرع تيموجين يؤلب القبائل الواحدة منها على الأخرى، ويتحالف مع القوي منها على الضعيف، وبهذه الوسائل استطاع التغلب على أقوام المغول الذين ينزلون في منطقة

---

(١) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ١/ ٣٩ وما بعدها.

(٢) الماركيت: قبائل مغولية كانت تكن العداء لقبيلة جنكيز خان.

(٣) الكرايت قبيلة مغولية كانت متحالفة في بادئ الأمر مع قبيلة جنكيز خان. ويميل المؤرخ النمساوي فامبري إلى أنها تحريف فارسي لكلمة كيريت بمعنى كلب الصيد، وأسماء أغلب القبائل التركية وأسرهم مأخوذة من أسماء الحيوان. فامبري: تاريخ بخارى هامش ص١٦٢.

(٤) الصياد: المغول في التاريخ ١/ ٤٧.

التبت وشرقي تركستان.

واستطاع أن يمد سلطته غربًا (بين ٥٩٩ - ٦٠١هـ/ ١٢٠٢ - ١٢٠٤م)، فألحق منغوليا الغربية بسلطته، ودعا عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م إلى قوريلتاي – أي اجتماع عام – للقبائل عند منابع نهر أونون، منحه الحاضرون فيه لقب «جنكيز خان»، وقد أعطيت للقب تفسيرات شتى: الملك القوي أو الأعظم أو المستقيم أو الثابت أو الجبار. وربما كان اللفظ من أصل صيني أو أويغوري(١).

اتخذ جنكيزخان عقب ذلك خطوات لتثبيت سلطانه، فأصدر شريعته المسماة الياسا. وقد أعطيت لهذه الكلمة تفسيرات مختلفة؛ منها أنها من اللفظة التركية: يسق - ياساق التي تعني ممنوع، واستمد جنكيزخان غالب شريعته من عادات المغول وتقاليدهم. وتقوم على أسس: الطاعة العمياء للحاكم، والاتحاد في القبيلة والعقاب الصارم لكل مذنب، وبدأ تنظيم حاشيته من الحرس والمساعدين العسكريين والمدنيين، وحرّم التناحر القبلي، ونظم البريد، وقسم الطرق إلى مراحل ووضع عليها العلامات، وأطلق على أتباعه رسميًا اسم المغول(٢).

وعاد جنكيزخان إلى بسط نفوذه باتجاه الغرب، وحقق له ذلك بين ٦٠٤-٦٠٨هـ/ ١٢٠٧-١٢١١م خضوع القيرغيز في حوض ينسي(٣) Yenissi الأعلى والأويغور في تركستان الشرقية، وكان الأويغور يخضعون للقراخِطائيين الذين كانوا يعاملونهم بالظلم والعسف، كما استطاع أن يبسط نفوذه على مملكة القارلون في قياليغ جنوب شرقي بلخاش(٤)، وبلغت سلطته بلاد الأنهار السبعة (جنوب بلخاش)، وأحسن جنكيزخان الاستفادة من حضارة الأويغور الأتراك، وكان أبرز ما نقله منهم حروفهم الهجائية التي أمر بتعليمها لأطفال المغول، ودوّن بها شريعة الياسا(٥).

اضطر جنكيزخان لإيقاف التوسع غربًا لقتال أسرة كين Kin الحاكمة في شمال الصين،

---

(١) فامبري: تاريخ بخارى ص١٦٣.

(٢) عصام الدين الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ص١٦٩، ١٧٠.

(٣) نهر يبلغ طوله ٤٠٩٣ كيلومترًا، وهو ينبع من جبال سايان بجنوب سيبيريا فى روسيا، ويتجه شمالا نحو مصبه فى بحر كارا على بعد ٣٢٠ كيلومترًا شرق خليج أوب (أوبسكايا جوبا).

(٤) بلخاش بحيرة واسعة، تقع جنوب شرقي كازاخستان. كان يُسمى في العصر الخوارزمي بحر بلكاش. انظر: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص١١٨.

(٥) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ١٢٩، ١٣٠.

والتي دأبت في السابق على تأليب المغول بعضهم على بعضهم الآخر، وانتهت الحملة الرئيسية التي دامت بين ٦٠٨-٦١١هـ/ ١٢١١-١٢١٥م إلى احتلال بكين، وعاد بعدها بالغنائم والأسرى والسبايا وصناع الأسلحة النارية ومهندسي الجسور الصينيين[١].

قضاء جنكيز خان على مغول النايمان

كان قضاء جنكيز خان على قبائل الكرايت المغولية سنة ٥٩٩هـ سببًا كي يُسرع خان قبيلة النايمان المغولية تاياناك كي يضم له حليفا يقوي ساعده ليتمكنا من القضاء على جنكيز خان الذي رأى خان النايمان أنه قادم للقضاء عليه لا محالة.

وقبيلة النايمان من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي، وقد أطلق عليهم ابن الأثير لقب التتار[٢] وكانوا يقطنون الحوض الأعلى لنهر أورخن ومنحدرات جبال ألتاي[٣]، وهم يدينون بالمسيحية مثل قبيلة الكرايت، وقد استعاروا مبادئهم من الأويغوريين جيرانهم في الجنوب، كما كانت هذه القبائل تمتاز بالبداوة، بعضها يقيم في مناطق الجبال الوعرة والبعض يقيم في الصحاري.

استنجد خان قبيلة النايمان بملك قبيلة الأنكوت وطلب أن ينضم إليه في حربه ضد تيموجين غير أن هذا الحاكم أرسل إلى تيموجين رسولًا يطلعه على ما عرضه عليه تاياناك خان، فاستعدّ تيموجين لمحاربته، والتقى الجانبان سنة ٦٠٠هـ، فتغلب تيموجين جنكيز خان على خصمه وقتله، بعد ذلك هرب كوجلك خان ابن تايناك في جمع كثير من أتباعه حتى وصل ملتجئًا إلى كورخان سلطان القراخطائيين في الشرق، في هذه الأثناء كان علاء الدين تكش خوارزمشاه قد شق عصا الطاعة على كورخان ورفض أن يدفع له الجزية، ومرّت بنا هذه الأحداث التي نشبت فيها العداوة بين الخوارزميين والقراخطائيين بسبب انهزام القراخطائيين من الغوريين المسلمين في أفغانستان والسند، وكان علاء الدين تكش قد

(١) مظهر شهاب: جنكيز خان، الموسوعة العربية ٧/ ٧٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٦٠. تدمري.

(٣) هي سلسلة جبال في آسيا الوسطى، حيث تلتقي روسيا، الصين، منغوليا، وكازاخستان معا، حيث منابع أنهار إيرتيش، وأوبي. جبال ألتاي معروفة بالموضع الأصلي للناطقين بالتركية. تشكل سلسلة جبال التاي جنوب سيبريا أبرز سلسلة جبال في منطقة سيبريا الغربيّة البيوجغرافيّة حيث تنبع مجاري مياه أوب وإيرتش. مادة ألتاي الموسوعة العالمية ويكيبيديا نقلا عن موقع لغة الأتراك واليونيسكو.

استنجد بهم للقضاء على الغوريين لكن العكس هو ما حدث لهم.

في ظل هذا التوتر بين القراخطائيين والخوارزميين أشار كوجلك خان على كورخان ملك القراخطائيين أن يسمح له بتكوين جيش من قبيلته التي تشعثت في المناطق المختلفة والقريبة من الدولة القراخِطائية وغيرهم من العناصر المؤيدة له؛ ليتمكن من مساعدته للقضاء على الخوارزميين، وقد تعهد كوجلك خان بأن يظل وفيًا له، ولا يعصي له أمرًا، فانطلت هذه الحيلة على كورخان، وشمل كوجلك بعطفه ورعايته.

وهكذا استطاع زعيم النايمان المغولي الفارّ أن يجمع جنوده، ويعيد تنظيم قوّاته، وانضم إليه من أتباع كورخان، كما لحق به توق تغان حاكم قبيلة المركيت الذي كان قد فرّ هو الآخر خوفًا من بطش جنكيز خان، وصار كوجلك يبدو في ثوب التابع المخلص لكورخان، حتى إذا لمس منه ضعفًا غدر به، وقد مرّ بنا أن كلا من القراخطائيين والنايمان أرسلوا لعلاء الدين خوارزمشاه كي يعينهم على بعضهم البعض، وكانت استراتيجية خوارزمشاه أن ينضم لأقواهم، وهذا ما حدث، حيث انضم لكوجلك خان، وقضوا جميعا على الدولة القراخطائية(١).

بعد هزيمة القراخطائيين أخذ كوجلك يوسّع دولته فأخضع كثيرًا من القبائل المجاورة ومدّ سلطانه من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية، لكنه كان شديد البطش بمخالفيه لا سيما المسلمين الذين قتل منهم ومن علمائهم الكثير ونهب أراضيهم وحرق مزروعاتهم في المقابل كانت سياسته لينة وادعة تجاه البوذيين المشركين.

لكن على أية حال لم يكن جنكيز خان بالشخص الغافل عن عدوّه اللدود كوجلك خان فيتركه؛ ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه للأخذ بثأر أبيه، وإذا كان قد صبر عليه بعض الوقت فما ذلك لأنه كان مشغولًا بحروبه مع القرغيز والأويغور والصينيين، فلما فرغ سارع فأرسل جيشًا كبيرًا بقيادة أحد قواده المشهورين وكان يُدعى جَبَه نويان الذي سار إلى كاشغر واستولى عليها بسهولة، وفرّ كوجلك خان هائمًا على وجهه، ولم يحاول أن يواجه المغول في معركة من المعارك، وكان أول ما فعله جبه أن أطلق الحرية الدينية للجميع فتنفّس المسلمون الصعداء، فقد خلصهم بهذه السياسة الجديدة مما كانوا يعانونه من ضيق وحرج على يد

(١) فامبري: تاريخ بخارى ص١٦٣، ١٦٤.

كوجلك في نواحي كاشغر وختن، فلا غرو أن راحوا يستقبلون المغول كمحررين لهذه البلاد[١].

فرّ كوجلك قاصدًا بدخشان[٢] حيث اعتقله بعض الصيادين، وسلموه للمغول الذين كانوا يُجدّون في أثره، فقتلوه على الفور، وأرسلوا رأسه إلى جنكيز خان إلى العاصمة المغولية وقتها قرة قورم وهي في منغوليا الآن، ثم أعملوا سيوفهم في كل من وجدوه من طائفة النايمان حتى قضوا عليهم جميعًا في سنة ٦١٥هـ، وبذلك كانت فترة استمرارية دولة النايمان لا تتعدى الأحد عشر عامًا فقط[٣]!

وأما توق تغان حاكم قبيلة الماركيت فقد تعقّبه جوجي بن جنكيز خان على رأس جيش كبير فلاذ بالفرار، غير أن المغول تمكنوا من العثور عليه والخلاص منه كما استأصلوا شأفة أتباعه، وبهذا الانتصار تمّت سيطرة المغول على جميع القبائل التركية التي كانت تخضع للقراخطائيين، كما احتلوا المناطق الأخرى التي كان كوجلك خان قد ضمها إلى دولتها، وصارت دولة جنكيز خان في تماس مع الدولة الخوارزمية بقيادة علاء الدين تكش[٤].

بوادر العلاقات بين خوارزمشاه والمغول

كان علاء الدين خوارزمشاه أثناء حرب المغول للنايمان منشغلًا بالحرب مع الوثنيين؛ فقد وجّه ضرباته إلى القبجاق بالمنطقة الشمالية من نهر سيحون، وكان القبجاق أضعف نسبيًا وأقل نظامًا.

وفي نواحي قيرغيز وقع بطريق الصدفة صدام بين العساكر الخوارزمية وبين القوات المغولية بقيادة جوجي خان بن جنكيز خان وكان قد وصل إلى هناك أثناء تعقبه للماركيت الفارّين إلى الغرب، وكان خوارزمشاه على فشله المتكرر، لا يزال يطمع في أن يشتهر وينال لقب فاتح العالم، بل كان يأمل حتى بعد ذلك أن يفتح الصين، وقد تملكه الحزن حين سمع باستيلاء جنكيز خان على بكين سنة ٦١١هـ، وأرسل بهاء الدين الرازي سفيرًا لدى جنكيز

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص١٧٦.

(٢) بدخشان: مدينة مشهورة بأعلى طخارستان. وهي الآن ولاية ومن ولايات دولة أفغانستان تقع في الشمال الشرقي منها. القزويني: آثار البلاد ص٣٠٦. وويكيبيديا مادة بدخشان.

(٣) فامبري: تاريخ بخارى ص١٦٤.

(٤) الصياد: المغول في التاريخ ص٥١ - ٥٧.

ليتحقق من خبر هذا الفتح؛ وليجمع المعلومات عن انتصارات جنكيز خان وفتوحاته.

ووصل بهاء الدين وجنكيز خان لا يزال في الصين، وقد روى المؤرخ الفارسي منهاج الدين الجوزجاني في «طبقات ناصري» قصة هذه السفارة نقلًا عن السفير ذاته فلا مجال للشك فيها كما يذكر بارتولد(١).

كانت نتائج المعركة التي لم تُحسم بين علاء الدين خوارزمشاه وجوجي بن جنكيز خان؛ حيث هرب هذا الأخير في جنح الظلام فلم تكن عنده أوامر من أبيه بقتال الخوارزميين - أن شعر السلطان الخوارزمي بقوة المغول، وبدأ يحتاط منهم، حتى إن المؤرخ النسوي الذي كان قد اعتاد أن يُبرز بطولات الخوارزمية نراه يقول: «وتمكن من قلب السلطان الرعب والاعتقاد ببسالتهم ما إذا ذكروا في مجلسه يقول: لم ير رجالهم إقداما وثباتًا على مضض الحرب وخبرة بقوانين الطعن والضرب»(٢) مثلهم.

أسباب الاجتياح المغولي للخوارزميين

لم يؤثر الاشتباك بين القوات الخوارزمية والمغولية في العلاقات القائمة بين الدولتين، ولعل كلا الفريقين قدر هذا القتال نتيجة خطأ يؤسف له، وأن علاء الدين تكش أرسل بهاء الدين الرازي كما ذكر الجوزجاني، وكانت من نتائج رسالة الرازي أن أرسل جنكيز خان ثلاثة من الرسل محملين بهدايا بالغة القيمة، ورسالة مهمة.

ذكر النسوي هذه الرسالة وتفاصيل السفارة في تأريخه لسيرة علاء الدين خوارزمشاه وولده منكبرتي، فقد كان غرض الرسالة توطيد العلاقات التجارية والدبلوماسية بين الجانبين؛ فكان مما جاء فيها على لسان جنكيز خان لعلاء الدين خوارزمشاه: «ليس يخفى عليّ عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعزِّ أولادي، وغيرُ خاف عليك أنني ملكتُ الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر، ومعادن الفضة، وإن فيها لغنية عن طلب غيرها؛ فإن

(١) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص١٧٦، ١٧٧.
(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٠٠ وما بعدها.

رأيت أن نفتح للتجار في الجبهتين سبيل التردد، عمت المنافع، وشملت الفوائد»(١).

وكانت الرسل التي حملت هذه الرسالة ثلاثة من المسلمين الذين يقطنون في البلاد المغولية، وقد أرسلهم جنكيز خان لتسهيل المأمورية والتأكيد على أن أوضاع المسلمين في بلاد المغول على أفضل ما يكون وذلك عقب عودة علاء الدين تكش من حملته الفاشلة على العراق سنة ٦١٥هـ.

لكن خوارزمشاه أرسل لأحد هؤلاء الرسل الثلاثة ويُدعى محمود الخوارزمي ليلًا وقال له: «إنك رجل خوارزمي ولابد لك من موالاة فينا وميل، ووعده بالإحسان إن صدقه فيما يسأله، وأعطاه من معضّدته جوهرة نفيسة علامة للوفاء بها وعده، وشرط عليه أن يكون عينًا له على جنكيزخان، فأجابه إلى ما سأل؛ رغبة ورهبة، ثم قال: اصدقني فيما يقول جنكيزخان: إنه ملك الصين، واستولى على مدينة طمغاج. أصادق فيما يقول، أم كاذب؟ فقال: بل صادق. ومثل هذا الأمر المعظّم ليس يخفى حاله، وعن قريب يتحقق السلطان ذلك»(٢).

لكن خوارزمشاه كان شديد الغضب من الرسالة فقال لذلك الخوارزمي الرسول مستفسرًا: «أنت تعرف ممالكي وبسطتها، وعساكري وكثرتها، فمن هذا اللعين حتى يخاطبني بالولد؟ ما مقدار ما معه من العساكر؟ فلما شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ أعرض عن النصح ... وقال: ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس في خيل، أو دخان في جنح ليل»(٣).

ويبدو أن تحول إجابة محمود الخوارزمي من الصدق إلى الكذب مخافة بطش السلطان الخوارزمي جعلت السلطان في حالة من النشوة والغرور؛ فقد قبل الرسالة من جنكيز خان، وسمح بتبادل الرسل والتجارة بين الجانبين.

لقد كان من مصلحة جنكيز خان وخوارزمشاه بسبب الأحداث الداخلية والقلاقل عند الأول، وحملة الثاني الفاشلة على العراق أن تكون العلاقة بين الجانبين القويين على درجة من الود المشوب بالحذر، وهنا كان لابد من تحسين العلاقات بين الجانبين، واستمرت حالة السلم

(١) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٨٣، ٨٤.

(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٨٤.

(٣) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٨٥.

بين الجانبين فترة لا بأس بها من الزمن.

لكن بدأت العلاقات في النفور بين الجانبين إثر حادث مقتل تجار المغول في مدينة أُترار[١] الحدودية بين الجانبين والاستيلاء على قافلة اختلف المؤرخون في تعدادها فمنهم من يحصيها بـ ٤٥٠ تاجرًا كلهم من المسلمين، ومنهم من يجعلهم مائة وخمسين من كافة الأديان[٢]، ومنهم من يجعلهم أربعة فقط كالنسوي. قال النسوي: «استمر الحال على المسالمة إلى أن وصل من بلاده (بلاد جنكيز خان) تجار إلى أُترار، وهم عمر خواجه الأُتراري، والحمّال المراغي، وفخر الدين الدنزكي البخاري، وأمين الدين الهروي، وكان ينال خان ابن خال السلطان في عشرين ألف فارس ينوب عن السلطان بها، فشرهت نفسه الدنية إلى أموال أولئك، وكاتب السّلطان مكاتبة خائن مائن يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار، وليسوا بتجار بل أصحاب أخبار .. فأذن له السلطان في الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه»[٣].

لكن السلطان نسي أمرهم، مما جرّأ ينال على قتلهم والتخلص منهم للاستيلاء على تجارتهم، على أن ابن الأثير يثبت ضلوع السلطان علاء الدين خوارزمشاه في قتلهم ومعرفته المسبقة بذلك، قال: «لما ورد عليه هذه الطائفة من التتر (أي التجار) أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه، فقتلهم، وسير ما معهم، وكان شيئا كثيرا، فلما وصل إلى خوارزم شاه فرقه على تجار بخارى، وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم»[٤].

ويعلق أحد أهم مؤرخي المغول في العصر الحديث الإنجليزي ج.ج ساووندرز على رواية ابن الأثير التي عضدها البرهان الجوزجاني المعاصر لهذه الأحداث بقوله: «إن حيل جنكيز خان الخادعة ودهاءه الماكر لم يعد يخفى أمره على أحد، فأصبح معروفًا وعلى نطاق

(١) يقول محمد أمين: إن أترار كان أحد أسماء مدينة فاراب، وهي التي نُسب لها الفارابي وغيره. وتقع الآن في دولة كازاخستان على نهر سيحون «سيردريا». محمد أمين، مقال بعنوان «فاراب القازاقية درة آسيا الوسطى». على موقع آسيا الوسطى باللغة العربية على الشبكة العنكبوتية.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٠.

(٣) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٨٥، ٨٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٣٦. تدمري.



واسع، فلم يفت على السلطان الخوارزمي أن يشك في أنه غالبًا ما يختفي الجواسيس ملتقطي الأخبار تحت زيّ تجار مسالمين؛ لذلك فقد شكت حكومة السلطان الخوارزمية في حقيقة أمر تلك القافلة التجارية التي وصلت إلى أُترار ذلك المركز الهام الواقع على حدودها الشمالية الشرقية، وإن ما تدعيه من أن هدفها كان تجاريًا لم يكن إلا ظاهريًا يخفى وراءه غير ذلك؛ لذلك فقد أقدمت السلطة الحاكمة هناك على القبض عليهم، وحُكم عليهم بالقتل»(١).

على الفور أرسل جنكيز خان ثلاثة مبعوثين من قبله إلى خوارزمشاه، على رأسهم ابن لأحد أمراء خوارزمشاه السابقين اسمه ابن كفرج بغرا والآخران من المغول برسالة شديدة اللهجة جاء فيها: «إنك أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار وأن لا تتعرّض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلّم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل؛ حقنًا للدماء، وتسكينًا للدهماء، وإلا فأذن بحرب ترخُص فيها غوالي الأرواح، وتتعضّد معها عوامل الرماح»(٢).

لكن لم يكن خوارزمشاه ليفعل ذلك بالرغم من تأثير هذه الرسالة الشديدة فيه؛ فلقد أصابه «رعب خامر قلبه، وخوف سلب لبه»(٣).

لم يستطع خوارزمشاه أن يُسلم ابن خاله ينال خان وذلك بسبب قوة والدته تركان خاتون، وبسبب انتساب معظم العساكر الخوارزمية إلى الفرع المنسوب له ينال وهم أتراك القنقلي، ما ينذر بتفسّخ القوة العسكرية للدولة بكاملها، وفوق رفض خوارزمشاه تسليم ابن خاله قام بقتل هؤلاء الرسل الثلاثة، وقيل قتل ابن كفرج وحلق لحى الآخرين كنوع من الدعاية المضادة التي تُدلل على قوة الخوارزميين وعدم انصياعهم لأوامر المغول، علّق الجويني على مقتل هؤلاء الرسل بقوله: «إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفّر المسلمون عنها بسيل من الدماء، كما كلّفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أرواحهم»(٤).

---

(١) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص١٦٨. نقلا عن ج. ج. ساووندرز: تاريخ الفتوحات المغولية ص٥٥.

(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٨٧.

(٣) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٨٧.

(٤) عفاف صبرة ص١٧٠، نقلا عن الجويني: تاريخ جهانكشاي ١/ ٨١.

إن هناك من يرى أن أطماع جنكيزخان لم تكن تقف عند حد، وأنه كان في نية هذا الغازي المغولي أن ينقضّ على تلك الأقاليم في أية لحظة حتى ولو لم تقع هذه الحادثة؛ إذ لا يُعقل أن المغول كانوا يكتفون بمركزهم في آسيا الوسطى ولا ينساحون نحو الجنوب الغربي والقرائن تؤيد ذلك؛ فإن كل غاز لإقليم التركستان كان لابد وأن يُغير عاجلًا أو آجلًا على الهضبة الإيرانية[١].

وفي السنوات العشر الأولى من حكم المغول أعد جنكيز خان العُدة لإخضاع العالم بأسره، فكان طبيعيًا أن يوحي إلى أتباعه بأنهم سوف يُهيمنون على العالم ليمنيهم بإشباع رغبتهم في السلب والنهب، وقد وطّن المغول أنفسهم على القيام بحروب متواصلة من أجل تحقيق هذا الغرض.

بيد أن الأمر الذي لا شك فيه أن مذبحة أُترار وما صحبها من سوء التصرف من جانب السلطان الخوارزمي وعدم اهتمامه بالتحقيق في هذه الكارثة ورفضه تسليم ينال خان، ثم إقدامه على قتل رسل جنكيز خان في المرة الثانية، كل ذلك أعطى جنكيز خان المبرر والحجة الدامغة لتبرير الهجوم عليه[٢].

هل حرّض الخليفة الناصر المغول لاجتياح الخوارزميين؟!

لقد ألقى بارتولد علينا هذا السؤال: مسألة الحرب بين جنكيز خان ومحمد خوارزمشاه: ما سببها؟! وتولى هو نفسه الإجابة فقال: «كثيرًا ما يُنظر إلى هذه المسألة من حيث ارتباطها بخطة جنكيز خان للفتح والغزو، وكثيرًا ما يُقال إن خطط جنكيز خان – إذا لم تكن بتحريض من دولة أجنبية – فقد كانت على الأقل تلقى تأييدًا من الخارج وخاصة من خليفة بغداد الناصر؛ ذلك على حين أن الدراسة المقارنة لما ورد بالمصادر الإسلامية عن هذه الحرب يدل على أن محمد خوارزمشاه سبّب هذه الحرب أو على الأقل عجل قيامها»[٣].

إن مما يلفت النظر أن كثيرًا من المؤرخين في القديم والحديث قد صبّ اللوم على الخليفة العباسي الناصر لدين الله واعتبروه أنه المحرّض الأول للمغول كي يغزوا الأراضي

(١) حمدي حافظ: المغول في التاريخ ص١٠٦. نقلا عن Spuler: Die Mongolen in Iran, P.52.
(٢) حافظ حمدي: المغول في التاريخ ص١٠٦.
(٣) بارتولد: تاريخ الترك في العصور الوسطى ص١٧٧.

الخوارزمية، إذ عرف الناصر قوة جنكيزخان الصاعدة فأرسل إليه يستعديه على علاء الدين خوارزمشاه.

لقد اعتمد بعض المؤرخين على إشارة ابن الأثير المعاصر لهذه الأحداث التي عدّد فيها أسباب خروج المغول، ومنها قوله: «وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر: فكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر»[(١)].

لكن ابن الأثير يعود فيصرّح بهذه التهمة عقب وفاة الناصر سنة ٦٢٢هـ في موضع آخر من «الكامل» فيقول: «وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم»[(٢)].

لكن يتضح من تصريح ابن الأثير الآنف أن هذا القول قد صدر وانتشر بين العجم الذين يتكلمون اللغة الفارسية، ولم يكن العرب في العراق والشام وغيرها يعرفون شيئًا عن هذه الأمور.

وهناك من المؤرخين من فسّروا القول أيضًا باتهام الخليفة الناصر ومنهم ابن الفرات (ت٨٠٧هـ) في كتابه «تاريخ الدول والملوك»، ونسج ميرخوند المؤرخ الفارسي الذي عاش بعد ابن الفرات بقرن من الزمان على هذا الاتهام وذكر طريقة إرسال واتصال الخليفة الناصر بالمغول بواسطة رسول حلق رأسه وكُتبت عليه الرسالة ثم أرسل بعد نمو شعره[(٣)].

وقد أيد أبو الفداء في «المختصر في تاريخ البشر» هذه الرواية كذلك، كما أيدها المقريزي بقوله: «في خلافته خرب التتر بلاد المشرق حتَّى وصلوا إلى همذان وكان هو السَّبب في ذلك فإنَّه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفًا من السُّلطان علاء الدّين محمَّد بن خوارزم شاه لما هم بالاستيلاء على بغداد وأن يجعلها دار ملكه كما كانت السلجوقية»[(٤)].

وهناك من المؤرخين المحدثين من يؤيد فكرة استدعاء الخليفة الناصر لدين الله للمغول؛ فمن هؤلاء الدكتور حافظ حمدي محقق «سيرة السلطان منكبرتي» للنسوي، والمؤرخ المغولي

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٣٦. تدمري.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٤٠٠، ٤٠١. تدمري.
(٣) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص١٥٦.
(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٣٤١.

حيث يقول: «لا يسعنا إلا أن نصدق فكرة استدعاء الخليفة للمغول بعد أن علمنا أن سلطان الخليفة كان قاب قوسين أو أدنى من النزول وأن الخليفة لم يجد طريقًا يوصله إلى الحد من نفوذ الخوارزميين إلا سلكه، فحاك حولهم الدسائس والفتن، وألب عليهم أعداءهم من العناصر المحيطة بدولتهم وأثار كل ذلك متاعب جمة للخوارزميين، ولولا انشغال علاء الدين خوارزمشاه بتلك المتاعب لاستطاع الخوارزميون أن يُسقطوا الخلافة العباسية حتمًا»(١).

وقد أكد كذلك على أن فكرة استعانة الخلافة العباسية بالعناصر الخارجية لتثبيت أقدامها فكرة نهج عليها الخلفاء العباسيون في ظروف كثيرة، فقد استدعى الخلفاء بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك، واستنجدوا بالسلاجقة على البساسيري، بل استعانوا بالخوارزميين في القضاء على سلاجقة العراق(٢).

وقد أيّد هذه الرواية أيضًا بعض المؤرخين الأوربيين مثل دوسون وهورث وبراون وكيرتن وميور وجرينار، وهارولد لام الذي انفرد بخبر عرض الخليفة الناصر على جنكيزخان استعداد الخلافة العباسية لمهاجمة الخوارزميين إذا هاجمها هو من الشرق(٣)!

على أن الدكتور محمد صالح القزاز يرفض هذه الفكرة ويقول: «إني لا أتفق مع الذين ذهبوا في تفسيره إلى اتهام الخليفة الناصر لدين الله باتصاله بالمغول ودعوته لهم بمهاجمة الخوارزميين ... إن هذا الاتهام ينصرف إلى تقصير الخليفة الواضح وعدم تقديره لمسئولياته كخليفة للمسلمين وتقاعده المتعمد عن الخطر الذي هدّد البلاد بعد أن أعماه الحقد على خوارزمشاه فسهل بذلك على المغول القضاء على هذه الإمارة الإسلامية مع استحالة اتصاله بالمغول في ذلك الوقت»(٤).

وهو الرأي الذي يذكره المؤرخ العراقي المعروف الدكتور فاروق عمر بقوله: «لقد كانت الصفحة الأولى من الاحتكاك المغولي بالعالم الإسلامي - والتي تبدأ من سنة ٦١٦هـ إلى سنة ٦٢٠هـ وهي السنة التي توفي فيها جنكيزخان - عبارة عن غارات متعددة وغزوات مفاجئة

---

(١) حمدي حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول ص٥٣.
(٢) حمدي حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول ص٥٣.
(٣) حمدي حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول ص٥٣.
(٤) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص١٥٨؛ نقلا عن القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر الأخير ص٢٨.



على مدن وأقاليم بلاد ما وراء النهر وخراسان وهدفها جسّ النبض وتحسس قوة أمراء المسلمين ولم يذكر التاريخ للخليفة الناصر أي دور معيّن تجاهها خاصة أنه كان في أواخر حياته مشلولًا أنهكه المرض حيث توفي سنة ٦٢٢هـ»(١).

إن الرأي الذي أميل إليه والذي تؤكده حوادث سنة ٦١٧هـ أي بعد خروج المغول في الاجتياح الأول للهضبة الإيرانية حتى حدود الخلافة العباسية يؤكد لديَّ أن الخليفة الناصر العباسي لم يتصل بالمغول بالفعل؛ ذلك أن جحافل المغول أرادت أن تغزو الأراضي العباسية بالفعل؛ يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧هـ: «وصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل وإلى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر، فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل، لصعوبتها، إلى هذه الناحية، ويطرقون العراق، فسار مظفر الدين من إربل في صفر، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل، وتبعهم من المتطوعة كثير. وأرسل الخليفة أيضا إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم»(٢).

وكان قائد التحالف الإسلامي حينها أمير إربل مظفر الدين كوكبري الذي أرسل إلى الناصر من مقر حملته العسكرية في دقوقا يقول: «إن العدو قوي، وليس لي من العسكر ما ألقاه به، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرني بالمسير، ووعدني بوصول العسكر، فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثماني مائة طواشي، فأقمت، وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين»(٣). ولولا أن المغول ظنوا أن الجيش العباسي كثيف لدخلوا العراق في هذا العام بالفعل، لكنهم رجعوا ولم يجسروا على التوغل في العراق. كل هذا يؤكد تأكيدًا قاطعًا على استحالة اتصال الناصر بجنكيزخان.

يقول بارتولد: «لم يكن من بد بعد حادثة أوترار من أن يوجّه المغول غزواتهم إلى بلاد خوارزمشاه دون أن تكون بهم حاجة إلى تحريض الخليفة الناصر أو سواه، وكان من الطبيعي أن تنتشر الشائعات، وأن تُنسب إلى الخليفة الناصر تدابير من هذا النوع بسبب الخلاف بينه

---

(١) فاروق عمر: الخلافة العباسية، السقوط والانهيار ٢/ ٢٣٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٥٠. تدمري.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٤٩. تدمري.

وبين خوارزمشاه، ومن المعلوم أن جلال الدين منكبرتي بن خوارزمشاه كان يتهم خليفة بغداد بنفس الاتهام دون أن يملك دليلًا واحدًا لتأييده، والطبيعي أن يكون غزو جنكيزخان للبلاد الإسلامية نتيجة مباشرة لحادثة أوترار، وآية ذلك أن التجار المسلمين ظاهروا جنكيزخان»[1].

إن الرسالة التي أرسلها جنكيزخان إلى علاء الدين خوارزمشاه يطلب منه أن يُسلم ينال خان لتهدأ الفتنة بين الجانبين فيها جملة في غاية الأهمية وهي كما ذكرها النسوي: «فسلّم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل؛ حقنًا للدماء، وتسكينًا للدهماء»[2]. فتسكين الدهماء أي تهدئة الرأي العام المغولي الذي رأى قتل التجار إهانة للأمة المغولية كان من أكبر العوامل التي أدت لاشتعال الحرب بين الجانبين؛ خاصة أن الشأو والمكانة والانتصارات المتلاحقة عبر ١٥ عامًا متصلة جعلت من تصرف خوارزمشاه المشين إهانة لجموع المغول، ومبررًا للهجوم عليه وعلى المشرق الإسلامي بين الأعوام ٦١٦ – ٦٢٠هـ.

الاجتياح المغولي الأول

ونقصد به غارة عامي ٦١٦هـ، ٦١٧هـ، وهو الاجتياح الذي سبق الاجتياح الكبير سنة ٦٥٢هـ.

إن المؤرخ الكبير عز الدين بن الأثير قبل أن يتناول ذكر هذا الاجتياح بالتفصيل أخبرنا أنه – وهو المعاصر لهذه المأساة – ظل معرضا غير قادر عن ذكرها في تاريخه استعظامًا لهولها، يقول: «لقد بقيت عدة سنين مُعرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، إلى الآن، لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقا، فإن التواريخ لم

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص١٧٨.

(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٨٧.

تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها»[١].

وبدأت الحرب بانتصار تافه فاز به محمد خوارزمشاه ولكنه بقى مع ذلك خاملا مبتعدا بنفسه عن مواقع الخطر، تاركا أمر المدافعة عن حدود بلاده التى أغار عليها المغول إلى حكامها، منتظرا- فيما يقولون- لحظة مباركة يشير بها المنجمون ليبدأ فيها منازلة خصمه.

وفى أثناء انتظاره وترقبه، عصفت العاصفة بشدة فيما وراء النهر فى خريف ٦١٦هـ وسقطت مدينة أُترار بعد حصار دام خمسة أشهر أو ستة، وقبض المغول على حاكمها الذى أمر بقتل تجارهم، فأعدموه بأن صبوا الفضة المصهورة فى عينيه وأذنيه، ثم ساقوا أمامهم من نجا من غارتهم على هذه المدينة فدفعوا بهم إلى مدينة بخارى لينتفعوا بهم كما ذكرنا ضد مواطنيهم و أهل دينهم.

وأغاروا على أوزكند[٢] وعلى مدينتين صغيرتين أو ثلاث؛ ثم أتوا إلى جنَد[٣] فاستولوا عليها بعد حصار قصير و أعملوا الغارة فيها تسعة أيام كاملة، و لكن من عجب أنهم لم يقتلوا سكانها، ثم سقطت مدينة بناكت فى أيديهم، و صمدت فى وجههم مدينة خُجند لأن تيمور ملك دافع عنها دفاعا مجيدا، ولم تظهر تباشير سنة ٦١٧هـ حتى سيطر المغول على مدينة بخارى وأعملوا الغارة فيها وأحرقوها وقتلوا عددا كبيرا من سكانها واستحيوا النساء وهتكوا الحرمات وقد آثر الموت جهادا جماعة من سكانها لم يرضوا بحياة العار والذل فاستشهدوا مقاتلين.

وجاءت نوبة سمرقند بعد ذلك فحاصرها المغول أربعة أيام ثم خضعت لهم فى نهاية هذه المدة، فأغاروا عليها كعادتهم ونهبوها وقتلوا كثيرا من سكانها واستعبدوا من نجا من حد سيوفهم.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٣٣.

(٢) أوزكند: آخر مدن إقليم فرغانة في بلاد ما وراء النهر مما يلي دار الحرب كما ذكر ياقوت. ياقوت: معجم البلدان ١/ ٢٨٠. ومدينة أوزكند أو أوزجند من المدن التاريخية الباقية حتى الآن في شرقي أوزباكستان. محمد بن موسى الشريف، مقال بعنوان «مدن أوزباكستان التاريخية ١-٣». منشور على موقع آسيا الوسطى باللغة العربية على الانترنت.

(٣) قال ياقوت عن جنَد: «اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر قريب من نهر سيحون، وأهلها مسلمون ينتحلون مذهب أبي حنيفة». ياقوت: معجم البلدان ٢/ ١٦٨. تقع الآن في شرق كازاخستان ولم أطلع على اسمها بالكازاخية.

واستمر محمد خوارزمشاه فى التقهقر والتراجع، وأخذ ينصح سكان البلاد التى يمر بها أن يعملوا ما يستطيعون لحماية بلدانهم لأنه فى موقف يعجز معه عن معاونتهم أو حمايتهم. واعتقد أن المغول سوف لا يجسرون على عبور نهر جيحون فتوقف قليلا فى مدينة نيسابور، ولكن لم تنقض على ذلك ثلاثة أسابيع حتى علم أنهم دخلوا خراسان، فأسرع إلى الهرب إلى ناحية الغرب صوب قزوين فلما بلغها دار على عقبه ويمم وجهه شطر كيلان[١] و مازندران وهناك تركه أتباعه وانفضوا من حوله، ثم مرض بالبرص واشتدت عليه علته فمات شريدا طريدا فى جزيرة بعيدة من جزر بحر قزوين، تاركا ملكه لابنه الشجاع جلال الدين وقد وقعت أمه تركان خاتون مع زوجاته وأولاده وجواهره فى أيدى المغول وحوزتهم.

وسقطت بعد ذلك خوارزم وكانت قد قاومت المغول مقاومة شديدة أثارت حفيظتهم، فلما وقعت فى أيديهم أعملوا سيوفهم فى رقاب أهليها جميعا ولم يبقوا من سكانها إلا على أصحاب الحرف والصناعات فنقلوهم كعادتهم إلى منغوليا. وقد ذكر صاحب جامع التواريخ أن الجيش المغولى الذى حاصر خوارزم كان يبلغ خمسين ألف مقاتل، وأنه وكل إلى كل واحد من هؤلاء أن يقتل أربعة و عشرين رجلا من الأسرى الذين وقعوا فى قبضتهم بعد الاستيلاء على هذه المدينة.

واستشهد على أيديهم فى هذه المدينة العالم الورع الشيخ نجم الدين كبرى[٢] وعاملوا سكان مدينة ترمذ[٣] نفس هذه المعاملة فقتلوا سكانها، ووقعت فى أيديهم امرأة عجوز ابتلعت جوهرة لتخفيها عنهم، فأمروا جندهم بإخراج القتلى وشق بطونهم بحثا عن الدرر والجواهر!

وازدادت قسوة المغول وغلظتهم بازدياد نجاحهم ونفوذهم، فلم نعد بعد الآن نسمع

---

(١) كيلان: «اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان» ونطقها بالعربية جِيلان، و«هي قرى في مروج بين جبال». ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢٠١. وهي الآن مدينة صغيرة إلى الشرق من العاصمة الإيرانية طهران. راجع الويكيبيديا مادة كيلان.

(٢) أحمد بن عمر بن محمد، الخوارزمي، المشتهر بنجم الدين الكبري: شيخ خوارزم في عصره. من علماء الصوفية قال ابن قاضي شهبة: طاف البلاد وسمع بها الحديث. كان لا يخاف في الله لومة لائم. فسّر القرآن العظيم في ١٢ مجلدا (على طريقة الصوفية) قُتل شهيدا على باب خوارزم في حرب التتار سنة ٦١٨هـ. الزركلي: الأعلام ١/ ١٨٥.

(٣) ترمذ: «مدينة من أمهات المدن مشهورة، راكبة على جيحون من شرقيّه». البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ٢٥٩. وهي الآن من كبرى المدن التاريخية في جمهورية أوزباكستان.



بحادثة واحدة أظهروا فيها قليلا من الرحمة والشفقة حيال سكان المدن البائسة التى وقعت تحت أيديهم بل أخذوا يبيدونهم عن آخرهم فى غلظة وفظاعة كما فعلوا بسكان بلخ ونسا[1] ونيسابور[2] ومرو[3] وأماكن أخرى كثيرة.

وقد قدر ابن الأثير القتلى من أهل مرو بـ ٧٠٠,٠٠٠ قتيل، و أما صاحب «تاريخ جهانگشاى» عطا ملك الجويني فقد رفع عددهم إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ و ذلك فيما عدا الذين اختفت أجسادهم فى فجوات مجهولة أو تحت الأنقاض والخرائب!

وفى نيسابور قطع المغول رؤوس القتلى، وبنوا أهرامات عالية أحدها للرجال، والآخر للنساء، والثالث للأطفال، وبذلك ضمنوا أن لا ينجو مخلوق من حد سيوفهم بادعائه الموت و ارتمائه بين الأشلاء والجثث المترامية.

وخفت غارتهم على مدينة هراة[4] قليلا، ولكنهم عندما وصلوا إلى باميان قتل أحد أمرائهم أثناء المعركة فخربوها تخريبا كاملا، ولم يأخذوا شيئا من أسلابها بل فضلوا أن يتركوها صحراء خاوية، بقيت خالية من السكان قرنا كاملا من الزمان!

ولم يأل المغول جهدًا فى إيقاع الدمار والخراب بالأماكن التى اجتازتها جيوشهم وكانوا يعمدون إلى إحراق الحبوب والغلال التى تزيد على حاجتهم، وكثيرا ما كانوا يعودون إلى البلدان التى أغاروا عليها فيفتشونها من جديد ويقتلون البقية الباقية من أهلها المساكين الذين اختبأوا أثناء الغارة الأولى وأخذوا يخرجون الآن باحثين عن الطعام أو الشراب وقد فعلوا ذلك مع أهل مرو فاستطاعوا أن يقتلوا أثناء عودتهم خمسة آلاف رجل نجوا من غارتهم

---

(١) نسا: مدينة بخراسان تقع الآن في جمهورية تركمانستان.

(٢) نيسابور من أعظم مدن «كور» خراسان وهي عاصمته. الاصطخري: المسالك والممالك ص٢٥٣. وهي الآن شمال شرق إيران بالقرب من العاصمة الإقليمية، مشهد.

(٣) هي مرو الشاهجان: «أشهر مدن خراسان، وقصبتها وهى العظمى بينها وبين نيسابور سبعون فرسخا، وإلى سرخس ثلاثون فرسخا، وبها نهر الرّزيق بتقديم الراء على الزاى، والشاهجان، وهما نهران كبيران يخترقان شوارعها». البغدادي: مراصد الإطلاع ٣/ ١٢٦٢. وهي الآن عاصمة منطقة ماري في تركمانستان وتقع مدينة مرو على ضفاف نهر المرغاب. تعد المدينة حاليا وفقا لليونسكو من مواقع التراث العالمي.

(٤) هراة: قال ياقوت: «مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان لم أر بخراسان عند كوني بها في سنة ٦٠٧ مدينة أجلّ ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلا منها». ياقوت معجم البلدان ٥/ ٣٩٦. وهي الآن من أكبر مدن غرب أفغانستان.

الأولى التى ذكرنا خبرها فيما سبق من حديث[١].

ولقد اختار جنكيز خان عشرين ألفًا من أشداء جنوده، لمهمة محددة وهي قتل علاء الدين خوارزمشاه أين كان، ففعلوا وكلما هموا أن يوقعوا به هرب منهم، وقد أصابه الهلع والرعب، حتى وصل إلى قلعة في بحر قزوين، فلما نزل هو وأصحابه في السفن يئس المغول من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به حيث توفي في جزيرة ببحر قزوين سنة ٦١٧هـ، قال ابن الأثير: «من أعظم الأمور على المسلمين أن سلطانهم خوارزم شاه محمدا قد عُدم لا يُعرف حقيقة خبره، فتارة يقال مات عند همذان وأخفي موته، وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفي موته لئلا يقصدها التتر في أثره، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر، فتوفي في جزيرة هناك، وبالجملة فقد عدم، ثم صح موته ببحر طبرستان، وهذا عظيم، إن مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائبا لا مانع له، ولا سلطان يدفع عنه، والعدو يجوس البلاد، يأخذ ما أراد ويترك ما أراد، على أنهم لم يبقوا على مدينة إلا خربوا كل ما مروا عليه، وأحرقوه، ونهبوه، وما لا يصلح لهم أحرقوه، فكانوا يجمعون الإبريسم[٢] تلالا ويلقون فيه النار. وكذلك غيره من الأمتعة»[٣].

فلما عادت هذه الفرق المغولية استولوا على كل قرية يمرون بها حتى وصلوا إلى البلاد الشمالية وهي دشت القفجاق وفيها أمم تركية كثيرة فأمعنوا فيهم قتلًا وسبيًا فتفرقوا في جميع الأقطار، وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم[٤].

ثم دخل المغول بلاد الروس ثم بلغار لكن البلغار انتصروا عليهم، وقتلوا كثيرًا من المغول أواخر سنة ٦٢٠ هـ.

استطاعت هذه الفئة القليلة التي خرجت تطلب خوارزمشاه أن تثير الرعب والنهب

---

(١) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي ص٥٥٧- ٥٦٠.

(٢) الإبريسم: أحسن أنواع الحرير. المعجم الوسيط ١/ ٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤١١.

(٤) دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ص٦٥، ٦٦.



والخراب، وأن تستولي على البلدان الواحدة تلو الأخرى فتم لجنكيز خان مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقًا من بلاد الصين وتنتهي غربًا إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوبًا ببلاد الهند وشمالًا بالبحر الشمالي كل ذلك تم له في مدة قصيرة، قال ابن الأثير في ذلك متعجبًا، وكان شاهدًا معاصرًا لهذه الأحداث: «ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزوا العراق من ناحية همذان، وتالله لا شك أن من يجيء بعدنا، إذا بعد العهد، ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها، ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن، وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه، ولم ينل المسلمين أذى وشدة مذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم، إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن.هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها، وناهيك به سعة بلاد، وتعدت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان، فملكوها وفعلوا مثل ذلك، ثم إلى الري وبلد الجبل وأذربيجان، وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم»[(١)].

وقد وصف الذهبي هذا الاجتياح المهول بقوله: «لو قيل: إن العالم منذ خلق إلى الآن لم يبتلوا بمثل كائنة التتار، لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها، قوم خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان، ثم إلى بخارى وسمرقند، فتملكوها، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها تخريبا وقتلا إلى الري وهمذان، ثم يقصدون أذربيجان ونواحيها، ويستبيحونها في أقل من سنة، أمر لم نسمع بمثله، ثم ساروا إلى دربند شروين[(٢)]، فملكوا مدنه، وعبروا إلى بلاد اللان[(٣)] واللكز[(٤)] قتلا وأسرا، ثم قصدوا بلاد قفجاق، فقتلوا

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٤٥، ٣٤٦. تدمري.

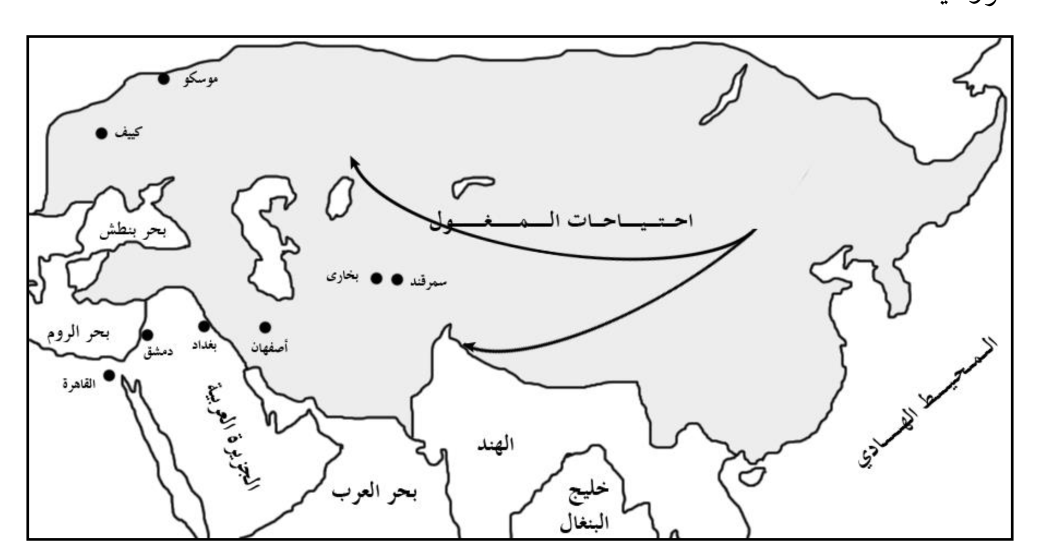
(٢) دربند شروين هو باب الأبواب. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٤٤٩. وهي الآن ثاني أكبر مدينة في جمهورية داغستان الإسلامية الواقعة على الجهة الغربية من بحر قزوين.

(٣) اللان: «بلاد واسعة وأمة كثيرة فى بلاد متاخمة للدّربند». البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ١١١.

(٤) اللكز: بلدة خلف الدربند. ياقوت: معجم البلدان ٥/ ٢٢. قد تكون ضمن جمهورية أرمينيا الآن.

من وقف، وهرب من بقي إلى الغياض والجبال، واستولت التتار على بلادهم، ومضت فرقة أخرى إلى غزنة وسجستان وكرمان، ففعلوا كذلك وأشد. هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر ما ملك الدنيا بهذه السرعة، بل في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدا»(١).

كان إقليم غزنة (أفغانستان الحالية) آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية التي غزاها المغول في عهد الناصر لدين الله الخليفة العباسي، وبعد أن اطمأن جنكيز خان إلى تمكنه من السيطرة على هذه البلاد، وانتقم من قاتلي تجاره ورسله في مدينة أترار، وأكد المغول سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق فثبتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية، وهذا يشمل الآن أسماء الدول الآتية من الشرق إلى الغرب: كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان، وتركمنستان وباكستان، باستثناء المناطق الجنوبية فيها والمعروفة بإقليم كرمان، وأفغانستان، ومعظم إيران، باستثناء الحدود الغربية لها مع العراق، والتي يسكنها الإسماعيلية، وأذربيجان، وأرمينية، وجورجيا والجنوب الغربي لروسيا(٢).



بعد أن احتل المغول منطقة غزنة وسيطروا سيطرة كاملة على الدولة الخوارزمية، واطمأن جنكيز خان إلى تحقيق أهدافه، صمّم على العودة إلى منغوليا خصوصا حينما علم أن ثمة ثورة

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٣٦، ٢٣٧.
(٢) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص١٣٩.



قامت في شمال الصين والتبت، وأن الظروف تستدعي وجوده هناك، فسلك طريق هراة، وقد أمضى ثلاثة أشهر في أطراف بيشاور وولاية البنجاب، ومن بيشاور توجّه إلى كابل وحدود نهر جيحون، وبعد أن أمضى الصيف في باميان عبر نهر جيحون في فصل الخريف، ووصل إلى سمرقند حيث أمضى الشتاء في عام ٦٢٠هـ، وبالقرب من نهر سيحون أرسل في استدعاء أبنائه ليتفاوض معهم في مهام الأمور التي تتعلق بتدبير شئون الممالك التي سيطر عليها المغول، فلحق به جُغتاي وأوكتاي عند ذلك النهر.

وعند حدود الدولة الخوارزمية وقف جنكيزخان فترة مع تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين محمد التي وقعت في الأسر مع كثير من أفراد الأسرة الخوارزمية؛ لتلقي آخر نظرة على أراضي وطنها.

وفي ربيع سنة ٦٢٠هـ في صحراء قلان باشي انضم جوجي إلى أبيه فعقد جنكيزخان مع أبنائه اجتماعًا للتشاور معهم ورسم خطط المستقبل، وبعد انتهاء الاجتماع انصرف جوجي الابن الأكبر إلى وادي القبجاق، وصرف جنكيز خان أشهر الصيف في صحراء قلان باشي، وكذلك أمضى صيف العام التالي ٦٢١هـ في المنطقة المحيطة بنهر أرتش، ولم يعد إلى موطنه الأصلي منغوليا إلا في سنة ٦٢٢هـ، وفي هذا العام قام بنفسه بحملته الأخيرة على ولاية التانجوت في شمال التبت؛ لإخضاع ملكها الذي كان قد ثار على الحكم المغولي؛ فهزمه وانتصر عليه انتصارًا ساحقًا.

بعد ذلك مرض جنكيز خان ولما اشتد عليه المرض وشعر بدنو الموت استدعى أولاده فأوصاهم أن يخلفه ابنه أوكتاي لرجاحة عقله، فجعله ولي عهده فوافقوا على اختياره.

وفي إقليم كان سو الصيني توفي جنكيز خان في النصف الأول من رمضان سنة ٦٢٤هـ/ أغسطس ١٢٢٧م، وحُمل جثمانه إلى منغوليا ودفن بها، وكان ابنه جوجي قد توفي قبله بستة أشهر(١).

مقاومة جلال الدين منكبرتي للمغول

سار جلال الدين منكبرتي بعد موت أبيه علاء الدين خوارزمشاه إلى خوارزم ولكن على

---

(١) حمدي حافظ: المغول في التاريخ ص١٣٦ – ١٣٨.

أثر هجوم المغول على هذا الإقليم تركها قاصدًا مدينة نسا، ثم غادرها إلى نيسابور، ومنها إلى غزنة، وكان جلال الدين يحكم هذا الإقليم من قبل أبيه، ثم استدعاه أبوه بعد مدة ليكون إلى جانبه في حروبه إذ كان يلمس فيه الشجاعة والبطولة.

وعندما وصل جلال الدين إلى غزنة رحّب به الأهالي، وانضم تحت لوائه جموع كثيرة من مختلف الأجناس، كما أسرعت إلى الانضمام إليه الجنود الخوارزمية المشتتة في كابل وبيشاور وغيرهما من المدن الواقعة على حدود الهند، وبذلك استطاع أن يجمع جيشًا كبيرًا بلغ ٦٠ ألفًا من المشاة، و٧٠ ألفًا من الخيّالة(١).

ولما اطمأن جلال الدين إلى إعداد جيشه، خرج به في ربيع سنة ٦١٨هـ إلى السهول المحيطة ببيروان في الشمال الشرقي من غزنة، وتقابل مع طلائع الجيش المغولي هناك فاستطاع أن يهزمهم، وأن يقتل منهم ما يزيد على الألف جندي، وفرّ الباقون إلى أن عبروا نهر جيحون، وحطّموا السد القائم عليه، ثم لجأوا إلى جنكيز وسردوا عليه أنباء المعركة.

بعد ذلك عاد جلال الدين إلى بيروان حيث أخذ ينظّم قواته استعدادًا للمعركة التالية، أما جنكيز خان فقد أسرع بإرسال جيش كبير للالتحاق بجيش جلال الدين، وبالقرب من بيروان دارت رحى الحرب بين الطرفين واستمرت يومين؛ ففي اليوم الأول لم تنته المعركة إلى نتيجة حاسمة، وحلّ اليوم الثاني فإذا بالقائد المغولي يلمس قوة بأس جلال الدين وبسالة جنوده؛ فأراد أن يخدع الخوارزميين وذلك بإيهامهم بأنه تلقى إمدادات كثيرة أثناء الليل، فأوصى جنوده بأن يضعوا قلانسهم على رؤوس خيولهم حتى يظن الخوارزميون أنها جنود جدد انضموا إلى الجيش المغولي، وكادت الحيلة تنطلي على جنود جلال الدين حينما هموا بالتقهقر، ولكن جلال الدين ثنّاهم عن عزمهم، وألهب في نفوسهم الحماسة والحمية فثبتوا للعدو، وانقلبوا من حالة الدفاع إلى الهجوم، فأوقعوا الاضطراب في صفوف المغول، واستطاعوا القضاء على الكثير منهم(٢).

كان لانتصار المسلمين فرح غامر في جميع البلاد التي تئن تحت وطأة المغول؛ فقامت بثورات ضد هؤلاء الغزاة أسفرت عن مقتل بعض الحكام المغول في هذه البلاد؛ فقد ثار

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٦٢. تدمري.

(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٥٤، ١٥٥.



الأهالي في هراة وقتلوا الحاكم المغولي، فما كان من جنكيز إلا أن عنّف ابنه تولوي لأنه لم يتخلص من أهالي هذه المدينة كلهم دفعة واحدة، وقد سيّر على الفور جيشًا كبيرًا لإخماد تلك الثورة، وكانت النتيجة أن قتل جميع السكان وخربت المدينة تخريبًا كاملًا(١).

ولقد بعث هذا النصر أيضًا روحًا جديدة في نفس جلال الدين فصمّم على الصمود في وجه المغول، ولكن لسوء الحظ حدث ما لم يكن في الحسبان؛ إذ اختلف قائدان من كبار قوّاده على توزيع الغنائم، واعتدى أحدهما على الآخر؛ فغضب جلال الدين وحاول تصفية هذا النزاع، ولكن أصرّ كل منهما على موقفه، ولم يحاول المخطئ أن يعتذر لزميله، فما كان من الآخر إلا أن رحل بجيشه وكان أغلبه من الغوريين؛ تاركًا جلال الدين في أحرج موقف، وفي ظل هذا الانقسام وجد جلال الدين نفسه عاجزًا عن مقابلة المغول بجيشه المفكك؛ فاضطر إلى التقهقر نحو السهل الواقع غربي نهر السند وخاصة عندما علم أن جيوش جنكيزخان تتعقبه(٢).

هرب جلال الدين نحو الهند، وقد قام هناك بأعجوبة من أعاجيب بطولته التي ذاع صيتها، وخلاصة هذه المغامرة أنه عندما بلغ جيشه الصغير نهر السند وجد نفسه فجأة وقد أحاطت به جموع كثيرة من المغول فائقة العدة والعتاد، فقاومها قدر ما استطاع من مطلع الفجر إلى منتصف النهار، وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد ما لا مزيد عليه، ولكنه أدرك في النهاية أنه قد خسر الموقعة فهجم على أعدائه هجوم اليائس، ثم يمّم وجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسده، ثم امتطى صهوة جواده، وعبر النهر على متنه، وتبعه قوم من أتباعه ففعلوا مثل ما فعل، ولكن أكثرهم غرق، أو قتلتهم سهام المغول الذين كانوا يُجدّون في إثرهم، وأُسر ابنه الذي كان في السابعة من عمره فقُتل بين يدي جنكيزخان(٣).

وكانت الجيوش المغولية تتوق إلى اللحاق بجلال الدين، وهمَّ كثير منهم بعبور النهر غير أن جنكيز خان أسرع ومنع جنوده من تنفيذ هذا العمل، ولما علم جنكيز خان أن عدوه قد أمر بأن يلقي كل ما كان يملكه من ذهب وفضة في نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة في يد

---

(١) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٥٥.

(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٥٦.

(٣) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٥٧.

المغول، أرسل بعض رجاله فغاصوا في النهر وأمكنهم أن ينتشلوا بعض هذه الأموال. وبرغم حرج موقف الخوارزميين في هذه الموقعة، ورغم تلك الهزيمة التي حلت بالسلطان الخوارزمي وجنوده، استطاع أربعة آلاف من الجنود الخوارزميين أن ينجوا بأنفسهم بعبورهم من الضفة الشرقية حيث وصلوا حفاة عراة، كأنهم أهل النشور حشروا فبعثوا من القبور ومن الطبيعي أن يفرح السلطان جلال الدين بلقاء هذا العدد من جنوده[١].

ومما لا شك فيه أن جلال الدين، في الفترة التي قضاها في بلاد الهند، كثيرًا ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته عامة، وأصابه خاصة، بعد موقعة السند وقد نظم ابن الوردي أبياتًا وصف فيها جلال الدين ودولته وكيف انحدر هو ودولته إلى هاوية عميقة، بعد أن قدر لهذه الدولة أن تصل إلى ذروة المجد وقد جاء في هذه القصيدة ما يلي:

من ملك الدنيا ودانت له	فالجهل كل الجهل أن يحسدا
بقدر ما ترفع أصحابها	تحطهم فالرأي قرب المدا
ويلي على المغري بعليائها	سيضحك اليوم ويبكي غدا
تعطيه كالمشفق لكنها	تبطش في الأخذ كبطش العدا
مبتدأ حلو لمن ذاقه	ولكن انظر خبر المبتدأ
غدارة خوانة أهلها	ما زهد الزهاد فيها سدى[٢]

لقد كان جلال الدين مضرب المثل في الشجاعة والإقدام، وأعجب خصمه وعدوه جنكيز خان، وقال: هكذا يكون الرجال الشجعان. وقال لرجال دولته: «ينبغي أن يكون للأب ابن مثل جلال الدين، وحيث إنه نجا من الغرق والنار ووصل إلى الساحل سالمًا فسوف تتولد عنه أعمال كثيرة ومتاعب لا حصر لها بالنسبة إلينا، وإذن فكيف يستطيع الرجل العاقل أن يغفل عنه؟!»[٣].

---

(١) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص١٥٧ - ١٦٢.
(٢) تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٥٢.
(٣) حمدي حافظ: المغول في التاريخ ص١٣٦؛ نقلًا عن الجويني: تاريخ جهانكشاي ٢/ ١٤٢.



علاقة الناصر بالأيوبيين

لم تكن علاقات صلاح الدين مع العباسيين في يوم من الأيام سيئة أو لم تصل إلى درجة السوء والعداء، فلربما فترت أحيانًا لكنها لم تصل إلى العداء وإذا نظرنا إلى صلاح الدين نجده قد ارتبط بالخلافة العباسية نتيجة ارتباطه بالزنكيين، فزعيم الزنكيين نور الدين محمود كان محبًا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ولذلك فقد حرص على تأييده واحترامه، وبادله الخليفة مشاعره هذه بإرساله الخلع والتشريفات له، وحضّ أمراء الولايات على مساندته ضد الصليبيين.

لقد بدأ صلاح الدين علاقة جيدة مع الخليفة العباسي حينما كان وزيرًا للخليفة الفاطمي العاضد عام ٥٦٧هـ وخطا صلاح الدين خطوة مهمة في علاقته بالعباسيين حينما قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وأقامها للعباسيين على منابر مصر، معبرًا عن طاعته وولائه للخليفة العباسي، ولما مات نور الدين محمود، واستغل الصليبيون حالة بلاد الشام المضطربة وهاجموها، أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، يصور له الأوضاع في بلاد الشام السياسية، وهجوم الصليبيين على بلاد المسلمين، وبيّن جهوده في إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر، وإعادة الخطبة للعباسيين وتصديه للصليبيين عندما هاجموا الإسكندرية في مصر، وأسباب ضمّه لليمن وبعد هذه الرسالة المطولة التي عدّد فيها إنجازاته التي تؤكد إخلاصه وولاءَه للخليفة العباسي، طلب منه أن ينعم عليه بتقليد يشمل مصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه ولاية نور الدين وكل ما يفتحه الله «للدولة بسيوفنا، وسيوف عساكرنا ولم نقمه من أخ وولد من بعدنا، تقليدًا يضمن للنعمة تخليدًا مع ما ينعم به من السمات التي يقتضيها الملك»(١).

كانت هذه الرسالة من صلاح الدين وما نتج عنها نقطة تصب في بناء صرح دولة صلاح الدين، فقد استجاب الخليفة لمطالبه وأنعم عليه بحكم مصر والشام وقد رأى فيه الخليفة العباسي شخصية تملأ فراغ نور الدين محمود بعد وفاته، مما جعله يعترف له بالسلطنة لأنه أصبح في نظره الشخصية الوحيدة التي يمكن أن تدافع عن المسلمين وقد ساهم هذا التقليد وغيره، مثل إرسال دار الخلافة له عندما كان يحاصر حماه في عام ٥٧٠هـ تحمل إليه التشريفات

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين ٢/ ٣٦٥، ٣٦٦.

والتقليد والتمليك والتفويض، ساهم كل هذا في إضفاء المهابة على صلاح الدين أمام أمراء المسلمين وكذلك الصليبيين الذين أقلقهم صعود نجمه.

هذه العلاقة الطيبة مع الخلافة العباسية، أفادت صلاح الدين في صراعه مع الأمراء المسلمين المناوئين له والمتطلعين للسلطة وخاصة الزنكيين لذلك كان دائمًا ما يطلع الخلافة على إنجازاته وانتصاراته ويحيلها إلى مفهوم حرصه على الخلافة وولائه وانتمائه لها والمحافظ على وجودها، وكانت العلاقة في عهد الخليفة المستضيء متميزة.

توفي الخليفة العباسي المستضيء بالله سنة ٥٧٥هـ وخلفه ابنه أبو العباس أحمد، الذي تلقَّب بلقب الناصر لدين الله، فبايعه صلاح الدين وأرسل رسولًا إلى بغداد للتعزية بوفاة والده والتهنئة له بمناسبة توليه مهام الخلافة.

وكان قد توفي في هذه الأثناء، سيف الدين غازي الأول صاحب الموصل، وخلفه أخوه عز الدين مسعود الأول، فكتب صلاح الدين إلى الخليفة يطلب منه أن يفوِّض إليه الأمور كما كانت أيام والده، فاستجاب الناصر لدين الله لمطالب صلاح الدين، وأرسل شيخ الشيوخ صدر الدين أبا القاسم عبد الرحمن، وشهاب الدين بشير الخادم، بالتفويض والتشريف الجديد ولقَّبه بالألقاب السنية منها: «الملك الأجلُّ السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، فخر الملة، صفي الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمرتدين عن المجاهدين، ألب غازي يوسف بن أيوب، أدام الله علوَّه، على هذه السجايا مقبلًا، وأمره بتقوى الله والحفاظ على الصلاة، وقصد المساجد الجامعة، ولزوم نزاهة الحرمات واجتناب المحرمات، وإحسان السيرة في الرعايا، وإظهار العدل في الرعية، وحفظ الثغور، ومجاهدة الكفار، والاعتماد في إدارة شؤون البلاد على أصحاب الدين والعفاف، ثم أشار إليه بواجب شكر الخلافة على ما أسبغت عليه من التأييد والاحترام»(١).

وإن كانت هذه الرسالة في عُرف كاتب ضليع كالقلقشندي تخفي في باطنها التقليل من شأن السلطان صلاح الدين، ويُعزي هذا التقليل إلى إشارات داخل الرسالة نفسها؛ ذلك أن صلاح الدين قد لقّب نفسه بالناصر مضاهاة بالخليفة الناصر.

(١) القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة ٣/ ٨٧، ٨٨.



لكن على أية حال اطمأن صلاح الدين لمساندة الخليفة له وتقبَّل كتابه بقبول حسن، وكتب إليه يقول: «الخادم ولله الحمد يعدِّد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى، ولا آخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها ... فكسر الأصنام الباطنية بسيفه الظاهر وكان يخطب له على المنابر في جميع الأراضي التابعة له، ويرتدي الخطباء في كل مناسبة شارات الدولة العباسية، ويرفعون أعلامها السوداء»(١).

وفي المقابل امتنع الخليفة عن منح الخلع والتشريفات، لأحد المقربين أو الأمراء ممن يدخل في حكم صلاح الدين، وذلك احترامًا له وتقديرًا لشخصه وتمييزًا له عن غيره، من ذلك، أنه رفض في عام ٥٧٨هـ منح الأمير جمال الدين خوشترين الذي هرب من الموصل وأراد الالتحاق بصلاح الدين، خلعة سوداء وعمامة سوداء بناء على طلبه، مما يدل على رغبة الخليفة الصادقة في الحفاظ على العلاقات الطيبة مع صلاح الدين.

إلا أن الخليفة العباسي لم يمنحه تقليدًا بولاية الموصل، وكان صلاح الدين قد وجّه عدة رسائل إلى بغداد يوضح حاجته في الحصول على تقليد بإمارة الموصل، لكن طلبه لم يتحقق، برغم أنه أعطاه تقليدًا بإمارة آمد في ديار بكر(٢).

وقد كانت بعض تحركات صلاح الدين خدمة للخليفة العباسي، وهذا ما يؤكده ابن كثير في تاريخه؛ فقد كان مقصود صلاح الدين لحصار الموصل وأهلها؛ «ردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام»(٣).

وتعد الموصل قريبة جدًا من حدود الخلافة، مما يثير مخاوف الخليفة، ويذكر المؤرخون أن السبب الذي حمل الخليفة الناصر على عدم إعطائه تقليدًا بولاية الموصل ربما يكون الخوف من امتداد سلطان صلاح الدين إلى البلاد القريبة من الخلافة كالموصل والجزيرة، وفي خلاف صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب الموصل استجاب صلاح الدين لرغبة الخليفة وانسحب من سنجار(٤).

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين ٣/ ٨٥.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٤٦.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٧٨.
(٤) أبو شامة: عيون الروضتين ٣/ ١٢٤، ١٢٥.

على أن صلاح الدين استطاع أن يتجاوز هذا الموقف بعتاب رقيق، ولكنه استمر في طاعته ومراسلته، وإطلاعه على إنجازاته وأعماله أولًا بأول مثل إسقاط الضرائب على أهل الرقة في الشام، وكان مما جاء في هذه الرسالة المهمة: «أشقى الأمراء من سمّن كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من النَّاس وسماه الحق، ومن ترك شيئا عوضه الله ومن أقرض الله قرضا حسنا وفاه ما أقرضه. ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة أشرفنا منها على سحت يؤكل وظلم ممَّا أمر الله به أن يقطع وأمر الظَّالمون أن يوصل فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافَّة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها ويلقوا الرعايا من بشائر أيَّام ملكنا بأسرها، ونعتق بلد الرقة من رقها ونثبت أحكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحقها، وقد أمرنا بأن تسد هذه الأبواب وتعطل، وتنسخ هذه الأسباب وتبطل وتستمطر سحائب الخصب بالعدل وتستنزل، ويعفى خبر هذه الضرائب من الدَّواوين ويسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين مسامحة ماضية الأحكام مستمرة الأيَّام دائمة الخلود خالدة»(١).

ومما يؤكد على هذه الطاعة والانقياد للخلافة العباسية في الوقت الذي كان فيه نجمه عاليا بازغًا بعد الانتصار على الصليبيين في حطين، فقد أرسل إلى الناصر مفصّلا، واستهل رسالته بـ: «الخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم»(٢).

ولذلك وثق الخليفة الناصر بصلاح الدين، وقدّر له هذا الإخلاص، في صور هدايا أرسلها له بعد فتح بيت المقدس، ومن جملة هذه الهدايا لوحًا منقوشًا عليه بعض الآيات والكلمات لتعليقه على باب بيت المقدس قال فيه: «﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. الحمد لله الذي أنجز وعدهُ، ونصر عبده، وأقام خليفته القائم بحق الله وسيد عترةِ رسول الله وثمرة شجرته الطيبة المعرّقة إليه أبا العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، أسبغ الله ظله على الإسلام والمسلمين، وشيّد عضده بولده وولي عهده أبي نصر محمد عدة الدنيا والدين، وأعاد عليه تراثه، وأصار إليه ميراثه من البيت المقدّس على رغم أنف المشركين، وهو المحمود إلى أن أُجري هذا الفتح على يد محيى دولته وسيف نصرته والقائم بطاعته، المخلص في عبوديته والمجاهد تحت رايته،

(١) أبو شامة: عيون الروضتين ٣/ ١٦٧.
(٢) أبو شامة: عيون الروضتين ٣/ ٣١٩.

يوسف بن أيوب، معين أمير المؤمنين»[١].

لكن العلاقات كانت تشهد توترات من جانب الخليفة الناصر الذي كان يغار على المظاهر والألقاب، ذلك أنه على الرغم من أن الناصر أرسل عندما أصبح خليفة تقليدًا جامعًا لصلاح الدين، إلا أنه بعد برهة أرسل له رسالة عن طريق وزيره يعاتبه على أمور بلغته، وقد لخص ابن كثير الخلاف بين الخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين بقوله: «وكتب الخليفة يعتب عليه في أشياء منها؛ أنه بعث في بشارة الفتح بحطين مع شاب بغدادي كان وضيعًا عندهم، لا قدر له ولا قيمة، وأرسل بفتح القدس الشريف مع نجاب ولَقَّبَ نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر، فتلقَّى الرسول بالبشر واللطف ولم يُظهر له إلا السمع والطاعة، وأرسل يعتذر ممّا وقع بأن الحرب كانت قد شغلته عن التروي في كثير من الأمور، وأما لقبه بالناصر فهو من أيام الخليفة المستضيء ومع هذا فمهما لقَّبني به أمير المؤمنين فهو لا يُعدل عنه، وتأدَّبَ مع الخليفة غاية الأدب رحمه الله تعالى»[٢].

بعد وفاة السلطان صلاح الدين عام ٥٨٩هـ، قام ابنه وخليفته الملك الأفضل بتسيير رسول إلى الخليفة في بغداد يحمل له «لأمة الحرب[٣] التي لصلاح الدين وفرسه وستة وثلاثين درهمًا، لم يخلف من المال سواها»، إنها رسالة واضحة، فسلاح فصلاح الدين أُعيد إلى الخليفة بعد انتهاء مهمَّته الجهادية وما خلفَّه من مال أعيد - أيضًا - كرمز لولايته الإدارية على البلاد».

وكان ملوك بني أيوب يُجددون الولاء للخُلفاء العباسيين عبر أداء قسم الولاء أو ما كان يعرف بالتحليف، ولم تنقطع الرّسل بين ملوك بني أيوب وبين ديوان الخلافة، فكان يندر أن يخلو عام من رُسُل تتردَّد برسائل وغيرها منذ أيَّام الملك العادل.

فقد أرسل العادل رسالة إلى الخليفة الناصر عام ٦١٤هـ وعاد جوابها مع الشيخ صدر الدين بن حمويه، وكان رسول الخليفة - في ذهابه وإيابه في أداء مهمته يقابل الملوك الواقعين على طريقه، فعندما مر شهاب الدين السهروردي رسول الخليفة الناصر بحلب عام ٦٠١هـ

(١) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٠٨.
(٢) أبو شامة: عيون الروضتين ٣/ ٤١٧، ٤١٨.
(٣) لأمة الحرب: هي أداة الحرب كلها من رمح ومغفروسيف ودرع. المعجم الوسيط ٢/ ٨١١.

يحمل التشريفات للملك العادل استُقبل فيها استقبالًا عظيمًا، وجلس في مسجدها الجامع للوعظ، وحضر مجلسه كبار رجال حلب، ولابد أن الاستقبال نفسه كان له في حماة وحمص.

ولم تكن سفارات الخليفة إلى بني أيوب لأمور تتعلق بالخلافة ودولتها فقط، بل كان قسم كبير من هذه السفارات يتعلق بأمور داخل البيت الأيوبي أو يتعلق بأمور بين الأيوبيين وملوك آخرين فعندما كان الملك العادل يُحاصر سنجار عام ٦٠٦هـ قدم هبة الله بن المبارك بن الضحاك رسولاً من الخليفة الناصر يطلب منه ترك حصار سنجار، ويشفع في صاحبها، فوافق العادل وانسحب، وفي الحقيقة، كانت استجابته لطلب الخليفة تغطية لانسحابه من حصار فاشل.

ومع انقسام دولة الخلافة العبّاسية الفعلي وسيطرة ملوك وأمراء وقادة وزعماء وشيوخ وغيرهم على مناطق مُتعددَّة من جسم الدولة، منها ما كان يشكل دولا كبيرة جدًا، ومنها إمارات صغيرة وأحيانا قلعة أو بلدة لها حاكمها الخاص، وهو يتصرف بكل الشُّؤون السياسية والعسكرية والداخلية باستقلالية تامة، ومع كل هذا الانقسام بقيت هناك سلطة اسمية للخليفة على كل الدولة والدويلات المستقلة، انطلاقًا من أن الخلافة هي منصب ديني والخليفة هو إمام المسلمين ومرجعهم الأعلى دينيًا وسياسيًا؛ لأن البلاد بكاملها كانت لدولة الخلافة، وكل سيطرة على أيّ منطقة منها ليست شرعية، وصاحبها لا يملك الحق الشرعي في الحكم، لذلك كان كل منهم مُضطرًا - بشكل أو بآخر - أن يُقرَّ سلطة اسمية للخليفة في بلاده، وكان خلفاء بني العبّاس المتأخرون يرضون بهذه السيطرة الاسمية التي لا تتعدَّى ذكر اسمهم في خطبة الجمعة على منابر المساجد، بحيث يسبقه اسم الملك المحلي، ونقش اسمهم على العملة التي يسكّها هذا الملك، أو ذاك، ضمن أراضي البلاد، التي كانت - فيما مضى - تسُمَّى أراضي الخلافة العبَّاسية[1].

وكان هناك شكل رسمي بُروتوُكُولي لموافقة الخليفة التي كانت مضمونة دائمًا على أن يشمل بشرعية حكم الملوك المتنفذين في أطراف الدولة، وتتمثّل فيما يلي:

أ- التقليد: ويعني التولية، وهي من قلَّدته أمر كذا؛ أي وليته عليه، فالتقليد هو

(١) الصلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين ص١١٣.

مرسوم سياسي يصدر من ديوان الخلافة لتكليف شخص ما بالحكم في بلد، أو بلاد مُعينة وقد حرص الملوك الأيوبيون حرصًا كبيرًا على أن يتولى كُلٌّ منهم عمله بمباركة شريفة من الخليفة تتجلي بمنحه التقليد، ففي عام ٦٠٤هـ عندما سيطر العادل على مملكة مصر وعلى دمشق والبلاد الجزرية أرسل أستاذ داره إلدكز العادلي والقاضي خليل بن المصمودي قاضي العسكر إلى الخليفة في بغداد: لطلب التقليد على مصر والشام والجزيرة فأكرما، وأُجيبا، وزيادة في التكريم أرسل الخليفة معهما الشيخ شهاب الدين السهروردي ونور الدين التركي الخليفتي، يحملان من الخليفة إلى العادل: تقليدًا بالبلاد التي تحت حكمه، وقرأ صفي الدين ابن شكر وزير العادل التَقليد الذي أرسله الخليفة على كرسي نُصب له، مما يوضح لنا بأن التقليد هو مرسوم سياسي إداري ديني يصدره الخليفة بتولية جُزء من أراضي الخلافة إلى شخُص يذكر اسمه في التقليد مقرونًا بصفات التقدير والتعظيم.

ب- التشريف: أو خلعة التشريف، وهو جُبَّة أو عباءة بلون أسود، لذلك قد يُسمى التشريف الأسود، والسواد هو شعار بني العبّاس، وتكون خلعة التشريف مُذهبة عادة، وتسمَّى التشريف الإمامي، فهي تشريف من الإمام، أيْ الخليفة العباسي للشخص المُرسَل إليه. وكان رسول الخليفة يقوم بوضع التشريف على أكتاف الملك المُرسَل إليه، بعد قراءة التقليد فيلبسه، ويسير به في شوارع بلده أو بين خواصِّه فعندما وصل إلى السلطان النَّاصر صلاح الدين التقليد والتشريف من الخليفة عام ٥٧٦هـ -١١٨٠م «ركب الناصر بالتشريف». وفي عام ٦٠٤هـ - ١٢٠٨م، وصل تشريف من الخليفة النّاصر إلى السُّلطان العادل، وإلى أولاده ووزيره «فركب العادل وولداه ووزيره بالتشريفات إلى ظاهر البلد، ثُمَّ عادوا إلى القلعة.

جـ- الخلعة: وهي ما يخلعه الخليفة أو الملك على أحد من الناس وكان خلفاء بني العبّاس كثيرًا ما يهبون الخلع لأتباعهم، وأنواع الخلع التي كانت تُرسل إلى ملوك بني أيوب كانت - غالبًا - ما ترافق التقليد وتكمل التشريف وهي خلع أصحاب الجيوش وولاة الحروب، فملوك بني أيوب كانوا وُلاة دار الحرب في مواجهة الفرنج منذ أن قامت دولتهم. والخلعة - في كثير من الأحيان - كانت تعني موافقة الخليفة على تقليد الملك في بلاده، وهي

عادة – تتكون من عمامة سوداء ورداء فضفاض – عباءة – أسود مُبطَّن، مُوشَّى بالذهب، وسيف مُحلى بالفضَّة والذهب، له حمائل مُوشَّاة أيضًا. ثم يأتي الحملان، وهو حصان، سرج مُزيَّن، وكانت هُناك زيادة على هذه الخلع المتعارف عليها تُزاد لأصحاب الفتوح من القُوَّاد وهي طوق وسواران من الذهب، وهذه الزيادة أُعطيت لقواد دولة الخلافة، ولم تُرسل مع الخلع إلى ملوك بني أيُّوب إلا نادرًا، ففي عام ٥٩٩هـ، أرسل الخليفة الخلعَ إلى الملك العادل، وأولاده فلبسوها، ولم يُذكر أنها تضم الطَّوق والسوارَين. أمَّا في عام ٦٠٥هـ، فقد وصل إلى بغداد من دمشق قاضي عسكر الشَّام ابن المعمودي، رسولًا من الملك العادل، وتسلَّم الخلع للعادل وأولاده، وكان في خلعة العادل الطَّوق والسواران، وأرسل معهم الخليفة الشيخ شهاب الدين السهروردي رسولًا لحمل الخلعة، واهتم العادل كثيرًا بهذا الخلعة، فقد أرسل العسكر للقاء الرسول، فتلقوه في الغسولة، وخرج العادل وتلقّاه في القصير مع ولديه الأشرف والمعظم، وغُلقت الأسواق وخرج الناس كلهم وكان يومًا مشهودًا «ثم جلس العادل بقلعة دمشق ولبس الخلعة» وطوَّق بطوق ذهب ثقيل. إنه تقدير كبير من الخليفة النَّاصر للملك العادل، واهتمام أكبر من العادل يدل على مستوى أهمية تقليده بالخلعة والطَّوق، فقام العادل وأولاده وملوك بني أيوب بإغداق الهدايا والتحف[1].

على أية حال، ظلت العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة الأيوبية في عصر صلاح الدين وما تلاه على أفضل ما يُرام سياسيًا ودبلوماسيًا، وكانت هناك ثمة أسباب لذلك؛ فقد انشغل العباسيون بالخطر السلجوقي تارة والخوارزمي تارة والخطر المغولي تارة أخرى، بينما انشغل الأيوبيون بتشظيهم الداخلي وانقسامهم واختلافهم على أنفسهم، ثم بالخطر الصليبي الذي وصل به الحال إلى الاستيلاء على بيت المقدس مرة أخرى سنة ٦٢٦هـ!!

الأيوبيون صعود وتشرذم!

في سنة ٥٦٧هـ نفّذ صلاح الدين الأوامر التي كانت تصدر إليه من نور الدين بإسقاط الخلافة الفاطمية، فقطع الخطبة للخليفة العاضد الفاطمي، وأقامها للخليفة المستضيء العباسي، وكان العاضد مريضًا على فراش الموت فتوفي دون أن يعلم ما حدث.

---

(١) الصلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين ص١١٣ – ١١٧.

بإسقاط الخلافة الفاطمية أعيدت الوحدة بين مصر والشام من جديد مذهبيًا وإقليميًا، وأصبحت الخلافة العباسية هي الوحيدة التي يدين لها جميع المسلمين بالولاء، فنشأت طاقة بشرية ومادية ظهرت آثارها في الحروب التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين.

كان لوفاة نور الدين زنكي سنة ٥٦٩هـ، أثر كبير في إبراز شخصية صلاح الدين وتحديد العلاقة بينه وبين القوى الإسلامية في منطقة الشام والجزيرة، لأنه لم يكن من المنتظر أن تبقى منطقة الشام والجزيرة التي كانت تحت حكم نور الدين محافظة على وحدتها وقوتها، خاصة أن الأمراء الزنكيين وكبار القادة في جيش نور الدين دخلوا فورًا بعد وفاته في تنافس على وصاية ابنه الصغير الصالح إسماعيل، علمًا بأن الخطر الصليبي غدا ذا تأثير كبير في تطور الحياة السياسية في منطقة الشام، ولم يكن بمقدور الصالح إسماعيل ولا بمقدور عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ولا السلطان السلجوقي في آسيا الصغرى أن يجابهوا الخطر الصليبي على انفراد، خاصة أنّ الإمدادات الأوربية لم تنقطع عن قوى الصليبيين في المنطقة، ولذلك أصبح لزامًا أن يتقدم أحد أمراء نور الدين الأقوياء ليملأ الفراغ ويوحد الكلمة ويجمع الصف، وكان صلاح الدين غداة وفاة نور الدين يملك قوة كبيرة من العدد والعدة، فهو أمير مصر الغنية القوية، وقائد لعدة فرق عسكرية مكونة من الأكراد والأتراك الذين قدموا معه، إضافة إلى القوات المصرية التي انضمت إليه بدافع المحبة أو كرهًا بالحكم الفاطمي، لذلك كله أحس صلاح الدين بأنه الوارث الحقيقي للدولة الزنكية وأن من واجبه إعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة ومواصلة السياسة التي بدأها نور الدين محمود الزنكي، وقد استغرقت عملية التوحيد هذه فترة زمنية امتدت من سنة ٥٧٠هـ إلى سنة ٥٨٢هـ وقد تناولنا نبذة عنها فيما مضى.

على أن الوحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة لم تتم إلا بعد دخول كل من حلب وميافارقين والموصل تحت إمرة صلاح الدين، إذ بضم حلب سنة ٥٧٨هـ كان كمال انضمام الشام إلى مصر، وبفتح ميافارقين وبعقد الصلح مع الموصليين انضمت منطقة الجزيرة وديار بكر للوحدة، وبذلك ثبت مركز صلاح الدين قائدًا إسلاميًا عامًا للقوى الإسلامية في كل من مصر والشام وبلاد الجزيرة وديار بكر ومناطق شهرزور وما وراء

الزابين[١] كافة، وأصبحت تلك المناطق جميعًا، بعد أن سادها الاستقرار بين مختلف عناصرها العربية والكردية والتركمانية مادة لجيوش صلاح الدين.

وكان من نتائج تلك الوحدة والاستقرار أن هزم الصليبيون هزيمة ساحقة في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ، تلاه استرداد طبرية وعكا وتبنين وصيدا وبيروت وعسقلان، ثم تحرير القدس في السنة نفسها، ثم وقائع على أبواب صور، فدفاع مجيد عن عكا انتهى بخروجها من يد المسلمين سنة ٥٨٧هـ، بعد أن اجتمع لحربه ملكا فرنسا وانجلترا بجيشيهما وأسطوليهما.

وأخيرًا عُقِدَ صلح الرملة بين صلاح الدين وملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد، سنة ٥٨٨هـ، وكان من شروطه أن تكون الهدنة عامة في البر والبحر ومدتها ثلاث سنوات وثلاثة شهور، ابتداء من ٢١ شعبان ٥٨٨هـ، وتكون مدينة عسقلان خرابًا، والرملة واللد مناصفة بين الطرفين، وأن يسمح للحجاج النصارى بزيارة مدينة القدس، وكان من نتائج المعاهدة أن عاد ريتشارد قلب الأسد إلى بلاده وعاد صلاح الدين إلى القدس ومنها إلى دمشق مقر أعماله الأول ومحل سكنى أولاده، ولكنه لم يمكث فيها طويلًا حيث توفي في فجر يوم الأربعاء ٢٧صفر سنة ٥٨٩هـ، بعد مرض دام ثمانية أيام ودفن في دمشق[٢].

توفي صلاح الدين بعد أن قضى سني حياته بصد هجمات الصليبيين المتكررة على منطقة الشام، وبرهن على مقدرة عسكرية فائقة، فقد صان شرفه وحافظ عليه أكثر من حفاظ الصليبيين على قانون الفروسية، وكان رجلًا مستقيمًا يعرف بحسن نواياه، لم يستخدم المكر والخديعة مع أعدائه، بينما استغل أعداؤه تلك الصفات فيه، وكانت مشاركته الفعلية في الحروب إلى جانب قواته العسكرية من العوامل الرئيسة لانتصاراته، وقد برزت له هذه الميزة حتى في أشد الأيام الدامية، حيث كان يتنقل وسط ميدان المعركة يوقظ الهمم ويحيي في الجند الروح الإسلامية.

---

(١) هما الزاب الأعلى والزاب الأسفل، والأعلى بين الموصل وإربل ويصب بالقرب من مدينة الحديثة وهو شديد الجريان، والأسفل بين شهرزور وأذربيجان ويصب في دجلة بالقرب من تكريت. البغدادي: مراصد الإطلاع ٢/ ٦٥٢.

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٣.

وعوضا عن تأسيس إمبراطورية مركزية فقد ولى صلاح الدين أبناءه وأبناء عشيرته على إمارات وراثية في مختلف الأقاليم التي سيطر عليها، فجعل مملكة دمشق لابنه الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده، وأوصى له بالسلطنة، وجعل الديار المصرية لولده العزيز عثمان، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازي غياث الدين، وترك الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدانًا كثيرة لأخيه العادل، وحماة لابن أخيه محمد بن تقي الدين عمر، وحمص والرحبة وغيرها لحفيد عمه شيركوه، أسد الدين شيركوه بن ناصر، واليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين[١].

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٨٧.

لم يكن الأفضل يصلح للزعامة لضعفه وانشغاله عن شؤون الرعية بأموره الخاصة، وأخفق في المحافظة على ود أصحاب الأمر من حوله، فنبذ أمراء والده ومستشاريه، ووضع ثقته في وزيره ضياء الدين بن الأثير، مما دفع بالأمراء إلى الفرار إلى مصر، حيث التفوا حول أخيه الملك العزيز، وأوغروا صدره على الأفضل، وقد أسفر هذا التحريض عن نزاع بين الأخوين دام سبع سنوات، وانتهى بتوحيد البيت الأيوبي تحت زعامة العادل أبو بكر أحمد أخي صلاح الدين سنة ٥٩٦هـ.

وترتب على السلطان الجديد الوقوف في وجه الصليبيين الذين كانوا ينظرون إلى جهود العادل في توحيده البلاد تحت سلطانه بعين القلق، وأخذوا يوجهون أنظارهم تجاه مصر، بعد أن أدركوا أنها القاعدة الكبرى التي اعتمد عليها الأيوبيون في نشاطهم الداخلي والخارجي.

ونفذ الصليبيون تحمسهم هذا بتجهيز حملة رابعة إلى المشرق، ولكنها انحرفت هذه المرة واستولت على القسطنطينية وأقامت مملكة لاتينية فيها، وأدَّى ذلك إلى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة لتحقيق ما لم تحققه الحملة الرابعة، ألا وهو احتلال مصر.

توجهت هذه الحملة نحو دمياط بقيادة جان دي برين ملك بيت المقدس (الذي خلف أملريك الثاني على الحكم) والكاردينال بلاجيوس المندوب البابوي الذي زعم لنفسه القيادة قبل نهاية سنة ٦١٥هـ، وفي أثناء حصار دمياط توفي السلطان العادل في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ والبلاد في خطر داهم، فخلفه ابنه الملك الكامل محمد في حكم مصر، وكانت له السلطنة، وحكم أخوه عيسى المعظم دمشق وموسى الأشرف الجزيرة وخِلاط وحرَّان وغيرها. أما مملكة حلب فقد بقيت بيد حفيد صلاح الدين لأن والدَهُ الملك الظاهر غازيًا كان زوج ابنة العادل صفية الست خاتون.

وقد نجح الأيوبيون في صد الحملة الخامسة على دمياط بتعاونهم ووقوفهم صفًا واحدًا أمام هجمات الصليبيين، لكن سرعان ما رجع الأيوبيون إلى سيرتهم الأولى في التشرذم والخلافات الداخلية كما سنرى[1].

***

(١) أمينة بيطار: الأيوبيون، الموسوعة العربية ٤/ ٤٩٨.





الظاهر بأمر الله

(من أول شوال ٦٢٢ هـ إلى رجب ٦٢٣ هـ)

هو الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد ابن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن المستضيء حسن ابن المستنجد يوسف ابن المقتفي الهاشمي العباسي، ولد سنة ٥٧١هـ وجعله أبوه وليًا للعهد سنة ٥٨٥هـ ثم خلعه منها لميله لأخيه الأصغر أبي الحسن علي الذي توفي عام ٦١٢هـ ليضطر والده إلى العهد إليه مرة أخرى لعدم وجود أبناء غيره؛ لكنه ظل قيد المراقبة وعدم التدخل في شئون الخلافة، ولعل هذا يرجع إلى سياسة أبيه الناصر التي كانت تميل إلى المركزية الشديدة وجمع كل السلطات في يده.

تعلم الظاهر على يد أكابر علماء ومؤدبي بغداد، بل وسمع على أبيه الخليفة الناصر مسند الإمام أحمد وروى عن غيره وروى عنه بعض علماء بغداد، وقد أثّرت فيه هذه التربية القويمة حتى نشأ محبًا للعدل والخير[1].

كانت أم الظاهر أم ولد «تُركية اسمها قجّة لم تدرك خلافته، وكان أبيض مستدير الوجه، عبِل الجسم، كثير لحم العضدين. نقش خاتمه: راقب العواقب»[2].

الخليفة المُصلح

توفي الناصر لدين الله في أواخر شهر مضان من عام ٦٢٢هـ، فبايع الظاهرَ كبارُ رجال الأسرة العباسية ورجال الدولة والأمراء وطبقات الناس وكبراء الرعية على ما جرت به العادة، وكان عمره إذ تولى الخلافة ٥١ عامًا وهي سن كبيرة إلى حد ما مقارنة بمن سبقه ولحقه من الخلفاء.

قال ابن الساعي: بايعه أولا أهله، وأولاد الخلفاء، ثم نائب الوزارة مؤيد الدين القمي،

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٦٦.

(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٠.

وعضد الدولة ابن الضحاك أستاذ الدار، وقاضي القضاة محيي الدين بن فضلان، ونقيب الاشراف القوام الموسوي، وجلس يوم الفطر للبيعة بثياب بيض بطرحة وعلى كتفه البرد النبوي، ولفظ البيعة: «أبايع مولانا الإمام المفترض الطاعة أبا نصر محمدا الظاهر بأمر الله على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين، وأن لا خليفة سواه»(١).

وأول ما بدأ به خلافته إصلاح الأحوال التي تضررت بها الرعية جراء السياسة المركزية والأمنية والمخابراتية المشددة التي اتبعها أبوه الناصر، فقرر على الفور عدم تدخل الدولة في الحياة الشخصية لعموم الناس؛ فقد كانت العادة في بغداد «أن الحارس بكل درب يُبكِّر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير، فكان الناس من هذا في حرج عظيم فلما ولي هذا الخليفة جزاه الله خيرا أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتها فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال: نحن ندعو الله في أن يصلحهم»(٢).

وأمر أيضًا بإطلاق سراح المسجونين ظلمًا وزورًا «وأمر بإعادة ما أُخذ منهم وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع وليس له مال»(٣).

كذلك كان الناصر قد فرض على الأقاليم خراجًا وضرائب باهظة ليضمن تدفق المال في الخزانة العباسية طوال العام؛ لتظل الدولة قوية مهابة قادرة على الرد العسكري لأي عدو مناوئ، لكن الظاهر «أمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق وأن يسقط جميع ما جدده أبوه وكان كثيرا لا يحصى، فمن ذلك أن قرية بعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار فلما تولى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون ألف دينار فحضر أهلها واستغاثوا وذكروا أن أملاكهم أخذت حتى صار يحصل منها هذا المبلغ فأمر أن يؤخذ الخراج الأول وهو عشرة آلاف دينار فقيل له إن هذا المبلغ يصل إلى المخزن فمن أين يكون العوض فأقام لهم العوض من جهات أخرى»(٤).

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٦٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٥، والذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/ ١٩١.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٤، وابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٢٦.



ويعلق ابن الأثير على هذا المثال بسؤاله: «فإذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين ألف دينار فما الظن بباقي البلاد؟» ما يُدلل على الإرهاق الكبير الذي عانته العراق تحت خلافة الناصر الطويلة، وإن كان ابن الأثير من المؤرخين الذين نلمس فيهم حنقًا واضحًا على السياسة العباسية زمن الناصر الذي عاصره وعاش في كنفه وإن كان تحت سيادة بقايا الزنكيين ومملوكهم بدر الدين لؤلؤ في الموصل!

وأيضا حرص الظاهر بأمر الله في ذات الإطار الإصلاحي على ألا يؤخذ الخراج إلا بدقة بالغة ومن كل شجرة مثمرة بعدما كان يفرض على الأقاليم دون مراعاة المثمر من الهالك والتالف، كذلك أصلح السياسة المالية للخزانة العباسية؛ فقد كان المال يوزن قديما، فأمر بإصلاح ميزان وزارة المالية بعدما عرف أن هناك تطفيفًا حادثًا؛ الأمر الذي جعل أحد الموظفين في هذه الوزارة يرسل إلى الخليفة على سبيل النصح ويشير إليه إلى حجم الخسارة التي ستتعرض لها الخزانة جراء هذا القرار الجديد قائلًا: «إن هذا مبلغ كثير وقد حسبناه فكان في السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار. فأعاد الظاهر الجواب ينكر على القائل ويقول: لو أنه ثلاثمائة ألف وخمسون ألف دينار يطلق»(١).

ولذلك كانت سياسته المالية قائمة على الإنفاق على الرعية، وعدم كنز المال في الخزائن، قال سبط ابن الجوزي: «لما دخل إلى الخزائن قال له خادم : كانت في أيام آبائك تمتلئ فقال : ما جعلت الخزائن لتمتلئ بل تفرغ وتنفق في سبيل الله فإن الجمع شغل التجار»(٢).

بل إننا نراه يخرج من المخازن العباسية الغلال عندما علم أن هناك أزمة غذائية في الموصل رغم أنها غير خاضعة للسيادة العباسية «فقيل له إن السعر قد غلا شيئا والمصلحة منع حمله فقال: أولئك مسلمون وهؤلاء مسلمون وكما يجب علينا النظر في أمر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لأولئك وأمر أن يباع من الأهراء(٣) التي له طعام أرخص مما يبيع غيره ففعلوا ذلك فرخصت الأسعار عندهم أيضًا أكثر مما كانت أولا»(٤).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٤، والعصامي: سمط النجوم العوالي ٣/ ٥١٢.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٩٥.
(٣) الهرى: بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان. والمقصود مخازن الخلافة. المعجم الوسيط ٢/ ٩٨٣.
(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٥.

وفي إطار الإصلاح اليومي في العاصمة بغداد، أمر الظاهر ببناء جسر ثان على نهر دجلة ليسهِّل الحركة على الناس في جانبيها؛ وقد ظل موجودًا إلى وقت ابن الطقطقى المؤرخ (ت٧٠٩هـ)، وقد وصف أحد الشعراء واسمه القاسم بن أبي الحديد كاتب الإنشاء في الدولة العباسية هذه المناسبة التي تم افتتاح الجسر فيها بنظمه[١]:

إمـــام يحـــرم ذل الســـؤال ... ويعمـــل بـــالكرم الواجـــب

أقـــام طريقًـــا عـــلى دجلـــةٍ ... لـــذي القصـــد منـــه وللـــذاهب

فعـــارض جسرًـــا عـــلى جانـــب ... بجسرـــ جديـــدٍ عـــلى جانـــب

كســـطرين في كاغـــدٍ أبـــيضٍ ... أجادهمـــا قلـــم الكاتـــب

كصـــفين مـــن إبـــلٍ أصـــبحا ... وقوفًـــا عـــلى جـــددٍ لاحـــب

كما ضرب الظاهر المثل فيما يجب على المسئول تجاه رعيته، وأولها الاحتكاك بهم، والتقرب منهم، والتعرف على آلامهم؛ فقد «ظهر للناس، وكان أبوه لا يظهر إلا نادرا»[٢].

لقد أصرّ الظاهر على تطبيق هذه السياسة الإصلاحية الرامية إلى إزالة ثقافة الفساد والجور التي ظلت لعقود طويلة تهيمن فيها الدولة على الإنسان والمرافق، ولذلك نراه يُصدر مرسومًا قبيل وفاته إلى كل موظفي الدولة يحذّرهم فيه من التباطؤ أو تجاهل تنفيذ هذه الاستراتيجية الإصلاحية، قال ابن واصل: «كان قبل وفاته أخرج توقيعًا إلى الوزير بخطه ليقرأه على أرباب الدولة، وقال الرسول: أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يُقال برز مرسوم أو نُفّذ مثال، ولا يبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال».

وقد أوضح هذا المنشور الثقافة العامة التي كان يتمتع بها الظاهر بأمر الله، وذكاءه في فهم دهاليز السياسة العامة في الدولة، والفساد المستشري في الجهاز الإداري والتنفيذي، وكان كما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالًا، ولا إغضاؤنا إغفالًا، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملًا، وقد غفرنا لكم ما سلف من خراب البلاد، وتشريد الرعايا، وتقبيح السمعة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة، وتسمية

---

(١) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٢٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ٤/ ١٩٣، و أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٣٦.



الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكًا؛ لأغراض انتهزتم فرصتها مختلسة من براثن أسد باسل، وأنياب أسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناؤه وثقاته، فتميلون رأيه إلى هواكم، وتمزجون باطلكم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن فقد بدّل الله سبحانه وتعالى بخوفكم أمنا، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقًا، ورزقكم سُلطانًا يُقيل العثرة، ويقبل المعذرة، ولا يؤاخذ إلا من أصرَّ، ولا ينتقم إلا ممن استمر؛ يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى وهو يُخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام»[١].

مناقب الظاهر

لقد عدّ ابن الأثير الخليفة الظاهر بأمر الله من غرباء زمانه في العدل والهمة والإحسان إلى الرعية حتى قال: «لقد سمعت عنه كلمة أعجبتني جدا وهي أنه قيل له في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال التي لا تسمح نفس ببعضها فقال لهم: أنا فتحت الدكان بعد العصر- فاتركوني أفعل الخير فكم أعيش. وتصدق ليلة عيد الفطر من هذه السنة (٦٢٢هـ) وفرق في العلماء وأهل الدين مائة ألف دينار»[٢].

وقال عنه الإربلي: «كان موصوفًا بشدة القوة وفرّق أموالًا وبرّ الفقراء وأسقط المكوس وأفاض العدل .. وله مناقب كثيرة يقصر عن ذكرها هذا المجموع المختصر»[٣].

وفاته

توفي الظاهر في شهر رجب سنة ٦٢٣هـ بعد خلافة دامت فقط «تسعة أشهر ونصف شهر رحمه الله وعاش اثنتين وخمسين سنة وبايعوا ولده المستنصر بالله أبا جعفر»[٤] وقد علق ابن الأثير الذي أحب هذا الخليفة حبًا جمًا على وفاته بما يفيد توقع هذه الوفاة لرجل عادل مثله، قال: «ولم أزل علم الله سبحانه مذ ولي الخلافة أخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٤/ ١٩٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٥٥.

(٣) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٠.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٦٨.

وفساد أهله وأقول لكثير من أصدقائنا وما أخوفني أن تقصر مدة خلافته لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته فكان كذلك»[1].

وقد ذكر ابن واصل أن مدة خلافة الظاهر بأمر الله وسياسته كانت على النقيض تمامًا من أبيه الناصر، قال: «كانت مدة خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يومًا، ولقد تباعد ما بينه وبين أبيه الناصر لدين الله تباعدًا جدًا في أمور: أحدها: أن مدة خلافته كانت قصيرة جدًا، فلم يل من بني العباس من هو أقصر مدة في الولاية منه إلا المنتصر بالله ابن المتوكل فإنه كانت مدة خلافته نحو خمسة أشهر، وطالت مدة أبيه الناصر لدين الله في الخلافة جدًا؛ فلم يلِ من بني العباس بل ولا من الخلفاء قبلهم أطول مدة في الخلافة منه[2]. وثانيها: أنه كان في غاية العدل والإحسان إلى الخلق وكان أبوه في غاية الظلم والعسف. وثالثها: أنه كان في غاية التعصب لمذهب أهل السنة والبغض للروافض، وكان أبوه في غاية الميل إلى الروافض»[3].

ولا نعلم هل كانت هذه الوفاة المفاجئة لأمر دُبر له؛ لأن الرجل كان قد بدأ مشروعًا إصلاحيًا كبيرًا وعظيمًا بكل المقاييس، لكن لم يذكر أو يُشر أي من المؤرخين بأن سبب الوفاة كان غير طبيعي.

❋ ❋ ❋

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٦٥.

(٢) ولي المستنصر الفاطمي الخلافة العبيدية لمدة ٦٠ عامًا كاملة.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ٤/ ١٩١.





المستنصر بالله

(من رجب ٦٢٣هـ حتى جمادى الآخرة ٦٤٠هـ)

هو المستنصر بالله أبو جعفر منصور ابن الظاهر بأمر الله محمد ابن الناصر لدين الله أحمد ابن المستضيء بأمر الله حسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي العباسي، لم يل من الخلفاء من كانت سلسلة الخلفاء في نسبه إلى الجد السادس مثله، وهذا ما تعجب منه الإربلي في «خلاصة الذهب»؛ وقد كان مولده في بغداد سنة ٥٨٨هـ[١].

كان المستنصر «أبيض مشرّبًا حمُرة، مستنير البشرة، واسع الصدر، معتدل الخلق. نقش خاتمه: العفو بك أولى»[٢]. وقال الذهبي عنه: كان المستنصر «أبيض أشقر، سمينا، ربعة، مليح الصورة، عاقلا حازما سائسا، ذا رأي ودهاء ونهوض بأعباء الملك»[٣].

نشأ المستنصر محبًا للعلم والعلماء، متبعًا سنة أبيه الظاهر في العدل وإقامة الخير والإحسان إلى الرعية واليقظة في تدبر شئون الخلافة، وهذا ما سنراه في اهتمامه البالغ بالإنشاء والعمارة والأوقاف التي ظلت آثارها حتى اليوم؛ فضلًا عن قوته وجهاده ومقاومته للخطر المغولي الذي كان قد بدأ يدخل في مرحلة متقدمة من العراق في زمنه.

ولقد كان جده الخليفة الناصر يحبه ويقربه منه «ويسميه القاضي لهداه وعقله وإنكار ما يجده من المنكر»[٤].

الخليفة الخيِّر!

بويع المستنصر بالخلافة يوم وفاة والده في ١٣ رجب سنة ٦٢٣هـ، وكان عمره يومئذ خمسًا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وأحد عشر يومًا، وحرص منذ بداية خلافته على التواضع

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٥٦.
(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١١.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٥٦.
(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٩٧.

والتقرب من الرعية وعدم الاحتجاب عنهم، متبعًا سيرة أبيه الظاهر قال ابن الأثير عن بداية خلافته: «لقب المستنصر بالله وسلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه رضي الله عنه، وأمر فنودي ببغداد بإفاضة العدل وإن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته؛ فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلي الجمعة في المقصورة التي كان يصلي فيها الخلفاء فقيل له أن المطبق[1] الذي يسلك فيه إليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار إلى الجامع جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير[2]، ولم يترك أحدا يمشي معه من أصحابه بالصلاة إلى الموضع الذي كان يصلي فيه وسار هو ومعه خادمان وركابدار لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق»[3].

وإمعانًا في التقرب من الرعية ومخالطة الناس فإنه «صار يدمن المشي إلى الجمعة رغبة في التواضع والخشوع، ويجلس قريبا من الإمام ويستمع الخطبة»[4]، والمقصد أنه صار يُدمن صلاة الجمعة في المساجد العامة وليس مسجد دار الخلافة كما جرت العادة في الخلفاء من قبله.

بل حرص المستنصر على اتباع سنة أبيه في مراقبة كبار موظفيه وعزلهم إن اقتضى الأمر وظهر منهم ما يستدعي ذلك، ففي شوال من عام ٦٢٩هـ عزل وزيره مؤيد الدين القمي «وقبض عليه وعلى أخيه حسن وابنه فخر الدين أحمد بن محمد القمي وأصحابهم وحبسوا، واستوزر مكانه أستاذ الدار شمس الدين أبا الأزهر، أحمد بن محمد بن الناقد، وخلع عليه خلعة سنية وفرح الناس بذلك»[5].

ويعد مؤيد الدين بن القمي من أطول من نابوا في الوزارة العباسية وإن كان وزيرًا على الحقيقة، فقد عينه الخليفة الناصر في هذا المنصب منذ عام ٦٠٦هـ وأخرج مرسومًا يُدلل على

---

(١) المطبَّق: طريق تحت وجه الأرض كان بين دار الخلافة العباسية وجامع القصر، يسلكه الخُلفاء أيام الجُمع لأداء الصلاة في الجامع المذكور. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، هامش ص٦٢. بقلم المحققين الدكتورين الجليلين بشّار عواد معروف وعماد عبد السلام رؤوف.

(٢) إشارة إلى تواضع ملبسه وعمامته.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٦٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٣٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٥٥.



منزلته الكبيرة جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، محمد بن بزر القمي نائبنا في البلاد والعباد، فمن أطاعه فقد أطاعنا، ومن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن أطاع الله أدخله الجنة، ومن عصاه فقد عصانا، ومن عصانا فقد عصى الله، ومن عصى الله أدخله النار. فنبل القمي بهذا التوقيع في عيون الناس وجلت مكانته وقامت له الهيبة في الصدور»(١). ولعل المستنصر قد عزله لتجبره على الرعية، فقد «كان جبارا شديد الوطأة»(٢) ولم يزل في حبسه حتى توفي هو وابنه في محبسهم في العام التالي سنة ٦٣٠هـ.

وحرص المستنصر على تحسين الأوضاع المالية في العراق كله، فأمر بضرب دراهم جديدة وجعل كل دينار مستنصري بعشرة دراهم، وكانوا قبل ذلك يتعاملون بقُراضة(٣) الذهب والفضة وكانت بالميزان الأمر الذي يتسبب في مشقة بالغة وضياع للأموال(٤).

وبسبب وجود أموال جمة كثيرة في الخزانة العباسية كان الناصر قد جمعها في خلافته الطويلة حتى قيل: «كان جده الناصر قد جمع ما يتحصل من الذهب في بركة في دار الخلافة، فكان يقف على حافتها ويقول: أترى أعيش حتى أملاها، وكان المستنصر يقف على حافتها ويقول: أترى أعيش حتى أنفقها كلها»(٥). فقد حرص الحفيد المستنصر على إنفاق هذه الأموال في مشروعه التنموي الإصلاحي الكبير، وسنرى كيف تمخض هذا المشروع في نهاية المطاف على مجموعة رائعة من المدارس والجامعات التي لا تزال آثارها باقية حتى اليوم!

ومن الأمثلة المهمة على اقترابه من الجماهير أنه كان يجول في العاصمة ليعرف عن قرب أحوال الناس بها، وقد «حكى أنه اجتاز راكبا في بعض أزقة بغداد قبل غروب الشمس من رمضان، فرأى شيخا كبيرا ومعه إناء فيه طعام قد حمله من محلة إلى محلة أخرى، فقال: أيها الشيخ لم لا أخذت الطعام من محلتك؟ أو أنت محتاج تأخذ من المحلتين؟ فقال: لا والله يا سيدي – ولم يعرف أنه الخليفة – ولكني شيخ كبير، وقد نزل بي الوقت وأنا أستحي من أهل

(١) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص١٥٠.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٤٦.
(٣) القُراضة: ما سقط بالقطع (القرض)، ومنه قراضة الذهب والفضة أي ما قطع منهما. محمد قلعجي: معجم لغة الفقهاء ص٣٦٠.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٦/ ١١.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٨٦.

محلتي أن أزاحمهم وقت الطعام، فيشمت بي من كان يبغضني، فأنا أذهب إلى غير محلتي فآخذ الطعام وأتحين وقت كون الناس في صلاة المغرب فأدخل بالطعام إلى منزلي بحيث لا يراني أحد، فبكى الخليفة رحمه الله وأمر له بألف دينار، فلما دفعت إليه فرح الشيخ فرحا شديدا حتى قيل إنه انشق قلبه من شدة الفرح، ولم يعش بعد ذلك إلا عشرين يوما، ثم مات فخلف الألف دينار إلى الخليفة، لأنه لم يترك وارثا. وقد أنفق منها دينارا واحدا، فتعجب الخليفة من ذلك وقال: شيء قد خرجنا عنه لا يعود إلينا، تصدقوا بها على فقراء محلته»[١].

لقد كان المستنصر يتحسس فقراء الرعية، حتى صار الجود والإنفاق أهم ما يميزه مع مناقبه الأخرى؛ فقد «حكي أن محيي الدين ابن الجوزي حضر عنده بعض الصالحين وشكا إليه أمر دين لزمه وعجز عن قضائه، فهم ابن الجوزي أن يقضي دينه، ثم رأى أن يؤثر المستنصر بالله بهذه المثوبة لما يعلم من صلاح الرجل ورغبة المستنصر في الخير، فطالعه بذلك، فبعث إلى ابن الجوزي من المال مقدار دين الرجل، وبعث مع ذلك مائتي دينار وقال: هذه لنفقته لأنه إذ قضى دينه لم يبق له ما ينفقه، وبعث إلى ابن الجوزي خمسمائة دينار وقال: هذه عوض إيثارك لنا بهذه المثوبة»[٢].

مشروعه الكبير!

في عام ٦٢٥هـ كان المستنصر قد بدأ في تنفيذ مشروعه العظيم الذي سيستغرق خمسة أعوام وأشهر ويظل حتى يومنا هذا دليلًا على عظمته ومكانته ومقدار حبه للعلم والعلماء؛ فقد بدأ في بناء المدرسة «المستنصريّة ببغداد، وكان مكانها إصطبلات وأبنيةٌ، وتولّى عمارتها أستاذ دار الخلافة»[٣].

والحق أن هذا المشروع لم يكن مشروعًا متوقفًا على مدرسة أو اثنتين بل كان مشروعًا تنمويًا عامًا في كامل المناطق الخاضعة للخلافة العباسية أشرف عليه المستنصر بنفسه، ففي عام ٦٢٨هـ «تكامل بناء المدرسة التي بسوق العجم[٤] ببغداد المنسوبة إلى إقبال الشرابي،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٨٦، ١٨٧.
(٢) الكتبي: فوات الوفيات ٤/ ١٧١.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٢٧.
(٤) سوق العجم: أحد أسواق بغداد الغربية، وسُمي بسوق العجمي في العصر العثماني. أبو البركات السويدي: النفحة المسكية في الرحلة المكية ص٧.

وحضر الدرس بها، وكان يوما مشهودا، اجتمع فيه جميع المدرسين والمفتين ببغداد، وعمل بصحنها قباب الحلوى فحمل منها إلى جميع المدارس والربط، ورتب فيها خمسة وعشرين فقيها لهم الجوامك[١] الدارَّة في كل يوم، والحلوى في أوقات المواسم، والفواكه في زمانها، وخلع على المدرس والمعيدين والفقهاء في ذلك اليوم، وكان وقتا حسنا تقبل الله تعالى منه»[٢].

وفي عام ٦٣١هـ افتتح المستنصر بالله المدرسة المستنصرية أو بالأحرى الجامعة المستنصرية التي كانت أعظم جامعات العالم قاطبة في زمانها، وكان لها موارد مالية وأوقاف لم توجد لمؤسسة تعليمية من قبل بلغت عشرات الآلاف من الدنانير، قال ابن كثير: «لم يبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيها، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد. ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلف أحد من هؤلاء، وعمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يوما مشهودا، وأنشدت الشعراء الخليفة المدائح الرائقة والقصائد الفائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه مطولا مبسوطا شافيا كافيا.. وكان المتولي لعمارة هذه المدرسة مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي الذي وزر بعد ذلك، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة، وخلع عليه يومئذ وعلى الوزير نصير الدين»[٣].

وقد وصف الإربلي هذه المدرسة/ الجامعة وأقسامها والعلوم التي بها ومكتبتها وعلماءها ومكانها وصفًا رائقًا بقوله: «أنشأ المستنصر مدرسة على شاطئ دجلة وجعلها وقفًا على المدارس الأربعة ليحصل بها كمال المنفعة؛ فجاءت محكمة البناء راسخة في الماء، فسيحة الفناء،

(١) لفظ فارسي معرب، رواتب أصحاب الوظائف من الأوقاف. محمد قلعجي: معجم لغة الفقهاء ص١٥٨.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٥١.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٦٣.

وضعها غريب، وحسن ترتيبها عجيب، شامخة إلى عنان السماء، تضحك شرفاتها بالسرور، ويظهر في أبنيتها الفرح والحبور، ويلمع العز في جوانبها، ويطلع السعد من أساسها وأعاليها؛ فهي كعبة الأنام وقبة الإسلام، مجمع سائر الدين ومذاهب المسلمين، وعلم الأصول والفروع المفترق فيها والمجموع، وعلم القوافي وأحاديث الرسول ومعرفة الحلال والحرام، وقسمة الفرائض والتركات وعلم الحساب والمساحات، والطب ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان؛ ولما كملت أبنيتها كُسيت بأفخر الملابس وتجلت كأحسن العرائس ورتب لها البوابين والفرّاشين والخدم والطبّاخين وأُسكن لكل مذهب اثنان وستون من الفقهاء وجُعل لهم مدرس وأربعة معيدين وأجريت لهم بها من المشاهرات الوافرة وما يحتاجون إليه من الخبز واللحم والحلوى والفواكه والصابون وجعل فيها طبيب حاذق ماهر وأُثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه في علم الطب، وجُعل لهم الأكحال السائلة»[١].

وقال المؤرخ ابن الساعي وكان معاصرًا لهذا الحدث، بل وقد عيّن مديرًا للمكتبة المستنصرية: «هذه منقبة لم يسمُ إليها الأولون، ثم جُعل فيها خزانة الكتب ونقل إليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة والأصول المضبوطة المحتوية على جميع العلوم مائتان وتسعون حملًا سوى ما نُقل إليها بعد ذلك وشرط أن يكون في دار الكتب التي هي الخزانة عشرة يشتغلون بعلم الحديث النبوي ويكون لهم شغلان يشغلون الطلبة بعلم الحديث النبوي ورتّب عندهم شيخ على الإسناد يقرأ عليه الحديث، ثم إلى جانب هذه المدرسة دار برسم تلقين القرآن المجيد ينبني بها ثلاثون صبيًا أيتامًا يتلقنون القرآن من شيخ ملقن ويكون لهم معيدًا يحفظهم التلاقين .. وشرط فيها من يشتغل بعلم العربية وكذا من يشتغل بعلم الفرائض..»[٢].

وقد بني مستشفى بجوار هذه المدرسة وبجوارها معمل مبهر للدراسات الفلكية، قال ابن الفوطي: « تكامل بناء الإيوان الذي أنشئ مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم وبنى في حائط هذه الصفة دائرة وصور فيها صورة الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها

(١) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٢.
(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٢.

أبواب لطيفة، وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ووراءهما بندقتان من شبه لايدركهما الناظر فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات والباب من ذهب فيصير حينئذ مفضضًا، وإذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان إلى مواضعهما، ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ثم يبتدئ في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة»(١).

لقد حرص المستنصر طيلة خلافته على إنشاء المدارس الرائقة في العاصمة بغداد بل في العراق كله، وقد قال عن هذه المدارس المؤرخ العصامي: «كانت مدارس بغداد يضرب بها المثل في ارتفاع العماد، وإتقان المهاد، وطيب الماء، ولطف الهواء، ورفاهية الطلاب، وسعة الطعام والشراب»(٢).

وفاته ومناقبه

لخص ابن الساعي المشروع التنموي للخليفة المستنصر وعلاقته العامة بالرعية ومناقبه بقوله: «أنشأ قدس الله روحه من المشاهد والمساجد والربط والقناطر ووسع الطرقات .. وأعطى الثياب والخلع والجرايات في شهر رمضان والرواتب للعلماء والعباسيين والعلويين والضعفاء والمساكين وتزويج الأيامى والحنو على اليتامى وذلك أكثر من أن يحصر فنسأل الله أن يحسن إليه..»(٣)، وقد حرص المستنصر على السير وفق هذه السياسة حتى وفاته رحمه الله.

توفي المستنصر في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ «وقيل في يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة، عن إحدى وخمسين سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام»(٤). وقد ذكر المقريزي أن سبب وفاته «أنه فصد بمبضع مسموم»(٥)، وهذا رأي لم نجد له دليلا يؤيده وإن لم يكن مستبعدًا!

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص١١١، ١١٢.
(٢) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٣/ ٥١٥.
(٣) الإربلي: خلاصة الذهب ص٢١٣.
(٤) ابن تغري بردي: مرد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة ١/ ٢٣٠.
(٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٤١٥.

قال العصامي عن المستنصر بالله ومناقبه: «نشر العدل وبذل الإنصاف، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والربط والمدارس، وأقام منار الدين، وقمع المتمردين، ونشر السنن، وكف الفتن، وحمل الناس على أقوم سنن، وحفظ الثغور وافتتح الحصون، واجتمعت القلوب على محبته، والألسن على مدحته، ولم يجد أحد من المتعنتة فيه معابًا. وكان جده الناصر يقربه، ويسميه القاضي، لهديه وعقله، وإنكار ما يجده من المنكر. قال الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري: كان المستنصر راغبًا في فعل الخير، مجتهدًا في أعمال البر، وله في ذلك آثار جميلة، وهو الذي أنشأ المستنصرية؛ التي لم يبن مثلها في مدارس الإسلام، ولم يوجد في المدارس أكثر كسبًا منها، ولا أكثر أوقافًا عليها، ورتب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم»[(١)].

ولم يكن مشروع المستنصر قائمًا على الجبهة الداخلية حيث الإعمار والبناء وتحسين الخدمات الاجتماعية، وإنما الخارجية والجهادية على وجه التحديد ومواجهة الخطر المغولي بقوة، قال الكتبي: «جمع العساكر وقام بأمر الجهاد، وأذعنت لطاعته ملوك الأرض»[(٢)].

ومن مناقب المستنصر أنه كان وقافًا عند الحق، رجاعًا له؛ لا يحب الغلو والتملق الزائد عن الحد؛ فقد مدحه أحد الشعراء واسمه الوجيه القيرواني بقصيدة يقول فيها:

لو كنت في يوم السقيفة حاضرًا ... كنت المقدم والإمام الأورعا

فقال له قائل بحضرته: أخطأت قد كان حاضرًا العباس جد أمير المؤمنين ولم يكن المقدم إلا أبا بكر فأقر ذلك المستنصر وخلع على قائل ذلك خلعة وأمر بنفي الوجيه فخرج إلى مصر[(٣)].

وقد وجدنا للمستنصر شعرًا يتغزل فيه بجارية له اسمها فضة، يقول لها[(٤)]:

قالوا أمثل أمير المؤمنين له ... عقل يقسم بين الملك والغزل

فقلت ما جئت بدعًا في الغرام ... أخذت إلا بخط من حلى الرسل

وما يضيع الهوى عقلًا يكون له ... فضلًا إلى الرأس والتدبير للدول

---

(١) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٣/ ٥١٣.
(٢) الكتبي: فوات الوفيات ٤/ ١٧٠.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٩٧.
(٤) الكتبي: فوات الوفيات ٤/ ١٧١.

نخجوان
بردعة
بيلقان
وان
تبريز
أذربيجان
أردبيل
بحر الخزر
المراغة
ماردين
الجزيرة الفراتية
الموصل
اربل
رشت
قزوين
زنجان
بلاد الديلم
الري
آمل
طبرستان
جرجان
بسطام
كركوك
تكريت
قرميسين
همذان
قم
دنباوند
حلوان
نهاوند
سامراء
كرمانشاه
كاشان
الأنبار (الفلوجة)
بغداد
براز الروز
أصفهان
كربلاء
الحلة
النجف
واسط
الكوفة
يزد
الأهواز
فارس
البصرة
شيراز
خليج البصرة
تستر
فسا

استراتيجية المستنصر في مقاومة المغول

لقد كان المستنصر بالله أول خليفة عباسي شعر بالخطر الحقيقي للمغول ويرجع اهتمام هذا الخليفة الجدي بأمر المغول إلى عدة أسباب منها:

أولاً: أن غارات المغول قد اكتسحت مناطق واسعة من شرق وشمال العراق.

ثانيًا: أنهم استولوا على مناطق في العراق بالفعل، عدا كونها قريبة جدًا من بغداد، فقد كانت – حتَّى وقت قريب – من أملاك الخليفة، مثل ششتر ودقوقا التي احتَّلها الخوارزمي، وأخذها المغول منه كما سنرى.

ثالثًا: رُبّما تأكد الخليفة أنه – في النهاية – هو المقصود، وأنه الهدف الأكبر لحملات المغول.

على أن الخطر الأكبر لهؤلاء المجتاحين كان قد بدأ بصورة مباشرة على أملاك العباسيين عقب وفاة جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢٨هـ الذي ورث أبوه سلطنة السلاجقة في شرق العالم الإسلامي، ما يعني أنه كان الحاجز لتوغل المغول في العراق والشام، لكنه في أخريات ولايته كان قد وقع في مثالب جمة.

لقد كان من الطبيعي أن يتجه المستنصر بالله صوب الأيوبيين في الشام ومصر وإن كانوا متصارعين فيما بينهم؛ ولقد أدى هذا التصارع إلى إضعاف القوة العسكرية وتوجيه سهامها إلى نحور المسلمين، الأمر الذي أدى إلى تسليم الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب بيت المقدس طوعًا للصليبيين مرة أخرى سنة ٦٢٦هـ!!

لكن ورغم ذلك تواترت رُسُلُ المستنصر إلى الملك الكامل والملك الأشرف لقُدُومها إلى الشَّام وشمال العراق، وفي عام ٦٢٩هـ خرج الأشرف من مصر، وتبعه الكامل بجيوشه، وعلى مقدمته ابنه الصالح أيوب، و «خرج من دمشق وعسكر بسلمية ومعه عساكر يضيق بها الفضاء، وسار، فتفرقَّت العساكر لكثرتها، وأتته رسل ملوك الأطراف ويرى بعض الباحثين بأن خروج بني أيوب من مصر بهذا الجحفل كان لمجرَّد دعوة الخليفة لهم، فحتَّى الآن كانوا يعدُّون التَّتار يبغون النهب والعودة إلى قواعدهم بما نهبوه، وأنهم ليسوا طالبي مُلك، ولا أصحاب حُكم مدن، فيكفي لتجنُّب شرهم إغلاق أبواب المدن حتى ينتهي هجومهم ولكن الذي دفع الكامل والأشرف للاهتمام الجدّيّ بأمر التَّتار هو تبدُّل في خطة التَّتار أنفسهم، فبعد الغارات والسلب والنهب والقتل ثم العودة شرقًا قرَّروا فتح خِلاط عاصمة الجزيرة، وأغنى مدنها وأكبر المرتكزات الأيوبية فيها؛ وفي الحقيقة، لم يكن هذا تبدُّلا حقيقيًا في خُطة التتار، بل هو تطبيق للجُزء الثاني منها، فالغارات ليست للسلب فقط، بل للاستطلاع، ولكشف المناطق وترويع الناس، وترحيلهم، حتى لا يبقى من له قدره على المقاومة، لا ماديًا ولا معنويًا، ثُمَّ يهاجمون الحواضر، ويقيمون مرتكزات حُكمهم، فيها وقد وصلت الجيوش الأيوبية إلى الجزيرة، وأقام الكامل في حرَّان ووصلتهَ النجدات من أيُوبية الشام، وجاءت الأخبار برحيل التتار المحاصرين لِخلاط، ويُبرر ابن نظيف سبب رحيل التَّتار بقوله: فرحلوا عنها خوفًا من السُّلطان[1].

(١) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص٢٣٥.



ومع ذلك لم تغن محاولات الكامل شيئًا لأن المغول كانوا قد دخلوا في مرحلة احتلال المدن العراقية فعلا، وإن ظل المستنصر نفسه طيلة خلافته على أهبة الاستعداد للقائهم ودفعهم بكل ما أوتي من قوة؛ فضلا عن خلافات البيت الأيوبي التي كانت العامل الأكبر في التخلف عن الاستعداد الجيد ودفع هؤلاء الغازين.

ومع فشل جهود الأيوبيين وتصارعهم الداخلي لم ينثن عزم المستنصر بالله في البحث عن بديل يعينه على هذا الخطر الجاثم، ولقد كان الزنكيون في الموصل قد وصلوا لآخر أيامهم وقوتهم، وعربان العراق كانوا مشتتين لا يملكون القوة العسكرية والإعداد الجيد الذي كان في أمراء بني مزيد الأسديين في جنوب بغداد وقد تم القضاء عليهم نهائيًا على يد السلاجقة؛ لكن ظل هناك أمير في الشمال الشرقي هو مظفر الدين كوكبري أمير مقاطعة إربل، وكانت جهة تماس مع العدو المغولي، ومن ثم كان من المنطقي أن يتحالف المستنصر مع مظفر الدين في مواجهة خطر التتار.

إن مظفر الدين كوكبري أمير قد حنكته التجارب، وهو رجل طاعن في السن فقد عاصر صلاح الدين الأيوبي وأولاده وأولاد أخيه؛ حيث ولد سنة ٥٤٩هـ أي أنه يبلغ من العمر حينما التقى بالمستنصر وانضوى في ظل الخلافة العباسية ٧٩ عامًا؛ ففي سنة ٦٢٨هـ «أخذ مفاتيح إربل وقلاعها وسلم ذلك إلى المستنصر؛ فاحتفلوا له، واجتمع بالخليفة وأكرمه»(١).

وفي أواخر العام التالي ٦٢٩هـ هاجم المغول مدينة شهرزور شرقي إربل وهي مدينة كردية، فأمر الخليفة مظفر الدين بدفعهم ومقاومتهم، و«أضاف إليه عساكر من عنده، فساروا نحوهم فهربت منهم التتار وأقاموا في مقابلتهم مدة شهور، ثم تمرض مظفر الدين وعاد إلى بلده إربل»(٢).

وانتقل الجيش العباسي إلى أرض أكثر اتساعًا وفسحة من شهرزور ومسالكها الجبلية الوعرة، واتفق رأيهم على المكوث وانتظار العدو في منطقة تسمى شهركرد غرب شهرزور «وأما من كان معهم من العساكر الغرباء فإنهم رحلوا متفرقين كل منهم طلب بلده، وأقام

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٣٦.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٥٥.

جمال الدين قشتمر ومن معه من العساكر فلم يقدم أحد المغول إلى محاربته فأنهى ذلك إلى الديوان فتقدم إليه بالعود فرحل قاصدًا مدينة السلام فلم يؤذن له في دخول البلد فأقام بظاهره إلى صفر، سنة ثلاثين وستمائة، ثم أذن له الدخول»(١).

لكن سرعان ما توفي مظفر الدين في ١٤ رمضان سنة ٦٣٠هـ وقد كان بقلعة إربل «خادمان أحدهما اسمه برنقش والآخر اسمه خالص، كانا قد كتبا إلى الخليفة وإلى عماد الدين زنكي صهر مظفر الدين والي بني أيوب حيث ثقل مظفر الدين في المرض يعرفانهم ذلك وقالا: من سبق إلينا كانت منتنا عليه. وكتبا إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل يعلمانه بموته ويحثانه على المجيء»(٢).

وكان المستنصر قد وجّه العساكر العباسية بقيادة الأمير «إقبال الخاص المستنصري إلى مدينة إربل وأعمالها، وذلك لمرض مالكها مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وأنه ليس له من بعده من يملك البلاد، فحين وصلها الجيش منعه أهل البلد فحاصروه حتى افتتحوه عنوة في السابع عشر من شوال، وجاءت البشائر بذلك فضربت الطبول ببغداد بسبب ذلك، وفرح أهلها، وكتب التقليد عليها لإقبال المذكور، فرتب فيها المناصب وسار فيها سيرة جيدة»(٣).

على أن هذه الأحداث الداخلية في العراق لم تغير من حد الهجمات المغولية؛ فقد هاجموا كلا من إربل والموصل في ربيع الأول سنة ٦٣٣هـ، منطلقين من قاعدتهم في الدربند شمال أذربيجان «فاهتم المستنصر بالله وفرق الأموال والسلاح. فرجع التتار ودخلوا الدربند، ورد عسكر بغداد وكان عليهم جمال الدين قشتمر(٤)»(٥)، وقد تربصت لهم قوات الخليفة حتى عادوا وهزمتهم عند جبل حمرين(٦) واضطرتهم إلى ترك الأسرى الذين وقعوا في أيديهم عندما هاجموا إربل.

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٥٢.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٧١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٥٨.

(٤) من أكبار أمراء الخليفة المستنصر، كان جليل القدرِ، مَهيبًا، وَقُورًا، كَثيرَ الصدقاتِ والمعروفِ، توفي في ذي القعدة سنة ٦٣٧هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٦/ ٣٣٩.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٦/ ١٣.

(٦) جبل حمرين هو جبل بين الموصل في الشمال وتكريت في الجنوب. البغدادي: مراصد الإطلاع ١/ ١٥١. وهي تمتد من محافظة ديالى الواقعة ٦٠ كم شرقي بغداد إلى مدينة كركوك الغنية بالنفط الواقعة ٢٦٠ كم شمال العاصمة العراقية بغداد.

لكن في شهر شوال من العام التالي ٦٣٤هـ حاصرت قوات المغول مدينة إربل مرة أخرى، ويسرد لنا ابن الفوطي حجم المأساة التي تعرض لها سكان المدينة بتقهقرهم وانحصارهم في قلعتها الصغيرة بقوله: «وصل الخبر من إربل على جناح طائر بنزول عساكر المغول على إربل والإحاطة بها وتحصّن أهل البلد بغلق الأبواب وصعود القلعة، وأمر شمس الدين أصلان تكين الناصري بالتوجه إلى هناك جريدة ونفذ معه ثلاثة آلاف فارس بغير ثقل فتوجهوا في العشرين من الشهر .. وأما المغول فإنهم نزلوا على إربل وحصروها ونصبوا المناجيق عليها، وقصدوا جهة من السور فهدموا جهة من السور فهدموا منه قطعة كبيرة ودخلوا البلد عنوة وقهرًا فتحصن أهله ومعظم العسكر بالقلعة وقاتلوهم أشد قتال، وأمد المغول بدر الدين صاحب الموصل بما يحتاجون إليه من ميرة وآلة وغيرها، وأعوز أهل قلعة إربل الماء، فتلف منهم ألوف كثيرة بالعطش ولم يمكن دفنهم لضيق الموضع ولا لقاؤهم لئلا يسدوا الخندق فأحرقوا بالنار، ثم عاثوا في البلد أشد العيث نهبًا وأسرًا وحراقًا وتخريبًا، ثم اهتموا بالقلعة وجدوا في نصب المناجيق عليها فبلغهم وصول عساكر الخليفة فرحلوا راجعين إلى بلادهم في سادس ذي الحجة فورد الخبر بذلك إلى الشرابي فرجع والعساكر والأمراء في خدمته إلى بغداد فدخلها في ثالث عشر المحرم سنة خمس وثلاثين»[1].

ويسرد ابن أبي الحديد صاحب «نهج البلاغة» في كتابه الآنف تفاصيل مشابهة لما ذكرها ابن الفوطي؛ إلا أنه يزيد على ذلك بأن قاعدة المغول في هذا الوقت كانت في تبريز شمال إيران بالقرب من العراق وهذا ما شكل خطرا متجددًا أدى إلى سقوط الخلافة العباسية بالكلية في النهاية[2].

ولقد عاد المغول مرة أخرى إلى العراق في العام التالي ٦٣٥هـ ودخلوا داقوقا بل إلى مدينة سامراء على نهر دجلة شمال بغداد، وهي مرحلة متقدمة جدًا وقريبة من العاصمة؛ وقد اضطر ذلك المستنصر أن يعلن الجهاد بعد أن جمع مجلسًا من العلماء أفتى بأن الغزو في سبيل الله أهم من الحج في هذا الوقت؛ وكان هذا سببًا في التعبئة العامة والحشود الغفيرة التي انضمت إلى الجيش العباسي والتي وصلت في هذه المرحلة إلى ١٠٠ ألف مقاتل[3].

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص١٢٧، ١٢٨.

(٢) مختار جبلي: حملات الغزو المغولي للشرق كما عاشها العلامة ابن أبي الحديد المدائني ص٥٩.

(٣) مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١٢١.

وقد اجتمع المستنصر بأمرائه لاتخاذ ما يلزم من إجراءات سريعة تحد من تقدم المغول تجاه بغداد «فقال كل واحد ما عنده، وسهل الأمير جمال الدين قشتمر الأمر في لقائهم، وعين الشرابي على جماعة من الأمراء لقصدهم، فتوجهوا إلى القليعة ونزلوا بها، فبلغهم أن المغول في جمع كثير وهم بالقرب من الجبل(١)، فساروا نحوهم فلما قاربوهم تعَبّوا ميمنة وميسرة وقلبًا، فلما شاهدت عساكر المغول ذلك ولوا راجعين، فتبعهم جماعة من العسكر فقتلوا منهم جمعًا كثيرًا وأسروا منهم جماعة، وغنموا من دوابهم وأثقالهم»(٢).

ولقد كان علية القوم تقتدي بالمستنصر في الإنفاق على الغزاة والمجاهدين لدرء المغول، فقد «اتفق جماعة من التجار وجمعوا مالًا خطيرًا وسألوا الإنعام عليهم بقبوله وإنفاقه على الغزاة ودفعوا المال إلى الدوادار(٣)، فأمر بأن يرد عليهم المال وقال: جزاكم الله الخير، يكفينا منكم الدعاء، وفي خزائننا ما يغني عن ذلك»(٤).

وإننا في هذا العام ٦٣٥هـ نجد المستنصر يدفع إلى الأيوبيين وعلى رأسهم الكامل مبلغ ٦٠٠ ألف دينار ليستأجر به مجموعة من كبار الفرسان ليقودوا هذه الأعداد الكبيرة في مواجهة الخطر المغولي المحدق، وهو مبلغ كبير جدا قد نُشكك في مصداقيته، وقد «وصل إبراهيم ابن الأمير خضر ابن السلطان صلاح الدين إلى بغداد في ستمائة فارس فدخلها في شوال، ودخل بعده الملك المظفر عمر والملك السعيد غازي ابنا الملك الأمجد صاحب بعلبك، ومعهما عساكر نفذهم الكامل»(٥).

---

(١) إقليم الجبل شرق وشمال شرق بغداد ويشمل كردستان العراق وإيران الآن.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص١٣٨.

(٣) دوادار: اشتهر هذا اللقب في العصر المملوكي أكثر منه في العصر العباسي المتأخر، وهي وظيفة مهمة صاحبها تبليغ الرسائل والأوامر الموجهة من السلطان وتقديم الأوراق والإحالات والأوامر بعد صياغتها للسلطان/ الخليفة من أجل الاطلاع عليها وتوقيعها. أما وإنها لقب لقائد الجيش العباسي ومقدمه فلعل تعريفها في العصر العباسي المتأخر كان مقتصرا على الدوادارية العسكرية، بمعنى أن يكون قائد الجيش العباسي مختصًا كذلك بالشئون الإدارية للجيش مع الشئون العسكرية. على أن ابن الفوَطي في «مجمع الآداب» يؤكد أن مجاهد الدين أيبك كان دواتيّ الخليفة المستنصر ومن أخصّ خواصّه، فلعل وظيفته الأولى غلبت عليه حتى بعدما صار قائد الجيش العباسي. راجع: ابن الفوطي: مجمع الآداب في معجم الألقاب ٤/ ٣٥٩، ٣٦٠، ومصطفى الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص١٨٦.

(٤) الكتبي: فوات الوفيات ٤/ ١٧٠.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٦/ ٢٠، ٢١.

وبالرغم من مجيء هذه القوات الأيوبية لتدعيم الجبهة العباسية إلا أنه وبعد شهر فقط كانت إحدى الفرق العباسية التي يقودها الأمير جمال الدين بكلك قد هُزمت أمام المغول في منطقة خانقين شمال شرقي بغداد وقتلوا وأسروا من المسلمين عددًا جمًا، وكان على رأس القتلى أمراء هذه الحملة بمن فيهم بكلك، وقد جعلت هذه الحادثة المفجعة الخليفة وأهل بغداد على أهبة الاستعداد والاستنفار، بل تسببت في نزوح آلاف من أهالي قرى شرقي العراق إلى بغداد مما أدى إلى التضييق على سكانها[١]!

بيد أنه بعد هذه الهزيمة المفجعة راسل المغول «الخليفة فوصل رسولهم في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وستمائة، فانفذ العدل جعفر بن محمد بن عباس البطائحي ناظر التركات، صحبة الرسول الوارد من جرماغون مقدمهم، وكان عوده في سنة سبع وثلاثين. واجتمع به بالقرب من قزوين»[٢].

ولا نعرف تفاصيل هذه المراسلات للأسف الشديد؛ وإن كان موضوعها الهدنة أو فرض رؤية التتار على الخليفة العباسي أو القبول بالأمر الواقع وعدم مجاهدتهم واسترداد ما نهبوه واستولوا عليه من بلاد المسلمين التابعة على الأقل للخلافة العباسية!

ويبدو أن هذه المراسلات قد آتت أكلها ولم نر منذ سنة ٦٣٦هـ حتى وفاة المستنصر سنة ٦٤٠هـ أي هجوم من المغول على العراق والمناطق التابعة للخلافة العباسية، وكان السبب في ذلك قائما على الاستعداد القتالي والعددي للجيش العباسي، وكذلك على المراسلات الدبلوماسية بين الطرفين والتي تكللت في هذه الأعوام الأربعة الأخيرة بثلاث مراسلات من المستنصر بالله لهم[٣].

لكن على الجانب الآخر لم يكل المغول من ملاحقة وتهديد أمراء وملوك الأقاليم الأخرى ففي سنة ٦٣٨هـ «قدم رسول من ملك التتار تولى بن جنكيزخان إلى ملوك الاسلام يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم»[٤] وقد جاء في هذا الكتاب «من نائب رب

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص١٤٠.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص١٤٢.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٦/ ٤٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٨٢.

السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب... ويأمرهم أعني ملوك الإسلام بالدخول في طاعة القان الأعظم..»(١).

وقد كانت أبرز النتائج المترتبة على غزوات المغول على العراق في هذه الأعوام الاثنتي عشر، منذ وفاة جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢٨هـ وحتى وفاة المستنصر بالله سنة ٦٤٠هـ، قد تمثلت في زيادة أعداد القوات العباسية وضخامتها بحيث لم يُعرف أنها وصلت في أي زمن منذ استيلاء البويهيين على بغداد إلى ١٢٠ ألف مقاتل. وقد تعطل الحج في العراق لأعوام عدة؛ بسبب انشغال الناس بجهاد المغول.

العلاقات الخارجية في عهد المستنصر

علّق الذهبي تعليقًا حصيفًا على قوام الجيش العباسي الذي بلغ مائة ألف مقاتل زمن الخليفة المستنصر بقوله: «لعل ذلك نمى في طاعته من ملوك مصر والشام والجزيرة، وكان يخطب له بالأندلس والبلاد البعيدة»(٢).

لقد رأينا العلاقات الخارجية تعود إلى قوتها في عهد هذا الخليفة، بصورة تشبه إلى حد ما نظيرتها في زمن جده الخليفة القوي الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ)؛ والقوة كما نعرف ميزان مهم في تطويع العلاقات الخارجية، وتوجيه دفتها، فمن خلالها تترى الأمم إلى القوي مستعصمة به، منضوية تحت لوائه؛ فإذا كان المستنصر خليفة الزمان الذي تجتمع الأمة تحت خلافته بصورة رمزية في جل الأوقات؛ إلا أنه جمع مع هذه القوة الروحية قوة مادية أرهبت القريب والبعيد، وجعلته لاعبًا مهمًا بل وأساسيًا في قواعد اللعبة العالمية في زمنه؛ ولعل مقاومته ودحره للتتار وهدوء الأوضاع في العراق وخوزستان وبقية الأقاليم الخاضعة لخلافته بل وفتحه لأقاليم جديدة وضمها له مثل إقليم إربل وأعماله قد أدخل الرهبة في قلوب المحيطين به من ملوك وأمراء الأطراف.

لكن ثمة مجموعة من القوى عاصرت خلافة المستنصر يمكن أن نحصيها في الدولة الخوارزمية المترنحة في الشرق والدولة الأيوبية في البلاد الجزرية شمال العراق والشام ومصر وهاتان القوتان لنا معهما وقفة بالتفصيل بعد قليل لتجلية طبيعة الأوضاع الداخلية فيها وعلاقتها بالخلافة العباسية؛ وإن

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٤٠٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٥٧.

كنا قد رأينا استعانة المستنصر بالأيوبيين بعد وفاة خوارزم شاه لمواجهة التتار.

لكن تبقى مجموعة من القوى الصغيرة الأخرى التي حرصت على خطب ود المستنصر والاقتراب منه مثل إمارة الموصل التي كانت قد آلت إلى الأتابك بدر الدين لؤلؤ مربي آخر الأمراء الزنكيين فيها، ثم المستولي عليها، وعلاقة المستنصر بدولة بني رسول الناشئة حديثًا والوارثة للدولة الأيوبية في اليمن هذا فضلًا عن العلاقة بسلاطين دهلي في الهند ودولة بني هود في الأندلس وبقايا المبارقة في المغرب الأوسط!

لقد كانت إمارة الموصل محكومة من قبل الزنكيين المستولين عليها منذ عام ٥١٦هـ، كان بدر الدين لؤلؤ مملوك السلطان نور الدين أرسلان شاه ابن السلطان عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، قد قرّبه وأحبه وجعله أستاذ داره، فلما مات تولى ابنه الملك القاهر محمود سنة٦١٥هـ وكان طفلًا صغيرًا، استولى لؤلؤ على الموصل ودبر أمره ثم قيل إنه قتل القاهر سنة ٦٣١هـ ومنذ ذلك التاريخ أضحت الموصل ملكًا له، وإن سمى نفسه سلطانًا سنة ٦٣٠هـ وظل أميرًا على الموصل حتى وفاته سنة ٦٥٧هـ وتولى من بعده ابنه إسماعيل الذي استولى المغول في عهده على الموصل وصارت تابعة لهم.

حرص لؤلؤ على التقرب من الخليفة المستنصر وكبار رجال دولته ومهادنته، ولذلك لما قتل الملك القاهر محمود الزنكي «وصل التقليد من الخليفة لبدر الدين لؤلؤ بالولاية فخطب له على المنابر بالسلطنة»[1].

وفي سنة ٦٣٢هـ نراه في موقف جريء للغاية يطلب من الخليفة المستنصر «تزويج ابنته بمجاهد الدين أيبك الخاص المستنصري المعروف بالدويدار الصغير»[2] وكان من كبار الأمراء المحيطين بالخليفة، وقد وافق الخليفة، وأقيم حفل كبير للصداق في بغداد. وكان لبدر الدين ابنة أخرى متزوجة من الدويدار الكبير علاء الدين ألطبرس.

وظلت العلاقة طيبة بين الخليفة المستنصر وبدر الدين لؤلؤ، والمراسلات والهدايا بينهما؛ غير أننا نجد ابن الفوطي يذكر أنه في غارة المغول على مدينة إربل سنة ٦٣٤هـ قد أمدهم فيها بدر الدين بما يحتاجونه من المؤن والطعام، وهذا موقف فيه من الخسة والدناءة ما فيه؛ وإن

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٤٩.
(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٩٩.

كان منطلقه في ذلك الخوف منهم؛ لأنهم نهبوا الموصل وحاصروها وقتلوا من أهلها مرارًا(١)!

لقد ظل وضع الخلافة العباسية وعلاقاتها الخارجية كما عليه سابقًا وازدادت أهميتها في زمن المستنصر نظرًا لما رأينا من قوته وسطوته وكونه خليفة الدنيا على الحقيقة؛ لذلك خطب أمراء وملوك الإسلام وده، وشرعنوا بقاءهم وإمارتهم على بلادهم بمباركته واعترافه.

ومن ثم تواصلت العلاقات الدبلوماسية في زمنه مع الدولة الرسولية الناشئة في اليمن وريثة الأيوبيين هناك؛ ففي سنة ٦٣١هـ(٢) أتى رسول من الأمير «نور الدين عمر بن علي بن رسول التركماني إلى الخليفة يطلب تقليد السلطنة باليمن بعد موت الملك المسعود ابن الملك الكامل وبقي الملك في بيته إلى سنة خمسة و ستين وثمانمائة»(٣).

وكذلك العلاقات الدبلوماسية مع سلاطين الهند من المماليك؛ وللمرة الأولى نرى امرأة تتسلطن هناك بسبب السياسة السيئة التي قام بها أخوها؛ ففي سنة ٦٣٥هـ «قدم بغداد الرسول من ملكة الهند بنت السلطان شمس الدين إيتامش مملوك السلطان شهاب الدين الغوري. وسبب ملكها أن أخاها ركن الدين تملك في السنة الماضية بعد والده، فلم ينهض بتدبير الرعية، وتفرقت عليه عساكره. فقبضت عليه أخته هذه، وملكت، وأطاعها الأمراء، ولقبت رضية الدنيا والدين»(٤). وقد كان من الأهمية بمكان أن تشرعن هذه الملكة سلطاتها بمباركة الخليفة العباسي المستنصر، وظلت في الملك حتى سنة ٦٣٧هـ كما يذكر زمباور(٥).

وقد راسل المستنصر الأمير محمد بن يوسف بن هود أمير سرقسطة بالأندلس حيث ضم إليه مدينة مُرسية سنة ٦٢٥هـ وخلع طاعة الموحدين وبايع الخليفة المستنصر العباسي وراسله ودعا له؛ «فوصل تقليد الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فاستنصر الناس في دعوته، وشاع ذكره،

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص١٢٨، ١٢٩.

(٢) لم تصل التشريفات والتقليد بالسلطنة في هذا العام بسبب هجوم الأعراب على الحاجّ العراقي، وإنما وصلت في العام التالي سنة ٦٣٢هـ على يد رجل اسمه معالي « كان السلطان نور الدين يومئذ في الجنَد (إحدى ولايات اليمن): فارتقى الرسول على المنبر وقال: يا نور الدين إن العزيز يقرئك السلام ويقول: قد تصدقت عليك باليمن ووليتك إياه. وألبسهُ الخلعة الشريفة الخليفية على المنبر». علي بن الحسن الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ١/ ٥٨، ٥٩.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٩٧.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٦/ ٢١.

(٥) زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٤٢٢.

وملك القواعد، وجيش الجيوش، وقهر الأعداء»[1]. ونتائج تقليد المستنصر لابن هود تبين مقدار الاحترام والتقدير الذي كان في قلوب العامة في الأندلس للخلافة العباسية، بل ومدى قوتها وشرعيتها مقارنة بالموحدين الضعفاء!

وامتدت كذلك العلاقات العباسية بدول المغرب الأوسط والأدنى وغيرها من الأقاليم الأخرى التي سعت كلها إلى التواصل والمراسلة مع الخليفة العباسي المستنصر؛ ولعل هذا الملمح «العلاقات الخارجية» وتنوعه ونشاطه في عصره يقرب لنا الصورة العامة لنهج المستنصر بالله؛ وإن ظلت هذه العلاقات في إطار غير رسمي؛ يستفيد من خلاله الآخر أكثر مما يفيد الخلافة العباسية نفسها.

بين الخليفة المستنصر والسلطان منكُبرتي

كتب جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزمشاه سلطان الدولة الخوارزمية بأفعاله الطائشة نهاية لدولة آبائه وأجداده؛ فبدلًا من توحيد الصفوف الخوارزمية لمقاومة الخطر المغولي بعد معجزة نجاته من الغرق وهروبه إلى الهند، بدلًا من ذلك نراه يتجه إلى الغرب للهجوم والإغارة على المدن والقرى الأيوبية والسلجوقية الرومية، مما حدا بهم إلى التحالف ضده، والقضاء على شوكته ومتاعبه المستمرة.

وقد تناولنا سابقًا العلاقات العباسية الخوارزمية في زمن الخليفة الناصر، ورأينا نبذة سريعة عن كيفية خروج جلال الدين منكبرتي في أواخر سنة ٦٢١هـ من الهند متجهًا إلى الشرق خوفًا من المغول، ولقد استطاع أن يكوّن دولة واسعة الأرجاء ما بين عامي ٦٢٢هـ و٦٢٧هـ تمتد من كرمان غربًا إلى الري وهمذان وأذربيجان وخوزستان في الشرق والشمال الشرقي، لكن سرعان ما جلبت اعتداءاته على المناطق الإسلامية الآمنة سخط الخلافة العباسية ثم سخط سلاجقة الروم والأيوبيين الذين هزموه وقضوا على معظم قواته في رمضان من سنة ٦٢٧هـ، ليستغل المغول هذه الهزائم المتوالية ويستولوا على معظم دولته في إيران، وبل ويتمكنوا من ملاحقته من ديار بكر إلى آمد إلى ميافارقين التي قُتل بالقرب منها على يد رجل كردي ثأر منه لمقتل أبيه وأخيه.

على أن علاقة الخليفة المستنصر العباسي بجلال الدين منكبرتي قد تحسّنت بصورة

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ٢/ ٧٥.

ملحوظة عما كانت عليه في زمن الخليفة الناصر، فقد كان علاء الدين محمد خوارزمشاه والد جلال الدين لما فشلت حملته على العراق في أواخر سنة ٦١٤هـ، أمر كثيرًا من الولايات الخاضعة له بعدم الخطبة للخلافة العباسية، ولما عاد منكبرتي من الهند واسترد معظم هذه الولايات، وشغلته الحملات العسكرية المتواصلة عن إعادة الخطبة للعباسيين، أرسل الخليفة الجديد المستنصر العباسي إلى جلال الدين منكبرتي وهو يُحاصر مدينة خِلاط في آسيا الصغرى في ذي القعدة سنة ٦٢٣هـ وكانت خاضعة للأشرف الأيوبي[1] يطلب منه عدة أمور:

أولا: إعادة الخطبة للعباسيين في الولايات التي قُطعت فيها لا سيما ولايات أذربيجان وأرّان وغيرها.

ثانيًا: أن تكون تبعية بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل وعماد الدين بهلوان بن هزارسف أمير إقليم الجبال للخليفة المستنصر العباسي وليس للدولة الخوارزمية.

وقد وافق السلطان جلال الدين منكبرتي على ذلك، وأرسل إلى الخليفة المستنصر مبعوثًا من قبله هو حاجبه بدر الدين طوطق بن أينانج خان الذي أرسل الخليفة معه الخلع والتشريفات والهدايا القيمة الغالية التي ذكرها النسوي في «سيرة السلطان منكبرتي» مفتخرًا بها، ومتعجبًا من جمالها وكثرتها[2].

ودامت المراسلات بين الجانبين كدليل على المودة والعلاقات الطيبة؛ ففي سنة ٦٢٧هـ «رجعت رسل الخليفة من عند جلال الدّين منكوبرتي ملك الخوارزميّة، وخلع على رسوله الّذي قدم معهم»[3].

ويبدو أن سُنة الناصر في سراويل الفتوة التي كان يرسلها لأمراء الأطراف كرمز للولاء والطاعة والتبعية للخلافة ظلت حتى الآن ففي نفس العام ٦٢٧هـ«سيّر جلال الدّين الخوارزميّ إلى المستنصر، وطلب منه سراويل الفتوّة ليتشرّف بذلك فسيّره إليه مع تحفٍ ونعم لا تحصى»[4].

(١) عن حصار منكبرتي لمدينة خلاط راجع: النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٢٩٩ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٤١٦. تدمري.

(٢) النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ص٣٠٤، ٣٠٥.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٣٧.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٣٨.





المستعصم بالله

(من جمادى الآخرة ٦٤٠هـ إلى صفر ٦٥٦هـ)

ولد المستعصم بالله عبد الله ابن المنصور المستنصر بالله ابن الظاهر بالله في بغداد سنة ٦٠٩هـ، وبويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه في جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ وله من العمر واحد وثلاثون سنة، وكانت هذه البيعة على رغبة من كبار رجال الدولة وهواهم!

كانت أمه أم ولد اسمها هاجر، أدركت خلافته وحجت فيها، وكان المستعصم «أسمر اللون، مسترسل اللحية، رِبعة ليس بالطويل ظاهر الحيا»(١).

تربيته وأخلاقه

نشأ المستعصم بالله كوالده المستنصر وجده الظاهر حافظًا لكتاب الله، متعلمًا على كبار أشياخ عصره في العلوم الشرعية واللغوية والنقلية بصورة عامة؛ وقد أُقيم له احتفال مهيب لما ختم القرآن الكريم وهو في سن الحادية والعشرين من عمره.

أُثر عن المستعصم حسن الخلق، وسلامة الصدر، وطيب المشرب؛ فقد «كان كريما، حليما، دينا، سليم الباطن، حسن الهيئة»(٢).

وهذه الأخلاق الطيبة يؤكدها جل المؤرخين بمن فيهم القريب من الاتجاه الشيعي كابن الطقطقى الذي يقول: «كان المستعصم رجلًا خيرًا متدينًا لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان، حمل كتاب الله تعالى، وكتب خطًا مليحًا، وكان سهل الأخلاق، وكان خفيف الوطأة»(٣).

والأمثلة على هذه الأخلاق والتربية الحسنة أكثر من أن تُحصى؛ لعل أبرزها الرحمة والرأفة؛ فقد عزم على عدم السير على طريقة من سبقه من الخلفاء في حبس أولادهم وكبار

(١) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٤.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٧٥.
(٣) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٣.

الأسرة العباسية[١]، ومنها ما نقله ابن الطقطقى عن أمين المكتبة التي كان المستعصم يأتي إليها ويقرأ فيها، قوله: «كنتُ مرة جالسًا في حجرة صغيرة وأنا أنسخ وهناك مرتبة برسم الخليفة، إذا جاء إلى هناك جلس عليها وقد بسطت عليها ملحفة لترد عنها الغبار، فجاء خويدم صغير ونام قريبًا من المرتبة المذكورة واستغرق في النوم، فتقلب حتى تلفف في تلك الملحفة المبسوطة على المرتبة، ثم تقلب حتى صارت رجلاه على المسند، قال: وأنا مشغول بالنسخ، فأحسست بوطء في الدهليز، فنظرت، فإذا هو الخليفة وهو يستدعيني بالإشارة ويخفف وطأه، فقمت إليه منزعجًا وقبلت الأرض، فقال لي: هذا الخويدم الذي قد نام حتى تلفف في هذه الملحفة وصارت رجلاه على المسند متى هجمت عليه حتى يستيقظ ويعلم أني قد شاهدته على هذه الحال تتفطر مرارته من الخوف، فأيقظه أنت برفق فإني سأخرج إلى البستان ثم أعود. قال: وخرج الخليفة فدخلت إلى الخويدم وأيقظته فانتبه ثم أصلحنا المرتبة ثم دخل الخليفة»[٢].

وكان في بعض الأوقات يحرص على قضاء حوائج العامة والرعية فقد ذكر ابن الطقطقى كذلك: «حدثني بعض أهل بغداد قال: حدثت أن الشيخ صدر الدين بن النيار شيخ الخليفة قال: دخلت مرة إلى خزانة الكتب على عادتي، وفي كمي منديل فيه رقاع كثيرة لجماعة من أرباب الحوائج، فطرحت المنديل وفيه الرقاع في موضعي، ثم قمت لبعض شأني. فلما عدت إلى الخزانة بعد ساعة حللت الرقاع من المنديل حتى أتأملها وأقدم منها المهم، فرأيتها جميعها وعليها توقيع الخليفة بالإجابة إلى جميع ما فيها، فعلمت أن الخليفة قد جاء إلى الخزانة عند قيامي فرأى المنديل وفيه الرقاع ففتحها ووقع على جميعها»[٣].

لكن مما أخذه المؤرخون عليه أنه كان «محبًا للمال وجمعه، ومن جملة ذلك أنه استحلّ الوديعة التي استودعه إياها الناصر داود ابن المعظم وكانت قيمتها نحوًا من مائة ألف دينار فاستقبح هذا من مثل الخليفة، وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا**

(١) كانوا يفعلون ذلك خشية اختلاف الأمراء والتنازع على الخلافة، والحبس هنا لا يعني السجن بمعناه التقليدي على المجرمين، وإنما إقامة شبه جبرية في بعض المنازل والقصور المهيئة لأمراء العباسيين في دار الخلافة المنطقة الحصينة بسور داخل بغداد المسوّرة بطبيعة الحال.

(٢) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٣.

(٣) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٤.



دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]»[١].

لذا هاجمه الكُتبي في «فوات الوفيات» مهاجمة ضارية حيث قال: «لو لم يكن فيه إلا ما فعله مع الملك الناصر داود في الوديعة لكفاه ذلك عارًا وشنارًا، والله لو كان الناصر من الشعراء، وقد قصده وتردد عليه على بعد المسافة، ومدحه بعدة قصائد، كان يتعين عليه أن ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته من ماله، فقد كان في أجداد المستعصم بالله من استفاد منه آحاد الشعراء أكثر من ذلك، إلى غير ذلك من الأمور التي كانت تصدر عنه، مما لا يناسب منصب الخلافة، ولم يتخلق بها الخلفاء قبله»[٢]. والكُتبي يقارنه بجده الناصر الذي أُثر عنه البخل والتعسف في جمع الأموال ومع ذلك لم يكن ليصدر منه هذه السقطة الفاحشة!

على أية حال لن نجد إنسانًا كاملا على ظهر البسيطة ولو كان خليفة المسلمين؛ وليت مصيبة المستعصم قد توقفت عند هذه العيوب التي كان من الممكن أن تتحسن مع الوقت؛ لكن مصيبته الأكبر تمثلت في أنه كان غرًّا بألاعيب السياسة، صغيرًا في فهم الشخصيات القريبة منه؛ ليته كان مثل جده الناصر الذي ظل ٤٧ عامًا متصلة استعادت الخلافة على يديه رونقها القديم الذي ارتبط بهارون الرشيد والمأمون وغيرهما، بل ليته كان مثل أبيه المستنصر الذي وصلت الجيوش العباسية في عصره إلى ١٠٠ ألف مقاتل جعلت ملوك الهند والأندلس يتسابقون لنيل وده واعترافه .. ليته!!

أول الفشل: اختيار فاسد!

إن هذه التربية الراقية التي شبّ عليها المستعصم لم يكن يعضدها أهم صفات التخلق بالإمارة والزعامة وهي الهمة والذكاء والحنكة والقدرة على الخلافة وتكاليفها، ولذلك انصب اهتمام رجال الدولة على اختياره دون غيره؛ قال اليونيني: «كان للمستنصر بالله أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشهامة والشجاعة وكان يقول: إن ملكني الله تعالى أمر الأمة لأعبرن بالعساكر نهر جيحون وأنتزع البلاد من يد التتر وأفنيهم قتلاً وأسرًا وسبيًا؛ فلما توفى المستنصر بالله لم ير الدوادار والشرابي وكانا غالبين على الأمر ولا بقية أرباب الدولة تقليده الخلافة خوفًا منه ولما يعلمون منه استقلاله بالأمر واستبداده بالتدبير دونهم وآثروا أن يليها

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨.
(٢) الكتبي: فوات الوفيات ٢/ ٢٣١.

المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الأمر إليهم فاتفق رأي أرباب الدولة على تقليد المستعصم بالله الخلافة بعد أبيه فتقلدها واستبدوا بالتدبير»[١].

والمتأمل في خلافة المستنصر يجدها مثالية إلى درجة كبيرة فقد اهتم بالبناء والتشييد والتقرب من الرعية ومجاهدة التتار والعلاقات الخارجية الممتازة وحرصه إلى حد ما أن يعلم ابنه المستعصم تربية جيدة تجعله على درجة مقبولة لتولي أعباء الخلافة.

لكن من الملاحظ أن جل المصادر التاريخية لم تذكر أن المستنصر قد عهد لولده عبد الله المستعصم بالعهد ليكون خليفة من بعده؛ وحتى اللحظة الأخيرة من حياته لم نجده يميل إلى هذا؛ ولعل هذا الفعل أو بالأحرى الاطمئنان وعدم التسرع قد يُرجح رواية المقريزي التي يؤكد فيها أن المستنصر مات إثر فصده بمبضع مسموم[٢]؛ ما يعني أن الوفاة أو القتل كان مفاجأة؛ وقد لا يُستبعد من هذه الجريمة أرباب الدولة وكبارها كإقبال الشرابي والدوادار وابن العلقمي أستاذ دار الخلافة آنئذ!

يبدو أن عملية قتل المستنصر كان الهدف من ورائها إقصاء أخيه الخفاجي الذي أُثر عنه القوة والحنكة والمهارات المطلوبة لتقلد الخلافة في ظل الظروف العصيبة التي كانت تمر بها الأمة؛ وعلى رأسها التحدي المغولي الذي كان على احتكاك وصراع مباشر بالخلافة العباسية بعد القضاء على الدولة الخوارزمية – حاجز الفصل بينهما – منذ مقتل جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٨هـ كما مر بنا.

واللافت أن المؤرخ العصامي (ت١١١١هـ) يذكر أن الخفاجي هذا أخو المستعصم وليس عمه[٣]، ولم أجد من المصادر الأخرى ما يؤيد هذا؛ اللهم إلا ما ذكر الإربلي وابن الفوطي – كدأبه في ذكر أولاد الخلفاء العباسيين – من أن المستنصر لم يكن له إلا ولدان هما عبد الله المستعصم وأبو القاسم عبد العزيز وأن إشارات المؤرخين التي تشير على سبيل الحصر أن للمستنصر أخا واحدا يقال له الخفاجي غير صحيحة؛ لأنه كان له ستة إخوة ذكور غيره ذكرهم الإربلي في خلاصة الذهب هم «أبو عبد الله العباس وأبو الفضل سُليمان وأبو

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/ ٢٥٥.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٤١٥.

(٣) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٣/ ٥١٦.

القاسم علي وأبو المظفر الحسن وأبو هاشم يوسف وأبو الفتوح حبيب»[١] كلهم أبناء الخليفة الظاهر (ت٦٢٣هـ)، ولا تنطبق إشارة الحصر التي تفهم على سبيل العموم من كلام المؤرخين إلا على عبد العزيز الأخ الوحيد للخليفة المستعصم وقد يكون هو الخفاجي الذي أشار إليه العصامي، وقد لا يكون عمه فعلا؛ فقد كان من الطبيعي أن تئول الخلافة لأحد الولدين في ظل وجود الإخوة؛ فاختار أرباب الدولة المستعصم عبد الله على عبد العزيز «الخفاجي»؛ كل هذا على سبيل الاحتمال.

قال العصامي: «كان للمستنصر ابنان: أحدهما يسمى بالخفاجي، كان شديد الرأس، شديد الرأي، شجاعًا صعب المراس، والثاني هذا المستعصم، وكان هينًا لينًا، ضعيف الرأي، فاختاره الأمير شرابي على أخيه الخفاجي؛ ليستبدّ هو بالأمر، ويستقل بأحوال الملك؛ فإنه لا يخشاه كما يخشى من أخيه الخفاجي. فلما توفي المستنصر أخفى الأمير إقبال موته نحوًا من عشرين يومًا، حتى دبر الولاية للمستعصم، وبويع له بالخلافة، ففر أخوه الخفاجي إلى العربان وتلاشى أمره»[٢]. وإن كان الأمر ليس على سبيل اليقين كما بيّنا؛ وكما أكدت على ذلك مصادر تاريخية جمة[٣].

ومن الملاحظ أيضًا أن الأسرة العباسية وعلى رأسها إخوة المستنصر بالله وأحد أعمامه الباقين لم يبايعوا المستعصم بالله وهذا ما ذكره الإربلي بقوله: «استدعي أحد أعمامه وهو أبو الفتوح حبيب وأُوهم أن جماعة إخوته حضروا وبايعوه فلما حضر لم يرهم فبايع وعاد إلى داره بالفردوس ثم طُلب الباقون للمبايعة فامتنعوا ... وأما أعمامه وكذا عم أبيه المتمنعون من الحضور والمبايعة فأُشير باستدامة غلق باب الفردوس الذي يحتوي على دورهم بحيث لا يدخل إليهم طعام ولا غيره فبقوا على ذلك ثلاثة أيام، فسألوا المبايعة وأُحضروا فبايعوا»[٤].

وهذا النص الذي ذكره الإربلي في غاية الأهمية إذ يبين لنا أن المستعصم لم يكن مرغوبًا فيه من الأسرة العباسية ذاتها لوهنه وضعفه أو لأنه لم يكن الابن الأكبر للمستنصر؛ ومن ثم

---

(١) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٠.

(٢) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٣/ ٥١٦.

(٣) منها سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام للذهبي، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، وذيل مرآة الزمان لليونيني، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي.

(٤) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٤، ٢١٥.

لعل الأخ الآخر عبد العزيز كان هو الأكبر والموسوم بالخفاجي!

وأيًا ما كان هذا الخفاجي – الذي لم أستطع الوصول إلى ترجمته – سواء أكان أخًا للمستعصم أم عمه؛ فقد أُزيح عن الخلافة وهرب إلى عرب العراق الذين أووه وظل مختفيًا بينهم حتى اجتياح المغول لبغداد سنة ٦٥٦هـ.

وقد لخص مشهدَ وفاة المستنصر والبيعة للمستعصم الذهبيُ في «تاريخ الإسلام» بقوله: «كتم يومئذٍ (العاشر من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ) موت المستنصر فخطبوا له يومئذٍ، فحضر شرف الدين إقبال الشرابي ومعه جمعٌ من الخدم إلى التاج الشريف، وحضروا بين يدي ولده أبي أحمد عبد الله، فسلم عليه إقبال بإمرة المؤمنين، واستدعاه إلى سدة الخلافة، ثم عرف الوزير، وأستاذ الدار ذلك، واستكتماه إلى الليل. ثم استُدعي الوزير وهو عاجزٌ في محفةٍ، وأحضر أيضًا مؤيد الدين محمد ابن العلقمي أستاذ دار الخلافة، فمثلا بين يدي السّدة فقبّلا الأرض وهنآه بالخلافة، وعزياه بالمستنصر وبايعاه. وأحضر جماعة من الأسرة الشريفة من أعمامه وأولاد الخلفاء، ثم خرج الوزير وسلم إلى الزعماء والولاة محال بغداد، وأمر أن لا يركب أحد من الأمراء من داره. وفي بكرة السبت رأى الناس أبواب الخلافة مغلقةً، وجلس عبد اللطيف بن عبد الوهاب الواعظ وأخبر بوفاة الخليفة وجلوس ولده المستعصم بالله ثم لما ارتفع النهار، استدعي الأعيان للبيعة وجلس الوزير لعجزه، ودونه بمرقاة[(١)] أستاذ الدار، وكان يأخذ البيعة على الناس، وصورتها: أبايع سيدنا ومولانا أمير المؤمنين على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيه الشريف وأن لا خليفة للمسلمين سواه. فبايع الناس على درجاتهم. ثم أُسبلت الستارة وبايع من الغد الأمراء الصغار والمماليك الميامين، ثم بايع في اليوم الثالث من تبقى من الأمراء والتجار وبياض الناس. ثم جلس الملأ للعزاء بالمستنصر ثم أنشد الشعراء وعزوا بالمستنصر، وهنأوا بالمستعصم. ثم برزت مطالعةٌ على يد إقبال الشرابي في كيسٍ، وبسمل الخدم بين يديها، فقرأها الوزير، ثم قرأها أستاذ الدار على الناس قائمًا خلاصتها التأسي والتسلي والوعد بالعدل والإحسان»[(٢)].

---

(١) المرقاة: الرتبة والدرجة، والمعنى أن أستاذ الدار جلس في موضع أدنى من الوزير بحسب الرسوم والبروتوكولات وقتها.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٦/ ٤٥٥، ٤٥٦.

فلا يشك متتبع لسير هذه الطريقة في إخفاء وفاة المستنصر ومبايعة المستعصم بهذه السرية والهيئة، أنه إنما أُريد تولية هذا الضعيف.

لقد كانت هذه البداية غير مبشرة للخلافة العباسية بصورة عامة؛ بل لعلها السبب الأكبر في انهيارها بالكلية؛ وإن النظر تحت الأقدام من شيم أولي الشهوات وأصحاب المصالح الخاصة والعقول الضيقة وإن كانوا أصحاب أخلاق وتعلق بشرع الله بل لو كانوا من الشجعان المغاوير كقائد الجيوش العباسية إقبال الشرابي الذي كان وآخرون معه السبب في البيعة للمستعصم؛ وإن المركب التي يقودها أكثر من ربان وقائد لا شط لها، ولا قرار إلا القاع!!

سياسة بلا معالم!

كان من الطبيعي مع خليفة بهذه المواصفات السيئة أن تصبح سياسته بلا معالم، وجملة «سياسة بلا معالم» هي أفضل ما يمكن أن نطلقه على المستعصم بل على كل زعيم ارتضى لنفسه الانبطاح والخذلان والتبعية، أو عاش في دور الديكتاتور المتسلط؛ فإذا اعتبرنا أن نخبة هذا العصر تتمثل في الأسرة العباسية والعلماء فإنهم في مجملهم كانوا يريدون الخفاجي خليفة للمسلمين لما رأوا منه القوة والأمانة وطيب الخُلق؛ لكن آفة الخلافة الإسلامية في كثير من الأوقات أنها اتخذت بطانة من أصحاب المصالح، وحاشية من أهل الشهوات، الذين يدوسون على الخلق والرعية في سبيل مطامعهم وأحلامهم، لتصبح هذه العادة سنة جارية في نهر التاريخ، فلمن أراد التعلم والعبرة، أو أراد أن تصبح أمته حاملة الراية من جديد؛ عليه أن يرتضي أهل الكفاءة والأمانة والقوة فهي المعايير التي اتفق عليها علماء الإسلام منذ القدم.

لقد ازدادت حالة العراق الداخلية سوءًا في زمن المستعصم؛ ففضلا عن كونه ساذجًا في أمور الحكم والرعية كان تسلط أعوانه عليه، وطمعهم فيه، وعملهم على الاستئثار بالسلطة دونه السبب في التنازع والشقاق ومن ثم السقوط في الهاوية في نهاية الأمر، ومن هنا كان استهتار العامة بالحكومة وكثرة الفتن، وتفشي القلاقل، فضلا عن بخل المستعصم وجمعه للأموال من العوامل الأساسية لهذا الانهيار!

فعلى صعيد التنازع بين كبار رجال الدولة؛ ظهرت عند موت الخليفة المستنصر والد الخليفة المستعصم قوى نظامه في ثوب التآمر، وكان أبرز رجاله الأمير الكبير إقبال الشرابي

قائد الجيوش العباسية منذ عام ٦٢٦هـ وقد توفي سنة ٦٥٣هـ، والدوادار الصغير مجاهد الدين أيبك وكان من كبار أمراء الجيش العباسي يرأس فرقة مكونة من ١٠ آلاف جندي وقتله هولاكو لما استولى على بغداد سنة ٦٥٦هـ، وأستاذ دار الخلافة أي القائم على مدينة الحكم والخلافة مؤيد الدين بن العلقمي (ت٦٥٦هـ) والذي أصبح وزيرًا للمستعصم منذ عام ٦٤٢هـ.

هؤلاء الثلاثة اتفقوا فيما بينهم على البيعة للمستعصم ليتمكن كل منهم من الاستئثار بالسلطة لنفسه؛ لكن ذلك كان له الأثر السيئ فيما بينهم كذلك، إذ كان سببًا في العداوة والمكر والتنازع وهو ما ظهر أثره على الخليفة والخلافة كلها؛ منذ بداية تعيين ابن العلقمي وزيرًا سنة ٦٤٢هـ.

يبدو أن مجاهد الدين أيبك كان يتمنى أن يكون وزيرًا للخليفة المستعصم؛ فضلا عن ذلك رأى أن ابن العلقمي بدأ ينافسه في التقرب من الخليفة بل تطورت العلاقة إلى أن أصبح ابن العلقمي محببًا من الخليفة وكاتم أسراره الأمر الذي دفع مجاهد الدين لإبعاد ابن العلقمي بكل ما أوتي من قوة، ورأى أن خير طريقة هي إرهابه، وقد سلك لهذا الغرض طريقًا غير شريف إذ جمع حوله كثيرًا من اللصوص والعيارين وأخذ يهدد أمن العاصمة، ولما أعيته الحيل أخذ يدبر لخلع الخليفة نفسه؛ وإقامة آخر مكانه؛ غير أن ابن العلقمي كان فطنًا لهذه المحاولات اليائسة من مجاهد الدين؛ فأعلم الخليفة بها وطلب منه أن يقضي على مدبرها.

لكن الخليفة انصاع للأقوى فيهما مجاهد الدين أيبك، بل استدعاه وأخبره بما نقله إليه ابن العلقمي، وأكد له أن ثقته منوطة به، بل كتب له مرسومًا يجدد له الثقة فيه، وأن كل ما قاله عنه ابن العلقمي كذب وخداع، بل أكثر من ذلك أمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة وتخلى بمنتهى السهولة عن ابن العلقمي[١]!

وكان لتقريب مجاهد الدين أكبر الأثر في حنق ابن العلقمي على الخليفة والخلافة كلها، لأن مخططه للسيطرة على الخلافة ولنشر التشيع في العاصمة بدا أنه سقط من على ارتفاع شاهق، وإن ظل برغم ذلك قريبًا منه، مدبرا للمكائد مدة ١٤ عامًا متوالية؛ ولنا وقفة معه بعد قليل.

---

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١٣٣، ١٣٤.



وقد كان لهذا النزاع الذي استمر أعوامًا طويلة، والبلاهة التي امتاز بها المستعصم الأثر الكبير على إضعاف قوام الجيش وقوته ومعداته، فرغم القوة التي كان قد وصل لها الجيش في العدد والعتاد في خلافة المستنصر والتي ظهرت جلية حتى الأعوام الأولى لخلافة ولده المستعصم والتي انتصر فيها الجيش العباسي في بعقوبا شمال بغداد على التتار سنة ٦٤٣هـ[١] إلا أن هذا الوضع قد تغير إلى الأسوأ مع الشح وسوء التقدير اللذين وصف بهما الخليفة الأخير، للدرجة التي وبّخ هولاكو – عند احتلاله بغداد – المستعصم بسببها؛ فقد ذكر بعض المؤرخين أن المستعصم حينما وقع في الأسر ومُنع عنه الطعام وشعر بالجوع أمر هولاكو أن يُقدم إليه الكنوز؛ فقال له: إن الكنوز لا تُزيل جوعًا، فرد عليه هولاكو بقوله: «إذا كانت الكنوز لا تسد الرمق، وإذا كانت لا تحفظ الحياة؛ فلماذا لم تعطها لجنودك ليحموك أو إلى جنودي ليُسالموك»[٢].

وأيًا ما كان صحة هذا الحوار المنقول بين المستعصم وهولاكو فإن عدد الجيش العباسي قد تقلص بالفعل، قال أبو الفداء في «المختصر في أخبار البشر»: «كان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل إقطاعاتهم، وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس»[٣].

ولا شك أن إستراتيجية تقليل عدد الجيش توفيرًا للأموال، ولحمل جزء منها إلى التتار كان من مشورات ابن العلقمي التي وجدت بلا شك هوى عند المستعصم المحب للمال كما رأينا؛ بل يؤيد ذلك قول الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك: «لو مكنني أمير المؤمنين المستعصم، لقهرت التتار، ولشغلت هولاكو بنفسه»[٤]. الذي يبدو منه بلا شك أن المستعصم كان عازفًا عن سماع نصيحة قادة جيوشه، غير آبه لهم، بل يأمرهم بلزوم أماكنهم وعدم مجاهدة التتار. ولا شك أن هذه كارثة في القيادة بكل تأكيد، ولذلك لا نستغرب الوصف المتكرر في تراجم المؤرخين والباحثين عنه والتي تصفه كلها بالخليفة «ضعيف الرأي»!

قال ابن الفوطي: «كان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم وأسقط أكثرهم من

---

(١) الدياربكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ٢/ ٣٧٢.

(٢) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١٣٥.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٤.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٢/ ٣٧١.

دساتير ديوان العرض، فآلت أحوالهم إلى سؤال الناس، وبذل وجوههم في الطلب في الأسواق والجوامع، ونظم الشعراء في ذلك الأشعار فمما قاله المجد النشّابي[١] من قصيدة جاء فيها:

يا سائلي ولمحض الحقّ يرتاد	أصخ فعندي نشدان وإنشاد
أما الوزير فمشغول بعنبره	والعارضان فنسّاج ومدّاد
وحاجبُ الباب طورًا شاربٌ ثملٌ	وتارة هو جنكي وعوّادُ
وشيخ الإسلام صدر الدين همّته	مقصورة لحُطام المال يصطادُ
وا ضيعة الملك والدّين الحنيف وما	تلقاه من حادثات الدّهر بغدادُ
أين المنية مني كي تُساورني	فللمنية إصدار وإيرادُ
هتك وقتل وأحداث يشيب بها	رأس الوليد وتعذيب وأصفاد[٢]

كل هذا صاحبه سوء الخدمات واضطراب الأمن في العاصمة، للدرجة التي غرقت فيها العاصمة في جمادى الأولى سنة ٦٥٤هـ، وكان هذا الغرق سببًا في سوء الأوضاع الاجتماعية بل وتدمير العتاد الحربي الذي كان في الخزائن آنذاك، يقول اليونيني: «أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أسوار بغداد إلى البلد وغرق كثير من البلد ودخل الماء دار الخليفة وسط البلد وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون دارًا، وانهدم مخزن الخليفة وهلك من السلاح شيء كثير وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد وتتخرق أزقة بغداد»[٣].

مع هذا الخراب الذي لحق بالعاصمة ومؤنها وعتادها، تجددت المناوشات بين السنة والشيعة وقد وصلت إلى أعلى ذروتها في سنة ٦٥٥هـ أدى لتدخل الخلافة – وهذه من المرات القليلة التي تتخلى فيها عن حيادها – إلى توجيه ضربة قاسية لحي الكرخ الشيعي، يقول أبو الفداء في تاريخه: «جرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد، على جاري عادتهم، فأمر أبو بكر ابن

---

(١) هو مجد الدين أسعد بن إبراهيم بن الحسن الكاتب الإربلي ولد سنة ٥٨١هـ استوطن بغداد وكان أحد شعراء الديوان، كان مقدامًا على الهجو والسب، كثير التعرّض بأرباب الدولة، سلم من وقعة المغول سنة ٦٥٦هـ لكنه توفي في آخر السنة نفسها. الحوادث الجامعة هامش ص٣٥٠.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٥٠، ٣٥١.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/ ٨.

الخليفة وركنُ الدين الدوادار العسكرَ، فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء، وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد»[١].

باختصار لا نرى أفضل من وصف الدكتور الصلابي لشخصية المستعصم وسياسته التي يقول فيها: «كان الضعف القيادي في شخصية المستعصم من الأسباب والمقدمات في زوال الدولة العباسية، لم يحسن اختيار الوزراء، وليست له قدرة على المتابعة والمحاسبة وكان يقاد ولا يقود، وكان سلوكه هذا سببًا لجرأة بعضهم عليه واستغفاله وتحديه فازدادت الفتن في زمانه وازداد التذمر وازداد تدهور الحياة الاقتصادية وانتشار الغلاء وسيطر اللصوص والشطار العيارون ينهبون ويسلبون أمام الشرطة وصاحبها أو بالتواطؤ معه، والخليفة لا يحاسب صاحب الشرطة ولا يحاسب الوزير الذي هيمن على جميع الأمور في البلاد وولاياتها التي انفصلت واستقلت، والوزير ابن العلقمي يمهد للانقلاب، حتى يسهل تمرير المؤامرة لإزالة السيادة الإسلامية، وإسقاط الخلافة، لقد غابت القيادة الحكيمة الربانية والتي تحدث عنها المولى عز وجل في كتابه وبين صفاتها وأخلاقها لكي تعمل الأمة على إيجادها، ولكن الأمة تركت حقها في الاختيار، وتأثرت مع الزمن والوقت بمعاول هدم روح المبادرة، والمحاسبة والمتابعة والوقوف ضد أخطاء الحكام، وأصبح الخليفة محميًا بقداسة وهمية صنعت لهذا المنصب مع مرور الزمن، والابتعاد عن روح الشريعة ومقاصدها الغراء»[٢].

المستعصم وعلاقاته الخارجية

ظلت الخلافة في عهد الخليفة المستعصم محتفظة بما كان لها من علاقات طيبة مع الدول الإسلامية وبما كان لها في نفوس المسلمين من احترام وقدسية، غير أنه وقد ضاقت رقعة العالم الإسلامي بعد زوال دولة السلاجقة في فارس والدولة الخوارزمية، انحصرت علاقات الخلافة وأصبحنا لا نكاد نعثر في ثنايا الكتب على غير ما كان بين الخليفة المستعصم والأيوبيين ثم ما كان بينه وبين المماليك الذين خلفوهم على عرش مصر بعد مقتل السلطان الأيوبي تورانشاه بن نجم الدين أيوب سنة ٦٤٨هـ.

على الجانب الآخر كان الإسماعيلية الباطنية قد عادوا إلى معاداة العالم الإسلامي بعد

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٣.

(٢) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص٢١٢.

وفاة الخليفة الداهية الناصر لدين الله الذي استطاع تحجيمهم بل وضمان ولائهم له، كما أن دولة سلاجقة الروم كانت قد خضعت بشكل مباشر للسيطرة المغولية، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لا يجرؤ على السير في طريق غير طريق المغول.

إذن كان على الخليفة الضعيف أن يسعى للأيوبيين المشرذمين ليوحدهم ويقوي جبهتهم ليتمكنوا من مساعدة الخلافة في أشد الأوقات صعوبة، لاسيما أن المغول لم يتوقفوا عن المناوشات العسكرية منذ خلافة أبيه المستنصر، ولذلك لا يُستبعد أن تكون هذه الأسباب هي التي حرّكت عزمه ويقوم بعدة محاولات للتوفيق بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام من جهة وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم الملك المعز أيبك من جهة أخرى.

أرسل المستعصم سنة ٦٤٦هـ الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائي لعقد الصلح بين الملك الناصر يوسف، وكان في ذلك الوقت صاحب حلب فقط، وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب على أثر استيلاء الناصر على حمص من صاحبها الأشرف ثم سيّر الصالح نجم الدين أيوب من مصر إلى دمشق وإرساله الجيوش لمحاصرة حمص واستردادها من الملك الناصر، ونجح الرسول في مهمته وتقرر الصلح(١).

كما أن الخليفة أرسل رسوله هذا سنة ٦٥٠هـ إلى مصر للإصلاح بين الملك المعز أيبك والملك الناصر يوسف وكان في ذلك الوقت صاحب حلب ودمشق، وكان سبب النزاع أن الملك الأيوبي الناصر يوسف اجتمع بأمراء بني أيوب واتجه إلى مصر للاستيلاء عليها بعد مقتل تورانشاه بن أيوب سنة ٦٤٨هـ، لكن المماليك بقيادة أيبك انتصروا عليه وردوه إلى الشام خائبًا، وبالفعل نجح الرسول في إقرار الصلح بين الجانبين سنة ٦٥١هـ(٢).

وأرسل الخليفة نفس الرسول الذي اتسم بالحكمة وإنجاز المهام مرة ثالثة سنة ٦٥٤هـ لتجديد الصلح بين الملك الناصر والملك المعز على أثر ما كان من تسيير الناصر العساكر سنة ٦٥٣هـ، ومعهم بعض المماليك البحرية الذين تركوا مصر بعدما قتل أيبك منافسه الأمير أقطاي خوفًا من ازدياد نفوذه سنة ٦٥٢هـ، ونجح الرسول أيضًا كعادته في عقد الصلح(٣).

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٤٣٤.
(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٤٧٥.
(٣) المقريزي: السلوك ١/ ٤٨٩.



ويرجع نجاح الخليفة المستعصم في محاولته التوفيق بين مصر والشام في ذلك الوقت إلى أن الأيوبيين سواء في مصر أو في الشام كانوا يسيرون على طريقة من سبقوهم من حيث احترام الخليفة العباسي وتلقي الخلع منه، وفعل كذلك المماليك عندما آل الحكمُ إليهم؛ فقد بعث الخليفة المستعصم سنة ٦٤٢هـ جمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين بن الجوزي إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ومعه الخلع التي كانت تتكون من «عمامة سوداء وجبة وطوق ذهب وفرس بمركوب بحلية ذهب فنصب المنبر وصعد عليه جمال الدّين عبد الرَّحمن محيي الدّين بن الجوزيّ الرَّسول وقرأ التَّقليد بالدهليز السلطاني والسُّلطان قائم على قدميه حتَّى فرغ من القراءة ثمَّ ركب السُّلطان بالتشريف الخليفتي فكان يومًا مشهودًا»[1].

ولم ينس الصالح أيوب ذلك للخليفة المستعصم فلما حضرته الوفاة سنة ٦٤٧هـ لم يعهد إلى أحد بالملك ، وقال: «إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله، ليرى فيها رأيه، فإنه كان يعرف ما في ولده المعظم تورانشاه من الهوج»[2].

ولم يحِد المماليك عن طريق احترام الخلافة العباسية والإخلاص لها في ذلك العهد، فلما قتلوا الملك المعظّم تورانشاه سنة ٦٤٨هـ وتركوا جثّته في المنصورة على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يدفنوه شفع فيه رسول الخليفة وقبلوا شفاعته ودفنوه.

على أن انصياع المماليك للمستعصم ظهر في أجلى صوره عندما تولت شجرة الدر ملك مصر في بداية عام ٦٤٨هـ بعد مقتل الملك المعظّم تورانشاه، وهي كما هو مشهور جارية الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم يرض عن عملهم الخليفة المستعصم الذي أرسل إليهم كتابًا جاء فيه: «إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه، فقولوا لنا نرسل إليكم رجلًا»[3]. فقبلوا نصيحته وعزلوا شجرة الدر عن الحكم وعيّنوا عز الدين أيبك التركماني الملك ولقّبوه الملك المعز وذلك في أواخر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ.

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد بل إنهم في يوم الأحد ٦ جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـ نادوا في القاهرة ومصر بأن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن الملك المعز أيبك نائبه بها.

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٤٢٥.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٤٤٣.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/ ٣٦.

وفي سنة ٦٥٤ عندما أتم الشيخ نجم الدين البادرائي رسول الخليفة تجديد الصلح بين الملك المعز والملك الناصر يوسف صاحب الشام، أرسل الملك المعز بصحبته الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولًا إلى الخليفة ببغداد يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر.

على أن الخليفة المستعصم إذا كان قد نجح في وضع نفسه في موضع الحكم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك المعز أيبك، وإذا كان قد نجح أيضًا في الاحتفاظ للخلافة بالاحترام في مصر والشام وجعل حكامها يلتمسون خلع الخلافة وتقاليدها، فإن نجاحه لم يكن عظيمًا لأن الملك الناصر يوسف لم يكن قويًا بقوة المماليك(١).

الاجتياح المغولي الكبير وسقوط الخلافة العباسية!

ظل المستعصم كدأبه غارقًا في لهوه وعبثه، غير مبال بما يحيق بالخلافة التي كانت قد انحصرت في بغداد وما يجاورها، من خطر التتار القريبين جدا منه، يقول ابن الطقطقى في «الفخري»: «في آخر أيّامه قويت الأراجيف(٢) بوصول عسكر المغول صحبة السّلطان هولاكو فلم يحرّك ذلك منه عزما، ولا نبه منه همّة، ولا أحدث عنده همّا، وكان كلّما سُمع عن السّلطان (هولاكو) من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضه من التّفرط والإهمال، ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك، ولا يعرف هذه الدّولة- يسّر الله إحسانها وأعلى شأنها(٣)- حقّ المعرفة ... وما زالت غفلة الخليفة تنمي ويقظة الجانب الآخر تتضاعف، حتّى وصل العسكر السلطاني إلى همذان وأقام بها مُديدة، ثمّ تواترت الرّسل السّلطانيّة إلى الدّيوان المستعصميّ، فوقع التعيين من ديوان الخليفة على ولد أستاذ الدّار، وهو شرف الدين عبد الله بن الجوزيّ، فبعث رسولا إلى خدمة الدّركاه(٤) السلطانيّة بهمذان، فلمّا وصل وسمع جوابه علم أنه جواب مغالطة ومدافعة، فحينئذ وقع الشّروع في قصد بغداد

---

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١٤٣- ١٤٦.

(٢) الشائعات.

(٣) سنرى بعد قليل كيف أن ابن الطقطقى معجب بدولة التتار بل ومدافع قوي عن ابن العلقمي!

(٤) يقصد القصر المغولي في همذان.



وبثّ العساكر إليها»(١).

ومهما يكن من رسالة ابن الجوزي فإننا على الجانب الآخر نرى أبا الفداء الأيوبي (ت٧٣٢هـ) يؤكد أن اتصالات سرية تمت بين ابن العلقمي والمغول شجعهم فيها على غزو العراق، قال: «أرسل ابن العلقمي إلى التتر أخاه، يستدعيهم، فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم»(٢).

ولقد رأينا أن المغول في أيام جنكيزخان وابنه أجطاي وحفيده كيوك قد تمكنوا من نشر نفوذهم فيما وراء النهر وخوارزم وخراسان وفارس وهمذان والري وأذربيجان وبلاد الكرج وأرمينية في القوقاز، كما اعترف بسيادتهم سلطان الروم السلاجقة في الأناضول بل ووصل نفوذهم إلى شمال الشام، ولم يبق خارجًا عن دائرة نفوذهم في غرب آسيا إلا بلاد الإسماعيلية الباطنية في قوهستان والعباسيون في العراق.

لكن مع ارتقاء مُنكوخان بن تولي سنة ٦٥٠هـ - بعد أن وضع حدًا للنزاع بين بيتي خغطاي وأجطاي، وبعد أن ثبت مركزه وقتل أحفاد أجطاي الذين دبروا المؤامرة ضده – أخذ يعيد المجد المغولي القديم، ويُحيي الحماس في نفوس قومه؛ فأعد العدة لإرسال حملتين؛ إحداهما إلى الصين والأخرى إلى فارس والعراق.

وما يهمنا هي حملة الغرب التي قضت على الخلافة العباسية بالكلية بعد ذلك؛ فقد أسندها الخان الأعظم مُنكو إلى أخيه هولاكو وعنى بها عناية فائقة وذلك منذ سنة ٦٥١هـ؛ والأدلة على ذلك كثيرة منها أنه وضع تحت تصرف هولاكو جيشين كبيرين كلاهما حقق نجاحات قوية؛ فالأول كان قد أرسله إلى إيران. والثاني إلى كشمير وهندستان. كما أمده بألف من الرجال ذوي الخبرة في آلات إدارة الحرب وقاذفات النفط وكانوا قد أُحضروا من بلاد الخطا مما وراء النهر لهذه المهمة، وقد كانت بعض هذه الآلات عبارة عن جاذبات أقواس ميكانيكية تدور بعجلات ويمكنها أن تقذف ثلاثة أقواس في وقت واحد، وكل قوس منها يرمي سهامًا يبلغ طول الواحد منها ثلاث أو أربع أذرع. وعين فرقة خاصة من الأسرة الحاكمة ذاتها لحماية هولاكو في مهمته تلك، ثم لم يُهمل في الوقت ذاته تموين الجيش؛ فخصص

(١) ابن الطقطى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٤، ٣٣٥.
(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٤.

لكل جندي كل ما يحتاجه من المأكل والمشرب[1].

ومن ثم لم يكن أمام المغول بعد استيلائهم على أملاك الدولة الخوارزمية بالكلية سنة ٦٢٨هـ أي قوة تستطيع اعتراض طريقهم نحو الغرب وكان الحكام المسلمون يعرفون تمام المعرفة أهمية الدولة الخوارزمية، كحاجز قوي بينهم وبين المغول، لكن سقوطها فتح الباب واسعًا لمزيد من توسعات المغول، ومن ثم حرص منكو خان على إعداد حملة هولاكو إعدادًا محكمًا يكفل لها النجاح كما ذكرنا، ثم رسم لأخيه الخطة التي كان عليه أن يتبعها حيث قال له: إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها فينبغي أن تسير من توران إلى إيران وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزئيات وخص كل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرب القلاع والحصون، فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقًا، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظًا عاقلًا، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم، وأما الولاية الخربة، فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة، وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشئون.

وخرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول في سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م وفي طريقه لقي مساعدة كاملة من أمراء المغول الذين أعدوا له المأكل والمشرب في جميع المراحل وحرصوا على أن ينظفوا الطريق التي تقرر أن يسلكها الجيش المغولي من الحجارة والأشواك، كما أعدوا السفن له لعبور الأنهار الكبيرة، كما قام الأمراء والنبلاء في تلك النواحي بحشد أعداد كبيرة من الجند للانضمام إلى جيش هولاكو، وفي شهر شعبان سنة ٦٥٣هـ وصل جيش هولاكو إلى سمرقند، وأمضى بها أربعين يومًا ثم توجه إلى مدينة كش، وهناك وصله كافة الأمراء والأكابر في خراسان وقدموا خضوعهم وهداياهم له وأقام بهذه

---

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٤٨.

المدينة قرابة شهر وجه خلالها عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة طلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم، وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولايتهم ولا يتعرض لهم بسوء، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الهلاك وأنه سينزل بهم ما ينزل بالإسماعيلية(١).

القضاء على الإسماعيلية الباطنية

إذن لم يبق فاصلا بين المغول والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس، وهو على قدر من الأهمية وإن كان ضيقًا، إذ كانت تستوطن منطقة قوهستان طائفة الإسماعيلية الباطنية الخطرة، وكانوا أهل حرب وقتال، ولهم قلاع وحصون، فضلًا عن طبيعة المكان الجبلية، وكانوا على خلاف دائم مع المذهب السني وكراهية شديدة له وكانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيرًا، فمرة يراسلون التتار ومرة الصليبيين، وكان المغول يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم، وما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض(٢).

لماذا نشأت الحركة الباطنية؟

لقد كان ظهور طائفة الإسماعيلية على يد مؤسسها الحسن بن الصباح الإسماعيلي واستيلائهم على قلعة أَلَموت في بلاد فارس وبالتحديد في جنوب غرب بحر قزوين منذ عام ٤٨٣هـ عاملًا كبيرًا من عوامل القضاء على السلاجقة وإضعاف العباسيين فضلا عن مناوشاتها التي استمرت مع الزنكيين والأيوبيين والخوارزميين، ثم الغارات الكبيرة التي كانت تقوم بها هذه المجموعات على المناطق المحيطة بها والتي كان يسكنها على الأغلب السكان المسلمون السنة.

وطائفة الباطنية، هي طائفة إسماعيلية نزارية مشرقية، انفصلت عن الفاطميين في القرن الخامس الهجري لتدعو إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله ومن جاء مِن نسله، وكانت معاقلهم الأساسية في بلاد فارس وأيضًا في شمال الشام بعد أن هاجر إليها بعضهم من إيران(٣).

---

(١) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص١٨٠.

(٢) مصطفى بدر: محنة الإسلام نقلا عن تاريخ كمبريدج للعصور الوسطى ص١٥١.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/ ٣٢٣.

تمكن قائدها الحسن الصباح من الاستيلاء على قلعة ألموت والجبال المتاخمة لها وانتشروا في عدة مناطق من خوزستان وهضبة الديلم ومازندران، قزوين، رودبار، لاماسار وقوهستان.. واحتلوا الكثير من القلاع وامتدوا إلى نهر جيحون.

ولد الحسن بن الصباح بالري عام ٤٣٠ هـ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه ولد في قُم معقل الشيعة الاثنى عشرية حيث نشأ في بيئة شيعية اثني عشرية ثم انتقلت عائلته إلى الري مركز نشاطات طائفة الإسماعيلية فاتخذ الطريقة الإسماعيلية الفاطمية وعمره ١٧ سنة، وفي عام ٤٧١ هـ ذهب إلى مصر التي كان يحكمها المستنصر بالله الفاطمي، وعاد بعد ذلك لينشر الدعوة في فارس.

استمر ابن الصباح في قراءة كتب الإسماعيلية، وبعد ذلك لقى معلما إسماعيليًا آخر، فلقنه التعاليم الإسماعيلية حتى اقتنع، ولم يبق أمامه سوى أداء يمين الولاء للإمام الفاطمى. لكنه أدى تلك اليمين أمام داعٍ إسماعيلى نائب عن عبد الملك بن عطاش كبير الدعاة الإسماعيليين في غرب إيران والعراق، وفى عام ٤٦٤هـ وصل عبد الملك بن عطاش لمدينة الرى، فلقيه حسن الصباح، ثم وافق على انضمامه، وحدد له مهمة معينة في الدعوة، وطلب منه السفر إلى مصر لكي يسجل اسمه في بلاط الخليفة الفاطمى بالقاهرة(١).

وخرج الحسن بناء على ذلك، إلى مدينة إصفهان فى سنة ٤٦٧هـ فأقام بها سنتين يشتغل بالدعوة وكيلا لابن العطاش، ثم خرج منها إلى مصر مجتازا طريق أذربيجان، ميافارقين، الموصل، سنجار، الرحبة، دمشق، صيدا، صور، عكا، ثم ركب البحر إلى مصر فوصلها فى الثلاثين من أغسطس سنة ٤٧١هـ، واستقبله داعى الدعاة «أبو داؤود» استقبالا حافلا شاركه فيه جماعة من النبلاء والأعيان، وسرعان ما شمله المستنصر برضاه وأغدق عليه نعمه، ولكنه مع ذلك لم يتمكن من المثول بين يديه ورؤيته رأى العين، وإن كان قد أقام بالقاهرة ثمانية عشر شهرا كاملا، وكثرت دسائس «المستعلى» وأعوانه وخاصة قائد الجيش «بدر» للحسن بن الصباح، فاضطر إلى مغادرة مصر وركب السفينة من الإسكندرية فى شهر رجب سنة ٤٧٢هـ، فما كادت تخرج به حتى تحطمت بالقرب من شواطئ الشام، فأنقذوه ورجع إلى بلاده مجتازا طريق حلب وبغداد وخوزستان، ووصل فى النهاية إلى أصفهان فى ذى الحجة سنة ٤٧٣هـ.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٤/ ٤١١. تدمري.

ومن ذلك الوقت أخذ يدعو لنزار- أكبر أولاد المستنصر- وشملت دعوته يزد وكرمان وطبرستان ودامغان وولايات أخرى من إيران لم يدخل فى عدادها مدينة الرى، لأنه كان يتجنبها اتقاء لشر الوزير نظام الملك الطوسي الذى كان يتحرق إلى القبض عليه، كما دلت على ذلك أوامره التى أصدرها إلى زوج ابنته «أبى مسلم» حاكم هذه المدينة، كما تؤكد على ذلك روايات كل من «تاريخ كزيدة» و«جامع التواريخ»(١).

انتشار الدعوة الإسماعيلية

تنقل الصباح داخل إيران مستكشفا لها لمدة تسع سنوات، حتى بدأ دعوته في إقليم الديلم ومازندران وقد كان لها بعض النجاح، وقد كان يتفادى المدن في تنقلاته ويفضل أن ينتقل عبر الصحراء، حتى استقر في دامغان(٢) وحولها قاعدة له يبعث منها الدعاة إلى المناطق الجبلية لجذب السكان من هناك، واستمر بذلك لمدة ٣ سنوات حتى انكشف أمره وأمر الوزير نظام الملك باعتقاله، ولكنه فلت وهرب إلى قزوين(٣).

لم يكن كل هم حسن الصباح في تنقلاته هو نشر دعوته وكسب الأنصار فحسب، بل أيضًا للعثور على مكان مناسب يحميه من مطاردة السلاجقة ويحوله إلى قاعدة لنشر دعاته وأفكاره، وقد عزف عن المدن لانكشافها، لذا لم يجد أفضل من قلعة ألموت المنيعة. فهي حصن قديم فوق صخرة عالية وسط الجبال على ارتفاع ٦٠٠٠ آلاف متر أو يزيد وبنيت بطريقة كي لا يكون لها إلا طريق واحد يصل إليهاً مما يصعب على الغزاة اقتحام هذه الطريق الوعرة.

لم يعرف على وجه الدقة أول من بنى هذه القلعة، ويقال أن من بناها هو أحد ملوك الديلم القدماء وأسماها (ألوه أموت) ومعناها عش النسر، ثم جددها حاكم علوي محلي سنة ٢٤٦هـ، وبقيت في أيدي عقبهِ حتى دخلها الإسماعيلية بقيادة ابن الصباح في ٧ رجب سنة ٤٨٣ هـ فطرد الحاكم منها، وقد روى ابن الأثير قصة دخولهم القلعة بقوله: «إن الحسن الصباح كان يطوف على الأقوام يضلهم فلما رأى قلعة ألموت واختبر أهل تلك النواحي، أقام

(١) راجع: براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي ص٢٤٩.
(٢) دامغان: مدينة كبيرة بين الري ونيسابور وكانت عاصمة منطقة قومس. البغدادي: مراصد الإطلاع ٢/ ٥١٠. وهي الآن مدينة إيرانية كبيرة في محافظة سمنان شمال إيران.
(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي ص٢٤٩.

عندهم وطمع في إغوائهم ودعاهم في السر وأظهر الزهد ولبس المسح فتبعه أكثرهم والعلوي صاحب القلعة حسن الظن فيه يجلس إليه يتبرك به، فلما أحكم الحسن أمره دخل يومًا على العلوي بالقلعة فقال له ابن الصباح: اخرج من هذه القلعة فتبسم العلوي وظنه يمزح فأمر ابن الصباح بعض أصحابه بإخراج العلوي فأخرجوه إلى دامغان وأعطاه ماله وملك القلعة»[١]. وقيل إنه اشتراها منه بـ ٣٠٠٠ دينار ذهب.

بقي ابن الصبّاح في هذه القلعة بقية حياته ولم يخرج منها مدة ٣٥ سنة حتى وفاته. حيث كان جل وقته يقضيه في القراءة ومراسلة الدعاة وتجهيز الخطط. وكان همّه كسب أنصار جدد والسيطرة على قلاع أخرى. لذلك استمر بإرسال الدعاة إلى القرى المحيطة برودبار[٢] المجاورة، ويرسل المليشيات لأخذ القلاع عن طريق الخدع الدعائية، وإن فشلوا لجأوا إلى الطرق الدموية والمجازر، ولذلك تمكن ابن الصباح من الاستيلاء على قلعة لمبسر عن طريق هجمات مليشياته عليها ما بين عامي ٤٨٩هـ و٤٩٥هـ بقيادة عامله «كيا بزرجميد» وحكمها عشرين عاما، وقد كانت قلعة استراتيجية مهمة وقائمة على صخرة مدورة تطل على شاه رود[٣]، وعن طريقها تمكن من الاستيلاء على كل منطقة رودبار.

وفي سنة ٤٨٤هـ بعث ابن الصباح دعاته إلى منطقة قوهستان الجبلية على الحدود الحالية بين إيران وأفغانستان، وكانت تلك المنطقة في بداية الإسلام يعيش فيها المجوس الزرادشتيين ومن ثم أضحت معقلاً للشيعة وغيرهم من المنشقين الدينيين، ومن ثم استطاع أن يضم سكان تلك المنطقة عن طريق استغلال حالة التذمر التي كانت هناك ضد السلاجقة فصارت تابعة للإسماعيليين[٤].

على أن أهل أبهر لم يتحملوا هجمات الإسماعيلية فأرسلوا استغاثة إلى السلطان السلجوقي بركيارق كانت السبب في إرساله فرقة عسكرية لمحاصرتها، واستمر الحصار ثمانية أشهر، وتمكّن من الاستيلاء عليها منهم سنة ٤٨٩هـ وتم قتل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٥٢. تدمري.

(٢) رودبار: قرية تقع في غرب إقليم قوهستان. مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب ص١٤٢. وهي الآن قرية كبيرة تتبع مدينة خمير في محافظة هرمزكان في جنوب إيران.

(٣) أحد الأنهار في الجنوب الوسط من إيران.

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢١٤.



من كان بها من الإسماعيلية عن آخرهم[١].

السياسة الدموية

كان العام ٤٨٥هـ البداية الحقيقية لمواجهة السلاجقة لابن الصباح، حيث بعث السلطان ملكشاه حملتين، واحدة على قلعة ألموت، والثانية على قوهستان لكن الفرق العسكرية الإسماعيلية المدرّبة تصدت للسلاجقة وبمساعدة الأهالي المتعاطفين معهم في روذبار وقزوين فانسحبت القوات من قوهستان بعد وفاة السلطان ملكشاه في شوال من نفس العام.

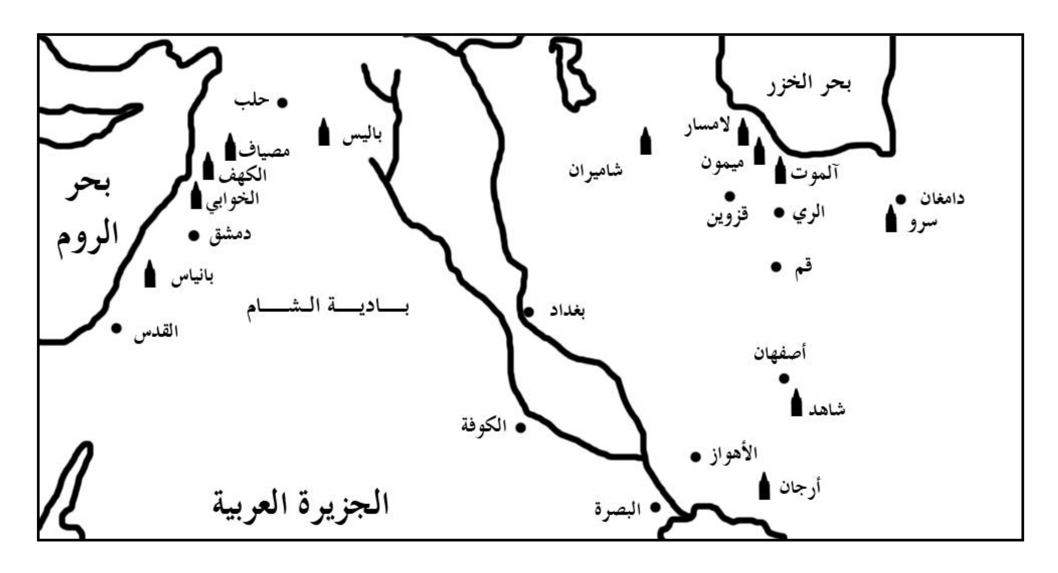
استطاع ابن الصباح أن يضرب ضربته الكبرى باغتيال الوزير نظام الملك بعد عدة أسابيع من وفاة السلطان ملكشاه من نفس العام ٤٨٥هـ، وقد كان اغتيال نظام الملك من أوائل عمليات الاغتيال الكبرى التي قام بها الحشاشون، بل كانت بداية لسلسلة طويلة من الاغتيالات التي قاموا بها ضد ملوك وأمراء وقادة جيوش ورجال دين، استمرت حتى احتل هولاكو قلعة ألموت وقضى على فتنتهم بالشرق والتي استمرت حوالي القرنين من الزمان[٢].

توفي ابن الصباح عام ٥١٨ هـ في الألَموت، واختلفت المصادر عن مصير ذريته (المصادر الغربية وبعض العربية تذكر أنه قتل أولاده في حياته) إلا أن المصادر كلها أجمعت على أنه مات من غير جناية. وخلفه بزرك أميد (برزجميد)، وكلف آخرين بشئون الدعوة والإدارة وقيادة القوات، وطلب منهم التعاون مع بعضهم حتى ظهور الإمام المستتر بحسب العقيدة الإسماعيلية[٣].

وبالرغم من وفاة ابن الصباح استمرت الصراعات المسلحة بين الإسماعيلية الباطنية والسلاجقة وتوسعت مناطقهم وتمكن الفدائيون الباطنية من الاستيلاء على قلاع جديدة لكن السلاجقة استطاعوا احتواءهم عام ٥٠٠ هـ عندما استولى السلطان محمد على قلعة شاه دُز بالقرب من أصبهان وقتل عددًا كبيرًا منهم من ضمنهم ابن العطاش كبير دعاتهم في إيران وولده، ولكن لم يتمكنوا من القضاء عليهم أو يستولوا على قلعة ألموت.

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٣.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٤/ ٣١.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٦٩٦.



الباطنية في الشام

كان أول ظهور للحشاشين في بلاد الشام سنة ٤٩٨ هـ عندما أرسل الحسن بن الصباح داعيتهم ليفسد ما بين الأخوين دقاق حاكم دمشق ورضوان حاكم حلب ابني تُتش السلجوقي، فتحالف مع رضوان واستماله إلى نحلتهم، وأقام دارا للدعوة الإسماعيلية في حلب، ولكن بعد هلاك رضوان فتك خلفه ألب أرسلان الأخرس بهم وقتل مقدمهم أبا طاهر الصائغ، وقتل أعيانهم وحبس الباقين، وهرب آخرون قاصدين بلاد الإفرنج.

ثم اشتد نفوذهم ثانية أيام داعيتهم بهرام وعظم أمره، ثم انتقل إلى دمشق ودعا إلى مذهبه، وأظهر شخصيته، وأعانه على ذلك وزير طغتكين أبو طاهر المزدقاني، لكن غضب أهل دمشق جعله يهرب منها ويطلب من طغتكين حصنا يأوي إليه هو وأتباعه، فأشار عليه المزدقاني بتسليمه قلعة بانياس غربي دمشق، فاستلمها وجمع فيها أصحابه، حتى استفحل خطره في بلاد الشام، فأفاق طغتكين على ذلك ولكن توفي قبل أن يصلح ما قام به، وعندما خلفه ابنه تاج الملك بوري على حكم دمشق، أفرط المزدقاني في حماية الباطنية، حتى عرض على الصليبيين تسليمهم دمشق مقابل إعطائه هو والباطنيين مدينة صور بدلا عنها، وحدد أحد أيام الجُمع لتنفيذ الاتفاق؛ كي يسهل فتح أبواب المدينة للصليبيي بسهولة[1].

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ص٢٨٧.

لكن تم كشف المؤامرة قبل موعدها، فقتل السلطان بوري وزيره الخائن وأحرق جثته وعلق رأسه على باب القلعة ونادى بقتل الباطنية، واستمر أهل دمشق يذبحونهم في منتصف رمضان ٥٢٣هـ حتى قتل منهم ستة آلاف شخص، وعند ذلك استنجد داعيتهم إسماعيل العجمي بالصليبيين ليحموه هو وأصحابه مقابل تسليمه قلعة بانياس لهم[١].

وقد ظهر لهم عدد من القادة في بلاد الشام أمثال بهرام الاسترابادي وأشهرهم شيخ الجبل سنان بن سليمان بن محمود، وقد تناولنا الحديث عنهم في دولة آل بوري سابقًا.

استعصم الإسماعيلية في قلاعهم، ولم تثنهم الأحداث السياسية عن المهام التي جعلوها لأنفسهم، بل لم يستطع السلاجقة والخوارزميون من بعدهم أن يقضوا بالكلية عليهم بالرغم من المحاولات المتكررة والجادة لاستئصال شأفتهم.

وبالرغم من الاجتياح المغولي الأول للمشرق الإسلامي منذ العام ٦١٦هـ فإن الإسماعيلية استطاعوا أن يوثّقوا العلاقات بينهم وبين المغول، وقد ورد في بعض المصادر أن الإسماعيلية هم الذين دعوا جنكيزخان إلى القضاء على جلال الدين خوارزمشاه بعد رجوعه من الهند لما لحقهم على يديه من العنت؛ غير أنهم لما رأوا مطامع المغول لا تتوقف عند حد معين وأن فتوحاتهم مستمرة في الصين وأوربا وخراسان وإيران وآسيا الصغرى، خافوا خطرهم وعوّلوا على محاربتهم، وأخذوا يطلبون العون من الصليبيين الذين تعاونوا معهم منذ الحروب الصليبية ضد السلاجقة والزنكيين والأيوبيين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنهم حاولوا عمل اتحاد من جميع الإمارات المجاورة لهم لصد خطرهم المشترك، لكن كان السيف قد سبق العذل[٢]!

وهناك روايات أخرى تؤكد أن المسلمين الذين كانوا يخضعون في قزوين والري وأصفهان وغيرها لسلطان المغول أرسلوا يطلبون منهم النجدة للقضاء على هؤلاء المجرمين من الإسماعيلية، وقف المغول على أحوال الإسماعيلية وكراهية الناس لهم، ورغم إيفاد الإسماعيلية بعض رسلهم إلى قراقورم عاصمة المغول لمباركة كيوك على اختياره خانا جديدًا للمغول سنة ٦٤٩هـ فإنهم لم يلقوا معاملة حسنة. وكان الناس قد أرسلوا للمغول يُشيرون

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ٣٥٣، ٣٥٤.
(٢) مصطفى بدر: محنة الإسلام نقلا عن تاريخ كمبريدج للعصور الوسطى ص١٥١.

عليهم إلى أن تلك الطائفة تخالف ديانات المسيحية والإسلام والمغول البوذية(١).

لكن عبثًا حاول ركن الدين خورشاه آخر أمراء الإسماعيلية أن يتجنب المغول من خلال الاعتصام في قلعة ميمون الحصينة، ولم يسع هولاكو إلا أن يبعث إليه برسالة يطلب منه القدوم إليه والخضوع له وهدده إن رفض هذا الأمر. فأعلن طاعته وإذعانه في شوال سنة ٦٥٤هـ واستسلمت قلعة ألموت في ذي القعدة من نفس العام بعد قتال لم يطل(٢).

وبعد أن كفل هولاكو حياته، أراد ركن الدين التوجه إلى مونكو خان، لعله يحصل على معاملة وشروط حسنة فرفض مونكو مقابلته. وإذ لم يبق من القلاع الإسماعيلية إلا اثنتان لم تستسلما للمغول بعد، تقرر الاستعانة بخورشاه في تدبير أمر إذعانهما؛ وفي أثناء عودته تم قتله مع جميع رفاقه. وصدرت الأوامر لهولاكو بالتخلص نهائيا من الحشاشين، فتم قتل أعداد كبيرة من أقارب خورشاه، بينما تقرر جمع عدد كبير من الإسماعيلية لإحصاء عددهم، فتم قتلهم جميعا، ولم ينج إلا من اعتصم بجبال فارس(٣).

بعد القضاء على آخر عدو في بلاد فارس وهم الإسماعيلية وبعد تحييد قوة الأيوبيين بسبب انشغالهم في صراعاتهم الداخلية فضلا عن صراعهم مع المماليك ثم بفضل سيطرة المغول على شمال الشام، وبعد السيطرة على سلاجقة الروم الضعيفة أصلا في الشمال والموالية لهم، لم يتبق أمام المغول إلا الغاية الكبرى التي كانت قد استقرت كهدف استراتيجي لهم منذ هجومهم الأول على العالم الإسلامي في عام ٦١٦هـ وهي اجتياح العراق الذي فشل أكثر من مرة لوجود جيش عباسي قوي زمن الخليفة المستنصر، لكن الآن وفي ظل الضعف والهزال الذي تعاني منه بغداد عسكريًا واجتماعيًا بدا أن الطريق إلى سقوط بغداد أسهل من ذي قبل!

مراسلات عديمة الجدوى!

مرَّ سقوط بغداد على يد المغول بمرحلتين: الأولى مرحلة المراسلات بين الجانبين وفشلها. والثانية الاقتحام العسكري.

فأما المرحلة الأولى التي تمثَّلت في المكاتبات والمراسلات بين هولاكو والخليفة

---

(١) السيد الباز العريني: المغول ص٢١١، ٢١٢. (مكتبة النهضة العربية – بيروت، ١٩٨٦م).

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٦٥.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٦٦.

المستعصم، فقد بدأت منذ القضاء على الإسماعيلية في نهاية عام ٦٥٤هـ، وبعد انتقال هولاكو بجيشه من قزوين إلى همذان.

وبعد إعداد العدة في همذان وصحرائها، وفي ٩ ربيع الآخر سنة ٦٥٥هـ وصل هولاكو إلى دينور قاصدًا بغداد، ومن هناك رجع إلى همذان مرة أخرى في ١٢ رجب من السنة ذاتها، وفي ١٠ رمضان أرسل رسولًا إلى الخليفة مزودًا بالتهديد والوعيد(١).

لقد كان هولاكو حانقًا على الخليفة المستعصم لأنه لم يمده بالمساعدة والعون للقضاء على عدو مشترك كالإسماعيلية، أو حتى لإظهار خضوعه واعترافه بسيادة المغول، ولم يشأ هولاكو أن يخالف وصية أخيه الأكبر خان المغول التي أمره فيها ألا يعتدي على الخليفة العباسي طالما خضع له، لكن المستعصم لم يشغله ما حدث بين المغول والإسماعيلية من حروب، ولم يملك المبادرة لتحقيق المصلحة التي تستوجبها اللحظة الفارقة تلك، قال ابن العبري: «وكان (هولاكو) في أيام محاصرته قلاع الملاحدة (الإسماعيلية) قد سيّر رسولا إلى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدة فأراد أن يسيّر ولم يقدر ولم يمكّنه الوزراء والأمراء وقالوا: إن هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجا إلى نجدتنا وإنما غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة»(٢).

واللافت أن الخليفة كان مشتت الانتباه بين كبار رجال دولته خاصة رأي الوزير ابن العلقمي وقائد الجيش مجاهد الدين أيبك وأمير علم الخليفة وحرسه الخاص سليمان شاه بن برجم.

وبعد انتصار هولاكو أرسل إلى الخليفة يقرعه ويوبخه بسبب عدم انصياعه لما أمره به من إرسال الجنود والعتاد لمعاونته؛ فأشار ابن العلقمي بإرسال هدايا قيمة لعلها تهدئ من غضب هولاكو، وقد عزم الخليفة بالفعل على إرسال هدية فخمة «وعندما أخذوا في تجهيز ما يسيّرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال قال الدويدار الصغير وأصحابه: إن الوزير إنما يدبّر شأن نفسه مع التتار وهو يروم تسليمنا إليهم فلا نمكنه من ذلك. فبطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة

(١) عبّاس العزّاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ١/ ١٥٥.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٦٩.

واقتصر على شيء نزر لا قدر له»[1].

ومع ذلك منّى الخليفة نفسه بعلاقات طيبة مع المغول فبعدما تقاعس عن أداء الهدايا لهولاكو «قال: لا خوف من المستقبل؛ لأن بيني وبين هولاكوخان وأخيه منكو قآن روابط ودية، ومحبة صميمية لا عداوة ونفرة، وحيث إني أحبهم فلا شك أنهم يحبونني ويميلون إليّ، وأحسب أن الرسل قد بلّغوني عنهم كذبًا، وإذا ظهر خلاف فلا خشية منه؛ لأن كل الملوك والسلاطين على وجه الأرض بمنزلة جنود لنا، فهم مطيعون ومنقادون فلا خوف من تهديد المغول ووعيدهم، ولو أنهم ممتنعون بقوة وشوكة.. فهم بالنسبة للعباسيين لا أهمية لهم»[2].

هكذا كان الخليفة الحالم المتخم بغيابات الوهم، الجاهل بأربعين سنة ماضية قتل فيها المغول عشرات الآلاف من رعايا الدولة الإسلامية في شرق العالم الإسلامي!!

لقد اشتاط هولاكو غضبًا من هذا الفعل المتدني الذي لا يليق به، فأرسل مرة أخرى يقول: «لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مددًا من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام، ما حل بالمعلم والعالمين على يد الجيش المغولي، منذ عهد جنكيز خان إلى اليوم، والذي حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكية وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقًا في وجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة وملكًا لهم، فكيف يغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟ ولقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك احذر الحقد والخصام..»[3].

وشرط عليه قائلا: «لا بدّ من مجيئه (أي المستعصم) هو بنفسه أو يسيّر أحد ثلاثة نفر: إما الوزير وإما الدويدار وإما سليمانشاه». وبالفعل طلب الخليفة منهم «المضيّ فلم يركنوا إلى قوله فسيّر غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محيي الدين فلم يجديا عنه..»[4]. ويظهر من رفض

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٠.

(٢) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ١/ ١٦٠ نقلا عن جامع التواريخ للهمذاني.

(٣) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار، نقلا عن جامع التواريخ ص١٩١.

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٠.

الثلاثة الكبار للذهاب إلى هولاكو مدى ضعف ووهن المستعصم وقلة هيبته بين كبار رجال دولته.

ويبدو أن رسالة شرف الدين بن الجوزي لم تكن إلا مزيدًا من سكب البنزين على النار، فبدلًا من تهدئة خاطر هولاكو والإذعان ولو الظاهري له، أرسل يقول: «إن ملايين من الخيالة والرجالة على استعداد للحرب رهن إشارتي حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر»(١).

وكان مما جاء فيها أيضًا: «أيها الشاب الحدث ... المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطًا ومتغلبًا على جميع العالم مغترًا في يومين من الإقبال، متوهمًا أن أمره قضاء مبرم، وأمر محكم، لماذا تطلب مني شيئًا لن تجده؟ ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب وأنه من الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي. إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءًا بالقلق والاضطراب»(٢).

لكن هولاكو لم يهتم بهذا العبث الذي يعلم حقيقته جيدًا من ابن العلقمي ومن تاريخ الغارات المغولية على شمال العراق، حتى إن إحداها وصلت على مقربة من العاصمة بغداد زمن المستنصر القوي، وقد أرسل للمستعصم قائلًا: «إنك تركت نهج آبائك فاستعد للحرب، وانتظر جيشًا قويًا، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتصرت عليه»(٣)!

هنا أرسل الخليفة في محاولة يائسة وأخيرة رسولين هما بدر الدين ديريكي قاضي منطقة البندنيجين شرقي بغداد الذي حاول أن يُثني من عزم هولاكو، حيث قال له: «إن كل من حاول فتح بغداد فشل ورجع بالخيبة، ويضرب له الأمثال بيعقوب بن الليث الصفار الذي سار لفتحها ولكنه مات، وأخيه عمرو الذي أراد ما أراد أخوه ولكنه وقع أسيرًا في يد أحد الولاة وأُرسل إلى بغداد أسيرًا ليلقى جزاءه، والبساسيري الذي أقام الخطبة للخليفة الفاطمي

---

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٥٩.
(٢) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار، نقلا عن جامع التواريخ ص١٩٢.
(٣) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٥٩.



المستنصر ولكن طغرلبك السلجوقي قضى عليه، والسلطان محمد السلجوقي الذي تقدم لغزو بغداد ولكنه عاد هاربًا ومات في الطريق، والسلطان محمد خوارزمشاه الذي سار لهذا الغرض، ولكن البرد اشتد عليه، ونزل الثلج على جيشه واضطر للتقهقر بعد أن مات كثير من جنوده ثم لم يلبث أن مات هو نفسه في إحدى الجزر النائية في بحر قزوين»[١]. لكن كل ذلك لم يُثن هولاكو عن عزمه، وبدأ في وضع خطته العسكرية وتقسيم جيشه للهجوم على العاصمة.

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٥٩، ١٦٠. رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ ١/ ٢٧٥، ٢٧٦.



لكن يبدو أن ثمة محاولة يائسة أراد أن يقوم بها سليمان شاه لمحاولة جمع قوة الجيش العباسي مرة أخرى، وطلب من ابن العلقمي أن يطلب من الخليفة المال اللازم لتجهيز جيش قوي يدفع به خطر هؤلاء الغزاة، لكن الخليفة الشحيح ما كان ليجيب هذا القائد النجيب، ولعل ابن العلقمي منعه من ذلك كما سنرى بعد قليل(١).

خطة هولاكو واستراتيجيته العسكرية

يمكن أن نقسم استراتيجية القضاء على الخلافة العباسية وسقوط بغداد على يد هولاكو إلى ثلاث مراحل:

الأولى: تأمين الطريق إلى بغداد.

الثانية: التوقيت المناسب باستطلاع رأي المنجمين والفلكيين على عادة ملوك ذلك العصر.

الثالثة: وضع الخطة العسكرية وتنفيذها.

لقد رأى هولاكو بحنكته العسكرية أن يستولي على الجهات الواقعة في طريقه إلى بغداد ليؤمن طريق عودته إذا فشلت حملته في اقتحامها، ولذلك أرسل إلى أمراء المناطق الشرقية لمحاولة استمالتهم له، لكنهم آثروا البقاء تحت طاعة الخليفة المستعصم الأمر الذي جر عليهم حربًا شرسة، جعلت هولاكو يستدعي قادته المحنكين وجيوشًا كثيفة من إيران الوسطى لمحاربتهم والانتصار عليهم، وكذلك كانت استراتيجية هولاكو قبل الدخول في أرض العراق أن يُثير أحقاد الأقليات على الخلافة وهو ما نجح فيه مع جماعات لا بأس بها من المسيحيين والشيعة الذين كانوا قد نالهم ضرر بالغ من اقتحام ابن الخليفة أبي بكر وقائد جيوشه مجاهد الدين لحي الكرخ وسحق الاضطرابات التي وقعت فيه سنة ٦٥٥هـ(٢).

كانت الخطوة الثانية استطلاع رأي الفلكيين، فإنه من اللافت أن طليعة جيش هولاكو كانت من النخبة المثقفة من كل الأجناس وعلى رأسها مسلمون من السنة والشيعة على السواء، لقد كان نصير الدين الطوسي الفلكي والفيلسوف الشهير على رأس الحملة

---

(١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ ١/ ٧١٣.
(٢) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٦٠.

العسكرية التي قضت على بغداد، بل كان كاتب رسائل هولاكو إلى ملوك وأمراء المسلمين بمن فيهم الخليفة، وكان في الحملة أيضًا فلكي سني اسمه حسام الدين كان خان المغول قد أرسله في خدمة هولاكو.

بدأ هولاكو في استشارة منجمه حسام الدين الذي حرص أن يُثني هولاكو عن عزمه بقصد بغداد فراح يؤكد له أن هذه الحملة تحدث خللا في نظام الكون، فضلًا على أنها سوف تكون وبالًا على الخان نفسه، فكان مما قاله له: الحقيقة أن كل ملكٍ تجاسر -حتى هذه اللحظة- على قصد الخلافة والزحف بالجيش على بغداد لم يبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الملك أن يستمع إلى نصائحي، وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ست مصائب كبيرة: تموت الخيول كلها، ويمرض الجنود، ولن تطلع الشمس، ولن ينمو النبات في الأرض، ولن ينزل المطر، وتهب رياح شديدة، ويعاني العالم من الزلازل، ويموت الخان الأعظم في هذا العام»[1].

لكن هولاكو استدعى نصير الدين الطوسي وهو الشيعي المتعصب الذي عُرف عنه حقده على العباسيين؛ فلقد نقض كل ما قاله حسام الدين، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو، ولم يقف عند هذا الحد، بل يؤيد وجهة نظره بالحجج القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين، فذكر أن الكثيرين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ماتوا في الدفاع عن الدين، ومع ذلك لم تقع أية كارثة، وإذا قيل إن ذلك خاص ببني العباس، فإن الكثير من الناس قد خرجوا على هذه الأسرة وقتلوا منهم بعض الخلفاء، دون أن يحدث أي خلل، وأخذ نصير الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين، وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[2].

أما على الجانب الآخر؛ فإن المستعصم رغم موافقته للقائدين العسكريين الكبيرين مجاهد الدين الدوادار وسليمان شاه على المقاومة وصد هذه الهجمة المغولية؛ فإنه لم يقم بما يجب عليه لصد هذا الخطر الكبير، ولم يكن يملك عزمًا على الإنفاق والاستعداد اللازم؛ فإنه بعد أن أمر وزيره ابن العلقمي بجمع الجند وبعد أن نفذ الوزير أمره بعد مراوغة استمرت خمسة أشهر عاد فنكص على عقبيه ولم يوزّع عليهم شيئًا من المال، وعاودته طبيعة البخل المتحكمة فيه،

(١) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص١٩٣، نقلا عن جامع التواريخ للهمذاني.
(٢) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٦١.

فضلا عن الدعة وحب الراحة والاستمتاع باللهو، «وكان إذا نُبّه على ما ينبغي أن يفعله في أمر التتار: إما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق فكان يقول: أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا أيضا يهجمون عليّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي. فهذه الخيالات الفاسدة وأمثالها عدلت به عن الصواب فأصيب بمكاره لم تخطر بباله»[١].

عزم هولاكو على المسير إلى بغداد وقسّم جيشه إلى فرقتين كبيرتين، «فأمر بايجو نوين وسونجاق نوين ليتوجّها في مقدمته على طريق إربل وتوجه هو على طريق حلوان»[٢].

وكانت خطة هولاكو ترمي إلى جعل بغداد محاطة بجيوش المغول من الجهتين الشرقية والغربية، فكان خط سير رئيس الفرقة الأولى بايجو نوين ومن معه الانتقال من همذان إلى الموصل عن طريق إربل ويعبرون جسر الموصل ويكونون في وقت حددوه سلفًا معسكرين في الجانب الغربي من بغداد. وجزء آخر من نفس الفرقة وعلى رأسها قائد يدعى كتبغا نويان ينتقل من لورستان وخوزستان وكان هو الجناح الأيسر.

أما هولاكو فأراد أن يطوّق بغداد من الجانب الشرقي فانتقل من همذان إلى حلوان ومنها إلى كرمانشاهان على مقربة من قوات الخليفة التي تمركزت بين بعقوبا وباجسرا شمال شرقي بغداد. كانت هذه الأحداث في نهاية شهر ذي الحجة لعام ٦٥٥هـ[٣].

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٥٥.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٠.
(٣) الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ ١/ ٢٨٢، ٢٨٣.

كان الجيش العباسي في هذه الأثناء ضعيفًا مفككًا لا يقوى على هذه الأعداد التي قال عنها ابن الفوطي: «جيش لا يُحصى عدده، ولا ينفد مدده»[١]. ولم يكن يعلم خطة التطويق التي أقرّها هولاكو، ومع ذلك خرج قائد الجيش العباسي مجاهد الدين أيبك إلى بعقوبا شمال شرقي العاصمة ليكون في مقابلة جيش هولاكو وصدّه.

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٥٥.

لكن هولاكو أراد أن يحدث فتنة في صفوف القوات العباسية باستمالة العنصر الغالب فيها وهم الأتراك إليه من خلال الأتراك الذين كانوا في جيشه، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل، ثم اتخذ حيلة أخرى لكسب الوقت تمثلت في مراسلة الخليفة للقدوم إليه مع كبار قادته وباءت أيضًا هذه المحاولة بالفشل، ومن ثم لم يكن أمامه إلا أن يبدأ في تنفيذ الخطة العسكرية القاضية باقتحام بغداد من الجهتين الغربية والشرقية.

وهنا استدعى هولاكو قادة الجيش الثاني الذي كان متجهًا للتمركز غرب بغداد وأمرهم بالإسراع في تنفيذ الخطة، ويبدو أن هذا الاستدعاء كان الغرض منه أن يعرف الجيش العباسي المتمركز في الشرق والحائل دون وصول هولاكو لمحاصرة بغداد.

وبالفعل نجحت خدعة هولاكو فقد علمت قوات الخلافة العباسية بمهاجمة القوات المغولية للعاصمة من ناحية الغرب فتحركت على الفور من مركزها وعبرت نهر دجلة لتصدها وبذلك تركت هولاكو وجيشه في الشرق حرًا طليقًا حتى وصل شاطئ نهر حلوان في ٩ ذي الحجة سنة ٦٥٥هـ ثم عسكر في خانقين حتى يوم ٢٢ من نفس الشهر ثم واصل سيره حتى عسكر شرقي بغداد في ١١ من المحرم سنة ٦٥٦هـ أي بعد عام تقريبا من بدء تحركه من همذان[1].

وقد وصف ابن العبري هذه الخدعة بقوله: «خرج الدويدار من بغداد ونزل بجانب بعقوبا (بعقوبا على مسافة ١٦ كم شمال شرقي بغداد) ولما بلغه أن بايجو نوين عبر دجلة ونزل بالجانب الغربي ظن أن هولاكو قد نزل هناك فرحل عن يعقوبا ونزل بحيال بايجو»[2]. وهذا إن دل فيدل على ضعف الاستطلاعات العباسية وعدم جهوزيتها للدرجة التي لا تعرف معها أن جيشًا كبيرًا مقدرًا بثلاثين ألف جندي قد تحرك من جهة الشرق إلى الغرب أم لا!

ولما أُخلي الجانب الشرقي من العاصمة وبات الطريق مفتوحًا أمام هولاكو استطاعت الشرطة المغولية أن تعتقل أحد قادة الجيش العباسي «يقال له أيبك الحلبي فحملوه إلى هولاكو فأمّنه إن تكلّم بالصحيح وطيّب قلبه فصار يسير أمام العسكر ويهديهم. وكتب كتابا إلى بعض أصحابه يقول لهم: ارحموا أرواحكم واطلبوا الأمان لأنه لا طاقة لكم بهذه الجيوش الكثيفة.

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٦٧.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٠.

فأجابوه بكتاب يقولون فيه: من يكون هولاكو؟ وما قدرته ببيت عباس من الله ملكهم؟ ولا يفلح من يعاندهم ولو أراد هولاكو الصلح لما داس أرض الخليفة ولما أفسد فيها. والآن إن كان يختار المصالحة فليعد إلى همذان ونحن نتوسل بالدويدار ليخضع لأمير المؤمنين متخشعا في هذا الأمر لعلّه يعفو عن هفوة هولاكو. فلما عرض أيبك الكتاب على هولاكو ضحك واستدلّ به على غباوتهم»[١].

والحق أن هذه الحوادث السابقة تدلل بوضوح على المستوى العسكري والتوعوي المزري الذي وصل له تفكير الحاشية العباسية آنئذ، فلا هي قادرة بدقة على معرفة إن كان الجيش الأول المغولي المتمركز في شرق العاصمة وهو مقدّر بالآلاف قد تحرك من موضعه إلى الغرب أم لا بل وتصدق أنه تحرك بالفعل، ولا هي قادرة على استيعاب النصيحة التي أرسلها هذا القائد المأسور لهم، حيث تقابل القدرة المغولية العسكرية الهائلة بخطاب تافه مليء بالخيال وعدم استيعاب الخطر المحدق ولكنه دليل لا غبار عليه على حجم الكارثة الإدراكية التي وصل لها العقل الجمعي وقتئذٍ!

على كل استطاع هولاكو أن يصل إلى الجانب الشرقي، وفي المقابل كانت عساكر الجيش الثاني بقيادة بايجو نوين قد بذلت مجهودًا جبارًا في الوصول إلى الموصل ثم العودة مرة أخرى لهولاكو كما مرّ بنا ثم الاتجاه صوب بغداد الغربية؛ فلقد أسرعت هذه العساكر في مقابلة هولاكو في المكان المسمى طاق كسرى[٢] ثم تلقت أوامره ثم عادت مرة أخرى شطر بغداد الغربية، وعبرت نهر دجلة عند تكريت على جسر من القوارب أقامته في ٢٤ ساعة بعدما قطع أهل تكريت الجسر الذي أقامه بدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل للمغول كي يسهل عبورهم إلى الجهة الغربية من دجلة، وسارت قوات بايجو نوين وعسكرت على شاطئ نهر عيسى بعد أن استراحت من العناء الذي لاقته، وطلب أحد القادة المغول واسمه سنجاك من بايجو نوين أن يؤمره على مقدمة الجيش حتى وصل قريبًا من حي الحربية غربي بغداد.

وفي هذه الأثناء كان كل سكان المناطق الآهلة من تكريت إلى بغداد الغربية فضلا عن مدن شرق العراق كلها قد فرّوا من وجه الاكتساح المغولي لهذه المناطق، وقد سرد لنا ابن

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٠.

(٢) طاق كسرى كانت منطقة من بقايا المدائن عاصمة الفرس الساسانيين جنوبي بغداد.

الطقطقى مأساة هؤلاء النازحين بقوله: «لما عبر عسكر باجو (بايجو) من تكريت وانحدر إلى أعمال بغداد أجفل الناسُ من دجيل والإسحاقي ونهر عيسى ودخلوا إلى المدينة بنسائهم وأولادهم، حتى كان الرجل أو المرأة يقذفُ بنفسه في الماء، وكان الملاح إذا عبّر أحدًا في سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سوارًا من ذهب أو طرازًا من زركش أو عدة دنانير»[1]. وهذه الرواية توضح لنا حجم الكارثة والفزع الذي عاشه الناس في هذه المناطق!

بل إن ابن الفوطي يزيد من وصف هذه المأساة فيقول: «وأما السلطان (هولاكو) فإنه سار نحو بغداد بجيوش تملأ الفضاء، واستصحب آلات الحصار وغيرها، وأجفل أهل السواد من بين يديه إلى بغداد؛ حتى امتلأت شوارعها، فضاقت على سعتها عنهم، فقعدوا في الطرقات والدكاكين، وغلت الأقوات، ووقع الناس في الخوف الشديد، والويل العظيم»[2].

غير أن قوات الخليفة بقيادة الدويدار مجاهد الدين أيبك كانت قد عبرت نهر دجلة فلاقت عساكر سنجاك في ٩ من المحرم سنة ٦٥٦هـ وهزمته بالقرب من الأنبار على بُعد ١٥كم تقريبا غرب بغداد واضطرته إلى التقهقر والإسراع إلى قوات المغول التي تركها وراءه، ولم يكتف الدويدار بهذا النصر بل أصر على تتبع الجيش المنهزم، فاضطرت قوات بايجو نوين إلى الانضمام إلى سونجاك ووقعت موقعة كبيرة بينهما في منطقة دجيل مساء يوم ٩ وصباح يوم ١٠ من المحرم سنة ٦٥٦/ ١٦، ١٧ يناير ١٢٥٨م. وعلى الرغم من أن قوات الخليفة أحرزت الغلبة مساء يوم ٩ المحرم؛ فإن المغول نجحوا ليلًا بسبب قطع أحد الجداول على نهير يُسمى الملك متفرع من دجلة وإغراق ما وراء العسكر العباسي، يقول الدياربكري (ت٩٦٦هـ): «اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو وخرجوا إلى ظاهر بغداد ومشى عليهم هولاكو بعساكره فقاتلوا قتالا شديدا وصبر كل من الطائفتين صبرا عظيما وكثرت الجراحات والقتلى فى الفريقين إلى أن نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاكو أقبح كسرة وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالأسرى ورؤوس القتلى إلى ظاهر بغداد ونزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدوّ فأرسل الوزير ابن العلقمى فى تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط الدجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم

---

(١) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٥.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٥١.

وخيامهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقى فرسا يركبها وكان الوزير قد أرسل إلى هولاكو يعرّفه بما فعل ويأمره بالرجوع إلى بغداد فرجعت عساكر هولاكو إلى ظاهر بغداد فلم يجدوا هناك من يردّهم»(١).

ويُفهم من رواية الدياربكري أن ابن العلقمي وبعض أعوانه خدعوا الجيوش العباسية بفتح النهر خلف الجيش العباسي الأمر الذي جعلهم محصورين غير قادرين على دفع خطر بايجو نوين إذا عاد مرة أخرى، مع التأكيد على أن رواية الدياربكري معممة إذ إن القتال كان دائرًا بين الدويدار وبايجو نوين وسنجاك وبقية الجيش المغولي الثاني في حين أن هولاكو وجيشه كان لا يزال في الشرق منتظرًا ساعة التطويق.

على أن رواية قطب الدين اليونيني (ت٧٢٦هـ) المعاصر لهجوم التتار على بغداد – إذ كان عمره وقتها ١٦عامًا – تبين أن بايجو نوين كان مستعينًا بقوات من الموصل بل والأغرب بقوات من أهل بغداد أنفسهم من شيعة محلة الكرخ، يقول: «توجّه التتر إلى العراق وجاء بانجونوين في جحفل عظيم وفيه خلق من الكرخ ومن عسكر بركة – خان – ابن عم هولاكو ومدد من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مع ولده الملك الصالح من جهة البر الغربي عن دجلة وخرج معظم العسكر من بغداد للقائهم ومقدمهم ركن الدين الدوادار فالتقوا على نحو مرحلتين(٢) من بغداد واقتتلوا قتالًا كثيرًا وفُتقت فتوق من نهر الملك على البر الذي القتال فيه ووقعت الكسرة على عسكر بغداد فوقع بعضهم في الماء الذي خرج من تلك الفتوق فارتطمت خيلهم وأخذتهم السيوف فهلكوا وبعضهم رجع إلى بغداد هزيمًا وقصد بعضهم جهة الشام قيل كانوا نحو ألف فارس ثم توجه بانجونوين ومن معه فنزل القرية مقابل دور الخلافة وبينه وبينها دجلة»(٣).

ومما يجب ذكره أن كبار القادة العسكريين من المحنكين وعلى رأسهم الأمير فتح الدين الحسن بن كُرّ(٤) ممن كان مع مجاهد الدين الدويدار قد نصحوه بعد انتصاره بالعودة إلى بغداد وعدم تتبع

(١) الدياربكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ٢/ ٣٧٧.
(٢) المرحلة: المسافة يقطعها السائر في نحو يوم. المعجم الوسيط ١/ ٣٣٥.
(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٧، ٨٨.
(٤) كان من أكابر الزعماء ببغداد، وكان موصوفًا بالكرم، والشجاعة، وأصالة الرأي. قيل إنه ما أكل شيئًا إلا وتصدق بمثله.

المغول والتوغل خلفهم؛ إذ كانت استراتيجيتهم العسكرية قائمة في كثير من الأوقات على الكمائن، قال ابن كُر للدويدار بعد نصر يوم ٩ من المحرم: «لقد منحنا الله الآن الغلبة فيجب أن نقصد بيوتنا لنستريح ثم نخرج ثانية للقتال. لكن الدويدار تجبّر وتكبّر ورفض المشورة ومكثوا جميعًا خارجًا، وكان البغداديون مقيمين في أرض منخفضة فذهب التتار وثغروا ثغرة تفجّرت منها مياه دجلة وأغرقت البغداديين في نصف الليل، وجعلوا ينهزمون من وسط المياه وقد تبللت قسيّهم وسهامهم وأغماد سيوفهم، ولما أصبح الصباح انصبّ عليهم التتر أصحاب هولاكو واستمرت المعركة حتى الساعة التاسعة من يوم الخميس فانكسر البغداديون وارتخت عزائمهم، وقُتل ابن كورار (ابن كُرّ) وانهزم الدويدار إلى المدينة»[١].

وعلى كل فإن المغول لم يهزموا الجيش العباسي صباح يوم ١٠ من المحرم فقط، بل أنزلوا به الخسائر الفادحة أيضًا فقتل عدد من كبار قادة العباسيين مثل فلاح الدين وابن قره وقره سنقر، كما قتل من الجند العباسي اثنا عشر ألفًا عدا من غرقوا وغطاهم الطين، ولم ينج منهم إلا من رمى بنفسه في الماء أو دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام أو الحلة والكوفة في الجنوب، وكان الدويدار مجاهد الدين ممن نجوا من هذه المصيبة إذ استطاع العودة إلى بغداد مع شرذمة قليلة من الناجين، وكان عدد الجيش العباسي بقيادة مجاهد الدين يقارب العشرين ألفًا وجيش المغول بقيادة بايجو يزيد على ثلاثين ألفًا، ما يعني أن ما يقرب من ٨٠٪ من القوات العباسية أو أكثر أصبح لا وجود له[٢]!

تطويق بغداد وسقوطها!

قبل أن نبدأ في استكمال سرد قصة السقوط لابد أن نؤكد على ملحوظة مهمة للغاية وهي أن سقوط بغداد لم يكن حدثًا مفاجئًا لأنه بوضوح تام كان جزءًا من خطة مرسومة من قبل القيادة المغولية للسيطرة على الجزء الممتد من نهر جيحون في وسط آسيا إلى النيل في مصر.

والحق أن المغول لم تكن كما يتخيل كثير من القراء أنها كانت في الفترة ما بين ٦١٦هـ

وكان يحب الفقهاء، وأهل الفضل، ويكرم الفقراء، ويقضي حوائجهم. ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٥/ ١١٩.

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٣٠٧.

(٢) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٦.

وقت ظهورها وحتى دحرها على يد المماليك المصريين في سنة ٦٥٨هـ قوة لا تُقهر؛ فقد قاست الهزيمة على يد الخوارزمية أكثر من مرة ولكن الخلافة العباسية وخاصة في عصر المستعصم كانت في أزمة تتمثل في ضعف الخليفة وتنازع القادة كما رأينا، ولقد بدأ المغول في الاتصال بالخلافة عن طريق الرسل والمراسلات منذ عام ٦٣٥هـ، وحين استقر هولاكو في كش جنوب غرب سمرقند راسل الخليفة المستعصم سنة ٦٥٣هـ وطالبه بالتعاون معه للقضاء على الإسماعيلية الحشيشية في إيران؛ غير أن الحاشية لم يمكنوا الخليفة من الاتصال بهولاكو وشككوا في نياته، ثم أرسل هولاكو رسالة أخرى كما مر بنا.

بعد سحق القوات العباسية أصبح الطريق مفتوحًا أمام بايجو نوين والجيش المغولي الثاني الذي استطاع بكل سهولة أن يحاصر بغداد الغربية يوم ١١ من المحرم على أقصى تقدير ووقف «بعساكره محاذي التاج، وجاست عساكره خلال الديار»[١] وكان هذا الانتظار لقدوم هولاكو من بعقوبا إلى شرقي بغداد. والتاج الذي وقف بايجو نوين بمحاذاته قصر فخم في منطقة دار الخلافة في بغداد الشرقية يطل على نهر دجلة.

وقد استطاع هولاكو أن يصل بالفعل إلى أسوار بغداد الشرقية يوم ٤ المحرم سنة ٦٥٦هـ غير أن فرقة من القوات العباسية كانت متمركزة حالت لمدة أسبوعين كاملين من عملية التطويق التي اقتضتها خطة المغول السابقة الذكر، ويبدو أن هذه الفرقة كانت بقيادة الأمير الكبير سُليمان شاه بن برجم[٢]، قال ابن الطقطقى: «وأما حال العسكر السلطاني (عسكر هولاكو) فإنه في يوم الخميس رابع محرم من سنة ست وخمسين وستمائة ثارت غبرة عظيمة شرقي بغداد على درب باعقوبا بحيث عمت البلد، فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالي السطوح والمناير يتشوفون، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيوله ولفيفه وكُراعه وقد طبّق وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها، ثم شرعوا في استعمال أسباب الحصار، وشرع العسكر الخليفيّ في المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من محرم»[٣].

لكن أمام هذه الهجمة الشرسة من قوات تقدر بعشرات الآلاف انهارت الدفاعات

(١) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٦.
(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٣٠٧.
(٣) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٥.



العباسية بعد استنفاد الجهد والطاقة، وأمست بغداد الشرقية بين مطرقة هولاكو من الشرق وسندان بايجو من الغرب الذي كان قد استولى على بغداد الغربية بالفعل منذ أسبوع تقريبا!

وبعد انهيار الدفاعات العباسية انتقلت عملية التطويق والحصار إلى الهجوم على سور بغداد وأبراجه وكان عددها ١٦٣ برجًا، ويجب أن نقرر أن المغول استخدموا أقوى وأحدث الأسلحة التي توافرت لجيش مثلهم في ذلك الوقت، وكانت هذه الآلات تتمثل في المنجنيقات القوية والهائلة والعرّادات أي قاذفات الأحجار وآلات النفط المتعددة الأشكال والأوزان.

أما عن تقسيم الجيوش فقد ذكر ابن العبري أنها كانت كما يلي: «نزل هولاكو بنفسه على باب بغداد وفي يوم وليلة بنى المغول بالجانب الشرقي سيبا أعني سورا عاليا وبنى بوقا تيمور وسونجاق نوين وبايجو نوين بالجانب الغربي كذلك وحفروا خندقا عميقا... وجدّ المغول بالقتال بإزاء برج المعجمي وبوقا تيمور من الجانب الغربي حيث المبقلة وسونجاق نوين وبايجو نوين من جانب البيمارستان العضدي»[(١)].

أي أن هولاكو كان معسكرًا ومحاصرًا ومهاجمًا بغداد من ناحية برج العجم وباب كلواذى مع قواته وكبار قادته في معظم مناطق شرق بغداد على امتداد سورها، بينما عسكر بايجو نوين وسنجاك بدأوا الهجوم من ناحية المستشفى العضدي في الجنوب الغربي وبوقا تيمور في الجانب الغربي والشمال الغربي.

وعن حصار هولاكو وقواته لبغداد الشرقية يقول الهمذاني: «ترك هولاكوخان معسكراته في خانقين وواصل سيره إلى بغداد ونزل في الجهة الشرقية منها في الحادي عشر من المحرم سنة ٦٥٦هـ، ثم تدفّق جيش المغول كالنمل والجراد من كل جهة وناحية، فحاصروا أسوار بغداد، واحتموا بجدار أقاموه، وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرّم شرعوا في الحرب والتحم الجيشان، وكان هولاكو في القلب من طريق خراسان على الجانب الأيسر من المدينة في مقابل برج العجمي، وكان إيلكا نويان وقربا على بوّابة كلواذى، أما قولي وبولغا وتوتار وشيرامون وأرقيو[(٢)] فقد نزلوا في عرض المدينة في مواجهة بوابة سوق السلطة... وكان الجميع يحاربون،

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧١.
(٢) من كبار القادة في الجيش المغولي.

وقد صوّبوا المجانيق مباشرة تجاه برج العجمي، حتى أحدثوا فيه ثغرة»[١].

ولم تترك هذه القوات منذ اتخذت أماكنها حول بغداد فرصة تمر دون أن تستخدمها في تقريب الغاية التي تسعى إليها وهي الاستيلاء على المدينة؛ فأقامت أمام أسوارها أسوارًا أخرى موازية لها من الأتربة كما حفرت خندقًا بجانب المدينة ووراء الأسوار وأتمت هذه الأعمال جميعها في أربع وعشرين ساعة وتمكنت بذلك من فصل المدينة عما جاورها، كما أنها كونت من الأنقاض الموجودة حول المدينة أكوامًا عالية جعلتها مقاعد لقاذفات الأحجار وآلات النفط، بل اللافت أنها لما لم تجد الحجارة التي تحتاج إليها العرّادات جلبتها من جبل حمرين وجالولا وهي أماكن تقع شمال بغداد بمراحل طويلة تُقطع في ثلاثة أو أربعة أيام كما أنها كانت تستعيض بالأحجار عند عدم وجودها بقطع من جذوع النخل[٢]!

وفي أثناء الحصار اهتم المغول بإضعاف الروح المعنوية لأهل بغداد من خلال إحداث الصدع بينهم، وتقريب الأقليات العرقية والطائفية؛ فقد «أمر هولاكو البتيكتجية ليكتبوا على السهام بالعربية: إن الأركاونية[٣] والعلويين[٤] والداذنشمدية[٥] وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وأمواله. وكانوا يرمونها إلى المدينة»[٦].

لكن الهمذاني يذكر أن هذه المناشير كانت تفيد بأن «القُضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجّار وكل من لا يحاربنا لهم الأمان منا، وربطوا هذه المنشورات بالنبال، وألقوها على المدينة من جوانبها الستة»[٧].

وكانت خطة هولاكو أن يجعل الحصار في غاية الإحكام على بغداد حتى لا يتمكن أحد من المحاصرين أن يجد له مهربًا أو يجد أهل بغداد ثغرة يستمدون من خلالها العون للدفاع

---

(١) الهمذاني: جامع التواريخ مج٢١/ ٢٨٦.
(٢) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٧١.
(٣) أتباع أركون وهي كلمة يونانية.
(٤) أي الشيعة.
(٥) الداذنشمدية هم الدانشمندية، وهي من صيغ الجمع ومفردها دانشمندي، وهي كلمة فارسية معناها عالم أو حكيم، دخلت التركية في نهاية العصور الوسطى، بحيث أُطلقت على المعلمين في أنحاء مختلفة. والمقصود بها هنا طبقة العلماء وطلاب العلم في بغداد. راجع: عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص١٧٥.
(٦) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٢.
(٧) الهمذاني: جامع التواريخ مج٢١/ ٢٨٧.

وصد هجوم المغول، ولذلك أمر هولاكو بإقامة جسرين من القوارب المسلحة على نهر دجلة شمالي بغداد وجنوبها، كما أمر بإقامة حواجز من الأتربة على شاطئ النهر ووضع العرادات عليها وعهد إلى أحد كبار قادته بمعاونة عشرة آلاف جندي بحراسة الطريق الموصلة إلى البصرة وكذا المدائن، وكانت الاحتياطات التي اتخذها هولاكو في محلها فقد منعت هروب قائد الجيش مجاهد الدين الدوادار، ومن ثم أمست بغداد بين شقي الرحى، فلا يستطيع أحد من أهلها أن يهرب بنفسه ولا يستطيع أحد خارجها أن يقدم لنجدتها، وأصبحت بغداد منذ ٢٢ محرم سنة ٦٥٦هـ على بعد أيام قليلة على الانهيار التام(١)!

لما رأى الخليفة المستعصم موقفه المأزوم أراد أن يهدئ المغول ويُثنيهم عن عزمهم باقتحام بغداد، وذلك بإرسال الرسل والهدايا؛ فقد «أرسل صاحب ديوانه إلى خدمة هولاكو ومعهم تحف نزرة. قالوا: إن سيّرنا الكثير يقول: قد هلعوا وجزعوا كثيرا»(٢).

لكن هولاكو استقبل هذه الهدايا بتساؤل كبير فقال: «لِمَ ما جاء الدويدار وسليمانشاه. فسيّر الخليفة الوزير العلقمي وقال: أنت طلبت أحد الثلاثة وها أنا قد سيّرت إليك الوزير وهو أكبرهم. فأجاب هولاكو: إنني لما كنت مقيما بنواحي همذان طلبت أحد الثلاثة والآن لم أقنع بواحد»(٣).

ورغم ذلك لم يكن أمام الخليفة إلا إعادة المحاولة مرة أخرى؛ فأرسل إليه وفدًا على رأسه ابنه الأوسط الأمير أبي الفضل عبد الرحمن وحملوا في هذه المرة أموالًا كثيرة، ثم في اليوم الثالث الموافق آخر المحرم سنة ٦٥٦هـ أرسل الخليفة ابنه الأكبر ومعه الوزير وعدد من أشهر رجال الحاشية، غير أن هولاكو صاحب الموقف الأقوى لم يسمع لهم وردهم جميعًا؛ وطلب في هذه المرة الأخيرة أن يرسل الدوادار قائد الجيوش العباسية مجاهد الدين أيبك، وأحد أكابر أمراء الجند من يمكن أن نعتبره نائب قائد الجيوش العباسية سليمانشاه.

في هذه الأثناء وبالتحديد بعد أربعة أيام من الحصار والهجوم ودك الأسوار، استطاع المغول احتلال أبراج سور بغداد بدءًا من يوم ٢٦ محرم وزادوا في إحكام الحصار على أهل

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٧٣.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٢.
(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٢.

بغداد وعلى شاطئ نهر دجلة من جميع جهاته[1]، قال ابن الطقطقى: «لم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يُسمى برج العجمي من ناحية باب من أبواب بغداد يُقال له باب كلواذى، وكان هذا البرج أقصر أبراج السور، وتقحّم العسكر السلطاني (أي عسكر المغول) هجومًا ودخولًا، فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه»[2].

لكن ابن الفوطي يُبين أحد أسباب سقوط هذا السور بقوله: «لما كان اليوم الرابع عشر من المحرّم خرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي إلى خدمة السلطان (هولاكو) في جماعة من مماليكه وأتباعه، وكانوا ينهون الناس عن الرّمي بالنشاب (السهام) ويقولون: سوف يقع الصلح إن شاء الله فلا تحاربوا. هذا وعساكر المغول يُبالغون في الرمي وقد اجتمع منهم خلق كثير على برج العجمي الذي عن يمين باب سور الحلبة، ونصبوا عليه المناجيق، ووصلوا الرمي بالحجارة، فهدموه وصعدوا على السّور في اليوم الحادي والعشرين من المحرّم، وتمكنوا من البلد وأمسكوا عن الرمي وعاد الوزير إلى بغداد يوم الأحد سابع عِشْريّ من المحرّم»[3].

والمتأمل في المدة التي قضاها ابن العلقمي عند هولاكو خارج أسوار بغداد وهي قرابة الأسبوعين؛ فضلاً عن أن أصحابه كانوا يمنعون أهل بغداد من مقاومة المغول لا يعني لنا إلا أمرًا واحدًا فقط لا يخفى على ذوي العقول اليقظة، وهي الخيانة التي لا خيانة بعدها!!

لم يكن أمام الخليفة وقادته في ظل هذا الانهيار التام أي مفر إلا إجابة طلب هولاكو المتمركز عند باب كلواذى شرقي بغداد، وعلى الفور في أول صفر أذعن الأميران الكبيران مجاهد الدين أيبك وسليمان شاه فذهبا في مجموعة من أنصارهما إلى هولاكو، وفي الطريق قرر مجاهد الدين أن يرجع إلى المدينة «بحجة أنه يرجع ويمنع المقاتلين الكامنين بالدروب والأزقّة لئلا يقتلوا أحدا من المغول»[4].

لكنه لم يجد مفرًا من الانصياع لأمر هولاكو بالمثول أمامه وعاد إليه هذه المرة مع حشد

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧١.
(٢) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٦.
(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٥٦.
(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧١.

من مقاتليه لعل هولاكو يعفو عنهم فيذهبوا إلى الشام؛ لكن كان ذلك اليوم الثاني من صفر سنة ٦٥٦هـ آخر أيامه؛ فقد وُزع جنده على جنود المغول فقتلوهم؛ ثم قُتل مجاهد الدين وابنه، ثم قتل الأمير سليمان شاه، ومن اللافت أن رؤوس هؤلاء القادة أُرسلت إلى أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصديق بل وصهر مجاهد الدين ليعلقها في مجلسه، وقد كان لهذا الأمير أكبر الأثر في مساعدة المغول على دخول العراق من قبل ونهب بلدانها ثم مساعدته لهم في حملتهم هذه لإسقاط بغداد على الأقل بعدم رد جيش بايجو نوين الذي عبر الموصل في أول الحملة إلى غربي دجلة[١]!

بعد مقتل مجاهد الدين الدوادار وسليمان شاه وجنودهما دب الرعب في جميع أوصال البغاددة كبيرهم وصغيرهم، ولم يجد الناس أمامهم إلا أن يرسلوا من ناحيتهم اثنين من رموزهم «فأرسلوا شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني ليأخذوا لهم الأمان»[٢]. لكن هولاكو رفض أن يعطيهم شيئًا ورجعوا إلى الناس من دون إجابة لطلبهم، الأمر الذي دفع الناس إلى الهرب لمن استطاع الهرب منهم في قنوات بغداد وأفران الحمامات وأماكن الأحراش وغيرها، وبقي عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال في انتظار الموت المحقق!

في هذه اللحظة حاول الخليفة محاولته الأخيرة بعد يوم من مقتل الدوادار وسليمان شاه فأرسل على الفور الوزير مؤيد الدين بن العلقمي صباح يوم ٣ صفر «إلى هولاكو فتوثّق منه لنفسه، وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسّن له الخروج إلى هولاكو»[٣].

والحق أن كثيرًا من المصادر التاريخية تؤكد أن ابن العلقمي كان سببًا مباشرًا من أسباب تشجيع المغول على اقتحام العراق وإسقاط بغداد، وأن المكاتبات بينه وبين هولاكو لم تنقطع منذ قضاء هولاكو على الباطنية الإسماعيلية في عام ٦٥٥هـ وقد تكون هذه المراسلات أسبق من هذا منذ خروج الحملة المغولية لاستكمال فتوحات الشرق سنة ٦٥١هـ، وسنقف بعد قليل بشيء من التفصيل والهدوء مع ابن العلقمي وموقفه من المغول.

---

(١) مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى ص١٧٥.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧١.

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٤.

مقتل المستعصم وانتهاء الخلافة العباسية

صدّق المستعصم كلام وزيره «فخرج فِي جماعة من الأعيان إلى هولاكو فأنزل فِي خيمة. ثمّ دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل، ليحضروا العقد. فخرجوا من بغداد فضُرِبت أعناقهم، وصار كذلك يخرج طائفةٌ بعد طائفة فتُضرَب أعناقهم. ثمّ مدّ الجسر وبكّر باجونوين ومَن معه فبذلوا السّيف فِي بغداد، واستمرّ القتل والسّبي في بغداد بضعًا وثلاثين يوما، ولم ينْجُ إلّا من اختفى. فَبَلَغَنا أنْ هولاكو أمر بعد ذلك بعدّ القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسر. والأصحّ أنّهم بلغوا ثمانمائة ألف. ثمّ نودي بعد ذلك بالأمان، وظهر من كان قد تخبّأ وهم قليل من كثير»[1].

كان خروج المستعصم على رأس كبار أشياخ بغداد بعد يوم أو يومين على الأكثر من رجوع ابن العلقمي من مقابلة هولاكو أي يوم ٤ صفر إيذانًا بانهيار الخلافة العباسية إلى الأبد اللهم إلا شكلها الرمزي في دولة المماليك في القاهرة بعد ذلك.

لكن اللافت أن المستعصم لم يُقتل إلا في يوم ١٤ صفر بحسب رواية الإربلي في «الذهب المسبوك» أي بعد عشرة أيام كاملة من خروجه، وليس كما ذكر ابن الطقطقى في «الفخري» من أن مقتله كان في نفس يوم خروجه؛ ولقد كان ذلك تدبيرا مقصودا من هولاكو الذي أراد أن يتخذه آلة لتحقيق سقوط بغداد سريعًا؛ فقابله في بداية الأمر بالترحاب، وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم؛ فأجابه الخليفة إلى ذلك وأرسل رسولًا من لدنه نادى في طرقات بغداد على الناس أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار، ولما استيقن هولاكو من ذلك أمر جنوده فانقضوا عليهم وقتلوهم.

ولم يكتف هولاكو بذلك بل أمر بردم الخنادق وإزالة أسوار المدينة كما أمر بنصب جسر على دجلة، فلما تم ذلك أمر بايجو نوين القائد المغولي المتمركز مع جنوده على الضفة الغربية من دجلة منذ شهر تقريبًا بدخول بغداد.

وزع المغول أنفسهم على أحياء بغداد تاركين لأنفسهم العنان؛ فخرّبوا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبة وهدموا القصور بعد أن جرّدوها من التحف النادرة، وخربوا المكاتب

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٨/ ٣٦.



والمكتبات وأتلفوا الكتب بإحراقها ورميها في دجلة[1].

ولقد كان استهتار المغول بالنفوس بالغًا أشده؛ والأمثلة على ذلك شنيعة؛ فقد قتل اثنان منهم ثقلت عليهم الأسلاب رجلًا قابلهما في الطريق وشقا جوفه لا لشيء إلا ليتخذاه أداة لحمل ما معهما، كما دخل أحدهم زقاقًا وقتل أربعين طفلًا!

ولذلك فإن المؤرخين يبالغون في تعداد الأنفس التي أزهقوها حين دخلوا بغداد، فمنهم من قدرها بمليون وثمانمائة ألف نفس، ومنهم من قدرها بـ٢ مليون شخص، وهناك من جعلها ٢ مليون، ومما لا شك فيه أن هذه المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة، كما أن الثروة الأدبية والثقافية والفنية التي جمعها البغاددة على مدار خمسة قرون متصلة قد ضاع معظمها وأمست أثرًا بعد عين[2]!

وفي يوم ٩ صفر اقتيد الخليفة بصحبة هولاكو والطوسي وكبار قادة المغول؛ وذهبوا مباشرة إلى دار الخلافة وحرصوا على إذلال الخليفة؛ وأمر هولاكو الخليفة نفسه أن يقدم بيديه لهم ما يليق بهم؛ فأتى لهم بألفي كساء وعشرة آلاف قطعة ذهبية وبعض الأحجار الكريمة وحليًا من أصناف شتى، فأخذها منه وقال له بازدراء: «إن الكنوز التي تملكها والتي توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها وهي تحت تصرفي وتصرف أتباعي، إنما ما نريده هو أن تظهر لنا ثروتك المدفونة وتبين لنا موضعها». فدلهم المستعصم على كنوزه المخبأة فوجدوا عددًا كبيرًا من القطع الذهبية الثقيلة الوزن «وقدم جواهر نفيسة ولآلئ ودررا معبّاة في أطباق ففرّق هولاكو جميعها على الأمراء وعند المساء خرج إلى منزله وأمر الخليفة أن يفرز جميع النساء التي باشرهن هو وبنوه ويعزلهنّ عن غيرهنّ ففعل فكنّ سبعمائة امرأة فأخرجهن ومعهنّ ثلاثمائة خادم خصي»[3].

لم تقف أعمال هولاكو القاسية عند هذا الحد؛ فإنه بعد بضعة أيام، وفي الوقت الذي أمر فيه جند المغول بالكف عن أعمال النهب والقتل مؤقتًا على أثر مقابلته لوفد ممثل عمن بقي على قيد الحياة؛ فإننا نجده يرتكب الجرم الأكبر بقتل الخليفة وابنه الأكبر «ففي رابع عشر

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٧٧.

(٢) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ١/ ٣٩، ٤٠.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٢.

صفر رحل هولاكو من بغداد وفي أول مرحلة قتل الخليفة المستعصم وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذ»[١].

كما أمر بإبادة معظم الأسرة العباسية وكل من له ثقل فيها، فقد «قتل ابناه (أي المستعصم) أحمد وعبد الرَّحمن، وبقي ابنه الصّغير مبارك وأخواته فاطمة وخديجة ومريم في أسر التّتار، وقتل ابنه أحمد وعمره خمسٌ وعشرون سنة، وعمر أخيه عبد الرَّحمن ثلاث وعشرون ولكلّ منهما أولاد أسروا، وقتل عددٌ من أعمام الخليفة وأقاربه»[٢].

وقد عدّد الإربلي للمستعصم مناقب جمة، وأخلاقًا حميدة، لكنه أصرّ على أن ضعف الخليفة وسوء تقديره وضياع هيبته، كان السبب في مآله السيئ قال: «لم يُعلم أنه عصى الله بفرجه ولا فمه غير أنه لم ينزّه سمعه عن سماع المحرّم فإنه كان مغرمًا بسماع الملاهي؛ محبًا للهو واللعب، يبلغه أن مغنية أو صاحب طرب في بلد من البلاد فيراسل سلطان ذلك البلد في طلبه، ثم وكل أموره الكليات إلى غير الأكفاء، وأهمل ما يجب عليه حفظه والنظر فيه، فأنفذ الله فيه قضاءه وقدره، وأجرى عليه ما قدّره»[٣].

وهي ذات السوأة التي نقلها غير الإربلي من المؤرخين حتى ذكروا له موقفًا مخزيًا وقت هجوم المغول على العراق؛ فقد طلب المستعصم من بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل «جماعة من ذوي الطّرب، وفي تلك الحال وصل رسول السلطان هولاكو إليه يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار، فقال بدر الدين: انظروا إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله»[٤]!

وخلاصة حاله يذكرها ابن العبري بقوله: «كان ضعيف الرأي، قليل العزم، كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول وكان إذا نبّه علي ما ينبغي أن يفعله في أمر التتار أما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجيّش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق فكان يقول: أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا أيضا يهجمون عليّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي. فهذه الخيالات الفاسدة

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٢.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٨/ ٢٦٢.
(٣) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٥.
(٤) ابن الطقطقى: الفخري ص٥٢.

وأمثالها عدلت به عن الصواب فأصيب بمكاره لم تخطر بباله»[١].

على أية حال «قُتل المستعصم ليلة الأربعاء رابع عشر صفر من سنة ست وخمسين وستمائة، فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وسبعة أشهر وأربعة أيام، وعمره ست وأربعون سنة»[٢].

رواية شاهد عيان!

من المهم أن ننقل رأي من شاهدوا هذه الأحداث الجسام وأفلتوا منها؛ كي نرى حجم المأساة عن قرب وحقيقة بعيدًا عن روايات المؤرخين التي قد تتفاوت فيما بينها لعوامل كثيرة منها الزمان والمكان والثقافة.

كان جمال الدّين سليمان بن عبد الله بن رطلين[٣] هو ووالده ممن شاهدوا هذه الأحداث وقد أفلت والده من الموت بأعجوبة، وقد كان جمال الدين في حدود السادسة والعشرين من عمره استطاع أن يتخفّى مع من تخفوا؛ ولنتركه يروي شهادته كما نقلها الذهبي، يقول: «حكى جمال الدّين سليمان بن عبد الله بن رطلين قال: جاء هولاوو (أي هولاكو) في نحو مائتي ألف نفس، ثمَّ طلب الخليفة، فطلع ومعه القضاة والمدرّسون والأعيان في نحو سبعمائة نفس، فلمّا وصلوا إلى الحربيّة[٤] جاء الأمر بحضور الخليفة ومعه سبعة عشر نفسا، فاتّفق أنّ أبي كان أحدهم، فحدّثني أنّهم ساقوا مع الخليفة، وأنزلوا من بقي عن خيلهم، وضربوا رقابهم. ووقع السّيف في بغداد، فعمل القتل أربعين يوما. وأنزلوا الخليفة في خيمةٍ صغيرة، والسّبعة عشر في خيمة.

قال أبي: فكان الخليفة يجيء إلى عندنا كلّ ليلةٍ ويقول: ادعوا لي.

وقال: فاتّفق أنَّه نزل على خيمته طائر، فطلبه هولاوو وقال: أيش عمل هذا الطّائر؟ وأيش قال لك؟

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢١٥.

(٣) هو سليمان بن عبد الله بن علي بن منصور بن رطلين. الفقيه العالم، جمال الدين، أبو منصور البغدادي، الحنبلي. ولد في سنة ٦٣٠هـ. وكان من فقهاء المدارس ببغداد. وفيه ديانة ومروءة، نجا من واقعة المغول سنة ٦٥٦هـ توفي في رجب سنة ٦٩٩هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام ٥٢/ ٤٠٨.

(٤) الحربيَّة: محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي وأحمد بن حنبل وغيرهما، تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي ويعرف بالراوندي أحد قوّاد أبي جعفر المنصور. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢٣٧. كان موقع محلة الحربيّة من بغداد في الشمال الغربي.

ثمَّ جرت له محاورات معه ومع ابن الخليفة أبي بكر. ثمَّ أمر بهما فأخرجا، ورفسوهما حتّى ماتا، وأطلقوا السّبعة عشر، وأعطوهم نشّابة، فقتل منهم رجلان وطلب الباقون بيوتهم فوجدوها بلاقع[1].

فأتوا المدرسة المغيثية[2]، وقد كنت ظهرت فبقيت أسأل عن أبي، فدللت عليه، فأتيته هو ورفاقه، فسلّمت عليهم، فلم يعرفني أحدٌ منهم، وقالوا: ما تريد؟

قلت: أريد فخر الدّين بن رطلين. وقد عرفته، فالتفت إليّ وقال: ما تريد منه؟ قلت: أنا ولده. فنظر إليّ وتحقّقني، فلمّا عرفني بكى، وكان معي قليل سمسم فتركته بينهم.

وأقمنا هناك إلى صفر، إلى أن رفع السّيف، فأتينا دار فخر الدّين أحمد ابن الدّامغانيّ صاحب الدّيوان، وقد أراد ابن العلقمي أن يضرّه، فقال لهولاكو: هذا يعرف أموال الخليفة وذخائره وأمواله، وهذا كان يتولّاها.

فقال: إذا كان الخليفة اختاره لنفسه فأنا أولى أن أولّيه. وكتب له الفرمان، وقال للوزير: لا تفعل شيئا إلّا بموافقته.

ثمَّ إنّ ابن العلقميّ عمل على أن لا يخطب بالجوامع، ولا يصلّي الجماعة، وأن يبني مدرسة على مذهب الشّيعة ولم يحصل أمله، وفتحت الجوامع، وأقيمت الجماعات.

وحدّثني أبي فخر الدّين قال: كان قد مشى حال الخليفة بأن يكون للتّتار نصف دخل البلاد، وما بقي شيء أن يتمّ ذلك، وإنّما الوزير ابن العلقميّ قال: ما هذا مصلحة، والمصلحة قتله، وإلّا ما يتمّ ملك العراق»[3].

وهذه الرواية تؤكد رواية الإربلي التي توضح أن المستعصم لم يقتل في نفس يوم خروجه، وأن ابن العلقمي متآمر مع المغول، بل تكشف حجم المأساة الإنسانية والاجتماعية التي حلت بمن بقي على قيد الحياة، للدرجة التي لم يعرف فيها الوالد ولده!!

---

(١) بلاقع جمع بلقع وهو الخالي، يُقال مكان بلقع وطريق بُلقع. المعجم الوسيط ١/ ٧٠.

(٢) إحدى مدارس بغداد في العصر العباسي، كانت على شاطئ نهر دجلة، ويبدو من سيرة من أشهر من درّس فيها كابن الصيرفي الحنفي أنها كانت لتدريس الفقه الحنفي. ابن الدبيثي: ذيل تاريخ بغداد ٤/ ٢٠٩.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٨/ ٢٦٠، ٢٦١.

رواية صاحب «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة»!

كتاب «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة» المنسوب خطأ للمؤرخ البغدادي كمال الدين بن الفوطي (٦٤٢ -٧٢٣هـ) من أهم المصادر القريبة والمعاصرة لحادثة اقتحام المغول لبغداد، وقد ذكر تفاصيل مهمة سواء في عملية تطويق هولاكو لبغداد الشرقية أو بايجو نوين لبغداد الغربية، فضلا عن تطويقها من الجنوب بغلق حركة عبور السفن والقوارب في نهر دجلة، وما يهمنا في روايته ما حدث لأهل بغداد من تقتيل ورعب وإرهاب استمر لأربعين يومًا، قال: «وضع السيف في أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر ومازالوا في قتل ونهب وأسر وتعذيب الناس بأنواع العذاب واستخراج الأموال منهم بأليم العقاب مدة أربعين يومًا، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال، فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل، ما عدا النصارى فإنهم عيّن لهم شحّان حرسوا بيوتهم، والتجأ إليهم خلق كثيرٌ من المسلمين فسلموا عندهم، وكان ببغداد جماعة من التجار يسافرون إلى خراسان وغيرها قد تعلّقوا من قبل على أمراء المغول وكتب لهم الفرامين، فلما فتحت بغداد خرجوا إلى الأمراء وعادوا ومعهم من يحرس بيوتهم والتجأ إليهم أيضًا جماعة من جيرانهم وغيرهم فسلموا، وكذلك دار الوزير مؤيد الدين بن العلقمي فإنه سلم بها خلق كثير، ودار صاحب الديوان ابن الدامغاني، ودار حاجب الباب ابن الدوامي، وما عدا هذه الأماكن فإنه لم يسلم فيه أحد إلا من كان في الآبار والقنوات. وأحرق معظم البلد وجامع الخليفة وما يجاوره، واستولى الخراب على البلد، وكانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول، ووقعت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول، فاستحالت صورهم، وصاروا عبرة لمن يرى، ثم نودي بالأمان، فخرج من تخلّف وقد تغيرت ألوانهم، وذهلت عقولهم لما شاهدوا من الأهوال التي لا يعبّر عنها بلسان، وهم كالموتى إذا خرجوا من القبور يوم النشور من الخوف والجوع والبرد .. قيل إن عدة القتلى ببغداد زادت على ثمانمائة ألف نفس عدا من ألقي من الأطفال في الوحول ومن هلك في القنى والآبار وسراديب الموتى جوعًا وخوفًا، ووقع الوباء فيمن تخلّف بعد القتل من شم روائح القتلى وشرب الماء الممتزج في الجيف، وكان الناس يكثرون من شم البصل لقوة الجيفة وكثرة الذباب فإنه ملأ الفضاء، وكان يسقط على المطعومات فيفسدها. وكان أهل الحلة والكوفة والسِّيب يجلبون إلى بغداد الأطعمة فانتفع الناس بذلك، وكانوا يبتاعون بأثمانها

الكتب النفيسة والصُّفر المطعّم وغيره من الأثاث بأوهى قيمة، فاستغنى بهذا الوجه خلقٌ كثيرٌ منهم»[1]!!

إن هذه الرواية القاسية من صاحب «الحوادث» تبين لنا حجم المأساة والكارثة الإنسانية التي تعرّض لها البغاددة على أيدي برابرة المغول وأعوانهم من الخونة، بل واستغلها آخرون اقتصاديًا ممن لا يستطيعون العيش إلا على آلام الناس، ولنا معهم وقفات بعد قليل!

ماذا بعد السقوط؟!

لقد كان قتل هولاكو للمستعصم ومعظم الأسرة العباسية غير راجع لكراهية شخصية – وإن تجلت في المراسلات التي دارت بينهما منذ العام ٦٥٤هـ – بل كانت في المقام الأول للتخلص منه باعتباره عدوًا سياسيًا كان في بقائه على قيد الحياة كبير خطر يهدد نفوذ هولاكو وسلطانه في العراق والشام ومصر فيما بعد.

قُتل المستعصم وبدأ هولاكو في تنفيذ الجزء الأخير والنهائي من الخطة وهي إحكام السيطرة على بغداد وكل العراق؛ وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يستبقي عناصر من النظام القديم يسيرون أحوال البلاد ومن تبقى من العباد فقد «فوّض عمارة بغداد إلى صاحب الديوان والوزير وابن درنوش»[2].

وينقل المؤرخ الدكتور مصطفى بدر عن بعض المصادر الأجنبية والفارسية الأسماء التي قامت بتسيير شئون بغداد قال: «في نفس اليوم الذي تخلص فيه هولاكو من الخليفة عيّن الحكام على بغداد وما جاورها من البلاد، فيجعل علي بهادور حاكمًا عليها، ويحتفظ لابن العلقمي بالوزارة، ويجعل فخر الدين الدامغاني صاحب الديوان، ويسلم أحمد ابن عمران إدارة المناطق الواقعة شرق بغداد، ويعين نظام الدين عبد المؤمن قاضيًا للقضاة»[3].

وأُجبر من تبقى من فقهاء بغداد في المدرسة المستنصرية على استصدار فتوى تؤيد أن الحاكم الكافر العادل يفضُل على الحاكم المسلم الجائر، واضطروا لذلك تحت الإجبار والقهر، وقد كان استصدار مثل هذه الفتوى من الأهمية بمكان؛ لأن العلماء والفقهاء لم يكونوا مجرد

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٥٩- ٣٦١.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٢.
(٣) مصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٨٤.

رموز هامشية في المجتمع، بقدر ما كانوا طبقة يأتمر بأمرها العامة، وكان بالطبع لمثل هذه الفتوى دورها في تهدئة بعض النفوس التي قد تثور لأجل ما ارتُكب من مجازر.

وبعد الانتهاء من القتل والسحق ودفن الجثث وتنظيم أحوال العراق الإدارية أعلن هولاكو بأن بغداد «أصبحت ملكًا لنا؛ فليستقر الأهالي ولينصرف كل إلى عمله»(١).

وبعد أن ترك هولاكو على بغداد قائدين من المغول وثلاثة آلاف جندي مغولي أسرع هولاكو للخروج من بغداد بأقصى طاقته يوم ١٤ صفر ووصل إلى منطقة قرية وقف التي تبعد في الشمال عن بغداد بمسافة ٤٠كم تقريبًا، وهي التي قتل فيها المستعصم بحسب بعض الروايات، ثم ترك العراق كلية في جمادى الأولى من نفس العام، واستطاع أن يصل إلى همذان بعد خمسة أسابيع من رحيله من العراق.

لكن كان من الطبيعي في الفترة ما بين ١٤ صفر إلى يوم رحيله النهائي ٣٠ صفر أن يطمئن على بقية مناطق العراق المهمة خاصة الحلة وواسط في الجنوب الشرقي والغربي من بغداد ويختبر مدى طاعتها وولائها له؛ فقد «أرسل بوقا تيمور إلى الحلّة ليمتحن أهلها هل هم على الطاعة أم لا. فتوجّه نحوها ورحل عنها إلى مدينة واسط وقتل بها خلقا كثيرًا أسبوعًا. ثم عاد إلى هولاكو وهو بمقام سياه كوه»(٢). وسياه كوه كما ذكر ياقوت الحموي: «جبل طويل بين الريّ وأصبهان يمتدّ حتى يتّصل ببلاد الجبل»(٣). أي لحقه القائد بوقا تيمور في وسط إيران تقريبًا.

ويبدو أن البعد الطائفي كان حاضرًا بشدة في هذه المعركة؛ إذ لم يكن ذهاب بوقا تيمور للحلة وهي مدينة شيعية كبيرة جدًا في جنوب غربي بغداد بأمر من هولاكو فقط؛ فقد ذكر بعض المؤرخين أن أهل المدينة أرسلوا لهولاكو وهو يحاصر بغداد طالبين منه الخضوع وإرسال حاكم عليهم من قبله، بل وذكروا له أن الأحاديث التي تناقلوها عن الإمام علي والأئمة الاثنى عشرية تؤكد نجاحه في القضاء على الخليفة العباسي، ومن ثم أمر هولاكو بوقا تيمور أحد كبار قادته وزوج أخته أن يذهب ليتأكد من ولائهم كما نقلنا ابن العبري منذ

(١) رشيد عبد الله الجميلي: حملة هولاكو على بغداد ص٦٤. مجلة المورد العراقية، العدد الرابع – بغداد، ١٩٧٩م.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٢.
(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٢٩٢.

قليل، ويُذكر أنهم قابلوه بالترحاب وأقاموا على الفرات جسرًا عبر عليه هو ومن معه.

وقد استغل بوقا هذه الفرصة ليخضع جنوب العراق كله ففتح واسط كما علمنا بعد مقاومة أهلها وقتل منها على ما يذكره البعض ٤٠ ألف مدني، ثم توغل في الجنوب والجنوب الشرقي فأخضع تستر والبصرة وغيرها ورجع إلى بغداد في ١٢ ربيع الأول من نفس العام بعد أن أتم فتح العراق وانضم إلى القواد الذين تركهم هولاكو، ثم ما لبث أن لحق بهولاكو في إيران[١].

أما عن الموصل وشمال العراق، فيبدو أن العون والمدد الذي قدمه أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ لهولاكو وجيشه ثم إصراره على إرسال ولده الصالح إسماعيل على رأس قوة عسكرية معاونة لهولاكو؛ لم يكن له الأثر الكبير لإرضاء هولاكو فإن هذا الأخير قال لابن بدر الدين عابسًا: «أنتم بعد في شكّ من أمرنا ومطلتم نفوسكم يوما بعد يوم وقدّمتم رجلا وأخرتم أخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه فلو انتصر الخليفة وخُذلنا لكان مجيئكم إليه لا إلينا. قل لأبيك: لقد عجبنا منك تعجبا كيف ذهب عليك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل واتخذت اليقين ظنا وقد لاح لك الصبح فلم تستصبح»[٢]!

وإزاء هذه الرسالة شديدة اللهجة، وبرغم المساعدات التي قدمها بدر الدين إلى هولاكو منذ بداية غزوه العراق إلا أنه «أيقن أن المنايا قد كشرت له عن أنيابها وذلّت نفسه وهلع هلعا شديدا وكاد يخسف بدره ويكسف نوره. فانتبه من غفلته وأخرج جميع ما في خزائنه من الأموال واللآلي والجواهر والمحرمات من الثياب وصادر ذوي الثروة من رعاياه وأخذ حتى حليّ حظاياه والدرر من حلق أولاده وسار إلى طاعة هولاكو بجبال همذان. فأحسن هولاكو قبوله واحترمه لكبر سنّه ورقّ له وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة واستأمن إليه وداعبه وقدّمه إلى أن أصعده إليه على التخت وأذن له أن يضع بيده في أذنيه حلقتين كانتا معه فيهما درّتان يتيمتان، وأقام في خدمته أياما ثم عاد إلى الموصل مسرورا مبرورا بل مذعورا مما شاهد من عظمة هولاكو وهيبته ودهائه»[٣].

---

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١٨٦.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٦.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٦، ٢٧٧.

وظل بدر الدين لؤلؤ في مأمن من غدر هولاكو حتى وافته المنية في العام التالي ٦٥٧هـ، وقسمت مملكته الجزيرة الفراتية على أبنائه الثلاثة الصالح إسماعيل على الموصل وعلاء الدين على سِنجار وسيف الدين على الجزيرة.

وبرغم المصاهرة التي تمت بين هولاكو وبدر الدين لؤلؤ، إلا أن ذلك لم يدم طويلًا، إذ أغضب الصالح إسماعيل ابنة هولاكو وأغارها، فنازلت التتار الموصل، واستمر الحصار عشرة أشهر، ثم أخذت، وخرج إليهم الصالح بالأمان فغدروا به واستباحوا الموصل(١).

وقفة مع ابن العلقمي

من الطبيعي أن نفرد لهذه الشخصية التي كانت السبب الأبرز في سقوط الخلافة العباسية عنوانًا مستقلًا لننظر إلى روايات المؤرخين فيها بروية وهدوء؛ ذلك أن كبار المؤرخين في الماضي والحاضر لم يتفقوا كلية في تقييم هذه الشخصية ودورها الحقيقي في سقوط الخلافة العباسية.

لكن علينا أن نعرف أولًا من هو ابن العلقمي وما هي مؤهلاته، يقول الأستاذ الزركلي: «محمد بن أحمد (أو محمد بن محمد بن أحمد) بن علي، مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقميّ ولد عام ٥٩٣هـ وتوفي في ربيع الأول عام ٦٥٦هـ: وزير المستعصم العباسي.. اشتغل في صباه بالأدب. وارتقى إلى رتبة الوزارة (سنة ٦٤٢هـ) فوليها أربعة عشر عاما. ووثق به «المستعصم» فألقى إليه زمام أموره، وكان حازما خبيرا بسياسة الملك، كاتبا فصيح الإنشاء. اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنف له الصغاني «العُباب» وابن أبي الحديد «شرح نهج البلاغة» .. ولي لهولاكو الوزراء مدة قصيرة ومات ودفن في مشهد موسى ابن جعفر (الكاظمية) ببغداد، وخلفه في الوزارة ابنه عز الدين «محمد بن محمد بن أحمد» وهناك روايات بأن مؤيد الدين أهين على أيدي التتار، بعد دخولهم، ومات غما في قلة وذلة»(٢).

إذن نحن أمام شخصية مثقفة وعلى درجة كبيرة من الوعي والنضج بل والذكاء، ينقل ابن الطقطقي عن ولد ابن العلقمي واسمه شرف الدين علي: «اشتملت خزانة والدي على

(١) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص٢٣١.
(٢) الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٢٠، ٣٢١.

عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب، وصنف الناس له الكتب»[١].

والحق أن هذا الرجل كان من كبار رجال دولة المستنصر والد المستعصم أيضًا، أي أنه عاصر آخر خليفتين من خلفاء بني العباس، غير أنه في عصر المستنصر كان رئيسًا لدار الخلافة والمشرف عليها، وهي قصور ودور الحكم والأسرة العباسية، ولقد أسدى ابن العلقمي للمستنصر خدمة الإشراف على بناء أعظم جامعة عالمية في وقتها وهي المدرسة المستنصرية التي بنيت في العام ٦٣١هـ، ومنذ ذلك الحين والرجل يترقى ويتمكن في الدولة العباسية.

وقبيل عام ٦٤٠هـ بدا أن الوزير ابن الناقد لم يعد صحيح البدن كما كان حتى إنه حضر بيعة الخليفة المستعصم محمولًا على محفّة أي محمل، ومن ثم كان من الطبيعي أن تنتقل الوزارة أو بالأصح مهامها إلى غيره، وكان ابن العلقمي الذي يحمل مؤهلات ابن الناقد بل ووظيفته السابقة على استعداد لتحمل المسئولية الجديدة، لكنه لم يعين إلا نائبًا للوزارة منذ هذا التاريخ ٦٤٠هـ حتى وفاة ابن الناقد رسميًا سنة ٦٤٢هـ ليصبح وزيرًا مفوضًا مدة ١٤ عامًا متصلة.

ووزارة التفويض تعني منح الصلاحيات الواسعة للوزير أي ما يعني تحجيم دور الخليفة في إدارة شئون البلاد، والمدة الزمنية التي استمر فيها ابن العلقمي وزيرًا كبيرة جدًا مقارنة بوزراء آخرين في تاريخ الخلافة العباسية كلها؛ ففي عصر الناصر العباسي وزر له ١٤ وزيرًا في ٤٧ عامًا كان منهم خمسة فقط مفوضون والتسعة الباقون منفذون لسياسة الناصر، أي أن متوسط عمر الوزير كان ثلاث سنوات ونيف تقريبًا.

هذه المدة الطويلة التي تدلل على ثبات قدم ابن العلقمي في الوزارة بل وتخطيه المحن التي تعرّض لها وعلى رأسها محنة العسكر العباسي وعلى رأسهم الدويدار مجاهد الدين أيبك تؤكد لنا أن الرجل لم يكن ذا شأن هامشي في مجريات الأحداث، ولذلك «كان خواصّ الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه، وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه وكثروا عليه عنده»[٢].

وسبب هذه المحنة التي تعرّض لها ابن العلقمي ينقلها الذهبي عن بهاء الدين الإربلي

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٨. وقد تناول هذه الخزانة أو المكتبة التي فُتحت رسميًا سنة ٦٤٤هـ الأستاذ كوركيس عواد وأقوال المؤرخين فيها ووصفها. كوركيس عواد: خزائن الكتب القديمة في العراق ص١٨٥ – ١٨٧.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٨.

(ت٦٩٢هـ) أحد أدباء عصره، وممن عاصروا سقوط بغداد من إربل: «لم يزل ناصحا لمخدومه حتّى وقع بينه وبين حاشية الخليفة وخَوَاصه مُنَازعة فيما يتعلّق بالأموال والاستبداد بالأمر دونه وقَوِيَت المنافسةُ بينه وبين الدّويدار الكبير، وضعُف جانبهُ حتّى قَالَ عَنْ نفسه:

وزيـر رضي مِـنْ بأسـه وانتقامـه ... بطـيّ رقـاع حشّـوُها الـنَّظْمُ والنّثـر

كـما تسـجع الورقـاء وهـي جماعـة ... ولـيس لهـا نهـي يُطـاع ولا أمـرُ

فلمّا فعل ما فعل كَانَ كثيرا ما يَقُولُ: وجرى القضاء بضدّ ما أملْتُهُ»(١).

ونلاحظ أن جملة نقل بهاء الدين الإربلي وكان شيعيًا مقولة ابن العلقمي «فلـمّا فعل ما فعل كَانَ كثيرا ما يَقُولُ: وجرى القضاء بضدّ ما أملْتُهُ»(٢). تؤكد الجرم الكبير الذي وقع فيه ابن العلقمي بممالأة التتار وخيانة الخلافة العباسية.

لقد كان في إرهاب الدويدار للخليفة بمعاونة اللصوص والعيارين كي ينقاد له ويتجاهل ابن العلقمي وهذا ما حدث، ثم المصيبة الأخرى التي تمثلت في هجوم الدويدار وابن الخليفة أبي بكر على حي الكرخ الشيعي غرب بغداد في عام ٦٥٥هـ لوأد الفتنة التي قامت فيه السبب الأبرز لإصابة ابن العلقمي بحالة كراهية شديدة للخليفة ومن حوله، خاصة أنه أصيب في فتنة الكرخ عدد من أقربائه وأصدقائه، قال ابن كثير: «كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات»(٣).

وينقل الذهبي رسالة خطيرة أرسلها ابن العلقمي لوالي إربل الشيعي محمد بن صلايا العلوي بعد نكبة الكرخ يستغيث به فيها، فجاء فيها: «كتب بها الخادم مِن النّيل(٤) إلى سامي مجدك الأثيل. ويقول فيها:

نُهِب الكَرْخُ المكرّم والعْترة العلويّة. وحسُن التّمثّل بقول الشّاعر:

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٨/ ٢٩٠.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٨/ ٢٩٠.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٤.
(٤) قرية بالقرب من الكوفة، والنيل: نهر صغير حفره الحجاج بن يوسف وسماه نيل مصر بالقرب من الكوفة.

أمــورٌ يضــحكُ الســفهاءُ منهــا ويبكــي مِــنْ عواقبهــا اللّبيــب

فلهم أسوةٌ بالحسين حيث نُهِب حُرَمُه وأريق دمُه ولم يعثر فمه:

أمــرتهم أمــري بمنعــرج اللــوَى فلم يستبينوا النّصح إلّا ضحى الغد

وقد عزموا- لا أتمّ الله عزمهم، ولا أنفذ أمرهم- عَلَى نهب الحِلّة والنّيل، بل سوّلت لهم أنفسُهم أمرا فصبرٌ جميل. وإنّ الخادم قد أسلف الإنذار، وعَجل لهمُ الأعذار.

أرى تحــت الرمــادِ ومِــيضَ نــارٍ ويوشــك أنْ يكــون لهــا ضِرامُ

وَإِنْ لَمْ يَطْفُهَــا عُقَــلاءُ قَــوْمٍ يَكُــونُ وَقُودُهَــا جُثَــثٌ وهــامُ

فقلتُ مِـنَ التَّعَجُّـبِ: لَيْـتَ شِـعْرِي أَأَيْقَــاظٌ أُمَيَّــةُ أَمْ نِيــامُ»[١]

فهذه الرسالة شديدة الخطورة تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن ابن العلقمي كان يُعد العدة للفتك بالخليفة وأعوانه بمساعدة من ابن صلايا العلوي أمير إربل وغيرهم.

بل إن المؤرخ تاج الدين بن الساعي (٥٩٣ – ٦٧٤هـ) وكان خازن المكتبة المستنصرية وممن شهدوا سقوط بغداد يؤكد على هذه الخيانة برواية شديدة الخطورة جاء فيها: «وبه (المستعصم) انقضت الخلافة العباسية من أرض العراق، وسببه أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي كان رافضيًا وكان من أهل الكرخ، وكان أهل الكرخ كلهم روافض فجرت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد على العادة، فأمر الخليفة العسكر فنهبوا الكرخ، وركبوا النساء الفواحش، فعظم ذلك على ابن العلقمي، وكاتب التتار وأطمعهم في البلاد، فيُقال إن هولاكو لما وصلت إليه مكاتبة الوزير تنكر ودخل بغداد في زي تاجر واجتمع بالوزير وأكابر الدولة وقرروا القواعد معهم، ورجع إلى بلاده فتجهّزوا، وسار إلى بغداد في جموع عظيمة من المُغول، ونزلوا على الجانب الشرقي في سنة ست وخمسين وستمائة، وخرج إليهم الوزير فاستوثقهم على أهله ونفسه، وقال إن هذا قد جاء ليزوج ابنته بابنك ولم يبرح به حتى أخرجه إليه، فأنزلوه في خيمة، وجعل الوزير يُخرج إليهم أكابر بغداد طائفة بعد طائفة حتى كملوا

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٨/ ٢٩٢.

عند التتار فوضعوا فيهم السيف وقتلوا الخليفة»[١].

على أية حال، فإن ظاهرة خيانة ابن العلقمي وقف أمامها المؤرخون في القديم والحديث؛ فمن المؤرخين القدماء كأبي شامة يرى بأن التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة، وأما اليونيني البعلبكي فيقول: «وكاتب الوزير ابن العلقمي التتر وأطمعهم في البلاد وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهّل عليهم ملك العراق وطلب منهم أن يكون نائبهم في البلاد فوعدوه بذلك»[٢].

وأما الذهبي فهو أكثر المؤرخين صراحة ووضوحًا وحنقًا على ابن العلقمي ويشير صراحة بأنه كان السبب المباشر في سقوط بغداد إذ يقول: «كلّ ذلك من عمل الوزير ابن العلقميّ الرّافضيّ، وكان حريصا على زوال دولة بني العبّاس ونقلها إلى العلويّين، والرُّسل في السرّ بينه وبين التّتر، والمستعصم بالله تائه في لذَّاته لا يطَّلع على الأمور، ولا له غرضٌ في المصلحة»[٣].

وأيد كل من ابن كثير والسيوطي وابن وصّاف وابن شاكر الكتبي والجوزجاني والسبكي ذلك، يقول التاج السبكي عن ابن العلقمي: «في قلبه غلٌّ على الإسلام وأهله وحبّب إلى الخليفة جمع المال والتقليل من العساكر فصار الجند يطلبون من يستخدمهم في حمل القاذورات ومنهم من يكاري على فرسه ليصلوا إلى ما يتقوتون به»[٤].

وهناك من المؤرخين من يعود بتهمة الخيانة إلى ما قبل ذلك، ويرى أن ابن العلقمي اتصل بجنكيز خان قبل هولاكو وأطمعه في بلاد خوارزمشاه فتم ما كان وآل الأمر إلى سقوط الدولة الخوارزمية والمؤرخ الصفدي يتبنى هذه الرواية.

لكن جانبًا آخر من المؤرخين يُدافعون عن ابن العلقمي منهم ابن الطقطقى في تاريخه «الفخري» ورشيد الدين الهمذاني في «جامع التواريخ».

واللافت أن دفاع ابن الطقطقى عن ابن العلقمي متهافت إلى أقصى درجة؛ فالرجل ينقل

---

(١) ابن الساعي: مختصر أخبار الخلفاء ص١٢٦.
(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٧.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٧/ ٦٣.
(٤) تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٦٢.

مآثر ابن العلقمي من ابنه شرف الدين وابن أخته كمال الدين بن الضحاك، ويُدافع عن تهمة المخامرة أو خيانة ابن العلقمي بقوله: «ونسبه الناس إلى أنه خامر (خان) وليس ذلك بصحيح، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة (دولة المغول)، فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير، وأحسن إليه وحكّمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه»(١).

إننا يمكن أن نتفهم دفاع ابن الطقطقى في ضوء ولائه لدولة المغول الإيلخانية التي كان يعمل في دواوينها وولائه لها، فضلًا عن تشيعه وعاطفته التي كانت تميل بطبيعة التخندق الطائفي إلى ابن العلقمي، بالرغم من أن كتابه الفخري من المؤلفات الموضوعية إلى حد كبير؛ خاصة فيما يتعلق بوصف الأحداث التاريخية في دولة العباسيين.

وبطبيعة الحال انقسم المؤرخون المحدثون حول هذا الاتهام فبراون يعتذر عن الحكم في هذه القضية والدكتور عبد الهادي شعيرة يقول إن المشكلة خرجت من حقيقتها الموضوعية إلى الخصومة المذهبية التي ألقت اللائمة على ابن العلقمي وأخرى على المستعصم، ويستطرد قائلًا بأن تعاون ابن العلقمي مع هولاكو بعد الاحتلال المغولي لبغداد وقبوله للتعاون معهم يعود إلى محاولته إنقاذ ما يمكن إنقاذه وهو الرأي الذي يرجحه الباحث الإيراني رسول جعفريان.

لكن العلامة لسترن صاحب «بلدان الخلافة الشرقية» وغيره يرى اتصال ابن العلقمي وجماعته سرًا بالمغول، لكن حسن إبراهيم حسن المؤرخ المصري المعروف يرى بأن التهمة لا تتفق مع الأحداث التاريخية؛ فإذا كان المغول قد قرّبوا ابن العلقمي فقد تخلصوا منه بعد ثلاثة أشهر، ولا أدري علام استدل بأن المغول تخلصوا من ابن العلقمي.

أما الأستاذ الدكتور جعفر خصباك فقد أسهب في مناقشة التهمة الموجهة لابن العلقمي مستعرضًا آراء المؤرخين الرواد حولها، شارحًا طبيعة الغزو للعراق بقيادة هولاكو وأنه كان جزءًا من خطة وضعت سلفًا، ومتفق عليها بين الزعماء المغول ولم تأت مفاجئة إثر دعوة مزعومة وجهها ابن العلقمي، ويبرئ الدكتور خصباك ابن العلقمي من أي مسئولية مستندًا

(١) ابن الطقطقى: الفخري ص٣٢٢. طبعة دار القلم.



إلى أن سلطته كوزير كانت ضعيفة وتأثيره على الخليفة لم يكن شيئًا إذا قورن بقائد الجيش والحاشية الآخرين، ويرفض تهمة العمل على إقامة خلافة علوية؛ ذلك لأن المغول قتلوا العديد من العلويين بعد سقوط بغداد وأحرقوا المشهد الكاظمي؛ ثم إن علاقة العباسيين بالعلويين كانت جيدة في هذه الفترة، وينتهي الدكتور خصباك إلى أن الوضع واضح في نصوص الروايات التي تتهم الوزير وأنها إشاعة لا تستند إلى دليل ولم تذكرها مصادر مهمة معاصرة للأحداث مثل كتاب «جهنكشاي» لعطا ملك الجويني، و«الذهب المسبوك» للإربلي وهو عراقي معاصر، و«تاريخ مختصر الدول» لابن العبري وهو من المعاصرين أيضًا و«تلخيص مجمع الآداب» لابن الفوطي البغدادي ورفضها رشيد الدين الهمذاني وابن الطقطقى. أما نجاته من القتل واستعماله من قبل هولاكو فهي في نظر الدكتور خصباك ليست حجة على خيانة ابن العلقمي لأن هولاكو أبقى آخرين مثل صاحب الديوان وصاحب الشرطة وغيرهم لحاجته الماسة إلى خبرتهم في إدارة شئون البلاد؛ وأخيرًا فإن الدكتور خصباك يرجح بأن شفاعة نصير الدين الطوسي هي التي أبقت على ابن العلقمي حيًا[(١)]!

لكن الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي يأتي بالخلاصة حيث يقول: «مهما يكن من أمر؛ فإذا كان الاتهام يرتبط بعدد المؤيدين له أو المعارضين فإن تهمة الخيانة العظمى تثبت على ابن العلقمي لكثرة عدد المؤرخين الذين أيدوها أو أشاروا إليها، ولكونه قبل التعاون مع الغزاة الوثنيين، وارتضى أن يعمل تحت سلطانهم، ولا اعتبار هنا للرأي القائل بأن تعاونه كان بدافع إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتخليص البلاد وما تبقى من العباد من بطش المغول وتعسفهم، فهذا الرأي مردود وغير وارد، ويسري هذا الحكم دون شك على كل من تعاون مع المغول البرابرة الوثنيين من كبار الموظفين وأمراء الأطراف وكذلك الخليفة العباسي المستعصم الذي ارتضى لنفسه أن يستسلم دون قتال يُذكر ويسلم نفسه وأهله وأهل بغداد لقمة سائغة للمغول»[(٢)].

ولقد اتخذت خيانة ابن العلقمي أشكالًا متعددة يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: المكاتبة: لقد كاتب هولاكو وجسّره وقوى عزمه على قصد العراق ليتخذ عنده يدًا وليتمكن من أغراضه، بل لقد جر هولاكو وقرر معه أمورًا انعكست عليه، واستخدم في هذه

(١) فاروق عمر فوزي: الخلافة العباسية ٢/ ٢٥٨، ٢٥٩.
(٢) فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٢٥٩.

المكاتبات شتى الحيل وبلغ نهاية المكر، قد حكي أنه لما كان يكاتب التتار تحيَّل مرة إلى أن أخذ رجلًا وحلق رأسه حلقًا بليغًا وكتب ما أراد بوخز الأبر كما يفعل بالوشم، ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطَّى ما كتب فجهزه وقال: إذا وصلت التتر مرّهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه وكان في آخر الكلام: قطعوا الورقة، فضربت عنقه، وهذا غاية في المكر والخزي، ولم تكن سياسة المكاتبة مع التتر هي الأولى في هذا السياق، بل سبقتها خطوات مهَّدت لها وكانت بمثابة الأرضية والمقدمة لما بعدها[١].

ثانيًا: تضليل الخليفة وإضعاف الجيش: اتخذ ابن العلقمي سياسة خبيثة في إضعاف جيش الخلافة ساهمت في دخول المغول ببغداد دون مقاومة تذكر، إذ اجتهد قبل مجيء المغول في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان وصرفهم عن إقطاعاتهم، ونجح في ذلك، إذ كانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف، فلم يزل ابن العلقمي مجتهدًا في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف في أواخر أيام المستعصم، قال ابن كثير: «وهم وبقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله» [٢].

ثالثًا: الغدر بالقضاة والفقهاء والخليفة: ولم تقف سياسة ابن العلقمي عند هذا الحد، فقد بادر باتخاذ الخطوة العملية حين قدم التتار، وكان أول من برز إليهم، وخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه واجتمع بهولاكو، ثم عاد فأشار إلى الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤساء الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاكو حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا خلص بهم الخليفة، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة، ويقال إنه اضطرب في كلامه من هول ما رأى من الإهانات والجبروت، ثم أعيد إلى بغداد تحت الحوطة والمصادرة يحيط به الطوسي وابن العلقمي - الشيعيان - ونهب من دار الخلافة أشياء كثيرة من الذهب والحلي والأشياء النفسية، ثم أشار هؤلاء الرافضة على هولاكو بعدم

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٥٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٤.



مصالحة الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان قبل ذلك، وحسنوا له قتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله(١).

إن موقف العلقمي لم يكن سلبيًا على الإطلاق ولكننا لا نستطيع أن نحمله التبعة كلها، بل نشرك معه الخليفة ورجال حاشيته الآخرين وعوامل تمّ ذكرها في زوال الدولة العباسية، لقد كانت أفعال ابن العلقمي جزءًا من صورة، اتضحت بذكر الأسباب الأخرى التي ساهمت في سقوط بغداد(٢).

وقفة مع مجاهد الدين أيبك وسليمان شاه

يعد الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك قائد الجيوش العباسية ومقدّمها والأمير سليمان ابن برجم التركماني قائد حرس الخليفة وعلمه الخاص من كبار الأمراء في الدولة العباسية، ولقد كان لهما الدور المباشر في رسم السياسة العباسية الداخلية والخارجية على السواء، فالبرغم من قوة وهيمنة ابن العلقمي على الخليفة المستعصم إلا أن هذين الأميرين لم يتركا الساحة خالية لابن العلقمي، وكانت العلاقة بينهم بطبيعة الحال بين شد وجذب.

وتاريخ الدويدار يجليه ابن الفوَطي في «مجمع الآداب» بقوله: «مجاهد الدين أيبك بن عبد الله الجركسي أمير الأمراء، كان دواتيّ الأمير المستنصر بالله وأخصّ خواصّه، بلغ من التقدم ما لم يبلغه أحد من أبناء جنسه، فإنه لم يزل منذ أُشير له إلى أن مات مولاه (الخليفة المستنصر) في رفعة ومنَعة وزيادة وسعادة، وكان متيقّظًا ملازمًا لسُدّته، وزوّجه بابنة السلطان بدر الدين لؤلؤ سنة اثنتين وثلاثين وستمائة وسلطنه وخلع عليه من مفاخر ملابسه، وقلّده بسيف بحلية الذهب والجوهر النفيس، ورفع خلفه من السلاح المجوهر والألوية والأعلام، ورُتّب أمير الحاجّ في أيام المستعصم بالله لما حجّت والدته سنة إحدى وأربعين»(٣).

وقد أثبت صاحب «الحوادث الجامعة» أن الدويدار كان مقربًا للغاية من الخليفة المستنصر بالله قال: «لم يبلغ أحد من أبناء جنسه مع حداثة سنه ما بلغ ومن الغد عرضت عليه

---

(١) سليمان العودة: كيف دخل التتر بلاد المسلمين ص٥٨.

(٢) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص٢٤٧.

(٣) ابن الفوطي: مجمع الآداب في معجم الألقاب ٤/ ٣٥٩، ٣٦٠.

الهدايا من رقيق الترك والخدم والحبوش وأنواع الثياب والطيب والخيل وآلة الحرب وغير ذلك، من جميع الزعماء وأرباب الدولة وخدم الخليفة وسائر المماليك، ثم الوزير والشرابي وأستاذ الدار والدويدار الكبير، ولم ينفذ له أحد شيئًا إلا وخلع على المنفذ على يده، ثم ركب وبين يديه الأمراء والمماليك ورفع وراءه السلاح وقيدت بين يديه الخيل المجنونة وشهرت حوله السيوف وسعى السكيانية وبأيديهم الحرب والأطبار، والجاووشية(١) بأيديهم الجوالكين(٢) الذهب والفضة وقصد دار الخلافة فخدم وعاد، ثم ركب عشية هذا اليوم وقصد دار الخليلة فخدم، وخرج وقت عشاء الآخرة في الأضواء والشموع واستمر دخوله إلى دار الخليفة في كل يوم بكرة وعشية على هذا الوضع»(٣).

غير أن الدويدار الصغير كان من القادة العسكريين المحنكين قال فيه الذهبي: «أحد الأبطال المذكورين والشجعان الموصوفين. كان يقول: لو مكنني أمير المؤمنين المستعصم لقهرت التتار، ولشغلت هولاكو بنفسه»(٤).

وهذا الاقتباس المهم من الذهبي يُدلل على مكانة الدويدار العسكرية ورؤيته الثاقبة كي تكون المعركة بين الدولة العباسية وجيوش المغول في أرض العدو، بل وهذا ما أراده أيضًا الأمير الكبير سليمان بن بُرجم وكان رجلا في العقد الثامن من عمره وأميرًا على التركمان الإيواقية أحد أهم فروع وأجناس الجيش العباسي حينما وسّط ابن العلقمي بينهم وبين الخليفة كي يحصلوا منه على الأموال الكافية لتدريب وتسليح الجيش العباسي.

ولقد ذكرنا سابقًا المراسلات التي تمت بين الخليفة وهولاكو أثناء وبعد سقوط قلاع الإسماعيلية الباطنية في إيران أواخر عام ٦٥٤هـ، ورأينا فيها مدى سذاجة الخليفة وخياله الحالم وظنه الحسن بهولاكو الذي سيترك له بغداد على حد زعمه!

ولقد أدت هذه الخفة من الخليفة إلى غضب واسع في صفوف قادة الجيش العباسي، قال الهمذاني: «اجتمع عند الوزير أمراء بغداد وعظماؤها، مثل سليمان شاه بن برجم، وفتح الدين

---

(١) طائفة من حجاب الدواوين كانت تسير في طليعة المواكب الرسمية.

(٢) أي الصولجان، ويتفق هذا مع مهمة الجاووشية في هذا العصر بوصفهم من ضباط الاستعراضات.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص١٢٣.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٧١.



بن كُرّه، ومجاهد الدين الداوتدار الصغير، وأطلقوا ألسنتهم بقدح الخليفة وطعنه قائلين: إنه صديق المطربين والمساخرة، وعدو الجيوش والجنود .. وقال سليمان شاه: إذا لم يقدم الخليفة على دفع هذا الخصم القوي، ولم يبادر إلى طلب العون والمساعدة؛ فسيتغلب جيش المغول عن قريب على بغداد، وحينئذ لا يرحمون أي مخلوق كما فعلوا ذلك بسائر البلاد والعباد، فلا يُبقون على أي شخص من الحضر كان أو من البدو، قويًا كان أم ضعيفًا، وسيخرجون ربات الخدود من ستر العصمة، ولو أن المغول لم يحدقوا بجميع الجهات لكان من السهل حشد الجنود من الأطراف، ولحملتُ عليهم بجيش في غارة ليلية وشتتُ شملهم، ولو جرت الأمور على خلاف ذلك فأولى بالفتى أن يُقتل في حومة الوغي في عزة وشرف»(١).

وقد كان ما كان من الخليفة وتقاعسه على ما مر بنا سابقًا، لكن ولكي تكتمل الصورة أمامنا فإن الدوادار أيبك مع ما كان به من شجاعة وحب لمدافعة العدو فإنه كان شخصية تحب السيطرة ويكره ابن العلقمي كرهًا عظيمًا لقربه من الخليفة وسيطرته عليه من ناحية، ولاكتشافه علاقة ابن العلقمي بهولاكو؛ فقد ذكر منهاج سراج في «طبقات ناصري» أن الدويدار اكتشف هذه المراسلات ووقعت في يده إحداها فأخذها «إلى الخليفة لكن الخليفة لم يقبلها بسبب الجفوة بين الوزير والدويدار وعندما علم الوزير بما فعله الدويدار ذهب عند الخليفة وأوهمه كذبا أن الدويدار يريد عزله و تولية ابنه أبي بكر مكانه»(٢).

ويسرد الهمذاني منازعات الدويدار وابن العلقمي وكيفية سيطرة الدويدار على الخليفة بعد غرق بغداد الكبير في أواخر صيف سنة ٦٥٤هـ - وقد كان بالمناسبة أحد العوامل التي أدت إلى ضعف الخلافة العباسية – قال: «خلال تلك الواقعة امتدت أيدي جماعة من المشاغبين والرعاع والسِّفلة بالاعتداء والسلب، وكانوا كل يوم يغتصبون بعض الأشخاص الأبرياء، وكان مجاهد الدين الدواتدار يحتضن بنفسه هؤلاء الرعاع والسفلة، فصار في مدة وجيزة صاحب شوكة وبأس ولما لمس في نفسه القوة، ورأى الخليفة المستعصم شخصًا عاجزًا لا رأي له ولا تدبير وساذجًا؛ اتفق مع طائفة من الأعيان على خلعه وتولية خليفة آخر من العباسيين في مكانه، وعندما علم مؤيد الدين بن العلقمي نبأ تلك المؤامرة أخبر الخليفة على

(١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ ١/ ٢٧٣، ٢٧٤.
(٢) منهاج سراج: طبقات ناصري ص١٩١. طبعة ٢٣.

انفراد قائلًا: يجب تدارك أمرهم. فاستدعى الخليفة الدواتدار على الفور وأطلعه على ما قاله الوزير»[1]. وقد مرت بنا هذه القصة من قبل.

إذن في ضوء هذه الشخصية المركبة بين حب الجهاد ومدافعة العدو بل وقتله على أيديهم وبين حب السيطرة والنفوذ وإخضاع الناس له يمكن أن نتلمس طبيعة هذه الشخصية، لكن في المقابل كان مجاهد الدين ممن يحبون الترف والتنعّم.

على أية حال قُتل الأميران الكبيران مجاهد الدين أيبك الجركسي وسليمان شاه بن بُرجم التركماني على أيدي المغول والعجيب أن رؤوسهما أُخذت إلى الموصل وعُلقت فيها، ولم أقف على سبب ذلك، فلعلها خطة من هولاكو كي يخضع هذه المدينة وما حولها بالرغم من أن أميرها بدر الدين لؤلؤ ممن قدموا الدعم المادي والتكتيكي للمغول في هجومهم على بغداد، ولعلها أيضًا كانت السبب في هرولته لهولاكو في همذان كي يعفو عنه ويبقيه على إمارة الموصل وهذا ما حدث.

إن الحكم على مثل هذه الشخصيات التي هي أقرب للتركيبية منها إلى الوحدوية أمر ليس بالميسور في ظل ندرة المادة التاريخية المتعلقة بهما، لكن يكفيهما شرفًا أنهما دافعا عن بغداد، بل واستشهدا على أيدي المغول ولم يخونا الناس والخلافة العباسية كما فعل ابن العلقمي، لكننا لا يمكن أن نصبغ البطولة الكاملة عليهما؛ فلقد كان في المنازعات والمشاحنات بينهم الدور الأبرز في إضعاف الخلافة العباسية على مدار الأعوام الستة عشر التي ظلوا ملازمين فيها للخليفة المستعصم.

نصير الدين الطوسي .. هل هو خائن؟!

ولد نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن في طوس بالقرب من نيسابور في غرب إيران أواخر القرن السادس الهجري وبالتحديد سنة ٥٩٧هـ، وقد تعلم على بعض علماء عصره خاصة من المعتزلة والشيعة على السواء وعلى رأسهم معين الدين سالم بن بدران المعتزلي الرافضي كما ذكر الذهبي وابن شاكر والصفدي وغيرهم.

شُغل الطوسي بعلوم الفلسفة والحكمة والمنطق والرياضة والفلك، أي بالعلوم التجريبية

---

(١) الهمذاني: جامع التواريخ مجل٢ ١/ ٢٦٢.

عمومًا، وقد تفنن فيها حتى صار مرجعًا من مراجع عصره، بل قيل كان أعظم أهل زمانه في هذه العلوم، واللافت أن الرجل التحق بالباطنية الإسماعيلية في قلاع الألموت في إيران، وقد ترقى بينهم حتى صار وزيرًا وكاتبًا لهم، ثم لما خرجت جموع المغول للسيطرة على المشرق الإسلامي ترك الإسماعيلية التي قضى في رحابها بضعًا وعشرين سنة والتحق بهولاكو!

وقد ترك حصيلة علمية ومصنفات جمة في العلوم المختلفة، لعل أهمها كتابه «تجريد العقائد» وهو من أهم المصنفات العقدية والكلامية بل والفلسفية في مذهب الشيعة الإمامية وهو لا يزال مصدرًا أصيلًا من المصادر المعتمد عليها في حوزاتهم العلمية[١].

ومهما يكن فإن كثيرًا من علماء السنة فضلًا عن الشيعة قد جعلوه في مكانة سامقة من الناحية العلمية، قال الذهبي: «كان رأسا في علم الأوائل، لا سيما معرفة الرّياضيّ وصنعة الأرصاد، فإنّه فاق بذلك على الكبار»[٢].

وأثنى على أخلاقه ابن شاكر والصفدي الذي قال: «دفع عن النَّاس أذاهم وعن بعضهم إزهاق أرواحهم ومن حلمه ما وقفت له على ورقة حضرت إليه من شخص من جملة ما فيها يقول له: يا كلب يا ابن الكلب فكان الجواب وأما قوله كذا فليس بصحيح لأن الكلب من ذوات الأربع وهو نابح طويل الأظفار وأنا فمنتصب القامة بادي البشرة عريض الأظفار ناطق ضاحك، فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص وأطال في نقض كل ما قاله هكذا برطوبة وتأن غير منزعج ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة»[٣].

وإذا كان الصفدي وابن شاكر ومن قبلهما الذهبي من علماء القرن الثامن الهجري ممن اقتربوا ممن عاصر وشاهد واقعة سقوط بغداد، فإن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانا من علماء نفس المرحلة وقالا فيه قولًا شنيعًا، قال ابن تيمية: «كان وزير هولاكو النصير الطوسي من أئمتهم. وهؤلاء أعظم الناس عداوة للمسلمين وملوكهم»[٤]. وعند حديثه عن الإسماعيلية في «مجموع الفتاوى» يقول: «إنَّ التَّتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من

(١) نصير الدين الطوسي: تجريد العقائد، تحقيق عباس سليمان ص٦.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٥٠/ ١١٤.
(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٤٩.
(٤) ابن تيمية: مسألة في الكنائس ص١٤٦.

ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم؛ فإنَّ منجِّم هولاكو الَّذي كان وزيرهم وهو «النُّصير الطُّوسيُّ كان وزيرًا لهم بالألموت، وهو الَّذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء»(١).

أما ابن القيم فقد كان أشد ضراوة في هجومه على النصير الطوسي، قال: «لما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر الملحد، وزير الملاحدة النصير الطوسى وزير هولاكو، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفا إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعيين، والسحرة. ونقل أوقاف المدارس والمساجد، والربط إليهم، وجعلهم خاصته وأولياءه، ونصر فى كتبه قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله: من عمله، وقدرته، وحياته، وسمعه، وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إله يعبد ألبتة»(٢).

والحقيقة تقتضي أن نرجع لتاريخ الرجل، وللأسف تكاد تكون ترجمته واحدة عند علماء أهل السنة والشيعة اللهم إلا من رماه بالخيانة صراحة مثل ابن تيمية وابن القيم وغيرهما.

لقد انضم النصير الطوسي إلى رجال الإسماعيلية في قلاع الألموت بالقرب من قزوين في وسط إيران منذ عام ٦٢٥هـ، وقد رعاه وزيرهم آنئذ ناصر الدين عبد الرحيم محتشم فمكث هناك ثمانية وعشرين عامًا ألف فيها عشرات المؤلفات والرسائل في العقيدة والفلسفة والرياضة والفلك، وفي هذه المرحلة من حياته انتسب للمذهب الإسماعيلي الذي تبرّأ منه بعد خروجه من القلعة سنة ٦٥٤هـ معلنًا انتسابه للمذهب الاثني عشري ومنضمًا لهولاكو والمغول، وهناك من الباحثين من يؤكد إسماعيلية الطوسي منذ صغره.

ومهما يكن من أمر عقيدته التي ظلت في إطار التشيع، فإن حملة هولاكو على الشرق الإسلامي انتهت أمام قلاع الإسماعيلية في شوال من عام ٦٥٤هـ، وكان بين المغول والإسماعيلية مراسلات للتسليم أو الحرب، فجرّب الإسماعيلية وكان زعيمهم ركن الدين خورشاه التهادن والمصالحة وقد أرسل بدوره وفدًا من أكابر رجال دولته وعلى رأسهم نصير الدين الطوسي، لكن الغريب أن نصير الدين الطوسي أقنع خورشاه بضرورة التسليم، ثم

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣/ ٥٠٧.
(٢) ابن القيم: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ٢٦٧.

صحبه معه إلى هولاكو، بل والأعجب أنه احتفل مع المغول بهذه المناسبة، وقال فيها شعرًا ذكره الهمذاني في «جامع التواريخ»[١].

وبعد القضاء على الإسماعيلية وهدم معظم قلاعهم أمّن المغول النصيرَ الطوسي وبعض من كان معه، قال الهمذاني: «لما تأكد هولاكو من صدق وإخلاص الخواجة نصير الدين الطوسي وأبناء رئيس الدولة وموفق الدولة، الذين كانوا أطباء كبارًا مشهورين أصلهم من همذان؛ شملهم بعطفه وإنعامه، وأعطاهم الخيول اللازمة لحمل أهلهم ومواليهم وأقاربهم مع أتباعهم وخدمهم وأشياعهم، وإخراجهم من القلعة وألزمهم حضرته. وهم وأبناؤهم حتى اليوم ملازمون للحضرة، ومقرّبون من هولاكوخان وأفراد أسرته المشهورين»[٢].

ومنذ هذا التاريخ ذي القعدة من عام ٦٥٤هـ بدأت سيطرة الطوسي الفعلية على هولاكو حتى قال ابن شاكر في «فوات الوفيات»: «احتوى على عقله حتى إنه لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره به»[٣].

ولئن كان المؤرخون على أصناف ثلاثة في الرجل، فمنهم من يتهمه بالخيانة صراحة كابن تيمية وابن القيم، ومنهم من ينفي التهمة أو لا يذكرها إطلاقًا كابن الفُوَطي وابن شاكر والصفدي ومنهم من يقف بين هؤلاء وأولئك لا يملك دليلًا ملموسًا لتأكيد هذا أو نفيه كابن كثير، فإن معاصر هذه الأحداث رشيد الدين الهمذاني أحد أبرز المعجبين بنصير الدين الطوسي يسرد لنا أحداثًا ترجح الرأي القائل بخيانة الطوسي للخلافة العباسية وسعيه للقضاء عليها.

فلقد ذكرنا من قبل أن هولاكو كان يتبع المنجمين اتباعًا أعمى ولم يكن يتحرك لغزو بلد والهجوم عليه إلا بعد معرفة رأي الفلكيين في ذلك، وبعد قضائه على الإسماعيلية بات الطريق مفتوحًا أمامه لإسقاط العراق والخلافة العباسية في يده.

وكعادته استشار هولاكو منجمه حسام الدين الذي حرص أن يُثني هولاكو عن عزمه بقصد بغداد فراح يؤكد له أن هذه الحملة تحدث خللاً في نظام الكون، فضلًا على أنها سوف

(١) الهمذاني: جامع التواريخ مجل٢ ١/ ٢٥٤ – ٢٥٧.
(٢) الهمذاني: جامع التواريخ مجل٢ ١/ ٢٥٧.
(٣) ابن شاكر: فوات الوفيات ٣/ ٢٥٠.

تكون وبالًا على الخان نفسه، فكان مما قاله له: الحقيقة أن كل ملكٍ تجاسر – حتى هذه اللحظة – على قصد الخلافة والزحف بالجيش على بغداد لم يبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الملك أن يستمع إلى نصائحي، وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ست مصائب كبيرة: تموت الخيول كلها، ويمرض الجنود، ولن تطلع الشمس، ولن ينمو النبات في الأرض، ولن ينزل المطر، وتهب رياح شديدة، ويعاني العالم من الزلازل، ويموت الخان الأعظم في هذا العام»[١].

لكن هولاكو استدعى نصير الدين الطوسي حيث فنّد كل ما قاله حسام الدين، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو، ولم يقف عند هذا الحد، بل يؤيد وجهة نظره بالحجج القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين، فذكر أن الكثيرين من أصحاب الرسول ﷺ ماتوا في الدفاع عن الدين، ومع ذلك لم تقع أية كارثة، وإذا قيل أن ذلك خاص ببني العباس، فإن الكثير من الناس قد خرجوا على هذه الأسرة وقتلوا منهم بعض الخلفاء، دون أن يحدث أي خلل، وأخذ نصير الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين، وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[٢].

ومع ما سبق ذكره من موقف كل من ابن العلقمي وشيعة بغداد فضلا عن شيعة الحلة فإننا لا نستبعد اتصالهم به أو اتصاله بهم.

وعلى كل فقد حضر الطوسي سقوط بغداد، وكان من جملة الوفد الذين رأوا الخليفة وجلسوا معه واستمعوا له بل وصاحبوه إلى مجموعة دور الخلافة ليخرج لهم دفائنه من الكنوز والتحف، ولم يُحرّك ساكنًا ولا تدخل للعفو عن الخليفة أو حتى للحد من سفك دماء مئات الآلاف ممن قتلوا مدة ٤٠ يومًا على يد المغول.

بل أكثر من ذلك ذكر ابن الطقطقي القريب من رجال الدولة الإيلخانية المغولية أن الذي رتّب دخول ابن العلقمي على هولاكو كان نصير الدين الطوسي، وفي رواية أخرى هو الذي ربّى ابن العلقمي في حضرة هولاكو قال: «كان الّذي تولى تربيته (ابن العلقمي) في الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسيّ»[٣].

---

(١) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص١٩٣.

(٢) الهمذاني: جامع التواريخ مجلد٢ ١/ ٢٨٠، ومصطفى بدر: محنة الإسلام ص١٦١.

(٣) ابن الطقطقى: الفخري ص٣٣٨.



وعلى كل فإننا لا يمكن إلا وأن نتهم النصير الطوسي بخيانة الأمة والخلافة العباسية، بل والتواطؤ مع ابن العلقمي لتحقيق هذا المأرب ولو كان ذلك خوفًا من بطش هولاكو كما ذكر بعض المؤرخين فما كان في وسعه إلا أن يترك هذا الطاغية ويفر بنفسه عند أول فرصة له، لكن الرجل آثر الاقتراب من هولاكو، بل وعيّنه نائبًا له على العراق بحيث كان يزورها بصورة مستمرة لمتابعة أحوالها، وظل مخلصًا لدولة المغول حتى وفاته عام ٦٧٢هـ.

وبرغم ميله وحبه للعلوم الرياضية والفلكية وبرغم تسويغ البعض ممن قال بأنه ترك الإسماعيلية وانضم للمغول لأنه وجد فيهم عونًا له لتحقيق مشروعه العلمي فإن أي عاقل لا يمكن أن يقبل هذا التسويغ، فأي علم هذا الذي يتحقق على جثث مئات الآلاف من البشر!

وأي علم هذا الذي يجعل صاحبه، وإن بنى أعظم مرصد ومجمع للعلماء والفقهاء في عصره في مراغة بأذربيجان بعد سقوط بغداد بعام واحد سنة ٦٥٧هـ[1]، ومكتبة ضخمة عظيمة ملأها كتبًا من التي «نهبها» - بلفظ المؤرخين - «من بغداد والشَّام والجزيرة حتَّى تجمّع فيها زيادة على أربع مائة ألف مجلد»[2].

إن الطوسي كابن العلقمي كلاهما سواء في غاية الانقضاض على الدولة العباسية والقضاء عليها، وإن اختلفت رتبة كل منهما في حجم الخيانة، وهي بلا ريب عظيمة ولو كان الضحية فردًا فضلًا عن مئات الآلاف من القتلى!

وقفة مع شيعة بغداد

إن موقف الشيعة في هذه الفاجعة الكبرى، فاجعة الإسلام في القرن السابع الهجري، منذ ابتداء أمر المغول وظهورهم في عام ٦١٦هـ حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ بل وما بعدها لا يبعث إلا على الغثيان، فكيف بقوم عاشوا بين أهل السنة وأمنوا جانبهم وأمنوهم يتحالفون مع الأعداء ضد الأمة والوطن الواحد، ضد التاريخ المشترك، بل وضد العقيدة المشتركة إن كانت مشتركة من الأصل!

لقد تعجب ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) وهو أقرب للقرن السابع وكان شاهدًا عليهم، قريبًا

(١) محمد إقبال: تطور الفكر الفلسفي في إيران ص١٣٩.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٤٧.

مع غيره من العلماء والمؤرخين لهذه الفاجعة، ولقد استخلص الرجل حكمًا لطالما توقفتُ أمامه طويلًا، كيف للعالم الجهبذ مثل شيخ الإسلام ابن تيمية أن يُخرج مثل هذا الحكم القاطع المانع؟!

ولقد كان تطوافي في مصادر التاريخ الإسلامي عربيه وفارسيه في هذه الفترة التاريخية دليلًا وشاهدًا على مقالة ابن تيمية رحمه الله التي جاء فيها: «هم يستعينون بالكفَّار على المسلمين، فقد رأينا ورأى المسلمون أنَّه إذا ابتلي المسلمون بعدوٍّ كافرٍ كانوا معه على المسلمين، كما جرى لجنكزخان ملك التَّتر الكفَّار، فإنَّ الرَّافضة أعانته على المسلمين ... وكذلك من كان بالشَّام من الرَّافضة الَّذين لهم كلمةٌ أو سلاحٌ يعينون الكفَّار من المشركين ومن النَّصارى أهل الكتاب على المسلمين، على قتلهم وسبيهم وأخذ أموالهم»[١].

وقد حاول بعض المؤرخين الشيعة[٢] أن يُدافع عن موقفهم الشاذ ويجد لهم عذرًا فذكر أنهم ثأروا لأنفسهم مما حل بهم من البلاء في الفتنة التي وقعت ببغداد سنة ٦٥٥هـ، أي فتنة الهجوم بقيادة الدويدار وابن الخليفة أبي بكر على حي الكرخ الشيعي وقد ارتكبوا عددًا من الجرائم والانتهاكات، ولكن لا يجد الباحث مبررًا لهذا العمل، وإن كان بعض أهل السنة قد بطشوا بهم بعض البطش فليس ذلك ببالغ معشار ما ارتكبه الشيعة في أيام الدولة البويهية على سبيل المثال فقد قال هلال الصابئ: «كانت طائفتهم (أي الشيعة) قد أسرفت بالتبسّط والتسلّط وركوب المنكرات وإتيان المحظورات»[٣].

ويذكر بعض المؤرخين أن هناك من كبار الشيعة ووجوههم من قتل على أيدي المغول أيضًا، قال الصفدي: «حكى أنه (ابن العلقمي) كان في الدِّيوان جالسا فدخل بعض التتار ممَّن لا وجاهة له راكبًا فرسه فساق إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد، وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوَّة النَّفس وأنه بلغ مراده وقال له بعض أهل بغداد: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه وحميت الشِّيعة حمية لهم. وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون وارتكب من الفواحش مع نسائهم

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ٥/ ١٥٦.
(٢) مثل المؤرخ الإيراني رسول جعفريان في كتابه «الشيعة في إيران» وغيره، ومعظمها كتابات تلفيقية تقتطع من الروايات التاريخية ما ينسجم مع أفكار مؤلفيها!
(٣) هلال الصابئ: ذيل الذيل لتجارب الأمم ص٣٣٩.

وافتضت بناتهم الأبكار مِمَّا لا يعلمه إلَّا الله تعالى»[١].

وقد ذكر الأستاذ الدكتور مصطفى بدر أن «هذا بعيد لا أصدقه خصوصًا إذا علمنا أن ميدان فظائع المغول كان بغداد الشرقية التي لم يسكنها الشيعة، كما نعلم أنه حين دخل المغول بغداد الغربية وتحول أهل السنة إلى بغداد الشرقية ظل هؤلاء الشيعة في أماكنهم ولم يبرحوها، وليس من المعقول أن تكون العلاقة بين هولاكو والشيعة ممتازة وفيها تعاون كامل أثناء حصاره لبغداد ثم لا يحميهم من جنده وهو الذي أرسل مائة من جنوده لحماية قبر من يتشيعون له، كما أنه هو الذي عيّن فخر الدين الدامغاني صاحب الديوان ببغداد ونظام الدين عبد المؤمن قاضيًا لقضاتها وهما من الشيعة، وعلى كل حال فإنه إذا كان قد حل بالشيعة عنت ما، فإنه لابد أن يكون قليلًا بالنسبة لما حل بأهل السنة»[٢].

والحق أن رأي الأستاذ الدكتور مصطفى بدر يؤيده مؤرخ ثقة كان من المعاصرين لسقوط بغداد بل كان من موظفي الدولة الإيلخانية التي أقامها المغول على أنقاض الخلافة العباسية، هذا المؤرخ هو جمال الدين بن العبري النصراني (ت٦٨٥هـ) الذي قال: «أمر هولاكو البتيكتجية ليكتبوا على السهام بالعربية: إن الأركاونية[٣] والعلويين (الشيعة) والداذنشمدية وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وأمواله. وكانوا يرمونها الى المدينة»[٤].

واللافت بل ما يبعث على الألم أنه بدلًا من نجدة أهل بغداد بالسلاح والجنود وفك الحصار والقتل عنهم، أوفد شيعة الحلة أثناء حصار المغول لبغداد وفدًا من كبرائهم وفقهائهم؛ قال الهمذاني: «وأثناء حصار بغداد كان قد قدم إليه (أي هولاكو) بعض العلويين والفقهاء من الحلة، والتمسوا إليه أن يعيّن لهم شحنة (مديرًا إداريًا)، فأرسل إليهم هولاكو خان بوكله والأمير بجلي النخجواني، وأوفد في أثرهما بوقاتيمور لجس نبض أهل الحلة

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٥١.

(٢) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص١٩٣، ١٩٤.

(٣) أتباع أركون ومعناه الدهقان العظيم. وهي كلمة يونانية. ولعله يقصد بها الموظفين العموميين في بغداد، إذا علمنا أن الدهقان هو رئيس القرية أو الإقليم أو المتصرف ذو الخبرة على المال أو العقار أو غيره. راجع: المعجم الوسيط ١/ ٣٠٠.

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٧٠.

والكوفة وواسط، والوقوف على مدى إخلاصهم، فاستقبل أهل الحلة الجند، وأقاموا لهم جسرًا على الفرات، وأقاموا الأفراح ابتهاجًا بقدومهم، ولما شهد بوقاتيمور إخلاصهم وثباتهم رحل في العاشر من صفر»(١).

وليس أفضل من هذه الرواية المفجعة التي نقلها الهمذاني (ت٧١٨هـ) وهو وزير دولة المغول في العراق بُعيد فاجعة سقوط بغداد، حيث تؤكد على انعدام المروءة والنجدة بل والتواطؤ الواضح ضد أهل بغداد السنة، ولا تزال السنون تكشف ستر هؤلاء حتى رأيناهم متواطئين في قتل أهل سوريا لوأد ثورتهم هذه الأيام لا يراعون كبيرًا ولا صغيرًا، جزاهم الله بما صنعوا، وقد يقول قائل إن التعميم ليس من الموضوعية والبحث العلمي في شيء إلا إذا اتكأ على قاعدة صلبة من المعلومات. والرد أن تواتر مثل هذه الحوادث من الشيعة لاسيما الإمامية والإسماعيلية والنصيرية لا يمكن عدّه كذلك من قبيل الاستثناءات أو الحوادث الفردية، وإن كنا لا نستبعد قتل كثير من عوام الشيعة في بغداد ممن لم يكن لهم حول ولا قوة، لكنهم لا يُقارنون عددًا بمن قُتل من السنة بأي حال من الأحوال.

والحق أنه كان لسقوط بغداد أثره البالغ على انتشار التشيع، فالمعروف أن الخلافة العباسية السنية اشتهرت في ذلك الوقت بمحاربة التشيع والحد منه في مناطق إيران وغيرها، إلا أنه بالقضاء على الخلافة العباسية انتشر التشيع في تلك المناطق بطريقة غير مألوفة، نتيجة لازدياد نفوذ رجال الشيعة الذين أصبحوا يتبوؤون المراكز المهمة لدى المغول، كنصير الدين الطوسي الذي كان مستشارًا لهولاكو، ووزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي الذي أسند إليه حكم بغداد بعد سقوطها، هذا بالإضافة إلى ازدياد نفوذ المسيحيين الذين ساعدوا هولاكو في الاستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، إذ من المؤكد أن يحظوا بمكانة عالية في تلك المناطق على حساب مكانة السكان المسلمين، خاصة وأن دوقوز خاتون زوجة هولاكو التي كانت مسيحية نسطورية لم تكن تألو جهدًا في التعاطف مع المسيحيين الشرقيين، والعمل على رفع شأنهم لدى زوجها هولاكو(٢).

(١) الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ ١/ ٢٩٦.
(٢) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص٢٥٣.



موقف اليهود والنصارى من سقوط بغداد

كنا قد رأينا عند الحديث عن سقوط بغداد أن جنود المغول بأمر من هولاكو ألقوا على أهل بغداد رسائل تؤمن طوائف منهم وعلى رأسهم أهل الذمة من النصارى خاصة.

وقد كان لليهود والنصارى تواجد لافت في العاصمة بغداد، وكانت الخلافة تعين لكل منهم رئيسًا للطائفة يُسمى رأس مثيبة، وغالبًا ما كان يُختار من طائفته قبل أن تعترف مؤسسة الخلافة والقضاء به.

واللافت أن ريتشارد كوك المؤرخ والمفكر الغربي يؤكد أن اليهود وقفوا مع المسلمين في دفاعهم عن المدينة أثناء حصار المغول، ومن ثم فقد قاسوا مثلما قاسى المسلمون من الذبح والتنكيل[1]!

ولا أعرف على أي مصدر عوّل كوك في كلامه هذا، لكن من المهم أن ننوّه على أن المؤسسات الإدارية للخلافة كانت تتعامل معهم بأريحية تامة، وأن المعاملة بين الطرفين كان يسودها جو من الود والتفاهم، وقد ذكر ابن الفوطي[2] نتفًا من هذه العلاقة لعل أبرزها ما ذكره في ترجمته لرئيس الطائفة اليهودية في بغداد أبو الفتح إسحاق بن الشويخ المتوفى سنة ٦٤٥هـ حيث قال: «كان ذا فضل وأدب، يكتب خطًا حسنًا، وينظم شعرًا جيدًا، ويعرف علم النجوم معرفة جيدة، كتب إلى تاج الدين معلّى ابن الدبّاهي صدر المخزن (وزير المالية) رقعة لبعض اليهود من حرْبى، فكتب عليها: يُجاب سؤال رافعيها. فكتب ابن الشويخ:

مُذ كان همكم في جبر منكسرٍ أو رَفْد مُفتقرٍ أو رَفْع منخفضِ

حذَا يراعُكُمُ في الفعلِ حذوكم فليس يُنكر منه رفع منخفضِ

ومن الجدير بالذكر أن ابن الفوطي لم يذكر اليهود من جملة من نجوا من مذابح المغول حيث قال: «قتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال، فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل، ما عدا النصارى فإنهم عُيّن لهم شُحّان حرسوا بيوتهم..»[3].

---

(١) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص٢١٦ نقلا عن Richard cock, Baghdad the city of peace, p.152.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٢٦٠.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٥٩.

لكن على الجانب الآخر يؤكد ابن كثير على أن من جملة من نجا من القتل هم اليهود والنصارى، قال: «لم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانا، بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم»(١).

وأيًا ما كان من أمر اليهود فإنهم فيما يبدو لاقوا القتل على يد المغول مثلهم مثل غيرهم من المسلمين وإن لم يُفنوا عن آخرهم؛ فقد كان لهم وجودهم في ظل الدولة الإيلخانية فيما بعد.

لكن من المؤكد وفقًا لرواية ابن الفوطي وغيره من المؤرخين أن النصارى كانوا من جملة من شملهم عفو المغول.

لقد كان جيش هولاكو في غزواته الكبرى ضد أراضي الدولة الإسماعيلية، وأراضي الخلافة العباسية والشام وفلسطين يضم بين صفوف قواته أعدادًا كبيرة من المسيحيين النسطوريين وعلى رأسهم قائده الكبير كتبغا نويان، وكان المغول يقومون بفتوحاتهم وغزواتهم لأقطار شتى من المحيط الهادي شرقًا والهند الصينية في الجنوب الشرقي إلى الأراضي البولندية وقلب أوربا غربًا، ومن سيبيريا إلى بحر البلطيق شمالًا، إلى شبه القارة الهندية وشمال الجزيرة العربية جنوبًا، بدافع المكاسب المادية ولتوسيع رقعة أراضيهم في سبيل تكوين إمبراطوريتهم العالمية التي كانوا يتوقون بتلهف إلى تكوينها، وكان من ضمن الجيوش الغازية لبغداد المسيحيون «الجرجانيون» الكرج حيث أسهم أولئك بكتائب عسكرية وغيرها من مؤن وعتاد حربي، وكان ذلك من ضمن الانقياد للإمبراطورية المغولية التي فرضت على أتباعها التبعية والخضوع، تحت سلطان القاآن في قراقوم عاصمة المغول والتي فرضت عليهم المساهمة في حملات أسيادهم العسكرية ضد أعدائهم، وقد نال المسيحيون من سكان بغداد احترام المغول وحفظت أعراضهم وأموالهم ولم يتعرضوا لدمار المغول(٢).

على أننا يجب ألا نغفل دور زوجة هولاكو في هذا الدفاع عن النصارى بحكم نصرانيتها؛ فقد كان من الطبيعي أن يحظوا بمكانة عالية في تلك المناطق على حساب مكانة السكان

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٥.
(٢) الصلابي: المغول بين الانتشار والانكسار ص٢٢٨.

المسلمين، خاصة وأن دوقوز (ظفر) خاتون زوجة هولاكو التي كانت مسيحية نسطورية لم تكن تألو جهدًا في التعاطف مع المسيحيين الشرقيين، والعمل على رفع شأنهم لدى زوجها هولاكو، قال ابن كثير: «كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصّرت وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق»[١].

وقد أكد لنا «تاريخ الزمان» للمؤرخ النصراني ابن العبري – وقد كان عمره وقت سقوط بغداد ٣٣ عامًا – حماية المغول للنصارى، قال: «أما الجاثليق (كبير النصارى) فجمع النصارى كلهم في كنيسة السوق وصانهم هناك ولم يلحق أذى بأحد منهم، ونقل أغنياء العرب أموالهم وأمتعتهم إلى دار الجاثليق يؤملون النجاة ولكنهم قُتلوا عن بكرة أبيهم»[٢]. وقد ذكر كوك أن جاثليق النصارى لم يوافق على إيواء المشردين والمستغيثين به من المسلمين رغم أن بعضهم عرض كل ثرواته، وتركهم لسيوف المغول[٣]!

ويذكر ابن العبري في موضع آخر أن حماية المغول للنصارى تعدت بغداد إلى مدن عراقية أخرى، قال: «وفي أثناء الحرب أرسل نصارى تكريت إلى الجاثليق يطلبون شحنة لحراستهم فلبى طلبهم، ولما زحف التتر وقتلوا زعماء العرب ونهبوا أموالهم احتشد النصارى قاطبة في الكنيسة الخضراء المؤسسة على اسم أحودامه وقد احتلّها العرب فلاذوا بها ومكثوا دون أذى»[٤].

وعلى كل حال، فإن المسيحيين لم يشتركوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة التي عاشوا فيها زمنًا طويلًا تحت ظل الخلفاء العباسيين ونجوا من العذاب الذي صبّه المغول على تلك المدينة وأهلها، وكان موقفهم في هذا الأمر يُشبه تمامًا موقف الشيعة، ولم يدافع عن بغداد في محنتها ويلاقي العذاب ألوانًا إلا أهل السنة في الغالب وبعض من اليهود[٥].

نهاية الدولة الأيوبية

نجح الأيوبيون في صد الحملة الخامسة على دمياط بتعاونهم ووقوفهم صفًا واحدًا أمام

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٨٨.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٣٠٨.

(٣) Richard cock, Baghdad the city of peace, p.149.

(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٣١٣.

(٥) مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى ص٢١٦، ٢١٧.

هجمات الصليبيين، وكانت حملة قوية استمرت ثلاث سنوات متواصلة من ٦١٥هـ إلى ٦١٨هـ؛ ولكنهم ما لبثوا حين زال خطر العدو، أن عادوا إلى منازعاتهم الداخلية لتحقيق مطامع إقليمية.

وبلغ الخلاف أشده بين السلطان الملك الكامل وأخيه الملك المعظم، سنة ٦٢٠هـ بسبب رغبة الأخير في توسيع مناطق نفوذه في بلاد الشام، فاستولى على بعض أعمال حماة مثل المعرَّة وسلمية، وكانت لابن عمه الملك الناصر صلاح الدين قلج أرسلان، ولكن الملك الكامل فرض على أخيه الملك المعظم ترك ما استولى عليه فكان ذلك بداية الخلاف بينهما[١].

أدَّت الخلافات الشديدة بين أبناء السلطان الملك العادل وعبث فلول الخوارزمية المنهزمين أمام المغول على تخوم البلاد إلى إضعاف السلطنة الأيوبية مما شجع الفرنجة على إرسال حملة صليبية جديدة إلى المشرق، وإلى عقد اتفاق يافا سنة ٦٢٦هـ مدة عشر سنوات بين الامبراطور فريدريك الثاني والكامل. وقد نص هذا الاتفاق على تسليم مدينة القدس للفرنجة على ما هي عليه، لا تجدد أسوارها ولا يكون للفرنج شيء من ظاهرها، بل تكون جميع القرى للمسلمين، وأن يكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين، واستثنيت قرى معدودة تركت للفرنج على طريقهم من عكا إلى القدس[٢].

أدَّى تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة إلى إثارة موجة عارمة من السخط والأسى في العالم العربي والإسلامي، وعد وصمة في جبين السلطان الكامل وعصره، وقد استغل ابن أخيه الملك الناصر داود هذه الحادثة فأمر خطيب المسجد الأموي بإثارة المسلمين على سلوك عمه، وحاول الكامل تسويغ عمله بالقول: «إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وآدرّ (أديرة) خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع »[٣].

لما وقع الاتفاق بين الكامل وفردريك الثاني توجه الملك الكامل إلى ظاهر دمشق في

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٣٣٥.
(٢) مجير الدين العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١/ ٤٠٦.
(٣) المقريزي: السلوك ١/ ٣٥٤.



جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ، وأقام الملك الأشرف على محاصرتها، ولما طالت مدة الحصار ونفد ما في يد الملك الناصر من المال اضطر إلى مفاوضة عميه على أن يكون للناصر داود الكرك والشوبك وأعمالها والصلت والبلقاء والأغوار جميعها ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل، ثم تنازل الناصر داود عن الشوبك للسلطان الكامل، وبقي للسلطان الكامل مع الشوبك، الخليل وغزَّة وطبرية وعسقلان والرملة ولِدْ، وسُلِّمت دمشق للأشرف مقابل تسليم الرقة والرها وحرَّان وسروج وغيرها للكامل(١).

بدأ انحلال الدولة الأيوبية منذ أواخر حكم الملك الكامل، وكان لهذا الانحلال مظاهر متعددة على رأسها:

- نشوب حروب بين أمراء الأيوبيين كادت تكون مستمرة.
- زوال فكرة السلطان الأكبر الذي كان يعترف به وبسلطته جميع الأمراء الأيوبيين، ويعدون أنفسهم تابعين له، فزال بذلك التضامن بين أفراد الأسرة، وتبع ذلك محاولة كل منهم الحفاظ على إمارته ولو بالاستعانة بالفرنجة وغيرهم، بعد أن كانت فكرة قتال الصليبيين وإخراجهم واجب الأسرة الرئيسي.

وقد تجلَّت الخلافات الأُسرية في سنة ٦٣٤هـ حين طلب الأشرف موسى من أخيه الكامل الرّقة لتكون قوة له وعلفًا لدوابه إذا جاز الفرات فرفض الكامل وأغلظ له الجواب، فأرسل الأشرف إلى حماة وحلب وبلاد الشرق فحالفهم على أخيه الكامل، وكادت الحرب تقع بين الفريقين لولا وفاة الأشرف في المحرم سنة ٦٣٥هـ، وانتقل ملك دمشق بعده إلى أخيه الصالح إسماعيل بعهد منه(٢).

استمر الصالح إسماعيل كسلفه في تحالفه مع أقربائه على أخيه السلطان الكامل، مما دفع الكامل إلى الخروج إلى دمشق بعد أن استمال إليه ابن أخيه الناصر داود، فحاصرا دمشق حصارًا شديدًا، واضطر الصالح إسماعيل تحت ضغط هذه القوة إلى النزول عن دمشق إلى الملك الكامل مقابل بعلبك والبقاع وبصرى.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٤٣٥، ٤٣٦. تدمري، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٧٠.

توفي الملك الكامل في مدينة دمشق في رجب سنة ٦٣٥هـ، فبايع كبار رجال دولته ابنه الأصغر الملك العادل الثاني سيف الدين أبا بكر (٦٣٥-٦٣٧هـ) بعهد من أبيه، متجاهلين ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي استخلفه والده على البلاد الشرقية ومنها آمد وديار بكر، فلما بلغ الملك الصالح نجم الدين أن أخاه الأَصغر قد تسلم السلطنة بمصر وأن الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل قد استقرَّ في دمشق نائبًا عن العادل، عظم الأمر عليه، وقصد الشام بجند الشرق سنة ٦٣٦هـ ومَلَك دمشق من صاحبها مقابل إعطائه سنجار وعانة، ثم قرر التوجه إلى مصر لأخذها من أخيه العادل واستناب ابنه المغيث عمر على دمشق، ونجح في دخول القاهرة في ذي القعدة سنة ٦٣٧هـ إثر مؤامرة دُبرت على أخيه، وبذلك انتهى حكم العادل وتربع الصالح أيوب على عرش السلطنة[١].

كان الصالح أيوب شخصية قوية، وقد شهد عصره أحداثًا داخلية وخارجية مهمة. من ذلك أن أقاربه عارضوه ونهضوا لمجابهته، فاسترد عمه الصالح إسماعيل مدينة دمشق وسجن المغيث عمر نائبه فيها، ثم تحالف مع الملك الناصر داود، والملك المجاهد صاحب حمص ومع الصليبيين، وتوجه الجميع قاصدين مصر، فسار إليهم الصالح أيوب الذي كان قد استقدم إليه القوات الخوارزمية التي بقيت دون زعيم بعد مقتل جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٨هـ، وجرت معركة بظاهر غزة سنة ٦٤٢هـ هُزم فيها الصالح إسماعيل وحلفاؤه هزيمة منكرة، واستعاد الصالح أيوب في السنة نفسها بيت المقدس بمساعدة جنوده الخوارزمية، كما نجح في تحرير بعض المدن على الساحل إضافة إلى طبرية ونابلس، ثم أرسل الصالح أيوب الجنود الخوارزمية في صحبة معين الدين بن الشيخ لأخذ دمشق، وبعد حصار أرهق أهل دمشق، اتُّفِق على أن يخرج الصالح إسماعيل إلى بعلبك ويسلم دمشق إلى الصالح نجم الدين أيوب[٢].

أدَّى تحرير بيت المقدس إلى قدوم حملة صليبية سابعة بقيادة لويس التاسع[٣] ملك فرنسا، توجهت إلى دمياط مباشرة سنة ٦٤٧هـ واستطاعت دخول المدينة والتوغل جنوبًا حتى

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٧٥.

(٢) المكين بن العميد: أخبار الأيوبيين ص٣٣، والمقريزي: السلوك ١/ ٤٢٧.

(٣) تلقبه المصادر الإسلامية بـ «ريد أفرانس». قال المقريزي عنه: « يُقَال لَهُ الفرنسيس واسْمه لويس ابن لويس. وريدافرنس لقب بلغَة الفرنج مَعْنَاهُ ملك أفرنس». السلوك ١/ ٤٣٧.



المنصورة، وتوفي السلطان الملك الصالح في أثناء صَدِّ هذه الحملة، فقامت أرملته شجرة الدر بتسيير الأمور فأخفت خبر وفاة زوجها، وراحت تصدر الكتب والمراسيم باسم السلطان، كما أخذت البيعة لابنه الملك المعظم توران شاه المقيم في حصن كيفا، وأرسلت إليه تحضّه على الحضور، وتمت على يديه هزيمة هذه الحملة الصليبية التي كان معظم أفرادها من الفرنسيين، ووَقَعَ الملك لويس التاسع أسيرًا، وعقد اتفاق تقرر فيه جلاء الصليبيين عن دمياط ودفع ٨٠٠ ألف قطعة ذهبية فدية، على أن يُطلق سراح الملك لويس بعد تسليم دمياط ودفع نصف ما هو مقرر من الفدية، وأن يعقد بين الطرفين صلح مدته عشر سنوات[١].

قُتل توران شاه على يد مماليك أبيه بعدما ساءت العلاقات بينهم، قبل أن يتمم تنفيذ الاتفاق السابق مع الصليبيين، فأدَّى ذلك إلى سقوط الدولة الأيوبية في مصر وقيام دولة المماليك في ٢٩ المحرم سنة ٦٤٨هـ.

لم يعترف أيوبيو الشام بشرعية تولي المماليك الحكم في مصر وعقدوا العزم على قتالهم واستخلاص البلاد منهم، وتولى الملك الناصر يوسف صاحب حلب تدبير الأمر وانضم إليه أكثر ملوك بني أيوب الآخرين، وفيهم الصالح إسماعيل والناصر داود بن المعظم، والأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص، ودخل الناصر دمشق وملكها وامتنعت عليه الكرك والشوبك اللتان كان قد تغلب عليهما الملك المغيث عمر ابن الملك العادل (الثاني) ابن الكامل بعد مقْتل المعظم توران شاه، وقد طلبه المصريون ليملِّكوه عليهم، فلم يقبل خشية أن يصيبه ما أصاب ابن عمه توران شاه، أما الناصر يوسف فإنه توجه بمن معه بعد استيلائه على دمشق إلى غزَّة قاصدًا الديار المصرية، ولكنَّ الأيوبيين لم يفلحوا في دخولها حيث انهزموا من المماليك بالقرب من الرملة في فلسطين سنة ٦٤٨هـ فارتد الملك الناصر إلى دمشق[٢].

وانشغل الأيوبيون بعدها بخلافاتهم الداخلية وبخطر المغول الذين اجتاحوا العالم الإسلامي، واستولوا على بغداد، وقضوا على الخلافة العباسية في صفر ٦٥٦هـ ثم زحفوا إلى الشام[٣].

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٤٥٥ – ٤٦٠.

(٢) المكين بن العميد: أخبار الأيوبيين ص٤٠.

(٣) المقريزي: السلوك ١/ ٤٩٦، والذهبي: تاريخ الإسلام ٤٨/ ٣٣، وابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٣.

كان للأسطورة التي أُشيعت عن المغول بأنهم قوة لا يمكن قهرها أعظم الأثر في انتشار الذعر بين أهالي الشام، فمنهم من فَرَّ إلى القرى، ومنهم من لاذ بالبادية، ومنهم من لجأ إلى مصر في حين تسابق الملوك والأمراء الأيوبيون في الشام، وقد شلَّهم الخوف إلى تقديم الولاء وإعلان الخضوع لهولاكو، سواء بالحضور طائعين أو بإرسال الرسل والمبعوثين، واعتذر الملك الناصر صاحب حلب ودمشق عن عدم حضوره وأرسل ولده العزيز محمدًا سفيرًا عنه ومعه هدايا وتحف كثيرة، ولكن هولاكو لم يقبل عذره وهدده وتوعده.

أما صاحب الكرك الملك المغيث فتح الدين عمر فقد أرسل ابنه الملك العزيز، فاجتمع بهولاكو في مدينة تبريز، وقدَّم إليه رسالة من والده يلتمس فيها أمانًا له ولإمارته فحصل عليه[١].

ولم تجد محاولات الملك الناصر يوسف المقيم في دمشق الوقوف في وجههم، وأخفق نائبه في حلب الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين في صدهم عنها، فسقطت حلب في صفر سنة ٦٥٨هـ، واستسلمت دمشق في ٢٦ ربيع الأول ٦٥٨هـ وتسلمها نواب هولاكو، وتابع المغول زحفهم جنوبًا حتى اصطدموا بقوات المماليك عند عين جالوت بقيادة الملك المظفر قطز، ودارت الدائرة عليهم فانهزموا وتشتت شملهم وطوردوا حتى أخرجوا من الشام التي غدت مملوكية، ولم يبق في يد الأيوبيين منها سوى الكرك وحماة[٢].

لمحات عن سلاجقة الروم

كانت معركة ملاذكرد من أهم المعارك الإستراتيجية في تاريخ العسكرية العباسية، فقد أدت هذه المعركة التي انتصر فيها السلاجقة بقيادة ألب أرسلان على الإمبراطورية البيزنطية سنة ٤٦٣هـ إلى زيادة قوة الدولة السلجوقية وضعف وتقهقر الإمبراطورية البيزنطية، فضلًا عن الأحداث السياسية والاضطرابات الداخلية التي كانت تحدث داخل البيت البيزنطي.

وبعد وفاة السلطان ألب أرسلان في عام ٤٦٥هـ، سار ابنه السلطان ملكشاه على سياسة أبيه التوسعية لا سيما في آسيا الصغرى، لكن قيام مملكة سلاجقة الروم في الأناضول لم يرجع إلى الدولة السلجوقية النظامية وحدها بقدر ما رجع إلى العناصر التركمانية المستقلة،

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٥٩.
(٢) أمينة بيطار: الأيوبيون، الموسوعة العربية ٤/ ٤٩٨.

والتركمان الذين قدموا من آسيا الصغرى ينقسمون إلى قسمين: التركمان الخلّص الذين حرصوا على الإغارة على البيزنطيين وعلى كل ما يتعلق بحكومة نظامية من أفكار. ثم التركمان الذين أقاموا في آسيا الصغرى دولة نظامية شبيهة بالتي أقامها بنو عمومتهم في إيران[١]. ولقد استغلت هذه القبائل التركمانية الفرصة في التوسع داخل آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى بحر مرمرة والبسفور وبحر إيجة.

ومن الغريب أن سليمان بن قتلمش بن سلجوق ت٤٧٩هـ مؤسس هذه الدولة الجديدة لم يكن من بين القادة الذين أرسلهم ألب أرسلان بعد ملاذكرد وعزل الإمبراطور البيزنطي رومانوس، لكنه استغل الفرصة المتاحة بانشغال كل من السلاجقة وبيزنطة في حروبهم ومشاكلهم الداخلية للتوسع في آسيا الصغرى، وقد كان أبوه قتلمش قد لقي هزيمة في عام ٤٦٥هـ وأبعد أبناءه سليمان ومنصور إلى الحدود البيزنطية، فقاموا بجمع القبائل التركمانية حولهم.

وقد أضحت الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى بقيادة سليمان بن قتلمش ذات شوكة وبأس بحيث استعان بها الإمبراطور البيزنطي في القضاء على ثوراته الداخلية!

وتعد هذه الإمارة من أولى الدول التي انفصلت عن الدولة السلجوقية وإن دانت لها بالولاء في زمن السلطان جلال الدين ملكشاه (ت٤٨٥هـ)، وحينما اعتلى القائد العسكري البيزنطي أليكسيوس كومنين عرش الإمبراطورية البيزنطية في عام ٤٧٣هـ كان عليه أن يعيد بناء دولته التي أنهكتها الثورات ومؤامرات العسكريين والدوقات، ولذلك فإنه لم يجد بدًا من التسليم بالأمر الواقع ناحية جيرانه سلاجقة الروم خاصة أنهم كانوا في ذروة قوتهم ومجدهم العسكري[٢].

وفي تلك الأثناء وفي عام ٤٧٧هـ لاحت أمام سليمان فرصة ذهبية لاستعادة مدينة أنطاكية التي كان الروم قد استولوا عليها من أيدي المسلمين منذ عام ٣٥٨هـ، وبالفعل استثمر سليمان هذه الفرصة في ضم هذه المدينة الإستراتيجية إليه، وقد فصّل ابن الأثير الأسباب التي دفعت سليمان لفتح هذه المدينة بقوله: «في هذه السنة سار سليمان بن قتلمش،

(١) زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى ص٥٤.
(٢) زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى ص٥٩.

صاحب قونية وأعمالها من بلاد الروم، إلى الشام، فملك مدينة أنطاكية من أرض الشام، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وسبب ملك سليمان المدينة أن صاحبها الفردوس الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورتب بها شحنة، وكان الفردوس مسيئًا إلى أهلها، وإلى جنده أيضًا، حتى إنه حبس ابنه، فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان بن قتلمش، وكاتبوه يستدعونه، فركب البحر في ثلاثمائة فارس وكثير من الرجالة، وخرج منه، وسار في جبال وعرة، ومضايق شديدة، حتى وصل إليها للموعد، فنصب السلاليم، باتفاق من الشحنة ومن معه، وصعد السور، واجتمع بالشحنة وأخذ البلد في شعبان، فقاتله أهل البلد، فهزمهم مرة بعد أخرى، وقتل كثيرًا من أهلها، ثم عفا عنهم، وتسلم القلعة المعروفة بالقسيان، وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء، وأحسن إلى الرعية، وعدل فيهم وأمرهم بعمارة ما خرب، ومنع أصحابه من النزول في دورهم ومخالطتهم. ولما ملك سليمان أنطاكية أرسل إلى السلطان ملكشاه يبشره بذلك، وينسب هذا الفتح إليه لأنه من أهله، وممن يتولى طاعته، فأظهر ملكشاه البشارة به، وهنأه الناس»[(١)].

كان السلطان ملكشاه يراقب تحركات سليمان ونشاطه في آسيا الصغرى عن بعد، ورأى أن يعينه حاكمًا على سلاجقة الروم بعد أن ضمَّ إليه قونية وآقسرا وقيصرية وتوابعها، وفي الحقيقة استطاع سليمان أن يضع أساس سلطنة سلاجقة الروم، وأن يجعل من مدينة نيقية عاصمة لها[(٢)].

لكن ما لبث أن قُتل سليمان بن قتلمش على يد تُتش بن ألب أرسلان سنة ٤٧٩هـ بعد فشل حصاره لمدينة حلب التي أراد أن يضمها لدولته الناشئة، وقد تولى بعده ولده قلج أرسلان الأول الذي شهد عهده بداية الحملات الصليبية سنة ٤٩١هـ، وقد استطاع أن يسحق حملة العامة وبعض حملات الأمراء ويوقف من تدفقها إلى بلاد الشام رغم انتصار الصليبيين عليه في حملة الأمراء، وبحلول العام ٤٩٥هـ كانت الحملات الصليبية قد يئست – مرحليًا – من الوصول إلى بلاد الشام عن طريق آسيا الصغرى نظرًا لجهاد قلج أرسلان ومنعهم من عبور أراضيه بالاتحاد مع الأتراك الدانشمانديين الذين كانت لهم دولة متمركزة في

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٣١٩

(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص٥٧.

الوسط الشرقي لآسيا الصغرى.

وقد قُتل قلج أرسلان سنة ٥٠٠هـ على يد القوات السلجوقية العراقية بقيادة محمد بن ملكشاه وبمعاونة كل من الأرتقيين ورضوان بن تُتش السلجوقي والي حلب، وقد أراد أن يضم الموصل إلى بلاده لكنه فشل وغرق في نهر الخابور أثناء انسحابه من المعركة.

بلغت الدولة أوجها في عهد قلج أرسلان الثاني (٥٥١ – ٥٨٨هـ) والذي استطاع القضاء على دولة الدنشمانيين ومقاومة الصليبيين وتكبيدهم خسائر فادحة جعلتهم يعرضون عن اتخاذ آسيا الصغرى طريقًا لهم بالبحر المتوسط.

بعد وفاة قلج أرسلان الثاني في شعبان سنة ٥٨٨هـ قسمت المملكة بعده بين أبنائه الاثنى عشر مما أدى إلى ضعفها أمام الإمبراطورية البيزنطية من جديد، لكن سرعان ما أعاد ولده غياث الدين كيخسرو الأول (٥٨٨-٥٩٢هـ) توحيد المملكة؛ لتحيا دولة سلاجقة الروم مجدًا جديدًا يظهر بصورة واضحة في عهد كل من ولده عز الدين كيكاوس (٦٠٨ – ٦١٦هـ) ثم حفيده علاء الدين كيقباذ (٦١٦ – ٦٣٤هـ).

ثم ما لبثت أن بدأت بعدها مرحلة السقوط أمام جحافل المغول مع فقدان بعض المناطق في ولاية غياث الدين كيخسرو الثاني بن كيقباذ بعد سنة ٦٣٥هـ، ثم توالت الهزائم أمام المغول في ولاية عز الدين كيكاؤس الثاني بن كيخسرو الثاني في معركة أنقرة سنة ٦٤١هـ.

وبحلول عام ٦٤٦هـ قسّم المغول دولة سلاجقة الروم بين الأخوين عز الدين كيكاؤس الثاني بحيث يكون له «قونية وآقسرا وأنقرة و إنطاكية وباقي الولايات الغربية». ولأخيه ركن الدين قلج أرسلان الرابع «قيسارية وسيواس وملطية وارزنكان وارزن الروم وغيرها من الولايات الشرقية». وكان لهما أخ صغير هو علاء الدين كيقباذ الثاني أقطعا له «من الأملاك الخاصة ما يكفيه وضربوا السكة باسم الثلاثة وكتبوا السلاطين الأعاظم عز وركن وعلاء»[(١)].

وأخذت مناطق نفوذ سلاجقة الروم تنسلخ حتى لم يتبق إلا أنطاكية وما حولها، ثم وضعوا أنفسهم رسميًا تحت حكم دولة المغول الإيلخانية سنة ٦٧٨هـ، إلا أن الأمر لم يدم

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٥٧.

طويلًا حتى حول الإيلخانيون الإقليم إلى ولاية خاصة بهم منذ عام ٧٠٤هـ، وكان العثمانيون الذين أقطعهم سلاجقة الروم منذ الثلث الأول من القرن السابع الهجري مناطق التماس مع العدو البيزنطي قد بدأوا في إرث الجانب الغربي من دولة سلاجقة الروم منذ عام ٧٠٠هـ.



الخاتمة

ها نحن نختم رحلة الخلافة العباسية بعد تطواف لم نكن نتوقعه، وزمن لم نكن لنشعر به، إن تاريخ الإسلام بحاجة ماسّة إلى تجديد القراءة والبحث والاطلاع بين الفينة والأخرى، فسرعان ما تتكشف في المصادر القديمة جوانب لا ندري لم غفل عنها المتقدمون، ومصادر جديدة تزيح بعضًا من الأسرار عن الغوامض التي أحاطت بهذا التاريخ.

إن أكثر ما أصابنا بالقلق على تاريخنا، هي القراءة المتعسّفة المكرورة التي تنتهج وجهة أحادية يتمثّل فيها الخير والشر على هيئة تلك الحكايا الساذجة التي تعودنا على سماعها ونحن أطفال، الإنسان أشد تركيبًا من مجرد البياض والسواد، الإنسان يملك في جوفه مخزونًا من الحضارة والثقافة والمشاعر تستعلي على مجرد التفسير الضيق الذي يضع هذا في خانة الأخيار وذلك في خانة الأغيار!

من هذا المنطلق، سرعان ما تتكشّف لنا أن القراءة الأيديولوجية للتاريخ، التي تبغي اعتساف الحقيقة، وليّ الرواية، وتجاهل الأخبار والحوادث لغرض ترسيخ فكرة ما، قراءةٌ مكانها مدارج النسيان، وهمل المستقبل.

الحقيقة هي نبراس المسلم، والقصة في القرآن الكريم باعتبارها الأسوة للمؤرخ الصادق، أثبتت لنا أن الإنسان يمكن أن يكون على خير ثم سرعان ما تأخذه الحياة بتلابيبها ومغرياتها فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها، وأن آخر يكون على شرّ سرعان ما يئوب إلى رشده، وثالث حياته الغدر والخديعة، ورابع سيرته البطش والكراهية، فنقف حائرين على أي معيار يمكن أن نقيس الإنسان!

إن التاريخ الإسلامي، من المفترض أن يكون تاريخ التجربة البشرية لبني الإسلام في رقعة مكانية وزمانية لها تأثيرها بلا شك، وفي ضوء الصدق مع النفس لا يمكن أن نصبغ المثالية على هذا التاريخ، وفي ضوء الصدق ذاته لا يمكن أن نوصمه بالعار والوحشية فنتملّص منه كما تملّص قوم سبقونا بعقود، ولا زال متأسوهم وأحفادهم يعيشون في نفس

الوهم، وذات الخديعة!

وجزء من هذا التاريخ رحلة الخلافة العباسية التي استمرت خمسة قرون وربع قرن رأينا فيها ما ذكرناه سابقًا عن الإنسان وصنعه للتاريخ، حيث لا شرّ في المطلق ولا خير في المطلق، لكن الذي يمتاز به هذا العصر وغيره من أعصر التاريخ الإسلامي هو الإسلام ذاته، الإسلام كان وسيظل وسيكون عاملًا أوليًا مؤثرًا في الجماعة المسلمة وسلوكها وفكرها وصنعها للتاريخ؛ عاملًا لا يمكن فهمه كذلك بالبساطة أو المثالية!

على أننا يمكن أن نفهم طبيعة الدولة في الإسلام في العصر العباسي من خلال تأثّر الغازي «المغولي» بالمغزوّ «المسلمين»، رغم القتل والتشريد والذبح والتنكيل والبشاعة التي ابتلي بها المشرق الإسلامي والعراق والشام وملايين القتلى، رغم ذلك سرعان ما رأى الغازي أن الإسلام يستطيع أن ينتشله من ضياعه؛ فتحوّل المغول من الوثنية إلى الإسلام، ثم أضحوا دعاة للإسلام ذاته.

العباسيون أنفسهم ما استطاعوا أن يقيموا دولتهم إلا من خلال الارتكان على بعض الأفكار الإسلامية التي سرعان ما انتفض لها عشرات الآلاف في المشرق، حتى استحالت الفكرة إلى بذرة والبذرة إلى ثورة والثورة إلى دولة، ثم إنهم احتموا بالشرعية الدينية التي جعلت تلميذ أبي حنيفة النجيب العلامة أبا يوسف يقول لهارون الرشيد في تقديمه لكتاب الخراج: «يا أمير المؤمنين، إنَّ الله -وله الحمد- قد قلَّدك أمرًا عظيمًا: ثوابه أعظم الثَّواب، وعقابه أشدُّ العقاب؛ قلَّدك أمر هذه الأمَّة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلقٍ كثيرٍ قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم، وليس يلبث البنيان إذا أسِّس على غير التَّقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه، وأعان عليه؛ فلا تضيِّعنَّ ما قلَّدك الله من أمر هذه الأمَّة والرَّعيَّة، فإنَّ القوَّة في العمل بإذن الله. لا تؤخِّر عمل اليوم إلى غدٍ فإنَّك إذا فعلت ذلك أضعت. إنَّ الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنَّه لا عمل بعد الأجل»(١).

لكن من سنن الله في أرضه أن من تجاهل هذه الحقيقة الجلية التي لا جدال فيها، فسرعان

(١) أبو يوسف: الخراج ص١٣.



ما يُنتزع من سياق التاريخ، كذلك كان المستعصم آخر خلفاء بني العباس!

يمكن أن نقرر بمنتهى الاطمئنان أن الفكرة الإسلامية التي تلاقحت في أزمنة التجديد المتعاقبة كانت إذا صادفت مخلصًا لها، قادرًا على الإيفاء بها، مُلمًا بصديقها وعدوّها، جامعًا للناس حولها، فإنها تتجذّر على الفور في قلوب المسلمين، ثم يسهل على الباني البناء!

إن التاريخ السياسي وهو الذي تصدّر عملنا في هذا الكتاب يختلف كثيرًا عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للجماعة المسلمة، هو تاريخ القصور ودهاليزها، وتاريخ المؤامرات، وتاريخ التهاوش على السلطة، ولذلك لم يكن من المستغرب أن تظل الأمة في واديها الرحب فوق الدولة طوال التاريخ الإسلامي حتى ابتُلينا بالدولة الحديثة التي تجعل من الدولة رقيبًا ومهيمنًا على الأمة، وهو العائق الحضاري الذي يجب أن ينتبه له المجددون في زماننا هذا.

***

إننا في ختام هذه الرحلة نحب أن نؤكد على بعض الأمور، من أهمها:

١- ضرورة أن يستوعب المسلمون تاريخهم ليعرفوا الكثير عن أنفسهم، عن إسهامهم في مسيرة الحضارة الإنسانية، عن مكانتهم بين الأمم، إن كثيرا من المسلمين لا يعلمون أن أوسع الممالك المعروفة إنما كانت دولة بني أمية، إذ لم يحكم أحد من الملوك مثل المساحة التي حكمها الخلفاء الأمويون، وكثيرون لا يعرفون أن بغداد عاصمة الخلافة العباسية إنما كانت عاصمة الدنيا في كل شيء: العلم والأدب والفن والعمارة والفقه والفكر والفلسفة حتى لقد قيل بحق «من رأى بغداد فقد رأى الدنيا»، وكثيرون لا يعلمون كيف كانت الأندلس وصقلية منارتين فارقتين في التاريخ الإنساني، ولا كيف تأثر بنا الغزاة المحتلون وكيف استوعبناهم حضاريا حتى وإن هزمونا عسكريا ثم هزمناهم فيما بعد..

يكفي تاريخَنا الإسلامي قولُ الله تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾.. فلا يعرف قدر هذه الآية مثل رجل قرأ تواريخ الأمم وقرأ معها تاريخ أمة الإسلام.

٢- ضرورة أن تسعى الأمة لإقامة العدل، وألا يستبد أحد فيها بأمرها عن غير بيعتها ورضاها واختيارها، فالاستبداد هو قاتل الأمم، وحيثما حل الاستبداد بأرض فتوقع عما قريب أن يأتيها الاحتلال، وحيثما أقامت الأمة العدل واستطاعت رعيتها أن تنتصف من

حاكمها فتوقع عما قريب أن يأتيها الفتح..

كم فقدت الأمة من عيونها وأفذاذها ورجالها العظام تحت سيوف ومشانق الاستبداد؟ كم حرمت من خير حين نُحِّي هؤلاء عن مواقع الشورى والقيادة والإدارة والتأثير؟ وكم فُتِحت على الأمة أبواب المفاسد حين قُدِّم أهل الثقة على أهل الكفاءة؟.. كيف ضاعت البلدان لأن خليفة أحب أن يبقى الملك في نسله فضاعت الأمة كلها لرغبة تافهة؟..

يكاد حديث التاريخ يكون حديث الاستبداد، فمتى حل الاستبداد بدأ خط التاريخ في الانهيار!

٣- ضرورة أن يسعى المُصلحون لتوحيد هذه الأمة مرة أخرى، إن الاستسلام لحدود سايكس بيكو التي فُرِضت علينا في لحظات الهزيمة والعار يكاد يساوي الانسلاخ من الدين نفسه، إن أمتنا أمة واحدة، هكذا وصفها من بعثها فقال: ﴿ **هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ ولو أن هذه لم تكن عقيدة لكانت ضرورة يفرضها الواقع، وها هو العالم يشهد تكتلات كبرى بين أقوام لا يجمعهم بعض ما يجمعنا، فكيف يكون في الأمة من يستسلم لهذه الحدود ويرضاها ويعتبر أنه شيء وأن أخاه الذي انفصل عنه بخط رسمه المجرم المحتل هو شيء آخر يجوز إغفاله أو عدم الاهتمام لمصيره..

إن حديث التاريخ يعلمنا أنه لم تكن بين أقطار الأمة حدود، كان طالب العلم يتجول دون أن يطالبه أحد بإثبات الهوية أو إبراز التأشيرة، ينهل من علم المشارقة والمغاربة، يطوف على علماء بخارى وسمرقند وخراسان والعراق والشام والحجاز واليمن ومصر والمغرب والأندلس، فلا يرى أنه خرج من أمته ولا يرى أحد في تلك الأقطار أنه غريب عنهم طارئ عليهم!

وحين احتاجت الأندلس مددا كانت المغرب كفيلة به فلقد أطالت المغرب عمر الأندلس أربعة قرون أخرى! ومن قبلها كانت الأندلس قد انتشلت المغرب من تمزق القبيلة وعصبية الجاهلية ونشرت فيها العلم والحضارة.. وحين وصل المغول إلى الشام خرج لهم جيش مصر، ثم حين احتل الفرنسيون مصر خرج الشاب الشامي سليمان الحلبي فقتل قائد الفرنسيين كليبر.. فلا كان قطز يرى أنه أسدى للشام جميلا ولا كان الحلبي يرى أنه أسدى لمصر جميلا، وقبلهم وبعدهم كان العثمانيون من تركيا يبعثون الجيوش لحماية اليمن والحجاز والمغرب..

نحن أمة واحدة.. كذلك كنا، وكذلك يجب أن نكون.. ولا مفر من الانتصار على خطة الهزيمة التي جعلتنا أشتاتا ومِزَقًا..

***

في ختام هذه الرحلة نتذكر أولها فيجتاحنا الحنين..

لقد وجدنا أنفسنا أمام طوفان من المعلومات والمصادر والمراجع أردنا أن نستوعبها جميعا، ثم بدا لنا أن هذا مما تفنى فيه الأعمار دون أن تبلغ مناها، لقد كنا –كشأن كل باحث– نتمنى أن نضع الكلمة الأخيرة في موضوع البحث رغم اليقين باستحالة هذا وبأنه سيظل كل موضوع قابلا للتجديد والإضافة والاكتشاف ولكن الأمل كان أقوى من العقل.. وها نحن في نهاية هذه الرحلة نشهد قول الشافعي: «أبى الله أن يتم كتابا سوى كتابه». .

وعلى رغم ما جرى بيننا وبين الناشر الكريم من محاولات إطالة الوقت من جانبنا ومحاولته تقصير الوقت من جانبه، وعلى ما أبدى من سعة صدره وقبوله التأجيل بعد التأجيل والتطويل بعد التطويل.. إلا أننا نشعر في نهاية الرحلة وكأنه كان ينبغي لها أن تطول أكثر لنقدم ما هو أجمل وأفضل وأجود، ولكن الاعتبارات العملية الواقعية كانت تفرض إنجاز الكتاب في وقت محدد ما كان يمكن تجاوزه، وقد كان هذا بفضل الله تعالى وحده الذي أتمم هذا العمل من بعد ما مرت علينا لحظات رأينا نهايته طويلة وبعيدة!

لقد كانت هذه هي المحاولة الأولى لتأليف كتاب بهذا الحجم لموضوع بهذا الاتساع.. فنسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص، وأن يكتب القبول لهذا العمل في الدنيا والآخرة..

أيها القارئ العزيز .. نضع كتابنا بين يديك لتقرّر فيه رأيك، فما كان من توفيق وسداد فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو تقصير فمنا ومن الشيطان، فنسأل الله أن يغفر لنا بهذا العمل الذنوب، ويستر العيوب، ويجعله لوجهه الكريم، وينفعنا به في الحياة وبعد الممات..

ولا تنسانا من دعائك..

محمد شعبان أيوب ومحمد إلهامي

القاهرة في غرة محرّم الحرام ١٤٣٤هـ/ نوفمبر ٢٠١٢م



ملحقات الجزء الثالث

- وثيقة من الخليفة القائم بتولية العهد لحفيده المقتدي
- وصف لبغداد العباسية
- مقال عن فلسفة الدولة في الحضارة الإسلامية
- مسرد الدول والسلالات

وثيقة من الخليفة القائم بتولية العهد لحفيده المقتدي

خطاب من الخليفة القائم بأمر الله وهو على فراش الموت بولاية العهد من بعده لحفيده عدة الدين المقتدي بأمر الله وقد كُتب يوم ٩ شعبان سنة ٤٦٧هـ قبل وفاته بأربعة أيام:

«كان مضمون الرقعة ولاية العهد لعُدة الدين، ورد الأمر إليه والوصاة له بما يجب الرضا به. ونسختها: بسم الله الرحمن الرحيم، إن أمير المؤمنين يحكم ما وكله الله إليه من أمور عباده وبلاده وأوجبه عليه من صلة طريقه في إحسان الإيالة بقلاده رأى أن ينتهي في مراعاة أحوال المسلمين، والنظر في مصالحهم، وإسباغ ظل العاطفة على أكابرهم وأصاغرهم إلى الحد الذي تحلى مشارتهم من ملابس الكبد وتعرى مشارتهم من ملابس الحذر، فلذلك اقتضت عزائمه الميمونة إحضار وزير دولته الناظر في خدمته محمد بن محمد بن جهير وولده، ونقيب النقباء طراد بن محمد، وقاضي القضاة محمد بن علي، والمعمر بن محمد نقيب الطالبيين، ومحمد بن محمد البيضاوي، وعبد الله بن عبد السيد السيبي، وعبد الله بن محمد الدامغاني في ليلة الأحد التاسع من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة، فحين مثلوا بين سدته الشريفة أنعم متبرعا في إيصاله من رأيه، ونفاذ عزائمه بمشافهة سلالته الطاهرة أبي القاسم عبيد الله بن محمد أمير المؤمنين بتوليته العهد، وتصييره خليفة بعده في المسلمين، ووصاه بما يطابق الشرع في مثل هذه الحال، ويحل من رضى الله أجل المحال، حيث وجده أهلا لذلك وراءه، واستوثق كل مسعى له في الرشاد وارتضاه، وألفاه ناهضا بأعباء ما ولاه، ناهجا للسنن الذي أوجبه جميل خلاله، وأوصاه مجتمعة فيه شرائط ما فوضه إليه واستكفاه، والله يمد أمير المؤمنين بالتوفيق في إيجابه وعزائمه، ويقرن التشديد بمفاتح عزمه وخواتمه، ويحسن الخيرة له ولولي عهده ولكافة المسلمين فيما أذن فيه، وقصد به أحكام دعائم الصلاح ومبانيه بمنه. والسطران الملحقان: لا يغير للخدم حال، ولا يزعجوا في ملك ولا إقطاع»[1].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ١٦٢، ١٦٣.



هرم السلطة عند السلاجقة

السُّلطان

القائد الأعلى للدولة والجيش والأسرة السلجوقية

الملك

أخو السلطان

الوزير

القائم والمشرف بالشئون الإدارية والكتابية لكامل السلطنة

الأتابك

الأمير المربي أو الأمير الوالد وهو الذي يُشرف على تربية أبناء السلطان وأقربائه وغالبًا ما تُقطع له إحدى الولايات

الأمير

أقل منزلة من الأتابك والملك وقد يكون أمير حاجب أو أمير الاسطبلات السلطانية وغالبًا ما يكون من مماليك السلطان

العَميد

منصب إداري مهمته متابعة شئون إقليم من الأقاليم، وغالبًا ما كان لوزير مفوّض يُعتمد عليه في إدارة العراق

الشِّحنة

منصب يجمع بين الأمني والإداري ومهمته في الأساس حفظ الأمن في إقليم العراق، وهو بمثابة مدير الأمن حاليًا



وصف بغداد العباسية لجاي ليسترنج

قال المستشرق الإنجليزي الكبير جَي ليسترنج (ت١٩٣٣م) في وصفه البديع لبغداد العباسية: «أول الأنهار الكبيرة التي كانت تحمل من الفرات إلى دجلة، نهر عيسى، وفي نحو سنة ١٤٥هـ ابتنى المنصور فوق نهر عيسى(١) في دجلة المدينة المنورة وهي نواة مدينة بغداد. وكان للمدينة المدوّرة أربعة أبواب متساوية الأبعاد بعضها عن بعض، بين الباب والباب ميل عربي، ويخرج من كل باب طريق، ثم نشأت مع الأيام أرباض واسعة على هذه الطرق الأربعة، ولم يمض وقت طويل عليها حتى اندمجت في نطاق المدينة وقام منها مدينة بغداد الكبرى، وكانت أبواب المدينة المدورة الأربعة:

١- باب البصرة في الجنوب الشرقي، وهو يُفضي إلى الأرباض الممتدة على ضفة نهر دجلة حيث تصب فروع نهر عيسى.

٢- باب الكوفة في الجنوب الغربي من بغداد، ويخرج منه طريق إلى الجنوب، وهو طريق الحج إلى مكة.

٣- باب الشام في الشمال الغربي، حيث يتفرّع الطريق يسارًا إلى الأنبار على الفرات ويمينا إلى المدن الواقعة على ضفة دجلة الغربية شمال بغداد.

٤- باب خراسان المؤدي إلى الجسر الكبير لمن أراد عبور النهر، وهذا الجسر كان يُفضي إلى بغداد الشرقية، وهي التي عُرفت بعسكر المهدي أولًا، والمهدي هو ابن المنصور وخليفته، وقد بنى المهدي هاهنا قصره، وأنشأ أيضًا المسجد الجامع في بغداد الشرقية.

وكان في الجانب الشرقي ثلاث محلات كبرى: المحلة التي بالقرب من رأس الجسر، وقد

---

(١) أطلق العرب لفظة «نهر» على ما كان طبيعيا أو صناعيًا، وعيسى اسم الأمير العباسي الذي أشرف على شق هذا النهر.

عُرفت بالرّصافة، ومحلة الشمّاسية فوقها على النهر، ومحلة المخرّم تحتها[١]. وكان يُحيط بهذه المحلات الثلاث من بغداد الشرقية سور نصف دائري يبدأ من ضفة النهر فوق الشمّاسية وينتهي بالنهر أيضًا تحت المخرّم، وكان يخترق القسم الوسطى الضيّق من بغداد الشرقية، أول طريق خراسان الذي يبدأ من باب خراسان في المدينة المدوّرة، ويعبر الجسر الكبير إلى باب خراسان (الثاني) في بغداد الشرقية، ومنه يتابع سيره شرقًا حتى يبلغ أقاصي ديار الإسلام.

وكان يخرج من باب الكوفة في المدينة المدورة طريق الكوفة، أي طريق الحج فيتجه جنوبًا، وكان الربض العظيم الممتد من هذا الباب إلى نحو فرسخ من أسوار المدينة المدورة يُعرف بالكرخ، وفي غربي المدينة المدورة ربض باب المحوّل، وكان الوصول إليه من باب الكوفة وباب الشام، وفيه مجتمع الطرق التي تتصل بالطريق الغربي الكبير الذاهب إلى الأنبار مارًّا ببلدة المحوّل، وكان في شمال باب الشام محلة الحربية (تناظر الكرخ في جنوب المدينة المدورة)، وكانت المقابر الشمالية في بغداد الغربية فيما وراء محلة الحربية، يكتنف دجلة جانبان منها، وعُرفت هذه المقابر بعدئذ بالكاظمية وسُميت بذلك نسبة إلى ضريحي إمامين من أئمة الشيعة[٢].

ومدينة بغداد تتوسّط أربعة طساسيج[٣]، كل طسوجين منها في جانب من دجلة؛ ففي الجانب الغربي طسوج قطربل في شمال نهر عيسى، وطسوج بادوريا في جنوبه، وفي الجانب

---

(١) ذكر ياقوت الحموي أن محلة المخرّم هدمها الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٧هـ، ومن المعلوم أن محلة المخرم كان بها دار المملكة البويهية والسلجوقية، وقد ذكر الذهبي أن الخليفة الناصر هدم دار المملكة السلجوقية سنة ٥٨٣هـ إثر رسالة أرسلها طغرل الثالث سلطان السلاجقة يطلب فيها منه إعادة إعمار دار المملكة في محاولة يائسة لإعادة أمجاد البيت السلجوقي، فما كان من الخليفة إلا أن هدم الدار، ولم يرد على رسالة طغرل الثالث، ولا ندري لم هدم الخليفة المحلّة كلها بعد أربع سنوات من هدم دار المملكة، هل كان ذلك بسبب اضطرابات خوزستان التي قام بها الكردي صاحب قلعة الماهكي؟ أم بسبب انتصارات طغرل الثالث على الجبهة الإيرانية والخوف من إعادة دخول بغداد مرة أخرى؟ أم الاثنان معًا؟! ياقوت: معجم البلدن ٥/ ٧١، ٧٢، والذهبي: تاريخ الإسلام ٤١/ ١٧.

(٢) الكاظمية اليوم إحدى المدن المقدسة في العراق لدى الشيعة، على بعد خمسة كيلومترات عن شمال بغداد، وهي اليوم مركز قضاء الكاظمية التابع للواء بغداد، وقامت في موضع مقبرة قريش الكبرى، وقد دُفن فيها الإمام موسى بن جعفر الملقب الكاظم في سنة ١٨٣ هـ، فنُسبت إليه فقيل لها الكاظمية، ولما مات حفيده الإمام محمد بن علي الملقب بالجواد في سنة ٢٢٠هـ دفن إلى جواره، فبنى شيعتهما عمارة حول القبرين ثم وسّعوا فيها فصارت المشهد الكاظمي.

(٣) الطساسيج مفردها طسُّوج، والطسُّوج تعني الناحية. ابن منظور: لسان العرب، مادة طسج ٢/ ٣١٧.



الشرقي طسوج نهر بوق، وهو في شمال طريق خراسان، وطسوج كلواذى في الجنوب.

وكانت بلدة كلواذى قائمة على ضفة نهر دجلة على شيء يسير تحت أقصى- أبواب بغداد الشرقية إلى الجنوب[1] ويخرج من بغداد، وهي المركز الذي تتفرع منه طرق الدولة جميعها، طريقان: يذهب أحدهما إلى الجنوب والآخر إلى الغرب، وكانا ينفصلان عند باب الكوفة في المدينة المدورة. وطريقان يذهبان إلى الشمال وإلى الشرق يخترقان بغداد الشرقية، ويبدآن من منتهى الجسر الكبير؛ فالطريق الجنوبي هو الطريق الذاهب إلى الكوفة ومكة كان بعد أن يغادر ربض الكرخ، يصل إلى بلدة صرصَر وهي على نهر صرصر ثاني الأنهار الكبيرة الآخذة من الفرات إلى دجلة، ويجري بموازاة نهر عيسى في جنوبه؛ ويبدأ الطريق الغربي أي طريق الأنبار من باب الكوفة فيخترق ربض براثا، وبعد نحو فرسخ يصل إلى بلدة المحوّل على نهر عيسى، والطريق الشرقي أي طريق خراسان، يترك بغداد الشرقية، على ما بيّنا الآن، عند باب خراسان شمال محلّة المخرم؛ وأول مدينة يبلغها هذا الطريق جسر النهروان وعندها معبر النهر العظيم: النهروان، وآخر الطرق الطريق الشمالي، وكان يخترق محلّة الشمّاسية، فباب البردان في بغداد الشرقية وهي على ضفة نهر دجلة، ثم يتابع سيره يسار النهر فيبلغ سامراء ومدن ما بين النهرين الشمالي (إقليم الجزيرة).

وفي غضون القرون الخمسة التي عاشت فيها الخلافة العباسية؛ تغيّرت خطط بغداد وأرباضها تغيرًا كبيرًا؛ لاتساع المدينة من جهة وخراب بعض أقسامها من جهة أخرى، وما صورناه في الفقرات السابقة إن هو إلا صورة المدينة على ما كانت عليه في خلافة هارون الرشيد.

وكانت الحروب الداخلية التي نشبت بعد وفاته قد أوقعت الخراب في المدينة المدورة، وفي سنة ٢٢١هـ، نُقل مقام الخلافة إلى سامراء فقل شأن بغداد في عهد سبعة من الخلفاء وأمست مدينة إقليم لا غير، ولما هُجرت سامراء سنة ٢٧٩هـ، وعاد الخليفة إلى العاصمة

---

(١) كان يُحيط بالجانب الشرقي من بغداد سور عظيم يكتنفه خندق وفي السور أربعة أبواب: الباب الشمالي أو باب السلطان، وهو باب المعظّم الآن. ويليه باب الطفرية أو الباب الوسطاني، ويليه باب الحلبة، أو باب الطلسم وهو الباب الذي نسفه العثمانيون في حروبهم ضد الإنجليز سنة ١٩١٧م، أما أقصى الأبواب جنوبًا فهو باب كلواذى وعُرف أيضًا بباب البصلية لقربه من المحلّة التي بهذا الاسم وسمي في الأزمنة الحديثة بالباب الشرقي، وقد نُقض.

القديمة، وكانت بغداد الشرقية، وقد استجد فيها الكثير من القصور، قد خلّفت مجد المدينة المدورة التي ازدادت خرابًا على خراب، وأقام الخلفاء في الجانب الشرقي خلال القرون الأربعة التالية حتى الغزو المغولي دون أن يتحولوا عنه.

وقد ابتنى الخلفاء في أواخر العصر العباسي قصورهم هذه في جنوب المخرّم، والمخرّم سفلى المحلات الثلاث التي في داخل أسوار بغداد الشرقية، على ما كانت عليه في أيام هارون الرشيد، وكانت هذه المحلات الثلاث في الزمن الذي نتكلم عليه قد استولى عليها الخراب، إلا أنه ما لبث أن نشأ حول القصور المحدثة أرباض جديدة، ما كاد يمضي عليها وقت طويل حتى أُحيطت هي أيضًا بسور عظيم نصف دائري، وقد كان سور بغداد الشرقية الجديد يضمّ قسمًا من محلة المخرّم العتيقة، وبدؤه من ضفة النهر فوق القصور، وانتهاؤه في ضفة النهر تحتها (أي أنه يوازي طسوج كلواذى).

وكان المستظهر[(١)] قد بنى السور في سنة ٤٨٨هـ ثم رُمّ من غير مرة إلا أنه في سنة ٦٥٦هـ لم يقوَ على صد هجوم المغول، فانتهى الأمر بسقوط الخلافة العباسية»[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) الحق أنه شُرع في بناء السور على عهد الخليفة المستظهر بالله، وبنيت منه بالفعل مائة قامة، ولكنه يُعدُّ مما شيده المسترشد بالله سنة ٥١٧هـ. ابن الجوزي: المنتظم ١٧/ ٢١٧. عطا.

(٢) كي ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٤٨- ٥١.



مقال عن فلسفة الدولة في الحضارة الإسلامية

المقال عنوانه «**الحضارة الإسلامية وافتقاد العالمية**» كتبه **محمد شعبان أيوب**، نُشر في موقع «المركز العربي للدراسات والأبحاث» ومنشور على مدونة ابن أيوب:

ibnayob.blogspot.com

***

إن المقارنة بين الحضارات مفيدة لمن يبغي معرفة العموميات الإنسانية من ناحية الفكر والحضارة والثقافة، قد تكون هذه المصطلحات الثلاثة مجرد مترادفات تتقارب العلائق اللغوية والاصطلاحية بينها، لكنها في العمق مهمة في كل منها لمن يريد معرفة حقيقة الإنسان من خلال تاريخه الحضاري والفكري والثقافي وما قدمته يداه أو جنته يداه في هذا الكون، ومن ثم العلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة!

قديما حرص اليونان على تقسيم مجتمعاتهم إلى أقسام ثلاثة صارمة يظل العبيد في المكانة الدونية دائما فيها، وفي ظل هذه الحضارة الإغريقية التي قامت على تراثها أوربا الوسيطة بل الحديثة أيضًا كان الانفصام واضحًا بين عالم الفلسفة الإغريقي الذي مهّد – في الرؤية الغربية والعالمية على السواء – للفلسفة البشرية وقعّد لها إلى الآن وبين الواقع الإغريقي ذي الطبقية والظلم الاجتماعي والاقتصادي على السواء والمراجع التاريخية خاصة الأوربية منها لا تخلو من التأريخ لهذا الانفصام الواضح بين الإنسان الإغريقي في إطار الفكر الرحب وبين الآخر لا سيما من يعيش في عالم من الظلم والبهتان والنسيان.

وقد أشار المؤرخ والمفكر الأمريكي الشهير وِل ديورانت في لمحة ذكية إلى سبب انهيار هذه الحضارة بقوله: «إن الجري وراء اللذات قد أنهك حياة الراشدين من أفراد الطبقات العليا. ولم تجد المشكلة القديمة مشكلة الآداب والقوانين الأخلاقية، وكيف يوفق الناس بين أبيقورية [1] الفرد

---

(١) تعتمد المدرسة الأبيقورية على الخبرة الحسية في تفسير سلوك الإنسان، وقد سبق أبيقور سيجموند فرويد في اكتشافه مبدأ اللذة، كما تحدث عن الصراع النفسي سابقا بذلك كل مدارس علم النفس التي تناولت موضوع الصراع، والمقصد هنا الرغبة الجسدية والحسية للأفراد.

الفطرية ورواقية[١] الدولة الضرورية، لم تجد هذه المشكلة حلًا لها في الدين، أو السياسة، أو الفلسفة. وانتشر التعليم ولكن انتشاره كان رقيقًا غير عميق، فقد كان يفعل ما يفعله في جميع العصور التي كانت الغلبة فيها للعقل فيعنى بالمعارف أكثر مما يعنى بالأخلاق، ولذلك أخرج جماهير غفيرة من أنصاف المتعلمين الذين انتزعوا من العمل ومن الأرض، وأخذوا يطوفون وهم ساخطون حيث يجب أن لا يكونوا، كأنهم بضاعة سائبة في سفينة الدولة»[٢] في تأكيد منه لهذا الانفصام وأثره.

جاء الرومان من خلفهم منبهرين بالإطار المادي لهذه الحضارة التي سبقتهم، ثم لما انتصروا عليهم عقب الحرب المقدونية الشهيرة التي وصلت فيها الإمبراطورية الرومانية لأقصى اتساعها، وأمسى الإغريقي العظيم عبدًا لسيده الروماني الجديد، يأمره بتخليد انتصاراته وأمجاده وبطولاته في التماثيل والمعابد الرومانية التي لا تزال تبهر الناظرين، كان النموذج الكامن خلف كلتا الحضارتين سعي الإنسان لإشباع الذات، من خلال السيطرة على كل ما تطاله يداه، ومن ثم كانت كلمة السر في القوة والتنظيم والمباغتة والهيمنة وأيضًا الأسطورة التي لعبت دورًا مهمًا في تطويع الآخر وقبوله النفسي المسبق لسيادة جنس على آخر!

واصل هؤلاء الرومان اتساعهم وأضحت إمبراطوريتهم ممتدة من المحيط الأطلسي غربًا إلى العراق شرقًا ومن جبال الألب والجنوب الجرماني شمالا إلى ساحل البحر الأحمر جنوبًا، واستطاعت أن تهيمن على الشرق الغني، فابتلع الرومان مصر الفرعونية البطلمية والشام الغني بثرواته وموقعه المهم!

وفي سقوط مصر الفرعونية ذات الحضارة العسكرية والعمرانية القوية دلالة مهمة على أمر لافت حقًا، وهو قبول المصريين وقتها بالدونية وضعف المقاومة أو خوائها على الأرجح؛ فهؤلاء المصريون القدماء «لم ينعموا بالحرية يومًا واحدًا في تاريخهم كلهم» على حد قول يوسفوس. ذلك أن ثروتهم كانت تغري بهم الطغاة أو الفاتحين واحدًا في إثر واحد مدى

(١) تزعم الرواقية أن التحكم الذاتي، الثبات وعدم الالتهاء بالعواطف، التي قد تفسّر باللامبالاة بالمتعة والألم، تجعل الإنسان مفكرا سليما، متزن التفكير وموضوعيا. أحد جوانب الرواقية الأساسية هي تحسين رفاهة الفرد الروحية. والمقصد هنا صرامة الدولة وعقلانيتها في التعامل مع الشعوب.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود ٨/ ٢٥. طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب.

خمسين قرنًا من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاتحين[1]. في إشارة لأثر انحطاط العامل الثقافي والفكري والحضاري على الذات الجماعية في الأمم ولو كانت أمة ذات تاريخ حضاري مبهر كالفراعنة!

كان نزول الإسلام في البيئة العربية التي لم تُشرب عوامل الانحطاط النفسي والحضاري والأخلاقي بالقدر الذي انتشر عند الروم والفرس والصينيين والهنود والأمم المنحطة الأخرى معجزة حقيقية، كانت عاملًا من عوامل انتشار الإسلام بينهم في ثلاثة وعشرين عامًا فقط قضاها النبي محمد ﷺ بينهم، وإن انتقضت وشابها العطن بعد وفاته ﷺ متجلية في حروب الردة التي أبانت عن التشويه الثقافي الذي أصاب القبائل الخارجة على أبي بكر ﵁، أو بالأحرى مدى تغلغل الانحطاط بينهم، فخرجت على الخليفة الأول كل القبائل عدا المدينة ومكة والطائف، والتفسيرات التي تناولت أسباب بقاء هذه المدن الثلاث متعددة في كتب فقه السيرة والسيرة على السواء!

في المرحلة التالية وعقب محنة الردة مباشرة انطلقت الجيوش الإسلامية، في عملية أطلق عليها المسلمون وقتها حركة الفتوح والدعوة إلى الإسلام، هذا الدين الذي حمل في ثناياه فكرًا مختلفًا عن الفكر الروماني والثقافة الساسانية والميثولوجيا التي أُطرت في ضمير الشعوب التي احتك الإسلام بها، لقد استطاع هذا الفكر وهذه الثقافة والسلوك المبهر لرجال الفتح الإسلامي أن يقنع ملايين من البشر في الدخول لهذا الدين طواعية في عمليات عسكرية سريعة ومركزة لم نر فيها الدموية المعتادة للحروب العالمية وقتئذٍ أو حتى بعد ذلك، لقد وصلت الدولة الإسلامية فيها أقصى اتساعها في الربع الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ليتم السقوط المرحلي الأول للإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية، وتفنى الإمبراطورية الفارسية الملحدة في إشارة أخرى لأهمية العامل الديني/ الثقافي في ثبات الشعوب أمام التحديات الثقافية والعسكرية الجبارة، وفي دلالة على قوة وثبات النموذج العالمي الإسلامي.

إن المقارنة السريعة بين الحضارة الإسلامية والرومانية حتى القرن الرابع الهجري أو قبل ذلك بنصف قرن توحي لنا بغلبة الحضارة الإسلامية على مستوى الأفراد والمجتمع والدولة

(١) ديورانت: السابق ١١/ ٩٦.

لأن الرابط القوي بين الإسلام وهذه العناصر الثلاثة كان لا يزال وضيئًا مؤمنًا بالعالمية في كل شيء، وأولها إيمان الفرد بهذه العالمية: حب الآخر كما يحب الإنسان نفسه، وإيثار المسلم ولو كان في النفس خصاصة، فلسفة الاعتصام بحبل الله، وحدة العقيدة ووضوحها وثباتها متمثلة في قضية التوحيد، ووجود مرجعية نهائية متجاوزة لواقع الإنسان...

هذه المعاني الإسلامية الأصيلة التي لا تقل أهمية عن هيبة الدولة ومدى اتساعها وقوة عناصرها كانت الميزة الكبرى لهذه الحضارة، ثم لما غابت أو كادت أن تغيب أو انحصرت أو شوّهت أو نسيت أو كل هذه معا رأينا الصدمة الأولى لهذه الحضارة في قدوم الغربي البعيد، أو بالأحرى الصليبي المتكئ على فلسفة حب الذات، وإشباع الغريزة مع بعض الحماسة النصرانية الشائهة التي تجعل من المسلم عدوًا كافرًا معه كنوز الشرق، ليصطدم النموذج العلماني في تجلياته الأولى متمثلة في الأفراد، وبين العالمية التي تقاعس المسلمون عن أداء حقها، وبين العولمة والعالمية قامت الحروب منذ القرن الخامس الهجري ولا زالت حتى اليوم؛ لتنتصر العلمانية في أغلب هذه القرون بصور شتى سواء على مستوى الأفراد أم المجتمعات أم الدول أم هم كلهم في عملية إحصائية بسيطة.

إن التأمل في هيمنة النموذج العلماني على العالم - وهو نموذج بالمناسبة يرسخ للرأسمالية المتوحشة في كل العصور، والتفوق العسكري، وإهلاك الطبيعة، والقضاء على كل عدو محتمل يعوق مسيرة الرؤية العلمانية التي تنفصل فيها القيمة، والمرجعية النهائية عن أفعال الإنسان وأفكاره ورؤاه – على النموذج الإسلامي العالمي المناقض للعلمانية بكافة فلسفاتها وتجلياتها العنصرية الأخيرة لمن التحديات العظمى لمشروع الصحوة الإسلامي الكبير.

ما يلفت النظر أن من أهم التجليات العنصرية للنموذج العلماني في القرنين الأخيرين ظهور النازية والفاشية والشيوعية ثم الليبرالية المتحررة ومنها الصهيونية في القرن الأخير.. هذا التعدد للأيديولوجيات المتوحشة يعكس رؤية الغرب للعالم والحياة والأفكار والإنسان، يعكس حقيقة مريعة متمثلة في النسبية المطلقة لكل شيء، والإيمان بهذه النسبية، بحيث أضحى التغيير والتغير إلهًا للحضارة الغربية المعاصرة، في غياب واضح لمعنى القيمة المطلقة والمرجعية النهائية، ومن ثم لابد أن تتصادم حقيقة التوحيد عقيدة الإسلام والحضارة والأفكار والثقافات الإسلامية والسلوك مع العلمانية بكافة تجلياتها المنبثقة عن

الطبيعة/ المادة/ التغيير المسيطر على رؤية كل ما هو غير إسلامي، يزداد هذا التصادم وينحسر طبقًا لأسباب عدة على رأسها العلاقة الجدلية بين القيمة والمادة؛ لكن يظل البادئ لعملية التصادم هو النموذج العلماني المتطلع للتوسع والسيطرة المجرمة على الطبيعة ناسيًا أو متناسيًا أي شجر أو بشر أو حجر على هذه الطبيعة!

أما إيثار المسلمين للسلامة فهو أمر لن يجديهم نفعًا مع علمانية لها تاريخ واضح، ومستقبل لن يختلف كثيرًا عن هذا الماضي، ولذلك كانت عالمية النموذج الإسلامي من أعظم الرحمات الإلهية بالبشر لأنه نموذج استباقي يحد من تغلغل العلمانية المتوحشة الشاملة كما كان الدكتور المسيري يطلق عليها دائمًا رحمه الله، ولا عجب إذن أن نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ قراءة جديدة تأخذ في الاعتبار كل هذه العلاقة والتاريخ بين العلمانية والعالمية.

لكن ما يلفت نظر الباحث في تفاسير هذه الآية تلك الخواطر النورانية للأستاذ سيد قطب رحمه الله، والتي تتناول هذه الفكرة بشيء من البسط والعمق في آن واحد، قال رحمه الله: «لقد دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج (الإسلام) كان وما يزال سابقًا لخطوات البشرية في عمومه، قابلًا لأن تنمو الحياة في ظلاله بكل ارتباطاتها نموًا مطردًا، وهو يقودها دائمًا، ولا يتخلف عنها، ولا يقعد بها، ولا يشدها إلى الخلف، لأنه سابق دائمًا على خطواتها متسع دائمًا لكامل خطواتها ... وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها، وهي قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب . . فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل في تلك الرسالة: عنصر التوحيد المطلق الذي ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية، ومن أثقال الوثنية، ومن ضغط الوهم والخرافة، والذي يقيم الحياة على قاعدتها الركينة، فيربطها بالوجود كله، وفق نواميس واضحة وسنن ثابتة، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات، والذي يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحني الرؤوس إلا لله الواحد القهار هذا هو طريق الرحمة . . { فهل أنتم مسلمون؟} »(١)، هذه الخواطر من الأستاذ رحمه الله تصلح نواة لتجديد معالم المشروع الإسلامي العالمي القائم على قاعدة هي في أصلها بعيدة كل البعد عن المادية والطبيعة، تلك القاعدة هي الرحمة.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠١، ٢٤٠٢. طبعة دار الشروق.

في نهاية هذا الملمح ثمة أربعة كتب ننصح القارئ باقتنائها والاطلاع عليها لأهميتها في هذا الباب المهم الذي يُكوّن رؤية جديدة لدور الحضارة الإسلامية والتحديات التي تواجه نهضتها المترقبة وعلى رأسها العلمانية بكافة تجلياتها في الشرق (الشيوعية/ الاشتراكية/ الرأسمالية المتوحشة) أم في الغرب (الليبرالية المتحررة)، هذه الكتب هي: العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية، وتاريخ الحضارة من خلال موضوعات للأمريكي كافين رايلي من منشورات عالم المعرفة، لاسيما مقدمته المهمة، مذكرات الدكتور المسيري، والأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، وهو من منشورات سلسلة عالم المعرفة. وهذه الكتب الأربعة من تأليف وترجمة الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله تعالى.

❊ ❊ ❊



مسرد الدول والأُسرات الحاكمة

هذه قوائم بأهم الأسرات والدول الحاكمة التي تناولناها في كتابنا هذا:

الخلفاء العباسيون

م	الخليفة	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	أبو العباس عبد الله السفاح بن محمد	١٣ ربيع الأول ١٣٢هـ	١٣ ذو الحجة ١٣٦هـ
٢	أبو جعفر عبد الله المنصور بن محمد	١٣ ذو الحجة ١٣٦هـ	٦ ذو الحجة ١٥٨هـ
٣	أبو عبد الله محمد المهدي بن المنصور	٦ ذو الحجة ١٥٨هـ	٢٢ المحرم ١٦٩هـ
٤	أبو محمد موسى الهادي بن المهدي	٢٢ المحرم ١٦٩هـ	١٦ ربيع الأول ١٧٠هـ
٥	أبو جعفر هارون الرشيد بن المهدي	١٦ ربيع الأول ١٧٠هـ	٣ جمادى الآخرة ١٩٣هـ
٦	أبو موسى محمد الأمين بن الرشيد	٣ جمادى الآخرة ١٩٣هـ	٢٦ المحرّم ١٩٨هـ
٧	أبو جعفر عبد الله المأمون بن الرشيد	٢٦ المحرّم ١٩٨هـ	١٦ رجب ٢١٨هـ
٨	أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن الرشيد	١٦ رجب ٢١٨هـ	١٨ ربيع الأول ٢٢٧هـ
٩	أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم	١٨ ربيع الأول ٢٢٧هـ	٢٣ ذو الحجة ٢٣٢هـ
١٠	أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم	٢٣ ذو الحجة ٢٣٢هـ	٤ شوال ٢٤٧هـ
١١	أبو جعفر محمد المنتصر بالله بن المتوكل	٤ شوال ٢٤٧هـ	٣ ربيع الثاني ٢٤٨هـ
١٢	أبو العباس أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم	٣ ربيع الثاني ٢٤٨هـ	٤ المحرم ٢٥٢هـ
١٣	أبو عبد الله محمد المعتزّ بالله بن المتوكل	٤ المحرم ٢٥٢هـ	٢٧ رجب ٢٥٥هـ
١٤	أبو إسحاق محمد المهتدي بالله بن الواثق	٢٧ رجب ٢٥٥هـ	١٨ رجب ٢٥٦هـ
١٥	أبو العباس أحمد المعتمد على الله بن المتوكل	١٨ رجب ٢٥٦هـ	٢٠ رجب ٢٧٩هـ
١٦	أبو العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق بن المتوكل	٢٠ رجب ٢٧٩هـ	٢٢ ربيع الثاني ٢٨٩هـ
١٧	أبو محمد المكتفي بالله بن المعتضد	٢٢ ربيع الثاني ٢٨٩هـ	١٢ ذو القعدة ٢٩٥هـ
١٨	أبو الفضل جعفر المقتدر بالله - أبو العباس عبد الله المرتضى بن المعتز (٢١ ربيع الأول ٢٩٦) - أبو منصور محمد القاهر بالله (١٥ المحرم ٣١٧)	١٢ ذو القعدة ٢٩٥هـ	٢٧ شوال ٣٢٠هـ
١٩	أبو منصور محمد القاهر بالله بن المعتضد	٢٧ شوال ٣٢٠هـ	٦ جمادى الأولى ٣٢٢هـ

م	الخليفة	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
٢٠	أبو العباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر	٦ جمادى الأولى ٣٢٢هـ	٢٠ ربيع الأول ٣٢٩هـ
٢١	أبو إسحاق إبراهيم المتقي لله بن المقتدر	٢٠ ربيع الأول ٣٢٩هـ	٢٠ صفر ٣٣٣هـ
٢٢	أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي	٢٠ صفر ٣٣٣هـ	١٢ جمادى الآخرة ٣٣٤هـ
٢٣	أبو القاسم الفضل المطيع لله بن المقتدر	١٢ جمادى الآخرة ٣٣٤هـ	١٣ ذو القعدة ٣٦٣هـ
٢٤	أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع	١٣ ذو القعدة ٣٦٣هـ	١٩ رجب ٣٨١هـ
٢٥	أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر	١٩ رجب ٣٨١هـ	١١ ذو الحجة ٤٢٢هـ
٢٦	أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر ثورة البساسيري (٤٥٠ – ٤٥١هـ)	١١ ذو الحجة ٤٢٢هـ	١٣ شعبان ٤٦٧هـ
٢٧	أبو القاسم عبد الله عُدة الدين المقتدي بأمر الله بن محمد بن القائم	١٣ شعبان ٤٦٧هـ	١٥ المحرّم ٤٨٧هـ
٢٨	أبو العباس أحمد المستظهر بالله بن المقتدي	١٥ المحرم ٤٨٧هـ	١٦ ربيع الثاني ٥١٢هـ
٢٩	أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر	١٦ ربيع الثاني ٥١٢هـ	١٧ ذو القعدة ٥٢٩هـ
٣٠	أبو جعفر المنصور الراشد بالله بن المسترشد	١٧ ذو القعدة ٥٢٩هـ	١٨ ذو القعدة ٥٣٠هـ
٣١	أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله بن المستظهر	١٨ ذو القعدة ٥٣٠هـ	٢ ربيع الأول ٥٥٥هـ
٣٢	أبو المظفّر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي	٢ ربيع الأول ٥٥٥هـ	٩ ربيع الثاني ٥٦٦هـ
٣٣	أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد	٩ ربيع الثاني ٥٦٦هـ	٢ ذو القعدة ٥٧٥هـ
٣٤	أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء	٢ ذو القعدة ٥٧٥هـ	٣٠ رمضان ٦٢٢هـ
٣٥	أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر	٣٠ رمضان ٦٢٢هـ	١٤ رجب ٦٢٣هـ
٣٦	أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر	١٤ رجب ٦٢٣هـ	١٠ جمادى الآخرة ٦٤٠هـ
٣٧	أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر	١٠ جمادى الآخرة ٦٤٠هـ	قتله هولاكو في ١٤ صفر ٦٥٦هـ

الطولونيون

م	الوالي	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	أحمد بن طولون	٢٥٤هـ	٢٧٠هـ
٢	أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون	٢٧٠هـ	٢٨٣هـ
٣	أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٣هـ	٢٨٣هـ (خلع ومات في السجن)
٤	هارون بن خمارويه بن أحمد	٢٨٣هـ	٢٩١هـ
٥	أبو المناقب شيبان بن أحمد بن طولون	٢٩١هـ	٢٩١هـ (حكم أيامًا)

السامانيون

م	الوالي	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	أحمد بن أسد	٢٠٤هـ	٢٥٠هـ
٢	نصر الأول بن أحمد	٢٥٠هـ	٢٧٩هـ
٣	أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد	٢٧٩هـ	٢٩٥هـ
٤	أبو نصر أحمد بن إسماعيل	٢٩٥هـ	٣٠١هـ
٥	الملك السعيد نصر الثاني بن أحمد - ثورة إسحاق بن أحمد ٣٠١هـ - ثورة ميكائيل بن جعفر (٣٠٦هـ إلى ٣٠٨هـ)	٣٠١هـ	٣٣١هـ
٦	الملك الحميد نوح الأول بن نصر	٣٣١هـ	٣٤٣هـ
٧	الملك المؤيد أبو الفوارس عبد الملك الأول بن نوح	٣٤٣هـ	٣٥٠هـ
٨	الملك السديد أبو صالح منصور الأول بن نوح	٣٥٠هـ	٣٦٦هـ
٩	الملك الرضي نوح الثاني بن منصور	٣٦٦هـ	٣٨٧هـ
١٠	أبو الحارث منصور الثاني بن نوح الثاني	٣٨٧هـ	٣٨٩هـ
١١	أبو الفوارس عبد الملك الثاني بن نوح	٣٨٩هـ	٣٩٠هـ
١٢	أبو إبراهيم إسماعيل المنتصر بن نوح	٣٩٠هـ	قُتل في ربيع الأول ٣٩٥هـ

البويهيون

م	الأمير	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	أبو الحسين معز الدولة أحمد بن بويه	٣٣٤هـ	٣٥٦هـ
٢	أبو منصور عز الدولة بختيار بن أحمد	٣٥٦هـ	٣٦٧هـ
٣	أبو شجاع عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن	٣٦٧هـ	٣٧٢هـ
٤	أبو طاليجار صمصام الدولة مرزبان بن عضد الدولة فنا خسرو	٣٧٢هـ	٣٧٦هـ
٥	أبو الفوارس شرف الدولة شرزيل بن عضد الدولة	٣٧٦هـ	٣٧٩هـ
٦	أبو نصر بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة	٣٧٩هـ	٤٠٣هـ

م	الأمير	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
٧	أبو شجاع شرف الدولة فناخسرو بن بهاء الدولة	٤٠٣هـ	٤١٢هـ
٨	أبو علي مشرف الدولة الحسن بن بهاء الدولة فيروز	٤١٢هـ	٤١٦هـ
٩	أبو طاهر جلال الدولة شيرزيل بن بهاء الدولة فيروز	٤١٦هـ	٤٣٥هـ
١٠	أبو كاليجار عماد الدين مرزبان بن سلطان الدولة أبو شجاع	٤٣٥هـ	٤٤٠هـ
١١	أبو نصر الملك الرحيم خسرو فيروز بن عماد الدين مرزبان	٤٤٠هـ	٤٤٧هـ (دخول السلاجقة بغداد)

سلاجقة فارس والعراق

م	السلطان	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	أبو طالب ركن الدين طغرل الأول محمد بن ميكائيل بن سلجوق	٤٣١هـ	٤٥٥هـ
٢	جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق	٤٣١هـ	٤٥٥هـ (من قبل طغرلبك على فارس)
٣	أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن حغري بك	٤٥٥هـ	٤٦٥هـ
٤	أبو الفتح جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان	٤٦٥هـ	٤٨٥هـ
٥	ناصر الدنيا والدين محمود بن ملكشاه	٤٨٥هـ	٤٨٧هـ
٦	أبو المظفر ركن الدنيا والدين بركياروق بن ملكشاه	٤٨٧هـ	٤٩٨هـ
٧	ملكشاه بن بركياروق	٤٩٨هـ	٤٩٨هـ (طفل صغير)
٨	أبو شجاع غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه	٤٩٨هـ	٥١١هـ
٩	أبو الحارث معز الدنيا والدين أحمد سنجر بن ملكشاه	٥١١هـ	٥٥٢هـ (سلطان سلاجقة خراسان كان سلطان العراق وفارس بصورة شكلية)
١٠	أبو القاسم مغيث الدنيا والدين محمود الثاني بن محمد بن ملكشاه	٥١١هـ	٥٢٥هـ
١١	أبو الفتح غياث الدنيا والدين داود بن محمود الثاني	٥٢٥هـ	٥٢٦هـ

م	السلطان	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١٢	ركن الدنيا والدين طغرل الثاني بن محمد الأول	٥٢٦هـ	٥٢٩هـ
١٣	أبو الفتح غياث الدنيا والدين مسعود بن محمد الأول	٥٢٩هـ	٥٤٧هـ
١٤	معين الدين والدنيا ملكشاه الثاني بن محمود الثاني	٥٤٧هـ	٥٤٨هـ
١٥	ركن الدنيا والدين محمد الثاني بن محمود الثاني	٥٤٨هـ	٥٥٤هـ
١٦	غياث الدنيا والدين سُليمان شاه بن محمد الأول	٥٥٥هـ	٥٥٦هـ
١٧	أبو المظفّر معز الدنيا والدين أرسلان شاه بن طغرل الثاني	٥٥٦هـ	٥٧١هـ تحت وصاية زوج أمه شمس الدين إلدكز
١٨	ركن الدنيا والدين طغرل الثالث بن أرسلان شاه	٥٧١هـ	٥٩٠هـ تحت وصاية أبناء إلدكز وأخيه، استولى الخوارزميون على دولته

سلاجقة الشام

م	الأمير	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	تاج الدولة أبو سعد تُتُش بن ألب أرسلان (في حلب)	٤٧٧هـ	٤٨٨هـ
٢	فخر الدولة رضوان بن تُتش (في حلب) - تاج الدولة ألب أرسلان الأخرس بن رضوان (من ٥٠٧هـ إلى ٥٠٨هـ) - سُلطانشاه بن رضوان (تحت الوصاية من بدر الدين لؤلؤ، من ٥٠٨هـ إلى ٥١١هـ)	٤٨٨هـ	٥٠٧هـ (رجعت إلى سيطرة سلاجقة العراق سنة ٥١١هـ)
٣	شمس الملوك أبو نصر دقّاق بن تُتش (في دمشق)	٤٨٨هـ	٤٩٧هـ (استولت عليها دولة آل بوري)

أتابكة دمشق (آل بوري)

م	الأتابك/الأمير	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	ظهير الدين طغتكين بن عبد الله أتابك دقاق بن تُتش	٤٩٧هـ	٥٢٢هـ
٢	تاج الملوك بوري بن طغتكين	٥٢٢هـ	٥٢٦هـ
٣	شمس الملوك إسماعيل بن بوري	٥٢٦هـ	٥٢٩هـ
٤	شهاب الدين محمود بن بوري	٥٢٩هـ	٥٣٣هـ
٥	جمال الدين محمد بن بوري	٥٣٣هـ	٥٣٤هـ
٦	مجير الدين أبق بن محمد بن بوري	٥٣٤هـ	٥٤٩هـ (استولى نور الدين محمود على دمشق وأخرجه منها إلى حمص)

الزنكيون

م	أتابكة الموصل	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	عماد الدين زنكي بن آقسنقر	٥١٦هـ	٥٤١هـ
٢	سيف الدين غازي الأول بن زنكي	٥٤١هـ	٥٤٤هـ
٣	قطب الدين مودود بن زنكي	٥٤٤هـ	٥٦٤هـ
٤	سيف الدين غازي الثاني بن مودود	٥٦٤هـ	٥٧٢هـ
٥	عز الدين مسعود الأول بن مودود	٥٧٢هـ	٥٨٩هـ
٦	نور الدين أرسلان شاه الأول بن مسعود	٥٨٩هـ	٦٠٧هـ
٧	عز الدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه الملك القاهر	٦٠٧هـ	٦١٥هـ
٨	نور الدين أرسلان شاه الثاني بن مسعود الثاني	٦١٥هـ	٦١٦هـ
٩	الملك القاهر ناصر الدين محمود بن مسعود الثاني	٦١٦هـ	٦٣١هـ (قتله وزيره بدر الدين لؤلؤ)

م	أتابكة الشام (العاصمة دمشق ثم حلب)	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع
١	نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي	٥٤١هـ	٥٦٩هـ
٢	الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود	٥٦٩هـ	٥٧٩هـ (السيادة الأيوبية)

الأيوبيون (في مصر ودمشق)

م	الأيوبيون في مصر	سنة الحكم	سنة الوفاة/الخلع	ملاحظات
١	صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب	٥٦٩هـ	٥٨٩هـ	
٢	الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف	٥٨٩هـ	٥٩٥هـ	
٣	الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان	٥٩٥هـ	٥٩٦هـ	عمره ٩ سنوات، كان متولي الأمر له الأتابك بهاء الدين قراقوش
٤	أبو بكر الملك العادل أحمد بن أيوب	٥٩٦هـ	٦١٥هـ	مع إمارته للشام
٥	الملك الكامل محمد بن الملك العادل أحمد	٦١٥هـ	٦٣٥هـ	مع إمارته للشام
٦	الملك العادل الثاني أبو بكر بن الملك الكامل	٦٣٥هـ	٦٣٧هـ	مع إمارته للشام/ خُلع
٧	الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد	٦٣٧هـ	٦٤٧هـ	مع إمارته للشام
٨	الملك المعظّم تورانشاه بن الملك الصالح	٦٤٧هـ	٦٤٨هـ	قتله مماليك أبيه الصالح بعد شهرين

م	الأيوبيون في الشام	سنة الحكم	سنة الوفاة/ الخلع	ملاحظات
١	الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف	٥٨٢هـ	٥٩٢هـ	
٢	الملك العادل أحمد بن أيوب	٥٩٢هـ	٦١٥هـ	مصر والشام
٣	الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل أحمد	٦١٥هـ	٦٢٤هـ	



م	الأيوبيون في الشام	سنة الحكم	سنة الوفاة/ الخلع	ملاحظات
٤	الملك الناصر داود بن الملك المعظّم عيسى	٦٢٤هـ	٦٢٦هـ	
٥	الملك الأشرف موسى بن الملك العادل	٦٢٦هـ	٦٣٥هـ	
٦	الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل	٦٣٥هـ	٦٣٥هـ	
٧	الملك الكامل محمد بن الملك العادل	٦٣٥هـ	٦٣٥هـ	توفي بعد شهرين من إمارته للشام وكان أميرًا لمصر
٨	الملك العادل الثاني أبو بكر بن الملك الكامل	٦٣٥هـ	٦٣٦هـ	مع إمارته لمصر
٩	الملك الصالح الثاني نجم الدين أيوب بن الكامل محمد	٦٣٦هـ	٦٣٧هـ	مع إمارته لمصر
١٠	الملك الصالح إسماعيل بن الملك الكامل	٦٣٧هـ	٦٤٣هـ	مرة ثانية
١١	الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل	٦٤٣هـ	٦٤٧هـ	مرة ثانية
١٢	الملك المعظّم توران شاه بن نجم الدين أيوب	٦٤٧هـ	٦٤٨هـ	مع إمارته لمصر ثم مقتله
١٣	الملك الناصر الثاني يوسف بن الكامل	٦٤٨هـ	٦٥٨هـ	قتله هولاكو

الخوارزميون

م	السلطان	سنة الحكم	سنة الوفاة
١	غُرشاه أنوشتكين	٤٧٠هـ	٤٩٠هـ
٢	قطب الدين محمد بن أنوشتكين	٤٩٠هـ	٥٢١هـ
٣	آتسز بن محمد	٥٢١هـ	٥٥١هـ
٤	إيل أرسلان بن آتسز	٥٥١هـ	٥٦٨هـ
٥	سلطان شاه محمود بن إيل أرسلان	٥٦٨هـ	٥٨٩هـ

م	السلطان	سنة الحكم	سنة الوفاة
٦	أبو المظفر تَكَش بن إيل أرسلان	٥٨٩هـ	٥٩٦هـ
٧	علاء الدين محمد بن تكش	٥٩٦هـ	٦١٧هـ
٨	جلال الدين منكبرتي بن محمد	٦١٧هـ	٦٢٨هـ (قُتل بالقرب من آمد)

بنو مزْيَد أمراء الحِلّة (وسط العراق)

م	الأمير	سنة الحكم	سنة الوفاة
١	سند الدولة أبو الحسن علي الأول بن مزيد الأسدي	٤٠٣هـ	٤٠٨هـ
٢	نور الدولة أبو الأغرّ دبيس الأول بن علي الأول	٤٠٨هـ	٤٧٤هـ
٣	بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دبيس	٤٧٤هـ	٤٧٩هـ
٤	سيف الدولة صدقة الأول بن منصور	٤٧٩هـ	٥٠١هـ
٥	نور الدولة دبيس الثاني بن صدقة	٥٠١هـ	٥٢٩هـ
٦	سيف الدولة صدقة الثاني بن دبيس	٥٢٩هـ	٥٣٢هـ
٧	محمد بن دبيس الثاني	٥٣٢هـ	٥٤٠هـ
٨	علي الثاني بن دبيس الثاني	٥٤٠هـ	٥٤٥هـ (استيلاء العباسيين على الحلة ثم السلاجقة، ثم العباسيين)[١]
٩	مهلهل بن علي الثاني (تولى إمرة قبائل بني أسد بعد سقوط الحلة في يد السلاجقة لفترة)	٥٤٥هـ	
١٠	قضاء المستنجد على قبائل بني أسد بما فيهم بنو مزيد سنة ٥٥٨هـ		

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٣٧٩. وقد عنون لذلك بـ«وفاة عليّ بن دبيس وانقراض بني مزيد».

خاقانات المغول العظام

م	الخاقان[1]	سنة الحكم	سنة الوفاة	ملاحظات
١	جنكيز خان (تيموجين)	٦٠٣هـ	٦٢٤هـ	كان أول اجتماع لتوحيد القبائل المغولية سنة ٦٠٣هـ وقد ولد جنكيز خان سنة ٥٤٩هـ
٢	أوكتاي خان بن جنكيز خان	٦٢٤هـ	٦٣٩هـ	تولت تورا كينا أرملة أوكتاي الحكم من سنة ٦٣٩هـ حتى سنة ٦٤٤هـ
٣	كُيوك خان بن أوكتاي	٦٤٤هـ	٦٤٧هـ	
٤	منكو خان بن تولوي بن جنكيز خان[2]	٦٤٩هـ	٦٥٨هـ	كانت حملة المغول الكبرى بقيادة أخيه هولاكو قد خرجت من العاصمة المغولية سنة ٦٥١هـ وتم اجتياح الغرب فسقط الإسماعيلية الباطنية والعباسيون والأيوبيون ثم سرعان ما هُزم المغول على يد المماليك في فلسطين سنة ٦٥٨هـ في معركة عين جالوت الشهيرة.

(١) الخاقان: لقب لكل ملك من ملوك الترك. المعجم الوسيط ١/ ٢٤٨.

(٢) بوفاة كيوك خان انتقل زمام الدولة إلى شعبة أولاد تولوي بن جنكيز خان فتولى منكو بن تولوي العرش.





المصادر والمراجع

١- **إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة - مصر.

٢- **ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

٣- **ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل**، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند

٤- **ابن أبي يعلى**، أبو الحسين محمد بن محمد: **طبقات الحنابلة**، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة دار المعرفة - بيروت.

٥- **ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان**، ترجمة وتقديم أحمد محمد نادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٦- **ابن الأبار: إعتاب الكتاب**، تحقيق: د. صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م

٧- **ابن الأبار: الحلة السيراء**، حققه وعلق حواشيه: د. حسين مؤنس، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

٨- **ابن الأثير**، ضياء الدين: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة.

٩- **ابن الأثير**، عز الدين: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار الفكر - بيروت.

١٠- **ابن الأثير**، عز الدين: **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

١١- **ابن الأثير**، عز الدين: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

١٢- **ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

١٣- **ابن الجوزي: تلبيس إبليس**، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

١٤- **ابن الجوزي: صفة الصفوة**، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

١٥- **ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة**، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

١٦- **ابن الساعي: مختصر أخبار الخلفاء**، المطبعة الأميرية - بولاق، مصر، الطبعة الأولى ١٣٠٩هـ.

١٧- **ابن الصلاح**: **طبقات الفقهاء الشافعية،** تحقيق محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

١٨- **ابن الصيرفي**: **الإشارة فيمن نال الوزارة،** تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

١٩- **ابن الطقطقى**: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية،** تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٢٠- **ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية،** دار صادر – بيروت.

٢١- **ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية،** تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت.

٢٢- **ابن العبري: تاريخ الزمان،** ترجمة جان موريس فييه، دار المشرق – بيروت.

٢٣- **ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،** تصحيح وفهرسة: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، الحازمية، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

٢٤- **ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب،** تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.

٢٥- **ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب،** وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

٢٦- **ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب،** تحقيق: محمود الأرناءوط وعبد القادر الأرناءوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٢٧- **ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء،** تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

٢٨- **ابن الفقيه: البلدان** تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

٢٩- **ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة،** تحقيق بشّار عواد و عماد عبد السلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٣٠- **ابن الفوطي: مجمع الآداب في معجم الألقاب،** تحقيق محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد – طهران، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٣١- **ابن القلانسي: تاريخ دمشق،** تحقيق سهيل زكار، دار حسّان للطباعة والنشر – دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٣٢- **ابن القيم: أحكام أهل الذمة،** تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، رمادى للنشر، الدمام، السعودية.

٣٣- **ابن القيم: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان،** تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف – الرياض.

٣٤- **ابن المعتز: طبقات الشعراء،** تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٣٥- **ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد،** تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.

٣٦- **ابن النديم: الفهرست،** تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٣٧- **ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

٣٨- **ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

٣٩- **ابن تغري بردي: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة**، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م.

٤٠- **ابن تيمية: مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.

٤١- **ابن تيمية: مسألة في الكنائس**، تحقيق علي عبد العزيز الشبل، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٤٢- **ابن تيمية: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – السعودية، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٤٣- **ابن جبير: رحلة ابن جبير**، دار ومكتبة الهلال – بيروت.

٤٤- **ابن حبان: الثقات**، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

٤٥- **ابن حبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

٤٦- **ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار أعلام فقهاء الأقطار**، تحقيق: مرزوق علي ابراهيم، الطبعة الأولى، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١١ه = ١٩٩١م.

٤٧- **ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ.

٤٨- **ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

٤٩- **ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٥٠- **ابن حجر العسقلاني: نزهة الألباب في الألقاب**، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

٥١- **ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل**، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٥٢- **ابن حزم: رسائل ابن حزم**، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٥٣- **ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون**، دار احياء التراث العربي، بيروت.

٥٤- **ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٥٥- **ابن دريد: الاشتقاق**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م

٥٦- **ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة**، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

٥٧- **ابن سعد: الطبقات الكبرى** (القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم)، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ.

٥٨- **ابن سعد: الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت.

٥٩- **ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات**، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

٦٠- **ابن شدّاد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

٦١- **ابن شمائل البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، دار الجيل – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٦٢- **ابن طيفور: كتاب بغداد**، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٦٣- **ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة**، تحقيق: د. عصام هزايمة وآخرون، دار الكندي، أربد، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٦٤- **ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٦٥- **ابن عبد البر: الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٦- **ابن عبد البر: جامع بيان العلم**، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٦٧- **ابن عبد ربه: العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٦٨- **ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ج. س. كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة – بيروت، لبنان.

٦٩- **ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

٧٠- **ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٧١- **ابن فندق: تاريخ بيهق**، تعريب وتحقيق: يوسف الهادي، دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ.

٧٢- **ابن قتيبة: المعارف**، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.

٧٣- **ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث**، المكتب الاسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

٧٤- **ابن قتيبة: عيون الأخبار**، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

٧٥- **ابن كثير: البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر – السعودية، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٧٦- **ابن كثير: البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٧٧- **ابن ماجه: سنن ابن ماجه،** تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٧٨- **ابن ماكولا: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب** ، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ.

٧٩- **ابن مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم،** تحقيق: أبو القاسم إمامي، سروش، طهران، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م. [وهو يشمل أيضا: ذيل تجارب الأمم للوزير أبي شجاع ثم قطعة من تاريخ هلال بن المحسن الصابئ]

٨٠- **ابن نباتة: سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون،** مطبعة الموسوعات، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٢١ هـ.

٨١- **ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)،** تحقيق أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز (مطبوعات مجمع اللغة العربية) – دمشق.

٨٢- **ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،** حقق بعض أجزائه جمال الدين الشيال، وحقق البعض الآخر سعيد عبد الفتاح عاشور وحسنين محمد ربيع – القاهرة ١٩٥٣م، ١٩٧٢م.

٨٣- **أبو العرب التميمي: المحن،** تحقيق: د. عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

٨٤- **أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر،** المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى.

٨٥- **أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني،** تحقيق: سمير جابر، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية.

٨٦- **أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين،** تحقيق: د. السيد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت.

٨٧- **أبو الفيض الغساني: أخبار وحكايات،** تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، بيروت.

٨٨- **أبو القاسم الزجاجي: أخبار أبي القاسم الزجاجي،** تحقيق: د. عبد الحسين المبارك، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٠م.

٨٩- **أبو بكر الأنباري: الزاهر في معاني كلمات الناس،** تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٩٠- **أبو تمام: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي،** تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

٩١- **أبو جعفر البغدادي: المحبر،** تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٩٢- **أبو حامد الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك،** ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م.

٩٣- **أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية،** تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

٩٤- **أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية،** تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٩٥- **أبو نعيم الأصفهاني: أخبار أصبهان،** تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.

٩٦- **أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٩٧- **أبو يوسف: الخراج**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة.

٩٨- **الأتليدي: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس**، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

٩٩- **أحمد بن حنبل: المسند**، مؤسسة قرطبة – القاهرة.

١٠٠- **آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة.

١٠١- **إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي**، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

١٠٢- **الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**، مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس، ١٨٨٥م.

١٠٣- **أرمنيوس فامبري: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر**، ترجمة أحمد محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق – القاهرة.

١٠٤- **الأزدي: تاريخ الموصل**، تحقيق: د. علي حبيبة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م.

١٠٥- **الأزهري: تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٠٦- **الإسفراييني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

١٠٧- **إسماعيل البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٠٨- **الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، عناية: هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، فيسبادن، ألمانيا، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

١٠٩- **الاصطخري: المسالك والممالك**، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.

١١٠- **الأصفهاني: البرق الشامي**، تحقيق فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان – الأردن، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

١١١- **الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق**، مطبعة الموسوعات – القاهرة ١٩٠٠م.

١١٢- **الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق**، تحقيق يحيى مراد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

١١٣- **الألباني: السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف - الرياض.

١١٤- **أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، تفسير جديد**، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.



١١٥ – **البخاري: الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

١١٦ – **البزار: البحر الزخار المسمى بمسند البزار**، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

١١٧ – **بشار بن برد: ديوان بشار بن برد**، بعناية: محمد الطاهر بن عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦م.

١١٨ – **البغوي: معجم الصحابة**، تحقيق: صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ١٤١٨هـ.

١١٩ – **البلاذري: أنساب الأشراف**، تحقيق: د. عبد العزيز الدوري، بيروت، جمعية المستشرقين الألمانية، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

١٢٠ – **البلاذري: فتوح البلدان**، تحقيق: صلاح الدين المنجر، لجنة البيان العربي، القاهرة.

١٢١ – **البلوي: سيرة أحمد بن طولون**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

١٢٢ – **البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر**، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ.

١٢٣ – **البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة**، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ. ص١٩٦.

١٢٤ – **البيهقي: السنن الكبرى**، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

١٢٥ – **تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

١٢٦ – **تاج الدين اليماني: بهجة الزمن في تاريخ اليمن**، تحقيق: د. مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

١٢٧ – **الترمذي: الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٢٨ – **التنوخي: الفرج بعد الشدة**، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

١٢٩ – **الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ =١٩٨٣م.

١٣٠ – **الجاحظ: البيان والتبيين**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٣١ – **الجاحظ: الرسائل السياسية**، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

١٣٢ – **الجاحظ: رسائل الجاحظ**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.

١٣٣ – **الجاحظ: كتاب الحيوان**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

١٣٤ – **جاك ريسلر: الحضارة العربية**، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١٣٥ – **الجهشياري: الوزراء والكتاب**، المكتبة العربية، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م.

١٣٦ – **جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم** ترجمة عبد العزيز عتيق، دار المعارف – القاهرة، ١٩٥٨م.

١٣٧ – **جوستاف لوبون: حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٣٨ – **الجوهري: الصحاح**، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.

١٣٩ – **حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول**، غزو جنكيزخان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية، دار الفكر العربي – ١٩٤٩م.

١٤٠ – **الحاكم: المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ =١٩٩٠م.

١٤١ – **حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي**، دار الجيل – بيروت، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٦م.

١٤٢ – **الحمادي: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة**، تحقيق: د. محمد زينهم محمد عزب، دار الصحوة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

١٤٣ – **الحميدي: الذهب المسبوك في وعظ الملوك**، تحقيق: عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ود. عبد الحليم عويس، عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

١٤٤ – **الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني – صنعاء، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

١٤٥ – **الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد**، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٦ – **خليفة بن خياط: الطبقات**، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

١٤٧ – **الخليل بن أحمد: كتاب العين**، مؤسسة دار الهجرة، إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ.

١٤٨ – **د. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

١٤٩ – **د. إحسان عباس: العرب في صقلية**، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.

١٥٠ – **د. إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة**، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

١٥١ – **د. أحمد الشامي: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١٥٢ – **د. أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي**، دار النهضة العربية، بيروت،

١٥٣ – **د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٥م.

١٥٤ – **د. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٣م.

١٥٥ – **د. أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي**، جامعة دمشق.

١٥٦ – **د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الجيل – بيروت، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.



١٥٧ – **د. حسن أحمد محمود ود. أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الخامسة.

١٥٨ – **د. حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي** – مقاطعة فارس، الدار الجامعية، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

١٥٩ – **د. حسين عطوان: الدعوة العباسية مبادئ وأساليب**، دار الجيل، بيروت، ص٩٣.

١٦٠ – **د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

١٦١ – **د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس**، الهيئة العامة للكتاب (طبعة مكتبة الأسرة)، القاهرة، ٢٠٠٤ م.

١٦٢ – **د. خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى.

١٦٣ – **د. سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية**، دار الفكر، بيروت.

١٦٤ – **د. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

١٦٥ – **د. شوقي أبو ضيف: العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة والعشرين، ٢٠٠٣م.

١٦٦ – **د. شوقي ضيف: الأدب العربي في العصر العباسي الأول**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة، ٢٠٠٤م.

١٦٧ – **د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني**، دار المعارف، الطبعة الثانية عشرة، القاهرة، ٢٠٠١م.

١٦٨ – **د. صالح العلي: معالم بغداد الإدارية والعمرانية**، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

١٦٩ – **د. صبحي عبد المنعم: تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح الإسلامي وحتى عهد الأيوبيين**، دار العربي، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٧٠ – **د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.

١٧١ – **د. عبد العزيز الدوري: أوراق في التاريخ والحضارة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

١٧٢ – **د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة**، مطبعة السريان، بغداد، ١٩٤٥م.

١٧٣ – **د. عبد العزيز جمال الدين: تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠١٢م.

١٧٤ – **د. عبد المجيد الصغير: المعرفة والسلطة في التجربة الإسلامية**، الهيئة العامة المصرية للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠١٠ م.

١٧٥ – **د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية**، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، فبراير ٢٠٠٩م.

١٧٦ – د. **عصام الدين الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م.

١٧٧ – د. **علي الصّلابي: الأيوبيون بعد صلاح الدين**، دار المعرفة – بيروت.

١٧٨ – د. **علي الصلابي: الدولة الأموية**، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

١٧٩ – د. **علي الصّلابي: الدولة الزنكية**، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

١٨٠ – د. **علي الصلابي: الدولة الفاطمية**، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

١٨١ – د. **علي الصّلابي: المغول بين الانتشار والانكسار**، الأندلس الجديدة – مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

١٨٢ – د. **علي الصّلابي: دولة السلاجقة**، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

١٨٣ – د. **علي الصّلابي: عماد الدين زنكي**، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

١٨٤ – د. **علي الصّلابي: نور الدين محمود زنكي**، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

١٨٥ – د. **علية الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة الإسلامية في العصور الوسطى**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

١٨٦ – د. **علية الجنزوري: الحروب الصليبية**؛ المقدمات السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

١٨٧ – د. **عمر عبد السلام تدمري: لبنان منذ قيام الدولة العباسية وحتى سقوط الدولة الإخشيدية**، جروس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

١٨٨ – د. **فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين**، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

١٨٩ – د. **فاروق عمر: الثورة العباسية**، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

١٩٠ – د. **فاروق عمر: الخلافة العباسية**، دار الشروق، الأردن، ٢٠٠٩.

١٩١ – د. **فاروق عمر: العباسيون الأوائل**، دار مجدلاوي، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

١٩٢ – د. **فاروق عمر: الهاشميون الأوائل**، دار مجدلاوي، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.

١٩٣ – د. **فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي**، دار المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٧م.

١٩٤ – د. **محمد رواس قلعجي ود. حامد قنيبي: معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٨ه = ١٩٨٨م.

١٩٥ – د. **محمد رواس قلعه جي: موسوعة فقه عمر بن الخطاب**، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ= ١٩٨١م.

١٩٦ – د. **محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام**، دار النفائس – بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٩م.

١٩٧ – د. **محمود عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٠م.

١٩٨ – د. **مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، المكتب الإسلامي، دار الوراق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٩٩- **معِن المقابلة: الوزير عون الدين بن هبيرة ودوره في مساندة الخلافة العباسية في استعادة نفوذها الزمني**، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد الثامن عشر – السعودية ١٤٢٧هـ.

٢٠٠- **د. نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني**، دار الشروق، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

٢٠١- **د. وفاء محمد علي: الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر.

٢٠٢- **دومينيك سورديل: الإسلام، العقيدة.. السياسة.. الحضارة**، ترجمة: د. علي مقلد، دار التنوير، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٢٠٣- **دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها**، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، دار الكتاب المصري – القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٢٠٤- **الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس**، دار صادر – بيروت.

٢٠٥- **الدينوري: الأخبار الطوال**، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: د. جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربي – عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ م

٢٠٦- **الذهبي: العبر في خبر من غبر**، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠٧- **الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٢٠٨- **الذهبي: تاريخ الإسلام**، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي

٢٠٩- **الذهبي: تذكرة الحفاظ**، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

٢١٠- **الذهبي: سير أعلام النبلاء** تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.

٢١١- **الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م.

٢١٢- **الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

٢١٣- **رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ**، ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي وشركاه – القاهرة.

٢١٤- **زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى**: بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي.

٢١٥- **الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس**، دار ابن حزم - بيروت.

٢١٦- **الزبير بن بكار: نسب قريش**، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٢١٧- **الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات**، تحقيق: د. سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

٢١٨- **الزركلي: موسوعة الأعلام**، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

٢١٩- **زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة**، ترجمه: زكي محمد حسن وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

٢٢٠- **سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، تحقيق مسفر بن سالم الغامدي، رسالة دكتوراة - جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٩٨٧م.

٢٢١- **سليمان العودة: كيف دخل التتر بلاد المسلمين**، دار طيبة - الطبعة الثانية ٢٠٠١م.

٢٢٢- **السمعاني: الأنساب**، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م.

٢٢٣- **سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب**، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

٢٢٤- **السيوطي: تاريخ الخلفاء**، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

٢٢٥- **السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

٢٢٦- **الشابشتي: الديارات**، تحقيق: كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٢٢٧- **الشهرستاني: الملل والنحل**، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي.

٢٢٨- **الصابي: تاريخ هلال بن المحسن الصابي**، نشر مع ذيل تجارب الأمم، تحقيق: هـ. ف. امدروز ود. س. مرجليوث، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٢٢٩- **الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة الأعيان.

٢٣٠- **الصابي: رسوم دار الخلافة**، تحقيق: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

٢٣١- **صالح سليمان الوشمي: أبو مسلم الخراساني**، نادي القصيم الأدبي، بريدة، السعودية، ١٤٠٠هـ.

٢٣٢- **صدر الدين الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية**، منشورات كلية فنجاب - لاهور ١٩٣٣م.

٢٣٣- **الصفدي: الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناءوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

٢٣٤- **الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، تحقيق: ج هيورث دن، مطبعة الصاوي، مصر، ١٩٣٥م.

٢٣٥- **الطبري: تاريخ الطبري**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.

٢٣٦- **الطرطوشي: سراج الملوك** - مصر ١٨٧٢م.

٢٣٧ – **عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية**، ترجمة وتعليق د. علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٩م.

٢٣٨ – **عبّاس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين**، مطبعة بغداد – بغداد ١٩٣٥م.

٢٣٩ – **عبد الرحمن على الحجي: التاريخ الأندلسي**، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٢٤٠ – **عبد العزيز الثعالبي: سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية**، تحقيق: حمدي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٢٤١ – **عبد القاهر البغدادي: الفَرق بين الفِرق**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.

٢٤٢ – **عريب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبري**، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت،

٢٤٣ – **العزيزي: المسالك والممالك**، جمع وتحقيق: تيسير خلف.

٢٤٤ – **العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٢٤٥ – **عفاف سيد صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية**، دار الكتاب الجامعي – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٢٤٦ – **عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٤٧ – **عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة السابعة ١٩٩٤م.

٢٤٨ – **العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق: د. أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٢٤٩ – **الغزّي: ديوان الإسلام**، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٢٥٠ – **فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري**، دار الكتاب العربي، القاهرة.

٢٥١ – **الفسوي: المعرفة والتاريخ**، تحقيق: د. أكرم العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ= ١٩٨١م.

٢٥٢ – **فؤاد الصياد: المغول في التاريخ**، دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨٠م.

٢٥٣ – **الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب**: القاموس المحيط، مطبعة دار المأمون، الطبعة الرابعة، ١٣٥٧هـ.

٢٥٤ – **فيليب حتي: العرب تاريخ موجز**، دار العلم للملايين - بيروت، لبنان، ١٩٩١م.

٢٥٥ – **قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية**، ضمن منشورات سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٤٩ – الكويت ١٩٩٠م.

٢٥٦ – **قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة**، دار الرشيد، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

٢٥٧ – **القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت.

٢٥٨- **القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

٢٥٩- **القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٦٠- **القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

٢٦١- **كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م.

٢٦٢- **كامل الغزّي: نهر الذهب في تاريخ حلب**، دار القلم - حلب، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.

٢٦٣- **الكندي: الولاة والقضاة**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٣م.

٢٦٤- **كوركيس عواد: خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة**، دار الرائد العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

٢٦٥- **مالك بن أنس: الموطأ**، تحقيق: د. تقي الدين الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩١ م.

٢٦٦- **الماوردي: الأحكام السلطانية**، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة.

٢٦٧- **المبرد: الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٢٦٨- **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، عدد ١٧، المحرم ١٤١٨ هـ / مايو ١٩٩٧م.

٢٦٩- **مجلة التاريخ العربي**، الرباط، المجلد السادس.

٢٧٠- **مجلة التراث العربي**، دمشق، العدد (٨٥) شوال ١٤٢٢ هـ = يناير ٢٠٠٢م.

٢٧١- **مجلة التراث العربي**، دمشق، يونيو، ١٩٨٢م.

٢٧٢- **مجلة التسامح**، عُمان، العدد (٤)، خريف ١٤٢٤ = ٢٠٠٠م.

٢٧٣- **مجلة المورد العراقية**، العدد (٢)، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩م.

٢٧٤- **مجلة جامعة أم القرى**، العدد (٢٠)

٢٧٥- **مجلة جامعة أم القرى**، العدد (٣٩)، ذو الحجة ١٤٢٧ ه.

٢٧٦- **مجموعة: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي**، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

٢٧٧- **مجموعة: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين**، دراسات مهداة من أصدقائه وتلاميذه، إشراف د. عبد الرحمن بدوي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م.

٢٧٨- **مجهول: أخبار الدولة العباسية**، تحقيق: د. عبد العزيز الدوري ود. عبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت.

٢٧٩- **مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم**، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني - القاهرة، وبيروت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م.

٢٨٠ – **مجهول: الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار و عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

٢٨١ – **مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، الطبعة القديمة، ١٨٧١م.

٢٨٢ – **مجير الدين العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، تحقيق عدنان يونس نباتة، مكتبة دنديس – عمّان.

٢٨٣ – **محمد إقبال: تطور الفكر الفلسفي في إيران**؛ إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة حسن محمود الشافعي ومحمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

٢٨٤ – **محمد الخضري: الدولة العباسية**، تحقيق: الشيخ محمد العثماني، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٢٨٥ – **محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، دار الغرب الإسلامي – الطبعة الثانية ١٩٩٢م.

٢٨٦ – **محمد جاسم حمّادي المشهداني: الخليفة المقتفي لأمر الله**، دار الشئون الثقافية العامة – بغداد، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٢٨٧ – **محمد رشيد رضا: الخلافة**، الزهراء للإعلام العربي – مصر.

٢٨٨ – **محمد طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري**، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

٢٨٩ – **محمد عبد العزيز الخضيري: المناظرة العجيبة**، دار الوطن، السعودية.

٢٩٠ – **محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة؛ تاريخهم السياسي والعسكري**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٢٩١ – **محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.

٢٩٢ – **محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس**، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠١م.

٢٩٣ – **محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام**، الناشر: حسين عنان، الطبعة الخامسة، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧م.

٢٩٤ – **محمد كرد علي: خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

٢٩٥ – **محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي**، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤١١هـ = ١٩٩١.

٢٩٦ – **مختار جبلي: حملات الغزو المغولي للشرق كما عاشها العلامة ابن أبي الحديد المدائني**، دار لارماتون – باريس ١٩٩٥م.

٢٩٧ – **مدونة المؤرِّخ** (http://melhamy.blogspot.com)

٢٩٨ – **مدونة ابن أيوب** (http:// ibnayob.blogspot.com)

٢٩٩ – **المزي: تهذيب الكمال**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

٣٠٠ – **المسعودي: التنبيه والإشراف**، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، الناشر: دار الصاوي، القاهرة.

٣٠١- **المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م.

٣٠٢- **المسعودي: مروج الذهب**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الخامسة ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م.

٣٠٣- **مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٠٤- **مصطفى بدر: محنة الإسلام الكبرى**، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٩م.

٣٠٥- **مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٣٠٦- **المطهر المقدسي: البدء والتاريخ**، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر.

٣٠٧- **المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١ه =١٩٩١ م.

٣٠٨- **المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٣٠٩- **المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث التابعة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة.

٣١٠- **المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٣١١- **المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

٣١٢- **المقريزي: رسائل المقريزي**، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ.

٣١٣- **المكين بن جرجس العميد: أخبار الأيوبيين**، مكتبة الثقافة الدينية – بورسعيد.

٣١٤- **موقع إسلام أون لاين**. نت www.islamonline.net

٣١٥- **موقع الصين باللغة العربية** (http://arabic.china.org.cn).

٣١٦- **موقع الموسوعة العربية العالمية** http://www.mawsoah.net

٣١٧- **موقع مركز المقريزي للدراسات التاريخية** http://www.almaqreze.net

٣١٨- **المؤيد في الدين الشيرازي: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري – القاهرة ١٩٤٩م.

٣١٩- **ناصر الدين الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق**، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب – القاهرة.

٣٢٠- **الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.

٣٢١- **النباهي: تاريخ قضاة الأندلس**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

٣٢٢- **النسائي: سنن النسائي الكبرى،** تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

٣٢٣- **النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي،** تحقيق حمدي أحمد حافظ، دار الفكر العربي.

٣٢٤- **نصير الدين الطوسي: تجريد العقائد،** تحقيق عباس سليمان، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٩٦م.

٣٢٥- **نظام الملك: سياست نامه،** تحقيق: يوسف حسين بكار، دار الثقافة، قطر، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

٣٢٦- **هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام،** تحرير وترجمة: مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٣٢٧- **هربرت جورج ويلز: موجز تاريخ العالم،** ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.

٣٢٨- **الهروي: ذم الكلام وأهله،** تحقيق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

٣٢٩- **الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري،** تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م.

٣٣٠- **و. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى،** ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٦م.

٣٣١- **ول ديورانت: قصة الحضارة،** ترجمة مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠١م.

٣٣٢- **اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان،** دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٣٣٣- **ياقوت الحموي: معجم البلدان،** دار الفكر، بيروت

٣٣٤- **اليعقوبي: البلدان،** دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.

٣٣٥- **اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي،** المكتبة المرتضوية، النجف الأشرف، العراق، ١٣٥٨هـ.

٣٣٦- **اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر،** تحقيق: محمد كمال عز الدين، عالم الكتب، القاهرة.

٣٣٧- **اليونيني: ذيل مرآة الزمان،** بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

٣٣٨- Georgr Finaly: History of the Byzantine Empire, William Blackwood and sons, Edinburdh, p317.

❊ ❊ ❊



الفهـــــــارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام


























فهرس الأعلام المترجم لها




فهرس الأماكن













فهرس الغزوات والمعارك

فهرس الشعر

محتويات الكتاب

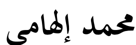
❋❋❋

المؤلفـــــان





محمد شعبان أيوب



محمد إلهامي

باحثان مصريان في التاريخ والحضارة الإسلامية.

صدر لهما:

- التأمل؛ كيف تصل إلى اليقين – محمد إلهامي (٢٠١٠)
- كيف ربى المسلمون أبناءهم – محمد شعبان أيوب (٢٠١١)
- بيري ريس؛ أمير الحرب والبحر – تأليف مشترك بينهما (٢٠١٣)

بالإضافة إلى مقالات ثابتة في العديد من الدوريات المصرية والعالمية، منها: مجلة الوعي الإسلامي (الكويت) وصحيفة القدس العربي (لندن) والمركز العربي للدراسات والبحوث (قطر) وشبكة رصد الإخبارية (مصر) وغيرها.

وقد اشترك الباحثان في أعمال بحثية فازت بجوائز عالمية أثناء عملهما تحت إشراف د. راغب السرجاني مثل:

- «**ماذا قدم المسلمون للعالم**» - جائزة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر ٢٠٠٩م
- «**من هو محمد ﷺ**» - جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسنة – مصر ٢٠١٠م.
- «**المشترك الإنساني بين الشعوب**» - جائزة يوسف كانو – البحرين ٢٠١٢م.
- «**البيئة في الإسلام: استثمار وحماية**» – جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود– ٢٠١٢م.